

الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي

تاريخ المدن

جمع وإعداد
عبد الرحمن دويب

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الخمسين لاستقلال الجزائر

الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي

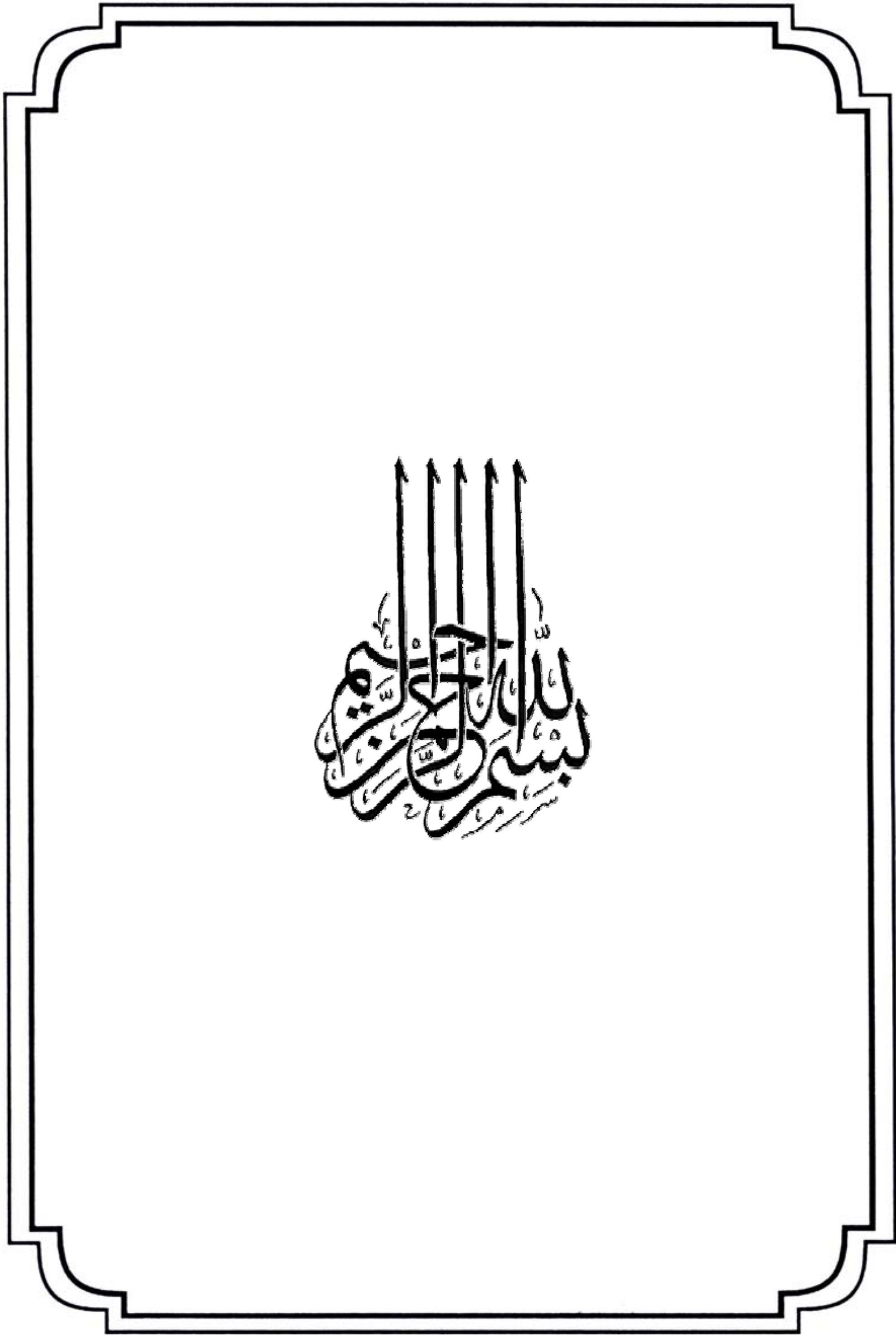
تاريخ المدن

جمع وإعداد

عبد الرحمن دويب

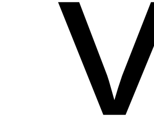
عالم المعرفة

للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي

تاريخ المدن



الطبعة الأولى

2013

الإيداع القانوني: 4290-2012

ردمك: ISBN 978-9947-912-44-7

عالم المعرفة
للنشر والتوزيع

حي باحة 02، فيلا رقم 07، تماريس المحمدية / الجزائر

هاتف/ فاكس: 96 -92-21-021

البريد الإلكتروني: alemelmaarifa@yahoo.fr

الفصل الثاني
في تاريخ المدن


بسم الله الرحمن الرحيم

العيد الأَلفي للجزائر والمدية ومليانة وحياة مؤسسها بلقين بن زيري[1]

قبل أن أتعرَّض للحديث عن شخصية هذا البطل الفذ، الذي استطاع بما توفر لديه من عبقرية وشجاعة، أن يحقق انتصارات رائعة، ويوحد بلاد المغرب، ويكون دولة عظيمة دامت قرنين متتابعين، أحدثكم بإيجاز عن مكانة هذه الدولة التي تكونت من أفراد قبيلة بربرية لها مكانتها في التاريخ.

كان لهذه الدولة صلة بتاريخ البلاد قبل الإسلام وبعده، إذ مما لا شك فيه أن معظم القبائل البربرية التي استوطنت الجزائر، منذ عشرات القرون، تكونت منها إمارات ودول ساهمت في تغيير مجرى وجه التاريخ البشري العالمي، وأثرت في مصيره، وذلك أنه لما اندلعت الحروب بين دولتي العالم العظيمتين إذ ذاك: قرطاجنة ورومة، حوالي القرن الثالث قبل المسيح، وانتقلت رحاها من أوروبا إلى الشمال الإفريقي، كان لأمراء البربر الدور الحاسم في ترجيح إحدى الكفتين، إذ هم الذين أمدوها بالرجال والعتاد، وعلى سبيل المثال نذكر أن الملك البربري سيفاكس (Syphax) جند ستين ألف مقاتل لمحاربة سيبيون (Scipion) المشهور بالإفريقي، والملك **يوبا الأول** (Yuba 1[er]) جند ثلاثين ألف فارس لمحاربة الملك الروماني سيزار (Cesar).

---

(1) ملتقيات الفكر الإسلامي السادس 1972م، الجزائر، ج1، ص349-371، كما اعتمدنا على نسخة مرقونة وزِّعت على الحاضرين في ذلك الملتقى، وعلى صورة من نسخة الملتقى المطبوعة وبها تعليقات وتصويبات بخطِّ الشَّيخ المهدي (رحمه الله تعالى).

وقد اشتهر مِن قادة البربر ملوك عظام، ورؤساء أبطال، وإن كان الكثير منهم اعترف بالتبعية لـ: **قرطاجنة** أو لـ: **رومة**، إلا أنهم كانوا مستقلِّين في تصرُّفاتهم الداخلية، كـ: ماسنيسا (Massinissa)، وميسيبسا (Micipsa)، ويوغرطة (Jugurtha) الذين حكموا مِن المحيط الأطلسي إلى **ليبيا**[1].

وفي عهد **روما** لما استولت على سواحل البلاد وتلولها، بقي جل القبائل محافظين باستقلالهم الداخلي، وكثيرا ما ثاروا على الحكومة المركزية، وضيقوا الخناق على مراكزها الاستعمارية، قال **ابن خلدون**: «ولما ملك الإفرنجة، بلاد البربر في ضواحيهم صاروا يؤدون لهم طاعة معروفة، وخراجا معروفا مؤقتا، يعسكرون معهم في حروبهم، ويمتنعون عليهم فيما سوى ذلك، حتى جاء الله بالإسلام».

أدرك الإسلام بعض هذه الإمارات بعد الفتح كمغراوة، وجراوة (قوم **الكاهنة**) وبني يفرن، فأقرَّ بعضها على الحكم، كمغراوة التي أسر زعيمها، وأرسل مع الأسرى إلى الخليفة عثمان بن عفان، فمن عليه بعد إسلامه، وأقره على حكم قبيلته.

إن كثيرا من أسماء هذه القبائل تغيرت، وكذلك بعض المواقع الجغرافية تبدلت، ولهذا فان بعض الاختصاصيين في البحوث التاريخية حاولوا أن يربطوا صلة أسماء هذه القبائل بعد الفتح، ومواقعها، بأسمائها ومواقعها القديمة، ومازالت الجهود مبذولة لإدراك هذا الهدف، تابعت هذه القبائل مجالات نشاطها، في ميادين الجهاد بعد دخولها في الإسلام، وأمكنها أن تثبت وجودها وحيويتها، وأن تضع بصماتها ـ على حد تعبير المعاصرين ـ على كثير من صفحات التاريخ الإِسلامي، بل التاريخ العالمي، نجد كثيرا من الباحثين في تاريخ هذه الفترة، خصوصا الأجانب منهم، يرون لزاما، ربطها بالتاريخ العالمي العام، لأن هذه الناحية لم تقتصر على إمداد الدولة الإسلامية الناشئة بالأبطال

(1) (الجزائر): لـ: ستيفان قزيل (**Stephane Gsell**).

الذين شاركوا في فتح بلاد الأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط فحسب، بل كان لهم الفضل في تطور الاقتصاد العالمي، والتقدم الحضاري، فبفضل موقعهم الجغرافي أمكنهم أن يتوسعوا في فتوحات بلاد الصحراء والسودان، ويكشفوا مراكز تجارة الذهب التي خططوا لها الطرق، ومهدوها للقوافل التجارية، تلك التجارة، التي اهتم بها تجار العالم الغربي والشرقي، وتدفق بسببها سيل القوافل البرية والبحرية، من مختلف الأجناس، على البلاد طيلة قرون، كما سنبين ذلك بمزيد من التفصيل في موضعه.

امتازت هذه الدولة أيضا أنها كانت صلة وصل، بين المشرق والمغرب، خصوصا بين المشرق وبلاد الأندلس رغم ما كان يسود علائق البلدين من توتر.

إن الاهتمام بآثار هذه الدولة في الميدان السياسي والاقتصادي، لا زال محل اعتناء الباحثين إلى زماننا هذا، من ذلك البحث القيم، الذي نشره أحد كبار المؤرخين في أواخر القرن الماضي، وبالضبط سنة 1878 في: (**المجلة التاريخية**) تحت عنوان (**معركة بواتي**(Poitiers) **والأسباب الحقيقية في توقف الاحتلال الإسلامي**)، أحدث هذا المقال هزة عنيفة في الأوساط العلمية، خصوصا وأن صاحبه من غلاة اليمين، أثبت هذا المؤرخ أن انسحاب الجيش الإسلامي من معركة بواتي، وقطع تتبع الفتوحات، لم يتسبب عن انتصار ملك فرنسا، شارل مارتيل فقط، كما هو مجمع عليه عند المؤرخين، بل هناك أسباب أخرى بينها، وبعدما نوقشت في (**جمعية البحوث التاريخية**) اعترف لصاحبها بصحة وجهة نظره، وسنتحدث عن ذلك بمزيد من التفصيل في ختام بحثنا، إذ له علاقة بالموضوع.

ولما كان مجال هذا البحث محدودا فإني سأكتفي بالإشارة إلى بعض النقاط الرئيسية، وأركز البحث عن بولوغين ودولته، ونبذة من مآثره حسب الترتيب المذكور في العنوان.

بلكين وبيئته:

هو **بلكين بن زيري بن مناد بن منقوش البلكاني الصنهاجي**، وقبيلة **صنهاجة** من أشهر وأقوى القبائل البربرية في **الجزائر**، كان موطنها بعد الفتح يشمل معظم تلول **الجزائر** بين **الأوراس** ومدينة **تنس**، وقد ذكر مؤرِّخهم **أبو الفضل ابن النحوي**[1] صاحب (**المنفرجة**) الشهير، أن بطونهم تنتهي إلى سبعين، والرياسة في ثلاث فرق: منها **بلكانة**[2] التي ينتمي لها **بولوغين**.

كانت **صنهاجة** قبيلة بدوية تسكن السهول والجبال إلا أنها مقيمة، لم يتحدَّث عنها التاريخ بجدَّة، في القرنَين التاليين للفتوحات، إلى أن ولي **مناد** جد **بولوغين** عند أمراء **الدولة الأغلبية** أواخر القرن الثالث الهجري، فظهرت نسبته إلى هذه القبيلة، وقيل سبق ذكرها في أوائل عهد **الدولة الرستمية** حيث انتصر لهم أحد رؤسائها، كان مناد سُنيًّا وزعيما دينيا، وبعد وفاته خلفه ولده **زيري** على رياسة قبيلته، اشتهر **زيري** بالفروسية والبطولة، وشنَّ الغارات على أعداء القبيلة مِن مغراوة، حيث كانت الحروب بينهم سجالا.

اتخذ **زيري** هذا حِصنا بـ: (**الجبل الأخضر**) جنوب مدينة **المدية** في أول عهده، ثم لما اشتهر أمره، وصادف ظهور **الدولة الفاطمية**، اتَّصل بثاني ملوكها **القائم بأمر الله**، فاعترفَ له برياسة قومه، وساعده على تأسيسِ وتوسيع أقطاعه بالجبل المذكور سنة 324هـ، وهذا الحصن هو الذي استحال إلى مدينة **أشير** الخالدة.

كانت **صنهاجة** متاخمة لقبيلة **كتامة**، التي كانت تحدُّها شرقا، ولقبيلة **مغراوة** الزناتية

---

(1) أبو الفضل ابن النحوي: هو يوسف بن محمد (433 ـ 513) دفين (قلعة بني حماد).

(2) بلكانة: هكذا أثبتها ابن خلدون في (ديوان العبر)، وأبو راس في (عجائب الأسفار)، والمستشرقون يكتبون: (تلكانة)، وتبعهم كتَّابنا المسلمون، وهو غلط وتصحيف.

التي تحدُّها غربا.

و**كتامة** هم إخوة **صنهاجة**، عرَّف موطنهم **ابن خلدون** بقوله: «يمتد من **دلس** غربا إلى **عنابة** شرقا إلى **الأوراس** جنوبا، وكانت لهم مدنهم: **بجاية، ايكجان، سطيف، باغاية، نقاوس، بلزمة، قسنطينة، القل**، و**جيجل**، وعد **ابن حزم** منهم **زواوة** بجميع بطونهم وهو الحق على ما تقدم، ولم يزالوا على هذه الحالة من لدن ظهور الملة وملك المغرب إلى دولة الأغالبة، ولم تكن الدولة تسومهم بهضمية، ولا ينالهم تعسُّف، لاعتزازهم بكثرة جموعهم كما ذكره **ابن الرقيق**».

أما **مغراوة** التي كانت تحد **صنهاجة** غربا فإن موطنها كان يمتدُّ مِن **مليانة** إلى **تلمسان** شمالا، وهي بعكس **صنهاجة** من القبائل الرُّحل، لعبت أدوارا هامة في تاريخ البلاد حيث أسَّست دولا بـ: **المغرب** و**ليبيا** و**الجزائر** مِن عهد الفتح الإسلامي إلى أوائل القرن التاسع.

أما تقسيم البلاد السياسي عند ظهور **دولة بولوغين** فكان على ما يلي:

فالقطاع الوهراني وسهول **شلف** من القطاع الجزائري، كان يتقاسمها بقايا الأدارسة ومغراوة، وكانت **تاهرت** الرُّستمية، و**إمارة بني يفرن** بـ: **تلمسان** و**معسكر**، قريبتي العهد بالسقوط، على يد جوهر الصقلي قائد الفاطميين.

كانت إمارتا بني يفرن ومغراوة تعترفان بالولاء لملوك الأندلس، كما كانت علائق **الدولة الرُّستمية** بملوك الأندلس ودِّية، ولهذا أحدث سقوطها وتوغل **جوهر** في غزواته على المغرب الأقصى أسوأ الأثر عند ملوك الأندلس، الذين أحسُّوا بالخطر، الذي كان يهدِّد دولتهم، فحرَّضوا أمراء **مغراوة** وأعانوهم على محاربة **الفاطميين**، وذلك في عهد الحكم الثاني **المستنصر بالله** سنة 350هـ.

استُؤنِفَت الحرب بينهما، وكانت خاتمتها المعركة الحاسمة، التي انهزم فيها جيش **مغراوة** على يد **بلكين** قائد الجيش الفاطمي، فقد الجيشُ **المغراوي** في هذه المعركة جل رؤسائه، منهم **محمد الخير بن خزر**، رئيس الدولة وقائد الجيش الذي انتحر في ساحة الوغى لما تيقَّن الهزيمة، وذلك سنة 360، بين تاهرت والبطحاء، خصص لهذه المعركة كثير من المؤرخين فصولا، تحدثوا فيها بتفصيل وسجلوا انطباعاتهم، حيث كانت سببا في القضاء على دولة مغراوة التي دامت بالجزائر ما يزيد على القرن، ووصفها ابن خلدون على عادته بعباراته البليغة منها « بَعُدَ العهدُ بمثلها» و«بقِيتْ عظامُهم ماثلة بمصرعهم عصورا»... الخ.

أسباب اختيار بلكين:

تساءل كثير من الباحثين، عن الأسباب التي جعلت الفاطميِّين يختارون بلكين، ويقدِّمونه على غيره، مِن قادة جيوشهم الكتاميِّين، المدينين لهم بإنشاء دولتهم، وبسط نفوذها، وبني حمدون مؤسِّسي مدينة المسيلة [1] الذين انتصروا للفاطميِّين مِن عهد عبيد الله المهدي مؤسِّس الدَّولة، أما بلكين ووالده، فالكلُّ يعلم أنهما لم يتعرَّفا بالفاطميِّين إلا في عهد حروبهم مع أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الخارجي، لما حاصرهم بالمهدية.

والجواب أن علائق كتامة بالفاطميين طرأ عليها التوتر، والضعف، وسوء الظن من الجانبين، بعد ما قتل الفاطميون أبا عبد الله الشعبي، ووصل بكتامة الأمر إلى أن حاولوا التمرد والثورة، وثاروا بالفعل.

كما أن بني حمدون رغم أنَّ أميرهم حينئذ جعفر بن علي كان أخا مِن الرِّضاع للخليفة المعزِّ لدين الله، وتربَّى معه بالمسيلة، ووقَف في حروبهم مَواقف بطولية،

---

(1) أسَّس عبيد الله المهدي المسيلة سنة 315، واتخذها مركزا للزَّاب بدلا مِن طبنة، والذي تولَّى بناءها وإمارتها حمدون علي، المشهور بـ: ابن الأندلسي، وورثها أبناؤه من بعده.

وشارك نفس زيري في معركة أبي يزيد وبليَ فيها البلاء الحسن، وقد سجَّلها شاعر بلاطه، ابن هاني في قصيدته الشَّهيرة التي افتتحها بقوله:

بــلى هــذه تــيهاء والايلــق الفــرد فسل أجمات الأسد ما فعل الأســد

كان زيري وابنه بلكين، بعد نيلهما تلك المكانة عند الفاطميين، غير مرتاحين لتصرفات جعفر بن علي بن الأندلسي، وذهب بعض المؤرخين إلى أن ذلك راجع للتنافس، وقد حاول المعز إصلاح ذات البين بين بلكين وجعفر إذ تربى معهما، فجمعهما مرارا عنده، إلا أنه لم يتوصل إلى نتيجة، وفي تلك الأثناء شاعت الاتهامات حول جعفر بأن له اتصالات مريبة بزناتة، وعيون ملك الأندلس، وقد تحققت هذه التهمة عندما التحق جعفر ببقايا جيش مغراوة المنهزم في طريقهم إلى المغرب، بعد أن تظاهر على أنه يقصد زيارة المعز بالقيروان، لم ينخدع زيري لإدعاء جعفر، وتحقق لديه أنه يريد التخلص من مراقبته ومراقبة ابنه، ليفلت من عواقب التهم الموجهة نحوه، ولهذا نصب له كمينا ليصده عن وجهته، فالتقى الجيشان، جيش زيري وجيش جعفر فهزم جيش زيري وقتل جعفر زيري بيده ثم حز رأسه وبعثه إلى ملك الأندلس أسوة بما فعله زيري برؤوس أمراء مغراوة الذين بعثهم إلى الخليفة المعز بالله الفاطمي بالقيروان.

إثر هذه الأحداث بقي بلكين في الميدان من دون مزاحم وقد روعي في اختياره أيضا، أنه كان يرأس جيشا برهن في حروبه المتعددة عن تضامنه وبطولته وطاعته المثالية لرئيس العشيرة، وكان الجيش الوحيد الذي هزم مغراوة كما تحقق الفاطميون أن جميع محاولات ملك الأندلس المختلفة الوسائل التي استعملها لإغراء زيري وكسب تأييده ارتطمت بإبائه وشهامته ووفائه.

بلغ نبأ هزيمة جيش زيري، وموته أثناء المعركة لولده بلكين، وهو بأشير، فبادر إلى تتبع آثار مغراوة وأنصارهم من قبائل زناتة، وقد اختلفت روايات المؤرخين فاخترنا من

بينها رواية ابن حيان الأندلسي[1] القريب العهد بتلك الأحداث الذي قال: «ووردت معد (المعز) النكبتان معا: فسادُ ابن الأندلسي وخلعه وهزيمةُ زيري وقتلُه، فاشتدَّ ذلك عليه وأقلقه، وقلد بلكين العملية معا، وأنجده بالمال والرجال، وأخرجه إلى المغرب في أول سنة 361 فأوغل في ديار زناتة، وقتل منهم في مواطن كثيرة خلقا لا يحصيهم إلا الله، واستولى على تاهرت والمسيلة وطبنة وباغلي وبجاية، وبسكرة وجميع المدن بالمغرب حتى لم يبق لزناتة في شيء منها أمر، ثم انثنى على بواديها وصحاريها ...الخ».

وقد وصف ابن خلدون هذه الحادثة بمزيد من الضبط والتوسع، وهي تختلف في بعض الجزئيات عن ابن حيان منها: أن بلكين مجرد ما وصله خبر موت والده التحق بمغراوة وزناتة ولم ينتظر إذن الخليفة وإنما عندما سمع المعز ما وقع (حمد عمله) وضم له ولاية الزاب خلفا لجعفر، بخلاف ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن جعفر جرد من عمله قبل الحادث، وقصد ابن حيان وغيره بالمغرب في هذه الواقعة المغرب الأوسط لا الأقصى، فبلقين انتقم من زناتة بعد موت أبيه بالتراب الجزائري ولم يذهب إلى المغرب الأقصى في الفترة التي تفصل بين انتصاره على مغراوة وتوليته الخلافة، أي ما بين سنة 360 و 362.

شخصية بلكين:

تولى بلكين خلافة المعز لدين الله بافريقية سنة 362، قال ابن خلدون: «واستقدمه السلطان لولاية افريقية بعد سنة إحدى وستين، ثم نهض السلطان إلى القاهرة واستخلفه، وقد لقبه بـ (سيف الدولة) وعرَّب اسمه بـ: (يوسف)، وكنَّاه: (أبا الفتوحات) وكانت كلُّها ألقابا في موضعها.

---

(1) أبو مروان ابن حيان القرطبي (377 ـ 469هـ)، نقل عنه صاحب: (مفاخر البربر).

اختار بلكين الإقامة بأشير عاصمة والده، وعشيرته بدلا من القيروان التي عين فيها كاتبه الخاص عاملا، وقد اعتنى بأشير فحصَّنها، بل أحدثَ فيها مدينة أخرى أو «**قصبة**»، وقد اضطربت أقوال المؤرِّخين، لما اطلعوا على أقوال بعض الرحالين القدامى، ينسبون بناء مدينة أشير لبلكين، والكل يعلم أن أشير بناها وأسسها والده زيري، حتى إن بعض الرحالين كانوا يعرفونها بـ: (**أشير زيري**)، وخلد هذه النسبة الشاعر السني بن عيشون حيث قال:

يــا أيهــا الســائل عــن غربنــا	وعــن محــل الفكــر أشــير
عــن دار فســق ظــالم أهلهــا	قد شيدت للإفك والـزور
أسَّســـها الملعـــون زيرهـــا	فلعنـــه الله عـــلى زيـــري

والحقيقة أنه اشتبه عليهم ما زاده بلكين من الإصلاحات والربض أو (**القصبة**)، وقد روى ابن الأثير أن بلكين لما غزا تاهرت وتلمسان التي حاصرها خرج إليه أهلها « فعفا عنهم إلا أنه نقلهم إلى مدينة أشير فبنو عندها مدينة سموها تلمسان »، ثم قال في موضع آخر: «ذهب بهم إلى أشير، فاستَهوَته ناحية بها عيون جارية، تستقي بها أرضها، فأسَّس مدينة **أشير**، وبقي معهم وذلك سنة 364هـ».

وقد تحققت هذه النظرية وزال اللبس عندما اكتشفت الأثريون أخيرا، آثار الحصن الذي بناه زيري، أول الأمر، لما كان رئيس عصابة ويسمَّى بـ: (عش العقاب)، ثم اكتشفوا أسفل منه، وبقربه: حصنا ثانيا، محاطا بآثار قرية متوسطة، وهو مدينة أشير، التي بناها زيري بعدما اتصل بالفاطميين واعترفوا له برياسة قومه، وهي ما يعرف الآن بأشير، وبالقرب منها بنحو الميل آثار مدينة مسورة، داخل سورها عيون جارية، وآثار بناءات متعددة، كانت تعرف قبل استقلال البلاد (ببنية)، وهي أشير بلكين.

اختار بلكين الإقامة بأشير طيلة مدة حكمه، ولم تستهوه قصور الفاطميين برقادة،

وصبرة، والمهدية، إذ كان بقدر اهتمامه بالقيام بواجباته كخليفة، وممثل لأعظم دولة عرفها التاريخ، كان يحافظ على زعامة عشيرته، التي يرى أنه مدين لها قبل كل أحد، بما وصل إليه، إذ كان شعاره الذي يتجلى على تصرفاته، أنه « ليس من الأمراء الذين يولون بكتاب أو يعزلون به »، وقد صرح بذلك حفيده المعز بن باديس علانية لوفد القيروان الذي زاره بأشير وقال له: «لا أشكر على هذا الملك إلا الله تعالى، ولست ممن يولى بكتاب أو يعزل بكتاب، لأني ورثته عن آبائي وأجدادي، وهم ورثوه عن أبائهم وأجدادهم».

اهتم بلكين طيلة مدة حكمه بشؤون قبيلته، فحافظ على تضامنها وتماسكها، كما أنه بنى صرح الدولة وركزه على قواعد متينة، لم يستهوه نعيم الملك ولا نشوة الانتصارات المتتابعة على أعدائه، فيخلد ككثير من الملوك والسلاطين إلى حياة الرفاهية والمتعة، بل ضرب عنها صفحا، وداوم على سيرة نشأته الأولى، متقشفا زاهدا، يقضي معظم أوقاته على صهوة جواده يجوب الفيافي والقفار، ويقاسم جيشه مرارة الحياة وحلوها « يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون»، لا يستبد عليهم برأي، ولا يقطع أمراً من أمور الدولة أو القبيلة إلا بعد مشاورتهم وموافقتهم، أدركه الموت وهو في وسطهم بعدما قضى معهم خمس سنوات في صراع مرير، مليء بالمفاجآت، بعيدا عن أهله.

أما سيرته وعلائقه مع الدولة المركزية، فإنه كذلك كان يراعي في تصرفاته ما يوجبه عليه منصب ممثل الخليفة الملتزم للتبعية الروحية الوفي المطيع لمن وضعوا فيه ثقتهم، وبقدر ما كان يتسامح ويتغافل عندما تتدخل الخلافة الفاطمية في شؤون دولته، كان يتصلب ويثور إن وصلت هذه التدخلات إلى الأمور الجوهرية، التي تمس مصلحة دولته، أو شرف منصبه، ومع هذا نجده يختار حلول اللين والحكمة، من ذلك أنه لما مات المعز لدين الله وخلفه ولده العزيز، الذي كان يتتبع بمزيد الحذر تطور حالة بلكين، ونمو دولته، بما زاده فيها بعد توغله في فتوحات بلاد المغرب الأقصى، كاتبه

ليرسل إليه ألف فارس، مع قادتها الذين عينهم بأسمائهم واحدا واحدا، أدرك بلكين مقصد الخليفة، فأجابه بجواب له مغزاه وأثره، إذ قال له: «إن وجودي كل هذه المدة بالمغرب، سببه أن ملك الأندلس ولى أمراء مغراوة وزناتة تحت قيادة جعفر بن علي ـ قاتل أبيه ـ على بلاد المغرب، واستولوا على كثير من الجهات التي كانت تابعة لنا، وقد تتبعتهم وفرقت جموعهم، إن جل قادة الجيش الذين ذكرتهم، وأمرتني بإرسالهم، هم عمدتي في هذه الغزاة، فإن كانت مصلحة الدولة تقتضي إرسالهم ولابد فإني سأرافقهم، إذ لا فائدة في بقائي بعدهم».

ثم واصل غزوته من دون التفات إلى أوامر الخليفة، كما برهن أنه لم يكن هدفه طيلة المدة التي قضاها بالمغرب، الانتقام الشخصي من جعفر قاتل أبيه ـ إذ إنه لما قتله المنصور بن أبي عامر الذي كان يشرف على المغرب إذ ذاك لأسباب، وبعث رأسه إلى بلكين ـ استرضاء ـ كما عبر عن ذلك صاحب (**البيان المغرب**)، لم يكترث به ولم يعره أدنى التِفات.

أمكن بلكين في هذه الغزوة التي لم يكن فيها معه إلا ستة آلاف فارس، أن يسترد جميع الجهات التي احتلها أمراء مغراوة وزناتة، بإعانة ملك الأندلس، وقد ألجأ بقيتهم إلى التحصن بسبتة، واستغاثتهم بملك الأندلس، الذي أرسل إليهم مددا ضخما، وجنَّد لإعانتهم جميع مجاهدي زناتة ومغراوة المرابطين في ثغور الأندلس، وعيَّن لهم أعظم وأشهر قادة المملكة الأندلسية، وهو المنصور بن أبي عامر. وصفَ هذا المعسكر ابن حيان فقال: «وجاء بلكين في بعض الأيام في جريدة من خيله حتى أشرف على معسكرهم أعلى جبل النور المطل على سبتة فعاين من معظم عسكره ـ أي: المنصور بن أبي عامر ـ واتصال مدد الأندلس وابيضاض مجرهم بانتظام الشرع من تلقائهم،ما هاله، فأسرَّ ذلك في نفسه ثم انصرف للتشاور مع أصحابه، فقال له أحدهم: «أرى أن تنصرف عن القوم، فقد أقمتهم بين البحر والسيف، ولا مهرب منهما، فسيقاتل كل منهم قِتال مستميت، وخلفك من قبائلهم وعشائرهم، مَن قد طويت الدِّيار دونه، فإن

انكسرت أطبقوا عليك، فعسر تخلُّصك، وإن ظهرتَ فبعدَ صَبر، يذهب فيه مَن يعز فقده من رجال، ولا يسدُّ مَوضِعه »، فأطرقَ بلكين طويلا، ثم دعا بالسيف فضرب عنقه، وقال: «خشيتُ أن يشيعَ رأيه في زناتة فتأخذَ به، وكرهتُ مع ذلك حياة مِثله».

كان بلكين أشد ما يمقت المثبِّطين، وقد روى ابن خلدون هذه الأحداث بمزيد من التفصيل والتوضيح، ولا يسعنا تتبُّعها.

دامت غزوة بلكين في المغرب، خمس سنوات متواصلة، حتى إن بريد الخلافة كان يصل إليه رأسا إلى المغرب، ثم يرسل إلى القيروان ـ قيل مِن سنة 368 إلى 373/ أو مِن سنة 367 إلى 372)، وعلى كلِّ حال فقد توفي في طريق رجوعه منها، بين سجلماسة وتلمسان، لأسباب يطولُ ذكرها.

نقتصر على هذا القدر من حياة هذا البطل الذي خلَّد له التاريخ صفحات العظمة والمجد والخلود، وجعله في مقدِّمة مصاف أبطال العالم وبناة الدُّول، ولا زال كبار المؤرِّخين و الباحثين يخصُّونه بالدِّراسات القيِّمة، ويرى الكثير منهم أنه مِن أعظم الملوك والأبطال، وأنَّ دولته أعظم الدُّول البربرية الإِسلامية.

وقبل أن نواصل الحديث عن مآثره، خصوصا البلدان التي أحدثها وأسسها في عهده والده: الجزائر والمدية ومليانة، سأذكر باختصار تطور حالة المملكة بعد وفاته إلى أن انقسمت إلى دولتين، ثم أتحدث عن قطع الصلة بين أحفاده وبين الخلفاء الفاطميين بالقاهرة.

المنصور بن بلكين:

خلف المنصور والده، إذ عينه في قيد حياته واليا لعهده، وأقره الخليفة العزيز الفاطمي على هذا التعيين، ولقبوه ـ على عادتهم ـ بعدة ألقاب: (أبا الفتح المنصور) (وعبد العزيز بالله)، إلا أن هذا الالتفات والتقدير لم يمنعاه من تتبع مناوراته أو

«الاستفزاز والكيد» حسب تعبير بعض المؤرِّخين ـ التي بدأها مع والده بلكين، إذ بمجرد ما نصب المنصور، بعث الخليفة أحد كبار قواده، باتفاق مع عامل القيروان إلى قبيلة كتامة ليهيئها للتمرد والثورة على المنصور، حيث كانوا رغم ما وقع بينهم وبين الخلفاء الفاطميين إثر إعدامهم لأبي عبد الله الشيعي ـ يرون أنهم أحق وأسبق من بلكين في منصب الخلافة بإفريقية، كان القائد الموفد من طرف الخليفة العزيز، هو أبو الفهم الخراساني الشيعي وكانت مهمته محاطة بالتستر والكتمان، وقد نجح فعلا، حيث أمكنه أن يكوِّن جيشا كامل العدة وتولى تسيير شؤون كتامة، وضرب السكة باسمه ...الخ، فلما بلغ الخبر إلى المنصور أعلم بدوره الخليفة العزيز، الذي أرسل إليه رسولين حملا معهما رسالة، يأمره فيها بأن لا يتعرض بسوء إلى أبي الفهم الثائر ولا إلى قبيلة كتامة، وإلا فإنه سيقاد مكبلا من عنقه إلى القاهرة، أمام هذه الوقاحة والتحدي جهز المنصور جيشه وقاد معه الرسولين وقصد كتامة بِميلة (مركزهم الحربي الرئيسي إذ ذاك) فهدم سورها واحتلها ثم لحق بجيش كتامة فكانت الملاقاة قرب سطيف فهزم جيشهم، ألقى القبض على القائد أبي الفهم فأعدمه، ثم قدم جثته «للعبيد» «فشرحوا لحمه وأكلوه» على ما ذكره جل المؤرِّخين، وكان كل ذلك بمحضر الرَّسولين الَّلذَين أوصاهما المنصور بأن يبلغا للخليفة ما شاهداه.

وموقف العزيز من المنصور في هذه الأحداث أنه كان يتيقَّن نجاح أبي الفهم في مهمَّته وأنه أمكنه أن يسيطر على الموقف حيث أطاعه أفراد القبيلة والتفُّوا حوله، كما أطاعوا داعيتهم السابق أبا عبد الله الشيعي، إلا أن التاريخ لا يعيد نفسه في كثير مِن الأحيان وبنو زيري يختلفون كثيرا عن الأغالبة، ثمَّ ذهب المنصور إلى القيروان فعزل عاملها عبد الله بن الكاتب وكل مَن ساعده مِن الإطارات في قضية أبي الفهم، وأقام بالقيروان بدلا من أشير التي صارت من ذلك العهد العاصمة الثانية للدولة.

إن إقامة المنصور بالقيروان إن مكنته من القبض على زمام شؤون الدولة وتسييرها بعد تطهيرها من جميع العناصر الموالية للعزيز الفاطمي، أفلتت من يده زمام قيادة العشيرة، وكانت النتيجة أن تآمر عليه بعض أعمامه وإخوته، وقد تغلب على إخماد نار ثورتهم بفضل إعانة أخيه حماد الذي استعمل في قمعهم منتهى الصرامة، حتى إنه لما قتل أحد إخوته المتمرِّدين، قدَّم جثَّته «للكِلاب»، بدلا مِن «العبيد» فكان جزاؤه أن عقد له المنصور على ولاية أشير وتاهرت، مات المنصور سنة 385هـ وخلفه ولده باديس.

باديس بن المنصور بن بلكين:

لما خلف باديس والده، أقر عمه حمادا على ولايته، وفي عهده رجع إلى الجزائر زيري بن عطية المغراوي أمير المغرب، بعد أن خلف أحد أقاربه، رجع زيري لأخذ ثأره من صنهاجة الذين قضوا على دولتهم، وقد أعانه على ذلك ملك الأندلس، فنزل بتنس، وأمكنه أن يحتل تلمسان فعندئذ جهز باديس جيشه وجعله تحت قيادة عمه فخاض معه معركة بوادي مينا قرب تاهرت، كان الحظ في صالح زيري بن عطية الذي ألجأ حماد إلى التَّحصُّن بأشير مدة، وحاصره بها، إلى أن اشتد عليه المرض، إثر الجروح التي أصابته في مختلف الحروب التي خاضها بالمغرب والأندلس والجزائر، فتوفي عند منصرفه سنة 390هـ، في أثناء هذا الحصار فكر حماد في تعزيز حصن أشير بحصن قريب من مواطن زناتة، فكان اختياره لحصن جبل كيانة [1] الذي صار فيها بعد **(قلعة بني حماد)**.

أسس حماد **(قلعته)** سنة 398هـ بإعانة ابن أخيه باديس، واختار لها موقع جبل كيانة الذي سبق أن لقي فيه حتفه أبو يزيد الخارجي سنة 336هـ حتى عرف بحصن

---

(1) (جبل كيانة): كثيرا ما يسمونه: (جبل كتامة)، وهو غلط كما هو موجود في (تاريخ ابن خلدون) طبعة بولاق، و(ديوان ابن هاني)، وكذلك نجد (بلكانة) يذكرها بعض الكتَّاب (تلكانة) مقلِّدين في ذلك المصادر الفرنسية.

أبي يزيد، وهو سفح الجبل وقد بني على أنقاض حصن قديم من عهد الرومان.

كانت القلعة في أول عهدها حصنا حربيا ثم استحالت في عهد أولاد حماد وأحفاده عاصمة ممتازة، كانت علائق باديس بعمه حماد حسنة جدا حيث جدَّد له ثقة أبيه المنصور، وأقره على ولاية أشير وتاهرت وأعانه على تأسيس **(القلعة)** وتوسيع الإمارة بما ضمه إليها بعد موت عطية بن زيري المغراوي، كما عينه خليفته وممثله بالقطاع الغربي كله.

ولما عين باديس أحد أولاده وليا لعهده ـ على العادة المتبعة إذ ذاك ـ ووافقه على التعيين الخليفة الفاطمي، لم يرض ذلك أفراد الأسرة، الذين ثاروا على باديس، وكان في مقدمتهم هذه المرة حماد، أعلن حماد ثورته على الخليفة الفاطمي وعلى باديس في آن واحد، فخلع طاعة الفاطميين، وانتقم من أنصارهم وأمر خطباء ولايته بلعنهم، ثم اتصل بالخليفة العباسي وقدم له ولاءه، وبادله الرسائل وصار خطباء مساجد الإمارة يدعون للخليفة العباسي بعد لعن الخليفة الفاطمي (ذكر المؤرخون أن هذه الرواية انفرد بها ابن خلدون دون بقية مؤرخي هذه الفترة الكثيرين).

أما إعلانه الثورة على ابن أخيه باديس فقد كان رد فعلها، ورود باديس على رأس جيشه واحتلاله لأشير ثم حصار حماد بالقلعة، وفي أثناء الحصار مات باديس فجأة، فمر الخطر الذي كان يهدد إمارة حماد، إذ قيل إن حماد كان على وشك الاستسلام.

احتفظ حماد بإمارة القلعة وسجل التاريخ انقسام دولة بني زيري التي كونها بلكين إلى قسمين من ذلك العهد، أي من سنة 406هـ .

انقسمت مملكة بني زيري، فكان قسمها الشرقي وقاعدته القيروان، يتداول على حكمه بنو باديس، والقسم الغربي وقاعدته **قلعة بني حماد**، ثم بجاية، يتوارثه بنوحماد، ثم مات باديس سنة 406هـ وخلفه ولده المعز بن باديس.

المعز بن باديس:

عندما تولى كان عمره ثمان سنوات وكفلته أمه (فنجحت باتِّفاق جلِّ المؤرِّخين)، سار المعز بن باديس على سنن سلفه، وفي عهده قطع الصلة نهائيا بالفاطميين وذلك سنة 433هـ ـ أي في عهد الخليفة أبي تميم معد المستنصر بالله ـ وكانت نهاية هذه الصلة خطبة عيد النحر بجامع القيروان لما لعن الخطيب الخلفاء الفاطميين من أعلى المنبر وقال: «الَّلهمَّ العَن الفسقة الكفار، والمارقين الفجار، أعداء الدين وأنصار الشيطان »، وختمها بالدعاء للخليفة العباسي، ثم أمر بضرب السكة، وقد عُثِر على دينار ذهبي، يرجع إلى ذلك العهد بمتحف برلين (مؤرَّخ في سنة 433ه) [1]، كما أمر المعز كبار الدولة باستبدال ثيابهم البيضاء باللباس الأسود في المواكب الرسمية، وإحراق بنود الفاطميين مما هو مذكور بتفصيل في كتب التاريخ المتداولة.

وهكذا انتهت التبعية الثقيلة، التي التزم بها بنو زيري للخلفاء الفاطميين وحافظوا عليها طيلة سبعين سنة، كانت هذه النهاية نتيجة حتمية، منتظرة برهنت على أن وسائل القمع والضغط التي استعملها الخليفة أبو القاسم القائم بأمر الله لفرض مذهب الشيعة لم تؤت ثمرتها المرجوة، كان أول رد فعل ثورة أبي يزيد التي أمكنه أن يخفي شخصيته ومذهبه في بدايتها فجلب جل السكان خصوصا الفقهاء المالكيين الذين كانوا يتزعمون المعارضة ومقاومة المذهب الشيعي منذ ظهوره، نجح أبو يزيد في ثورته التي ظهر فيها بمظهر المؤمن الصالح فاتبعها جميع عناصر السكان بقطع النظر عن خلافاتهم المذهبية وكان ختامها حصار المهدية الذي أشرف فيه الفاطميون على الاستسلام، لولا مدد زيري بن مناد ومواقف جيشه الباسل الذي أنقذهم.

(1) ذكر هذه الرواية الناصري في: (الاستقصاء).

نجحت **ثورة أبي يزيد** ولو لقي فيها حتفه، إذ استمرت المقاومة، وتوالت الانتفاضات التي كانت تجتاح البلاد المرة بعد المرة، في مختلف الجهات وهي وإن كانت تختلف قوة وضعفا فقد وصلت إلى نهايتها حيث قاطع السكان صلاة الجمعة بالمساجد الرئيسية التي كان الخطباء يدعون فيها للخلفاء الفاطميين، ومقاطعة صلاة الجمعة في ذلك العهد لها وزنها، وقد خصص هذا الحادث أي ثورة السكان ورفضهم للمذهب الشيعي بعدة تآليف.

بلكين ومآثره:

أسَّس بلكين في عهد والده وبأمر منه مدن: الجزائر والمدية، ومليانة، قال المؤرخ أبو راس[1] الناصري في حديثه عن زيري بن مناد: «واختط ابنه بلكين بأمر من أبيه الجزائر في وسط القرن الرابع وكانت قبل فيها أخصاص يسكنها بنو مزغنة، وكذلك اختط بلكين مليانة في خمس وخمسين من الرابع بإذن من أبيه أيضا، ولمدية في ذلك التاريخ أيضا وهذه المدن التي بنتها ملوك صنهاجة من أعظم مدن المغرب لهذا لعهد». وقال ابن خلدون: «وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط».

وقد علمنا أن بني مزغنة بطن من بطون صنهاجة كان موطنهم بالجزائر وضواحيها، ولازالت قبيلة تحمل هذا الاسم بنواحي تَابْلاَطْ (تبعد عن الجزائر بنحو 60 كلم)، وكانت بعض المزارع بسهول متيجة تسمَّى: (أحواش مزغنة) قبل الاحتلال الفرنسي. كان بنو مزغنة يتقاسمون حكم الجزائر ومتيجة مع إخوتهم الصنهاجيِّين (بني خليل)، و(بني جعد)، إلى أن اكتسحت قبيلة الثَّعالبة العربية في أوائل القرن السادس متيجة، بقيت ضواحي الجزائر تحتفظ إلى الآن ببقايا قبيلة (بني خليل وبني جعد) وحد

(1) محمد أبو راس الناصري (1165 ـ 1237): مؤرِّخ له عدَّة تأليف منها: (عجائب الأسفار).

صنهاجة قرب مدينة الأخضرية بولاية تيزي وزو.

كان موقع (**جزائر بني مزغنة**) على ما حققه الأثريون في سفح القصبة أي ساحة الشهداء والجامع الأعظم المالكي، إذ بنيت القرية على أنقاض المدينة الفينيقية التي أسسها هركول وأصحابه العشرون فردا وسميت «أقسيوم» الذي يدل باليونانية على عدد عشرين، إشارة إلى بناتها، كما ذكر المؤرخ اللاتيني صولان (المتوفى في القرن الثالث بعد المسيح وقد وصفها الإصطخري في أوائل القرن الرابع فقال: «وجزائر بني مزغنة مدينة عامرة، يحف بها طوائف من البربر، وهي من الخصب والسعة على غاية ما تكون المدن »، كما وصفها ابن حوقل عندما زارها في عهد بلكين، أي حوالي سنة 337هـ، فقال: «وجزائر بني مزغنة مدينة عليها سور في نحر البحر، وفيها أسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها، ولها بادية كبيرة، وجبال فيها قبائل من البربر كثرة وأكثر المواشي من البقر والغنم سائمة في الجبال، ولهم من العسل ما يجهز عنهم والسمن والتين ما يقع به وبغيره من هذه الأسباب الجهاز إلى القيروان وغيرها، ولهم جزيرة تحاذيها في البحر إذا نزل بهم عدو لجأوا إليها فكانوا بها في منعة وأمن، يقصد بالجزيرة (**برج الفنار**) المشهور عند الأوروبيين باسم بينون (Penon).

وعرفها البكري، وتعريفه عام شامل، حيث ذكر بتفصيل بعض الآثار القديمة التي بقيت تحتفظ بها ولم يتعرض لها من عرفها قبله، فقال: «قديمة البنيان، فيها آثار للأول، وآزاج محكمة، تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم، وصحن دار ملعب، قد فرش بحجارة ملونة صغار، مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة، لم يغيرها تقادم الزمان، ولا تعاقب القرون، وكانت بمدينة بني مزغنة كنيسة عظيمة، بقي بها جدار مدير من الشرق إلى الغرب، وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص، كثير النقوش والصور » أي: اتخذت ساحتها مصلى للعيدين.

وقال ابن خميس فيما نقله المؤرِّخ أبو راس وكان ذلك في أواخر القرن الرابع: «أعجبني بالمغرب مدينتان بثغرين وهران خزر، وجزائر بلكين (كانت تنسب لبلكين)، إذ ولاه أبوه نائبا عنه بولايتها حيث كانت قاعدة ولاية بني مزغنة، ذكر صاحب (**البيان المغرب**) أن أميرها (**حمزة بن إبراهيم**) ـ صاحب جزائر بني مزغنة ـ كان من جملة زوار الملك الناصر بقرطبة سنة 337هـ .كانت مدينة الجزائر تابعة (للقلعة)، ثم (لبجاية) بعد ما انقسمت دولة بني زيري، إلى عهد الموحدين، وفي أواخر القرن الخامس عندما هاجم الملك يوسف بن تاشفين اللمتوني الجزائر وحاصر أشير ـ وقيل احتلها ـ رد هجومه المنصور بن الناصر الحمادي إلى أن وصل إلى تلمسان، التي ترك يوسف بن تاشفين قريبه تاشفين بن محمد عاملا عليها، ولما احتل المنصور تلمسان وشرع جيشه في نهب المدينة خرجت إليه زوج العامل المذكور، وذكرته بأواصر القربى الصنهاجية، فأمر المنصور جيشه بالكف عن النهب والخروج من المدينة، وكان هذا سبب رجوعه من متابعة يوسف بن تاشفين الذي سبق لأحد أفراد ملوك بني حماد محاربته في أول عهده حتى احتل فاس، وهو بلكين بن محمد الذي خلفه الناصر بن علناس، مؤسس مدينة بجاية. وكثيرا ما اشتبه بلكين هذا بسميه مؤسس الدولة.

بقيت الجزائر تابعة لبجاية طيلة مدة تداول حكم الموحدين، وبعد انحلال الدولة، كانت تارة تخضع لبني زيان، وتارة لبني حفص، ثم لأمراء مازونة من بني منديل لما أحيوا إمارة مغراوة في أواخر القرن السادس، ثم لبني غانية، وكانت قبيلة الثعالبة التي استوطنت متيجة وأجلت منها قبائل صنهاجة هي التي تحكمها عند احتلال الأتراك، أي الأخوين عروج وخير الدين.

والحديث عن احتلال هذين الأخوين لعاصمة الجزائر المرتبط بتأسيس دولة الأتراك بالجزائر، واتخاذها عاصمة تعرض لها الباحثون منذ قرون، ولا زال لم ينضب معينه، ومع هذا بقيت بعض الجوانب كثيرا ما تحتاج إلى إثارتها لإنارة بعض الباحثين

وتذكيرهم، وتصحيح بعض الأخطاء، منها أن عروج وخير الدين احتلا الجزائر بطلب من أهلها ورضاهم، ولهذا قوبلا بالحفاوة والأفراح، مقابلة إخوة مسلمين جاءوا لإنقاذهم من خطر الصليبية، التي انتقلت حروبها من المشرق إلى المغرب.

ولنقتصر على تصحيح هذا الرأي، بروايات بعض المؤرخين المعاصرين لهذا الاحتلال، قال ابن عسكر في (**دوحة الناشر**) في ترجمة الزعيم الشهير أحمد بن القاضي الزواوي رئيس القبائل الكبرى بجبل كوكو، قال: «وهو كان السبب في دخول التركماني لمدينة الجزائر واستيطانهم عليها وعلى المغرب الأوسط إلى الآن، لحسن ظنه بهم ومحبته الجهاد في سبيل الله »، وقال صاحب (**الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة**) بعد أن حقَّق أن احتلال عروج وخير الدين لعاصمة الجزائر كان سنة 925هـ وأن أهلها أرسلوا إلى عروج وأخيه وهما بجيجل رسالة من جملة ما قالوا فيها: «أخذتم بجاية وجيجل من أيدي النصارى، ونصرتم الدين فهنيئا لكم أيها المجاهدون، ولا بد أن تقدموا إلينا لتخلصونا مِن أيدي هؤلاء الملاعين الكفرة، لأننا في محنة عظيمة وذل شديد »، وهناك وثائق أخرى تدل على أن عروج اتصل ببعض الشخصيات الدينية عندما كان يدخل بعض قرى الشواطئ متنكرا، ونجد أثر ذلك في قصيدة الشيخ التواتي التي خاطب فيها سكان وهران، وحذرهم قبل احتلال الاسبانيين للمدينة، وقال فيها:

أيا أهل وهران انظروا نظر شفقة ... لبلـدكم مـن قبـل أن تتردتـى

وقال:

ولا يحمي مرساكم ضعاف رجـالكم ... ولا البدو بل تحميه أهل الجزيـرة
فـإن لهـم بـالطعن والضـرب خـبرة ... وكم فتكـوا بـالكفر اكـبر فتكـة

...الخ.

قال صاحب (**الثغر الجماني**): «يقصد بأهل الجزيرة عروج وأخاه»، وقد وصف صاحب (**الثغر الجماني**) هذا مدينة الجزائر في عهد الأتراك فقال: «هي اليوم قاعدة ملك الأمراء العثمانيين في الغرب الأوسط، كانت تعرف بقلعة بني مزغنة، وهم من طوائف صنهاجة وحصنوها أتم تحصين، وأحاطوا بها من جميع جهاتها بالأسوار المنيعة، والأبراج الهائلة، وأناطوا بها المدافع الضخمة، فهي الآن بحيث لا تُنال ولا يطمع في أخذها إلا مَن يطمع في المحال».

استحالت الجزائر في عهد الأتراك إلى عاصمة المملكة وخططت حدودها التي بقيت إلى عهد الاحتلال الفرنسي، كما نظمت الإدارة رغم توالي وتسلسل هجومات الصليبيين، التي باءت كلها بالفشل طيلة ثلاثة قرون، عززت الجزائر مركزها، بعد أن انضمت إلى الخلافة العثمانية، فحصلت على اطمئنان السكان، ورضاهم وتأييدهم، بلغت قواتها البرية والبحرية، وهيمنتها على حوض البحر الأبيض ما خصص له المؤلفون على اختلاف أجناسهم مئات التآليف، وعلى سبيل المثال وتتميما لموضوع بحثنا نذكر أن غنائم الأسطول الجزائري بلغ في مدَّة ثمان سنوات ـ أي: من سنة 1613 إلى 1621م: (447) سفينة هولندية، (193) سفينة فرنسية، (56) سفينة ألمانية، (60) سفينة انكليزية، (120) سفينة إسبانية.

زيادة على ما أضاعوه في البحر، وفي شواطئ إسبانيا، وجزر ميورقة، وقد ألف صاحب (**الزهرة النائرة**) المذكور تأليفه لتسجيل هجوم القائد الشهير دوري الاسباني سنة 1189هـ، الذي حضره المؤلف وهو مشهور عند الجزائريِّين بـ: (**واقعة الحراش**)، وبهذه المناسبة سجَّل معظم الهجومات التي سبقته، كما تعرض لإحصاء هذه الهجومات صاحب (**الثغر الجماني**) وغيرهما من المؤرخين، وقد امتازت جل هذه الروايات بعدم المبالغة، حيث نجدها كثيرا ما تتَّفق مع روايات المؤرخين الأسبانيين والفرنسيين.

لم تكن الجزائر في الميدان العلمي والحضاري بأقل منها في الميدان الحربي، إذ كان ريع أحباسها وافرا ضخما ساعدها على تشجيع الثقافة ونشرها، وصف الجزائر في عهدها التركي كثير من الرحالين والسفراء والتجار والقسيسين والأسرى وهاجر منها كثير من العلماء والأدباء إلى المشرق والمغرب وتبادلوا التآليف والإجازات مع علمائها فكان مستواهم الثقافي في درجة واحدة مع علماء القطرين الشقيقين المغرب وتونس، ونفس المواد التي كانت تدرس ببعض معاهد الجزائر هي نفس مواد الدراسة بجامعتي القرويين والزيتونة، ولهذا لا نوافق من صوروا الجزائر في ذلك العهد بصورة تتنافى مع الواقع. ونلفت نظر المستمعين الذين يهمهم الاطلاع على تفاصيل بعض ما ذكرناه خصوصا في وفرة ريع الأحباس والتقدم الحضاري المتجلي في الفن المعماري أن يطلعوا على التآليف الخاصة بالأحباس والمعاهد لدفولكس المسمَّى: (**المعاهد الدينية بالجزائر**)، وكتاب (**ورقات الجزائر**) لـ: **كلان** سجَّل فيه صاحبه تاريخ بعض المساجد والقصور.

وإنني نظرا لضيق المجال، وكان تاريخ بـ (**جامع كتشاوة**) الشهير لفت أنظار الباحثين بعد الاستقلال واسترجاعه، فإنني خصصته ببحث مستقل.

المدية:

ومن مآثر بلكين مدينة المَدِيّة ـ كما ضبطها ابن خلدون ـ وهي كبقية مآثر بلكين ووالده قبله، مركز حربي، لم تشتهر كمدينة لها أهمية إلا بعد ستة قرون أي في العهد التركي حيث اتخذت قاعدة لباي الولاية أما قبل فإنها كانت قلعة حربية ضمن أربع قلاع[1] تابعة لإمارة بني توجين، تلك الإمارة التي تكونت في عهد باديس حفيد بلكين، وفي نفس الظروف التي تكونت فيها إمارة بني زيري.

(1) القلاع الأخرى، هي تاقدمت قاعدة الإمارة، وتاغزوت المشهورة بقلعة بني سلامة، وتافرقينت.

تقدم لنا أن حمادا لما شق عصا الطاعة على ابن أخيه باديس وحاصره هذا الأخير بالقلعة حصارا طويلا مات أثناءه، أعانه بنو توجين فراعى لهم هذه الإعانة وأقطع لهم هذه الإمارة التي صارت تعرف بإمارة بني توجين تارة، وبإمارة وانشريس مرة أخرى، وقد عرفها الإدريسي بمزيد من التفصيل، لعبت هذه الإمارة أدوارا هامة في التاريخ وحظيت بشهرة لم تحظ بها كثير من الدول، ففي إحدى قلاعها اختار ابن خلدون التفرغ والإقامة لتأليف كتابه المشهور، كما نزل بها وأقام مدة الإِمام المهدي بن تومرت في طريق رجوعه من ملالة إلى المغرب، وفيها تعرف بالقائد الشهير عبد الله بن محسن الوانشرسي المكنى البشير، ورافقه إلى المغرب وقد عينه الإمام قائد جيشه عندما تكونت دولة الموحِّدين وعضوا في مجلس العشرة، وقد استشهد في حروبهم الأولى مع المرابطين بالمغرب في عهد بن تومرت، كما ساهم جيش من هذه الإمارة في الدِّفاع عَن تونس لما حاصرها ملك فرنسا الصليبي (St.Louis) وكان قائد جيش وانشريس صهر المستنصر بالله الحفصي هو أحد الأفراد الثلاثة الذين حضروا إبرام معاهدة الصُّلح سنة 669هـ، كانت قبيلة حُصِين العربية هي التي استوطنت ناحية المدية منذ فارقها الثعالبة ولا زال أفراد هذه القبيلة بتلك النواحي إلى زمننا هذا.

مليانة:

ومن مآثر بلكين مليانة التي أسست قرب حصن روماني يحمل هذا الاسم، وقد أسسها بلكين في القمة المطلة على قبيلة واريغان مركز ومسقط رأس الطبقة الأولى من أمراء مغراوة ـ بني خزر ـ وقد استفادت مليانة من موقعها الجغرافي الذي خلد اسمها، إذ كانت من المحطات الشهيرة في طريق الجزائر والمغرب ولهذا نجد ذكرها ووصفها عند معظم الرَّحالين منهم الأديب أبو الحسن علي بن الفكون القسنطيني في (**رحلته**)[1]

(1) كان من أدباء أواخر القرن السادس وقد ذهب من قسنطينة، مسقط رأسه، إلى مراكش عند خلفاء بني عبد المؤمن فنظم رحلته وكتب لها الخلود حيث أثبتها جل مؤرخي الأدب العربي ومنهم المقري في (نفح الطيب).

الشهيرة التي قال فيها:

وفي أرض الجزائــر هــام قلبــي   بمعســـول المراشـــف كـــوثري
وفي مليانـــة قـــد ذبـــت شـــوقا   بلـــين العطـف والقلـب القســي
وفي تـنس نسـيت جميـل صـبري   وهمـــت بكـــل ذي وجـــه وضي

بقيت مليانة تابعة للجزائر إلى العهد التركي فنالت حظوة وحل إليها كثير من العلماء فأسسوا المعاهد وتركوا عدة تأليف.

الخلاصة:

والخلاصة: أن تاريخ دولة بني زيري مرتبط بتاريخ البلاد السياسي والثقافي والاقتصادي، إذ في عهدها ظهرت العاصمتان العلميتان: **(قلعة بني حماد و بجاية)**، اللتان كانتا من أشهر وأرقى عواصم العالم خصوصا بعد خراب القيروان وصقلية وانحلال دولة بني أمية بالأندلس، وكانت مكانتها الاقتصادية ممتازة، وصف الإدريسي بجاية في عهده بقوله: «و بها القوافل منحطة، والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير تجار، و بها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء، وتجار المشرق، و بها تحل الشدود، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، و بها دار صنعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن، و بها من الصناعات كل غريبة ولطيفة».

وحقيقة إن أسطول الدولة الذي أنشاه بلقين ابتداء من سنة 365 بلغ مائتي قطعة سنة 439 لما غزا البيزنطيِّين بصطمبول.

ومدينة القلعة وإن كانت كما قال فيها ياقوت في **(معجم البلدان)** بعد أن شبهها بقلعة أنطاكية قال: «وليس لهذه القلعة منظر ولا رواء حسن، إنما اختطها حماد للتحصن

والامتناع»، فوصفها ابن خلدون بقوله: «فاستبحرت العمارة، واتسعت في التمدن ورحل إليها من الثغور القاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع ... الخ».

وقال البكري يصف حالتها الاقتصادية: «أصبحت مصدر التجار، وبها تحل الرحال، من العراق، ومصر والشام وبلاد المغرب»، وقد خلد الأدباء والشعراء وصف قصورها ومساجدها ومنهم ابنها البار أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد الصَّنهاجي من الأسرة المالكة، كما خلد وصف بعض قصور بجاية ابن حمديس الصقلي.

كانت الحياة الاقتصادية مزدهرة بفضل العلائق التجارية التي كانت تربط هذه الدولة بدول العالم برا وبحرا، فإن جل الرَّحالين الذين زاروها متفقون على تقدمها في الميدان الاقتصادي وعلى استغلال سكانها للزراعة وتربية المواشي والصناعة حتى إن جل أراضي الجنوب الجزائري التي نراها اليوم مراعي قاحلة كانت تنتج جميع أنواع الفواكه والخضر والحبوب، وعلى سبيل المثال نذكر أن المسيلة ونقاوس وطبنة كانت تنتج القطن الجيد، ومجانة تنتج الزعفران. وذكر اليعقوبي أنها كانت تحتوي على معادن الفضة والحديد والرصاص، كما كانت بالبلاد معامل متخصصة لصنع الزجاج الجيد والخزف، ونحت الحجارة والخشب والمرمر، والدباغة، وتسفير الكتب وتذهيبها. وقد بلغت منتهى الجودة والشهرة حيث كانت تصدر إلى الخارج. وفي ذلك العهد اشتهرت القالة بتصدير المرجان الأحمر إلى المحيط الهندي إذ لم يكون في العالم إذ ذاك إلا المرجان الأبيض، ولهذا كله لا نستغرب عندما نطلع على الرفاهية التي وصل إليها السكان عندئذ وبلغ ثمن العمامة ست مائة دينار، كما ذكر ذلك صاحب (**الاستبصار**).

ومما يؤيد ـ بصفة قطعية ـ ما ذكرناه هو ما تعرض إليه كتاب (**الإسلام في عظمته الأولى بين القرن الثامن والحادي عشر**) **لموريس لمبار**، الذي طبع منذ سنة بباريز، وقال مؤلفه: «إن أوروبا فقدت مركزها كمحور للاقتصاد العالمي بعد سقوط رومة وورثه

المسلمون بعد الفتوحات»، ثم قال: «فبالشرق الإسلامي كانت توجد المراكز الحيوية للحياة الاقتصادية الثقافية وكان الفراغ يسود الغرب الذي فقد مركزه الاقتصادي بعد سقوط رومة»، ثم يذكر البربر فيقول: «إنهم كانوا يمتازون بعد دخولهم في الإسلام بقوَّتَين لهما أهمية، **أوَّلا**: الطاقة البشرية التي كان لها الفضل والدور الحاسم في الفتوحات الأولى بالأندلس وصقلية، وحتى مصر في عهد الفاطميِّين، خصوصا الصحراء والسودان، **ثانيا**: استحواذ الجزائر واحتكارها لطريق الذهب التي كانت أهم مواردها مع تجارة الرقيق »، والكتاب قيِّمٌ في بابه أثبت أن الإسلام اهتم كثيرا في أول عهده بتنظيم الاقتصاد، ولم يكتف بنشر الدَّعوة، بل كان الاهتمام بالاقتصاد وتنظيمه يساير نشر الدعوة جنبا لجنب، أو قدما لقدم، كما يقال.

بقي لنا أن نضيف إلى مآثر هذه الدولة امتدادها إلى الأندلس حيث لجأ إليها بعض أفرادها من إخوة بلكين بعد ثورتهم على المنصور بن بلكين، هاجر إلى الأندلس زاوي بن زيري بن مناد لخبر يطول وساعد القدر أهله فأسَّسوا أعظم دولة عندما انهارت الدولة الأموية وظهرت دول ملوك الطوائف، فكان نصيبهم بلاد البيرة، وغرناطة، وجيان، ومالقة ...الخ، وهم الذين مصروا مدينة غرناطة، وقد احتفظت غرناطة بكثير من آثار هذه الدولة إلى يومنا هذا، كما احتفظت الجزائر بالكثير منها كالكتابة المنقوشة على مدخل مقصورة جامع عقبة بن نافع بالزاب ويرجع تاريخ هذه الكتابة لعهد المعز بن باديس، كما توجد كتابة على بعض الفنارات النحاسية المعلقة في سقف المسجد كتب عليها اسم المعز، ومن آثار هذه الدولة جامع أبي مروان بعنابة وجامع تنس، وهناك آثار متفرقة في بعض المتاحف.

ولنرجع إلى الحديث عن الطاقة البشرية التي تحدث عنها المؤرخون فإنها لم تستفد منها فتوحات الأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط فقط، بل لعبت دورها الفعال

وتركت آثارها أو بصمات أصابعها « في جل حروب الأندلس التي كان سكان المغربين الأوسط والأقصى يتسابقون إليها برسم الجهاد والرباط في الثغور وكانت شهرتهم البطولية جعلت ملوك الأندلس يجلبونهم ويولونهم قيادة الجيش، ولهذا تكونت منهم عدَّة دول بعد انهيار وانحلال الدولة الأموية في عهد ملوك الطوائف، فإنهم زاحموا الأمراء واقتطعوا لأنفسهم دولا، وقد أحصى هذه القبائل واحدة واحدة الشيخ الشطيبي الأندلسي ـ الذي ترجمه ابن عسكر في (**دوحة الناشر**) ـ في كتابه (**عِقد الجمان**)، وأما تجنيد ملوك الأندلس لهم فقد تعرَّض له ابن حيان عندما تحدَّث عن كثير من هذه القبائل المهاجرة قال: «إن جماعة من زناتة وصفوا لأمير المؤمنين الحكم بالشدة والشجاعة في الحروب فاستقدمهم واتخذهم جنودا إلى أن توفي ابن أبي عامر وتفرقت الجماعة وانشقت العصا فتسابقوا إلى مزاحم الأمراء وأسسوا كثيرا من هذه الدول... الخ».

وهذا لا يمنع من الاعتراف ـ رغم ما ذهب إليه كثير من الباحثين والمؤرخين ـ بأن جل هؤلاء البرابر وأمرائهم كانوا يجلون العرب وملوكهم ذلك الإجلال الذي وصل في كثير من الأحيان إلى التقديس، وقد قاطع زيري بن عطية المغراوي المنصور بن أبي عامر لسبب واحد أنه استبد بملك هشام في صغره مما هو معروف وكان زيري وفيا للأمويين، وقد حكي عنه أنه لما كان محاصرا لأشير بعد رجوعه من الأندلس و رأى وفد الحجاج الأندلسيين العائدين من الحج فاتصل بهم وسألهم عن أحوال بلادهم وصرح إليهم بهذا التصريح: «الحمد لله يا معشر الأندلس الذي جعل الهزيمة علينا معشر البرابر عبيد الدنيا ولم يجعلها عليكم فكان يستأسد العدو، وتخرب الجزيرة ولكن الله أنصر لدينه وأحوط على أمة محمد نبيه ﷺ».

ولنختم هذه الدراسة بما كنت وعدت به في مستهلها وهو نظرية المستشرق **ايرنست مرسي**(Ernest Mercier) الذي تعرض لـ: (**معركة بواتي**) وأحدث مقاله

ضجة في الأوساط العلمية، إن **مرسي** هذا كان مِن كبار المستشرقين الفرنسيِّين في أواخر القرن الماضي، وعاش جلَّ حياته بمدينة قسنطينة وترك عشرات التآليف أهمها **(تاريخ افريقية)** وقد اعتنى الكاتبان **موريس مرسي** و**أندري سقان** فنشرا كتابا قيما عنوانه **(معركة بواتي والأسباب الحقيقية في انسحاب الجيش العربي)**، ذكرا فيه نظرية المستشرق التي أثارت تلك الهزة ومن جملة ما قاله المؤلفان:

«إن هذه النظرية ألقت أضواء على حادث تاريخي هام كان يعتقد أنه لا صلة بينه وبين التاريخ العام، ولهذا فإن هذا البحث في نظرة فلسفة التاريخ له أهمية عظمى »، ثم تعرضا لذكر الأسباب التي جعلت المؤلف يشك فيما أجمع عليه المؤرخون إذ لا يعقل أن معركة لم يتفطن المنتصرون أنفسهم بانتصارهم حيث إن جناح الجيش الإسلامي الذي انهزم قد انسحب من المعركة التي دامت ليلة كاملة وفي الصباح لما أراد جيش شارل مارتيل مواصلة المعركة وجد الفراغ أمامه وعندئذ اطلع على الحقيقة وهي انسحاب الجيش الإسلامي بعد أن ترك قتلاه الذين منهم قائد الجيش، وعلى كل حال رأى المستشرق أن من جملة أسباب انسحاب الجيش الإسلامي هو ضعف مدد الطاقة البشرية التي كانت ترد من بلاد البربر.. الخ، وإننا في هذا المقام لا نريد تتبع ما استنتجه المستشرق لدعم أرائه فنوافقه أو نخالفه، وإنما سقنا رأيه هذا للدلالة على أن هذه الطاقة البشرية كان يقرأ لها ألف حساب في ذلك العهد وأن سمعة الجيش الإسلامي القائم وتفوقه عمت جميع الأوساط والطبقات وليست من مبالغات المؤرخين المسلمين، وإنه رغم مرور القرون عليها فقد بقي الاهتمام بها متواصلا حتى إن أحد كبار الكتاب الفرنسيين (Gaxotte Pierre) عضو الأكاديمية الفرنسية ومحرر **(جريدة الفيغارو)** ردد صدى هذا المقال ودعمه منذ سنوات قليلة، فإنه نشر مقالا بالجريدة المذكورة المؤرخة في 11/ 10/ 58 بمناسبة ذكرى هذه المعركة، وهذا المقال له أهمية عظمى، حيث إن صاحبه نشر عرض حال جلسة سرية عقدها الملك شارل مارتيل مع أركان حربه

وخبرائه قبل هذه المعركة وقد افتتحها بقوله: «إن الكفار ـ يقصد المسلمين ـ أقوياء ونحن ضعفاء، إلا أنني أريد المعركة وبإعانة الجميع، ـ إن أراد الله ـ سأنتصر عليهم وستجرُّ لي هزيمتهم شرفا ». فأجابه الكونت أرنول (Arnoul):« مولاي لا قدر الله أنه سيلحقكم العار، ينبغي لنا أن نكون واقعيين، إننا في سنة 732 ووسط فصل الخريف، إن محمدا مات منذ مائة سنة على الأكثر، انظر ماذا فعل المسلمون في هذه السنين القليلة، إن حصون بيزنطة انهارت أمامهم الواحد بعد الآخر ولم تعطلهم أسوار البصرة ودمشق، إنهم احتلوا مصر، قبرص، رودس، وبلاد البربر وكذلك قرطاجنة، واستمر السيل المنهمر في طريقه يجتاح ما يجده أمامه، إن أبطالنا سقطوا عندما حاولوا الوقوف في وجوههم، إنهم احتلوا اسبانيا وأخضعوا الفزيقوطيين الأشاوس الأبطال، إن الجبال والبحار لم تعطلهم، إنهم اكتسحوا أراضي فرنسا، سهولها وأوعارها، مدن ناربون تولوز، نيم، كاركاصون، بوردو، وإننا نشاهد الآن النيران تلتهم كنيسة سانت هيلار، ثم تكلم عالم الدولة ومفكرها (Raganfred) ، فقال: «إن التاريخ له مجرى، ومجراه متجل بصفة واضحة أنه من الظاهر أن العالم سيخضع للقوة العربية فهذا مسجل على الأراضي التي احتلوها، وفي الانتصارات التي أحرزوا عليها، لا أحد يشك أيها الملك بأنك غير قادر على تحقيق المعجزات إلا أنك لا تقدر أن تغير مجرى التاريخ، فإنك إذا أمرتنا بخوض المعركة نجيب أمرك ونطيعك، ولكن تحقق أنه لن يرجع منا أحد من هذه المعركة إذ لا يمكنه معاكسة القدر ... الخ.

لم يلتفت شارل مرتيل لأقوال خبرائه بدليل أنه خاضها واستغل انسحاب المسلمين وحينئذ أخذته النشوة وهمس في إذن المفكر(Raganfred)، فقال له: «إنني من جهتي أعلمك شيئا واحدا، فكما أن الأشجار مهما طالت أغصانها لاتصل إلى السماء فالأشياء لن تتبع وجهة واحدة دائمة».

وهذا الحوار الذي لا يتهم أفراده بالإشادة بقوة المسلمين إذ ذاك ويؤيد نظرية المستشرق لدليل قاطع على أن سمعة الجيوش الإسلامية بلغت ما لم تبلغه دولة من دول العالم عبر التاريخ، ولهذا لا ينبغي لخلفهم اليوم أن يبلغ بهم مركب النقص والتشاؤم إلى اليأس والاستسلام، كما لا ينبغي لهم أن يضربوا صفحا عن التأثير الزمني ولا زالت بعض الأسلحة التي أجمع المؤرخون بأنها أفادت المسلمين في فتوحاتهم ألا وهي الاتحاد والتضامن في إمكانياتهم، وقد شكا القادة الفرنسيون في حروبهم مع المسلمين الجزائريين عند الاحتلال بأنهم لم يجدوا أمامهم الجيش التركي النظامي ولا الأتراك وإنما وجدوا سكان البلاد من عرب وبربر والرابطة الوحيدة التي تجمعهم هي رابطة الدين الإسلامي.

وهذا رأي الشاعر الحكيم محمد إقبال، نختم به هذه الدراسة، قاله منذ خمسين سنة في رسالة كتبها إلى محمد علي جناح فقال: «هناك درس واحد وعيته من تاريخ المسلمين، ففي اللحظات الحرجة من تاريخهم كان الإسلام وهو الذي انجي المسلمين، وليس العكس بالعكس، إذا ركزتم نظركم اليوم على الإسلام واستلهمتم المبادئ الدائمة فيه، فأنتم لا تكونوا قد فعلتم أكثر من إعادة تجميع قواكم المبعثرة واستعادة كيانكم المفقود، الأمر الذي تنقذون به أنفسكم من خراب شامل، والقرآن الكريم زاخر بالآيات الشريفة التي توضح لنا كيف أن ميلاد البشرية جمعاء وإعادة تكوينها يشبه ميلاد وإعادة تكوين أي فرد».

رقعة تخطيط مدينة الجزائر
وتقسيمها الإداري في عهد الاحتلال[1]

القبائل دولتان أو إمارتان، القبائل الصغرى وكان يتداول حكمها آل المقراني وكانت قاعدتها قلعة بني عباس ثم مجانة، والإمارة أو الدولة الثانية دولة آل ابن القاضي وكانت تحكم بلاد القبائل الكبرى وقاعدة الحكم جبل كوكو، كان مؤسس هذه الدولة الشيخ أحمد بن القاضي الزَّواوي قاضي بجاية في عهد الحفصيِّين ولعب دورا خطيرا حيث كان المتسبب في احتلال عروج وخير الدين للجزائر وطرد الأسبان، والمؤرخون متفقون على هذا، إلا أنهم اختلفوا في كيفية الاتصال، فمنهم من قال بأنه كاتب الخليفة العثماني عندما رأى البلاد مهددة بالخطر الصليبي، والحقيقة أنه سهل على عروج لما كان بجيجل الدخول إلى العاصمة – الجزائر – وكان معه سالم بن التومي الثعالبي أميرها إذ ذاك ولما احتل الأتراك الجزائر أساؤوا به الظن وبرفيقه سالم بن التومي فقتل عروج سالم بيده وتحارب مع أحمد بن القاضي إلى أن قتل في بعض المعارك بثنية بني عائشة.

إن ابن القاضي كانت بينه وبين جيرانه آل المقراني منافسة الجوار، ولما صاهر الأتراك المقراني وكانوا يستعملون سياسة التفرقة، أوقدوا نار الفتنة، واتهموه بموالاة الأسبان، فكانت الحرب التي لقي فيها حتفه، وتوارث حكم الإمارة بعده أفراد أسرته إلى أواخر العهد التركي، بخلاف ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن الإمارة ذهبت

---

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المحاضرة على نسخة مرقونة تقع في (19) صفحة.

مع مؤسسها، وهذا الحسين الورتيلاني (1125ـ 1193) ذكر في (**رحلته**) أنه لما وصل إلى جامع الصهاريج بالقبائل الكبرى، قال: «ونزلنا عند المعظم سيدي محمد بن القاضي الشريف سلطان زواوة وعاهدنا على الحج ومشى معنا، ثم مات (رحمة الله عليه) بعد خروجنا من المدينة المشرفة ودفن بباب الينبع في شهر محرم سنة 1180» (1).

كان الحكم التركي ببلاد القبائل صوريا، وكثيرا ما كان الأتراك يكتفون بتعيين بعض القواد وفرض الضرائب الرَّمزية، وفي الحقيقة كانوا هم الذين يسترضون بعض القبائل بالعطايا، ومن ذلك ما ذكره المؤرِّخ مرسي(Mercier) في كتابه: (**تاريخ إفريقيا الشمالية**) (Histoire de l'Afrique septentrionale)، قال: «وفي صيف 1823 ثار قبائل بني عباس واحتلُّوا البيبان ـ الممرُّ الرئيسي بين الجزائر وقسنطينة ـ ومنعوا الجيش التركي من المرور، وذلك لسبب أن باي قسنطينة تعهَّد لهم بدفع خمسمائة كبش سنويا، وتأخَّر في تلك السنة عن مَوعده، فثاروا على الأتراك ودامت هذه الثورة ما يقرب مِن سنتَين، هاجم أثناءها قبائل بني عباس بجاية وقتلوا واليها لخبر يطول.

كان سكَّان هذه المنطقة باتفاق معظم المؤرِّخين أباة الضَّيم يثورون المرَّة بعد المرة على الحكَّام كيفما كانت أجناسهم ودياناتهم ونظام حكمهم، اعترف لهم الفينيقيون بالاستقلال الداخلي طيلة عهدهم وتقرَّبوا إلى رؤسائهم بالمصاهرة، وكذلك الرومانيون في أوائل عهدهم، إلا أنهم بعد ثورة يوغرطة نكصوا على أعقابهم واستبدلوا الاستقلال بالحكم المباشر، ولهذه الأسباب ثاروا عليهم عندما أتيحت لهم الفرصة للانتقام (2).

---

(1) إن الورتيلاني لما عزم على الحج عقد رحلة إلى القبائل الصغرى والكبرى ليدعو الناس إلى الحج حسب العادة المتبعة إذ ذاك.

(2) ذكر ذلك بتفصيل المؤرخ ستيفان قسيل (**Stéphane Gsell**) في تاريخه الذي خصصه للإمارات البربرية بين عهدي قرطاجنة وروما.

لم يشر أي مؤرخ إلى هذه الثورات التي وقعت ابتداءً من سنة 253م ودامت إلى سنة 260 ، ثم من 290 إلى سنة 297م، وتعرض لها مؤرِّخو العهد الروماني منها **كاط** في كتابه تاريخ الشامل الإفريقي (E. Cat. Professeur de L'école Supérieur d'Alger) (ج 1، ص: 85) قال: «إن البرابر اغتنموا فرصة خلافات حكام روما فثاروا عليها سنة 253 وكانت ثورة خطيرة وإن لم يتحدث عنها المؤرخون إلا أن نقوش الحفريات التي عثر عليها في عدة جهات خصوصا في حفريات سور الغزلان ومدينة تازولت لامبيز دلتنا عليها، فمن جملة الثوار نجد سكان جبال بابور الذين يسمون بابار (Babares) وسكَّان جبال القبائل الكبرى الذين كانوا يسمون:(Quinquegentiens) كانكوجونتيان، ثم ذكر قبائل أخرى فقال:«إن هؤلاء الثوار كان يقودهم أربعة رؤساء يسمون ملوكا، وكان الثائرون من القبائل الكبرى والصغرى، فقصدوا مدينة سور الغزلان وبعد حصارها قاومهم (Q.Gargilius Martialis) قائد البلدة فانهزم الثوار وعلى رأسهم القائد البربري فراكس (Farax) ».

ثم تابع قائد السور (Martialis) سيره نحو جبال بابور ليلتقي مع زميله ماكرونس دسيانوس (Macrinus decianus) رئيس نوميديا، إلا أنه لم يصل إليه، فقتله الثوار في معركة وكان هؤلاء الثوار راجعين من تخريب ميلة ... الخ »، ثم تجدَّدت هذه الثورة بعد سنوات ـ أي: سنة 290 ـ ولم تنته طيلة سبع سنوات، إلى أن جاء إمبراطور روما نفسه لمحاربة القبائل الكبرى) Quinquegentiens)، وقد سجَّل هذا الانتصار بنصب وجد في حفريات كنيسة بجاية بعد الاحتلال الفرنسي ».

ثمَّ تعرض كاط إلى التقسيم الإداري الذي وقع إثر إخماد نار الثورة وختم حديثه في الموضوع بقوله: «الإمبراطورية الرومانية كانت تحس أنها مهددة في كل جهة من البربر، وقد بذلت نهاية الجهود لإنقاذها من الخراب العاجل»، وهذا نص مقاله:

«L’empire romain se sentait partout menacé par les berbères et on

faisait les derniers efforts pour le sauver d'une ruine imminente … »

كان الرومانيون في عهدهم خطَّطوا طرقا كتب لها الخلود، فمن ذلك الطرق التي تشق القبائل الصغرى والقبائل الكبرى ثم قبائل الحضرة.

كانت هذه المنطقة في أواخر العهد التركي وفي أوائل الاحتلال الفرنسي تعرف بهذا التقسيم:

القبائل الكبرى: ولاية تيزي وزو الحالية.

القبائل الصغرى: وادي بجاية.

قبائل الحضرة من جبال بابور حيث توجد ايكجان ـ مركز انطلاق الدعوة الفاطمية ودولتها ـ ببني عزيز قرب مدينة جميلة الأثرية، وتمتد إلي الميلية وجيجل وبعض أهلها ينتمون كبقية القبيلتين إلى العنصر البربري الكتامي إلا أنهم تعربوا بخلاف القبائل الصغرى والكبرى فقد احتفظوا بلغتهم الأصلية.

فالطريق التي كانت تربط بين بجاية ودلس وتشق بلاد القبائل الكبرى، إذ تمر على قصر كبوش فجامع الصهاريج فتورقة ثم دلس، هي التي بقيت في العهد الإسلامي تمر عليها القوافل، وآخر من سجل المرور على بعض منها الرحالة الورتلاني حوالي 1180هـ.

كما تحدَّث الرحالان الشَّهيران البكري والإدريسي على الطريق الساحلي ومدنها كما سنبيِّنه. ثمَّ الطريق التي تشقُّ القبائل الصُّغرى ـ أي: من بجاية إلى سور الغزلان، وتمرُّ على تيكلات، آقبو، مشدالة، سور الغزلان ـ فإنها بقيت مستعملة إلى أن جدِّدت في العهد الفرنسي.

والثالثة التي تشقُّ قبائل الحضرة، وهي المعروفة الآن بالطريق الساحلية التي تربط بجاية بجيجل وتمرُّ على زيامة المنصورية.

ذكر الإدريسي الطريق الساحلية التي تربط عاصمة الجزائر ببجاية فقال: «من الجزائر إلى تامدقوس شرقا 18 ميلا ومن تامدقوس إلي مرسى الدجاج 20 ميلا ... ومدينة مرسى الدَّجاج كبيرة القطر، لها حصن دائر، وبشرها قليل، لما فرَّ عنها أكثر أهلها في زمن الصيف خوفا من قصد الأساطيل إليها ـ كالنورمانيِّين ملوك صقلية، كانوا يشنُّون الغارات على السَّواحل إذ ذاك ـ ولها مرسى مأمون، ولها أرض ممتدة وزراعات متصلة، وإصابة أهلها في زرعهم واسعة، وحنطتهم مباركة، وسائر الفواكه، واللحوم بها كثيرة، وتباع بالثمن اليسير، والتين يحمل منها شرائح طوبا ومنثورا إلى سائر الأقطار، وأقاصي المدن والأمصار، وهي بذلك مشهورة، ومن مدينة مرسى الدجاج إلي مدينة تدلس 24 ميلا وهي على شرف متحصنة لها سور حصين وديار متنزهات وبها من رخص الفواكه والأسعار والمطاعم والمشارب ما ليس يوجد بغيرها مثله، وبها الغنم والبقر موجود كثيرا وتباع جملتها بالأثمان اليسيرة، ويخرج من أرضها إلى كثير من الآفاق، ومن تدلس إلى مدينة بجاية في البر 70 ميلا وفي البحر 90 ميلا [1].

وقد وصف قبله زميله أبو عبيد البكري (المتوفى سنة 487 هـ الموافقة لـ 1094م) في كتابه: (**المسالك والممالك**) بعض هذه النواحي التابعة لولاية تيزي وزو الحالية فذكر الطريق التي تربط بين أشير ـ عاصمة زيري بن مناد وولده بلقين ـ ومرسى الدجاج وتمر على حمزة (البويرة) فقال: «حمزة وتعرف بسوق حمزة وهي مدينة عليها سور وخندق، وبها آبار عذبة وهي لصنهاجة وكان نزلها حمزة بن الحسين بن سليمان بن الحسين بن علي ابن الحسن بن علي بن أبي طالب (منها) إلى بني جناد وهي مدينة صغيرة على جبل بينها وبين البحر نحو ميل ومنها إلى مرسى الدجاج».

وقد قال البكري في أول تعريفه لمدينة حمزة ما يلي: «وهناك مدينة تسمى حمزة نزلها

(1) من كتاب: نزهة المشتاق، للإدريسي (548هـ ، 154م).

وبناها حمزة بن الحسن ... والحسن بن علي هو الذي دخل المغرب وكان له من البنين حمزة هذا، وتسير من حمزة إلى بلياس وهي في جبل عظيم، ومن بلياس إلى مرسى الدجاج، ومدينة مرسى الدجاج قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح، وقد ضرب سور من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية، ومن هناك يدخل إليها، وأسواقها ومسجد جامعها داخل ذلك السور له باب واحد، ولها مرفأ غير مأمون لضيقه وقرب قعره، وبها عيون طيبة يسكنها الأندلسيون، وقبائل من كتامة ـ وهذا دليل على أن كتامة كانت تمتدُّ من القالة إلى دلس، وتجاوز دلس إلى مرسى الدجاج التي أظنُّ أنه رأس ماتيفو (Cap Matifou)، وبشرقيها مدينة بني جناد وهي أصغر منها.

وقال البكري في موضع آخر بعد أن ذكر مرسى الجزائر وسماها جزائر بني مزغنى قال: «مرسى الدجاج هو صيفي ويليه مرسى مدينة بجاية أوليّة آهلة عامرة بأهل الأندلس، بشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة وهو مرسى مأمون، ومرسى بجاية هو ساحل قلعة ابن الطويل ـ قلعة بني حماد ـ وعلى هذا المرسى في تلك الجبال قبائل كتامة وهي شيعة يكرمون من مال إلى مذاهبهم ويبرون من وافق اعتقادهم، ثم يلي مرسى بجاية سبيبة وعلى مرسى سبيبة في جبل كتامة عين الأوقات »، وقد ذكر غرائب لهذه العين، ثم قال: «ومن هذه المواضع كلها من جبال كتامة معادن النحاس ومنها يحمل إلى إفريقيا وغيرها، وبهذا الجبل حجر اللازورد الطيب».

ثم نجد في أواخر القرن الثاني عشر الهجري الرحالة الحسين الورتلاني يذكر كثيرا من المدن والقرى التي مر عليها بعد أن غادر مسقط رأسه فمر على تمقرا، ثم قلعة بني عباس، ثم بوجليل، فأولاد سيدي بهلول، فبني منجلات، وبني بترون، وبني عيسى، فدلس.

وعند رجوعه من دلس مر على بني فراوسن وذكر أنها بلاد ابن معطي النحوي صاحب (**الألفية**) الذي عناه ابن مالك في (**ألفيته**) حيث قال: (**فائقة ألفية ابن معطي**) ثمَّ جامع الصهاريج ـ وفي جامع الصهاريج ذكر الورتيلاني أنه نزل عند محمد بن القاضي

سلطان زواوة ـ ثم مرَّ على بني بوشعيب وبني يحيى وورجة، ثم تمقرا، فبني ورتلان.

هذه في الجملة الخطوط الرئيسية لتاريخ ولاية تيزي وزو عبر تاريخها الفينيقي والروماني والإسلامي قبل الاحتلال الفرنسي.

تاريخ الولاية بعد الاحتلال الفرنسي:

إن احتلال هذه المنطقة تأخر إلى أن انتهت مقاومة الأمير عبد القادر أي في: 23 ديسمبر 1847.

فعندما ألقى الأمير السِّلاح كانت فرنسا تهيمِن على بلاد الجزائر بحدودها الحالية، من المغرب إلى تونس، ماعدا بلاد القبائل: الكبرى والصغرى وقبائل الحضرة، أي ما بين سهول متيجة غربا، ومرفأ القل شرقا، ومرتفعات مجانة وسطيف جنوبا.

كانت الحكومة الفرنسية مترددة في الإذن لقادة جيشها على شن هذه الحرب إذ كان جل جيشها بحروب شبه جزيرة القرم (Crimée) في البحر الأسود، ولم تأذن لهؤلاء القادة إلا بعد رجوع الجيش الفرنسي، فدامت حرب القبائل من سنة 1849 إلى 1857، اختار الجيش الفرنسي بعد حصوله على موافقة الحكومة على الحرب أسهل المناطق الثلاث في [نظره] وهي منطقة قبائل الحضرة، فهاجمها الكولونيل سانطارنو (Saint Arnaud)، وكانت ميادين القتال ما بين ميلة وجيجل، ورغم الجهود التي بذلت فقد باء بالفشل الذريع، وانسحب الجيش الفرنسي وبقيت الحالة على ما كانت عليه إلى أن عيِّن الماريشال راندون (Randon) واليا عاما بالجزائر من سنة 1851 إلى سنة 1858م، وفي تلك الأثناء ظهر في بلاد القبائل الثائر الشهير الشريف بوبغلة وقتل كثيرا مِن القوَّاد الفرنسيِّين الذين عيَّنتهم فرنسا[1]، اختارت فرنسا الماريشال راندون

(1) كانت فرنسا اتصلت ببعض القبائل وأقرتهم على تعيين رؤسائهم قوادا وأغوات وأمناء، إلا أن=

(Randon) لأنه قضى مدة قائدا عسكريا بالجزائر، أي ابتداءً من سنة 1838م، ثم إنه تولى إدارة شؤون السياسة بوزارة الحرب التي كانت الجزائر تابعة لها، ثم تولى وزارة الحرب سنة 1850 ، وقد هيأ خطَّة لفتح بلاد القبائل والقضاء على الثائر شريف بوبغلة وبمجرد وصوله إلى الجزائر سلك طريق روما فابتدأ بتخطيط وتعبيد الطُّرق، فأحيا الطريق الرئيسية الرابطة بين بجاية ودلس ثم طريق ما بين سور الغزلان وسطيف فبجاية، وعندئذ هاجم قبائل الحضرة ثم القبائل الصغرى فقضى على المقاومة بها، وقد كان سبقه للهجوم على القبائل الصغرى سلفه الماريشال بيجو الذي هاجم سنة 1844 قبائل بني عباس فأحرق دورهم وقطع أشجارهم، إلا أنه لقي مقاومة ألزمته الانسحاب، قضى راندون على المقاومة بالقبائل الصغرى، وبقبائل الحضرة، وتتبع خطته الجهنمية في القبائل الكبرى، وكان الشريف بوبغلة ظهر حوالي سنة 1850 بالقبائل الكبرى ثم هاجم بجاية سنة 1851 وبعد انتقاله إلى وادي سبو حاربه الماريشال راندون والماريشال (Polissier)، والجنرال بوسكي (Bosquet) فرجعوا بِخفَي حنين، ثم استشهد بوبغلة في معركة بسيطة مع السكَّان بضواحي تازمالت لخبر يطول، وذلك سنة 1854م، وفي هجومات الوالي العام راندون على القبائل الكبرى ظهرت المقاومة العنيفة لأوَّل مرَّة في تاريخ حرب الجزائر لم تسبق مشاهدتها للجيش الفرنسي فبهرته، ولما بحث عنها وجدها فرقة المسبلين، وكتب عَن نظامها كثير مِن قادة الجيش، وصرَّح واحد منهم في مذكِّراته وتقاريره الرَّسمية لرؤسائه أن شعبا يوجد فيه مثل هذا النوع من المقاتلين ينبغي أن يقرأ له ألف حساب، وللذين كانوا يدعون إلى اتخاذ الاستعمار الانكليزي لبلاد الهند مثلا يقتدى به، قال الجنرال هانوطو: «إن الأمة

=هذا التَّعيين كان صوريا، ولقي معارضة مِن جلِّ القبائل المتمرِّدة والمعارضة لتدخل الفرنسيِّين في شؤونهم.

الجزائرية التي يوجد فيها مثل هذا النوع من المقاتلين لا ينبغي أن نغتر ونشبهها بالهنود».

كما بهرت الجيش الفرنسي وعلى رأسه الوالي العام راندون، المجاهدة لالة فاطمة نسومر إذ هي التي كانت تحرض المسبلين والسكان على المقاومة بحيث أن جل من كتب على مقاومة بلاد القبائل الكبرى ذكروا أن المقاومة خفت من وطأتها بل انتهت عندما وقعت لالة فاطمة نسومر في قبضة الفرنسيين أسيرة [1].

ففي هذه الحرب وبعد إلقاء القبض على الزعيمة لالة فاطمة أحدثت مدينة تيزي وزو وبني فيها حصن عسكري وذلك سنة 1856، كما أحدث حصن آخر بسوق الأربعاء لبني يراثن سمي بحصن نابليون ثم صار الحصن الوطني (Fort National). بعد انتهاء مقاومة بلاد القبائل الكبرى حوالي سنة 1857 فرضت فرنسا ضريبة مالية فادحة على السكان وأخذت منهم رهائن إلا أنها أبقت نظمهم الداخلية التي جرى العمل بها عندهم منذ قرون منها انتخاب المجالس البلدية والعمالية وتعيين الأمناء وأمناء الأمناء والعوائد في كثير من الأحكام وما إلى ذلك.

التقسيم الإداري لولاية تيزي وزو:

وقع هذا التقسيم بقرارين حكوميين الأول مؤرخ في منتصف نوفمبر1851 بالنسبة إلي منطقة ذراع الميزان، والثاني مؤرخ في أوت 1854بالنسبة إلى منطقة دلس،

(1) مذكِّرات ووثائق متعلقة بثورة القبائل الكبرى (1846-1857) ذكر هذا التقسيم الكولونيل **Robin** في مذكِّراته المسماة:

Notes et Documents concernant l'insurrection de 1856-1857 de la grand Kabylie

طبعة جوردان بالجزائر 1902.

وهاتان المنطقتان هما اللتان كانتا تشملان معظم قبائل زواوة الذين تتكون منهم ولاية تيزي وزو الحالية، وقد بقيت قبائل أخرى أضيفت إذ ذاك إلى مناطق برج بوعريريج كبني ملكيش وغيرها.

منطقة ذراع الميزان:

كانت تشمل مجموعة قبائل قشتولة: فريقات بني إسماعيل، بني كوفي، بني منداس، بني بوغردان، بني بوغدو، مشترة، إيغيل، إيمولا، الشرقه... الخ.

ثم قسمة جرجرة التي كان يطلق عليها في العهد التركي (باشا غاليك جرجرة)، وتشمل بني صدقة التي كانت بدورها تشمل قبائل بني بوشناشة، أقدال، أولاد علي، أويلول، بني يزقن، بني شبالة، بني أحمد، تاقمونت الجديد.

ثم مجموعة زواوة أو اتحادية قرى زواوة (Confédération)، وهي تشمل قبائل بني يني، بني وسيف، بني بوعكاش، بني بودرار، بني منقلات، بني عطاف، بني بويوسف، يليتن ... الخ.

ثم جنوب جرجرة الشرقي، بني قاني، بني أوعكور، ومشذالة.

منطقة دلس:

وكانت تشمل ما كان يعرف في العهد التركي بـ: بشاغاليك وادي سبو: عمراوة، بني خليفة، بترونة ، معاتقة، بني عسيى، بني دوالة، بني واقمون، فليسة البحر، العزازقة، بني يتورغ، بني فراوسن، بني يراثن، بني ثور، تاورقة، يسر، بني يجر، وكانت مدينة تيزي وزو ـ مركزا عسكريا (1)ـ تابعة لمنطقة دلس.

---

(1) وإنما اختيرت قاعدة الدائرة ثم الولاية لموقعها الجغرافي الذي جعلها وسط القبائل، خصوصا وأن دلس التي كانت قاعدة منطقة منقطعة ومنعزلة.

هذه في الجملة القبائل التي تتكون منها هذه الولاية وقد اشتهر الكثير منها في مختلف مراحل العهود الإسلامية بمراكز علمية، مازالت منها بقايا إلى يومنا هذا تحتفظ بقوانينها الداخلية التي أثارت إعجاب المتخصصين في بحوث تطور التعليم في العالم وذلك كمعهد البلولي وأحمد ابن إدريس وغيرهما، ومن يجهل اليوم من رجالات العلم في مختلف بلاد العالم الإسلامي أسماء لامعة كالمشذالي، واليتورغي، والمنجلاتي، والغبريني، واليراتني، والفراوسني، واليليتني وغيرهم، فأسرة المشذالي أنجبت كثيرا من كباء العلماء أبو القاسم المشذالي وولده أبو الفضل الذي انتقل إلى دمشق وملأ ذكره الدنيا، وترجمه تلميذه السَّخاوي في: (**الضوء اللامع في بيان علماء القرن التاسع**) كما ترجمه جلال الدين السيوطي، وناصر الدين المشذالي الذي أحدث ثورة ثقافية في عهده تطور بسببها الفقه المالكي وماشى عصره، ونفى عنه الجمود الذي كان يتَّهم به رجاله، وقد خصَّه العالم الشيخ الفاضل ابن عاشور قبل وفاته بدراسة قيِّمة نشرها في (**مجلَّة المجمع العلمي العربي**) بدمشق، والمنجلاتي الذي أخذ عنه ابن زاكور الفاسي وجاوره سنين، وترجمه في كتابه القيم: (**نشر أزهار البستان فيمن أجازني بالجزائر وتيطوان**)، وقد جدَّد طبعه أخيرا بالقصر الملكي في المغرب، كما اشتهر كثير من أفراد أسرة المنجلاتي وأسرة الغبريني، ومنهم أبو العباس أحمد الغبريني صاحب (**عنوان الدِّراية**) الذي ترجم لكثير من علماء زواوة، واشتهرت أسرة الغبريني بكثير من أفرادها، توارثوا العلم واستوطنوا تونس، وعبد الرحمٰن الوغليسي[1]، المؤلف الشهير وتلميذه عبد الكريم اليتورغي.

وقد اشتهرت بلاد القبائل بأنها حافظت على علم القراءات إلى العهد الأخير، أي القرن الحادي عشر، وكانت هذه القراءة مشهورة بقراءة زواوة، وقد شد الرحال العالم المقرئ أبو العباس أحمد برناز الحنفي التركي الأصل التونسي البلد الذي شد الرحال إلى

---

(1) قد نقل فتاويه صاحب: (الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة)، والونشريسي في: (المعيار).

بني وغليس للأخذ والرواية من أحد كبار المقرئين من تلامذة الشيخ عبد الرحمٰن اليلولي وذكر في فهرسته أنه في مدة إقامته ببني وغليس اجتمع عند شيخه بشيخ شيخه عبد الرحمٰن اليلولي، فحقق تاريخ وجود عبد الرحمٰن اليلولي وحدده، توفي أحمد برناز هذا بتونس سنة 1138 هـ وترك عدة تآليف.

كما اشتهرت بالقبائل الكبرى زيادة عن القرى المذكورة قرية كانت من أعظم المراكز العلمية وهي قرومة بدائرة الأخضرية، قيل:إنها من مؤسسات اللاجئين الأندلسيين. وقد أنجبت كثيرا من العلماء، كما حل بها أفراد من أسرة المقري التِّلمساني توارثوا العلم فيها إلى عهد الاحتلال الفرنسي.

ولم يفارق العلم هذه النواحي، فقد هاجر بعد الاحتلال الفرنسي ثلة من علماء زواوة إلى دمشق صحبة المجاهد الشيخ المهدي السَّكلاوي اليراتني، وقد كان من حسن الحظ أن حظوا بتراجم من معاصرهم الشيخ عبد الرزاق البيطار 1253ـ 1335 هـ في تأليفه القيِّم: (**حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**).

اقتطفنا منه بعض الفقرات لنستدل بها على أن كثيرا من الباحثين يجازفون في أحكامهم على ذلك العهد ويبالغون في وصمه بالانحطاط وضعف الثقافة ... الخ.

قال البيطار في ترجمة المهدي السَّكلاوي أستاذ ابن الحداد بطل ثورة 1871 قال: «وقد أخذ عنه كبراء دمشق وعلماؤها وحكامها وفضلاءها وأخذ عنه الوزير الكبير والمشير العظيم الخطير أحمد عزت باشا والي دمشق إذ ذاك»- هذه الحظوة لم ينلها الأمير عبد القادر مع غزارة علمه وسمعته في الجهاد الطويل - وكان رفيقه في الهجرة تلميذه صالح السَّمعوني (1240ـ 1285هـ) وهو من بني وغليس، قال في ترجمته البيطار: «له منظومة في الفقه المالكي وحشاها، ثم شرح الرسالة في علم الميقات قد جمع فيه ما نشرته يد الشتات، وله تاريخ على طريق الرمز والإيماء والإشارة، وصل فيه لقدوم محمد

رشدي باشا، وله فيه أسلوب عجيب وطريق نادر غريب، وكان صالحا تقيا، وفالحا نقيا، رفيع المقام، وافر الاحترام ... الخ».

كما كان مِن جملة المهاجرين من بلاد القبائل محمد المبارك الدلسي حفيد المهدي السَّكلاوي وغيرهم، وكان لصالح السَّمعوني ولد اشتهر في المشرق والمغرب وهو الشيخ طاهر الجزائري المولود سنة 1268 هـ وقد ترجمه كثير من العلماء كصديقه أحمد تيمور باشا في كتابه: (**أعلام المغرب**)، والمستشرق هنري لاوست (**Laoust**)[1]، وتلميذه العالم السَّلفي الشهير محب الدين الخطيب المتوفى أخيرا، نقتطف منها بعض الفقرات لأنَّ الرجل أحق بالعناية، وقد كان بارا لوطنه (الجزائر)، فقد زارها قبل الحرب العالمية الأولى وزار معالمها وكان يتكلَّم القبائلية الأصيلة، قال محب الدِّين الخطيب في مقال عنوانه: (**شيخي**) نقلته (**مجلَّة الشهاب**) بعددها المؤرَّخ في جمادي الأولى 1356 الموافق ليوليو1937: «هو الذي ربى عقلي، وهو الذي حبَّب إليَّ هذا الاتجاه الفكري، منذ كنت طفلا إلى أن صرت رجلا، ولا أعرف مؤلفا ولا حامل قلم نشأ في ديار الشام إلا وقد كانت له صله بهذا المربي الأعظم واستفادة من عقله وسعة فضله، إما مباشرة أو بواسطة الذين استفادوا منه، وكل الذين جاهدوا هناك لأجل الحرية وفي سبيل المعارف ولإحياء علوم السلف، ولإعادة مجد العروبة والإسلام إنما كانوا من إخوانه وهو واسطة عقدهم، ورأس مجالسهم، أو من طبقة تلاميذه، وهو مضرب الأمثال عندهم في كمال عقله وسعة إطلاعه التي لا حد لها ...»، إلى أن يقول: «... وأهم كتب السلف النافعة التي نشرها الناشرون إنما نشروها بإشارته وتحريضه، وأنا وكل ما نشرته لسنا إلا قطرة في بحر الخير الذي كان يتدفق من صدر هذا العالم

---

(1) نشر هنري لاوست هذا بحثا قيِّما في (مجلة المغرب الجديد) المؤرَّخ في ربيع 1354هـ/ 1935م، التي كانت تصدر بتطوان تحت عنوان: (الحركة الإصلاحية السنية المعروفة بالسلفية)، تحدَّث فيه عن: (المجلَّة السَّلفية) التي أصدرها طاهر الجزائري سنة 1917م.

العامل الذي كانت الدنيا لا تساوي عنده جناح بعوضة وليس له فيها أمنية إلا أن يرى عز الإسلام يعود كما كان في أيام القوة والعدل والعلم وتقوى الله عز وجل، إني لأرمي نفسي بالعقوق وإنكار الجميل كلما فكرت في إبطائي حتى الآن عن القيام بحقه على التاريخ. وحياة الشيخ طاهر الجزائري حياة دور من أدوار الإصلاح بل هي تاريخ الأمة في حقبة من حياتها ولابد أن أقوم بهذا الواجب في يوم من الأيام ... الخ ».

وقد أذاع أخيرا أحمد الجندي رئيس دائرة (**المجمع العلمي العربي**) بدمشق حديثا خصه للراحل الكريم بإذاعة لندن في مارس 1969 قال فيه: «... أما عمله في حياته فقد اتجه إلى ناحية الإصلاح رغم علمه الغزير، فعمل على نشر العلم والثقافة وتنبيه الجيل »، وبعد أن تحدَّث عن وظائفه في التعليم قال: «كان هذا الرجل يحب العرب ويعطف على قضيتهم ويسعى إلى تقدمهم وتعليمهم، وأبرز ما كان عند الشيخ حافظته العجيبة، فإذا قرأ الشيخ شيئا حفظه »، وبعد أن استدل على ذلك بعدة أدلة قال: «... لجأ الشيخ إلى ذاكرته فاتخذها وسيلة إلى العيش عيش الكفاف، يستعين بها على الحياة، فكان يشتري المخطوطات بأثمان باخسة ويبيعها فيربح بها دريهمات تساعده على الإنفاق، وكانت نفسه تأبى أن يمد يده إلى أحد مهما تكن منزلته، حتى لقد كان العظماء في زمنه يرهبون أن يعرضوا عليه العون المادي، فإذا فعلوا كان ذلك إيذانا بالفرقة التي لا لقاء بعدها.

وكان أستاذا لجيله وهو الذي عمل على تأسيس المكتبة الظاهرية فجمع لها... وللشيخ في المكتبة الظاهرية مجموعة من الأوراق المكتوبة والتعليقات التي سطرها بخطه أثناء مطالعته الكثيرة الطويلة، ولا ندري متى يتاح الظهور لهذه الأفكار المبثوثة؟ ومن الذي يقدم على فض هذه الأوراق والإطلاع على ما فيها من نفائس»[1].

(1) أليس من العقوق أن تغفل الجزائر على مثل هذا الابن البار الذي ملأ ذكره الدنيا ؟ ثم أليس مِن حقِّ الجزائر أن تجيب الكاتب الذي ذكر هذه المذكرات وتساءل: «ولا ندري متى يتاح الظهور لهذه الأفكار المبثوثة ؟».

وإنني أردت أن أذكر ناحيتين أو صفتين امتاز بهما المترجم، ويعلم كل باحث مستقل الفكر لا يغتر بالظواهر والمجاملة، أن سبب إفلاس إعادة الدين ومتقمصيه في البلاد الإسلامية عامة، في بلادنا بالخصوص هو الطمع في الأغنياء ومد الأيدي للطالح والصالح، ووقوع الداعي في فن ممديه الجهَّال أو المغرضين الذين يتحكمون في الداعية فيوجهونه كيفما شاءوا وينخدع لأحكامهم عليه حتى يغتر بنفسه، فإننا رأينا أنه كان يعتمد على نفسه وجل تلامذته وزراء وذوي شأن في الحكومة ووصلت به نزاهته إلى أن صار أقرب الناس إليه يخشون من مقاطعته إن عرضوا عليه الإعانة أو (**الوَعدَة**)، والشيخ (رحمه الله) كان من علماء الحديث، وإن علماء الحديث شعارهم في توصياتهم التي يختمون بها إجازاتهم هو قولهم: «اتركوا اليأس مما في أيدي الناس تعيشوا أعزة»، فأين هؤلاء ؟ وقد مثلها مترجمنا في وقت طغت فيه المادة، وقال لاوست عَن نشاطه في سوريا حذق اللغات العربية والتركية والفارسية على السواء مع مشاركة في مبادئ العلوم الغربية، وأسَّس خزانة دمشق، وقام في سنة 1878 تحت إشراف مدحت باشا بتنظيم التعليم في سوريا التي ما يزال ذكره فيها محفوظا في روعته، كما أنه شنَّ الغارات على الاستعمار التركي».

ولنختم هذه الدراسة بالرجوع إلى الحديث عن ولاية تيزي وزو، فإنها بعد أن احتلَّها الفرنسيون سنة 1857 ولاقوا فيها نوعا من الهدوء، اندلعت ثورة 1871 فكان من نتائجها: إلغاء التصرُّف الداخلي للجماعات، وفرض ضريبة على مجموع السكان قدرها 32 مليون فرنك، ومصادرة نصف مليون هكتار (وزعت فيما بعد على المستعمرين)، والذي يلفت النظر واهتم له الفرنسيون هو أن ثورة 1871 شارك فيها وحمل السلاح مائتا ألف قبائلي: رجال ونساء وصبيان من مجموع السكان الذين كان يبلغ عددهم ثمانمائة ألف (800 000) وهذه النسبة نادرة في تاريخ مقاومة الشعوب

والأمم، كما اعترف قادة الجيش الفرنسي أن عدد جيشهم الذي خاض غمار هذه الحرب لقمع الثورة بلغ 82000 مقاتل مدجج بأحدث سلاح وخاضوا 340 معركة حامية الوطيس، وقد اعترف وزير الحرب الجنرال (Du Barail) أن هذه الثورة إن كانت لم تصل إلى إخراج الفرنسيين من الجزائر نظرا لقوة الجيش النظامي إذ ذاك والسلاح ووفر التموين، ولكنها كلفته ـ وكانت تكلفه أكثر ـ عددا من الضَّحايا وخسائر في الأموال وهزائم شنيعة لولا استخدام الخديعة والمكر وتفرقة السكَّان ... الخ.

حظيت بهذه الثورة بلفت نظر الكتاب الفرنسيين والأجانب وخصصوها بتآليف اهتموا فيها بدراسات العنصر البربري والطريقة الرَّحمانية، وموقف ابن الحداد البطولي، رجل جاوز الثمانين سنة أعلن الحرب وشارك المحاربين وهو محمول على أكتافهم، وقد تعرَّض للعنصر البربري مؤرِّخونا من قديم ولنذكر قبل الختام رأيين لكاتبين حللا العنصر البربري، أحدهما كاتب عربي مشهور وهو ابن خلدون، وثانيهما كاتب بربري مشهور وهو أبو القاسم الزياني المغربي الذي علق على ابن خلدون ورد عليه بعض وجهات نظره، ثم ما وصفهم به صاحب (**الثغر الجماني**) وهو قريب عهد بالنسبة إلى الكاتبين الأولين بل هو معاصر للزياني، وكلامه ينطبق تماما على ما أجمع عليه مؤرِّخوا العالم في مختلف العصور في وصف هذا العنصر. قال صاحب (**الثغر الجماني**): «وقد كان لهذه الأمة من الأنفة والمنعة والإباية ما كان يمنعهم من الانقياد إلى الملوك والرضا باستدامة الدول والدخول تحت جناح الذل، فكانوا لا يقرون لملوكهم على قرار ولا يزالون يثورون على حكامهم في سائر الأعصار والأقطار، فلا يقوم لهم قائم إلا وطالبه من خلفه، ولا تتم قوة سلطان إلا والثورة تبشره بضعفه، حتى ضعف الطالب والمطلوب »، وقال قبل هذا بقليل: «ولم يزل لهذه الأمة البربرية فضل مشهور وباع في المحامد من أول الدهور، ولم ينفك منهم قائم يصادم بهم أعداءه ويحسم من قطرهم داءه ... الخ ».

رأي ابن خلدون في البربر:

قال ابن خلدون[1]: «وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية، وتنافسهم في الخلال الحميدة، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم، ومراعاة المدح والثناء من الخلق، من عز الجوار وحماية النزيل، ورعي الأذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، وحسن الملكة، والإغضاء عن العيوب والتجافي عن الانتقام، ورحمة المساكين، وبرّ الكبير، وتوقير أهل الدِّين، وحمل الكلّ، وكسب المعدم، وقرى الضيف، والإعانة على النوائب، وعلو الهمة وإباء الضَّيم ومشاقة الدول، ومقارعة الخطوب، وغلاب الملك، وبيع النفس من الله في نصر دينه، فلهم في ذلك آثار ينقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها، واتصفوا بها من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العز، وأربت لهم على ثنايا الملك حتى علت على الأيدي أيديهم، ومضت في الخلق بالبسط والقبض أحكامهم، وكان منهم مشاهير في كل طبقة من طبقات الإسلام بعد إسلامهم ... الخ ».

ثمَّ علَّق الزياني على ما نقله مِن كلام ابن خلدون بقوله: «قال كاتبه أبو القاسم بن أحمد الزياني: ما وصف به ابن خلدون هذا الجيل البربري مِن الأوصاف الحميدة والمناقب السنية العديدة، معلومة للعرب الكرام في الجاهلية والإسلام، ولما ساءت أحوالهم وخالف فعلهم مقالهم، حلَّى الله بها هذا الجنس البربري، قبل أن يخون ويفتري ويزيغ على الحق ويمتري، ولما خالفت الأفعال منهم الأقوال، وعاثوا في النفوس والأموال، سلبهم الله الملك والعز والسلطان، إذ أزلَّهم الشيطان وضربت عليهم المغارم في كلِّ الأوطان، وانعكس حالهم فيما وصفهم به مِن الخصال، وسعَوا في طريق

---

(1) نقله الزياني في رحلته « **الترجمانة الكبرى** » ص 72.

الانفصال بعد الاتِّصال، ولم يبق لهم وفاء يعتمد، ولا جوار لمن أراد المستند، وصار مَا صار لمن قبلهم مِن العرب، يستبقون للخذلان والهرب، شنشنة لبسوها مِن عادات جيرانهم عرب البسائط، يستعملونها في الحروب بالوسائط، ولم يبق منهم متخلِّق بتلك الأخلاق الحميدة، والأوصاف الفريدة، إلا برابر الصحراء المنقطعون في القفر، لا يعرفون الغدر والحفر، متنفِّرين على ممالك الأرياف، مقيمين لرَسم الوفاء والإنصاف، فهم مع هؤلاء البربر أهل الجبال وإن كانوا إخوانا وفي العصبية أعوانا، فالواحد منهم كالدينار يصرف بالدَّراهم، وصغيرهم ينفع المراهم، صان الله جوهرهم عن الفساد، وأبقاهم مصلحة للعباد » انتهى كلام أبي القاسم الزياني (1147 ـ 1149هـ) في (**الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**)، نشر لجنة إحياء التراث القومي بالرباط سنة 1387هـ/ 1967م (ص 72 و74) .انتهى .

إحياءُ معالم مدينة الجزائر[1]

إنَّ إِحياءَ دراسة تصميم عاصمة الجزائر في القرون الثَّلاثة ـ أي: قبل الاحتلال الفرنسي الذي طمس معالمها ـ تتوقَّف على جمع الوثائق الهامَّة الموجودة في دراسات المؤرِّخين والرَّحَّالين، وعقود الأَحباس والنَّوازل.

ومن هذه الوثائق ما كتبه المؤرِّخ الأسباني (**هايدو**)، إذ نجد معظم مَن كتبَ في هذا الموضوع من الأوربيِّين إلاَّ ويعتمده، وكذلك دراسة (**مارمول**)، وقد نقل عنهما (**Dapper**) في تأليفه: (**Description d'Afrique**) فقال بعد ذكر موقع المدينة وأسوارها، ثمَّ أبوابها، ذكر أنَّ الشَّارع الرَّئيسي المحتوي على معظم الأسواق التِّجاريَّة

(1) رسائل في التُّراث والثَّقافة، مراسلات الشَّيخ المهدي البوعبدلي (ص: 117 ـ 127)، دراسة وتعليق: د. أبو القاسم سعد الله، منشورات (المجلس الإسلامي الأعلى)، وقال الدُّكتور أبو القاسم عن هذه الوثيقة: «سلَّمها لي الشَّيخ المهدي بخطِّ يده »، هامش (ص: 117).

هو: ما بين (باب عزُّون)، و(باب الوادي)، أي: سفح القصبة.

ثمَّ ذكر عدد المنازل، ونوع مواد بنائها وهندستها، وعددها (15000)، ثمَّ عقَّب (**Lespes**) على هذه الإحصاءات بما نقله عن الأب (**Dan**) الذي زار الجزائر سنة 1634، كما أنَّ (**Grammaye**) زار الجزائر قبلهما، وذكر أنَّ عدد السُّكَّان زاد على ما كان عليه في عهد (هايدو)، وذكر لذلك سببين:

1) هجرة الأندلسيِّين سنة 1609م.

2) ثمَّ هدم الدُّور الموجودة خارج (باب عزُّون) سنة 1573م، بأمر من أعراب أحمد.

وحقيقة إنَّ المؤرِّخين متَّفقون على أنَّ الدُّور التي كانت خارج (باب عزُّون)، هدِّمت بأمره، ودخل سكَّانُها المدينة، وعددها ألفان (2000)، قيل: إنَّها هدِّمت سنة 1533م قبل هجوم (شارلكان)، وقيل: بعد ذلك، ولم يبق بـ (باب عزُّون) إلاَّ نحو الأربعين دارا ينزل فيها التُّجَّار المسلمون الذين يمونُّون البلدة.

بقي هذا العدد، أي: عدد السُّكَّان يتراوح بين المائة ألف وأزيد إلى سنة 1725م، فذكر(**Laugier de Tassy**) أنَّ عدد السُّكَّان يبلغ مائة وخمسين ألفا (كذا) (150.000)، ومن جملتهم اليهود الذين كان عددهم يتراوح بين الخمسة والسِّتَّة آلاف نسمة، وعلى كلِّ حال فالشَّوارع الرَّئيسيَّة الآهلة بالأسواق التِّجاريَّة، والمعاهد والمساجد ينحصر جلُّها في حومتَي (**باب عزُّون**)، و(**باب الوادي**)، والطُّرق المتَّصلة بهما.

مساجد الجزائر:

ذكر (هايدو) في تصميمه الذي نُشر سنة 1612م (Topographie d'Alger) أنَّ عاصمة الجزائر يبلغ عدد مساجدها بين كبير وصغير: مائة، لكلٍّ منها وكيلٌ وإمامٌ للصَّلوات، وأحباسٌ خاصَّة، مِن بينها سبعة مساجد كبيرة.

وقال دفولكس (A. Devoulx): «إنَّه سنة 1830م كان بالجزائر ثلاثة عشر مسجداً جامعاً، (109) مسجد صغير، (32) ضريح ومعاهد، (12) زاوية، فالمجموع: (176) بناية دينيَّة ».

وبعد الاحتلال وتطبيق سياسة التَّخريب بدعوى توسيع الشَّوارع، وتجميل المدينة، ومختلف الإدِّعاءات لتبرير طمس المعالم، كاد إجماع مختلف طبقات الكتَّاب، فرنسيِّين وأجانب، مدنيِّين وبعض العسكريِّين، أن يتَّفق على وصم هذه التَّصرُّفات بجرائم القرن ضدَّ المدنية والإنسانيَّة، ورأوا أنَّ الدَّاعي لارتكاب هذه الجرائم هو الجهل والحقد العنصري، والتَّعصُّب الدِّيني، حيث إنَّه لم يبق في سنة 1862م من البنايات التي أحصاها (Devoulx) إلاَّ (9) مساجد كبار، و(19) صغار، و(15) معهدا وأضرحة، وخمس زوايا، فالكلُّ (47) بناية.

فقد هدم في مدَّة (32) سنة (129) بناية دينية، ثمَّ إنَّ هذه البقيَّة لم تبق كلُّها تحت تصرُّف المسلمين، بل بقيَ منها للمسلمين (21) بناية: (4) مساجد كبار، و(8) صغار، و(9) أضرحة أو معاهد، أمَّا (26) فقد حوِّلت إلى كنائس، أو مخازن ودكاكين.

أسواق الجزائر:

أهمُّها: (**سوق الكتبية**) الذي كان في القيسرية الموجودة قرب الجامع الجديد الحنفي، و(**سوق الصَّباغين**) بقربه، و(**سوق المقايسية**)، و(**سوق الفرايرية**)، حيث تصنع أدوات الحديد المبرود، مثل الأقفال، وأجهزة الزناد للمكاحل والمسدَّسات، أو الكوابيس ـ كما كانت تسمَّى ـ و(**سوق الحرايرية**): كان صنع الحرير له شهرة بالبلدة، وكان معمله من المعامل الرَّئيسية للتَّصنيع في البلاد، حيث كان يستورد علاوة على حرير الخام (حرير الدُّودة) الذي كان يهتم به في نفس العاصمة، وكان كثير من سكَّان الأندلسيِّين يقومون بتربية دود الحرير، فعلاوة على حرير الجزائر، كانت البلاد تستورد

الكثير منه من (بيروت)، و(أزمير)، وتصدِّر الزَّائد على حاجية البلاد إلى المغرب وتونس وليبيا.

وهذه الأسواق كانت كلُّها قرب الجامع الحنفي، وقد هدِّمت في عهد الجنرال (كلوزيل)، عندما شرع في إنشاء ساحة الحكومة ـ ساحة الشُّهداء ـ وقد أثارت غضب السُّكَّان واحتجاجاتهم، ولم يروا لها أيَّ مبرِّر، وكان من ضمن المحتجِّين حمدان بن عثمان خوجة الذي سجَّل شكواه في (المرآة)، وقال فيه ردًّا على مزاعم (كلوزيل)، قال: «... وفي أماكن البنايات المهدومة أنشئت ساحة الحكومة، وهذه السَّاحة لا تتلاءم مع المدينة، حيث إنَّها أوسع من ساحة فندوم (Vendôme) بمدينة (باريز)، بينما محيط مدينة الجزائر لا يتجاوز حجمه حديقة التويلري (Tuilleries) بالتَّقريب».

ثمَّ قال صاحب (المرآة): «إنَّ (كلوزيل) يتصرَّف هذه التَّصرُّفات بوحي من حاشيته اليهوديَّة، وقد فضح هؤلاء اليهود ـ جنسهم ـ الكُتَّاب الغربيون من قديم الزَّمان، منهم (واتيل) ـ سياسي سويسري، [و] أحد واضعي القانون الدُّوَلي الحديث، المولود 1714ـ و(فرو تيوس)ـ مشرِّع وسياسي هولندي 1583/ 1645م ـ و(تاسيت) ـ مؤرِّخ لاتيني، المولود بـ (روما) حوالي 55م».

ثمَّ ذكر حمدان أنَّ من جملة فضائع وموبقات (كلوزيل)، هدمه لجامع السيِّدة، الذي كان آية رائعة في الفنِّ المعماري بساحة الشُّهداء، هدمه بعد أن جرده من أفرشته وثرياته المثمنة، ظنًّا منه أنَّ الأموال كانت موءودة داخله.

كانت هذه الأسواق، وأسواق (باب عزُّون) تحت مراقبة أمناء اختصاصيِّين، يفصلون الخلافات بين التُّجَّار وزبائنهم، وكلُّهم يخضعون إلى المحتسب الذي لعب دوراً عظيماً في البلاد الإسلامية، فقاوم الاحتكار والغشَّ بجميع أنواعه، ممَّا هو مذكورٌ بتفصيل في التَّآليف الخاصَّة بالحسبة.

ومن جملة الوظائف التَّابعة للحسبة التي اشتهرت في الجزائر، وظيفة (المزوار) الذي كان يراقب الأخلاق والآداب.

وقد بقيت بعض الآثار إلى يومنا هذا، ينبغي لها أن تُلحق بالآثار التي يجب المحافظة عليها، وذلك كبعض الحمَّامات التي كانت تُخصَّص للمومسات، والمشبوهات، حتَّى لا يختلطن بالعفيفات، وتسري عدواها إليهنَّ.

إنَّ هدف دراستنا هذه هو تسليط الأضواء على وضعية البلدة في عهود أمجادها، ثمَّ ما نالها من التَّخريب على أيدي متزعِّمي حماية المدنية، وذلك لنسهِّلَ للباحثين والمؤرِّخين والسُّواح الاطِّلاع على تخطيط المدينة، والوصول إلى تصوُّر حياة السُّكَّان في عصور الازدهار، إذ بدراسة هذه المعالم (أسواق تجارية، معامل التَّصنيع، قصور، معاهد، مساجد، حمَّامات، مقاهي، فنادق، أبواب، حدائق، عيون، دور الكتب، ملاجئ، مستشفيات، صادرات البلاد ووارداتها التِّجارية) يتسنَّى للباحث أن يتصوَّر الحياة اليومية التي كان يحياها سكَّان [المدينة] في مختلف أطوار تاريخها.

هذا النَّوع من الدِّراسات اشتهر عند المعاصرين بما يعبِّرون عنه، ويعنونون به تآليفهم (الحياة اليومية) (La Vie Quotidienne).

إنَّ الباحثين لهذا النَّوع من تاريخ العواصم الإسلامية وغيرها ينقسمون إلى قسمين:

قسمٌ كتب بتفصيل وتدقيق، ويتتبَّع جميع المظاهر الحضاريَّة التي تمتاز بها البلدة.

وقسمٌ آخر يتعرَّضُ لبعض مظاهر الحضارة بإجمال.

وقد جمع بين الإجمال والتَّفصيل المستشرق (لو طورنو) (Le Tourneau) الذي خصَّص لـ (فاس) تأليفَين:

الأوَّل: أطروحته التي تكلَّم فيها على مدينة (فاس) في عهد الدَّولة المرينية.

والثَّاني: عن الحياة في (فاس) سنة 1900م، أي: قبل الحماية الفرنسية.

وإنَّ مثل هذه الدِّراسة، علاوة على فوائدها للباحثين والسُّواح، فإنَّ شبابنا النَّاشئ، وكثيراً ممَّن حرموا من الثَّقافة الأصيلة، يستفيدون منها أكثر، فمؤلَّفات الفرنسيِّين الدِّراسية، وأساتذتها بالغوا في تصوير الحياة في العهد الإسلامي ـ خصوصًا العهد التُّركي ـ [ووصفوها] بأنَّها حياة تدهور وانحطاط وفقر، ثمَّ إنَّ معظم مواطنينا الذين نشأوا في بيئات فقيرة جاهلة حيلَ بينها وبين تقاليد أسلافها وعوائدهم، وحتَّى الذين حظوا بالثَّروة والجاه تنكَّروا للتَّقاليد الأصيلة، والعجب أنَّ كثيراً من الأسر المحافظة المتديِّنة خضعت لهذه العادات التي [ينبغي] أن يجعل لها حدّ صارم لِقلع جذورها [1]، ومن ذلك: (Robe De Soiree)، وخاتم (La Piece Montee) الخ .

وصف كثير من الرَّحَّالين الأوربيِّين الجزائر في عهدها الإسلامي، فلفتت نظرهم هندسة بناء الدُّور، إذ كان يراعى انسجامها مع التَّقاليد الإسلامية.

وذكر الكثير منهم أنَّ الجزائريِّين تفوَّقوا على معاصريهم الغربيِّين في فنِّ البناء، كما تعرَّضوا لوصف المأكولات، وموائد الطَّبقات العليا، والمتوسِّطة، والفقيرة، وكان الاهتمام بالفقراء والمساكين وعابري السَّبيل ومأوى العاجزين من رجال العلم، كلُّ ذلك نجده في بعض عقود الأحباس على المشاريع الخيريَّة المخصَّصة لإطعام وإيواء هذه الطَّبقات، وتوزيع الصَّدقات عليهم.

أمَّا أثاث البيوت والملابس والحليِّ، وجميع المرافق، فنجد ذكرها في عقود التَّركات، ومن أهمِّها وثيقة احتفظ لنا بها التَّاريخ وهي: تركة المرحوم أحمد (باي قسنطينة) في

(1) في (الأصل): «... خضعت لهذه العادات التي إن لم يجعل لها حد صار من ؟؟ قلع جذورها ».

الجزائر، فقد حرِّرت هذه الوثيقة بالمحكمة الحنفية بالجزائر سنة 1267هـ، وزيادة على قائمة المتروك المفصَّلة، تجد تقييم جميع ما ذُكِر فيها من أثاث منزلي ولباس وحُليٍّ.

هذا كلُّه فيما يخصُّ مظاهر الحياة الماديَّة، أمَّا الحياة الأدبية والرُّوحيَّة فإنَّنا نجد كُتَّابنا المسلمين من رحَّالين وسفراء وعلماء تعرَّضوا لها بغاية الدِّقَّة، إذ بطبيعة الحال، وجرياً على التَّقاليد المتَّبعة إذ ذاك، كانوا بمجرَّد وصولهم إلى العاصمة إلاَّ ويتَّصلون بعلمائها، فيتبادلون معهم الإجازات والتَّآليف، ويحضرون دروسهم، ويلقون بدورهم دروسًا بالمساجد، ثمَّ يسجِّلون انطباعاتهم.

ومن ذلك على سبيل المثال ما وصف به الجزائرَ، الرَّحَّالةُ عبد الرَّحمٰن الجامعي الفاسي الذي زارها سنة 1120هـ فقال: «وهذه المدينة لا تخلو من قرَّاء نجباء، وعلماء أدباء، وأعلام خطباء، مساجدهم بالتَّدريس معمورة، ومكاتب أطفالهم بالقرَّاء مشحونة ومشهورة».

إنَّ الحياة الرُّوحيَّة والأدبية كانت متمِّمة للرُّقَيِّ الحضاريِّ الماديِّ.

امتازت الجزائر في عصور ازدهارها بالطَّهارة والعفَّة والرَّحمة، فكان أفرادها يتسابقون إلى تحبيس الدُّور والحمَّامات والمزارع، على المساجد والمستشفيات ومعاهد العلم والملاجئ، حتَّى كان التَّعليم بجميع مراحله، ومصاريف المستشفيات والملاجئ، وعيون المياه، كلُّ ذلك من ريع الأحباس، وكان يخصَّص قسمٌ هامٌّ من الأحباس إلى الحرمَين الشَّريفين، وإلى إعانة طلبة العلم بـ (الأزهر)... الخ.

المحافظة على الآثار القديمة الإسلامية:

ومن هذه الآثار، آثار ملاَّلة ـ قرب (بجاية) ـ حيث اجتمع المهدي بن تومرت مع خليفته عبد المؤمن بن علي، وتحديد الموضع بالضَّبط، إذ (ملاَّلة) تُطلق على مساحة

آلاف الهكتارات الآن، وكذلك (إيكجان)، حيث أسِّست الدَّولة الفاطمية، و(طبنة) التي كانت قاعدة (الزَّاب) في عهد الفاتحين، وكان من أوَّل الولاة الذين سكنوها إبراهيم بن الأغلب، وكذلك بعض آثار المدن المهدَّدة بالتَّخريب، كـ (هنين)، و(أرشقول).

المحافظة على الكتب:

ومن جملة المحافظة على الكتب، هو أنَّ خزانة (جمعية الجغرافية والآثار) بـ (وهران) (Sté de Géographie et d'archéologie) المحتوية على ما يقرب من عشرة آلاف مجلد من الكتب، ومجاميع المجلاَّت، [من] مختلف بلاد العالم، كانت تتبادلها مع نشرتها (Bulletin de la Sté d'Oran ...)، [و] لها قاعة ومجلس إداري خاصّ، فيه بعض الأفراد كانوا معيَّنين فيه منذ (30) سنة، كالدُّكتور (Jocelin)، و(Domergue) محافظ المتحف بـ (وهران)، وغيرهما.

وكذلك ينبغي التَّنقيب على جمعية (قسنطينة)، وجمعية (الجزائر)، وإعادة النَّظر في تسجيل الآثار بالمتاحف والمكتبات البلدية، ونشر فهارسها، ليتمكَّن (كذا) مراقبتها.

إعداد حصص بوسائل الإعلام (الصَّحافة المرئيَّة، والمسموعة) كأحاديث: إذاعة تونس التي تتناول الآثار والعوائد والفن والثَّقافة، خصوصاً في شهر رمضان، وحملة توجيهيَّة لتوعيَّة الجماهير، خصوصاً بالجهات الموجود فيها الآثار الإسلامية أو الرُّومانية والفينيقية، حتَّى يمكنهم حراستها.

المصادر الأوربية لتاريخ مدينة الجزائر:

1) Topographie et histoire générale d'Alger: par la bénédiction Fray Diégo de Haèdo, Traduit de l'espagnol par le Dr Mounereau et A. Berbrugger.

(وقد نشر مسلسلا بالمجلَّة الإفريقية) ابتداءً من سنة 1870م

2) L'Algérie pittoresque, historique et monumentale: par Berbrugger.

3) Description de l'Afrique: par Dapper.

4) Histoire d'Alger et de la piraterie des turcs dans la méditerranée: par Ch. De Rotalier.

5) Tableau du royaume et de la ville d'Alger et ces environs: par Renaudot.

6) Les deux Barberousse, Histoire du gouvernement d'Alger: Laugier de Tassy.

7) L'Algérie pittoresque, ou Histoire de la régence d'Alger depuis les temps les plus reculés: par Elaussolle, édit à Toulouse 1845.

8) Histoire de la piraterie des turcs dans la méditerranée à la date du 16é siècle: par El. De Rotalier.

9) Alger Esquisse de géographie Urbaine: par R. Lespes, Alger 1925.

10) L'Algérie un siècle Avant l'occupation Française (au 18e siècle): Témoignage de Shaw, Religieux Anglais.

11) Les édifices religieux du vieil Alger: par A. Devoulx.

12) Etc.… Feuillet D'El djazair: par Klein

الاحتلال الفرنسي للجزائر
ومقاومة الشَّعب في الميدان الرُّوحي(1)

كان عهد الاحتلال الفرنسي طيلة مدَّته سلسلة أحداث متتابعة ومجدِّدة للحروب الصَّليبية، فكانت غايته إفقار البلاد وتجهيلها، ثم تنصير السكَّان أو إدماجهم في العنصر الفرنسي.

وإنني في هذا المقال سأتحدث بإيجاز عن تاريخ مراحل هذا الاحتلال، كما أتناول بالدراسة المفصلة مواقف الأمة ودفاعها على أهم ما كانت تعتز به، وهو عقيدتها الإسلامية، ذلك الدفاع الذي أرغم المحتل الغاصب نفسه، إلى الاعتراف بفشله الذَّريع في هذا الميدان، وسأقسم حديثي هذا على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الاحتلال الفرنسي في أول عهده وما أعقبه من مظالم، ثم ظهور المقاومة.

الفصل الثاني: افتكاك الأراضي ومحاولة التنصير.

الفصل الثالث: ننهيه إلى قيام الحرب العالمية الثانية سنة 1939م.

لا أحدثكم عن الاحتلال وأسبابه، فمجال هذه المحاضرة الضيق، لا يسمح لنا بذلك، وإنما نذكر بعض نتائج هذا الاحتلال مباشرة.

إن المعاهدة التي حررها الماريشال دو بورمون قائد الحملة الفرنسية، ووقع قبولها

---

(1) ألقيت هذه المحاضرة بمركز المحافظة الوطنية لجبهة التحرير بمدينة (مستغانم) في 25 رمضان 1390هـ. انظر: مجلة الأصالة، العدد 8، ص 305-320.

من حسين داي، كانت تشتمل على ستة بنود أهمها اثنان:

البند الذي يشمل احترام الداي وأسرته، والتعهد له بحماية السلطات لشخصه وماله وأفراد أسرته، والبند الذي ينص على احترام الدين الإسلامي والمحافظة على حريته، كما تحترم حرية جميع طبقات السكان وديانتهم وأموالهم، وقد تعهد دو بورمون بشرفه لهذا الالتزام.

لم يمر على احتلال البلاد إلا أسابيع قليلة حتى نقضت هذه المعاهدة، فأول شيء قام به الجيش الفرنسي هو إسكان الجيش المحتل المرابط بالعاصمة، وكان عدده يربو على الخمسة عشر ألف جندي، أسكن هذا الجيش بمعظم الدور والمحلات التجارية بل حتى المساجد والقصور.

كان عدد المساجد التي أممت لهذه الغاية أربعين مسجدا، وعدة معاهد، معظمها بحومتَي **(باب الوادي)** و**(باب عزون)**، لم يكتف الجيش المحتل بتسخير هذه المساجد والمساكن، بل شرع في تهديم البقية، تحت ستار إصلاح البلدة، وتوسيع شوارعها فكانت النتيجة الأولى من هذه التصرفات أنه لم يمر عام واحد على الاحتلال حتى خربت جل المساكن، إذ نرى أن الجنرال اعترف في تقرير رسمي بعثه إلى السلطات العليا بباريز، اعترف بخراب تسع مائة دار في هذه الفترة.

ومن جهة أخرى ذكر الحاكم المدني في بعض تقاريره ما يلي: «إنني لم أجد إلا مسكنين عربيين نجيا من التخريب، إنهما كانا مسكنين لضابطين من درجة جنرال، فلو سكنهما الجند لما بقي منهما شيء، وللحق الخراب فيهما حتى خشب السقوف، وكذلك أشجار الحدائق كالزيتون والبرتقال والتين، فإن معظمها تلهبه نيران المطابخ، إنه لمنظر محزن هذا الذي نشاهده، وإن هذه الدور التي نشاهد آثارها الدالة على أنها كانت جميلة جدا كثيرة، فإنني حسبت في مسافة تتراوح بين أربع وخمسمائة خطوة، نحو العشرين دارا خربت، إن مساكن

(**بير مندرايس**)، و(**بير خادم**) وغيرها من مساكن الفن كلها لحقها الخراب، اللهم إلا دارين أو ثلاثة، لم يبق منها إلا بعض السبائك من النحاس والحديد يحملها الجندي عند ما يذهب إلى المدينة فيبيعها للتجار اليهود، الذين يبيعونها بدورهم إلى تجار الآثار، وهم يصدرونها إلى مرسيليا أو ليفورون (Livourne) » .انتهى كلام (Pichon) .

كان معظم المساجد التي هدمت بدعوى تخطيط البلدة وتوسيع شوارعها الضيقة، ما بين ساحة الشهداء الحالية، وثانوية الأمير عبد القادر ـ أي: سفح ضريح الشيخ عبد الرحمٰن الثعالبي ـ.

وإذا بقي الآن المسجدان الحاليان المالكي والحنفي، فذلك يرجع إلى معجزة، إذ بذل المخربون جهودا جبارة لإلحاقهما ببقية المساجد المهدومة، وهذا تقرير آخر للحاكم المدني (Pichon) أرسله في الموضوع إلى رئيس الحكومة الفرنسية قال فيه: «إنني بمجرد وصولي وشروعي في العمل سمعت بأن اللجنة المكلفة بالمحلات العسكرية لم تهتم بشيء مثل اهتمامها بالاستيلاء على بقية المساجد، إن كثيرا من المسؤولين هنا لم يبالوا بنظر الحكومة في الموضوع، فهم يريدون القضاء على بقية المساجد وعلى الدين الإسلامي، وإنني عند ما اجتمع ببعضهم يقابلونني بالسخرية والتهكم، ويصارحني بعضهم بأن محاولاتي في الدفاع عن المساجد وعمارها ستبوء بالفشل، وإنني على كل حال لم أبال بحكم هؤلاء الجهال، بل هناك رؤساء، هم الذين أهتم بأحكامهم على تصرفاتي، كنت أنتظر الاتصال باللجنة المكلفة بإسكان الجيش إذ أراها تؤمم المساكن، وتسكن فيها الجيش وعند خرابها لم تحاول إصلاحها، بل كل ما تفعله هو التفتيش من جديد على محلات أخرى صالحة للسكن، وهذا ما ألفت نظركم إليه مرارا، وقلت لكم أنه ينذر بسراع الخراب إلى كامل المدينة، إن لم يجعل لهذه التصرفات حد، كما أخبركم بأن أعضاء اللجنة يريدون القضاء على مسجدين العظيمين المالكي والحنفي، بدعوى

أنه إذا تمرد السكان يجدون فيهما ملجأين هامين، وتناسوا بأن المسجدين يوجدان تحت أفواه ونيران مدافع القصبة، والبواخر الراسية في الميناء... الخ» انتهى تقرير (Pichon).

وإننا إذا أحصينا المساجد التي هدمت أو حولت إلى كنائس أو مخازن، لما وسعنا مجال هذه المحاضرة، وهي بحمد الله مسجلة واحدة واحدة، ومعظمها كان لها ريع ممتاز، إذ لم تكن المساجد إذ ذاك مقصورة على أداء العبادات فقط، بل كانت معاهد علم فيها حلقات الدروس العلمية، ثانوية وعالية، ودروس الوعظ والإرشاد والتوجيه للعوام، ولم يخل مسجد من كتاتيب قرآنية وخزائن كتب في مختلف الفنون، وقد كانت مساجد الجزائر ومعاهدها تمتاز بوفرة الر يع، حيث كان الغزاة يسهمونها حصصا هامة من غنائمهم، وقد حفظ لنا التاريخ بعض وثائق أحباس الجامع الأعظم بالعاصمة، فكان ما صرف من الزائد على المصاريف اللازمة فقط، يقدر بمئات الملايين في العصر الحاضر، إذ لا يخفى على حضراتكم أن التعليم إذ ذاك بجميع مراحله ابتدائي، وثانوي، ووعالي، ودور الكتب، والمستشفيات، والتكايا، التي يلتجئ إليها عابرو السبيل والفقراء والمساكين، كانت مصاريفها من ريع الأحباس.

هذا فيما يخص المساجد والمعاهد العلمية، أما القصور، فكان عددها يربو على الستين، وقد بقيت منها بقية إلى يومنا هذا، تدل على أن ما تبارى فيه كثير من كتّاب الجزائر وأدبائها في وصفها، لا مبالغة فيه، ومازال التاريخ يحتفظ لنا بقطعة رائعة نظما ونثرا للأديب الشهير الشيخ سيدي أحمد بن عمار، المستغانمي الأصل، الجزائري المنشأ والدار، صاحب الرحلة المشهورة، وصف بها قصر عبد اللطيف الذي مازال إلى يومنا هذا، كان هذا القصر في عهد الاحتلال الفرنسي مقرا للفنانين الرسامين.

ولنكتف بما وصف به أحد الضباط الفرنسيين المشهورين قصرا آخر كان مصيفا لحسين داي، قال الجنرال **لاموريسيير** يصف هذا القصر الذي سكنه ما يلي:

«Le pays où nous sommes est délicieux. L'air est embaumé de parfum des jasmins, des géraniums et des roses. La maison que j'occupe est à 200 pas de la mer. C'est un lieu de plaisance du dernier dey d'Alger.

Partout des bassins de marbre, des jets d'eau, des fontaines vives.

C'est là au milieu des merveilles de l'art, de la nature et de l'appareil militaire de mon camp que, chaque matin et soir, je prends mon café et fume ma longue pipe ».

إن الجزائر كما ذكرنا كانت لا تقلُّ مكانتها في العلم والحضارة عند احتلال الفرنسيين لها، على بقية عواصم العالم الإسلامي إذ ذاك، خلاف ما يتبجَّح به بعض المغرضين أو الجهَّال، وإن ما وصفها به كثير مِن العلماء والرَّحَّالين ـ مسلمين وغير مسلمين ـ الذين وردوا عليها في مهمَّات دبلوماسية أو سياحية لَدليلٌ على ذكرناه.

لم يقتصر نقض المعاهدة على هذا القدر، بل عزز بتشجيع التنصير، فعلاوة على تحويل بعض المساجد كنائس كجامع كتشاوة وجامع علي بتشين وجامع علي خوجة، فإن سلطات الاحتلال حكمت بالنفي والإبعاد على أعظم شخصية دينية إسلامية، إذ اتهم الماريشال دو بورومون العلامة الشيخ محمد بن محمود المشهور بابن العنابي المفتي الحنفي بالعاصمة، اتهمه بمحاولة التمرد والدعوة إلى الثورة، فحكم عليه بالنفي، فاختار الإسكندرية، وأسندت إليه الحكومة المصرية نفس الخطة، وبقى مفتيا بها إلى أن توفي، وقد كان من كبار رواة الحديث، ومازالت آثاره وبقايا أسرته، إلى يومنا هذا بالقاهرة والإسكندرية.

ثم وقعت وقعة في عهد الجنرال فوارول الذي خلف الماريشال دو بورمون [حادثة]، اهتم لها السكان لأول مرة وأظهروا سخطهم واستياءهم علانية، وتظاهروا وذلك عندما حاولوا تنصير امرأة مسلمة، ولما احتج القاضي على هذه التصرفات عزل وعينوا آخر خلفه، وعند تنصيب الخلف اجتمع السكان بالمحكمة وتظاهروا، ومنعوا التنصيب، فكان هذا أول انفجار ضد تصرفات الاحتلال من طرف الشعب، وابتداء من هذه الحادثة

ظهرت مقاومة الشعب جلية، وانقسمت هذه المقاومة إلى قسمين: قسم النخبة ، وقسم العامة.

فمقاومة النخبة كان على رأسها العالم الشهير السيد حمدان بن عثمان خوجة، وكان ميدان عمله الأوساط الباريزية، أي أوساط الصحفيين، والكتاب الأحرار، والنواب الجمهوريين.

أما العامة يقومون بالمظاهرات والاحتجاجات الصاخبة، والشكاوى التي تؤيد رأي النخبة.

والحديث عن هذه المقاومة بتفصيل لا يسعه أيضا مجال هذه المحاضرة، وإنما لا يفوتنا أن نذكر ما سجله السيد عثمان خوجة في تأليفه المسمَّى: (المرآة) (Le Miroir)، الذي هو عرض حال قدَّمه للجنة البرلمانية التي أرسلت من فرنسا للبحث، إثر احتجاجات ومساعي حمدان بن عثمان خوجة ورفقائه، بعد صدور قراري الجنرال (Clauzel) المؤرَّخين في 10 جوان وفي 8 سبتمبر 1831، هذان القراران هما اللذان صادر بهما الجنرال (Clauzel) أملاك الدولة، والأملاك الخاصة للأتراك المهاجرين، ثم البقية الباقية من الأحباس.

كان لهذين القرارين صدى استياء في كل الأوساط الإسلامية، إذ هو نقص صريح للمعاهدة، وقد تأثر منه حتى بعض الأحرار الفرنسيين كالمؤرخ الشهير (Pélissier Reynaud) صاحب تاريخ حوليات الجزائر (Les Annales Algériennes) قال المؤرخ المذكور: «إن شروط الاستسلام ديست بالأقدام، وعار على دولة دخلها مائتان وألف مليون فرنك، عار عليها أن تجرد عائلات فقيرة من مكاسبها ضد كل القوانين الإلهية أو الإنسانية، وهذا نص ما ذكره المؤرخ:

« Depuis la prise de la ville d'Alger, beaucoup de maison particulière étaient occupées militairement, d'autres étaient démolies pour l'élargissement des rues et l'établissement des rues et l'établissement de quelques place publiques.

Par un arrêt du 26 octobre, le Général Clauzel promit des indemnités

aux propriétaires dépossédés et y affecta les immeubles du domaine. Cette mesure juste et humaine ne fut pas mise en exécution, un odieux esprit le fiscalité prévalue sur les règle de la justice et de l'honneur.

Une nation dont les revenus s'élevaient à 1200 millions fît banqueroute à des pauvres familles qu'elle avait dépouillées contre toutes les lois divines et humaines. »

ذهب حمدان عثمان خوجة إلى باريز في أوائل ماي 1833 فالتحق ببعض مواطنيه الذين نفاهم (Le Duc Rovigo) منهم بوضربة، وأولاد ابن تركية، وإبراهيم بن مصطفى باشا، وكانت الأوساط الباريزية تطلق عليهم اسم (L'inteligenta) وبالفعل اتصلت هذه النخبة بالشخصيات الباريزية وأطلعتها على مثالب الحكم العسكري، وكانت الجريدتان اليوميتان بباريز (Le National) الوطني، وبريد فرنسا (Courier de France) ينشران سلسلة مقالات تبين فيها فضائع العسكريين بالجزائر، واهتم لهذه الحملة الصحفية الرأي العام الباريزي الذي أيد مطالب النخبة في إرسال لجنة بحث برلمانية، وعينت بالفعل هذه اللجنة في 7 جوليت 1833، كما أيد سكان عاصمة الجزائر مطالب النخبة ووقعوا عرائض وكلوا فيها السيد حمدان بن عثمان خوجة للدفاع عنهم، والتكلم باسمهم، وهذه هي الأسباب التي دعت السيد حمدان خوجة لتأليف كتابه القيِّم: (**المرآة**) حتى يستعين به أعضاء لجنة البحث البرلمانية، ذكر فيه بتفصيل حالة البلاد الجزائرية، قبل الاحتلال الفرنسي، ثم ظروف الاحتلال، والمعاهدة المتفق عليها من الجانبين الجزائري والفرنسي، ثم تعرض للفظائع التي ارتكبها الفرنسيون العسكريون في مدة الثلاث سنوات، وختمه بقوله: «إن الجيش الفرنسي صادر الدور والمنازل وحطمها، كما أفسد الحدائق وجرد السكان من ممتلكاتهم وأثاث منازلهم، إن تصرفاته كانت سببا في هجرة الأغنياء، وإرجاع الفقراء إلى التَّسوُّل، إن شروط المعاهدة نقضت، فالدين الإسلامي والعوائد الإسلامية لم تحترم، استولوا على المساجد، وأمموا الأحباس، ونبشوا القبور، ولم يحترموا حتى عظام الأموات، إن نهب الأموال وهدر

دماء الرجال وارتكاب الجنايات في الأموال والأنفس، هذه الأعمال هي تقع الآن في الجزائر، إن النفي ومصادرة الأموال هما كل حظنا مِن الدستور، وإننا نعد أنفسنا سعداء إن لم يلحق قرار آخر باستئصال الجزائريِّين، إن ممثلي فرنسا مسؤولون عن هذه الأحداث، فمنذ ثلاث سنوات لم يظهِر لنا حكَّام الجزائر إلا الغطرسة والأنانية والتَّعامي، إنهم ساعدوا المتملِّقين من الأهالي واليهود والمسيحيِّين.

ثم بين بتفصيل جميع ما لحق الجزائر طيلة السنوات الثلاث التي أعقبت الاحتلال، ومن جملة هذه الموبقات إجبار كثير من السكان المسلمين على تطليق زوجاتهم، ثم ختم تأليفه بعرضه للحل الوحيد للقضية، وهو الاقتداء بما فعله نابوليون الأول بمصر حيث كون حكومة محلية مصرية. وصرح حمدان تصريحه المشهور وهو:«إن الجزائر للجزائريين ».

نكتفي بهذا القدر الذي يبين لنا إن الجزائريين لم يقابلوا الاحتلال الفرنسي كما اتهمهم كثير من الكتاب من أنهم تسابقوا بعد الاحتلال إلى التعاون مع المحتل، بل قاوموا بكل إمكانياتهم وطاقاتهم، هذا بالنسبة لسكان العاصمة فقط، أما خارج العاصمة فكانت المقاومة بالسلاح وكانت العاصمة في شبه حصار والقائمون به هم الزعماء الأبطال، ابن زعمون والسعدي وسيدي علي مبارك، هذا علاوة على مقاومة الأمير عبد القادر بعد، وكانت مقاومة الشعب الغير المسلحة لها أثر عميق.

الفصل الثاني:

إن الحديث عن الأمير عبد القادر، ومقاومته طيلة سبعة عشر سنة معروف لدى الجميع، وقد قتل بحثا على حد تعبير المعاصرين، وخصصه الكتاب بالتآليف ولم يوجد في الجزائر من لم يتصوره إجمالا أو تفصيلا، ولهذا نتعرض له في هذه المحاضرة التي خصصناها للمقاومة في الميدان الرُّوحي.

بمجرد ما أنهت فرنسا الحرب مع الأمير القادر، أعلنت الحرب على القبائل

الصغرى بما فيها جبال بابور، فدامت من سنة 1849 إلى 1852، ثم أعلنت الحرب على القبائل الكبرى سنة 1853 فدامت إلى سنة 1857 وكان أكثر الناس مقاومة أو تحريضا عليها أتباع الطريقة الرحمانية التي كان يتزعمها إذ ذاك الشيخ محمد المهدي السَّكلاوي اليراتني، شيخ الزعيم الشهير محمد أمزيان بن الحداد، بطل ثورة 1871.

لما استولى الفرنسيون على بلاد القبائل هاجر الشيخ المهدي السَّكلاوي إلى الشام على رأس وفدٍ من تلامذته، وخلف على رأس الطريقة الرَّحمانية الشيخ محمد أمزيان بن الحداد، عندما انتهت المقاومة في بلاد القبائل صادرت الحكومة الفرنسية جميع أراضي المجاهدين وفرضت ضريبة حربية على نحو 45 قرية، وكان مقدار هذه الضريبة، يتراوح بين 15 ألف فرنك و 570 ألف فرنك للقرية الواحدة وألقي القبض على كثير من الرؤساء من جملتهم المجاهدة الشهيرة السيدة فاطمة، فقد سجنت بـ **(تابلاط)** في زاوية الشيخ الطاهر بن محيي الدين باشاغا بني سليمان، برفقة إخوتها: السادة الطاهر ابن أحمد أومزيان، ومحمد، والشريف، وبقية أفراد أسرتها، البالغين ثلاثين نسمة، كان الفرنسيون يسمون هذه المجاهدة بـ : **نبِيَّة الجرجرة** (La Prophétesse de Djurdjura)، ورغم إلقاء القبض على المجاهدة وسجنها بقشلة عسكرية، فإن الشعب القبائلي بقى وفيا لها وفاء حير عقول قادة الجيش الفرنسي، حيث أحصى بعضهم عدد زوارها في يوم واحد بثلاث مائة بين رجل وامرأة؟، كانت هذه الزعيمة من تلامذة الشيخ المهدي السَّكلاوي السابق الذكر.

وعندما فرضت فرنسا نفوذها على البلاد، وشرعت في تتبع خطة التوسع، وتجريد السكان من أراضيهم، وتغيير القوانين الدينية وفرنستها، ارتطمت بثورات متكررة، ففي سنة 1849 وقعت ثورة الشيخ أبي زيان المشهورة في التاريخ بثورة الزعاطشة ثم ثورة بني يمل سنة 1850 ومات أثناءها الجنرال (Barral) عندما حاول تخطيط وتعبيد الطريق بين

سطيف وبجاية، وثورة أبناء سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني سنة 1864، وثورة المقراني وصهره الشيخ ابن الحداد سنة 1871، ثم ثورة بوعمامة، وثورة سيدي الأزرق بفليتة وونشريس، وثورة مروانة بالأوراس، وثورة بني شقران إبان الحرب العالمية الأولى، كل هذه الثورات كانت تحت قيادة رجال الدين الإسلامي، مما ترك أحد المؤرخين الفرنسيين يصرح بأن الفرنسيين لقوا المقاومة عند السكان العرب والقبائل، أما الأتراك فإن نفوذهم تقلص بمجرد احتلال الجزائر، والسكان الأصليون من عرب وبربر الذين لم يخضعهم الأتراك، هم الذين قاوموا الفرنسيين، والعجب أن هؤلاء السكان ليست لهم وحدة، وكانوا دائما يحاربون بعضهم بعضا، فالرابطة الوحيدة التي تجمعهم هي الدين.

Les Français ont eu comme adversaires, non les Turcs, dont la puissance s'était effondrée avec la prise d'Alger, mais les Indigènes, Arabes et Kabyles que les Turcs eux-mêmes n'avaient qu'incomplètement soumis.

Ces populations ne formaient pas une masse homogène, mais se partageaient en une multitude de groupement sans cohésion et souvent en lutte les uns contre les autres. Le seul lien qu'il y eut entre eux la religion.

كان الخلاف إذ ذاك قويا بين المدنيين والعسكريين الفرنسيين الذين وإن كانوا متفقين على إخضاع المسلمين وقهرهم، إلا أنهم اختلفوا في وجهات النظر، فالمدنيون كانوا يميلون إلى نشر الحكم المدني ليستولوا على البقية الباقية من الأراضي التي بقيت تحت تصرف المسلمين، أما العسكريون فكانوا يرون أن بقاءهم حكاما، يتصرفون كيف شاءوا، يتمتعون بالجاه والمال ونشوة الحكم، هو مرتبط ببقاء الأوساط الإسلامية والحكم العسكري، فإن دخلهم المعمر المدني ضاع لهم الحكم، وكان غلاة المثقفين من رجال الكنيسة والتعليم والقانون يدبرون خطط الاندماج والتنصير، أو إخلاء الأرض الصالحة من سكانها وإبعاد هؤلاء السكان إلى الجبال والصحاري، فعندئذ ظهرت مسغبة سنة 1867 المشهورة عند السكان بعام الشر، فاستغلها بصفة دنيئة الصليبي المشهور الكاردينال (Lavigerie) الذي عين إذ ذاك أسقفا على رأس كنيسة الجزائر،

وكان يتمتع بنفوذ عظيم في الأوساط العسكرية، واليمينية، وكان من جملة أنصاره الماريشال (Niel) و وزير الحرب بباريز (Baroche)، ووزير الأديان.

كان الكاردينال (Lavigerie) بمجرَّد توليته على كنيسة الجزائر لم يخف نواياه ضد الإسلام والمسلمين، فأول تقرير أرسله في الموضوع قال فيه: «إن إدخال الأهالي للديانة المسيحية واجب مقدس، ينبغي أن نرقي هذا الشعب، ولنضرب صفحا على غلطات الماضي، فأول ما يجب علينا معهم هو الحيلولة بينهم وبين القرآن، بدلا من غلطات أخرى كإحياء مملكة عربية، ينبغي لنا على الأقل أن نهتم بالصبيان، فندخل في عقولهم تعاليم جديدة ألا وهي تعاليم الإنجيل، فبعد ذلك يمكننا الاختلاط بهم وإلا فلنبعدهم إلى الصحراء، بعدين عن الشعب المتمدن».

كان ضحايا هذه المجاعة أي مجاعة 1867 ما يزيد على موت ثلاث مائة ألف جزائري، بين الرجال والنساء والصبيان، ثم كان زلزال البليدة، ووباء الكوليرا، فاستغل الكاردينال هذه الظروف القاسية والتقط نحو 1753 طفلا، تتراوح أعمارهم بين 8 و 15 سنة وجمع تبرعات من فرنسا والجزائر، بدعوى إنقاذ هؤلاء الأطفال من المجاعة، فجمع ما يزيد على المليون فرنك فأسس مركز انطلاق التنصير بهذه البلاد، واختار لهذا المركز ناحية بعيدة عن المدن الإسلامية، ناحية أثرت فيها المجاعة كثيرا، ومات جل سكانها أو جلوا، اختار الكاردينال لا فيجري سهول شلف الشرقية بناحية العطَّاف، وأسَّس هناك ضريحا رمزيا لسيبريان ـ الذي كان يعيش في قرطاجنة واعتنق المسيحية ومات ضحية عقيدته ـ فسمَّى ذلك الضريح بـ : ضريح (Cyprien)، ثم أسَّس بقربه مستشفى سمَّاه أيضا باسمه، وما زال الضَّريح والمستشفى إلى يومنا هذا.

وبعد مرور خطر المجاعة، منع لا فيجري الاتصال بين أولئك الأطفال وما بقي لهم من أسر وقرابة، ولما تدخلت السلطات وطلبت منه أن لا يحرم هؤلاء الأطفال من

الاتصال بأسرهم، أجابهم بوقاحة يتبرأ منها كل دين سماوي، أجابهم بقوله: «إنهم لي، إذ أنا الذي حافظتُ لهم على حياتهم »:

«Ils m'appartiennent, parce que la vie qui les anime encore, c'est moi qui la leur ai conservée. C'est donc la force seule, qui les arrachera de leurs asiles ».

أثارت هذه القضية خلافا حادا بين الماريشال ماك ماهون (Mac Mahon) والي الجزائر إذ ذاك، والكاردينال ورفعت إلى الحكومة بفرنسا، وكان الإمبراطور نابليون الثالث على رأس الحكومة الفرنسية، فانتصر للوالي، إلا أن وزير الحرب الماريشال (Niel) شد عضد الكاردينال، وفي الأخير وجد حل وسط يرضى الجانبين بالنسبة إلى نشاط الكاردينال في ميدان تنصير السكان، فإنهم سوغوا له تأسيس الملاجئ، وأمروه بالاحتياط في الدعوة إلى التنصير، أما من التقطهم فإنه حيل بينهم وبين ذويهم، وخسروا الجهتين، فإنهم لم يندمجوا في الفرنسيين السكان الأصليين إذ كانوا يحملون أسماء غربية، وألوانهم من جهة أخرى كانت تحمل الطابع الأهلي، بل الكثير منهم كانوا موشومين، ولما سعى نفس الكاردينال وخلفاؤه من بعده، أن يمنحوهم أراضي استعمارية تعرض لهم المعمرون ولم يعترفوا بهم كمسيحيين، وهكذا عاش كثير من هؤلاء التعساء في تلك الناحية مذبذبين، يحملون أسماء: (Robert) بن عبد القادر، وجوزيف بن عبد الله، وقاطعهم السكان المسلمون، وصاروا يسمونهم بالمطرنين ـ أي: المتجنِّسين ـ إلى أن انقرضوا قبل الحرب العالمية الثانية، حيث لم تبق منهم إلا بقية ضئيلة أجليت مع المعمِّرين إثر استقلال البلاد سنة 1962.

إثر هذه المأساة، عيَّن نابليون لجنة بحث برلمانية وأرسلها إلى الجزائر لتبحث في قَضيتَي المسغبة والتَّنصير تحت رئاسة الماريشال[1]، وذلك في ماي 1869 وكان من جملة

(1) بياض في الأصل.

من اجتمعت بهم من المسلمين الجزائريين ثلاثة أعضاء يمثلون المجالس العمالية لقسنطينة والجزائر ووهران، وهم السادة محمد المكي بن باديس ممثل قسنطينة، وحسن بريهمات ممثل الجزائر، وأحمد ولد قادي ممثل وهران.

كان موقف هؤلاء النواب وبالخصوص العالم الخبير حسن بريهمات موقفا مشرفا، ضد مطالب المعمرين، إذ بينوا للجنة البحث المظالم التي كانت البلاد مسرحا لها، وبعد رجوع اللجنة إلى باريز اتخذت الحكومة قرارات وسنت قوانين متضاربة ومتناقضة وأعطت الأوامر لتطبيق القوانين السابقة كقانون 14 جوليت 1865 المشهور (Senatus Consult)، وقانون 13 ديسمبر 1866.

كان القانون الأول ـ أي: (Senatus Consult) ـ منح للجزائريِّين حقَّ الجِنسية الفرنسية، وفتح لهم باب التَّجنيس على مصراعيه، وهو ينصُّ بأن لكلِّ جزائري الحقَّ بمجرَّد تقديمه لطلب الجنسية أن ينال جميعَ حقوق الرَّعايا الفرنسيِّين، وعندئذ تجري عليه الأحكام المدنية، والسياسية الفرنسية.

Il peut sur sa demande être admis à jouir des droits de citoyen Français, dans ce cas, il est régit par les lois Civiles et Politiques de la France.

لم ينجح هذا القانون حيث إن الإحصاءات الرسمية أثبتت أن المسلمين الجزائريين لم يتجنس منهم طوال مدة ما بين تاريخ صدور هذا القانون أي سنة 1865 إلى 1881 لم يتجنس إلا 783 متجنِّسا، معظمهم من المجندين والمتفرنسين (Jules Ferry)، وكذلك لم ينجح قانون 13 ديسمبر 1866 الذي يبيح للجزائريِّين رفع أحكام القضاة الشرعيين إلى المحاكم الفرنسية أو التحاكم لدى المحاكم الفرنسية مباشرة، فكان موقف الشعب من جميع هذه القوانين موقف الحذر والرفض.

وفي سنة 1892 عينت لجنة بحث أخرى، وأرسلت إلى الجزائر، وكان معظم

أعضائها من أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي، تحت قيادة الوزير الشهير[1]... فاتصل أعضاؤها بكثير من المسلمين ومنهم الحكيم الدكتور محمد بن العربي العضو بالمجلس البلدي بعاصمة الجزائر والشيخ محمد بن رحال الندرومي الشهير، فقدما للجنة المطالب التي كانا يريانها مستعجلة، وهي هامة جدا نسبيا، حيث كانت تشمل التعليم وتعريبه، وإصلاح القضاء والضرائب، ثم تكلما على إعانة الفقراء والمساكين، وبينا أن الملجأ الوحيد الذي بقي تحت تصرف المسلمين، وكان معروفا بالتكية في عاصمة الجزائر كان دخله السنوي من الأحباس يبلغ مائة وعشرة آلاف فرنك 000. 110 وكان عدد الفقراء يبلغ سبعمائة فرد، وفي سنة 1892 صار ذلك الدخل يبلغ أربعين ألف فرنك فقط، يستغل نصفه موظفو التكية، فكأنهم هم المحبس عليهم، لا المساكين الذين كانوا يبلغون إذ ذاك خمسة عشر ألف نسمة 15.000 تنوب كل واحد منهم 4 فرنكات في الشهر، وأظهرا أن الأوقاف بصفة عامة على المشاريع الخيرية قدرت في العهد التركي بأربعين مليون فرنك، وكان حظ عاصمة الجزائر منها سبعة ملايين فرنك، تنفق على 150 مسجدا، والآن أي في سنة 1892 وصلت جميع ميزانية الوظائف الدينية والشرعية ستين ألف فرنك، ولو قدر ريع الأربعين مليون 50. 2 في المائة فقط لكان ذلك الريع مليون فرنك بدلا من ستين ألف فرنك، ثم صرح النائبان المذكوران أن نواب الجزائر كانوا قدموا مطلبا سنة 1868 في موضوع الأحباس، وطلبوا محاسبة الدولة على ذلك، فأجابتهم الدولة الفرنسية بأنها أحالت المسألة إلى لجنة مخصصة لتبحث في القضية، إلا أن هذه اللجنة المخصصة لم تظهر نتيجة أعمالها إلى يومنا هذا، أي إلى سنة 1892.

ثم أثارا قضيةً أخرى تتعلَّق بأحباس المرحوم القينعي، كانت تقدَّر إذ ذاك بمليون فرنك، وقد اشترط المجلس أن المراقبين على حبسه هما: المفتي والقاضي بالعاصمة،

(1) بياض في الأصل.

فاستحوذت الحكومة على ذلك الحبس الخاص وعينت أروبويِّين نظارا ومراقبين، بدلا من المفتي والقاضي اللذين اشترطهما المحبس، ثم تعرَّض النائبان لقوانين مصادرة الأملاك، ومنع المسلمين من شراء الأراضي الحكومية، والقوانين الاستثنائية، والخدمة العسكرية التي كانت الحكومة الفرنسية تحاول أن تفرض قانون التجنيد الإجباري، ثم تعرضا للتجنيس وصرحا: « بأن حرية التجنيس لا تلائم أصول الشريعة الإسلامية »، وهذا ما ترك (Jules Ferry) يصرِّح بعد رجوعه إلى فرنسا تصريحه الشهير الذي قال فيه:

« Ils ne veulent ni de nos droits politiques, ni de notre instruction, ni de notre service militaire. Ils demandent purement et simplement le maintien de leur statuts personnels, avec conservation intacte des prescriptions coraniques ».

« إنَّهم لم يريدوا أو لم يقبلوا حقوقنا السياسية، ولا تعليمنا، ولا خدمتنا العسكرية، إنهم يطلبون المحافظة على أحوالهم الشخصية وتعاليم الدين الإسلامي بتمامها ».

وقال عضو آخر من أعضاء هذه اللجنة جوابا لتذمر السكَّان مِن منع التعليم بالمساجد والزوايا، قال: «بعد توقُّف محاولات إصلاحية باءت بالفشل تأكَّد لدى السُّلطات العسكرية أن هذه المراكز ـ أي: المساجد والزوايا ـ لا ترجى من تعليمها أية فائدة، بل رأت السلطات أنها مراكز تنبثق من تعاليمها العداوة والكراهية لفرنسا، ولهذا حطَّمتها الواحدة بعد الأخرى، ومنعت التعليم فيها:

L'autorité militaire fut convaincue qu'on ne tirerait jamais rien de ces foyers de fanatisme anti-française, elle se mit catégoriquement à détruire l'une après l'autre les Zaouïas et les Médersas.

ولهذا لم يكن في كامل التراب الجزائري سنة 1890 إلا المدارس الثلاث الرسمية بالجزائر وقسنطينة وتلمسان، بها (82) تلميذا، وفي نفس سنة 1890م تخرَّج من هذه المدارس المذكورة: (14) تلميذا.

وقال عضو آخر من أعضاء هذه اللجنة: «إنَّ الطرق الدينية تكوِّن هيكلا من رجال الدين يتطلب من أتباعها الطاعة التامة لشيخ الطريقة، والمعارضة للقوانين الفرنسية »، ولهذا فإن الحكومة فرضت في الميزانية ابتداء من سنة 1892 مائة وعشرين ألف فرنك، لتتبع ومراقبة هذه الطرق ونشاطها.

كما وجدنا أثرا آخر في ميزانية الجزائر لمحاربة هذه الطرق وذلك برفع مرتبات، ورفع عدد الموظفين الدينيين، إلا أننا نعلم أن هذه الطريقة، أي رفع مرتبات ورفع عدد الموظفين الدينيين، لا ترجى منها نتيجة، فكل ما نجنيه هو أن ننال احتراما صوريا من الموظفين الدينيين، إلا أن التعصب الديني في جوهره يشملهم جميعا:

Aujourd'hui les confrérie forment un véritable clergé, qui règlemente les pratiques religieuses exigeant de ses adeptes une résistance aux innovations importées par les Français.

Depuis l'année 1892, nous trouvons inscrit au budget un crédit de 120000 Francs, destinés spécialement à la surveillance des confréries. Il serait vraiment utile si les rapports des agents ont pour suite des mesures de rigueur individuelles, contre les Mokadems d'abord, puis contre les Khouans que leur turbulence rendrait dangereux.

Un autre moyen de luttes contre les confréries dont nous trouvons également trace au budget, c'est une augmentation de crédit en faveur d'un clergé séculier musulman. Nous avons n'en pas attendre grand résultat en Algérie. Nous y récolterons peut-être un peu plus de bienveillance apparente, mais aucune considération d'argent ne réussira à entamer le fanatisme de ce clergé qui, au fond, partage absolument, la façon de voir des confréries.

يتبيَّن لنا من هذه الصفحات أن مقاومة الشعب الجزائري في الميدان الروحي، كانت لا تقلُّ عن المقاومة المسلَّحة طيلة عهد الاحتلال، خصوصا أن ذلك الزمان لم يكن المواطنون الفرنسيون أنفسهم يحلمون بحرية التفكير أو حرية القول، وكانت فرنسا أقوى دولة في العالم، والقوانين الاستثنائية منتشرة، حتى إن أقل شيخ بلدة فرنسي

يمكنه أن يحكم بالنفي أو السجن على من شاء من المسلمين، وعلى ذكر هذه المقاومة وشخصية الشيخ محمد ابن رحال الذي كان يمتاز بثقافة متينة إسلامية وفرنسية، ولعب دورا عظيما في تلك الفترة، واستغل علائقه الشخصية مع الشخصيات العلمية الفرنسية الذين كانت تربطه بهم صداقة مثل العالم الشهير الدكتور(Gustave Lebon) صاحب التأليف الذي يشيد بالحضارة الإسلامية عبر التاريخ، وغيره من الكتاب، كان الشيخ ابن رحال لم يقصر دفاعه عن حقوق بلاده، بل كان يشارك في المؤتمرات العلمية العالمية، ويرد على خصوم الإسلام، وقد حافظ لنا التاريخ على محاضرة قيمة في الموضوع،ألقاها في مؤتمر المستشرقين المنعقد في باريز 1897 تحت عنوان: (**مستقبل الإسلام**)، نلخص منها بعض الفقرات إذ هي تهم موضوع بحثنا، وتضفي عليه في هذه الليلة صبغة دينية، تتفق مع إحياء ليالي رمضان، إذ لضيق الوقت نختم بهذه الفقرات سمرنا من دون أن نخرج من الموضوع.

استهلَّ الشيخ ابن رحال محاضَرته بِقوله: «إن الدِّين الإسلامي يمتاز عَن بقية الأديان السماوية المعاصرة بأنه غير معروف، قليلٌ مِن الناس اهتموا بالتقرُّب منه، ودراسته دراسةً عميقة، وقليلٌ جدا مَن يتصوَّره صورة ولو قريبةً مِن الحقيقة، ويحكمون عليه أحكاما مستمدَّة مِن غير ما يُمليه التَّعصُّب والمصالح الاستعمارية، ولهذا فإنَّني مغتبِطٌ جدا حيث فتحتم بحثاً لا شكَّ أنه يُلفِتُ أنظارَ الباحثين لزيادة الاهتمام به »، ثمَّ ذكر أنه حصرَ موضوعَ محاضرتِه في أربعة مواضيع:

أولا: الإسلام وقيمه كوسيلة حضارية.

ثانيا: قيمة معتنقيه.

ثالثا: سياسة الدول الإسلامية.

رابعا: مواقف الشعوب المتمدِّنة إزاءه.

وبعد أن يذكر المحاضر بأنه يعِزُّ عليه أن يطرح السؤال ويجيب عنه كمسلم يشعر ويعتزُّ بتعاليم دينه التي يجدُ فيها الرِّضا والطمأنينة، تلك الطمأنينة التي لا تَترِكُ منفذاً للشَّكِّ، يستدلُّ المحاضِرُ بأن نفس التاريخ يؤيِّد نظريته، فالقرون التي شاهدَت منائر الإسلام مرتفعة، وأنوارَه منتشِرة، كانت الحضارة الإسلامية بلغت درجة قلَّ أن شاهدتها الأممُ في عهودِ دياناتٍ أخرى وبسببها، تلك الحضارة التي مازالت آثارها قائمة إلى يومنا هذا، وهي وحدَها كفيلة بأن تدفعَ جميعَ ما يبعثُ الشكَّ بأنَّ الإسلام لم يكُن وسيلةً حضاريةً في المجتمع».

ثم يسترسل المحاضر في حديثه، فيقول: «بأن الدين الإسلامي متمِّمٌ للديانات التي سبقته، وهو صلة وَصل، ووسط بين الدِّيانتَين الَّلتَين سبقته، إحداهما تشريعية، والأخرى لاهوتية، حيثُ ربطَت مملكة السَّماء بِمملكة الأرض، وجعلَت مِن حياة الفرد المثالية في هذه الدنيا ضمانا لحياة الجزاء في الآخرة. إن جميع تعاليم الدِّين الإسلامي تهتمُّ بحياة الإنسان وتكلفه ما يطيقه عليه ويرضي ميوله البشرية والروحية، وتجعل توازنا بين الرخاء والشِّدة، العفو والعدل، والواجبات والحقوق ».

De l'ensemble il est résulté un tout complet universel et simple, fait à la mesure de l'homme et proportionné à ses facultés, donnant également satisfaction à l'âme et à la raison, alliant dans un équilibre parfait la sévérité et le pardon, la clémence et la justice, le droit et le devoir.

ثمَّ يقول: «إن المسلم المتنور لا يشعر أبدا ولا يشك، أنه مكره على حياته الدينية، إن ضميره وقلبه دائما مطمئنان أمام مشاكل الحياة الدينية ».

Oppressé ! Non jamais un musulman éclairé n'a ressenti les angoisses de l'incertitude ou du doute. Jamais sa raison, sa conscience ou son cœur ne s'en sont trouvés offusqués par une prescription injustifiée ou incompréhensible.

ثم تعرَّض للمرأة فقال: «إنها تعيش في دنيا النساء، فتبقى طاهرة وزوجة محترمة، وأما مقدسة، وبمجرد تزوجها تنال حريتها فيمكنها أن تبيع وتشتري، وتتصرف في

مالها الخاص من دون توقف على موافقة والدها أو زوجها، وإذا تأيَّمت أو طلقت يمكنها أن تتزوج من دون توقف على موافقة أي أحد، وفي الطلاق فإن حقوقها مساوية لحقوق الزَّوج، ولهذا فإننا لا نعجب مِن أن الأخلاق والعلائق العائلية التي انفكَّت عُراها عند المتمدِّنين، بقيت محفوظة في البلاد الإسلامية ».

Quant à la femme Musulmane vivant dans l'unique société des êtres de son sexe, elle demeure une fille pure, une épouse respectable, une mère toujours vénérée. Au reste, une fois mariée, elle est émancipée. Elle peut vendre, acquérir, tester, administrer sa fortune personnelle, sans le secours ni l'autorisation du père ou du mari sans le consentement de personne et quand au divorce ses droits sont égaux à ceux du mari.

Dans ces conditions est-il étonnant que les mœurs et les liens de famille si recherchés chez les civilisés, se soient conservés intacts dans le monde musulman ? Faut-il pour le démontrer davantage, étaler la misère morale des non croyants et leurs vaines recherches d'un idéal jamais atteint le vide de leurs thèses philosophiques les milieux échafaudés et le néant de leurs conceptions rationnelles, les plus laborieusement conçues.

ثم تطرَّق المحاضر إلى الحديث عن الصراع الطبقي، واستغلال الإنسان للإنسان، الذي يظن الكثير أنه وليد العصر الحاضر فقال: «ومن جهة أخرى هل نحن في حاجة إلى بيان أن الصراع الطبقي الذي يمزق العالم المتمدن، مجهول في بلاد الإسلام، وقضية التعاون بين رؤوس الأموال واليد العاملة وجدت حلها منذ ثلاثة عشر قرنا، حيث إن التعاليم الإسلامية حرمت الربا، هل تتصورون التغير الذي يقع في أوروبا عندما تقع هذه الثورة، وهي أن الرأسمالية يتحتم عليها أن لا تقرض المال للعامل ولكن تشترك معه على الربح والخسارة ولا تستغله لكن تعينه بالتوجيه ».

Dans un autre ordre d'idées, est-il nécessaire de démontrer que la lutte de classes qui déchire le monde civilisé est inconnue en pays d'islam et que la question de coopération du capital et du travail a été résolue il y a treize siècles par cette seule disposition du législateur Musulman : le prêt à intérêt est interdit.

Conçoit-on le changement, la révolution féconde et bénie qui se

produirait en Europe, nécessité, non de prêter l'argent au travailleur, mais de s'associer avec lui pour les bénéfices comme pour les pertes, non de l'exploiter, mais de le commanditer.

ثم تعرَّض إلى الحديث عن موقف الرسول ﷺ في قضية الرِّق الذي اعترف له الدين الإسلامي بالأخوة، وحرَّض على معاملته معاملة إنسانية، ورغَّب في تحريره وعتقه، كما أن الإسلام اعترف للمسكين والفقير بحقوقهما، وجعل لهما نصيبا في أموال الأغنياء، بخلاف ما كان يجري العمل في عهد الرومان.

Faut-il vanter la façon dont le Prophète arabe est arrivé à émanciper l'esclavage, à réaliser l'égalité parfaite de tous, et cette fraternité entre Musulmans et entre voisins, oui, entre voisins, qui pour l'Europe restera toujours un vain mot et cette chapitré qui donne au pauvre une part, un véritable droit sur le patrimoine du riche, et ce désintéressement absolu de la loi romaine laquelle ne pouvait être impartiale puisqu'elle à été faite par le riche contre le pauvre, pour le Patricien contre le flebien.

ثم يذكر المحاضر أنه لم يقصد من بحثه التعمُّق والتوسع في البحث، وكل ما يقوله في الموضع إن الإسلام في ميدانه السياسي والاجتماعي، دين ساعد على نشر الحضارة.

ثم انتقل إلى الحديث عن المسلم فقال: «إننا نجد ظاهرة الدين الإسلامي الذي انطلق من الصحراء بواسطة رجل أمي، أمكنه أن يكيف ويطور عدة أجناس انطووا تحته من مختلف الطبقات والجنسيات، فمن الأسود البدائي إلى الفارسي الآري، العريق في التمدن، ومن البربري المقيم إلى العربي الظاعن، ومن الصيني إلى الانكليزي والتركي، أليس هذا بمعجزة، وهذا كله رغم موقف المسلمين ورفضهم لتغيير أحوالهم وإتّباع التطور ».

Si de l'islam nous passons aux Musulmans, nous constatons ce phénomène étrange d'une religion qui née dans le désert est propagée par un prophète illettré, s'adapte aisément à toutes les races, à tous les milieux, à tous les climats.

Le nègre primitif et obtus s'en trouve aussi bien que le Persan aryen et raffiné le Berbère sédentaire et positif, autant que l'arabe nomade et

poétique, le Javanais que le Chinois, l'Anglais, oui l'Anglais froid et correct que le Turc pensif et résolu.

N'est-ce point miracle ?

Et celà malgré l'indolence des Musulmans à l'égard de tout prosélytisme et leur refus scrupuleux de modifier en rien leur dogme et son objectif.

« إن هذه الديانة المستقلة، والغير المغرضة، هذه الديانة صالحة للجنس البشري كله، لأنها ليس لها كهنوت يمكنه تسخيرها، بما تمليه عليه المصالح والأهواء، فإنها بقيت، وستبقى، محافظة على صفاتها، ومحاسنها، ولهذا فإن كل قلب دخله الإيمان، إلا وحافظ عليه ولم يرض به بديلا».

C'est que, indépendante et désintéressée, cette religion convient au genre humain tout entier; c'est que n'ayant pas de clergé qui puisse la modifier à sa guise où l'interpréter à son profit, elle conserve et conservera toujours sa pureté originelle et ses vertus pourquoi l'orsqu'un cœur en est touché, il l'aime de toutes ses forces et ne s'en déprend plus.

ثم تعرَّض المحاضِر إلى مواطن الضعف في البلاد الإسلامية فقال: «إنها توجد في كثرة الدول والخلاف بينها، وذلك أن الخلفاء الراشدين ومن خلفهم من الملوك عندما توسعوا في الفتوحات لم يجعلوا نصب أعينهم اكتساب الأمم أو البلدان، وإنما كانت غايتهم نشر الدين الإسلامي، كما تتطلبه منهم تعاليم الدين، فلم يكن للدبلوماسية، ولا للنظر في العواقب التي تترتب على علائق الجزيرة العربية ببقية البلدان المحتلة أهمية، وكانوا يرون أن العلائق التي تربط المسلم بأخيه، أقوى من جميع العواطف الوطنية، فعقبة بن نافع وموسى بن نصير وطارق بن زياد لم يفكروا في العلائق بين الجزيرة العربية والبلدان النائية التي وصلوا إليها في فتوحاتهم، فإن المسلم كيفما كانت جنسيته، وفي أي مكان وجد، هو مساوٍ لبقية المسلمين في الحقوق والواجبات، فلا تمكن معاملته معاملة استثنائية، بالنسبة إلى سكان جزيرة العرب، وكذلك غير المسلم الذي رضي بأن يدفع الجزية، فهو حر في دينه، ورؤساؤه الدينيون معترف لهم بالتصرف التام في رعاياهم،

وبهذه المعاملة المرتكزة على الثقة، عاشت جاليات مسيحية ويهودية ويونانية وأرمينية في بلاد الإسلام، وإننا نرى الآن الدولة التركية تقاسي ما تقاسيه من الأهوال إذ استسلمت إلى الثقة، ولم تأخذ حذرها، فمما لاشك فيه أن هذه الأقليات لم تكن محترمة أو معتبرة كأفراد الرعية المسلمين، إلا أنهم كانوا يتمتعون بالحرية التامة، وإذا استثنينا بعض المناصب الإدارية خصوصا ما يتصل بالحربية، كان أفراد هذه الأقليات يرتقون إلى أعلى المناصب الحكومية، ففي المغرب، حتى في عهد بني مرين، كان اليهود ينالون المناصب الوزارية، وكانوا يستبدون على المسلمين أنفسهم، أما الأسرى الغير المعتقين والمحررين، فكانوا يرتقون أيضا إلى المناصب الشرفية الراقية، وهل نجد نفس هذه المعاملة بالبلاد المسيحية بالنسبة إلى الأجانب، حتى في زماننا هذا، اللهم إلا إذا تجنسوا ».

ثم يتعرَّض المحاضر إلى الداء العضال الذي كان من أسباب تدهور الحالة بكثير من بلاد الإسلام فقال: «إن الثقة التي وصلت إلى حد اللامبالاة بالنسبة إلى الرعايا والتشدد الذي وصل إلى الاستبداد بالنسبة للمواطنين، ثم سياسة الملوك التي كانت تخضع للغيرة والتحاسد، حتى كان ذلك التحاسد والغيرة أساسا لمعاملة بعضهم بعضا، مثل ما نراه اليوم عند الحكومات المسيحية، مع الفارق أن شعوب الدول الإسلامية في الغالب متآخية، لم تتأثَّر بالخلافات بين قادتها، إن عاطفة الوطنية الضيِّقة لا وجود لها عند المسلمين، اللهمَّ إلا في بعض البلدان كـ : تركيا، وبلاد فارس ».

ثم تعرَّض المحاضر للأمراض الداخلية التي تنخر جِسمَ العالم المتمدِّن، ومواقف هذا العالم مع المسلمين، خصوصا الدُّول الاستعمارية، كـ : فرنسا، وانكلترا، وهولندا، فتحدَّث بإِسهابٍ عن الاستعمار الفرنسي، وطُرق حكمِه، والخطط التي رسَمها غُلاةُ المعمِّرين لإِبادة السكَّان، وافتكاكِ أراضيهم، وتفقيرهم، وتجهيلهم.

ثم ختم بحثه القيم بقوله: «إن القرن العشرين الذي سيشاهد التقدم العلمي

والتقني، وتقارب البلدان، مثل الرجاء الصالح مع القاهرة، سيشاهد سياسة فرنسية ـ إسلامية معتدلة، أو يشاهد الكارثة، ولهذا أختم حديثي عن الإسلام في إفريقيا وأقول إنه إن لم يتمدن على طريق فرنسا، فإنه يتمدن رغم أنفها وضدها ».

Malheur est que le colon laisse faire intérieurement ravi, et c’est la France qui pâtit dans son objectif Africain. Quand on rêve de s’annexer la moitié d’un continent réduire l’indigène à la misère même par la voie légale, n’est pas une politique le charger de tans les crimes, n’est ni une justification ni une solution.

Nous sommes de ceux qui croient qu’il n’est pas difficile de trouver mieux. Mais il faut de hâter si l’on ne veut pas que toute réconciliation devienne impossible.

Le 20e siècle qui verra le cap au Caire et le Transaharien verra nécessairement mieux appropriée ou une catastrophe.

C’est pourquoi, modifiant légèrement ma conclusion pour l’Islam en général je dirai de l’Islam africain-occidental, s’il ne se civilise pas par la France et avec la France, il se civilisera malgré elle et contre elle.

إلى هنا ينتهي سمرنا هذه الليلة، والخلاصة هي أنه بفضل مواقف شعبنا، واعتزازه بدينه وقوميته، تجنبنا الاندماج والتفسخ، إذ لم تَستهوِه مظاهر الحضارة المزيفة، ولا الإغراء المادي الذي كان بعض صغار الضباط العسكريين والمعلمين يتهافتون إليه، أمكن للجزائر عشرات السنوات أن تقف صامدة، مقاومة، محافظة على دينها وعاداتها، ولم يمكن للمعمِّرين الوصول إلى أهدافهم وإدخال البلبلة في صفوف شعبنا، إلا ابتداء من فرض التجنيد الإجباري، إذ كان الشبَّان المجندون عندما يبتعدون عن بيئاتهم، يسقطون ضحايا للرذائل مثل شرب الخمر والفساد، ثمَّ لحق بهذه الضحايا عندما فتح باب الهجرة للعمال بعد الحرب العالمية الأولى، فالكثير منهم تخلقوا بأخلاق الوسط الذي أجبرتهم الظروف للاندماج فيه، خصوصا من تزوج منهم بالأجنبيات، إلا أننا بحمد الله نجد في ديننا حصانة وفي صالح عاداتنا ما يُغنينا عن الاندماج في أمم أخرى

بلغت ما بلغت من الرقي، وما زال إلى الآن كثير من الكتاب الأجانب يعترفون أن الإسلام ماشى الحضارة جنبا لجنب ولم يضق عنها، وما زال يحمل في طياته تعاليم ومبادئ تمكنه من الوقوف أمام التيارات الجارفة التي تجتاح العالم سواء في الميدان الروحي أو الاقتصادي أو الاجتماعي.

الرِّباط والفِداء في وهران والقبائل الكبرى[1]

إن موضوع حديثي في هذه الدراسة: (**الرِّباط والفداء في تاريخ البلاد الإسلامية**) بصفة إجمالية، وأركِّز بحثي عن الرِّباط الذي اشتهر بمدينة وهران، حيث لعب أدوارا رائعة، وحظي بدراسات هامة لكثير من كبار المؤرِّخين، بيَّنوا فيها بتفصيل نظامه وموقعه وحياة المرابطين فيه، وكيف كان فضله مِن أسبابِ انتصار المسلمين على الأسبان وطردهِم مِن وهران، بعد احتلالٍ دام ما يقربُ مِن ثلاثة قرون.

كما أتحدَّث عن الفداء الذي اشتهر ببلاد القبائل الكبرى بعد الاحتلال الفرنسي، إذ امتاز بنظامٍ خاصٍّ لم نجِد له شبيها في بقية البلاد الإسلامية عبر التاريخ.

الرِّباط والفِداء في بلاد الإسلام عامة وفي بلاد المغرب خاصة:

الرِّباط هو الملازمة في سبيل الله، أصلها مِن رَبطِ الخيل، ثمَّ سمِّي كلُّ ملازمٍ لثغر مِن ثغور الإسلام مُرابِطا، فارسا كان أو راجِلا، واللَّفظة مأخوذةٌ مِن الرَّبط: مصدر رابط يرابط، بمعنى أقام ولازمَ المكان، ويطلقُ في اصطلاح علماءِ الدِّين، خصوصا الفقهاء المتصوِّفين على الأمكنة التي تنشأ في المواقع الحربية لحماية البلاد وحِراستها مِن هجومات الأعداء، وكذلك تُطلق على البِقاع التي تؤسَّس لاجتماع المنقطعين له والمتعبِّدين الذَّاكرين، وكذلك على المعتكِفين لتعلُّم الدِّين وتعليمه.

وأصل الرِّباط في القرآن قولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ

(1) مجلة الأصالة، العدد 13، ص19-37، صفر - ربيع الاول 1393هـ/ مارس-أفريل 1973م.

وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال:60)، وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:200).

قال الشَّيخ عبد الرَّحمٰن الثَّعالبي ـ دفين الجزائر ـ في **(الجواهر الحسان)** في تفسيره هذه الآية: (روى مسلم في **(صحيحه)** عن سلمان قال سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «رباطُ يومٍ وليلة خيرٌ مِن صيامِ شهرٍ وقيامِه، وإن مات جرَى عليه عملُه الذي كان يَعمله، وأُجريَ عليه رِزقه وأَمِنَ الفِتن»، وخرَّج الترمذي عن فضالة عن عبيد الله أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كلُّ ميتٍ يختَم على عملِه إلَّا الذي مات مُرابِطا في سبيل الله، فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة، ويأمَنُ مِن فِتنة القبر»، قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «مَن مات مُرابِطا في سبيل الله أجرى الله عليه أَجر عملِه الصَّالح الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأَمِنَ الفِتن، ويبعثُه الله آمِنا مِن الفزَع»، وروى مسلم والبخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «رِباطُ يومٍ في سبيلِ الله خيرٌ مِن الدُّنيا وما فيها».

ثمَّ قال: «روى أبيّ بن كَعب عن النبيِّ ﷺ قال: «لَرِباطُ يومٍ في سبيل الله وراء عورة المسلمين محتسبا مِن غير شهر رمضان، أعظم أَجرا مِن عبادةِ مائة سنة، صِيامها وقيامها، ورباط يوم في رمضان أفضل عِند الله وأَعظم أجرا مِن عبادةِ أَلفَي سنة، صيامها وقيامها»، ذكرَه القرطبي مُسنَدا).

ثمَّ تعرَّض الثَّعالبي لمعنى الرِّباط الُّلغوي، فقال: إن زَين الدِّين العراقي ذكر في اختِصاره لغريب القرآن تأليف أَبي حيان معنى رابطوا: داوموا وأثبتوا .

وهذه الأحاديث النَّبوية التي ساقَها الثَّعالبي في تفسير هذه الآية الكريمة دالَّة على

اهتمام تعاليم الإسلام بالرِّباط والتَّرغيب في دوام الإِقامة به، إذ الدَّوام والثُّبوت الَّلذَين فسَّر بهما زين الدِّين العراقي الآيَةَ الكريمة، لا يتأَتَّيان غالبا إِلَّا مع السُّكنى، ثمَّ إنَّ المفسِّرين والمحدِّثين قسَّموا هذه الرِّباطات والإِقامة فيها إلى درَجات، وجعلَوا تفاوتَ أُجور المرابطين بها حسبَ مَوقعِها وبُعدِها أَو قُربها مِن بِلاد الإِسلام، خصُوصا الموجودة منها في الشَّواطئ القريبة مِن بلادِ الكفَّار.

قال في (**كتاب الحبس**) من (**المدوَّنة**): «ومَن حبس في سبيل الله فرسا أو متاعا فذلك في الغزو، ومواحيز الرِّباط كالإسكندرية ونحوها، وأمر **مالك** في مالٍ جُعِلَ في السَّبيل أن يفرَّق في السَّواحل مِن **الشَّام** و**مصر**، ولم يرض **جدَّة** مِن ذلك، قيل له: قد نزل بها العدو، قال: كان ذلك أمرا خفيفا».

قال ابنُ الحاجب في (**التَّوضيح**): «وسأله قومٌ أيام كان مِن **دَهلك** ما كان ـ و**دَهلك** هذا في كلامِ (**المدوَّنة**) اسمُ مَلِكٍ مِن ملوك السُّودان، وبه سمِّي البلَد، وهي جزيرةُ ساحل البحر مِن جِهة اليمن، قاله **عياض**، وقال: هو بِفَتح الدَّال ـ وقد تجهَّزوا يريدون الغَزو إلى **عسقلان**، و**الإسكندرية**، وبعض السَّواحل، وسألوه أن ينصرِفوا إلى **جدَّة**، فنهاهُم عن ذلك، وقال لهم: اِلحقوا بالسَّواحل» اهـ.

وحكمُ **مالك** على رباط **جدَّة** قد أُلغيَ فيما بعد، إذ ذكر كثيرٌ مِن الفقهاء المتأخِّرين أنَّ جدَّة نزل العدوُّ بِسَواحِلها في أوائل القرن العاشر الهجري، فهي ثغر، ذكر هذا الفقيهان **الحطَّاب** و**سالم السَّنهورى**، وعن بعضهِم يكون بها قتلى وشهداء لا شهيد على وجه الأرض أفضل منهم، ثم قال **الحطاب** و**سالم السَّنهورى**: «وهي في هذه الأيام رباط، وإنَّ العدوَّ توصَّل إلى بلاد **الهند** في أوائل العاشر، واستَولوا على بلادٍ كثيرة منه، ووصلوا إلى **جدَّة** سنة تسع عشر وتسعمائة 919هـ فشقَّ ذلك على المسلمين، ونزل النَّاسُ إلى **جدَّة**، ثمَّ خذَل الله العدوَّ بعد أن بنَوا حِصنًا، لِوَخَمٍ أرسلَه الله عليهِم، ثمَّ

جاءوا سنة ثلاث وعشرين ونزلوا بِساحل **جدَّة** في ثمانية وعشرين قِطعة، وحصلَ للنَّاس وجَلٌ عظيم، وأيقَنوا بالأَخذ، ونزَلوا إلى **جدَّة** مِن **المدينة** وغيرها، وحصَّنوها بالمدافع، فألقَى الله الرُّعبَ في قلوب العدوِّ، وحبسهم عن النُّزول للبرِّ حابِس، ثمَّ تشتَّتوا، وغنم مِنهم أميرُ **جدَّة** غرابا وأسرَ مَن فيه، ثمَّ في سنة ستٍّ وعشرين أَتَوا إلى قربِ **جدَّة** ورجَعوا مخذولين، وفي سنة تسع وأَربعين وتسعمائة 949هـ جاء مِنهم بعضُ الأَغربة لساحل **جدَّة**، وأخذوا بعض الجلاب الواصِلة لها مِن الشَّام واليمَن، وفيها جماعة مِن الحجيج ففكَّ الله أَسرَهم ونصَرهم، وأَلهمَهم رُشدَهم وخذَل الكفَرة، وردَّ كَيدَهم في نحورهم » اهـ.

فلا شكَّ حينئذ بأن ما حكم به **مالك** على رباط **جدَّة** قد زال، وأن رباط جدَّة مِن أعظم الرِّباطات، ولهذا قال ابن جريج: «إن فضل مرابطي **جدَّة** على سائر المرابطين كفضل **مكَّة** على سائر البلاد ».

والحاصلُ أن الثُّغور في الاصطلاح جُعِلت علَماً على الأَمكِنة المخوف عليها مِن العدوِّ، وهذه الخطورة تتغَيَّر زيادة على ما ذكرناه مِن تَفاوت أَجر المرابطين حسبَ مَواقعِها، تتغيَّر أيضا بِحسبِ الأمكنة والأَزمنة، وقوَّةِ العدوِّ وضعفِه، واهتمام الملوك بالدِّفاع عَن حمى الوطنِ أو تَقاعسهم، واتِّفاقهم مع العدوِّ سِراًّ أو علانية، كما وقعَ ذلك في كثير مِن الأَوقاتِ ببلاد المغرب العربي.

وقد اشتهرت الربط لحراسة الثغور، ورباطات المتعبدين في بلاد الإسلام من أوائل الفتح، وقويت لما اشتدت غارات المسيحيين على شواطئ المغرب العربي والشمال الإفريقي، إثر الحروب الصليبية، واسترجاع المسيحيين لجزيرة صقلية، وإثر غارات الأسبان والبرتقال على قواعد البلاد الإسلامية بشواطئ إفريقيا الشمالية، فزيادة على شن غارات الأعداء على السواحل المذكورة كانت بعض العصابات المسيحية تكونت

لحسابها الخاص ولها أساطيل تقصد شواطئ القرى المنقطعة، فتختطف السكان لتنصيرهم أو بيعهم في أسواق الرقيق، أو لمبادلتهم مع الأسرى المسيحيين. ذكر الشَّيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي في تأليفه المسمى: (**بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبان من الأعراب كبني عامر**) الذي ألفه سنة 1178 هـ عن نوع من المتعاونين مع الأسبان مدة احتلالهم لوهران كانوا يعرفون بالمغطسين أو المغاطيس، يستعين بهم الأسبان لاختطاف أولاد المسلمين، قال بعد أن عرَّف أفراد قبيلتهم التي كانت تسكن بقرية **كرشتل** ـ التي تبعد عَن وهران بنحو 20 كلم ـ قال: «وسكنوا بها في القرن الثامن من الهجرة وبنوا بها مدشرا محصَّنا بالجبال مِن البر، لا طريق له إلا مِن جِهة موعرة، وكانت بتلك الأرض عيون عذبة منهمرة، فاستقروا بها للآن، وكان شأنهم مع الإسبانيين جلب الأخبار لهم، وتغطيس الناس، فهم المغاطيس، ويقال لهم المغطسون، فهذا الاسم هو لهم على الحقيقة، ولغيرهم على المجاز لعملهم اقتداء بهم، ويحكى عنهم أنهم غطسوا إمامهم الذي يصلي بهم، بأنهم باعوه للإسبانيين غفلة منه، وكيفية التغطيس أنهم يأتون بدوابهم للدَّواوير، على صفة الحضر المدسوسين بالدَّواوير البائعين للعطرية ومعهم مناطق من الجلود الغلالية، فإذا وجدوا خبرا جلبوه للنصارى، وإذا رأوا فرصة في الصغير أو الكبير أخذوه، وجعلوا الجلود على فيه كي لا يتكلم، وحملوه على دوابهم، ومشوا به ليلا لوهران، فيبيعونه للإسبانيين، وينتفعون بثمنه، هذا دأبهم لعنهم الله وأخزاهم، وأخلا الأرض منهم ومسكنهم حال انحصارهم بالمسلمين بالأودية التي بساحة وهران، حذو البرج الأحمر أسفل خنق النطاح، وكانت لهم زوارق يسافرون فيها من مداشرهم لوهران إذا اشتد عليهم الأمر، وسدت عليهم الطرق البرية، يحملون فيها سائر الخضر ونحوها، وكان الأسبانيون لا ينقطعون عنهم في البحر، لأخذ ما يفتقرون إليه من عندهم، وكان من الكرشتليِّين بعض الأعين للنواحي الشرقية والقبلية » اهـ.

ولهذا كثر عدد الربط طوال شواطئ البلاد وكان الكثير منها يشرف عليه ويؤسسه علماء الدين باتفاق مع السكان، وقد رأينا أن كثيرا من الرحالين والجغرافيين والمؤرخين ذكروا بعض هذه الرباطات، التي كانت في أوقات الخطر تتحول إلى مراكز حربية، وحصون عسكرية، ذكر ابن حوقل وكذلك البكري والإدريسي كثيرا من هذه الرباطات التي شاهدوها أو ذكرت لهم.

كرباط ماسة بجنوب المغرب الأقصى، ورباط شاكر، ورباط سلا، وتيط والمنستير، وربط رادس، وسوسة، وشرشال، ووهران وندرومة وجبل أرزيو وغيرها، والكثير من هذه الربط يرجع عهده إلى زمن الفتوحات كرباط ماسة الذي يرجع عهده إلى زمن الفاتح الشهير عقبة بن نافع، ورباط شاكر المعروف اليوم بالمغرب بـ **(سيدي شاكر)**، وهو على ضفة وادي نفيس بحَوز مراكش، وفيه دفن المجاهد العربي شاكر من أصحاب عقبة بن نافع، وقد بناه يعلى بن مصلين، أحد رجال رجراجة السبعة، الذين يقال إنهم وفدوا على رسول الله ﷺ بمكَّة، فأسلموا ورجعوا إلى المغرب دعاة ومبشرين بالدين الإسلامي الحنيف، وكذلك أقام المسلمون رباطا آخر بشمال تامسنا، على ضفة نهر أبي رقراق أو وادي سلا كما يسمِّيه ابن حوقل الذي وصف هذا الرِّباط بقوله: «والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف بها، وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان يزيدون وينقصون، ورباطهم على برغواطة »، وبرغواطة هذه قبيلة بربرية تنتمي إلى مصمودة كانت تسكن في هذه الناحية وانتصرت لميسرة المطغري، الذي ثار على العرب سنة 122هـ وانتحل مذهب الخوارج الصفرية، وبقى أفراد قبيلة برغواطة في حالة حرب وسلم مع المسلمين إلى أن خضد شوكتهم المرابطون الملثَّمون في القرن الخامس الهجري).

وقال البكري: «ويقال: إن الذي جلب الساقية إلى مدينة السوس عبد الرحمٰن بن

مروان، أخو محمد الجعدي، وأنه هو الذي عمر وادي السوس إلى وادي ماشة، مسيرة يومين، عليه قرى كثيرة، وهو ينصب في البحر المحيط، وماسة التي أضيف إليها الوادي رباط مقصود عندهم، له موسم عظيم، ومجمع جليل، وهو مأوى للصالحين ».

وقد عرف البكري أيضا ربط سوسة ورادس والمنستير بقوله في: **(المسالك والممالك)**: «وخارج مدينة سوسة محارس، وروابط ومجامع للصالحين وداخلها محرس عظيم، كالمدينة، مسوَّر بسور متقن، يعرفُ بِمحرس الرِّباط، هو مأوى للأخيار والصالحين، داخله حصن ثان يسمى القصبة ...»، إلى أن يقول: «... ومن محاسن سوسة المذكورة محرس المنستير، الذي جاء فيه الأثر المتقدم الذكر ...»، ثم يقول:«... وفي الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل، يكون مدار القوم عليه، وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الأهل والعشائر، أما رباط رادس فيه المجاهدون الفاتحون في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، وقال الصحابيان الشهيران أنس بن مالك وزيد بن ثابت للمجاهدين: مَن رابط برادس يوما فله الجنة حتما، وقالا لعبد الملك بن مروان: امدُد هذِه البلاد، وانصُر أهلَها ليأمنوا مِن العدوِّ، ويكون لك ثوابها وأجرها، فإنها من البلدان المقدسة ... الخ ».

ومن الرباطات المشهورة أيضا في المغرب العربي رباط وهران، ويسمَّى بـ **(رباط صلب الفتح)**، وسببُ تسميته بذلك أن تاشفين بن الملك علي بن يوسف بن تاشفين (آخر ملوك دولة المرابطين الملثَّمين الَّلمتونيِّين) لما اشتدَّت الحرب بينهم وبين الموحِّدين وانتقلت رحاها من المغرب إلى الجزائر، سيَّره والده علي بن يوسف على رأس جيشه ليكون قبالة عبد المؤمن بن علي، فمات أبوه وأيس تاشفين مِن رَبح المعركة، فقصد وهران مركز أسطولهم لينسحب منها إلى الأندلس، فدَخلها مختفيا، وصادفَ ليلة سبع وعشرين مِن رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، فذهب تاشفين مختفيا مع ثلَّة من

أصحابه إلى رباط وهران للحضور في إحياء ليلة القدر، وكان الموحِّدون منه بالمرصاد منذ دخل وهران، يتتبَّعون حركاته، ولحقوا به في تلك اللَّيلة، وحاصروه بالرِّباط وأحرقوا عليه بابه، فخرَج تاشفين ممتطيا جواده فترامى به حتى تردَّى مِن جرف فلقي حتفه، وقُتل أصحابه الذين كانوا بِرُفقتِه، ولا علم لعسكره بذلك، ولما بلغَ الخبر إلى عبد المؤمن بن علي، التحقَ بوهران وسمَّى ذلك الرِّباط بـ (**رباط صلب الفتح**)، بدلا مِن (**رباط صلب الكلب**) الذي كان مشهورا به قبلَ هذه الواقعة.

وقد عرف البكري رباط **جبل أرزيو** بقوله: «وبقرب مدينة أرزيو جبل كبير فيه قلاع ثلاث مسورة، رباط يقصد إليه »، وقال البكري أيضا في التعريف برباط **ندرومة** ما يلي: «ومدينة ندرومة هي في طرف جبل تاجرا، وغربيها وشماليها بسائط طيبة ومزارع، وبينهما وبين البحر عشرة أميال ... »، إلى أن يقول: «... وله مرسى مأمون وعليه حصنان، ورباط حسن مقصود يتبرك به ».

وقد ذكر أبو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسي التِّلمساني المعروف بالجدِّ وبالخطيب، والمتوفى بالقاهرة (سنة 781هـ/ 1379م)، وهو من مشايخ المؤرِّخ ابن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب السَّلماني، قال في تأليفه: (**المسند الصحيح الحسن**): أن الملك أبا الحسن المريني لما كثرت هجومات القراصنة الأوربوِّيين على شواطئ المغرب العربي في عهده، أنشأ ربطا طوال هذه الشواطئ « وإذا وقعت النيران في أعلاها، تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة، وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحوا من شهرين، وفي كل محرس منها رجال مرتبون، نظار، وطلاع، يكشفون البحر، فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين إلا والتنفير يبدو في المحارس، فأمنت السواحل في أيامه السعيدة ».

وكان هذا النوع ـ أي: الاتصال بين الرباطات والمنارات على طريق إيفاد النيران ـ

معروفا مِن قديم، ذكر بعض المؤرِّخين لدولة الأغالبة « أنه كان لبني الأغلب علائم نارية، يبلغ بها الخبر في الليل من طود إلى طود بسواحل الزاب وغيرها من المغرب بحيث ينتقل الخبر من سبتة إلى الإسكندرية في ليلة واحدة ».

ثم ظهرت هذه الرباطات وتطورت بصورة جلية ونظمت بعد الاحتلال الاسباني لمدن سواحل المغرب العربي، وكان جلها يؤسسه ويشرف عليه علماء الدين ورؤساؤه، حيث تبين ضعف الملوك عن المقاومة، وتخاذل الأمراء، حتى إن الكثير منهم كانوا يقدمون خدماتهم وتعاونهم للمحتلين، ويتعهدون لهم بدفع الجزية، وإمدادهم بما يحتاجونه من العتاد والتموين مما هو مشهور عند المؤرخين.

وقد احتفظ لنا التاريخ ببعض الوثائق تبين كيفية إنشاء هذه الرباطات، منها وثيقة مؤرخة في سنة 954هـ الموافقة لـ 1548م، بخط العلامة الشيخ عبد الرَّحمٰن اليعقوبي صاحب المعهد المشهور الآن بمعهد اليعقوبي بنواحي **ندرومة**، وهذه الوثيقة عبارة عن معرض لمؤتمر دعا إلى انعقاده العالم المذكور بعد احتلال الاسبانيين لتلمسان، وكان رؤساء القبائل الذين استجابوا لدعوته، هم رؤساء قبائل اتقاد، وبني سنوس، وترارة، ومطغرة، وبعض علماء تلمسان وأعيانها، تعهدوا بإمداد الرباط بالمال والرجال، ثم لما ظهر الأتراك واحتلوا تلمسان، نبذ هذا المشروع وانتقل صاحبه إلى المغرب.

ومثل هذه الوثيقة التي تظهر لنا تطور الرباط في ذلك العهد، نجدها أيضا بالمغرب الأقصى بعد احتلال بعض شواطئه إثر غارات البرتغاليين وظهور العالم المجاهد الشيخ أبي عبد الله محمد أحمد العياشي، الذي تزعم المقاومة ونادى بالجهاد، وأبلى في سبيله البلاء الحسن.

ذكَر كثير من المؤرِّخين ومنهم الناصري صاحب (**الاستقصاء**) أنَّ العياشي جمع مؤتمرا لمبايعته، قال الناصري عَن المؤتمرِين: «وقدَّموه على أنفسهم والتزموا طاعته، وأن أي قبيلة خرَجت عن أمره، كانوا معه يدا واحِدةً على مُقاتلتها، حتى تَفيء إلى أَمر الله،

فأعطَوا بذلك خطُوطَهم في ظهير، وأنهم رضوه وقدَّموه على أنفسهِم، ووافقَ على ذلك قُضاةُ الوقت وفقهاؤُه مِن تامسنا إلى تازى، وكان الحامل له على طلبِ ذلك منهم أنه بلغه عن بعض طلبة الوقتِ أنه قال: لا يحلُّ الجهادُ إلَّا مع الأمير، ففَعل ذلك خرُوجا عن تلك الدَّعوة الواهية ».

أنشئت معظم الرِّباطات في بدايتها للعبادة والتَّعلُّم، ثم إنها اتخذت عندما دعت الحاجة بعد شنِّ غاراتِ الأعداءِ إلى رُبطٍ ومراكز حربية، وذلك كرباط يحيى بن إبراهيم الَّلمتوني الذي كان يعلِّمُ فيه ويدعو للإسلام عبد الله بن ياسين الجزولي، وتتلمذ لعبد الله بن ياسين جل القبائل المجاوِرة، ثمَّ استحال هذا الرِّباط إلى مركز انطِلاقٍ لأَعظم دولة إسلامية عرَفها الإسلامُ بالمغربِ العربي والأَندلس، وهي المعروفة بِدَولة المرابطين الملثَّمين والَّلمتونيِّين.

ولهذا اشتَبه على كثير مِن الكتَّاب والمؤرِّخين الرِّباط بالزَّاوية، وبقية المعاهد الموجودة في قِمَمِ الجِبال.

والحقيقة أن الرِّباط غير الزَّاوية، فإذا وجَدنا الرباط مرتبطا بعهد الفتوحات الإسلامية فإن الزاوية عرفت في أوائل القرن الثامن الهجري، فكانت تطلق على مكان معد للعبادة، كالمسجد، ويشتمل على المرافق للطلبة المجاورين بها، وإيوائها للواردين عليها، وعابري السَّبيل، وقيل إنها عرفت في المغرب بعد القرن الخامس الهجري، وسمِّيت في بادىء أمرِها بـ (**دار الكرامة**)، كالتي بناها الملك يعقوب المنصور الموحِّدي في مراكش، ثم أطلقَ المرينيون على الزَّوايا التي بنَوها في عهدِهم اسم: (**دار الضيوف**)، ومِن ذلك الزَّاوية العظيمة التي أسَّسها الملك أبو عنان المريني خارج سلا، وهي التي ذكرها ابن بطوطة في (**رحلته**)، وزاوية شالة في الرِّباط التي دفن فيها الملك أبو عنان والده أبا الحسن، وزارها لسان الدِّين بن الخطيب وخاطبه فيها بخطبته الشَّهيرة في تاريخ الأدب العربي.

ثمَّ عرفت الزَّاوية بعد ذلك في المغرب العربي بأنها مؤسَّسة لرؤساء الطُّرق الصوفية، يجتمعُ فيها مُريدوهم لذكر الأَوراد، كما كانت تُتَّخذ مأوى لطلبة القرآن والعلمِ وبقية الزُّوار الذين يقصدونها للاستِفتاء والصُّلح بين المتخاصمين، وكثر هذا النَّوعُ مِن الزَّوايا ابتداءً مِن القرن العاشر، بعدَ هجومات البرتغال والأسبان على شواطئ المغرب العربي، وقد كان لبعض هذه الزَّوايا شأنٌ عظيم استحالَت إلى ممالك، وذلك كالزاوية الدَّلائية بالمغرب التي كتبَ عنها كثيرٌ مِن المؤرِّخين، وخصَّها أخيرا الأستاذ محمد حجي بدراسة قيِّمة نالَ بها جائزة الدِّراسات العليا مِن (**جامعة الرِّباط**)، وكالزاوية السَّنوسية بليبيا فقد استحالت هي الأخرى إلى مملكة.

ثم ظهر نوع آخر من هذه المعاهد لا هي زاوية ولا رباط، تعرف في بلاد القبائل بالمعمرة، وهي عبارة عن معاهد لتعلم القرآن وحفظه، أو لدراسة العلوم وقد انتشر هذا النوع بوادي بجاية بعد احتلال اسبانيا لبجاية، ومغادرة سكانها خصوصا الجالية الأندلسية التي كانت لاجئة فيها، فإن الكثير من أفرادها أسسوا معاهد في بنى يعلى العجيسي، وببني وغليس، وكانت هذه المعاهد أو المعمرات، لها أحباس هامة، وقوانين داخلية، انتشرت في معظم معاهد القبائل الصغرى والكبرى، وهي تمتاز عن نظم الزاوية، إذ الزاوية في الغالب تخضع لتصرف شيخ الطريقة أو مقدميه، أما هذه المعاهد فإن لها قوانين داخلية محكمة، وإذا وقع خلل أو سوء فهم لتطبيق تلك القوانين، أو تداخل السلطات، فإن قدماء المتخرجين منها هم الذين يرجع لهم الأمر، فيجتمعون لحل المشاكل، وبعض هذه الزوايا أو المعاهد المسمَّاة بالمعمرة كثيرا ما كانت تشد أزر الرباط في أوقات الحروب، وتعينه على أداء مهمته، فمن ذلك ما ذكره أبو الحسن الشريف في: (**كامل البغية**)، ونقله عنه صاحب: (**تعريف الخلف برجال السلف**)، قال: «خرجنا إلى ثغر تفرتنس فلقينا سيدي محمد بن علي، وأنزلنا بزاويته في مجاجة، وكنا في جوع ونحن

نحو 1300 (ثلاثة عشر مائة) نفس، وقصدناه للزيارة، فأكرمنا خارج الزاوية، لكثرتنا، وكانت خيولنا ذكورا وإناثا، فقال لنا اتركوها، من ألف بين قلوبكم يؤلف بينها، وأمرنا بالجلوس على 24 جلسة، وأفاض علينا الثريد واللحم والعسل والسمن ... الخ ».

ولنرجع إلى الحديث عن الربط فإن في عهد الأتراك لما اشتدت الحرب بينهم وبين الأسبان، اعتنى الأتراك ببعض الرباطات، وتعاونوا مع مؤسسيها، وعلى حد تعبير المعاصرين، أمموها ونظموها نظاما لم يعهد من قبل في تاريخها، وكان من حسن حظ التاريخ أن خصصت لهذه الربط التي أحياها الأتراك تآليف، تعرض فيها مؤلفوها لذكر هذه الربط، ووصفوها وصفا مفصلا، منها تأليف: (**الرِّحلة القمَرية في الأخبار المحمدية**) لمحمد المصطفى بن زرفة، و(**الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**) لأحمد بن سحنون، فإنهما تحدَّثا بمزيد التَّفصيل والتَّوضيح لرباط وهران الذي أحياه الباي محمد بن عثمان (فاتح وهران سنة 1206 هـ).

وكما تعرَّض لرباط وهران عبد الرحمٰن الجامعي الفاسي شارح أرجوزة الحلفاوي التي تعرض فيها مؤلفها لفتح وهران الأول سنة 1119م على يد باشا الجزائر محمد بكداش، إذ وهران دام احتلالها (280) ثمانين ومائتي سنة، إذ احتلت سنة 914 هـ، وفتحها لأول مرة بكداش باشا سنة 1119، ثم استرجعها الأسبان بعد بقائهم بها خمسة وعشرين سنة، سنة 1144، بقوا بها إلى أن أخرجهم الباي محمد بن عثمان سنة 1206 هـ.

قال صاحب (**الثغر الجماني**) يصف الرباط الذي أحياه الباي محمد بن عثمان:

ورتـــب المـــرابطين في الجبـــل ... من كل حبر عن هوى الموت جبل
وكـــل مقـــدام همـــام وبطـــل ... منـــذ بـــدا بـــاد الضـــلال وبطـــل
مـــؤمرا لشـــيخنا الجـــلالي ... محمـــد الأحـــق بـــالإجلال

ومحمد بن عبد الله الجلالي الذي ولاه الباي رئاسة الرباط كان من أكابر علماء البلاد ومديرا للمدرسة التي أنشأها الباي في قاعدة ولاية معسكر، وسماها بـ **(المدرسة المحمدية)**، كما عيَّن لمساعدته قاضي القضاة السيد الطاهر بن حواء، وكاتبه الخاص محمد المصطفى بن زرفة، مؤلف **(الرِّحلة القمرية)** المتحدث عنها.

قال المؤلف: «إن الباي محمد بن عثمان لم يزل منذ ولي يتحيَّل على الظفر بالكفرة، وينصب لهم المكائد والخدع الشبيهة بالأشراك التي تنصب للطير ليقبض، فتارة يوجه لهم المهرة بالسباحة في البحر، فيبيتون من قدروا عليه منهم في بيوتهم، ويأتونه برؤوسهم، وتارة يرصد لهم الكمين قرب أسوارهم حتى يظفروا بهم، وتارة تحمل عليهم طلائع جنوده، فيتخطفونهم مخطف الصقور للبغاث »، إلى أن يقول: «ثم ظهر له أيده الله فقرر فيه المرابطين للتضييق على الكفرة، فنادى في رعيته: من ارتحل إلى الرباط سقطت عنه المطالب المخزنية، وبقي محترما موقرا. فاجتمعت فيه أمة من الناس، من كل ناحية بأموالهم وأولادهم، فنزلوا فيما بين سيدي معروف والبريدية إلى عين تانشالمت وجعل عليهم قوادا يقومون بأمرهم.. ولعمري لقد بلغوا غرضه في المضيق على الكفرة، حتى منعوهم من إدامة الخروج، وقصرت أيدهم عن نيل أكثر ما كانوا ينالونه من الغياض والمروج، وانقطعت غارة المغاطيس فصاروا لا يبلغون وإن جهدوا مبلغ أصوات النواقيس من بعد أن كانوا يغزون البلاد، ويقيمون مع المسلمين عند جللهم أسواق الجلاد، فكم لهم من غارة شهيرة، انتهبوا فيها أموالا كثيرة، تارة يفوزون بها، فيبلغونها لناديهم، وتارة يعترضهم المسلمون فينتزعونها من أيدهم، ثم حسم مادتهم، وقطع شأفتهم، بجمع الطلبة في الجبل»، وهنا يذكر لنا المؤلف بمزيد البيان والتوضيح رباط وهران فيقول: «وقد كان الأمير جهز نحو الستة من الطلبة ألبسهم لباسا جيدا، ودفع لهم عدة رفيعة، ووجَّههم لجمع الطلبة وترغيبهم في الرباط، فلم

تمض إلا أيام قلائل حتى قدموا من مختلف الجهات، فبعث لهم الأسلحة، وكل ما يحتاجون إليه، ولم يزل مددهم يتواصل حتى أربى عددهم عن الحد، كل هذا، وهو يوجه لهم بالأطعمة والسمن والزيت والفواكه ونحوها، وبالشاء والبقر للذبح، ربما استحدث من السلاح والبارود ... الخ، وبعث مع ذلك في كل شهر من يقسمه عليهم من أمنائه، حتى ترتفع التهم منهم، عن أميره عليهم، وقد كان مطبخهم واحد، تأخذ كل جماعة منه ما يكفيها، فلما كثروا وعجز الطباخون عن القيام بجميعهم ظهر له أن يدونهم خمسة وعشرين، خمسة وعشرين في الديوان، ويدفع لكل ديوان ما يكفيهم من الطعام والدراهم لشراء المصالح، فبعث من دونهم بعد أن فاوضهم في القدر الذي يكفيهم من ذلك، فاتفق رأيهم على أربعين صاعا من القمح لكل ديوان في الشهر، وخمسة وعشرين لمصالحه، فكانوا يذهبون بالقمح لمن يجاورهم من الأعراب يطحنوه لهم بأجرة، فصعب ذلك عليهم، وكانوا لا يفترقون معهم غالبا إلا عن خصومة أو مضاربة، فالتزم لهم بدفعه مطحونا بنقص ريال من واجب كل ديوان، ثم بدا له فبنى له ثلاث أرحاء ماء بنهر مسرقه، بينهم وبينه نحو الثلاثة أميال لجهة الغرب، كل هذا وهم يتزايدون حتى أنهم قسموا الرزق أول رجب على ستين ديوانا، ثم قسمنا على ما ينيف على المائة، وتصدق عليهم أول شعبان، بزيادة ريال لكل شخص، وقد كان اشترى لهم نحو الألف سيف، فأمر فجعلت لها الأغماد والحمائل، ثم بعثها لهم، ففرقناها عليهم مع بعض المكاحل التي كان يوجهها إليهم مرة مرة، فتسابقوا إليها وتزاحموا عليها إلى أن آل الأمر إلى أنهم خطفوا بعضها نهبة، ثم ردوه فقسم عليهم سواء»، وفي ذلك يقول مؤلف **(الثغر الجماني)**:

ملتزمـــا لـــرزقهم جميعـــا   ملبيـــا لقـــولهم ســـميعا
فوقعـــت هنـــالكم حـــروب   زيدت بها عـلى العهـد كـروب

كان اهتمام الباي بالرباط وبساكنيه متزايدا إذ في كل أسبوع بل في كل يوم يفد عليه المرابطون، فانتشرت الأخبية والمضارب والقياطين والخيم على جميع تلك الآكام وذلك الوطاء الفياح، فكستها، وما زالت الكتائب تتواصل، والجيوش تتراسل، والمواكب تجتمع أعدادها، والأبطال تنتظم أزواجها وأفرادها، وهم مشتغلون بقراءة القرآن والفقه والنحو، لا يتركون ذلك إلا في أوقات القتال، وبالليل يبيتون يتلون القرآن العزيز، لا يفترون عنه إلا نحو **الساعتين** من أوقات النوم، ومتى انتبه النائم وجدهم على حالتهم تلك، وسمع التلاوة من كل ناحية في ذلك الوادي، فكانوا كما قيل في سلفهم الصالح رضي الله عنهم: «رهبان بالليل أسود بالنهار».

هذا في الجملة رباط وهران الذي أحياه الباي محمد بن عثمان، وقد أحدث بعد احتلال الأسبان مباشرة، كما ذكر ذلك الجامعي، إذ كان حصار وهران وعلى رأس المحاصرين أهل العلم والدين متواصلا طيلة مدة الاحتلال، وقد أحدث هذا الرباط كما بينا في غير موقع الرباط القديم المشهور الذي حوصر فيه آخر ملوك المرابطين تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين، ذكرت بعض الفقرات في وصفه كما ذكرها الكاتبان أحمد بن سحنون في (**الثغر الجماني**)، ومحمد المصطفى بن زرفة في (**الرحلة القمرية**)، وهذا الأخير اهتمَّ بتسجيل معظم رسائل الباي إلى رئيس الرِّباط، لا يسع المقام لذكرها، وقد اتخذ الباي لهذه المراسلة بريدا خاصا.

وقد اعتنى أيضا بهذه الرباطات بعض المستشرقين فخصوها بدراسات قيمة منهم العالمان الأثريان (Henri Zerrasse & René Basset)، حيث كتبا على رباط تيط بنواحي الجديدة بالمغرب الشقيق، و**جورج مارسي** الذي كتب عن مسجد أبي مروان بعنابة الذي كان يجمع بفضل موقعه الجغرافي بين مجمع العباد والمرابطين، إلا أن معظم دراسات هؤلاء المستشرقين كانت ترجع إلى الناحية الفنية والمعمارية.

وكان هذا الرباط، أي رباط وهران بوادي (**يفري**) غربي ساحل وهران، وقد كان طلبة القرآن ورجال العلم بالمدينة يحيون ذكراه سنويا، إلا أنه لطول العهد تُنوسِيَت أسباب هذه الذكرى وصار جل الحاضرين يعتقدون أن هذا الاجتماع مجرد احتفال عادي للطلبة، وقد بقيت هذه الذكرى تقام سنويا بـ (**يفري**) إلى أوائل الحرب العالمية الثانية، وكثيرا ما كان يرأسها عالم وهران الراحل الشيخ الطيب المهاجي.

الفداء والرباط:

أصله مِن الكتاب آيات متعددة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (التوبة:111)، أي سواء قَتلوا ورَجعوا، أو قُتِلوا، ولهذا ذهب بعض الصحابة إلى أن كلَّ مؤمن له بيعة في عنقه، إذ إنه بايع الله على القتال في سبيل الله، وجزاؤه الجنة، وقد ذكر الإمام أبو عبد الله الحضرمي الأندلسي في تأليفه (**الفرائد المرويات في فوائد الثلاثيات**) ـ أي: ثلاثيات البخاري ـ في حديثٍ يتَّصِل بِسلمة ابن الأكوع الصحابي قال: «بايعت النبي ﷺ ثم عدلتُ إلى ظلِّ شجرة، فلما خفَّ الناس قال: يا ابن الأكوع ألا تُبايع، قال: قلت قد بايعت يا رسول الله، قال: وأيضا، فبايعتُه الثانية، فقلت: يا أبا مسلم، على أيِّ شيءٍ كنتم تُبايعون يومئذ ؟ قال: على الموت ».

وقد قام الصحابة الكرام بأعمال فدائية جريئة في عهد النبي ﷺ وبأمر منه، فهي إذن سنة عملية مِن سُنَن الإسلام، ومن هذا يتبيَّن لنا أنَّ العمل الفِدائي مشروعٌ كتابا وسنةً وإجماعا، وهو نوعٌ من الجهاد الذي حضَّ عليه الشَّرع ورغَّب فيه، وأوجَبه عينيا على كلِّ مسلم، وأن القائمين به يعدُّون مِن السَّابِقين الأوَّلين المستحقِّين للمَدح الذي

خصَّ الله به سلَفهم في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ (الحديد:10)، قيل: إن أول فدائي في الإسلام هو الخليفة علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) حيث خلف النبي ﷺ في فراشه ليلة الهجرة، تضليلا للمشركين الذين كانوا يتربصون بالنبي لقتله، وتفقدوه بالفعل في تلك الليلة، إلا أنهم كانوا يجدونه ملقى على فراشه، فاطمأنوا على وجوده، إلى أن بوغتوا في الصباح عند ما رأوا عليا خارجا من المنزل، وعندئذ لم يتمالكوا، فتسابقوا إليه يسألونه عن النبي أين هو، فما كان من علي إلا أن أجابهم بأنه لا يعلم عنه شيئا.

وقد ذكر المؤرخون وأصحاب السير عدة فدائيين من الصحابة والتابعين، كمحمد بن مسلمة الأنصاري، ورفيقه أبي نائلة اللذين قتلا كعب ابن الأشرف اليهودي المتهم بإذائه النبي وأصحابه قتلاه بأمر منه ﷺ، وأن أمثال هذه الأعمال الفدائية كثيرة في عهد النبي وفي عهد خلفائه، وتاريخ الإسلام مترع بروعة التضحية في سبيل الله وحب الفداء.

ثم إن حياة النبي ﷺ نفسها قدوة حسنة للمسلمين عبر تاريخهم الطويل في بذل نفوسهم، وتضحيتهم بأغلى ما يملكه الإنسان في هذه الدنيا، ألا وهي الحياة، فلقد غزا ﷺ سبعا وعشرين غزوة في نحو عشر سنوات، وبدأ حياة الجهاد بعد الهجرة بعام، وعمره يزيد عن ثلاث وخمسين سنة، فكان لا ينتهي من معركة إلا ويستعد لمعركة أخرى.

ولقد ذكر أصحاب السِّير بإسهاب مواقفه يوم **حُنين**، حيث صعد على ربوة مرتفعة وقد افترق عنه أصحابه، فواجه أعداءه مناديا أصحابه ومشجعا لهم، والسهام تتساقط عليه، فتسابق حينئذ كثير من أصحابه ملبين نداءه، وخاضوا المعارك، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من نجا، وقائمة المستشهدين في هذه الغزوات خصوصا غزوات حنين وبدر وأحد طويلة، لا يسع المقام لتتبعها بتفصيل، وإنما لا يفوتنا أن نذكر أن مواقفه ﷺ

ومواقف أصحابه توارثها المسلمون خلفا عن سلف، في مختلف العصور، وكانت الهدف والمثل الأعلى للمجاهدين في مختلف الأمكنة والأزمنة، فكان المسلم عند ما يخرج للمعركة يخرج لها مستعدا استعدادا نفسيا ووجدانيا، ويوطِّن نفسه على القتل والموت قبل يوم القتلِ والموت.

إن كثيرا من المؤرخين حتى في العصر الأخير، خصوصا الأجانب منهم وقفوا حيارى مدهوشين عن أسباب الانتصارات التي أحرز عليها الفاتحون المسلمون بتلك السرعة التي ضربت الرقم القياسي في تاريخ الحروب العالمية، ولم يسع المسيحيون أنفسهم إلا الاعتراف بروح التَّضحية والفداء اللتين كان يمتاز بهما الفاتحون، حيث تمكنوا من الانتصار وإطاحة معظم الدول التي حاربتهم، فعند ما جمع البابا (Léon) الرابع المؤتمر الشَّهير للملوك المسيحيِّين بفرنسا في عهده (886م ـ 912م)، وبحثوا فيه إحداث جيش دولي لمحاربة أعداء المسيح، وكان هذا الجيش أول نواةٍ للحروب الصليبية، ووعد فيه البابا المذكور المحاربين المسيحيِّين، وعدهم بالجزاء الإلهي لكلِّ مَن مات مقاتِلا، إذ كانت التعاليم المسيحية تحرِّم في أول عهدِها قتلَ النَّفس، وترى المقاتلَ الذي يموت في الحرب كقاتل النَّفس، وكان على رأس هؤلاء الرُّؤساء البابوات: (Drigene)، (Tertullien)، (Lactance)، فكانوا يحرِّمون رفع السيوف وهدر الدِّماء، إلى أن كان عهد إلى (St Augustin) الشَّهير في القرن الرابع المسيحي، فقسَّم الحرب إلى حربين: **حرب مباحة، وحرب محرمة.**

فالحربُ المحرمة: هي التي تمنع وتحرم المقاتل الذي يموتُ في ساحة الوغى من الجزاء الإلهي، أما الحرب المباحة: فلا، ومن الحروب المباحة عند المسيحيِّين طبعا هي الحروب الصَّليبية، إلَّا أنَّ هناك بعض الكنائس بقيت متشبِّثة بالتعاليم الأولى، ولهذا أفتى البابا (Léon) الرابع في هذا المؤتمر بأنَّ المحاربين في سبيل العقيدة المسيحية ينالون

الجزاء الإلهي خصوصا مَن مات مقاتلا، واستدلَّ البابا (Léon) هذا في ذلك المؤتمر بحروب المسلمين، وكيف كانوا لا يهابون الموت، وإنما قال لبلبلة أفكار المؤتمرين « إن العرب الذين يشاركون في الجهاد كان يحدو الأغنياء منهم التضحية في سبيل سعادة شعوبهم وخدمتها، أما الفقراء فكان الداعي لهم الحصول على الغنائم، وقد يعين المجاهدين على التسليح النساء والأطفال، حيث إن تعاليم دينهم ترى أن مَن لم تمكنه المشاركة في الحرب، فبهذه الإعانة يعدُّ كالمشارك فيها بنفسه »، وهناك بعض المؤتمرين اعترفوا بالحقيقة وقالوا: «إن المسلمين يندفعون للحرب المقدَّسة بأسباب أخرى، ويعرفون خصوصا فكرة الفِداء، وما أعدَّه الله للمجاهد »، إلا أنهم قالوا: «إن هذا الجزاء الموعود به قاتلُ النَّفسِ يعدُّ منكرا في التعاليم المسيحية ».

والذي يهمُّنا في هذه الدراسة هو أن الفداء في الإسلام كان موضع اهتمام أعداء المسلمين في مؤتمراتهم، ويقرؤون له ألف حِساب، وقد ذكر بعض علمائنا: «أن بعض الصحابة سئلوا مِن بعض التابعين، فقالوا لهم: ما لكم أنتم في قلَّة وتهزمون الجيش، ونحن الآن في عدَد كثير، ولم يكن لنا ما كان لكم من النصرة ؟ فأجابهم أحد الصحابة قائلا: أنا نحن كنا في الحروب نفضِّل الموت على الحياة، وأنتم لربما صِرتُم تفضِّلون الحياة على الموت، فوقع في قلوبكم الرعب ».

اشتهر المسلمون عبر تاريخهم بتوطين نفوسهم على التضحية والاستشهاد في سبيل الله، فرادى وجماعات، وأن تتبع أشهر الوقائع لا يسعه مجال هذه الدراسة المحدودة، وإنما لا يفوتنا أن نذكر على سبيل المثال بعض المواقف وقفها المسلمون عندما كانوا يصطدمون بالحوادث الجسام، فتهون عليهم نفوسهم كما ذكرنا فرادى وجماعات، يحدثنا التاريخ أن أحد رفقاء المهدي بن تومرت وتلميذه عبد المؤمن بن علي لما كانوا في طريق عودتهم من بجاية إلى المغرب وقضوا ليلة ببعض القرى تقدم ذلك الرفيق لعبد

المؤمن وطلب منه أن يستبدل معه مكان نومه فأجابه عبد المؤمن إلى رغبته وفي الصباح وجد الرفيق ميتا، فأدرك السر وتحقق أن ذلك الرفيق فداه بنفسه، كان اسم هذا الفدائي إسماعيل بن يحيى الهزرجي، وقد ذكر الرحالة ابن جبير الأندلسي في **(رحلته)** في الحديث عن مدينة صور وهي إذاك تحت حكم الصليبيين فقال: «... وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور بمسجد بقى بأيدي المسلمين ولهم فيها مساجد أخر، فأعلمنا به أحد أشياخ أهل صور من المسلمين أنها أخذت منهم سنة ثمان عشرة وخمسمائة وأخذت عكة قبلها باثنتي عشرة سنة بعد محاصرة طويلة، وبعد استيلاء المسبغة عليهم، ذكر لنا أنهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها، وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم، وأبناءهم في المسجد الجامع، ويحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى لهم، ثم يخرجوا إلى عدوهم بعزمة نافذة، ويصدموهم صدمة صادقة، حتى يموتوا على دم واحد، ويقضي الله قضاءه، فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم، واجمعوا على دفع البلد، والخروج منه بسلام، فكان ذلك».

هذا وإن منع الفقهاء والمتورعون سكان صور من تنفيذ ما عزموا عليه من قتل أهليهم غيرة من تملك النصارى لهم، فإن التاريخ القريب يحدثنا عن مسلمين آخرين نفذوا بالفعل هذه الخطة، حيث قتلوا نساءهم وأبناءهم، ثم قتلوا أنفسهم عندما تحققوا وقوعهم في قبضة الأسر، وكان السر في هذه الواقعة عند إخوانهم المسلمين لا عند النصارى مثل أصحاب صور. وهذه الحادثة المؤلمة نذكرها للاستدلال على ما يتعلق ببحثنا هذا، إذ كان المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها وفي مختلف العصور عندما يصطدمون بالحوادث الجسام كان شعارهم دائما: «النارُ ولا العار»، وقعت الحادثة الثانية هذه لجيش الأمير عبد القادر عندما كان بالمغرب، وتوترت العلائق بينهم وبين جيش ملك المغرب الشقيق.

ولنترك الكلمة للمؤرِّخ **الناصري** ـ هو وجهة نظر المغرب الرسمية ـ قال: «إثر الخلاف الذي وقع بين الجيشين بعث الملك لجيش الأمير عبد القادر عسكرا من الشراردة فاجتاحوهم بعد جهد جهيد وقتال شديد، من ذلك أنهم اعتصموا بربوة، وجعلوا يقاتلون على حريمهم وكانوا رماة، لا تسقط لهم رصاصة في الأرض، فكانوا كلما توجهت إليهم طائفة من الجيش ـ المغربي ـ استأصلوها بالرصاص، وكانوا يجمعون موتاهم فينصبونها أشبارا يتترَّسون بها ويقاتلون من خلفها، ولما أعيا الجيش أمرهم، حملوا عليهم حملة واحدة، حتى خالطوهم في معتصمهم، وجالدوهم بالسيوف، وطاعنوهم بالرِّماح والتوافل، وانقطع البارود فكانوا يقتلون أبناءهم ونساءهم بأيدهم فرارا من السبي والعار، ثم جعلوا يقتلون أنفسهم حين تحققوا أنهم في قبضة الأسر ».

ثم يسترسل الناصري في الحديث ويقول: «... إن الأمير عبد القادر عمد ذات ليلة إلى طائفة من جنده نحو الخمس عشرة مائة على ما قيل، كلهم بطل مجرب، انتقاهم انتقاء، وكان جيش الخليفة أي ولي عهد ملك المغرب منقسما قسمين، بعضه معه، وبعضه مع أخيه، فصمد الحاج عبد القادر إليهما بتلك العصبة، الذين هم فتيان الكريهة، ومساعير الهيجاء، وجمرات الحرب، طالما هد بهم الوقائع وخاض غمرات الموت مع الفرنسيس ...»، إلى أن يقول: «... فهلك من المحلتين بسبب ذلك بشر كثير، وأما الأمير عبد القادر فإنه فر في أصحابه بعد أن حملوا الكثير من موتاهم معهم، ولما أصبح الناس وتفقدوا حالهم، وجدوا فيهم من الجرحى نحو الألف، ومن القتلى ما يقرب من ذلك، وأصبح حول المحلة من قتلى أصحاب الأمير عبد القادر الذين أجهضهم القتال عن حملهم نحو الخمسين، وأسروا نفرا أحياء، فشاهدوا من طمأنينتهم عند القتال ما قضوا منه العجب، ووجدوا عليهم كسى رفيعة، مطرزة بالصقلي والحرير ونحو ذلك ».

والشَّاهد عندنا من رواية هذه القصة هو قول المؤرخ الناصري: «كانوا يقتلون أبناءهم

ونساءهم بأيديهم فرارا من السبي والعار، ثم جعلوا يقتلون أنفسهم حين تحققوا أنهم في قبضة الأسر»، وقوله في ختام حديثه: «وأسروا نفرا أحياء فشاهدوا من طمأنينتهم عند القتل ما قضوا منه العجب ووجدوا عليهم كسى رفيعة مطرزة بالصقلي والحرير».

أكتفي بهذا القدر للاستدلال على ما ذكرناه، وإلا فلو تتبعنا أشهر المواقف في هذا الميدان لاحتاج ذلك إلى مجلدات، فمواقف الأندلسيِّين ببلنسية على ما حكى ابن الأبار، ومواقفهم بالبيازين بعد سقوط غرناطة لا يقلان روعة ولا بسالة عما تحدثنا عنه.

ولننتقل الآن إلى الحديث عن نظام الفداء الذي ظهر في بلاد القبائل بعد الاحتلال الفرنسي، وبهر كثيرا من الكتاب خصوصا الضباط الفرنسيين الذين خصصوه بتآليف قيمة منها تأليف الجنرال (Hanoteau) الذي سماه: (**بلاد القبائل وعوائد سكّانها**).

.«La Kabylie et les Coutumes Kabyles»

المسبَّلون:

كان هذا النوع من الفداء يسمى في بلاد القبائل بـ: (**امسبلن**)، وهو جمع مسبل بلغة البلاد، وهو يطلق تماما على الفدائي في بقية البلاد الإسلامية، إلا أنه يختلف عنه في بعض الجزئيات، تخص ضبطه ونظامه في بلاد القبائل، لا يجند المسبل إلا بطلب وإذن المسؤولين السياسيين والعسكريين عندما تعلن البلاد حربا مع دولة أجنبية للدفاع عن حمى الوطن، أو طرد العدو المحتل، ومن هذا لا يجند المسبل للحروب الداخلية بين القبائل بعضهم لبعض، كيفما كانت الأسباب الداعية لنشوب تلك الحروب. وبعد الحصول على الإذن من المسؤولين المذكورين الذين يحددون عدد ما يحتاجونه، تتقدم شخصية دينية تتمتع بالنفوذ والسمعة الطيبة في البلاد، فيفتح سجلات لتسجيل المجندين، وفي الغالب يقع ذلك في الأسواق والمجتمعات العامة، ويشترط في المسبل، أن يكون أعزب ويقدمه أهله، وبالخصوص والده إن كان حاضرا، ويقبل المتزوج إن دعت الحاجة إلى ذلك، وبعد

التسجيل لا يقبل بأي وجه رفض المجند للخدمة، كيفما كان العذر، اللهم إلا إذا كان والده غير حاضر، وتعرض له، فإنه يقبل منه ذلك، وقد يحاط هؤلاء المجندون بمجرد تسجيلهم في فرقة المسبلين بالاحترام والتقدير، ويتولى الجماعة، أي: المسؤولين السياسيين والعسكريين النفقة عليهم وعلى ذويهم، ويقدم لهم الشعب جميع الهدايا من سلاح وتموين لهم ولأفراد أسرتهم، ثم بعد الانتهاء من التسجيل تقدمهم الشخصية الدينية للجماعة ويكون ذلك في حفل عمومي، فيصطف المسبلون صفوفا، ويرتل القرآن، ثم تقرأ بعض الأدعية من الحاضرين، والمسبلون صامتون، لا يشاركون بقية الحاضرين لا في قراءة القرآن ولا في الأدعية، وتعد تلك القراءة بمثابة الصلاة على الجنازة، وحينئذ تعين الجماعة ـ أي: المسئولين القائمين بالدفاع عن البلاد ـ مهام أولئك المسبلين، فتخطط لهم البرامج التي يتبعونها، والمواضع، ونوع الأسلحة، وحتى الأمكنة التي يذهبون إليها أو ينسحبون في الكر والفر بحيث لا يجاوز المحل المعين له في حالة الانتصار أو في حالة الانسحاب، ثم إن المسبلين في حالة الحرب لا يختلطون ببقية المجاهدين، وبعد الاستشهاد تتخذ لهم مقابر خاصة تدعى بـ (مقبرات المسبلين)، أما الذين ينكصون على أعقابهم، أو يفرون من ساحة الوغى فإنهم يهجرون، ويحاطون بالخزي والعار، وكثيرا ما يعدمهم أقاربهم للعار الذي يلحق الأسرة، وحتى القرية والقبيلة، والناكص الذي ينجو من الإعدام تضيق عليه الأرض بما رحبت فيهاجر البلاد، وينقطع خبره وأثره.

وأول ما ظهر هذا النوع من المسبلين في بلاد القبائل في يونيو 1854 عند الاحتلال الفرنسي وثورة الشريف بوبغلة، فكان الجنرال الوالي العام بالجزائر ورفيقة الجنرال ماك ماهون (Mac Mahon)، خرجا على رأس الجيش الفرنسي في جولة تفقدية، إذ كانت الحرب أوشكت على النهاية، فعندما وصلا إلى قرب بني يتورغ رأوا النيران موقدة على قمم الجبال، فتوجسا خيفة، إذ إيقاد النيران بقمم الجبال كان بمثابة الإذن لاجتماع المجاهدين، وتهيئهم للحرب ثم اطلعوا على الحقيقة وهي امرأة من سكان الناحية

تزعمت المقاومة، ورفضت الاستسلام، ونادت بالجهاد، وأحيت سنة المسبلين، الذي قال بعض من كتب عنها أنها كانت قديمة جدا ببلاد القبائل، كانت هذه المرأة هي لالا فاطمة كما كان يدعوها السكان، ولقبها الفرنسيون بـ (نبيَّة الجرجرة) (Prophétesse La de Djurjura)، وقد وصفها الضباط المذكورون، أنها كانت مرتدية حائكا أحمر في ذلك اليوم، وهي فوق ربوة مرتفعة، محاطة بنساء القرية، يحرضن المسبلين على الموت في سبيل الله، ويذكرن المسبلين بما وعد الله به الشهداء، وكانت المقاومة من أعنف ما لاقاه الجيش الفرنسي في حروبه ببلاد القبائل رغم قلة عدد المسبلين الذين اطلع عليهم فيما بعد.

إن السَّيدة فاطمة عندما أعلنت الحرب كان يشدُّ أزرها إخوتها، وتولى أحدهم وهو السيد الطاهر تجنيد المسبلين إذ أذن له في تجنيد ألف مسبل، فلم يسعه الوقت إلا لتجنيد 154 مسبلا إذ هاجمه الفرنسيون، ورغم قلة هذا العدد أمكن للزعيمة أن تدافع عن قريتها سومر ببني يتورغ واستشهد جل المسبلين الذين دافعوا دفاع الأبطال باعتراف أعدائهم، وبقيت السيدة فاطمة أو لالا فاطمة كما كان يدعوها السكان، تواصل المقاومة والجهاد تارة على رأس المسبلين وتارة على رأس المجاهدين إلى أن أسرت سنة 1857، وسجنت صحبة ما تبقى من إخوتها ببني سليمان حوز مدينة الأخضرية الحالية، وكان السكان وبالخصوص النسوة يزورونها من جميع البلاد القبائلية، حتى إن السلطات الفرنسية أحصت عدد زوارها الذين بلغوا في يوم من الأيام مائتي نسمة، معظمهم من النساء والصبيان، ولم ينقطع سيل هؤلاء الزوار طيلة أيام حياتها إذ توفيت رحمها الله سنة 1863.

كانت معركة لالا فاطمة نسومر بني يتورغ هي التي ظهر فيها لأول مرة حرب المسبلين، وذلك سنة 1854 ثم كانت ثورة سنة 1871، وهي المشهورة بثورة المقراني وصهره الشيخ محمد أمزيان بن الحداد، فظهرت حينئذ حرب المسبلين بصفة جليلة،

واعتنى بها أيضا قادة الجيش الفرنسي وخصصوها بتآليف قيمة، ذكروا فيها النظام الخاص بالمسبلين، وهو لا يختلف عما سبق ذكره، ولنكتف بذكر واقعة اهتم بها المؤرخون وكتبوا عنها بتفصيل، كتبوا عن موقف هؤلاء المسبلين حيث كلفوا بالهجوم على حصن أربعاء بني راتن المشهور بـ **(فور ناصيونال)** كان عدد المسبلين المجندين للهجوم على هذا الحصن 2280 مسبلا فحاصروا الحصن ابتداءً من 14 أفريل 71، تحت قيادة الشيخ **محمد وَعْلي أوسَحنون** وجمعوا أثناء الحصار 700 سلما منها المتخذ من الحبال ومنها السلاليم الخشبية واتفقوا على أن الهجوم يقع ليلة 22 مايو، وقد وصف قائد الجيش الفرنسي في تقريره الرسمي الذي أرسله إلى رؤسائه يصف لهم فيه الواقعة وكان هذا التقرير مؤرخا في 16 يونيو قال: «إن ليلة 22 مايو كانت هادئة بخلاف الليالي السابقة، فلم يسمع أدنى صوت من خارج، ولا أية طلقة نارية فعندما أوقدوا القناديل المستعملة بالحصن كان الهدوء التام في الحصن وفي البلدة.

وعند الساعة الثانية بعد منتصف الليل سمع نشيد ديني من روابي تابلبلت، وبعد ربع ساعة سمع نشيد آخر من روابي اورفيا، ثم تلا هذين النشيدين صمت دام ربع ساعة، وحينئذ سمعت أصوات مزعجة، من الشعاب المحاطة بالحصن، وأطلقت نيران البنادق صوب الحصن وكانت السلاليم مجهزة فصعد عليها المسبلون، وصاروا ينادون فرادى الواحد بعد الآخر بأعلى أصواتهم: «إنِّي أنا فلان ابن فلان، وإني مسبل»، ويطلق نيران بندقيته إلا أن المقاومة كانت عنيفة من الحصن، وكان كلما سقط المسبلون من أعلى السلاليم، إلا ويخلفهم آخرون، وهكذا دامت المعركة إلى أن طلعت الشمس ولم تأت بالنتيجة المرجوة إذ كان المحاصرون على علم من الهجوم في تلك الليلة، فالموظف المدعو أمين الأمناء بذل جهودا ليبلغ الهجوم بليلة إلى قائد الحصن الفرنسي وكيفما كانت تلك النتيجة فإنها تركت آثارها عند المحاصرين إذ لما انسحب المسبلون في الصباح وتركوا بعض السلاليم حملوا أمواتهم وجرحاهم إلا أنهم تقدموا للموت

بشجاعة لم يعهدها ضباط الحصن لا في الحروب التي شاهدوها إذ كان معظم ضباط حرب الاحتلال الفرنسي ممن شاهدوا وخاضوا غمار حروب نابليون الأول بأوروبا وروسيا خصوصا عندما رأوا أن بعض المسبلين كانوا يربطون بعضهم بعضا بالحبال حتى يتأخروا ويشاركون بعضهم بعضا في الاستشهاد وكان هذا الربط يسمى بأنمسغراس ايشدان، ولم يخف الضباط الفرنسيون إعجابهم بهذا النوع من المقاتلين في تقاريرهم الرسمية إلى رؤسائهم حيث يلفتون أنظارهم أن الأمة التي تهتدي وتحافظ على هذا النوع من النظام الحربي ينبغي أن لا يستهان بها ويقرأ لها حسابها.

بحث كثير من الكتاب الأوروبيين وبالخصوص الضباط الفرنسيين الذين ارتطموا بهذا النوع من الفدائيين ببلاد القبائل سواء في حرب الاحتلال 1854 أو ثورة المقراني، وتحققوا أنه وراثي يرجع عهده إلى الأزمنة القديمة، وقد سجل في التاريخ الجزائري في أوائل القرن العاشر الهجري عندما احتل الأسبانيون مدينة بجاية، ثم ظهر الأتراك في الميدان فحاصرها صالح راس ما يقرب من الشهر فاستولى على حصن عبد القادر ثم هاجم حصن موسى ـ قصبة البلاد في العهد الإسلامي ـ فتحصن بها حاكم البلدة لويس دوبرالطا (Louis de Peralta) فكانت المقاومة عنيفة ودامت ثلاثة أسابيع فعندئذ تقدم سبعة جنود (فدائيين) واتخذوا سلاليم من حبال ولما سقطوا تحت وابل رصاص الأسبان لم تذهب تضحيتهم سبهللا، فقد خلفهم كثير من رفقائهم ولم تمض تلك الليلة حتى تغلب أصحاب السلاليم على المقاومين الأسبان وفتحوا الحصن فخلد صالح رايس إثر احتلاله هؤلاء الشهداء وبنى لهم ضريحا في سفح برج موسى واشتهر الضريح بهم مدة، وما زال إلى الآن حمام بسيط بقرية يحمل هذا الاسم: **(حمام السبعة رجال)**.

هذه في الجملة نبذة تاريخية عن الرباط والفداء، وهي كما رأيتم وإن كانت كل بلدة إسلامية لا تخلو منها، إلا أن نظام الرباط بوهران والفداء ببلاد القبائل لم نجد لهم نظيرا في بقية البلاد الإسلامية، أو لم يعن بها المؤرخون كما اعتنوا برباط وهران، وفدائي القبائل.

موقف المؤرِّخين الأجانب من تاريخ الجزائر عبر العصور[1]

إنَّ المؤرِّخين الأجانب الذين اعتنوا بتاريخ الجزائر يعدُّون بالمئات، ولا زالت تآليفهم متواصلة، ويمكننا أن نقسِّمهم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوَّل: تخصَّص في تاريخ البلاد القديم، أي: عهد احتلال الرُّومان وما قبله.

و**القسم الثَّاني**: اهتم بتاريخ الفتوحات والعهد الإسلامي.

و[**القسم**] **الثَّالث**: اعتنى بتاريخ الاحتلال الفرنسي وما أعقبه من تطوُّر الاستعمار وانتشاره وآثاره.

فمؤرِّخوا **القسم الأوَّل** بالغوا في الإشادة بـ (روما) ومدنيتها، وأحيوا ما تبقَّى من آثارها، واستعانوا بما كان يمدُّهم به العنصريُّون ودعاة **(إفريقيا المسيحيَّة)**، وميزانية الدَّولة التي كانت تفتح لهم ـ على مصراعيها ـ أبوابها، فأسّست الجمعيات في جميع أنحاء البلاد، للبحث وللتَّنقيب عن الآثار، واتَّخذت لها مكتبات، ومجلاَّت، ومراكز للمحاضرات، وأقامت مؤتمرات علمية كانت تدعو لحضورها وللمشاركة في بحوثها أساطين العلم من الأثريين، كل هذا لتتوصل إلى هدف دعوتها، وهي أنَّ الحضارة الرومانية المسيحية طبعت هذه البلاد بطابعها، وأنَّ احتلال هذه البلاد هو استرجاع حق مغصوب، وقليل منهم مَن اهتم بتاريخ سكان البلاد الأصليين ـ إن لم يكن ذلك

(1) مجلة الأصالة، العدد 14-15، ص 125-138، جمادي الاولى -الثانية 1393هـ/ جويلية- أوت 1973م.

لبث روح البلبلة والإحن في الأفكار، وإظهار العنصر العربي دخيلا ومستعمرا وما إلى ذلك ـ اللهم إلا ما كتبه المؤرخ العبقري **ستيفان قزيل** (Stephane Gsell)فإنه خصَّص لهم تأليفًا قيِّمًا، أجمع المؤرخون الاختصاصيون، أنه أهم وأجمع مصدر لتاريخ الدول البربرية، التي كانت تتمتع باستقلال داخلي، وكانت لها حضارة ممتازة، إلا أن كثيرا من المؤرخين لتلك الفترة أهملوها.

أما **القسم الثاني** فإن جل كُتَّابه كان هدفهم من دراساتهم تصوير الفتوحات الإسلامية بأنها فَرَضت دين الإسلام بالإكراه والسيف، وقطعت صلة البلاد مع الحضارة الغربية والمدنية، فتعطلت المدنية وتوقَّفت، كما استنتجوا أن الجزائر لم تتوحد في تاريخها، وأنها كانت دائما خاضعة للمغيرين، وأشهر هذه الطبقة وأكثرها صراحة، هو **فليكس قوتي** (Felix Gautier).

أما **الطبقة الثالثة** وهي التي تمثل الأكثرية، فإنَّ معظم كُتَّابها مجَّدوا بطولة قادة جيش الاحتلال، وأشادوا بالاستعمار، وظهرت آثار هذه الطبقة، اثر انتهاء مقاومة **الأمير عبد القادر**، ثم عند الاحتفال المِئَوي للاحتلال سنة 1930م.

وإذا أمعنا النظر في جلِّ ما وصَلَنا من هذا السيل العرمرم من التآليف، نجد القسم الذي يستحق العناية والاهتمام، هو القسم الشبيه بالمذكرات، أو مجاميع سجلات التقارير الرسمية، فإنها تحتوي على جوانب مفيدة في حاجة إلى الدراسة والمراجعة والتحقيق، ولهذا فإنني في هذا البحث سأتعرض للقطات **(وإن كانت مفككة ومجملة)** لمختلف كُتَّاب هذه الأقسام المذكورة لأُجنِّب القارئ الدخول في التفاصيل التي يمكنه تتبعها في مواضعها، وهذا لا يمنع من الخروج عن هذا الالتزام ببعض الأحداث الجوهرية فأذكرها بنوع من التفصيل وهذه الطريقة هي التي تفرضها مثل هذه الدراسات المحدودة.

القسم الأول: كتب **ستيفان قزيل** (Stephane Gsell) المتوفى في الثلاثينيات من القرن المسيحي الجاري كتابه الشهير: (**التاريخ القديم لإفريقيا الشَّمالية**)، والكتاب يشمل ثمانية أجزاء، خصَّ جلها لتاريخ الحضارة البربرية في المدة التي تتراوح بين سقوط **قرطاجنة** واحتلال **روما** البلاد، وهذه المدة لا تتجاوز خمسا وثمانين ومائة سنة (185)، أثبت المؤلف أن **قرطاجنة** لم تكن هي إفريقيا، إذ كان جل مؤرخي تلك الفترة يقتصرون على الاعتناء بالمراكز التجارية التي أحدثتها **قرطاجنة** طوال شواطئ البلاد، ومثل هؤلاء المؤرخين كمثل زملائهم الذين ـ ولا زالوا ـ اقتصروا في تآليفهم التاريخية على حياة الملوك وقصورهم، ضاربين صفحا عن حياة البلاد وسكانها وحضارتها وثقافتها، هذا الفراغ هو الذي حاول **قزيل** أن يتداركه، فنجح حيث إن مقرضي كتابه متَّفِقون على أنَّه أحسن ما أُلِّف في الموضوع، بل هو التأليف الوحيد في العالم لهذه الفترة، ويعدُّونه موسوعة تاريخية جمعت ما تفرق في غيره، وميزته استنتاجاته التي دعَّم بها آراءه.

فمما ذكره **قزيل** في الموضوع: «إن تاريخ عهد **قرطاجنة** لا ينحصر في المدن التي أحدثوها كمراكز تجارية بشواطئ البلاد، فإن بداخل البلاد، كان يوجد شعب كوَّن إمارات، وكانت هذه الإمارات البربرية في حالتي حرب وسلم مع حكام **الفينيقيين**، أي: **القرطاجنيين** ـ كما بَقَوا على هذه الحالة في عهد الرومان بعدهم ـ وإن هذه الإمارات كانت مجهولة تماما ـ إلا القليل منها ـ لدى المؤرخين القُدامى من اليونانيين و**اللاتينيين**، وإنْ أتيح لنا اليوم أن نكشفَ القناعَ عن تاريخهم، فذلك يرجع إلى فضل النقوش باللغة **الفينيقية**، أو **الليبية** (**لغة لم نعرف منها إلا أسماء الأعلام**) أو العثور على بعض الآثار كالمسكوكات والأضرحة... الخ ».

كما يرجع فضل هذه الاكتشافات إلى صمود ومحافظة سكان إفريقيا، إذ هم مشهورون ومعهم **الإيطاليون**، بأنهم في مقدمة الأمم المحافظة على التقاليد والعادات ».

وقد ضربَ **المؤلِّف** مثلا لذلك **بالتوارق** الذين حافَظوا على كثير من العادات والتقاليد، كانت موجودة في بلدهم قبل الإسلام، ولم يمنعهم اعتناقهم للدِّين الإسلامي مِن المحافظة عليها، وفيها ما تنكِره تعاليم الإسلام، ثمَّ ذكر أو عقد فصلا للحضارة المادية البربرية بيَّن فيه نموذجا من طريقة استنتاجاته التي اتبعها في تأليفه فقال: «السكان كانوا يعيشون جماعات، فإن الآلة الحجرية المجموعة في مكان واحد قرب منابع المياه، تثبت وجود قرى آهلة بالسكان، قريبة من منابع الماء، ليمكن لهم الاستيطان والدفاع عن أنفسهم، كما أنَّ الأسرة تكوَّنت هنا من قديم، بخلاف بلاد آسيا، وأن المرأة كانت وظيفتها القيام بشؤون المنزل وخدمة الصوف، وتربية الأولاد والحيوانات، وأن روح الجماعة والتفافها حول رئيسها، ثم التفاف الجميع حول رئيس القبيلة، كانت سارية المفعول، كانت العصبية العائلية تسود المجتمع البربري، كما كانت القرية تخضع لنظام الجماعة المنتخبة، وكان الانتخاب يختلف، فمنه ما ينتخب صاحبه لمدة الحياة، ومنه لمدة تمكن فيها عزل المنتخَب وتعويضه بغيره».

ثم يذكر **المؤلف** أن هذه القبائل كانت كثيرة التمرُّد على الحكم، وبعد أن يتعرَّض للإمارات التي تكونت وإلى زعمائها، ومواقعها، وحياة الأبطال أمثال **سيفاكس** و**ماسنيسا** و**يوغرطة** والحروب التي خاضوا غمارها، تعرَّض للحياة الاقتصادية، ومنتوجات البلاد من حبوب وفواكه، وخضر، وتربية المواشي والنحل وصيد السمك وتصبيره، وصادرات البلاد التجارية ووارداتها، ومساكنهم وأنواعها، تعرَّض للتمدن المعنوي، فقال: «إنَّ أخلاق البربر وعوائدهم لفتت أنظار المؤرخين والباحثين القدامى، فسجَّلوا لهم خصوصيات غريبة، منها أن مجتمعهم كانت تسوده الطهارة والعفاف ولهذا كانوا يصلون إلى أرذل العمر، محتفظين بصحتهم البدنية المثالية، فهم لا يأكلون اللحم إلا قليلا ـ رغم تربيتهم للمواشي ومختلف الحيوانات ـ، ثم نجدهم لا يأكلون لحم الخنزير ولا يربونه ... الخ».

إن هذا التأليف قيم في موضوعه وصاحبه مشهور بالعلم، وعمق التفكير، وسعة الإطلاع وهو وإن كان من: «أقطاب إفريقيا المسيحية»، و«الجزائر الفرنسية» إلا أن تأليفه هذا يتوقف عليه تاريخ البلاد، فهو دعامة لربط حاضرها بماضيها، إذ الحقبة التي تعرَّض لها المؤلِّف وخصَّص لها ما يزيد على مائتين وألف صفحة، تلقي أضواء على تاريخ البلاد الحضاري، الذي كثيرا ما أهمل، إذ نجد أشهر كتَّابنا لم يهتموا بهذه الفترة، وكل ما يذكرونه عندما يجدون آثارا قديمة هذه العبارة: «وفيها آثار للأول»، إن لم تختلط بالأساطير، أو ما تعود العوام أن يطلقون عليها، مثل قولهم: «بلاد الجهلاء»، أو: «الأصنام»، أو: «الخربة».

القسم الثاني هو ما ذكر فيه العهد الإسلامي وهو كثير أيضا، إذ تخلل هذا العهد الاحتلال الاسباني لبعض مدن السواحل كوهران وبجاية، وقد بقي الأسبان ما يقرب من ثلاثة قرون بوهران، وفي هذه المدة اهتم كثير من مؤرخي الأسبان بتاريخ البلاد، إذ كان هذا الاحتلال سببا في إثارة الأحقاد الصليبية الكامنة في نفوس كثير من الكتاب الذين كانوا لا يخفون أن بلاد الشمال الإفريقي طبعت من العهد الروماني بالطابع المسيحي، وكانوا يرون أن الفتوحات الإسلامية جريمة لا تغتفر، وتفننت هذه الطبقة من الكتاب الذين كانت تشجعهم الكنيسة ماديا ومعنويا لبث السموم وتشويه الحقائق، ثم نجد هذه الفترة غيرت الأوضاع، واستولت على البحر الأبيض أعظم قوة بحرية عالمية صارت أساطيل العالم تقرأ لها ألف حساب وحاولت القضاء عليها بشتى الوسائل فلم تفلح، فصارت تمدها بالفدية مكرهة، وهذه القوة البحرية التي هيمنت على البحر الأبيض طيلة ثلاثة قرون هي قوة الدولة التركية التي شبهها بعض المؤرخين بقوة قرطاجنة البحرية في عهد ازدهارها، ويذكرون أن البحر الأبيض لم يشاهد مثل هاتين القوتين ـ أي: التركية والقرطاجنية ـ في تاريخه الطويل.

ورد إلى الجزائر للأسباب المذكورة كثير من علماء أوروبا المتصلين بالجزائر وكذلك

الرحالون والأسرى والتجار والقناصل، فكتبوا الكثير عنها، ويمتاز بعض ما كتب بجوانب مفيدة فرضت نفسها وصارت من المصادر الهامة التي لا يستغنى عنها، ومن ذلك تآليف الراهب الاسباني دييقو دي هايدو (Fray Diego de Haëdo) الذي كان أسيرا في الجزائر ودون مذكرات سماها: (**تخطيط وتاريخ عام للجزائر**)، وأهم ما فيه تخطيط مدينة الجزائر ومعالمها وتاريخ ملوكها، طبع هذا التأليف لأول مرة على نفقة الكنيسة الاسبانية سنة 1612، ثم ترجم إلى الفرنسية سنة 1870، وقد اعتمده كل من اشتغل بتخطيط مدينة الجزائر وذكر معالمها، كما اعتمده أيضا كثير من المؤرخين في تاريخ الحكم التركي وتداول حكم الباشوات. ومما يلحق به كتاب: (**تاريخ شمال إفريقيا**)، لمواطنه دييقو سارز (Diego Suarez) الذي كان جنديا بوهران بين سنوات 1577 و1604 تعرض في تأليفه لجغرافية البلاد ثم للأسباب الداعية إلى احتلال وهران والهجوم الفاشل للملك شارلكان على الجزائر، ذلك الهجوم الذي كان من أسباب تخليه عن الحكم حيث إن مفعول الهزيمة أثر في معنوياته، ففقد توازنه، وقد عبَّر عنه أحد متأخِّري الكتاب [1] بقوله: «وشارلكان الذي أشابته الأحداث، غادر الجزائر مطأطئ الرأس وطلقات المدافع يملأ دويها أذنه، غادر شارلكان أسوار الجزائر التي شاهدت ابتداء تقلص ظله »، كما وصف سيارز الاسباني بعض المعارك شاهدها، وأهم ما في الكتاب اعتراف مؤلِّفه بالحياة التعيسة التي كان يحياها الجيش الأسباني المرابط بوهران الذي شبه حياته فيها بحياة المساجين في سجونهم، وتعرض لقادة الجيش فاتهمهم بالجشع والطمع والسرقة ونقض العهد، وضرب أمثلة لذلك منها أن القائد الأعلى للجيش الاسباني كان يتعهد للقبائل الموالي لهم بالحماية، فإذا به يهاجمهم في

(1) الكاتب دومينيك لوسياني (مدير الشؤون الإسلامية) السَّابق، بالولاية العامة، ورئيس النيابات المالية في تأبينه للكاتب ستيفان قزيل بـ (**المجلة الإفريقية**) سنة 1931م.

حللهم للاستحواذ على أموالهم ومواشيهم، وعندما يرجع جيشه إلى وهران حاملا الغنائم، يتقدم الجنرال من دون حياء ولا خجل، فيقطع لنفسه قسمة الأسد، ثم يذكر بأن العدل والنزاهة لا يحلم بها إلا المتملقون، وأن كل ما يقع في البلاد من أحداث وهزائم ومجاعة يجهلها الملك، إذ تصله التقارير مزيفة، وإن ما قاله هذا الكاتب يؤيده آخرون من مواطنيه صورا الحياة بوهران بحياة الجحيم، وهم أقلية، ولكن بعد مرور الزمن اعترف المؤرخون الأسبانيون أنفسهم بأن كل من صوروا الواقع الوهراني بغير ما وصفته هذه الأقلية كانوا من طبقات الكتاب المأجورين أو المتعصبين للكنيسة، التي لم ترد أن تعترف بأن هجومها واحتلالها لهذه المدينة كان كارثة على البلاد اقتصاديا.

ولنرجع إلى ما كتبه بعض المؤرخين الفرنسيِّين وغيرهم لهذه الحقبة، ولنبدأ بأشهر كتاب لفت أنظار القرَّاء والكتَّاب، وحظي بنقد تحليلي لمحبِّذيه من العنصريِّين والاستعماريِّين، وصار عندهم الكتاب المفضَّل، وعنوانه يدلُّ على مضمونه: **(ماضي إفريقيا الشمالي في القرون المظلمة)** لإميل فليكس قوتي (E.F. Gauti) 1864ـ 1940م الأستاذ السابق بمدرسة الآداب العليا بالجزائر، كان هذا المؤلف من غلاة المعمرين له عدة تآليف لم يخف فيها هويته الاستعمارية المتطرفة، وقد كان تخصصه في الجغرافية، فعين أستاذا فيها بالمدرسة المذكورة في أواخر القرن المنصرم، ولهذا ارتكب عدة غلطات فادحة، تتناقص في كثير من الجزئيات مع الاختصاصيِّين في التاريخ، حتى من الاستعماريِّين أنفسهم، ومن جملة ما ذهب إليه في تأليفه المذكور: «هو أن سكان المغرب أي العنصر البربري لم يملك شؤونه أبدا، وبقدر ما نبحث في التاريخ نجد سلسلة متصلة الحلقات لاحتلال الأجانب لهذه البلاد، إن الفرنسيين خلفوا احتلال الأتراك، الذين خلفوا احتلال العرب، الذين خلفوا احتلال البيزنطيِّين، الذين خلفوا احتلال الوندال، الذين خلفوا احتلال الرومان، الذين خلفوا احتلال القرطاجنيِّين، وليسجل التاريخ أن هؤلاء المحتلين على اختلاف

أجناسهم وأزمنتهم كانوا يتصرفون بكامل الحرية في شؤون البلاد إلى أن يخرجهم ويطردهم محتل آخر، يرث بدوره البلاد أن السكان الأهالي لهذه البلاد لم يتوصلوا يوما من الأيام إلى طرد مستعمريهم »، ثمَّ يقول: «ومع هذا نجد أن هؤلاء الراضين باستعمار بلادهم من دون أن يحركوا ساكنا ليسوا من الأجناس الهادية فإنهم رجال حروب، ولهم قادة وأبطال من عهد حنبعل (Annibal) إلى عهد الأمير عبد القادر ».

ثمَّ يعقد فصلا للتاريخ فيقول: «إن المغرب يبدأ مع الحروب الفينيقية في الوقت الذي تكلم فيه المؤرِّخون اليونانيُّون واللاتينيُّون مكان المؤرخين القرطاجنيِّين الذين سكتوا، فإننا نجد آخر عهد قرطاجنة وتاريخ إفريقيا الرومانية روايات نخبة رجال التاريخ مثل بوليب (Polybe)، وصالوستر (Sallustre)، وتيتليف (Tite-live) التي ألقت عليها الأضواء آثار البناءات والنقوش، بل صقلتها وهذَّبت فصولها في مختلف العصور الموسوعة التاريخية القيِّمة لـ **قزيل** التي لا زالت لم تتم » هي التي تحدَّثنا عنها في **القسم الأول**، ثم يقول: «إن تاريخ المغرب ابتدأ في غاية الوضوح، إلا أنه أعقبه الظَّلام طيلة قرون، إلى أن كان القرن الثاني عشر المسيحي، فقد ظهرت الوثائق المتعدِّدة لعهدَي المرابطين والموحِّدين، وهذه الآثار سواء منها البناءات أو الكتابة فإنها لا زالت مبَعثرة »، ثمَّ قال مفسِّرا لعنوان كتابه ومدلوله (**القرون المظلمة من ماضي تاريخ إفريقيا الشمالية**): «إن العصر المظلم الذي هو في حاجة إلى الإنارة والبيان، هو ما بين الغزوتَين العربيتين الغزوة الأولى التي قام بها الأمراء ممثِّلو الخلافة الإسلامية في آخر القرن السَّابع المسيحي، والثانية التي قام بها البَدو الهِلاليون والتي ابتدأت في منتصف القرن الحادي عشر المسيحي، فهذه الفترة تنفصل تماما عن التاريخ المغربي »، وبعد أن يذكر أن هذه الفترة من تاريخ البلاد المغربية التي شاهدت فتح الأندلس وصقلية ومصر يمكننا أن نسمِّيها قرون المجد، حيث شاهدت ذروةَ المجد، ومع هذا فهي في الوقت نفسه: **القرون المظلمة**، فإنها القرون المجهولة، فالفاتحون المسلمون لم يهتمُّوا بالتاريخ، فالعربي همجي لا يهتمُّ بالتاريخ، فلم يظهر حبُّ الإطلاع العلمي إلا في

أيام الدَّولة العباسية عندما أفل نجم العنصر العربي وخلفه العنصر الفارسي والشرقي الممثِّل للمدنية الفارسية التي اجتاحتها الغزوات العربية ... الخ».

ثم نجد مِن كتَّاب هذه الفترة الرَّاهب الإنكليزي شاو (Schaw) الذي عاش في المنطقة على ما يزيد على العشر سنوات تجوَّل في ربوعها، تعرَّض لوَصف كثير مِن المدُن ولأخلاق السكَّان وعوائدهم ومَعيشتهم، وقد نشرت هذا التأليف جامعة أكسفورد (Oxford) سنة 1738، وترجم إلى الفرنسية، ثم أخيرا لخِّص وتُرجم إلى العربية، وهو مفيد، كما زار الجزائر سنة 1732 الكاتب الألماني هبوستريت (Hebeustreit) وكتب عنها، وبيصونيل (Peysonnel) الذي زار الجزائر سنة 1725م، وفنتور دو براد (Venture De Paradis) الذي زار الجزائر سنة 1788م، والأب رينال (Abbé Raynal)، ولوجي دو طاسي (Laugier de Tassy) الذي قدَّم تأليفا لمؤلِّف هولندي طبع بأمستردام سنة 1725م، وطبع في باريس بعد تَرجمته سنة 1727م، ومعظم هؤلاء الكتَّاب أقاموا بالجزائر لمختلف الأغراض، وسجَّلوا انطباعاتهم ومشاهداتهم، أو ما استقَوه مِن المعلومات عن الأوروبيِّين المقيمين بالبِلاد، أو مِن السكَّان المسلمين الذين كانوا يتَّصِلون بهم بِحُكم وظائِفهم ومِهَنهِم، وهي لا تختلف عَن بعضها، وأكثرها نظريات سَطحية، ويمتاز مِن هؤلاء المذكورين لوجي دو طاسي (Laugier de Tassy) فإنَّه في تقديمه للكتاب الهولندي ردَّ عليه الاتهامات التي اتَّهم بها الجزائر، منها: التَّعصُّب الدِّيني، فقال في ردِّه عليه: «ففي الميدان الدِّيني نَجِدُ أحسن شيء وأروعه التَّسامح، وهذا التَّسامح موجودٌ في الجزَّائر، ويستحِقُّ سكانها الشكر والاعتراف بالجميل»، ثم قال: «إن حكومة الجزائر لها سلوك ممتاز في هذا الميدان فإنها تترك الحرية التامة للمتدينين الساكنين ببلادها، وبقدر ما يشتهر عندهم الإنسان بالتدين إلا ويرتفع قدره عندهم ويحترمونه ويحمونه »، ويناقش **دو طاسي** المؤلِّف الهولندي الحساب، ويظهر له مصدر هذه الاتِّهامات، فيقول: «إنَّ منبع هذه الحملة المغرضة هم القسِّيسون المنسوبون إلى (**جمعية**

الافتداء المسيحية) (Rédempteurs) التي أُنشِئت في نابولي سنة 1731م، ويسمُّون أنفسهم بالمنقِذين والمخلِصين والفادين ـ للأَسرى المسيحيِّين الذين كانوا بالجزائر ـ فإنهم هم الذين يتَّهِمون الجزائر بأنَّها تضغط على الأَسرى المسيحيِّين وتكرِهُهم على اعتِناق الإسلام، وهذا غير صحيح، ويخاطب هؤلاء القسِّيسين فيقول لهم: «إنَّ شهادتكم لا تُقبل حيث تَرتكبون أشنعَ الفظائع باسم الدِّين، فإنكم تُبيحون الفتك بالمسيحيِّين الذين مِن سوء طالعهِم وُلِدوا مِن آباء مسيحيِّين (Protestants)»، ويردُّ مَزاعمهم في الإكراه على الإسلام، فيقول: «إن الجزائريِّين لا يثِقون في الأَسرى المعتَنقين للإسلام، إذ يَرون أنَّ دخولهم في الإسلام صوري، يقصدون به قَضاء مآربهم ... الخ».

أما **القسم الثالث** فإنَّ كتابه كما ذكرنا ينقسمون إلى فرقَتين: **الفرقة الأولى** وأكثر أفرادِها مِن الضُّباط الذين خاضُوا غمار حرب الاحتلال فدوَّنوا أحداثَها، ككتاب (حوليات الجزائر)(Annales Algériennes) لبليسيي دورين (Pélissier de Reynaud) الذي سجَّل أحداث الجزائر ما بين سنوات 1848 و1854م، والكِتاب يقعُ في ثلاثة أجزاء، وطبع بالجزائر سنة 1854م، وهو مِن المصادر الهامة لذلك العهد، وكثيرٌ مِن الكتَّاب يعترفون لمؤلِّفه بالشَّجاعة الأدبية وبالنَّزاهة النِّسبية، إذ نَجِدُ كثيرا مِن تصريحاته وتَعليقاته على الأحداث لم تكُن في صالح السُّلطات، كما يمتاز كتَّاب هذه الفِرقة بسجلَّات تقاريرهم التي جمِعَت وطبِعت بِمناسبة الاحتفال المئوي، فنَجدها تعرَّضت لكثير مِن أحداث حرب الاِحتلال، كالمعارك الشَّهيرة: (واقعة وادي المقطع)، (واقعة سيدي إبراهيم)، (طاقين)، (الوفايا)، (واقعة التَّنصير)، فصوَّرتها على ما يقارب مِن الحقيقة، واعترف فيها كتَّابها بالغلطات الفادِحة التي ارتكبها الجنرال **تريزيل** وتسبَّبت في هزيمة (**واقعة وادي المقطع**)، والغلطة التي ارتكبها زميل الكولونيل دو منطانياك (Mantagnac) ولقي فيها حتفه بسيدي إبراهيم ... الخ.

وهؤلاء الكتَّاب هم الجنرالات دوبورمون (De Bourmont)، وكلوزيل (Glauzel)، وفوارول (Voirol)، ودامريمون (Damrémont) ...الخ.

ثم أعقب هذه الطبقة كتاب آخرون واصلوا آثارهم، وجلهم أشادوا بالاحتلال وصفقوا لنجاحه، خصوصا أنصار الكنيسة الذي كان شعارهم: «إفريقيا اللاتينية»، و«الجزائر الفرنسية »، إذ كانوا يرون أنَّ احتلال فرنسا للجزائر عبارة عن امتداد المدنية الرومانية في هذه الربوع التي حال بينها الفتح الإسلامي، وقد صرَّح بذلك كثيرٌ منهم كـ : كاط (E. Cat) المبرز في التاريخ، والأستاذ بمدرسة الآداب العليا بالجزائر في تأليفه: **(التاريخ الصَّغير للجزائر والمغرب وتونس)** المطبوع في الجزائر سنة 1891م مطبعة جوردان، فقال: «في الخامس يوليو أمكن للجيش الفرنسي أن يخرق بأقدامه شوارع الجزائر الضيقة مسلحا، تلك الشوارع التي امتنعت على الملك شارلكان ولويس الرابع عشر ولم تطأ أقدام أجدادنا طرقاتها إلا مكبلة بالحديد، أسرى أو عبيد، فهذا مبدأ أعظم احتلال يسجله التاريخ لفرنسا»، ثم استدلَّ المؤلِّف بكلام ركلوس (Reclus O.) الذي قال في الموضوع: «إن هذا اليوم عظيم لأنَّ هذا الانتصار ليس هو من الانتصارات العميقة المملوءة بها بعض صفحات كتبنا، إنه ليس انتصار مارينيان (Marignan)، ولا روكروا (Rocroy)، ولا فونتناي (Fontenay)، ولا واقرام (Wagram)، فهذا الانتصار هو احتلال الجزائر في يوم 5 يوليو 1830م، إن هذه البلاد بموقعها ستسهل علينا إلحاق جناحيها وبلاد الصَّحراء، وتفتح لنا الطريق إلى السودان ... الخ »، يقصد بالجناحين: المغرب، وتونس، وهذا الكتاب رغم أفكار صاحبِه الإِستعمارية يحتوي على حقائق هامة سنذكُرها في مَوضعها.

ولننتقل إلى الحديث عَن كِتابٍ ظهر أخيرا ـ أي: طبع سنة 1965م ـ وهو مِن نوع **المذكِّرات،** نشره الكاتب **بيير سيرڤال** (Pierre Serval) تحت عنوان: **(المجهولون في التاريخ)،** وهي مذكِّرات للماريشال **دو بورمون** (قائد جيش الاحتلال الفرنسي للجزائر)، لم يسبق نشر كثير من فصولها، قال الكاتب في مدخل تأليفه: «إنه منذ مائة

وثلاثين سنة في برج **قصر انجفان** (Angevin) توجد بعض الوثائق المهملة، وبعد الإطلاع عليها يكتشف القارئ الأسرار الغامِضة التي تتعلّق باحتلال الجزائر سنة 1830 »، ثم يقول: «إن هذه الأحداث وإن كانت قديمة، فإنه يمكن تطبيقها على الحالة الحاضِرة، حيث إن التاريخ يعيد نفسه، إن التَّشابه بين قضية الجزائر في القديم والحديث، بلغ إلى حدّ أنه يمكن للإنسان أن يكتفي بتغيير الأسماء والتاريخ فقط، حتى يظن أن أحداث هذا العهد هي نفس أحداث الماضي»، ثم يقول: «إنني أعدُّ نفسي محظوظا حيث إن الفُرصَ أتاحت لي الإطلاع على مئات الوثائق، الكثير منها مجهول، وإن صِحَّتها لا نزاع فيها، إن هذه الوثائق سجِلٌّ لوزير الحرب إذ ذاك، وقائد جيش الاحتلال الفرنسي، ولأهمية هذه الوثائق والحفاظ بقيمتها، اخترتُ أن أتوارى وراء ممثِّليها الحقيقيِّين، فأتركهم يتحدَّثون عَن الأحداث التي مثَّلوها بدلا منِّي، وإن ما ذكرته لم يتمكَّن لي لولا فضل **الكُنت دو برمون** (Comte Louis de Bourmont) وقرينته اللذَين فتحا لي ااب برج قصرهم العتيق، وتركا لي الحرية التامة لتصفُّح وثائق جدِّهم الماريشال **دو بورمون**، كما أني مَدين للكولونيل **هنري دو برومون** الذي شرحَ لي أحداث تلك الفترة ذلك الشَّرح الذي يدلُّ على سعة الاطِّلاع».

ثم يتعرَّض المؤلِّف **سيرقال**[1] في **الفصل الأول** إلى سَرد أحداثِ محاولة **شارلكان** الفاشلة لاحتلال الجزائر سنة 1541 ـ كما هو معروف ـ ثمَّ يذكر ما نسب إلى الفارس الفرنسي **بونس دو بالاقير** (Ponce de Balaguer) الذي غرز سيفه قرب **باب عزُّون** وصرخَ بقوله: «سنرجع»، وقال: «إن هذه الكلمة صارت شعارا مِن ذلك العهد لقادة الحروب، منهم **ماك أرتور** (Mac Arthur) الأمريكي الذي ردَّدها عِندما أخرجه اليابان مِن جزُر الفيلبين».

(1) « Les Méconnus de l'Histoire» (Le Maréchal de Bourmont) par Pierre Serval (Edit. Caliman-Levy Pris 1965).

ثم يتعرَّض المؤلِّف للتَّطاحن الذي كانت **باريس** مسرحاً له بين الجمهوريِّين والملكيِّين، وكيف استغلَّ الملكيُّون **قضية المِروَحة**، وبيَّن بتفصيلٍ ما أيَّد به آراءَه من هذه المذكِّرات، والذي يهمُّنا منها ـ أي: **المذكِّرات** ـ وله علاقة بموضوعنا هو دور التَّاجِرَين اليهوديَين: بوشناق، وباكري، في **قضية المِروَحة** والاحتلال الفرنسي.

إن قضايا اليهود ومواقفهم إزاء المسلمين ودولهم مِن قديم الزَّمان لا ينبغي لها أن تُهملَ أو تُعدَّ مِن القضايا العادية، بل ينبغي لها أن تُدرس مرتبِطة ببعضها، وقد علمنا أن وجود اليهود بالجزائر قديم، وقد آوت الجزائر ـ باعترافِ المؤرِّخين اليهود ـ الَّلاجئِين منهم والمطرودين مِن مختلف البِلاد الأوروبية، ابتداءً مِن القرن الرَّابع عشر المسيحي إلى أن وصل عددهم في عاصِمة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي إلى ستَّة آلاف نسمة، وقد علِمنا أنهم اعترافا بجميل الإِحسان وشاركوا في المؤامرة التي سهَّلت على الأسبان احتلال المرسى الكبير، ثمَّ تطوَّعوا للجَوسَسة لصالح الأسبان بعد احتِلالهم بجاية، إلى أن أمرَ بِطردهِم الملك **شارلكان**[1] لما أخفقَ في هجومه على الجزائر سنة 1541م، وقال قولته المشهورة في حقِّهم: «إنَّنا أخرجناهم و أطردناهم مِن بلادِنا بخِسَّة الغدر المتأصِّلة فيهم، وقد آواهم أعداؤنا وأحسَنوا إليهم، وبدَّلوا خوفَهم لنا بجوسَسة الِّلئام »، هذا كلُّه معروفٌ في كتُب التاريخ، وإنما أردنا تذكير القرَّاء قبل أن نتحدَّث وننقُلَ رواية صاحب **المذكِّرات** (قائد جيش الاحتلال) **دو بورمون**، فشهادته لها قيمتها ووَزنها، وقد كشفَ القِناعَ عَن الدَّور الخطير الذي لَعِبَه اليهود إذ ذاك في سياسة حكامِ الجزائر، وجعل كثيرا من المؤرِّخين والكتَّاب يتَساءلون عن أسباب تدَهوُر الدَّولة التُّركية في آخر عَهدِها، وكان خِتامه احتلال البِلاد.

---

(1) مرَّ شارلكان على مرسى بجاية في طريق عَودتِه بعد الهزيمة، ووجد الأهالي بلباسهم في البلدة، فأخبرهم يهود إسبانيا المطرودين الذين تطوَّعوا بالجوسسة لمعرفتهم لغة البلاد والأسبان.

قدَّم المؤلِّفُ لحديثه عَن قضية اليهود مَدخلا قال فيه: «عِندما خفق شارلكان في حملته ـ1541م ـ وأَيِسَ من الاستيلاء عليها، كان عمر الجزائر كقاعدة وعاصمة ثلاثين سنة، ولكنَّها عاشت ثلاثة قرون مُهيمِنة على البحر الأبيض، مستَعبِدةً للمسيحيِّين الذين كانوا يرزحون تحت قَيد السَّلاسل والأَغلال، وقد بلغت ذروتها بفضل غنائم قراصِنتها ـ غُزاتها ـ الرقم القياسي الذي لم تبلغه دولة أخرى حينئذ، وقد هاجمها بعدَ **شارلكان**، الأميرال الفرنسي **دو بوليو** (de Beaulieu) باسم الملك **لويس الثالث عشر**، ثمَّ الملك **لويس الرابع عشر** بِواسطة قائد أسطوله **الدُّوك دو بوفور** (de Beaufort) سنة 1663م، ثمَّ في سنة 1668م القائد الفرنسي **دستري** (d'Estrée)، فكانت النتيجة واحدة: **الخيبة**، ثمَّ تجدَّدت هجومات الأمير **ألان دوكس**، و**تورفيل** (Tourville)، و (Duquesne) فارتَطما بِنَفس الخيبة.

فتداخل بعد هذا **الدانمارك**، ثم الأسبان سنوات 1773م، و 1783م، و 1784م، فكانت هجوماتهم كضَربة السَّيف في الماء، ثمَّ اهتمَّ به **نابليون بونبارت** وأعدَّ للأمر عدَّته، فلم تُساعِده الظُّروف، فخلَفه للقيام بالمهمَّة أعداؤُه الإنكليز، فأَرسلوا سنة 1816م الُّلورد **إكسموت** (Exmouth) فخفق، ثمَّ أعادوا الكرَّة سنة 1824م وكان قائد الأسطول الأميرال **نيال** (Néale) فكانت الخيبة المتكرِّرة المعروفة، ثمَّ يدخل الكاتب في الموضوع ويبيِّن موقف الملكيِّين الذين كانوا يخشون مِن انفجار الثَّورة، فاتَّفقوا على أنَّ أملَهم الوحيد في التَّغلُّب على الأحداث هو تجنيدُ جيشٍ وخوضُ غِمار حرب، والتَّحصيل على نجاح ولو وَهمي ليشغلوا به الرأي العام، فكانت **قضية المِروَحة**.

وبعد حديثٍ مفصَّل ينتقل المؤلِّف إلى الحديث عَن قضية دَين اليهود، فيتحدَّث عن علائق اليهودي **جوزيف باكري** مع **طاليران** (وزير نابليون)، ثمَّ يتعرَّض لمكانة **طاليران** عند **نابليون**، فقال: «كل ما يعرفه **نابليون** يعرفه **طاليران**، والعكس بالعكس، الَّلهمَّ إلَّا مسألة واحدة كان يعرفها **طاليران** ولا يعرفها نابليون، وهي علائق **طاليران**

مع التاجر اليهودي **جوزيف باكري**»، ولهذا فُوجئ **نابليون** عِندَما اطَّلع على تقرير سِرِّي أرسله **طاليران** إلى زميله وزير المالية **روبير لاندي** (Robert Lindet) مؤرَّخ في 24 أوت 1800م، نصُّه: «إن علائقنا مع الجزائر تستَوجِب أن نُظهِر لليهود نوايانا الحسنة معهم، ولهذا فإنَّ قضية الدَّين لا ينبغي أن نَنظر إليها مِن زاوية العلائق التِّجارية الخاصَّة العادية، بل ينبغي لنا أن نعتَبِرها قضية دَولة».

ثمَّ تساءلَ المؤلِّف فقال: «ما هو هذا الدَّين ؟»، وأجاب عَن سؤاله بما يلي: «كان الفلس يهدِّد حكومة فرنسا مِن جهة، وخطر المجاعة يهدِّدها مِن جهة أخرى، فكانت الدَّولة إذ ذاك في أشدِّ الحاجة إلى القَمح مهما بلغَ ثمنه، فتوجَّهت حكومة المديرين (Directoire) إلى داي الجزائر، ونظرا لعلائقه الوُدِّية مع فرنسا إذ ذاك، أجابهم لرَغبتهِم، فباع لهم ما قدره مليون فرنك قمح، وتبرَّع لهم بقَرضٍ من دون فائض.

كلف **الدَّاي** شركة اليهودي لتنفيذ الصَّفقة التِّجارية، وتحمَّل ضمان المبلغ من خزينة الدَّولة »، ثمَّ ذكر المؤلِّف تفاصيل الصَّفقة وما جرَّته لليهود مِن أرباح، أكثرها معروفٌ في كتب التاريخ، ثمَّ بيَّن أفراد الشَّركة ونشاطها التَّخريبي في المنظَّمات الحربية والاقتِصادية في البلاد، فأَعرضنا عنه لطوله، واخترنا تتبُّع جوانب ما يهمُّنا مِن قضية الدَّين.

أمكن لـ **طاليران** أن يحصلَ لـ **باكري** الذي زارَه بباريس اعترافا مِن الحكومة الفرنسية بما قَدره مليونان ومائتَان وسبعة وتسعون ألف فرنك، وتعهدَّت فرنسا أن تَدفع هذا المبلغ بالتَّقسيط إلَّا أنه عِندما توتَّرت العلائق بين تركيا وفرنسا، وانقطعت العلائق بين الجزائر وفرنسا بِسببها توقَّف دفع الدَّين إلى أن وقعَ اتِّفاقٌ بين **الدَّاي** وممثِّلي فرنسا مؤرَّخ في 17 ديسمبر 1801م، مِن جملة بنوده: تعهُّد الجانبان بِتَسهيل دَفع ديون رَعايا كل مِن الدَّولتَين، فكان مبلغ دَين اليهود تضخَّم إلى أن وصلَ ثمانية ملايين فرنك، فقبضَ منه ثلاثة ملايين، ثمَّ مليون ومائتَي ألف فرنك، وكان **الدَّاي** إذ ذاك

يجهلُ تفاصيل هذا الدَّين، وإنما كلُّ ما يَعرفه مِن القضية أنَّ لرعاياه اليهود دَين على فرسا يجبُ الإسراع بقَبضه، فتكوَّنت لجنة برلمانية في فرنسا للبَحثِ في هذه القَضية، فأقرَّت هذا الدَّين لخبر يطول، واكتفى المؤرِّخ بالاستدلال على ما حكمَ به أحدُ كبار المؤرِّخين لما تعرَّض للحديثِ عنها وهو: **قابريال إسكير** (Gabriel Esquer) صاحب كتاب: (**احتلال الجزائر**) (La Prise d'Alger) سنة 1830م، قال: «ففي هذه القضية نَجِدُ الحكومة الفرنسية ودائني الشَّركة اليهودية، بل حتى أعضاء الشَّركة اليهودية ـ وهم كلُّهم مِن أسرة باكري وبوشناق ـ كلُّهم خُدِعوا مِن طرف **جوزيف باكري** الذي كان يتَظاهر بالبلادة»، ثمَّ ذكر المؤلِّف أنَّ الأمير **سكست دو بوربون** (Prince Sixte de Bourbon) علَّق على هذه الفقرة بقوله: «كلُّهم خُدِعوا ماعدا **طاليران**».

وإننا ذكرنا هذه القضية بنوع من التَّفصيل لأنَّ لها أبعادا، وأشباهها في التاريخ العالمي، وبالخصوص الإسلامي، إذ لم تكن هذه الكارثة مقصورة على قضية الدَّين الملفَّقة والتي كانت خيوطها بباريس، ولا نُريد أن نطيلَ على القارئ وسنرجعُ إليها في فُرصة أخرى، وإنما تتميما للموضوع أَنقلُ ما وعدتُ به عند الحديث على المؤرِّخ **كاط** (E. Cat) السَّابق الذِّكر، فقد وجَدنا في تأليفه ما أيَّد به **دو بورمون في مذكِّراته**، وحديثه تفسيرٌ لما تساءل عنه كثيرٌ مِن المؤرِّخين[1] عن سببِ تدهور الحكم التُّركي في أواخر عهده، فقال: «... عندما اندلعت ثورة فرنسا سنة 1789 امتنع **الباشا حسن** أن ينظمَّ إلى أعداء الثَّورة لعلائقه الحسنة معَ فرنسا، وذلك رغم تدخُّلات **إنكلترا** وإغراءاتها، فقد أنقذها مِن شَبح المجاعة التي كانت تهدِّدها، فسهَّل لها شراء القَمح وإقراضها خمسة ملايين فرنك مِن دون فائض»، ثمَّ قال المؤرخ **كاط** فيما يخصُّ اليهود: «إن يهوديَين لهما

(1) منهم حمدان بن عثمان خوجة في (**المرآة**)، فإنه عقد **فصلا** هاما تعرض فيه للتَّصرفات الجنونية في ذلك العهد.

نفوذ، وهما: بوشناق وباكري، دفعا هذه الحبوب، وقد جرَّت هذه القضية مشاكل معروفة »، ثمَّ ذكر وفاة **الدَّاي حسن** سنة 1798م إثر مَرض، وخلفه صِهره **الخزناجي مصطفى** (1798ـ1805)، ويذكر أنَّ هذا **الدَّاي** كان كنَّاسا بشوارع العاصِمة، جهولا فظًّا، وهو مَدينٌ بمنصبه لليهودي بوشناق، فلهذا كان لليهود في عَهدِه التَّصرُّف المطلَق في شؤون البِلاد، فبِسبب تداخلهم في شؤون الدَّولة وقَعت مصادرات لا نهاية لها، كما وقعَ عزلُ كثير مِن البايات، ثمَّ إجراءات استِثنائية ضدَّ القناصل الأوروبيِّين، فغُصِبَت أموالهم، وأُهينَ كثيرٌ منهم، ومِن هؤلاء قناصل إنكلترا، والسُّويد، والدَّانمارك، فقد عُومِلوا بِقساوة وإِهانة، بخلاف قنصل فرنسا فإنه كان مُحاطا بالتَّجلَّة والتَّقدير إلى حد أن الخليفة العثماني لما أمر الدَّاي بإِعلان الحرب على فرنسا بسبب الهجوم على مِصر، امتنَع الدَّاي مِن تَنفيذِ أمرِه، وعندَما تكرَّر الأمر المصحوب بالإِنذار، اكتفَى الدَّاي بإلقاء القَبض على بعض الرَّعايا الفرنسيِّين، وكانت مُعاملتهم حسنة، وقَد اعتذر الدَّاي لفرنسا (سنة 1799م)، مُعتَرِفاً لها أنه أقدمَ على هذا الفعلِ مكرَها، وبعد مدَّة تغيَّرت الأحوالُ وهاجمَ الأسطول الجزائري بعضَ شواطئ فرنسا، وهدَّدها بإِعلان الحرب لخبر يَطول، ثم يتعرَّض المؤلِّف لقضية اليهود، فيقول: «إن نفوذ اليهود المتألِّق، وعجبهم وغرورهم بأنفسهم جرَّ عليهم مَوجةَ غضَبٍ مِن طرفِ السكَّان، ولم يكُن الغضَب خاصاً باليهوديَين: بوشناق، وباكري، بل شملَ معهما الدَّاي الذي كان يأتمر بأَوامرهما، إنَّ عدَّة مظاهرات غضب انفجَرت ضدَّه، وفي ثلاث مرَّات أصيب من جرائها بجروح خطيرة، وهذا نص الأصل:

«Cependant la faveur croissante des Juifs, leurs vanité de parvenus, leur avaient attiré de nombreux ennemis. Buschnack et Bakri particulièrement étaient détestés et le Dey qui écoutait leurs conseils était enveloppé dans la même haine. Plusieurs émeutes éclatèrent. Contre lui, trois fois à diverses reprises il reçut des blessures graves».

كانت أخطر هذه المظاهرات هي الواقعة في يونيو 1805، وسببها أن جنديا تركيا

(انكشاري) أطلق على اليهودي بوشناق طلقة نارية أردته قتيلا، وقد خاطبه عند إطلاق الرصاص عليه بقوله (خذها يا ملك الجزائر) إذ كان لقوة نفوذه يطلق عليه لقب ملك الجزائر.

وقد تسابق رفقاء الجندي إليه فحملوه على الأكتاف معلنين اغتباطهم بفعلته، أما الداي فقد أحس بالخطر ولم يسعه إلا العفو عن القاتل إذ بمجرد ما بلغ السكان خبر القتل، تسابقوا إلى الحي اليهودي، فنهبوه وخربوا دوره ومتاجره، وقتلوا خمسين فردا منهم، أما رد فعل الداي فكان أمر بإلقاء بالقبض على كثير من أعيان اليهود وإبعاد آخرين لينجي نفسه مِن تهمة حماية اليهود وصداقته لهم، ومع هذا لم يسمح له السكَّان فقد ذُبح بعدَ شهرَين مِن قَتل بوشناق، وذلك في أوت 1805م، وقد طالت هذه المظاهرات ضدَّ اليهود، ثمَّ توتَّرت العلائق بين الجزائر وفرنسا من جَديد، وطرد الدَّاي قنصل فرنسا، ونكاية فيها حسَّنت الجزائر علائقها مع إنكلترا، فغَضِب **نابليون** وعمد إلى الهجوم على الجزائر، فكان تكليف الكمندان بوتان (Boutin) بتَسطير تصميم الجزائر، ذلك التَّصميم الذي اعتمدَه جيش الاحتلال فيما بعد.

هذه الصَّفحات لا ينبغي دِراستها متفرِّقة ومقطَّعة، ومع الأسف لم يتَّعِظ بها حكَّام الجزائر إذ ذاك، خصوصا بعدَما اشتهرت قضية الدَّين وحُوصِرت الجزائر ما يقرُب مِن ثلاث سنوات ثمَّ احتلَّت، وقد ظهر مَوقف اليهود بعد الاحتلال الفرنسي، فقَد شاركوا الفرنسيِّين في أفراحهم رِجالا ونساء، ومع هذا كلِّه نَجِدُ **أحمد** (باي قسنطينة) يعيِّن يهودياً للتَّفاوض مع الجنرال دامريمون ـ أي: مع ممثِّله الذي أرسله لهذا الغرض إلى تونس ـ ثمَّ عيَّن مرَّة ثانية يهودياً آخر كان مِن خدَّامه ليتفاوضَ مِن جديد مع دامريمون الذي كان هذا اليهودي الثَّاني المسمَّى: بوشناق، مِن سكَّان العاصمة، وكان مِن أبرز جواسيس دامريمون نفسه، أما اليهودي الأول فكان اسمه: ابن باجوا، ثمَّ نفس الغلطة

تكرَّرت في عهد الأمير عبد القادر الذي عيَّن ممثِّلا يهوديا بالعاصمة.

وقبل أن نَختم هذه الدِّراسة نذكر أنَّ كثيرا مِن مؤرِّخي فترة الاحتلال الفرنسي لم يخفوا ما وجده جيش الاحتلال الفرنسي عقبة في طريقه، واعترف بعجزه عن إزالتها أو تذليلها، ولنقتصر على ما كتبه في القضية المؤرِّخ الشَّهير **موريس وَهل** (Maurice Wahl)[1]، وقد نشره وقدَّمه المؤرِّخ الشَّهير **أوقستان برنار**، وهو كذلك مِن أقطاب غُلاة المعمِّرين، قال لما تحدَّث عن طبقات سكَّان البلاد، إذ تأليفه خصَّه لجغرافية الجزائر: «إنَّ الذي يجمَعُ بين سكَّان الصَّحراء وفلَّاحي التَّل هو الدِّين، كلُّهم مسلمون: فالمساجد والزوايا والقِبَب (الأَضرحة) هي مراكز تجمُّعاتِهم، إن الكثيرين منهم منخَرطون في الطُّرق: الرَّحمانية، الطَّيبية، القادرية، التِّجانية، والسَّنوسية، فهي كلها طرق وأخطرها السنوسية، إن أكثريتهم متشبِّثون بتعاليم دينهم، وقليل منهم مَن لم يراع هذه التَّعاليم: وضوء، صلاة، صيام رمضان، وفي كلِّ سنة يذهب الآلاف مِنهم إلى الحج، فمِنهم مَن يموتُ في طريق الذَّهاب أو الإياب، ومنهم مَن يَرجع مَنهوك القِوى مِن أَثر التَّعب والحرمان، إلا أنهم مَسرورون بأداء الواجب المقدَّس، إن هذه الرُّوح الحماسية في التعلُّق بالدِّين هي العائق الوحيد الذي وجَدناه في طريقنا، فهي التي تعزِّز الرُّوح الوطنية لإيقاد نيران الغضَب وتشجيع المقاومة، إنَّ معظم الثَّورات التي اجتاحَت البلاد كانَت بسبب دعاية رجال الدِّين، والأنكى أنهم بمجرَّد إعلانهم الحرب على العدوِّ الكافِر، تزولُ الخِلافات بين الأفراد وبين القبائل، فهذه هي الحقيقة المخفية دائما، والتي لربما نصِلُ إلى التَّخفيف مِن وَطأتها، إلا أنَّ القضاء عليها صعبٌ جدا »، ثم يقول: «أما تَنصير المسلمين الذي يحلمُ به بعضهم فهو خيال، وحلمٌ محفوفٌ بالأخطار، فتعاليم الإسلام بسيطة، ومعنوياته واضِحة، فهو مِن هذه الناحية لا يختلف عَن بقية الأديان التَّوحيدية، إنه شبيه

(1) L'Algérie: par Augustin Bernard (Edit. Alcan Paris 1903).

لها، فالمسلم متعصِّبٌ غير متَسامح، ولكنه في هذه الأحوال شبيهٌ ببقية المتديِّنين الآخَرين مِن مسيحيِّين ويهود، وإنَّ القرآن وإن كانت تُوجَد فيه آيات تشيد بالقوَّة المادية، فإنه يشتمل على آيات تَدعو إلى الرَّحمة والعدل، فمحاربة التَّعصُّب أو تلطيفه يكون بِنَشر الحضارة والعلم، فالأَديان السماوية وحدَها غير كافية، فهي في حاجةٍ إلى نشر العلم وتَعزيزها به، والأهلي الجزائري سَيبقى مسلما، كما أن الفرنسي المسيحي يَبقى مسيحيا، إلا أنه سيصير رَجلا معاصرا لقرنه » انتهى كلام المؤرِّخ **وهل**.

وما نقلناه في ختام هذا البحث للمؤرِّخ **وهل أوقستان برنار** هو ما كاد أن يجمع عليه بقية المؤرِّخين آراءهم، إلا أن هذه الحصانة حدث ما يهدِّدها بالتَّزعزع: طغيان الرُّوح المادية، ومتطلَّبات المادة التي انغمس فيها الأفراد والجماعات، فالرُّوح الدِّينية التي كانت تجمعُ أشتاتَ القبائل لم تعد كافية وحدَها في مجتمعٍ صار كثير مِن أفراده يحاربون التَّقاليد والتَّعاليم الدِّينية ويتنكَّرون لها.

موقف ملك المغرب من الجزائر
إثر الاحتلال الفرنسي[1]

تعرض كثير من المؤرخين لموقف المغرب هذا إثر الاحتلال الفرنسي مباشرة، أي بعد استسلام باي وهران حسن قبل مبايعة الأمير عبد القادر، ثم تجدد الموقف مع الأمير في أخريات أيام حربه، وبالضبط في نفس السنة التي وضعت حربه مع الفرنسيين أوزارها، وختمت صفحة جهاده، إذ كثيرا ما اشتبه على المعاصرين الموقفان اللذان ظنوا بأنهما واحد، كما سنبين ذلك بتفصيل في هذه الدراسة، ولضيق مجال هذه الدراسة اقتصرنا على ثلاثة مصادر لها علائق جوهرية بالموضوع :

المصدر الأول: كتاب المزاري المعروف بـ (**طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود**)[2] ألفه صاحبه سنة 1307هـ توجد منه نسخة خطية ـ أظنها الأصلية ـ بمكتبة المتحف البلدي بوهران.

المصدر الثاني: تقرير في الموضوع كتبه بوايي (Boyer) القائد الأعلى للجيش الفرنسي بوهران (مؤرَّخ في 15 نوفمبر 1831)، وقد نشره الكاتب الفرنسي بول لفرانك (Paul Le Franc) في (**مجلة الجمعية الجغرافية**) الصادرة بوهران (الجزء 53 مارس 1932).

المصدر الثالث: ما كتبه في الموضوع المؤرخ الناصري في تأليفه (**الاستقصاء**).

---

(1) مجلة الأصالة، العدد 28، ص 17-32، ذو الفعدة- ذو الحجة 1395هـ/ نوفمبر- ديسمبر 1975م.

(2) المخزن: الجيش النظامي المتكون من القبائل الموالية للباي.

قال المزاري في تأليفه المذكور بعد أن استعرض أحداث الاحتلال، وإنذار الأسطول الفرنسي للباي حسن، وتخييره بين الاستسلام أو الحرب: «أرسل سكان تلمسان[1] وفدا إلى ملك المغرب لإنقاذهم وكان الملك آنذاك عبد الرحمٰن بن هشام، فأرسل الملك ولد عمه مولاي علي »، وفي هذا قال المزاري: «وبعث ابن عمه مولاي علي ولد السلطان مولاي سليمان ومعه خليفته السيد أحمد الحجوطي وأوصاه أن يبعث الحجوطي لمعسكر ويتخذ هو دار سكناه بتلمسان ولما وصل مولاي علي إلى تلمسان انقسم أهل المخزن على قسمين، قسم تحت رياسة الحاج محمد المزاري مؤيد لمولاي علي، والقسم الآخر تحت رياسة مصطفى بن إسماعيل مؤيِّد للباي حسن، وكان دمريمو ـ لعلَّه (Damremont) ـ بالمرسى الكبير ينتظر إتيان الأمر له لدخول المدينة (وهران) ثم جاء جيش مولاي علي لغنم المخزن الذي بوهران فأخذها عن آخرها وقصد تلمسان[2] فقصد تلمسان فسمع مخزن وهران بذلك فلحقوا مالهم ... فبينما هم غائبون عن البلد وإذا بالجنرال دمريمو لما سمع بذلك اغتنم الفرصة ودخل لوهران ولم يتكلم فيه وجه واحد (أي طلقة نارية) كما لم يتعرض لواحد من السكَّان بالإذاية وكان دخوله لها في 4 جانفي 1831م/ 9 رجب 1246هـ، وقيل أول رجب الموافق 27 ديسمبر 1830م، ولما دخل لوهران أخذوا السلاح لأهلها وتركوا الحكم كعادته ... ثم أركبوا الباشا بمن معه من الأتراك والباي حسن بما عنده أيضا من الأتراك وأوصلوهما للمحلات التي أرادوها. كان الجيش الذي لحق مولاي علي تحت قيادة مصطفى بن إسماعيل فقابل مولاي علي وكان هو الآخر جمع ما عند أهل تلمسان

(1) يذكر المزاري أن الباي حسن هو الذي أرسل وفدا إلى ملك المغرب فأجابه الباي إلى رغبته، وبقية الروايات كلها متفقة على أن سكان تلمسان بعثوا وفدا يحمل بيعتهم إلى ملك المغرب، وقد أيد هذه الروايات شرشيل الانكليزي وذكر أن التاجر ابن نونة المغربي هو الذي سعى في هذه البيعة.

(2) إن لغة تأليف المزاري مهلهلة، ومحافظة على أمانة النقل لم أغير مفردة واحدة.

وخليفته أحمد الحجوطي ما بمخزن وهران، وللغد ذهبا معاً إلى المغرب ومعهم مصطفى بن إسماعيل وأعيان المخزن الذين معه مغلولين على البغال ـ أي: مكبلين ـ ولما وصل لفاس مثل أعيان المخزن بين يدي السلطان مولاي عبد الرحمٰن أظهر لهم توبيخه وأطلق سراحهم وبعث معهم نائبا آخر أحمد بن العامري كان مصطفى بن إسماعيل من دعاته وفي هذه المدة أتى النصارى بجيش تونسي تحت رياسة خير الدين ـ سنتحدث عنه في آخر هذه الدراسة ـ ثم ظهر من أحمد بالعامري ما كان أدهى من سلفه مولاي علي.

ولما حصل لهذا الوطن بالمغاربة الإذلال أنشد بعض الأدباء من أهله بأبيات فقال:

آها لمغرب الأوسط ضاعا ... وبان وهنه ومن به جاعا
تراكمت أهواله وزادت ... به الشدائد الفساد ذاعا
جاء به للحكم أهل فاس ... فجاسوا خلال دياره سراعا
وحلوا وأبرموا الحكم بظلم ... ودبت فيها أجراه ضباعا
كأنه على التحقيق ليست ... به رجال قد قهروا سباعا
لا غرو يا علويين يحل ... بكم ما ببني سعد قد عاعا
فإنه قبلكم قد جاءوا ... لمغربنا وقد ذهبوا جزاعا
رأوا من بأسنا ما ليس يرى ... وأسيافنا للحومهم قطاعا
بنادقهم رصاصها مصيب ... لهم بكل حاله وقاعا

ولما ذهب الأتراك من وهران والمغاربة من معسكر وتلمسان وذلك في عام 46 قامت الغرب على بعضها بعضا ثم ساءت سيرة الجند التونسي فأطرد » انتهى ما كتبه المزاري[1].

ثم ذكر المزاري الظروف التي تولى فيها والد الأمير السيد محيي الدين وأثبت

(1) كان المزاري من أقارب مصطفى بن إسماعيل، وهو أخو المزاري الذي تولى القيادة في العهد التركي ثم في عهد الأمير وهو المذكور في (ص: 3).

قصيدة باللغة الدارجة وصف فيها صاحبها أول معركة وقعت بضواحي وهران بين الجند الإسلامي الذي يترأسه محيي الدين والجيش الفرنسي .. ولننتقل إلى تقرير الجنرال بواي (Boyer) وهذا نصه: «الجنرال بواي إلى وزير الحرب وهران في 21 سبتمبر 1831م، (وثيقة تاريخية في الأحداث التي وقعت بولاية وهران بداية من نزول الجيش الفرنسي بمرسى سيدي فرج).

عندما بلغ لداي الجزائر الخبر الرَّسمي عن مسيرة الأسطول الفرنسي من مدينة تولون (Toulon) ظهر له أن هذا الأسطول لم يتوجه كله لمدينة الجزائر بل بعضه يقصد وهران والمرسى الكبير فأعطى أوامره إلى الباي حسن الذي كان يمثله بوهران أن لا يرسل أي جندي إلى الجزائر، ولكن ينبغي له أن يأخذ العدة لتحصين بروج وهران ... ويذكر صاحب التقرير بإسهاب وتفاصيل الأحداث التي عاشتها وهران والجزائر بعد ذلك فاخترت الاقتصار على ما به الحاجة أي موقف المغرب من الجزائر آنذاك.

« فسكان تلمسان تخوفوا من مصيرهم عند انتشار الفوضى أرسلوا إلى ملك المغرب وفدا يحمل بيعتهم فقبلها، ومولاي علي الشريف حفيد الملك استولى على تلمسان وكان معه جيش يشتمل على 700 شخص أتى بهم من المغرب ولكنه لم يمكنه الاستيلاء على قصبة البلاد التي كان يسكنها الجيش التركي والكولغى، كان مولاي علي رغم امتناع الجيش التركي من الاعتراف به وتمكينه من القصبة يتمتع بنفوذ شعبي فهو قريب لملك المغرب، وكانت عمامته الخضراء تضفي عليه احترام سليل الرسول، وكان يظهر الورع والاستقامة كما كان ينقصه تأييد الرئيسين الشيخين مصطفى بن إسماعيل وموسرلي (Mousserly) والجيش التركي ـ المتحدث عنه ـ المرابط بقصبة تلمسان، فاستعمل للبلوغ إلى هدفه جميع وسائل الإغراء من تقديم الهدايا والوعود ليعقد اجتماعا مع الرئيسين إذ لما لبيا دعوته للموعد الذي ضربه كانوا بمجرد وصولهم

تلقاهم أعوانه فألقوا عليهم القبض وكبلوهما بالسلاسل هم ونحو 600 جندي من أعوانهم وكل هؤلاء الجنود من سكان الدوائر والزمالة (القبيلتين المواليتين للحكم التركي) وأرسلهم كلهم إلى المغرب فهذا التصرف أثار حقد العرب الذين غادروا تلمسان وأوصوا الجالية التركية أن لا تمكن الشريف من البلاد. ثم إن الجنرال **كلوزيل** الذي احتج بدوره عن الدور الذي أراد مولاي علي أن يلعبه فأرسل إنذارا واحتجاجا إلى الملك المغربي بواسطة الكولونيل أوفري (Auvrai)، فكان رد فعله مغادرة مولاي علي البلد ويمكن أن سبب هذه المغادرة ما ظهر له أن يستحيل عليه الاحتفاظ بسلطته فغادر تلمسان خفية صحبة عساكره الذين أتى بهم » اهـ.

ثم واصل الجنرال في تقريره ذكر الأحداث التي مرت على وهران إذ ذاك إلى أن واصل حديثه عن مصير مصطفى بن إسماعيل ورفقائه بعد وصولهم مكبلين إلى المغرب فقال: «إنني أخبرتكم في التقرير الذي بعثته أن رسولا ثانيا أتى من المغرب إلى تلمسان وأن سكانها اعترفوا به فها هي التفاصيل:

كنت حدثتكم عن 12 من الرؤساء ـ تلمسان ـ كانوا أرسلوا مكبلين بالسلاسل إلى المغرب صحبة الرئيسين الشيخين مصطفى بن إسماعيل من أهل القبيلة العظيمة الدوائر والموسرلي (El Mousserly) رئيس قبيلة الزمالة، فهذه الشخصيات بمجرد وصولها إلى المغرب أظهرت ولاءها لتنجو من المخاوف التي انتابتها وتحافظ على الحياة وتعهدت للملك بأنها تبذل قصارى جهدها لتمكين ممثل الملك من الحكم على المنطقة فسمع الملك لتعهداتهم وأرسل معهم ممثلا ثانيا وهو العامري والي تطوان السابق الذي وصل إلى تلمسان على رأس مائتي جندي في أوائل أوت وحينئذ كاتب مصطفى بن إسماعيل ورفيقه إلى السكان يطلبون منهم الاعتراف بالوالي الجديد إلا أن القبائل كما يقال أعطتهم الأذن الصماء فاغتنموا هذه الفرصة واتصلوا بمائتي وألف فارس من عشائرهم اتخذوها للوقاية، إذ في داخل الأمر كانوا ضد مطامع الملك وفي حقيقة الأمر يرسلون خفية إلى السكان لئلا يغتروا بملك المغرب» اهـ

هذه صفحة ثانية من مواقف ملك المغرب مع الجزائر ذكرناها بإجمال وهي ما وقع إثر لاحتلال الفرنسي مباشرة، أي في سنة 46هـ 1831م.

وقد ذكر الجنرال في تقريره هذا أحداث وهران مع رسول باي تونس سنتحدث عنها في محلها، أي آخر هذه الدراسة.

والآن نذكر المصدر الثالث الذي اعتمدناه في هذه الدراسة وهو ما ذكره في الموضوع المؤرخ المغربي أحمد بن خالد الناصري السَّلاوي في تأليفه: (**الاستقصا لدول المغرب الأقصى**).

وإن استعرض صاحبه أحداث الجزائر إذ ذاك أي الاحتلال الفرنسي الذي أعقبته تولية الأمير بعد سنتين حاول مؤرخنا تزييف الحقائق تزييفا جليا يظهر بوضوح عند قراءة مقاله، قال في (ص: 191) من الجزء الرابع، طبع مصر 1310م، ما يلي: «ظهور الحاج عبد القادر بن محيي الدين المختاري بالمغرب الأوسط وبعض أخباره »، وبعد هذا العنوان ذكر «لما رجع جيش السلطان من تلمسان مع المولى علي بن سليمان ـ سنذكر ما قاله الناصري في هذه القصة بعد إنهاء حديثه عن ظهور الأمير ـ حسبما مر، بقي أهل تلمسان فوضى ورجعت الحرب بين الحضر من أهلها والكرغلية ...»، ثم ذكر اجتماع السكان ومبايعتهم لوالد الأمير الذي اعتذر لكبر سنه وقدم ولده، ولما جاءته وفود وأخبروه أنهم سبق لهم أن بايعوا ملك المغرب، وهذا قوله في الموضوع: «ولما سمع به أهل تلمسان وهم أحوج ما كانوا إلى من يقوم بأمرهم وفدوا عليه وأخبروه بما كان منهم من مبايعة السلطان المولى عبد الرحمٰن صاحب مراكش وفاس وأنهم يبايعونه على بيعته والإعلان بدعوته فأجابهم الحاج عبد القادر إلى ذلك وأخذ عليهم البيعة وأظهر الطاعة والانقياد للسلطان المولى عبد الرحمٰن وخطب به على منابر تلمسان وغيرها وولى على تلمسان وأعمالها وزيره أبا عبد الله محمد البوحميدي

الوهاصي[1]، وكتب إلى السلطان يعلمه بأنه بعض خدمه وقائد من قواد جنده واستقام أمر الحاج عبد القادر وثبتت قدمه في تلك الأيالة التلمسانية ثم إن قبيلتي الزمالة والدوائر الذي قدمنا ذكرهم انحرفوا عن الحاج عبد القادر لأسباب ... وأعلنوا بدعوة الفرنسيس فقبلهم وحماهم وحدثت بينه وبين الحاج عبد القادر بسببهم حرب صلبة ... »، إلى أن قال في فصل آخر في (ص: 198) تحت عنوان: «بقية أخبار الحاج عبد القادر وانقراض أمره وما آل إليه حاله».

قال: «قد قدمنا ما كان من فساد نية الحاج عبد القادر وأنه رام الاستبداد بل والتملك على المغرب فلما كانت الهزيمة بايسلي ازداد طمعه ... »، إلى أن ذكر المعركة التي وقعت بين الجيشين أي جيش ملك المغرب وهنا نذكر أن المؤرخ سواء ذكر ذلك عمدا أو ساقه وصف الأحداث على ما هي إلى ذكرها فقد كان نزيها في وصفه لهذه المعركة التي يؤيدها بعض من لا نشك في صحة رواياتهم وهم الشعراء الشعبيون، قال الناصري في وصف هذه المعركة تتجلى فيها البطولة والاستهانة بالحياة في سبيل العزة والشرف قال: «فلما اطلع السلطان على دسيسته بعث إلى أولئك الجماعة عسكرا من الشراردة عليهم القائد إبراهيم بن أحمد الأكحل فاجتاحوهم بعد جهد جهيد وقتال شديد من ذلك أنهم اعتصموا بربوة يقاتلون على حريتهم وكانوا رماة لا تسقط لهم رصاصة في الأرض فكانوا كلما توجهت طائفة من الجيش استأصلوها بالرصاص وكانوا يجمعون موتاهم فينصبونهم أشبارا يتترَّسون به ويقاتلون مِن خلفه، ولما أعيا الجيش أمرهم حملوا عليهم حملة واحدة حتى خالطوهم في معتصمهم وجالدوهم بالسيوف وطاعنوهم بالرماح والتوافل وانقطع البارود فكانوا يقتلون أبناءهم

(1) وهو الذي قتله الملك عبد الرحمن كان ذهب إليه سفيرا وألحق به الحافظ بن عبد الله المشرفي، قيل مات مسموما بعد أن استقبله الملك إذ أوفده الأمير، وأنشد قصيدة بليغة أعجب بها الملك عبد الرحمٰن بن هاشم.

ونساءهم بأيديهم فرارا من السبي والعار، ثم جعلوا يقتلون أنفسهم حين تحققوا أنهم في قبضة الإسار، وبعد هذا وجه السلطان ولده سيدي محمد لحسم دائه في جيش كثيف»، (وبعد أن حاول تبرير موقف ملك المغرب بأنه كان ينوي إصلاح ذات البين وإنما الأمير هو الذي التجأ إلى الحيلة والغدر)، قال: «وفي أثناء ذلك عمد الحاج عبد القادر ذات ليلة إلى طائفة من جنده نحو الخمس عشرة مائة على ما قيل كلهم بطل مجرب، انتقاهم انتقاء، وكان جيش الخليفة ـ أي: ابن ملك المغرب ـ منقسما قسمين بعضهم معه وبعضهم مع أخيه المولى أحمد فصمد الحاج عبد القادر إليهما:

في ليلــة مــن جمــادى ذات أنديــة   لا يبصر الكلب من ظلمائها الطنبا

بتلك العصبة الذين هم فتيان الكريهة ومساعير الهيجاء وجمرات الحرب طالما شهد بهم الوقائع وخاض غمرات الموت مع الفرنسيين وغير، فلم يقف بهم إلا بين المحلتين وأطلقوا الرصاص مثل المطر وأرسلوا حراقيات على الجمال وتهاويل مفزعة فماج الناس في ذلك الظلام الغاسق ونزل بهم من الهول ما يقصر اللسان عن وصفه وقام الخليفة فجعل يسكن الناس بنفسه ويمنعهم من الركوب خوف الفرار وأمر العسكر والطبجية بالرمي بالكور والضوبلى فكانوا يرمون إلى جهة محلة المولى أحمد ظنا منهم أن العدو لا زال مقابلهم ومحلة المولى أحمد يرمون جهتهم كذلك فهلك من المحلتين بسبب ذلك بشر كثير، وأما الحاج عبد القادر فإنه فر في أصحابه بعد أن حملوا الكثير من موتاهم معهم وكان للقائد محمد ذكر في تلك الليلة ولما أصبح الناس وتفقدوا حالهم وجدوا فيهم من الجرحى نحو الألف ومن القتلى ما يقرب ذلك وأصبح حول المحلة من قتلى أصحاب الحاج عبد القادر الذين أجهضهم القتال عن حملهم نحو الخمسين وأسروا نفرا أحياء، فشاهدوا من طمأنينتهم عند القتل ما قضوا منه العجب، ووجدوا عليهم كسى رفيعة مطرزة بالصقلي والحرير ونحو ذلك، فقد كان للرجال اعتناء بالجيش كما ترى، ثم إن الخليفة رحمه الله أمر باتباع الحاج عبد القادر فتبعته الكتائب المختارة فكان

اللقاء ثانيا بمشرع الرحائل بوادي ملوية قرب البحر عند مسقط ملوية في البحر فصدمته الجيوش صدمة أخرى فني فيها كماته، وكسرت شوكته وفل حده، وخشعت نفسه وأيس من جبر حاله ففر إلى الفرنسيس ولجأ إليه، وترك محلته بما فيها، فاستولى جيش الخليفة عليها...الخ» انتهى ما قاله صاحب (**الاستقصاء**)، وفاته أن يذكر أن معاهدة ملك المغرب مع الجنرال بيجو إثر واقعة أيسلي كان من جملة بنودها بند ينص على تعهد الملك أن يخرج الأمير من بلاد المغرب ولم يكتف بهذا بل جره إلى هذا الكمين وعندما حمل عليه بمصب ملوية كان القائد الفرنسي بالحدود الجزائرية على علم فلم يسع الأمير إلا الاستسلام وقد ذكر في إحدى رسائله للأسقف دبيش أن الذي حمله على هذا الاستسلام هو شفقته على قومه أو ما تبقى منهم الذين أعيتهم المقاومة طيلة 15سنة وإلا لكان رغم كل تلك المناورات والمكائد يمكنه النجاة بنفسه إلى الصحراء حيث لا يعدم العيش بقليل من التمر والحليب.

وتميما لموضوع بحثنا نذكر ما سجله بعض الشعراء الشعبين بإيجاز في هذه الأحداث وهي وإن كانت توافق رواية (**الاستقصاء**) في الوجهة الحربية فقد تخالفها في الأسباب التي ذكرها المؤرخ فالشاعر الأول من المعاصرين لهذه الأحداث وهو الشاعر الشعبي بالمطر من الظهرة ـ أي بين مستغانم وتنس شمالا ـ قال يخاطب جيش الأمير الذي كان يطلق عليه الخيالة (الفرسان):

زلــتكم فــوق الزلــة آلخيالــة　　　حاكم فاس أعلاه أوباه قاللكم

معتاها فوق المحنات محنتكم

انطحتــوا نطــح أزغــالا آلخيالــة　　　راحت ذيك الدنيا راهبــة مــنكم

منكم مــا قَعْــدَتْ رُجْــلا آلخيالــة　　　باقي الغول اهنايا عاشَرْ اوطنكم

صــادق شــينين الحالــة آلخيالــة　　　اصْــحَبْهُم وَلاَّوْ ايقــاتلوا فــيكم

حـاكمهم قـاع للكمـلا آلخيالـة يغدوا مـن وطنـي ولاَّ نعـاديكم
جاب افْزُوعـه كالحملـة آلخيالـة ذاك الـبَرْ و هـذا دايَـرْ بكـم
من قـدّام أو مـن الرَّوْلـة آلخيالـة قالوا لي غـاشي قـوة افـزع لكـم
مَتُّـوا كامـل بالجملـة آلخيالـة اهتَزْ العرش العالي ابْكـى مـنكم
مـا دفنـوكم رجـالا آلخيالـة مـا هشْـمُوني نـدَّابَات بابْكَـاكُم
جبريـل علـيكم صـلى آلخيالـة رُحتـوا غُرْبَـا وأنـتما بْـوَالِيكم
متـوا في وجـه المـولى آلخيالـة يـا قـوم العـدنان الله يـرحمكم

فراش:

حـاكم فـاس اشريـف احقيـق واعمـل هـاذي مَـا مَنْهَـاش
اطعن الشوك اوْخَـلاً الطريـق مثـل الِّي مـا يعرفهـاش
قلنـا ذا سـلطان امطيـق وثْرْنُـه قَلْبُـه مَغْشَـاش
ارجـع للـرُّومْ اصـديق قـال اهْنـا مـا يَبْقَـاوش

هذا قال اعدونا واعدوكم

جـاب ادشـور مْـع النَّـزْل آلخيالـة من سُوسْ لْوَجْدَة الاسلام غشوكم
ثَقْبُـوا فـيكم شـعَّالة آلخيالـة قالوا لي ابـن يحيـي طـايَحْ احـذاكم
مـنكم هـذا الـوطن اخْـلَى آلخيالـة مـا شـيَّبْ راسي لْكَـانْ مَرْسَـمْكُم
دَمْعـة عينـي هَوْطَالـة آلخيالـة راني نبكـي دِيـما عايـد احْـزَنْكُم
مـنكم مـاني في حالـة آلخيالـة كي الأبْرار العشـرة ظـاهر اشـناكم
واكْ انـتما قتَّـالا آلخيالـة واكْ انـتما دايـم نـايضْ عـدوكم
أهـل المحَاصَـنْ تـتْلالاَ آلخيالـة اللَّبْسَـة الزينـة واسْرُوجْ طَبْعُـوكُم

فراش:

حــاكم فــاس اعــلاه اوبَــاه يعمـــــل هــــذا المظلَمَــــة
قاتـــل جـــيش رْســـول الله شـــوفوا مَعْتَاهَـــا عَظْمَـــة
عــــادَى مــــولاه وبَابَـــاه مـــا قعـــدت عنـــدُه حُرمـــة
جـاب الغـيض امقـام اشراه في ســــــقر الحطمــــــة

غدوه في يوم الميعاد يلقاكم

قــــدام الله تعــــالى آلخيالــــة تشـرْعوه المـولى شـاهد علـيكم
مـا تحضـر عنـدو حيلـة آلخيالـة ما يحلفشـى في القبلـة ويَـبْلَعْكُم
يــوم اجمــاجم تــتخلى آلخيالــة قــدام النــاس أنــتما يْخَلّصْــكُم
ضربـت مطبـوع الحالـة آلخيالـة ولدا الزهرة (الأمير عبد القادر)

في الميدان يندهكم

يوكَـدْ يـوم أن تَسـلا آلخيالـة يقتل بالعشرة وبوكّـد ابْكَـرْكُم
يعمل كي السيد الْعْـلى آلخيالـة في عــدنان الله هــو يفــرَّجكم
ميشــــدوه الجهلــــة آلخيالـــة كي فرحوا عديان الله برايسكم

ويختم قصيدته بذكر الأمكنة التي قصدها جيش الأمير ووقعت فيها المعارك:

ولاوا في بحـر الحـلا آلخيالـة قالوا لي في جبل املوا عشرتكم
زدتّوا غـادي بالرحلـة آلخيالـة في ملويـــة خلِّيتـــوا امقـــابركم
هربتـــوا لبنـــي يعـــلا آلخيالـــة اقْصَدتُّوا زَعْمَ الاسلام تَنْعَرَكم
انزَلْتـــوا في بُوحَمْلَـــة آلخيالـــة كُنْتُـوا غـاشي قـوّة في امْحَلَّـتْكُم
كـل ليلـة تبنـوا هَـالاَ آلخيالـة بَتْقَاصَرْكُم دَايَـمْ في اقْـوَاطَنْكُم

لا تعطوا عني غفلة آلخيالة في هذيك الدار امنين نَلْحَقْكُم

في الابراج المنزلا آلخيالة قالوا لي بزاف الحور ضيفتكم

قال ناقلها: «وهذا ما وجدناه من كلامه (رحمه لله) »، وهذه من أهم السجلات التاريخية لهذه الحادثة، ثم نختم هذه الدراسة بقصيدة أخرى للشاعر الشعبي المشهور مصطفى بن إبراهيم الذي تولى القضاء في العهد الفرنسي ببلعباس وأبعدته السلطات الفرنسية فأقام مدة بفاس فقال عدة قصائد كلها غرر وتعرض في هذه لحادث الأمير عبد القادر مع ملك الغرب فبعد ما افتتح قصيدته بتصوير حالته في غربته متشوقا إلى وطنه قال:

حسراه وين عرب الجود على اجْواد جمعوا الجود همَّة كلمة واصيانا

الرأيْ رأيْ وافي كَلْمَة ولا ازْيَاد يرضاوا الموت ولا يبغُوشْ الهانا

أخلاق ذا الوطن لا نيف ولا اضْدَادْ في السُّوق ياكلوا وعْنَاقي عريانه

ادْخَلْت فاسْ شفْتْ اسْواقُوا ميَّزْتْ مَا صُبْتْ ازْجَال

بْنَاسْ عَامْرِين ازناقوا الكل في الْحْرَفْ تَحْتَال

ثم يذكر القبائل الجزائرية من حدود المغرب إلى مسقط رأسه الزفيزف إلى أن يصل إلى السرسو ثم يذكر واقعة الأمير فيقول:

ساس الكلام معنى نتْفَكَّر في البلاد هدفوا نْجُوع لِيَ واتوا معنانا

يوم الزقا يْزيخوا ويْتِيهُوا للطْرَاد على البلاد تهد اقْطَاوَرْفَتَلَنَا

أعلاه يالْغَرْبي تمزَحْ مَزْحْ العناد أنتما وسْلَعْكُمْ تَسْوَاوْ افَلْسْ اوْزَانَا

فراش

شتَّى نْجوعْ ما نَهْدَرْلَكْ يوم الحيانية عادوا لي

الغرب كلتوجا حارَكْ حوزي وبَرْبْرِي والجَبْلي

بفزوعهـــــــا الأتَـــــــدَّارَكْ   اعْيَـــاوا مـــن القْتَـــال ابْطـــالي
يَـــوْمَيْن والطْـــرَاد امْشَــبَّكْ   نِـــيرَانْ شـــاعْلة والنصْـــلى
ميتـين عـود انتاعـدّة ابْـلاَ عْـدَادْ   النصف مات الأخزى ذَهْبَتْ هربانا
افناوا كلهـم سـاروا للجنـة اشـهاد   مـاتوا مجَاهـدين ارضـاهم مولانـا
الِّي مـات مـنكم جهـنم أخـلاد   ربي مع الرسـول املايكْتُـه غَضْـبَانَا

إلى أن يقول:

سلطان خانهم واغْدَرْهُم ذوك الْجْوَادْ   عـلى احْكَـامْ عبـدُه ولـد الْمَصَـنَانَا
صاقوا وعمدوا للوحلة شور الـبلاد   بدعوا الشرق وقـالوا نغـذوا باعنانـا
قـالوا حـرام نبقـى معـيرة للـولاد   المـوت كاينـة واعلاشـى ذا الهانـا

فراش

اتْـــيَقَّن الكـــلام اسْـــتَخْبَر   أَجِ تْقَصَّـــــرْ وسقْصِـــــيني
الغـــرب بالكـــذوب امعمـــر   مارِيـــتْ فيـــه مـــا يَعْجَبْنِـــي
احنـــا رجالنـــا تســـعد   ســـوق الحيـــا علـــيهم مبنـــي
ابك فراق وطنك وافراق أهل البلاد   ابـك ارجـال تـاهوا فرحـوا معانـا

ابك زمان بدَّل فرحتنا بالكساد ... الخ

ويختم قصيدته متسائلا هل يمن الله عليه بالرجوع إلى وطنه ويجمع شمله فيقول:

صـافا هنـا مهـول ويحقـن بـالشهاد   يرجـى لشـمل يجمـع لنـا مولانـا
يا من درى نروح نَهْدِي غَرْبْ الْفَسَاد   نغدي اشْوَارْ نـاسي إذا طـال احيانـا

انتهت منظومة مصطفى بن إبراهيم الشاعر الشعبي الشهير الذي لازال المغنون

الشعبيون يلحنون قصائده وينشدونها ويتأثّرون بها، وفي السنوات الأخيرة كانت حياته موضع أطروحة قدمها الأستاذ عبد القادر عزة لجامعة باريس نال بها الدكتورة.

موقف تونس من احتلال الجزائر:

نص ما جاء في تقرير الجنرال (Boyer) المؤرخ في 15 يوليو 1831م.

تقرير رقم: (1):

الجنرال (Boyer) إلى وزير الحرب

(المحفوظات التاريخية لوزارة الحرب: الجزائر مراسلة (ملف: 8): 15/ 7/ 1831م.

سيدي الماريشال:

من الأخبار التي أطلعني عليها كاتب مبعوث تونس وهو الذي كلف بإبرام المعاهدة في الجزائر مع الأمين (L'intendant en chef Vollant) للتخلي عن مدينة وهران لداي تونس فإن هذه الأخبار تذكر أن عدد الجيش التونسي المرابط بوهران يبلغ عدده ألفا منهم 300 فارس استولوا على الخيل من السكان منطقة وهران ، وبعد أن يذكر ثمنها الذي دفعوه يسترسل في تقريره ويقول: «إن هذه القوة تحت رياسة القائم مقام أو ملازم (Lieutenant) الباي كان قبل هذا جاء جنرال تونسي إلا أنه عندما شاهد نتيجة الفظائع التي ارتكبها الجيش التونسي عند خروجه لقمع سكان البوادي رفض منصبه ورجع إلى تونس ».

إنه من الأحسن أن حكومة عظمة ملكنا تقرر ماذا تفعل بالمائتي فرس التي هي في حوزة التونسيين حتى يظهر للسكان أن فرنسا حقيقة عازمة على حمايتهم وأن الجنرال حاكم المنطقة الوهرانية يمكنه استثمار هذا الحل.

إن رئيسين من رؤساء القبائل العربية الذين لهم التصرف المطلق خارج وهران

حيث يتمتعان بالنفوذ التام أعلنوا عداءهم للتونسيين اثر قمعهم البربري للسكان وهما الحبيب بوعلام ومصطفى بن إسماعيل فهذان الرئيسان يتصرفان خارج وهران وهم الذين منعوا السكان من معاملتنا فقطعوا عنا التموين فبقدر ما تستعجلون بطرد التونسيين ومغادرتهم البلدة تطمئن نفوس السكان» اهـ .

وقد تعرَّض الجنرال في تقريره الذي ذكر فيه أحداث بيعة أهل تلمسان (التي تحدثنا عنها) لملك المغرب لموقف باي تونس وهذا نص التقرير: (تقرير رقم 4 الجنرال (Boyer) إلى وزير الحرب) (محفوظات الولاية العامة بالجزائر: نقل المحفوظات الحربية)، وهران في 21 سبتمبر 1831: **(وثيقة تاريخية في الأحداث التي وقعت في ولاية وهران منذ نزول الجيش الفرنسي بسيدي فرج)**.

يذكر الأحداث التي منها ما تقدم لنا الحديث عنها، فهذان الرئيسان يتصرفان خارج البلدة وهم الذين منعوا الفلاحين بمعاملتنا فقطعوا عنا الحطب والتموين فبقدر ما تستعجلون بإرسال التونسيِّين تطمئن نفوس السكان» اهـ.

كما تعرض(Boyer) في تقريره عدد:4، المؤرخ في 21 سبتمبر 1831م، محفوظات بالولاية، إثر مبايعة سكان تلمسان لملك المغرب وإرسال هذا الأخير ابن عمه ثمَّ والي تطوان ... الخ.

قال: «في شهر فيفري الماضي وصل إلى الجزائر القائم مقام الذي أوفده داي تونس لاحتلال مدينة وهران بناء على معاهدة الجنرال كلوزيل (Clauzel) إن هذا الرئيس التونسي كان مصحوبا بـ 250 جنديا ـ فرسان ـ وبعد إقامته مدة بالجزائر ومفاوضاته مع القائد الأعلى ذهب إلى وهران مع جيشه وبعد وصوله مكنوه من مال القمارق (Douanes) كما مكن من محتويات مخازن الباي حسن ..

القائم مقام التونسي استصحب معه جيشا قليل العدد لا يمكنه حماية المدينة ولهذا بقيت الفرق الفرنسية تحتل المرسى الكبير وحصون وهران.

فهذا القائد العسكري التونسي لم تكن عنده إمكانيات لدفع ما تتطلبه مصاريف جيشه فلم يفكر إلا في ملء جرابه الذي هو جراب الشحاذ، لم يشاهد سكان وهران مسؤولا بلغ به البؤس والفاقة إلى حد أن جنده كان يتسول ونفرق عليه الخبز وكذلك الجيش الذي كونه من نحو 500 تركي ميليشيا جزائرية ولم يعطهم قيراط من عنده وبعبارة شاملة فخير الدين (القائم مقام) لم يفكر إلا في مصلحة جيبه والاستيلاء على المال بأية طريقة، فقد باع للتجار اليهود الرخص لإصدار الحبوب بنحو 50000 فرنك وهو يتحقق أنه يبقى في وهران حيث إن ملك فرنسا لم يمض على معاهدة **كوزيل**، كما أن سلوكه الوضيع أثار غضب سكان المسلمين قليل من رؤسائهم وردوا لزيارته، أما كبار الرؤساء فلم يقيموا له وزنا، فأراد أن ينتقم، ولهذا دخل في صبيحة بعض الأيام ونحو 30 رأس نسوة وصبيان محمولة على السيوف، ونحو 4000 رأس غنم وبقر سرقوها في طريق رجوعهم من قمع السكان، وقد أرضوا أطماع اليهود الذين اشتروا منهم الغنم وباعوها بدورهم إلى الأسبان والانكليز بجبل طارق...الخ » اهـ ملخص في هذا التقرير من فظائع.

الخلاصة: إن التضامن الجزائري ـ المغربي الذي عنونا به هذه الدراسة، والتضامن الجزائري ـ التونسي الذي ختمناها به، حقيقي، وأنه أثبت وجوده عبر التاريخ، وإنما لم يكن هذا التضامن من صنع الولاة والرؤساء بل كان يرعاه أفراد الشعب وفي طليعتهم علماء الدين، فإثر الاحتلال الفرنسي، والوقوف المخجل الذي وقفه كل « من ملك المغرب وباي تونس » كان أفراد سكان البلدين يتلقون جماعات اللاجئين الجزائريين ويعاملونهم معاملة الأخ لأخيه جاعلين نصب أعينهم ما روي عن الرسول ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» أو كما قال.

ولضيق مجال هذه الدراسة سنخص موضوع التضامن الحقيقي بدراسة أخرى.

معارك الأمير عبد القادر ومعاهدة تافنة[1]

إنني اخترت أن يكون موضوع حديثي في هذه البلدة كما يدلُّ عليها عنوانها: (**معارك الأمير عبد القادر ومعاهدة تافنة**)، وذلك لأن هذه المعارك التي خاضها الأمير عبد القادر مع الجيش الفرنسي وكان من نتائجها معاهدة صلح تافنة، لها مكانة في تاريخ الجزائر، ولا يخلو تأليف من التآليف من ذكرها، وإننا كما نعلم كلُّنا أنَّ تاريخ حروب الأمير عبد القادر مع الفرنسيِّين، خصص بمئات التآليف، اعتنى بها جلّ كتاب العالم، مسلمين وغير مسلمين، ولا زال معينها لم ينضب بعد، حيث يظهر المرّة بعد المرّة، تأليف يتناول بالبحث جانبا من جوانب حياته، كما خصصت كثير من الجامعات الأوربية عقد ملتقيات لدراسة جوانب من حياته المتعدّدة، سواء في الميادين الحربية أو الثقافية والسياسية. وقد كنت في شهر يونيو أي جوان من السنة الماضية تشرّفت بالمشاركة في ملتقى انعقد في جامعة باريس (College de France) لدراسة بعض الجوانب من حياته بعد هجرته إلى الديار الشرقية، على ضوء ما اكتشف من الوثائق السرِّية والعلنيَّة.

امتازت معارك الأمير بهذه النواحي التي أعقبتها معاهدة صلح تافنة، بأنَّ الذي شارك في هذه المعارك من الجانب الفرنسي هو من كبار قادة الحروب والسياسيِّين الذي لمعت أسماؤهم في القرن التاسع عشر، وخصُّوا بتآليف تعرَّضت لترجمة حياتهم بمزيد من التفصيل وهو الجنرال بيجو.

وقبل أن أدخل في صميم موضوع هذه المحاضرة حسبما يدلُّ عليها عنوانها،

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المحاضرة على نسخة مخطوطة تقع في (30) صفحة.

اسمحوا لي أن أستعرض لقطات موجزة من مراحل تاريخ هذه الناحية التي لفتت أنظار الباحثين من قديم، أي بعد الفتوحات الإسلامية، وقبلها بعشرات القرون.

ولما كان الغرض والمقصود من هذه المحاضرات التاريخيّة التي تعهّدت بإلقائها عبر أنحاء الوطن وركَّزتها على التاريخ المحلِّي ـ أي: الجهوي ـ الذي كان محلَّ اعتناء كثير من المؤرِّخين في تاريخ الأدب العربي، إذ كانوا يخصِّصون لتاريخ المدن أو القبائل تآليف خاصَّة، يتمكَّنون فيها من التعرُّض إلى دراسات معمَّقة، سواء في المجالات الثقافية أو السياسية والحربية، فإنَّني أغتنم هذه الفرص للاقتداء بهم، خصوصا وأنَّ بلادنا تعدُّ مِن البلدان المتخلِّفة في هذه المجالات، إذ تاريخها لم ينشر منه إلاَّ النَّزر القليل، وذلك حتى بالنسبة للبلدَين المجاوِرَين: المغرب الأقصى وتونس، حيث مُنيت الجزائر باستعمار مباشر لم يدم 130 سنة، كما تعوَّد كثيرٌ مِن كتَّابِنا ترديده، بل دام ما يَربو على أربعة قرون، وذلك أنَّ الاستعمار الفرنسي سبقَه الاستعمار الإِسباني الذي تقمَّص الحروب الصليبية، وهاجم هذه البلاد في عَصر انحِطاطها وتدهوُرها، وإن لم يكن ذلك حظُّ الجزائر بانفرادها، بل شاركتها بلاد المغرب العربي الذي سقطت كثيرٌ مِن مدُنِه أيضا، ففي ذلك العهد، عندما حدِّدت الحروب الصليبية التي قادَتها شخصيتان عالميتان وهما: الملك شارلكان، والأسقف كسيمنيز المشهورين بموبقاتهما اللاإنسانية.

وكان هدف الإِسبانيِّين هو محو الإسلام بهذه الديار، خصوصا بشمال البلاد، فقد سقطت مدينة وهران، ثمَّ بجاية عاصمة الشَّرق الجزائري، فتونس، ثمَّ طرابلس، وقد سبقتها مدينتا سبتة ومليلية اللتين لازالتا مِن ذلك العهد ترزحان تحت نير العبودية والهوان، فحينئذ تداخل الأخوة عرُّوج وخير الدِّين، وانضمَّت الجزائر إلى الخلافة العثمانية وكان من نتائج ذلك أنَّ العهد التركي الذي دام ثلاثة قرون، حافظَ على كرامة البِلاد وسيادتها في كامل حَوض البحر الأبيض المتوسط، ونجد كثيرا مِن الكتَّاب

يغلطون، حيث لا يفرِّقون بين الاستعمار الأجنبي العُنصري الصَّليبي الذي كان هدفه محو الإسلام بالديار الإِسلامية شرقا وغربا، والعهد العثماني الذي كان سببا في إنقاذ البلاد مِن براثن هذا الغزو الصَّليبي، وذلك أنَّ علماء بلادنا بعد ما احتُلَّت وهران وبجاية، هم الذين اتَّصلوا بخير الدِّين باشا وإخوته، وطلبوا منهم إعانتهم في طرد المحتلِّين، فأجابوا رغبتَهم، وكانت كلّ المعارك التي خاضَها الأسطول العثماني ـ أي: التركي ـ معزَّزة بالجيش الجزائري، فلهذا ينبغي لنا أن ننتبه ولا نترك للمغرضين تشويهَ تاريخ بلادنا بادِّعاءاتهم: الأتراك كانوا مستعمرين للبلاد، ويقدِّمون لتأييد مَزاعمِهم بعض التَّصرُّفات المحليَّة، كانت تصدُر مِن بعض الجنود الأتراك الذين كانوا أقلِّية، وكان الكثيرُ منهم مِن ذوي السَّوابق والمساجين والمرتَزقة، ولهذا لا ينبغي لنا أن نقبلَ كلَّ ما حاكَته الدَّسائس الاستعمارية، فعهدُ الأتراك بالجزائر خصوصا قبل تمرُّدات الجيش على الحكومة المركزيَّة التي كانت منضوية تحت حكم الخلافة العثمانية، التي كان دستورها القرآن الكريم ورفع منائر الشَّريعة الإسلامية، مما هو معروف ومشهورٌ في التاريخ.

وغرضنا من هذا التَّمهيد أن نَصِلَ بكم إلى عهد الأمير ومعارك تافنة ـ موضوع محاضرتنا هذه ـ فَعندما ضعُفت الدَّولةُ التركيَّة بالجزائر، إذ كان بلغ من الضعف مُنتهاه، ووقع الاحتلال الفرنسي إثر الانتفاضات الداخلية التي دامَت ربع قرن، لم يقاوم الجيش التُّركي لا بِعاصمة الجزائر ولا بوهران، بل استَسلم باي وهران حسن، فحينئذ انعقَد مؤتمرٌ من علماء البلاد، وانتخَبوا والد الأمير وهو السيد محيي الدِّين رئيس معهد القيطنة، ثمّ بعد ما ترأّس عدّة معارك تنازل لابنه الأمير عبد القادر على الحكم فواصل الأمير معاركه مع الجيش الفرنسي خلّد له التاريخ بطولاته وانتصاراته إلى أن أبرم معاهدة مع الجيش الفرنسي، المعاهدة المشهورة بمعاهدة دو مشال، وحينئذ ظهرت أحداث على المسرح السياسي، فبعض القبائل المشهورة بقبائل المخزن – أي: القبائل التي كانت تؤازر

الحكم التركي بالقطاع الوهراني التي من بينها قبائل الدَّوائر والزَّمالة وكان يترأّسها مصطفى ابن إسماعيل الشهير، تمرّدت على الأمير بمختلف الدعاوي الباطلة، والتحق مصطفى بن إسماعيل ببقايا بعض الجيش التركي الذي رفض أيضا طاعة الأمير، وتحصَّنوا بقصبة المشور، فحاصرهم الأمير مدّة، ثمّ بلغه أنَّ الجيش الفرنسي رابط بأرشقول، أيّ عند مصبّ نهر تافنة، فذهب إليه وكان إذ ذاك خليفته بهذه المنطقة الغربيّة، البطل السيد البوحميدي، الذي هو من مواليد هذه الناحيّة، فحينئذ أرسل الفرنسيون المدد إلى الجيش المرابط بحصن أرشقول تحت قيادة الجنرال بيجو، فوقعت بين الجيشين أي جيش الأمير وجيش الجنرال بيجو معارك كانت نهايتها معركة السكاك حيث يلتقي وادي تافنة بوادي يسّر، وكان المقاتلون من جيش الأمير معظمهم لم يسبق لهم تدريب، أما المقاتلون الفرنسيون الذين كان يؤازرهم جيش مصطفى بن إسماعيل من الدَّوائر والزمالة، فإنه كان مدرّبا، وجيشا نظاميا، فكانت الغلبة في معركة السكاك هذه للجيش الفرنسي، إلا أنّ بيجو كرجل سياسي وحربي، إذ كان كغيره من نخبة قادة الجيش الفرنسي خاض غمار الحرب مع نابليون التي بهرت العالم إذ ذاك، فقد أدرك أنّ جيش الأمير لا ينقصه إلا التدريب، ولهذا فينبغي أن يقرأ له ألف حساب، والأحسن أن يسعى في الصلح، وبعد مفاوضات دامت ما يقرب من سنة توصَّل إلى إبرام هذه المعاهدة ـ أي: معاهدة الصلح ـ التي اشتهرت بمعاهدة تافنة، هذه هي الخطوط العريضة ذكرناها بإيجاز كتمهيد لموضوع بحثِنا، ولا يخفى على حضراتكم أيضا أنَّني في هذه السِّلسلة من المحاضرات لم يكن المقصود منها منحصِرا على إفادة الإخوة الحاضرين في هذه المنتديات التي نقضي معهم فيها السَّاعة والسَّاعتَين ثمَّ نفترق، بل الغرض منها نشرها وتوزيعها داخل البلاد وخارجها، إذ كثيرا ما نتَّصل مِن مختلف بلدان العالم من طلب توضيحات لبعض أحداث مراحل تاريخ الجزائر في القديم والحديث ـ أي: من عهد الفتوحات إلى عهد الأمير ـ وكانت لمعارك الأمير عناية خاصّة، حيث إنّها امتازت بانتصارات رائعة،

بهرت قادة الجيش الفرنسي وإن لم يصرحوا بذلك في كتب التاريخ المتداولة، فإنَّهم في تقاريرهم الرسمية، وفي مذكِّراتهم لم يخفوا هذه الحقائق، وقد نشرت معظم هذه التقارير بمناسبة الاحتفال المئوي على احتلال الجزائر الذي وقع سنة 1930م، ومن المعارك الحاسِمة التي انتصر فيها الأمير انتصارات باهرة، **معركة وادي المقطع** التي تسبَّبت على تمرُّد قبيلتَي الدَّوائر والزمالة بإيعاز من رئيسهما مصطفى ابن إسماعيل وتشجيع الجنرال **تريزيل**، وخسر فيها الفرنسيون ما يزيد على الثلاث مائة قتيل وجريح، وجميع العتاد، هذا زيادة على الهلع والذّعر الذي كانا يصيبان الجيش الفرنسي. ولم يخفه قادةُ الجيش في تقاريرهم المذكورة كما سبق لنا ذكره.

ولنذكر هنا ملخَّص ما ذكره المؤرِّخون الذين سجَّلوا هذه المعركة: إنَّ الماريشال **كلوزيل** لَّما عيِّن واليا عاما على الجزائر سنة 1836، انضمَّ إليه أعداء الأمير الذين كان يترأَّسهم مصطفى بن إسماعيل، ونظرا لقرب مرسى أرشقول مِن تلمسان والطَّريق بينهما معبَّد، وقع اختيار الماريشال **كلوزيل** عليها كمرسى لمدينة تلمسان، وأنشأ بها حِصنا حربيا ليسهِّل على طريقه ربط مدينة وهران بتلمسان، وحينئذ بلغ الأمير الخبر وهو محاصِرٌ تلمسان، فقصدَه وحاصرَه، ولما ضُيِّق على الجيش الفرنسي الحصار استغاثوا فجاءتهم النَّجدة على يد الماريشال بيجو كما ذكرنا ذلك في أوَّل هذا الحديث.

وقعت الملاقاة الأولى بين جيش الأمير وبين جيش الماريشال كلوزيل ـ أي: قبل لحاق نجدة بيجو ـ وكان قائد الجيش إذ ذاك مصطفى ابن إسماعيل ومعه المرتد الرائد يوسف العلم، كما كان يسمى إذ ذاك لأنّه من أصل إيطالي وتربى في قصور بايات تونس كمملوك وأظهر اعتناقه للإسلام ثمّ التحق بالجيش الفرنسي عند احتلال الجزائر وكان خطيرا على المسلمين إذ كان ذا مكر وخداع، ولكنّه جازاه الفرنسيون كما يقول المثل: «جزاء سِنمَّار » رغم خدماته التي أدَّاها لهم، ومن بينها استيلاؤهم على زمالة

الأمير بطاقين، والزمالة هي العاصمة المتنقّلة للأمير، وقد كانت هذه الكارثة التي وقعت سنة 1843، تحت قيادة الدُّوك دومال هي التي سقطت بها في أيدي الأعداء خزانة كتب الأمير عبد القادر التي مزّقت، وعلى ذكر مصير هذه الخزانة التي كثر الحديث عنها، وقد قرأت منذ أشهر أنّها نقلت إلى المغرب، وعدد كتبها الآلاف...الخ، فهذه ترهات وأكاذيب لا أصل لها، وعلى ذكر خزانة الأمير التي كان لأهمّيتها عنده لا يسمح بمفارقتها بوضعها في المدن التي كانت هدف الجيش الفرنسي، فكان يصحبها معه، إذ كان الأمير من رجال العلم والصلاح، ونشاطه في هذه الميادين لم يكن أقل من نشاطه في الميدان البطولي، وكمثل نسوقه على هذا، هو أنّه عندما كان محاصرا لتلمسان في أحرج الأوقات، كان معه كتاب صحيح البخاري وقد وجد هذا الكتاب، وكتب عليه بخطّه وفي أوّل ورقة منه ما يلي: «ختمت صحيح البخاري أربع مرات بعضه رواية وبعضه دراية، وأنا عبد ربّه كثير الذنوب والأوزار أمير المجاهدين عبد القادر بن محيي الدين بن من مصطفى الراشدي لطف الله به في الدنيا ودار القرار، ثمّ شرعت في ابتداء الخامسة وأنا محاصر تلمسان عجل الله بفتحها وأعادها دار سلام وإيمان بجاه النبيّ وآله، والبخاري ورجاله، و السلام».

ولنرجع إلى مواصلة الحديث عن معارك تافنة التي أعقبتها معاهدة الصلح كما حرّرها أحد قادة الجيش الفرنسي في مذكّراته، وهذا القائد هو الجنرال (Daumas) الذي سبق له أن كان أوّل ضابط فرنسي، عيّن ممثّلا لدولته سفيرا عند الأمير(عبد القادر) بعاصمة معسكر بعد إبرام معاهدة دوميشال وكان يتقن العربيّة، ثمّ بقي متّصلا بالأمير خصوصا أيام أسره بقصر أمبواز، قال دوماس هذا: «عندما عرض الماريشال بيجو على الأمير الصلح جمع الأمير رؤساء الدين واستفتاهم في الصلح المعروض عليه، فأجابه أغلبهم بالموافقة، وحينئذ حذّرهم من العودة إلى انتقاده، كما فعل بعضهم

بعد إبرام الصلح الأوّل الذي عقده مع الجنرال دو ميشال واشتهر أيضا بمعاهدة دو ميشال، وقد طرح سؤال في الموضوع على الجنرال دوماس، وكان الذي طرح هذا السؤال من كبار قادة الجيش الفرنسي ونصّ السؤال: من المستفيد من هذا الصلح ، هل الأمير عبد القادر أم حكومة فرنسا؟، وكان طرح هذا السؤال كما يظهر من فحوى جواب دوماس بعد استئناف الحرب بعد إبرام الصّلح فقال دوماس: استفاد الأمير ماديا، حيث نظّم جيشه وجهّزه، ولكنه خسر معنويا حيث لم يبق له ذلك النفوذ الديني الذي يذكيه «محاربة عدوّ الدين»، وذلك لما اعترف بالنفوذ الفرنسي على البليدة والقليعة مع دفع ضريبة سنويّة فلم يبق له تمتّع بلقب أمير المجاهدين حيث كان الناس يتسابقون إلى الجهاد، ويتحملون كلّ التضحيات أما الأمير فقد اغتنم فرصة الهدوء وأخضع كلّ القبائل المشكوك في ولائها له، وأكثر ذخائر الحرب، واشتغل بالجيش النظامي، حيث استبدل النفوذ الروحي بالنفوذ المادي، إلا أنّه كان يدافع عن نفسه بأنّ ما كان يدفعه ضريبة هو في الحقيقة ثمن للأسلحة، التي كانت تمدّه بها فرنسا، وإذا كان في حاجة إلى الاستعداد للحرب، بعد أن أقام الدليل لخصومه أنّه لا مطمع لهم في التمرّد عليه ما دام الفرنسيون مسالمين له، ثمَّ استرسل دوماس في جوابه فقال: «كان خصوم الأمير علاوة على رؤساء الدوائر والزمالة قبيلة انقاد التي لم تنسى رئيسها الشّيخ بالغماري المخنوق بمعسكر ثمّ عدّد دوماس بقيّة القبائل التي كانت تضمر الشرّ للأمير لأسباب مختلفة، وأهمّها أنّها كانت تتمتّع بالنفوذ والسيادة في العهد التركي حيث كان السكّان ينقسمون إلى قسمين، قسم المخزن الذي يتمتّع بجميع الحقوق، وقسم الرعايا، أي الشعب الذي كانت ترهقه الضرائب والسخريّة ـ أي: كانوا يسخرون لإيواء الجيش المتنقل لمراقبة السكّان، ولجمع الحبوب ومختلف المنتوجات، فيتولَّى أفراد الشعب نقلها، ثمَّ الحرس إلى غير ذلك ـ فلما بويع الأمير سوّى بين طبقات الشعب وأنّهم لا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصَّالح، كما أنّ المقاييس التي كان

يرعاها عند اختياره لوزرائه وقضاته وإطارات دولته من رجال العلم والدّين، وضرب الأمثلة الرائعة بسلوكه الشخصي، فكان في أوّل عهده، أي عندما بويع، واتخذ مدينة معسكر عاصمته، فكان يسكن بمنزل بسيط لا امتياز له على مساكن مجاوريه، وكان يجلس في مساجد المدينة للصّلح بين المتخاصمين، وكان عندما يقود جيشه للحرب هو الذي يتقدّم لإمامتهم في الصلوات، ويقرأ درسا في التفسير أو الحديث دبر كلّ صلاة، وفي الحقيقة أنّ الأمير بعد توليته، لم يجعل مثله الأعلى الملوك والسلاطين، بل سار سيرة الخلفاء الرّاشدين، وعندما وضعت حربه أوزارها، وقادته السلطات إلى أمبواز، التي أقام فيها مدّة وزاره في معتقله نفس الجنرال دوماس فوجده يعلّم أولاده وأولاد رفقائه القرآن على الألواح، أي على الطريقة التي قرأ هو بها القرآن، ولما تجاذب الحديث مع دوماس الذي كما سبق لنا ذكره كان يعرفه غاية المعرفة إذ هو أوّل سفير فرنسي أرسل إلى معسكر بعد المعاهدة الأولى المعروفة بمعاهدة دو ميشال وكان موضوع الحديث بينهما قضيّة السلاح، فقال له الأمير على سبيل البسط: «لم يبق لنا من السلاح إلا هذه الألواح »، ففهم الجنرال مقصده الذي دوَّنه في (**مذكِّراته**)[1].

ولنرجع إلى الحديث عن معاهدة تافنة لنذكر انطباعات الأمير عليها وقد ذكر هذه الانطباعات الجنرال أزان الذي خصّص بيجو بتأليف بمناسبة مرور مائة سنة على معاركه مع الأمير وبالخصوص المعركة المشهورة بمعركة سيدي إبراهيم التي دارت رحاها قبل انتهاء حرب الأمير مع الفرنسيين بسنة وكلّفت خسائر فادحة إذ كان عدد القتلى يربو على المائتين كما صادف أن كانت قبيلة بني وارسوس محاصرة، وكانت قافلة عسكرية خرجت منها إلى تِمُشَنْتْ، فوقعت كلُّها في قبضة المجاهدين، وكان عدد الأسرى

(1) فهل هناك مثلا في البساطة والتواضع أن يحترف ملك لفت أنظار العالم إليه تعليم القرآن، أي مؤدِّب أو درَّار لولا قوَّة إيمانه.

كذلك يبلغ حوالي المائتين، وهذا هو مضمون انطباعات الأمير التي سجَّلها ونشرها الجنرال **أزان** الذي قال: «كاتب الأمير في 8 أوت 1838 لأحد أصدقائه بفاس ما يلي: إنَّ قضاء الحوائج يتوقَّف على الكتمان، إنه من المحقَّق أنَّ الفرنسيِّين يرغبون في الصُّلح معنا، ولم يطلبوه منَّا إلا لمصالحهم، فالله كفيل بقلب الأوضاع وبتكليل أعمالنا بالنجاح، كما نسأله تعالى أن يوحِّد بين المسلمين، كنَّا نريد أن لا نجيب رغبة الفرنسيِّين إلى الصُّلح لو لم نكن في حاجة أكيدة إلى العتاد والسلاح، فالله أسأل أن يسهِّل تزويدنا منه بإعانتكم » اهـ

وعلَّق الجنرال **أزان** على هذه الرِّسالة بقوله: «فهذا هو النظر الحقيقي في الصُّلح، لا كما اعتقده **بيجو** »، وبعد هجوم الدُّوك دورليان على **البيبان** بالقطاع القسنطيني لتمهيد الطريق بين قسنطينة وعاصمة الجزائر، تداخل الأمير لمنعه فاستأنفت الحرب بينهما في العشرين من نوفمبر 1839م ـ أي: بعد توقيع معاهدة تافنة بحوالي سنتَين ـ فكان هذا من الأسباب إلى نقض الصُّلح وتمزيق بنوده التي أثارت موجات استياء مِن عدَّة جهات لا يسعنا المجال لتتبُّعها، وإنَّما نذكر أنه لما أبرمت هذه المعاهدة طلبَ **بيجو** من الأمير ملاقاة ودية، فأجابه الأمير لرغبته وعيَّن مكان الموعِد الذي هو عِند مفترق الطريق الرَّابط بين الرَّمشي، وبني صاف، وطريق وهران، حيث نجد النَّصب التذكاري، وهذا النَّصب أقيم في محلِّ ملاقاة **بيجو** بالأمير بعد إبرام معاهدة تافنة، وليس هو ـ كما يعتقد ذلك كثير من الناس ـ محلّ إبرام المعاهدة، وقد كانت هذه الملاقاة هي الأولى التي اجتمع فيها الأمير بقائد فرنسي يتقمَّص مسؤولية عظيمة، وقد سُجل الحديث الذي دار بينهما، فكان أنَّ **بيجو** خاطب الأمير بقوله: «إنَّني جعلتُ نفسي كفيلا لك عِند ملك فرنسا »، فأجابه الأمير: «فسوف لا تندم على ذلك، فإنَّ ديننا وأخلاقَنا العربية تلزمنا أن نُحافظ على عهودنا»، ثمَّ قصد الأمير تلمسان وألقى فيها قصيدة رائعة، من جملة ما قاله فيها:

إلى الصّـون مـدَّت تلمسـان يـداها ولبّت فهـذا حسـن صـوت نـداها
وقـد رفعـت عنهـا الإزار فلـج بـه وبـــرّد فـــؤادا مـــن زلال نـــداها
وذا روض خـــدّيها تفتّـــق نـــوره فلا ترض من زاهي الرياض عداها

إلى أن قال:

وخابت ظنون المفسدين بسعيهم ولم تنـل الأعـداء هنـاك مناهـا
قد انفصمت من تلمسان حبالهـا وبانـت وآلـت لا يُحـلّ عراهـا

إلى أن قال:

ولما علمت الصدق منهـا بأّنهـا أنالتني الكرسي وحُزتُ علاهـا
ولم أعلمه في القطر غيري كافلا ولا عارفـا في حقّهـا وبهاهـا
فبادرت حزما وانتصارا بهمّتـي وأمهرتهـا حبـا شـفاء دواهـا

إلى أن قال:

ووشّحتها ثوبا من العـز رافـلا فقامـت بإعجـاب تجـرّ رداهـا
ونادت أعبد القادر المنقذ الذي أَغَثْتَ أناسا مـن بحـار هواهـا
لأنّـك أعطيـت المفـاتيح عنـوة فـزدني أيـا عـزّ الجزائـر جاهـا
ووهران والمرساة كلّا بها حوت غدَتْ حائِزاتٍ من حِماك مُناهـا

ذكرنا أنَّ معاهدة تافنة أثارت موجات غضب واستياء مِن طرف عدَّة شخصيات سياسية وعسكرية، وتتبَّعوا الداعي الذي أدى بيجو إلى إبرام هذه المعاهدة، وقد اكتشفوا أنَّ بيجو الذي كان منهمِكا في الانتخابات البرلمانية ببلاده وعجز عن تمويلها فاغتنم هذه الفرصة وارتشاه أعوان الأمير، وعلى كلِّ حال فإنَّ معاهدة تافنة هذه شغلت الفكر العام الأوربي بصفة عامة، والرأي العام الفرنسي بصفة خاصة، وهم ما

بين محبِّذ ومنتقِد، وكال كُلٌّ منهم لمخالفيه التهم التي من بينها قضيّة ارتشاء الأمير **لبيجو**، وكان من جملة الذين انتقدوا بيجو الكاتب المشهور (Leon Roche) الذي استخدمه الأمير 12 سنة، فقد علَّق عليها بما يلي: «إذا قدر في المستقبل لفرنسا أن تتعاهد مع رئيس مسلم، فلتعلم أنَّ هؤلاء المسلمين من سلالة البرابرة، الذين حاربوا الروم منذ ألفي سنة وحقدهم على الكافر لا زال كامنا في النفوس ولتراجع ـ أي: فرنسا ـ عقود الصّلح التي كانت تعقد في عهد الرومان، بينهم وبين البربر، ولتحذر من العقلية البربرية المصبوغة بالعقيدة الإسلامية».اهـ

هذه الخطوط العريضة من تاريخ معارك تافنة ومعاهدتها ذكرناها، وقبل الختام نذكر رأي أحد المعاصرين من المؤرّخين العرب الذي قال يصف الفترة التي أعقبت معاهدة تافنة ثمَّ نقضها واستئناف حرب الأمير مع فرنسا، فقال: «ولم تكد أواخر سنة 1841 تحلّ حتى أكره الأمير على إلتزام خطّة الدفاع في كلّ ناحية، وأخذ نطاق الاستعمار يتسع شيئا فشيئا،، وصار الأهالي يعربون عن تعبهم من طول المقاومة، وكان استيلاء الدُّوك دومال على الزمالة بطاقين (14مايو1843) ضربة أصيب بها الأمير من غير أن تفصم ظهره... إلى أن قال: «وضربت طنجة بالقنابل من البحر، ويكسب الجنرال بيجو الذي عيّن واليا عاما على الجزائر يكسب بيجو معركة ايسلى، ويدك الجنرال جوانڤيل حصون الجديدة ـ أي: التي كان يسميها الفرنسيُّون موقادور ـ ويطلب مولاي عبد الرحمٰن العفو من فرنسا، وحلَّت سنة 1845م، فاتَّقدت نيران ثورة الظهرة، فاستفاد الأمير مِن تلهي الفرنسيِّين بها، ولكنَّ الثَّائر أبو معزة الذي ثار بالظهرة أُكرِه على تسليم نفسه للفرنسيِّين بعد عِدَّة مغامرات، وكثير مِن الانكسارات، وكان الأمير عبد القادر في حرب الكر والفر التي ألجأته إليها الظروف يتردَّد المرَّة بعد المرَّة إلى المغرب لاستراحة الجيش وشراء الزَّاد والعتاد، وعند رجوعه بعد واقعة حرب المغرب مع بيجو طورد من كلِّ جانب، وألجأه المغرب بعد معارك عنيفة أن يسقط في الكمين

الذي نصبه له الجنرال لامورسيار، الذي سبق لنا الحديث عنه من أنه عند واقعة سيدي إبراهيم كان محاصرا لبني وارسوس، فاستسلم الأمير في نفس الموضع الذي أحرز فيه انتصارات باهرة ـ أي: سيدي إبراهيم ـ في 23 ديسمبر 1947 وهكذا طويت صفحات من البطولة دامت 15 سنة صمدت فيها فئة قليلة كان معظم قادتها من الفقهاء المتخرِّجين من معهد القيطنة البسيط، وقفت هذه الفئة في وجه جيش لدولة قويّة بلغت في عهدها من القوة والبأس والغنى، ما لم تضاهها أيّة دولة من دول العالم، وكان قادة جيشها الذين تدرَّبوا في مختلف ساحات الحروب بأوربا ومصر وآسيا مع نابليون الأوّل، لم يصمدوا في وجوههم فقط بل كانوا يكبِّلونهم الخسائر والهزائم الشَّنيعة، مثل هزيمة وادي المقطع، ثمَّ هزيمة سيدي إبراهيم وغيرهما.

هذه هي الصَّفحات التي سجَّلت أحداث هذا الوادي ـ أي: واد تافنة ـ الذي طبع معاهدة الأمير وفرنسا باسمه، هذا وإن كان هدف هذه المحاضرات التي اخترنا لها تاريخ الناحية الجهوي، وتاريخ هذه الناحية مفعم بالأحداث الجسيمة في القديم والحديث، أي قبل الإسلام وبعده، وما تحدَّثنا به عن معارك الأمير في هذه الناحية قليل من الكثير، إذ مجال هذه المحاضرة لا يسمح لنا بالتوسّع بأكثر مما اقتصرنا عليه، وغرضنا هو أن نلفت انتباه مثقَّفينا أنَّ بلادهم عاشت أحداثا عظيمة قلبت وجه التاريخ، وسجَّلت مواقف سكَّانها الأشاوس بمداد الفخر، إذ هذه الناحية هي التي أنجبت الملك الشهير عبد المؤمن بن علي الكومي الذي أسَّس دولة الموحِّدين، تلك الدولة التي اكتسحت في مدَّة قليلة كامل بلاد المغرب العربي، وبلاد الأندلس، ولازالت آثارها العمرانية والثقافية ملء الكتب، كما لازالت محلَّ اعتناء الكتَّاب والباحثين مِن مختلف الأديان والأجناس، فعلى الخلف أن يتذكَّر بأنَّ أسلافه خلقوا المعجزات حقا، قولا وعملا، وخلَّد لهم التاريخ الأمجاد والبطولات، ولم يكونوا في أيِّ وقتٍ مِن أوقات تاريخهم المجيد يعيشون على الهامش، فما على الخلفِ إلا أن يشمِّرَ على سواعد الجدّ، ويعتزَّ بماضيه، ويعمل ليكون خير خلف لخير سلف.

بعض معارك حاسمة
خلَّدها التاريخ في الغرب الجزائري[1]

إن من جملة ما امتاز به الدين الإسلامي هي فتوحاته المتوالية، وانضواء أمم قوية لعبت أدوارا في التاريخ الحضاري والثقافي عدة قرون، وبالضبط تمتد رقعتها ما بين بلاد الصين شرقا إلى بلاد الأندلس وجزء من فرنسا غربا، كل ذلك في مدة لا تجاوز القرن، وكان معظم الجيش الذي خاض غمار هذه الحروب قريب عهد باعتناق الإسلام، وحاول كثير من الباحثين أن يجعلوا أسباب الدخول في دين الإسلام خصوصا في إفريقيا الشمالية التي رغم بقاء دول أوروبا، كروما وكالبزنطيِّين عدَّة قرون فلم يعتنق سكان البلاد دين ملوكهم أي النصرانية وبقي السكان كما قال ابن خلدون « مرتبطين بالود والتعاون معهم، ويعينونهم في الحروب، فلم يعتنق النصرانية منهم إلا أقلية، أما الأكثرية فقد بقيت على حالها وعاداتها وتقاليدها إلى أن أتى الله بالإسلام »، هذا ما قاله ابن خلدون، وقد كتب كثير من الباحثين الفرنسيين وفي طليعتهم الكاتب الشهير جورج مارسي الأستاذ بجامعة الجزائر في عهده والمتخصص في تاريخ الآثار الإسلامية في كتابه: (Berberie) ردا على المؤرخين المدَّعين بأن الإسلام فُرِضَ بالسيف ولهذا أسلم جل سكان البربر، بعد الفتوحات فرد جورج مارسي عليه وبين اليهود والبربر، فقال: «لو كان هذا الزعم صحيحا لماذا بقي اليهود في المشرق والمغرب محافظين على ديانتهم»، وقد تناول هذا الموضوع كثير من الباحثين فبينوا أن الإسلام ليست ديانته مبنية على

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المحاضرة على نسخة مخطوطة تقع في (38) صفحة.

العنصرية أو الاستغلال، ولهذا بمجرَّد ما يعتنق الغير المسلم دين الإسلام فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وأيدوا هذه النظرية بحجج قوية لا تقبل الجدل.

هذا تمهيد كمدخل قدمناه لموضوع حديثنا الذي خصصناه لهذه الليلة من ليالي رمضان الذي زيادة على أنه ركن من أركان الإسلام فإنه شهر ذكرى الفتوحات الإسلامية وغزوات النبي ﷺ وأصحابه الذي وقع الكثير منها في هذا الشهر المبارك وفي طلائعها غزوة بدر وفتح مكة المكرمة، ولما كانت هذه الغزوات خصصت بتآليف قيمة في جميع البلاد بمختلف اللغات كانت انتصارات المسلمين في حروبهم سواء في عهد الرسول ﷺ ثم في عهد خلفائه تمتاز بالانتصارات الباهرة لفتت أنظار كثير من أصحاب السير ومؤرخي الحروب، إذ رغم ما تعرضت له البلاد الإسلامية شرقا وغربا من تدهور وانحطاط وتخلف حسي ومعنوي فقد بقيت آثار البطولة تتجلى في حروبهم إلى عهدنا الأخير، الذي طغت فيه الماديات والتقدم الصناعي، واخترت في سمرنا هذه الليلة بمنظمة المجاهدين أن أحدثكم كما يدل على ذلك عنوان هذه المحاضرة: **(معارك حاسمة خلدها التاريخ في حروب الغرب الجزائري)** خصوصا وأن البلاد تجندت للاحتفال بذكرى مرور ثلاثين سنة على اندلاع ثورة جبهة التحرير وعملا بالقاعدة التي تقول: ما لا يدرك كله لا يترك جله، والمثل العامي الذي فيه حكمة إذ يقول: «خلَّات رجلها ممدود، وراحَت تعزِّي في محمود »، فلنتحدث عن بعض المعارك الحاسمة خاضها الجيش الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي والاحتلال الاسباني وقبله في بلاد الغرب الجزائري بهرت مؤرخي الحروب الذين لا زالوا يتعهدونها ويخصصونها بالتآليف القيمة إذ الصبغة التي اصطبغت بها حروب المسلمين هي ترجع إلى الفداء الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا

عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ ﴾ (التوبة: 111).

ولنرجع قليلا إلى الوراء لنواصل حديثنا عن الأسباب الداعية إلى اعتناق سكان إفريقيا للإسلام بسرعة وسهولة، الشيء الذي لم يقع في عهد الرومان والبيزنطيين ولازالت هذه الأحداث الشائكة تثير البحث والجدل إلى يومنا هذا، كان الإسلام يمتاز عن من سبقه من الدول التي احتلت بلاد إفريقيا بتقدير سكان إفريقيا على اختلاف مذاهبهم العقائدية فأول دولة تكونت في الشمال الإفريقي بالجزائر هي دولة مغراوة التي كانت تنتمي إلى القبيلة البربرية من زناتة وكان موقعها يمتد من سهول مليانة إلى وهران فوقع أميرها ونزمار أسيرا عند الفاتحين فأرسل صحبة الأسرى إلى الخليفة عثمان بن عفان فأسلم على يديه فمنّ عليه الخليفة وأقره على حكم قبيلته فكانت دولة مغرواة هذه أول دولة إسلامية تكونت في الجزائر، وفي عهد هذه الدولة أسست مدينة وهران سنة 290 هجرية في عهد خزر المغراوي الذي كان مواليا لبني أمية ملوك الأندلس وقد لعبت دولة مغراوة هذه أدوارا في تاريخ الجزائر والمغرب إلى أن ظهرت الدولة العبيدية الفاطمية بـ إيكجان ـ جبال البابور ـ وارتاعت لها إذ ذاك خلافة بني العباس بالمشرق، ودولة بني أمية بالأندلس وبلاد المغرب الأقصى، وانتصرت للدولة العبيدية الفاطمية قبيلة صنهاجة البربرية وكان على رأسها إذ ذاك زيرى بن مناد وولده بلقين الذي أسس مدن الجزائر ومليانة والمدية، واحتفلت الجزائر سنة 1972 بذكرى تأسيس هذه المدن لمرور ألف سنة على تأسيسها.

وأعطت الدولة الفاطمية التصرف التام لقائدها زيري بن مناد وولده بلقين، وبعد توسع الدولة الفاطمية في فتوحات شرق البلاد، انتقل ملكها المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر حيث اتخذها مقر حكومته، وخلف على رأس بلاد المغرب، أي الجزائر

وتونس بلقين بن زيري وكان مركز بلقين بن زيري، بأشير قرب مدينة لمدية، ورغم ترك المعز لدين الله الفاطمي تونس والجزائر إلى بلقين وكان المقر الرئيسي للدولة الفاطمية مدينة القيروان التي بنى فيها الأغالبة القصور العديدة فلم ينتقل إليها بلقين بل بقي محتفظا بمقر أسرته في جبل أشير، وكان قبل انتقال المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر ليتخذها عاصمة دولته، وقعت حرب ضروس بين الفاطميين ومغراوة وكانت ملاقاة الجيشين إلى الفاطمي والمغراوي ما بين مدينة البطحاء وتيارت فانهزم جيش مغراوة شر هزيمة وكان بلقين هو قائد جيش الفاطميين وقد وصف هذه المعركة كثير من الكتاب والباحثين وفي طليعتهم عبد الرحمٰن بن خلدون. التجأ ما تبقى من أمراء مغراوة إلى المغرب وإلى الأندلس حيث كانوا موالين لملوك بني أمية وكان على رأس مغراوة زيري بن عطية الذي أسس مدينة وجدة ليواصل كفاحه والانتقام من بلقيس وقومه، رغم شيخوخته وهرمه وجروحه الخطيرة، هذه لقطات من تاريخ الغرب الجزائري ذكرناها باختصار كتمهيد لموضوع دراستنا وهي كما سبقت الإشارة إليها: **بعض معارك حاسمة خلدها التاريخ في بلاد الغرب الجزائري**، وحيث إن مجال هذا الحديث قصير فلنبدأ ببعض المعارك القريبة العهد:

الأولى: وقعت في أول عهد مقاومة الأمير عبد القادر بوادي المقطع إذ لما أبرم الأمير عبد القادر معاهدة صلح مع الفرنسيين إثر مبايعته ملكا، وكانت هذه المعاهدة مشهورة في التاريخ بمعاهدة دوميشال، اسم الجنرال دوميشال، الذي كان يحكم منطقة وهران، واتفقا على اتخاذ مدينة أرزيو مركز المبادلات التجارية ومقر سفيري الأمير وفرنسا فلم ترض هذه المعاهدة غلاة الاستعمار وكان على رأسهم المارشال بيجو فأمكنهم تبديل الجنرال دوميشال المذكور وعينوا مكانه أي حاكم منطقة وهران، الجنرال تريزيل وكان الجنرال تريزيل يعتقد أنه في أول معركة مع الأمير يقضي عليه ويشتت شمله فسارع إلى الاتصال بالقائد مصطفى ابن إسماعيل وكانت الملاقاة

بالكرمة فشجعه على التمرد، وعندما بلغ الخبر إلى الأمير وهو في مدينة معسكر عاصمة حكمه أرسل إلى الجنرال تريزيل ينذره ويذكر بأن فرنسا مرتبطة بمعاهدة دولية مع الأمير واتصاله وتجوله في مناطق حكم الأمير تعد خرقا للمعاهدة وسيتحمل وحده عاقبتها، فلم يلتفت إليه تريزيل بل واصل مسيرته إلى سيق فجاء الأمير مستعدا للملاقاة، وكانت المعركة الأولى قرب سيق (غابة مولاي إسماعيل) فحينئذ تبخرت أحلام الجنرال تريزيل وصار يفكر في الخروج من المأزق وهو الرجوع إلى مدينة أرزيو، فرجع على طريق مرسى الحجاج وكان جيش الأمير له بالمرصاد وكانت الملاقاة بواد المقطع فكانت نتيجتها أن خسر الجيش الفرنسي 600 قتيلا وجميع العتاد الحربي وفرّت بقايا الجيش المنهزم إلى أرزيو مذعورة واتفق المؤرخون والرؤساء العسكريون الفرنسيون أن الأمير تتبعهم إلى أن دخلوا أرزيو ولو شاء لأجبرهم بالتسليم وإلقاء ما بقي لهم من السلاح، وقد أدان الوالي العام بالجزائر الجنرال (Drouet Derlon) الجنرال تريزيل على تهوره الذي لا مبرر له اللهم إلا طموحه إلى نجمة زائدة.

ولنقف قليلا عند هذه المعركة التي سجلها المؤرخون بمزيد من البيان والتفصيل خصوصا في تقاريرهم الأصيلة الرسمية، كانت معارك الأمير مع الفرنسيين تمتاز من بدايتها إلى نهايتها بالذعر والهلع الذي يلحق الجيش الفرنسي.

ولما لم يسع المقام لتتبع كل هذه المعارك نكتفي بذكر آخر معركة وقعت بين الأمير والجيش الفرنسي قبل انتهاء الحرب بسنة واحدة وهي المعركة المعروفة في التاريخ بمعركة سيدي إبراهيم وقد وقعت في الكركور ضواحي مدينة مغنية، وهذه نبذة منها.

كان الأمير في أواخر عهده يلتجئ المرة بعد المرة إلى الدخول بجيشه إلى المغرب الأقصى للاستجمام ولشراء الأسلحة ثم يرجع لاستئناف حربه، وصادف في تلك السنة أي سنة 1847 أن الكولونيل مونطانياك (Montagnac) كان قائدا بمنطقة الغزوات

يتربص لاختطاف الأمير بمجرد رجوعه، وبالفعل رجع الأمير فلم يمهله الكولونيل مونطانياك بل هاجمه وكانت حربا ضروسا، فخسر فيها الجيش الفرنسي مائتين قتيلا ومثلهم أسرى وعلى رأس القتلى عدد من الضباط من بينهم قائد المنطقة الكولونيل مونطانياك، كانت هذه المعركة أي معركة سيدي إبراهيم هي آخر معركة دارت رحاها بين الأمير وبين الجيش الفرنسي، وقد أدان رؤساء الجيش الفرنسي، الكولونيل مونطانياك على تهوره وافتراضاته الخاطئة وقد خصصت معركة سيدي إبراهيم هذه بدراسات قيمة كشف فيها الغطاء عن كثير من الأسرار شوهت فيها الحقائق وكان آخر ما وصلنا من هذه الدراسات تأليف ألفه الجنرال أزان (Azan) الذي كان عضو أكاديمية التاريخ كتبه بمناسبة مرور قرن على هذه المعركة أي سنة 1947م، ولما كان الشيء بالشيء يذكر فلنضف إلى معركتي الأمير بالمقطع وسيدي إبراهيم معركة ثالثة لها أهمية عظمى، وذلك أن الأمير انسحب بعد معركة سيدي إبراهيم هذه إلى المغرب وصادف أنه وقع خلاف بين المغرب وفرنسا أداهم إلى حرب، فهزم فيه الجيش المغربي شر هزيمة فأعقبت هذه المعركة معاهدة صلح مشهورة في التاريخ بمعاهدة طنجة وكان الذي مثل فيها فرنسا الجنرال (Bugeaud) فكان أول بنود هذه المعاهدة هو التزام ملك المغرب أن يخرج الأمير عبد القادر من التراب المغربي، وبالفعل وقع ما اشترطه الجنرال بيجو إلا أن طرد الأمير عبد القادر خلقت له أسباب ومبررات لا يسع المقام لذكرها، وإنما دافع الأمير وأصحابه دفاع الأبطال وبرهنوا على أن الفداء الفردي والجماعي ليس مجرد ادعاء، إذ حكى الشيخ الناصري صاحب كتاب: (**الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى**) صفحات بطولية نادرة المثال ثم خصص هذه المعركة الشاعر الشعبي الشهير بالمطر بقصيدة بليغة مؤثرة وهذه بعض الأبيات هي زيادة على وصف المعركة لم يغفل الشاعر عن الدسائس التي حيكت للأمير في معاهدة ملك المغرب مع الجنرال (Bugeaud).

قال الشاعر الشعبي أي المطر يخاطب جيش الأمير الذي كان أفراده يعرفون بالخيالة:

زلـتكم فـوق الزلـة آلخيالـة حاكم فاس أعلاه وباه قـتلكم

معناها فوق المحنات محنتكم

نطحـت نطـح أزغـالا آلخيـالا راحت ذيك الـدنيا راهبـة مـنكم
منكم مـا قعـدت رجـلا آلخيـالا باقي الغول هنايا عاشر اوطـنكم
صـادق شـينين الحالـة آلخيـالا أصـحبهم ولّاوْا ايقـاتلو فـيكم
حـاكمهم قـاع للكمـلا آلخيـالا يغدوا مـن وطنـي والا نعـاديكم
جاب افزوعه قاع كالحملة آلخيالا ذا كـالبر وهـذا دايـر بكـم
مـن قـدام ومـن رولـة آلخيـالا قـالوا لي غـاشي قـوة افـزع لكـم
متـوا كامـل بالجملـة آلخيـالا اهتز العرش العـالي أبكـى مـنكم
مـا دفنـوكم رجـالا آلخيـالا مـا هشـموني نـدابات بابكـاكم
جبريـل علـيكم صـلى آلخيـالا رحتـو غربـا وانـتما بمـواليكم
متـو في وجـه المـولى آلخيـالا يـا قـوم العـدنان الله يـرحمكم

فراش

حـاكم فـاس اشريـف احقيـق واعمـل هـاذي مامنهـاش
اطعـن الشـوك وخـلى الطريـق مثـل الي مـا يعرفهـاش
قلنـا ذا سـلطان امطيـق وثرنـه قلبـو مغشـاش
ارجـع للـروم اصـديق قـال اهنايـا مـا يبقـاوش
نحـرقهم بـالحرب احريـق والـو فـيهم مـا نهـداش

هذا قال اعدونا ڤاع وعدوكم

جـاب ادشـور مـع النزلـة آلخيـالا من سوس لوجدة الاسـلام غشـوكم

تقبو فيكم شعالة آلخيالا   قالوا لي ابن يحي طايح احذاكم
منكم هذا الوطن اخلى آلخيالا   ما شيب راسي لكان مرسمكم
دمعة عيني هوطالا آلخيالا   راني نبكي دايم عايد احزنكم
منكم ماني في حالة آلخيالا   كي الأبرار العشرة ظاهر اشناكم
أهل امحاصن تَتْلَالَا آلخيالا   اللبسة الزينة والسروج طبعوكم
أهل امكاحل تتلالى آلخيالا   ڤاع الناس اتحير في اغزاوتكم

فراش

حاكم فاس أعلاه وباه   يعمل هذا المظلمة
قاتل جيش رسول الله   شوفوا معتاها عظمة
عادى مولاه وباباه   ما ڤعدت عنده حرمة
جاب الغيض امقام أشراه   في سقر الحطمة

غدوة في يوم الميعاد يلقاكم

قدّام الله تعالى آلخيالا   تشرعوه المولى شاهد عليكم
ما تحضر عندو حيلة آلخيالا   قدام الناس أنتما ايخلصكم
ضربة مطبوع الحالة آلخيالا   ولد الزهرة في الميدان يندّهكم
يوكد يوم أن تسلاّ آلخيالا   يقتل بالعشرة وبوكد ابكركم
يعمل كالسّيد العلا آلخيالا   في عدنان الله هو ايفرّجكم

ولنضف إلى هذه القصيدة بعض أبيات من قصيدة الشاعر الشعبي المشهور مصطفى ابن إبراهيم قاضي مدينة سيدي بالعباس إثر الاحتلال الفرنسي، الذي نفته الحكومة الفرنسية إلى المغرب الأقصى وأقام بمدينة فاس وقد ضاق فيها ذرعا واطلع على حقائق خديعة ولي عهد ملك المغرب مع الأمير عبد القادر وجيشه فقال في قصيدة

عصماء هذه بعض الأبيات منها:

صبري كي قلبي أنـا ويـن الـبلاد   راني اليـوم مـا نعـرف لاويـن أنـا
تاڤوا جبال الغيم التبسـوا السـواد   كم من قنـاق مـن فـاس لتمسـان
يومين للزفيزف سيرة فوق العيـاد   مركاح سـلطاني معـروف اريعانـا

إلى أن قال:

اعـــلاه ســـاكنة يـــا عينـــي   بـــالله والشـــرع نـــدعيك
أبكـــى عـــلى الـــوطن واحـــزني   مـــن ســوى العـــرب مـــا يغويـــك
بركـــاك مـــن جليـــب المعـــاني   في كـــل يـــوم ذيـــك أوذيـــك
سلطان خانهم وغدرهم ذوك الأجواد   عـلى أحكـام عبـده ولـد المصـنانا

كانت الخديعة التي يعنيها الشاعر مصطفى بن إبراهيم محاطة بالكتمان والغموض وهو ما اشترطه الجنرال بيجو في معاهدة طنجة السابقة الذكر التي لم تظهر إلا بعد سنين وعندما قاوم الأمير عبد القادر الجيش المغربي مقاومة الأبطال كما ذكر ذلك الشاعر الشعبي بالمطر، كان الأمير قاصدا الدخول إلى الجزائر فدبر له الجيش المغربي كمينا قرب وادي ملوية باتفاق مع الجيش الفرنسي المرابط في الجزائر فأعد عدته لإلقاء القبض على الأمير وهذه هي الخديعة العظمى التي كانت سببا في استسلام الأمير عبد القادر وقد أيدها كثير من المؤرخين، إذ نشرت تلك الأحداث والأمير نفسه الذي كان يتبادلها مع الأسقف دبيش (Dupuch)، وقال: إن سبب إنهائه للحرب هو شفقته على قومه الذين لم تبق لهم طاقة على متابعة الحرب وإلا لكان رغم الكمين الذي دبره ملك المغرب مع السلطات الفرنسية عند مضيق وادي ملوية إذ كان يمكنه بسهولة أن يفلت من بين أيديهم ويلتحق بالصحراء حيث لا يبخلها أهلها من مقاسمة أقواتهم التي هي حبات تمر.

ولإتمام موضوع هذا البحث ننقل فقرات مما كتبه الناصري مؤرخ الدولة المغربية الرسمي الذي وصف مراحل هذه المعركة في كتابه (الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى) إذ كان نزيها واقعيا في تسجيله هذه النهاية المؤلمة قال الناصري بعدما وصف بداية المعركة بين الجيشين، أي جيش الأمير عبد القادر من جهة وجيش ولي عهد ملك المغرب من جهة أخرى فقال: إن الأمير عبد القادر عمد ذات ليلة إلى طائفة من جنده نحو الخمس عشرة مائة على ما قيل كلهم بطل مجرّب، انتقاهم انتقاء وكان جيش الخليفة أي ولي عهد ملك المغرب منقسما إلى قسمين، بعضه معه وبعضه مع أخيه، فصمد الحاج عبد القادر إليهما بتلك العُصبة، الذين هم فتيان الكريهة، ومساعير الهجاء، وجمرات الحرب، طالما شهد بهم الوقائع، وخاض غمرات الموت مع الفرنسيس، إلى أن قال: ... فهلك من المحلتين، أي: المغربيتين بشر كثير، وأما الأمير عبد القادر فإنه فرّ في أصحابه بعد أن حملوا الكثير من موتاهم معهم، ولما أصبح الناس وتفقدوا حالهم، وجدوا فيهم من الجرحى نحو الألف ومن القتلى ما يقرب من ذلك، وأصبح حول المحلة من قتلى أصحاب الأمير عبد القادر الذين أجهضهم القتال نحو الخمسين، وأسروا نفرا أحياء فشاهدوا طمأنينتهم عند القتل ما قضوا منه العجب ووجدوا عليهم كسى رفيعة مطرزة بالصقلي والحرير ونحو ذلك ...

ولنقف وقفة قصيرة للعبرة من هذا الوصف الرائع الذي أثبته مؤرخ الدولة المغربي الذي أحصى عدد الجيش الجزائري الذي انتقاه الأمير بنحو المائة والخمسين فردا هاجم بهم المحلتين المغربيتين على حين غفلة وكانت الليلة مظلمة وانسحب جيش الأمير وبقيت المعركة مستمرة بين المحلتين المغربيتين فكانت نتيجتها أن وصل عدد القتلى ألفا وعدد الجرحى ألفا وزيادة، أما صبر الخمسين جنديا الذين نفد فيهم حكم الإعدام وقال فيه المؤرخ الناصري: «وأسروا نفرا أحياء فشاهدوا طمأنينتهم عند القتل ما قضوا منه العجب ... الخ ».

وقد ذكر المؤرخ المغربي الناصري لدى وصفه المعركة الأولى والتي تعرض لها

الشاعر الشعبي بالمطر قال: إن كثيرا من جنود جيش الأمير عبد القادر إذ كانوا أقلية بالنسبة إلى جيش الملك المغربي الذي كان يفوقهم حوالي أربع مرات ومع ذلك لم يهنوا ولو يولوا أعداءهم الأدبار بل ثبتوا في مواضعهم، والذي أثبته المؤرخ المغربي الناصري المتقدم الذكر أن جنود الأمير عبد القادر عندما كان يحوط بهم الثلاثة والأربعة أعداء فيدافعون إلى آخر رمق، وعندما يحسون أنهم سيقعون في قبضة الأسر فينتَحرون بسيوفهم، وقد خصص المؤرخ المغربي صفحات بطولية قام بها جيش الأمير في هاتين الملحمتين اللتين قلَّت نظائرهما في تاريخ الحروب، وعلى كلٍّ هذه المواقف البطولية كثيرة في تاريخ الحروب الإسلامية من عهد الفتوحات وهي مستمدة من الفداء، والفداء كما عرفه كثير من الباحثين المسلمين أصله من الكتاب والسنة: أما الكتاب فقد سبق لنا ذكره، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ (التوبة: 111)، أي سواء قتلوا ورجعوا أحياء أو قتلوا، ولهذا ذهب بعض الصحابة إلى أن كل مؤمن له بيعة في عنقه فإنه بايع الله على القتال في سبيل الله وجزاؤه الجنة، وقد ذكر الإمام أبو عبد الله محمد الحضرمي الأندلسي في تأليفه **(الفرائد المرويات في فوائد الثلاثيات)** ـ أي: ثلاثيات الإمام البخاري ـ ذكر ذلك في حديث يتصل بالصحابي الجليل سلمة ابن الأكوع الذي قال: «بايعت رسول الله ﷺ ثم عدلت إلى ظل شجرة، فلما خف الناس قال: يا ابن الأكوع ألا تبايع، قال: قلت قد بايعت يا رسول الله، قال: أيضا، فبايعته الثانية، فقلت: يا أبا مسلم على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت. وقد قام الصحابة الكرام رضي الله عنهم بأعمال فدائية جريئة في عهد النبي ﷺ، وبأمر منه، فهي سنة عملية من سنن الإسلام. فمن هذا يتبين لنا أن العمل الفدائي مشروع كتابا وسنة وإجماعا وهو نوع من الجهاد الذي حظّ عليه الشَّرع ورغب فيه عينيا

على مسلم وأن القائمين به يعدون من السابقين الأولين المستحقين المدح الذي خص الله به سلفهم في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد: 10).

أين مات بابا عرُّوج؟[1]

ممَّا لا شكَّ فيه، وكاد أن يكون محلَّ اتِّفاق بين المؤرِّخين أنَّ احتلال مدينة وهران من طرف الحملة الصَّليبيَّة التي شنَّها الملك (**شارلكان**) على بلاد المغرب العربي كان ردَّ فعل لاحتلال المسلمين بلاد الأندلس، كما أنَّ توقيف هذه الحملة يرجع فضله لمواقف عرُّوج وإخوته في الميدان.

وما دام الحديث يتعلَّق بـ (**عرُّوج**) فلنقتصر على موقفه الشَّخصي دون التَّعرُّض للتّفاصيل، اللهمَّ إلاَّ فيما يخصُّ توضيح ما أشكل منها، ومن ذلك أنَّ عرُّوج سبق له عندما كان أسطوله يجوب البحر الأبيض المتوسط الخروج خفية إلى بعض شواطئ الجزائر، والاجتماع بسكَّانها، ومن بين الوثائق التَّاريخية الأصيلة التي تعرَّض أصحابها لتسجيل بعض اتِّصالات عرُّوج، ما كتبه العالم عبد الرَّحمٰن الصَّبَّاغ القلعي في تأليفه الذي خصَّصه لترجمة الشَّيخ أحمد بن يوسف دفين (**مليانة**)، المسمَّى: (**بستان الأزهار في مناقب أولياء الله الأخيار**)، قال: إنَّ عرُّوج خرج مرَّة مرتديًا ثياباً محلِّية إلى مدينة (**كريشتل**) ـ قرب وهران ـ فلاحظ شخصاً مهاباً محاطاً بجمع غفير من مواطنيه، فسأل عنه، فقيل له: إنَّه شخصيَّة دينية مغضوب عليها من طرف ملك البلاد، فحينئذ قصده صحبة مترجمه.

والذي يهمُّنا من هذه الرِّواية في موضوعنا هذا، هو الدَّليل على أنَّ عرُّوج كان يتَّصل ببعض سكَّان المناطق الجزائرية خفية.

---

(1) **جريدة الجمهورية**: الأحد 26 جمادى الثَّانية 1408هـ/ 14فيفري 1989م، ص: 3.

ولنذكر ـ ولو بإيجاز ـ حالة البلاد الجزائرية إذ ذاك، ففي القطاع الغربي كانت مدينتا (**وهران**) و(**تلمسان**) تحت حكم صوري لدولة بني زيان الهزيلة، ويسيطر عليها رؤساء قبيلتي (**سُويد**) و(**بني عامر**) الهلاليَّين، أمَّا مدينة (**الجزائر**)، وسفح (**متِّيجة**)، فكان يحكمها أفراد قبيلة الثَّعالبة العربية.

وكانت مدينة (**بجاية**) تحت حكم بقايا الدَّولة الحفصيَّة، وكان التَّصرُّف للقبيلتين المشهورتين (**آل المقراني**) بالقبائل الصُّغرى، وقاعدة الحكم (**مجَّانة**)، وأمَّا القبائل الكبرى فكانت تحت تصرُّف **آل أحمد** ابن القاضي الزَّواوي، وقاعدة الحكم جبل كوكو.

فحينئذ ظهر في الأفق أسطول الأخوين (**عرُّوج**) و(**خير الدِّين**)، فاتَّصل به أحمد بن القاضي وبن التُّومي رئيس قبيلة الثَّعالبة التي كانت مدينة الجزائر تحت تصرُّفها.

اتَّصل هذان الرَّئيسان بـ (**عرُّوج**) عندما كان بمدينة (**جيجل**)، وقد تعرَّض كثيرٌ من المؤرِّخين لهذه القضايا، وأدان بعضهم(**عرُّوج**) ورموه بالطُّغيان والجبروت عندما قتل بيده ابن التُّومي، وكذلك ابن القاضي، كما قتل نخبة من أمراء بني زيان.

والحقيقة أنَّ (**عرُّوج**) رجل وقائد حرب كان يُقدِّر المسؤولية الملقاة على عاتقه، فعندما شاهد أسباب تدهور أحوال البلاد وانحطاطها، وكان حكَّامها وأمراؤها يصدق عليهم ما وصف به الشَّاعر العربي ملوك الطَّوائف بالأندلس:

ألقـاب مملكـةٍ في غَـير مَوضـعِها كالهرِّ يحكي انتفاخًا صَولةَ الأَسدِ

لقد غيَّر المنكر بيده لخبر يطول، تعرَّضَ إلى نُبَذٍ منه بعض مؤرِّخي تلك الفترة، فكان حكمه بالإعدام على أمراء (**تلمسان**) من بني زيان وأنصارهم، وقيل إنَّه أمر برميهم في بحيرة لا زالت آثارها بـ (**تلمسان**).

ولَّما بلغ الخبر إلى قائد الجيش الأسباني بـ (**وهران**)، جهَّز خفية فَيْلَقًا للانتقام منه،

فلحق بـ (عرُّوج) الذي كان يتوقَّع ما عزم عليه الجيش الأسباني، فاختار الانسحاب إلى المغرب الأقصى، ....وكانت الملاقاة بـ (**جبل بني موسى**) بـ (**بني زناسن**) ... فلم يسع (**عرُّوج**) إلاَّ خوض المعركة التي استشهد فيها ...

هذه الرِّواية التي اعتمدها المؤرِّخ أبو راس، وأيَّدتها بعض الوثائق، هي التي أردتُ تحقيقها في هذا المقال، ولمَّا كان التَّاريخ كما يقال وثائق وحقائق، وسبق لي أن تعرَّضتُ لدراسة هذه النُّقطة مراراً في بعض ملتقيات الفكر الإسلامي وغيرها من الملتقيات داخل الجزائر وخارجها، كنتُ أؤيِّد وأعتمد رواية (**أبي راس**) النَّاصري المحقِّق.

كما أذكر أيضًا أنَّ المرحوم الأستاذ عبد الحميد ابن أشنهو التِّلمساني الذي عاش بالمغرب موظَّفًا ساميًّا، وألَّف عدَّة تآليف في تاريخ الجزائر بالفرنسية، ثمَّ انتقل إلى الجزائر بعد الاستقلال، وشغل وظيفة مدير للجريدة الرَّسمية، وكان عضوا في (**المجلس الإسلامي الأعلى**) تعرَّض لهذه القضيَّة وذكر الرِّوايتين، أي: موت (**عرُّوج**) بـ (**بني زناسن**)، وفي (**وادي المالح**)، وأيَّد رواية موته بـ (**بني زناسن**)، وذلك في ملتقى الفكر الإسلامي المنعقد سن 1975م بـ (**تلمسان**).

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أشكر صاحب المقال (**مصطفاوي**) الذي أعاد إلى ذهني عندما استدلَّ بما نشرته (**المجلَّة الإفريقية**) في عدديها الصَّادرين سنة 1859م، و1858م، اللّذين نظرتا إلى نشر ما يتعلَّق باستشهاد (**عرُّوج**)، وقد أعاد هذان العددان من (**المجلَّة الإفريقية**) إلى ذاكرتي أنَّ العدد الثَّاني المؤرَّخ سنة 1878م فيه ردٌّ على ما نشر في العدد المؤرَّخ سنة 1858م، الذي ذهب إلى أنَّ (**عرُّوج**) استشهد في نواحي مدينة (**وادي المالح**) في العدد، وقد ردَّ عليه كاتب المقال في الموضوع المؤرَّخ سنة 1878م.

كما أذكر أنَّ صاحب هذا المقال المثبِت الاستشهادَ بـ (**جبل بني موسى**) ـ المغرب الأقصى ـ قال إنَّ قائد الفرقة الأسبانية التي خاضت المعركة مع (عرُّوج) وقتل فيها،

نال وساماً من طرف حكومة أسبانيا، جزاءً لشجاعته، ومن جهة أخرى فإنَّ رواية **أبي راس النَّاصري** حجَّة لها الأولويَّة والأسبقيَّة على غيرها من روَّاة العهد العثماني، [فهو] الذي خصَّصه بعدَّة تآليف، ويُعدُّ شاهد عيان لتلك الفترة من بدايتها إلى قرب نهايتها، وإنَّ معظم تآليفه التي تتعلَّق بتاريخ تلك الفترة نشرت بعد ترجمتها إلى اللُّغات الأجنبية، ونشرت بأمَّهات المجلاَّت التَّاريخيَّة، كـ (**المجلَّة الإفريقية**)، و(**المجلَّة الأسيوية**)، كما ترجمت منظومته (**السِّينية**) التي قدَّمها للفاتح العظيم محمَّد عثمان باي، الفاتح لـ (وهران) تحت حكم الأسبان حوالي ثلاثة قرون.

إلحاق[1]:

أثار موقع استشهاد عرُّوج بجبل بني موسى بقبيلة (**بني زناسن**) في الحدود الجزائرية المغربية ضجَّة، وذلك أنَّ منظَّمة حزب جبهة التَّحرير بـ (**تِمُشَنْتْ**) دعتْ إلى إحياء ذِكراه حيث كانت هناك رواية ...(ضعيفة) تُشير إلى أنَّ عرُّوج استشهد قرب وادي المالح، ولاية (**تمشَنْت**)، والحقيقة أنَّه استشهد كما ذكره المحقِّق المؤرِّخ محمَّد أبو راس، وقد شاركتُ في هذه الذكرى مُثبِتًا ما قاله أبو راس، ومن الصُّدف أنَّني يوم أرسلتُ مقالي إلى (الجمهورية) 15/ 12/ 87م عثرتُ على صفحة كنتُ سجَّلتُ فيها قضيَّة عرُّوج، وبعبارة أصحّ ترجمة حياته، في مسلسل بـ (**إذاعة الجزائر**) سنة 1946م، تحت عنوان: العواصم العلمية المندثرة في الجزائر، خصَّصتُ مدينة تلمسان بعدَّة محاضرات، فلمَّا عثرتُ على هذه الوثيقة، إذ كنتُ أجهل تفاصيلها ، وغاب أكثرها عن الذَّاكرة، فألحقتها بالمقال لِتنشر معه إنْ نشروه.

(1) نقلنا هذا (**الإلحاق**) مِن كناش للشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى).

لقطات من تاريخ منطقة جبل الأَوراس الثَّقافي والحضاري[1]

إِنَّني بمناسبة انعقاد الملتقى الثاني عشر للفكر الإسلامي بمدينة **باتنة** قاعدة الأوراس، تناولت تاريخ منطقته بدراسة مستقِلَّة كنتُ أعددتها للنشر بـ : (**مجلَّة الأصالة**) التي خصَّصت لهذا الملتقى عددا ممتازا، ضمَّنتُ هذه الدِّراسة جوانب من تاريخ المنطقة في المجالات البطولية والسياسية مِن بداية الفتوحات الإسلامية، ثم أضفتُ لها صفحاتٍ من التاريخ الثقافي الذي يتجلَّى في تراجم نخبة من علماء البلاد، كتِب لآثارهم الخلود، وإنني عزَّزتها بهذه الدراسة لأواصل فيها البحث عن التاريخ الثقافي والحضاري لهذه الناحية كما يدلُّ عليها العنوان، وأركِّزها على بحثَين قيِّمَين لمستشرقَين مُعاصِرَين خصَّصاهما لجوانب من تاريخ هذه الناحية، كما أغتنمُ الفرصة لإعطاء صورة مصغَّرة من تاريخ **الأوراس** في المجالات الثقافية والحضارية إلى عهدنا الحاضر، إذ تاريخ هذه المنطقة مفعمٌ بالأحداث المرتبطة بتاريخ البلاد العام، ولذا نجد كثيرا من الباحثين والمؤرِّخين ـ مسلمين وأجانب ـ لا زالوا معتنين بهذه المنطقة التي تركت بصمات أصابعها في التاريخ العالمي، إذ في ربوعها دارت رحى حروب الفاتحين، واحتفظ التاريخ بكثير من معالمها، ومن ذلك موقع استشهاد نخبة منهم، كان في طليعتهم **عقبة بن نافع الفهري**، ومع هذا فإِنَّ التاريخ الثقافي والحضاري لهذه الناحية لم تعط له الأهمية التي يستحِقُّها، مع أنه لا يقلُّ شأنا عن التاريخ البطولي السياسي.

---

(1) ملتقيات الفكر الإسلامي الثاني عشر، 1978م، باتنة، ج1، ص71-79.

وإنني إن اخترتُ دراستَي المستشرقين اللَّذَين أشرتُ إليهما في دراستي المتقدِّمة الذِّكر، فلأنهما تلقيانِ أضواءً على صفحاتٍ لها صِلة بتاريخ الأدب العربي والسياسي العام، ولا زال يكتنِفه الغموض، وإننا علاوةً على ما نستفيده من هاتين الدراستين في موضوعيهما فإننا من جهة أخرى نقيم الدليل على حيَوية هذه المواضيع التي لقيت الإهمال مِن المواطنين، إن لم يكن عقوقا وجحودا، إذ الكثير منهم يرى الاشتِغال بهذه الدِّراسات يتنافى مع حياة العصر، والاشتغال بها ينمُّ على الرَّجعية والتَّخلُّف وما إلى ذلك، ثمَّ إن كثيرا من هذه الدِّراسات لا تَصِل بسهولة إلى القرَّاء، إذ يعدُّها أصحابها لمناسباتٍ خاصة، فطبع منها كميات قليلة تعدُّ بالمئات، وبغير اللغة العربية، مثل هاتَين الدِّراستَين كما سنبيِّنُ ذلك.

وقبل أن أُواصِلَ الحديث عن الدِّراستَين المذكورتَين أرجع إلى الحديث المجمل لتاريخ المنطقة الثقافي والحضاري الذي أشرتُ إليه في تقديم هذه الدِّراسة.

اشتهرت هذه المنطقة ابتداء من القرون الأولى التي أعقبت الفتوحات الإسلامية بعلماء أجِلَّة ساهموا في التاريخ الثقافي، أمثال: **نعمان بن منذر المجاني**[1] الذي عاصر الفقيه **سحنون** المالكي المشهور، وعرض عليه **سحنون** القضاء فامتنع، كما نجِد من هذه الطبقة **إسحاق بن عبد المالك الملشوني** الذي ترجمه صاحب: **(طبقات علماء إفريقيا)**، وقال: «فقيه له معرفة بالتاريخ، أخذ عن أبيه ومشايخ بلده ثم انتقل الى القيروان فأخذ عن **سحنون**، وكان نديما لـ : **محمد بن الأغلب** (ملك إفريقيا)، وهذا دليل على أن ملشونة كانت دار علم في وقت مبكَّر حيث أخذ قبل التِحاقِه بعاصمة القِطاع الغربي للخِلافة الإسلامية، أخذ عن والده وعن مشايخ بلده »، وقد نال مترجمنا في عاصمة

(1) **مجانة**: مدينة شهيرة ذكرها المؤرخون والرحالون، واتَّخذها أمراء **آل مقران** قاعدة إماراتهم بعدما فارقوا إماراتهم الأولى **قلعة بني عباس**.

البلاد إذ ذاك مكانة مرموقة، حيث كان من مستشاري الملك **محمد بن الأغلب** في وقت كانت **القيروان** تزخر بالعلماء، كما اشتهرت من مدن هذه المنطقة القاعدة الثانية للخلافة إذ ذاك **طبنة** و**باغاية**، فمِن علماء طبنة **محمد بن الحسين الطبني** الشاعر الأديب الذي ترجمه **ابن بشكوال** وقال : «إنه ولد بـ : **طبنة** سنة 300 أو 303هـ ودخل الأندلس سنة 323هـ »، ثم قال **ابن بشكوال**: «ولم يصل إلى الأندلس أشعر منه »، وهذا دليل على أنه قرأ ببلده قبل هجرته إلى الأندلس، ونجد كثيرا من أدباء وعلماء طبنة هاجروا إلى الأندلس واشتهروا ببني الطبني، أما **باغاية** (1) فإننا نجد من مشاهير أدبائها وفقهائها **أحمد بن علي الربعي الباغاني** الذي ترجمه **ياقوت الحموي** في **(معجم البلدان)** عند تعريفه لـ : **باغاية،** فقال: «باغاية مدينة كبيرة في أقصى افريقية بين مجانة وقسنطينة ينسب إليها **أحمد بن علي الربعي الباغاني** المقرئ، يكنى **أبا العباس،** دخل الأندلس سنة 376هـ وقدِّم للإقراء بالمسجد **الجامع بـ : قرطبة،** واستأذنه **المنصور محمد بن أبي عامر** لـ : ابنه **عبد الرحمٰن،** ثم عتب عليه فأقصاه، ثم رقَّاه **المؤيد بالله هشام بن الحكم** في دولته الثانية إلى خطة الشورى بقرطبة ... »، إلى أن قال: «وكان من أهل العلم والفهم والذكاء، وكان لا نظير له في علم القرآن على مذهب **مالك،** وتوفي سنة 401هـ، ومولده بـ : **باغاية** سنة 345هـ » اهـ .

من هذه النماذج نرى أن هذه المنطقة أنجبت وكونت طبقة من العلماء، فرضوا قيمهم بعواصم الدنيا التي كانت آهلة بفحول العلماء أمثال قرطبة والقيروان.

ولننتقل إلى نبذة من تاريخ المنطقة الحضارية فنذكر ما نشره الترجمان الرائد الفرنسي **فيرو** (2) الذي كان بحكم منصبه جمع ما تبقى مِن الوثائق التاريخية لهذه المنطقة

---

(1) **باغاية**: هي التي حاصر فيها الفاتحون جيش الروم وأنصاره، ودامت مدة.

(2) (Ct. Ferand): نشر عدَّة مسلسلات نقلها من أصلها العربي، منها: **كتاب تاريخ بجاية**.

وترجمها إلى الفرنسية، ثم نشرها مسلسلة بـ (**المجلة الإفريقية**) التي كانت تصدر بالجزائر، ونقلنا ما يهمُّنا في موضوع دراستنا، وهو مقال نشره تحت عنوان: (**بين سطيف وبسكرة**)، في عدد المجلة المذكورة بتاريخ فبراير 1860م، قال يصف مدينة **نقاوس**: «كانت توجد فيها عيون دافقة، وأشجار يانعة، وكان بها مسجدان، الأول يسمَّى: **جامع سيدي بلقاسم بن جنان** بوسط المدينة، وهو مبني بالحجارة القديمة المنحوتة، وكذلك سواريه، وعلوُه سبعة أمتار، أما المسجد الثاني فهو **مسجد سيدي قاسم**، ويعرف بـ : **جامع السبعة رجال** أو **السبعة رقود**، ويوجد هذا المسجد شمال المدينة، ولا زالت بعض سواريه عليها نقوش رومانية».

ثم واصل **فيرو** حديثه فقال: «يوجد بالمسجد ضريح مؤسِّسه **سيدي قاسم**، وعلى شاهد قبره الكتابة التالية: هذا قبر الوالي الصالح المبارك **سيدي قاسم بن** الشيخ الولي الصالح **حسين بن محمد بن** الشيخ سيدي الحسين، توفي يوم الأربعاء ثمانية وعشرون خلت مِن المحرم فاتح ثلاثة وثلاثين بعد الألف».

ثم ذكر **فيرو** أنه يشاع عند سكَّان **نقاوس** أنَّ **سيدي قاسم** هذا أصله من بلاد **الحضنة** وورد على **نقاوس**، وقد احتفظ المسجد بجفنه عرضها متر ونصف، وعلوها 25سم، وسمكها 15سم، كان يستعملها طلبة المسجد الذين يبلغ عددهم خمس مائة طالب» اهـ.

إن هذه التفاصيل لها أهميتها عند دارسي التاريخ الثقافي والحضاري، فهي تفيدنا بأن الثقافة كانت منتشرة، إذ أحصي عدد طلبة المسجد الواحد خمس مائة، كما أن تموين الطلبة متشابه في معظم بلدان الوطن.

كما ذكر **فيرو** أن بالمسجد المذكور ضريح الحاجة **رقية** والدة **باي قسنطينة** الشهير، الحاج **أحمد** الذي قاوم الاحتلال الفرنسي، وغادر مدينة **قسنطينة** إلى **نقاوس** التي اتخذها مركزا حربيا للمقاومة، وفي إقامته بـ: **نقاوس** توفيت والدته الحاجة **رقية**

المذكورة، فدفنها بالمسجد المذكور قرب الضريح المنسوب للسَّبعة رجال.

ثم ذكر **فيرو** أنه اطلع على وصف المؤرِّخ الإسباني **مارمول** لمدينة **نقاوس** الذي قال فيه: «إن مدينة **نقاوس** كانت غنية آهلة بالسكان، وبها مساجد ومدارس ومساكن جميلة، وحدائق غنَّاء ... الخ ».

ثم واصل **فيرو** مقاله معلِّقا على **مارمول** بقوله: «لم يبق من هذا كلِّه إلا موقع المدينة الجميل، والمسجدان المذكوران اللذان يظهر عليهما أثر البلاء والإهمال، أما السكان فلا يجاوز عددهم ألف نسمة »، ثم ختم **فيرو** مقاله بقوله: «إن اندثار **نقاوس** لربما يرجع إلى العهد التركي، وذلك أن الأتراك اتَّخذوها مركزا حربيا » اهـ.

وقد علَّق على مقال **فيرو** محرِّر **(المجلة الإفريقية)** فقال: «وقال **ليون الإفريقي** ـ أي **الحسن الوزان الفاسي** صاحب **(الرحلة)** المشهورة ـ قال: يوجد قرب **نقاوس** واد على حافتيه أشجار الجوز والتين وبقية الفواكه اللذيذة الممتازة، وهي أجوَد فواكه مملكة تونس، وتصدر إلى قسنطينة »، ثم قال المحرِّر : «وسكان **نقاوس** أغنياء مترفون يشبهون سكَّان **بجاية،** وقد بنوا منزلا رفيعا وأثثوه ثم أعدُّوه للاستضافة، كما توجد بـ : **نقاوس** مدرسة على نفقة السكان، يوجد بها مسجد جميل أنيق، يحتوي على جميع المرافق، ودور **نقاوس** ذات طابع واحد، وهي جميلة أنيقة تحتوي كل دار على حديقة، تحتوي كلٌّ منها على أنواع الريحان والزهور، وبالخصوص ورد دمشق والبنفسج والقرنفل والآس وغيرها مِن الرَّياحين، وعريش العنب، كما أنَّ بكلِّ دار عين ماء جارية، وبالجملة فإن الإقامة بـ : **نقاوس** التي يمتاز سكَّانها بالأخلاق الجميلة والمعاملة الحسنة للغرباء، تجعل زوَّارها لا يفارقونها إلا مكرَهين. وما يلحق بهذه المدن في المجال الحضاري مدينة **مجانة** التي ذكر **ياقوت** أنه كان بها الزعفران ومعادن الحديد والفِضَّة والمرتك والحديد والرصاص، كما يوجد جبل صخري تُقلع منه الحجارة الصالحة للطواحين، تصدر إلى

القيروان وغيرها مِن بلاد المغرب ».

نكتفي بهذا القدر كنموذج عن التاريخ الحضاري لهذه المنطقة الذي كان محلّ اهتمام الباحثين القدامى والمتأخِّرين ـ أي: مؤرِّخي الفترة التي أعقبت الاحتلال الفرنسي ـ الذين أمكنهم أن يطلعوا على بعض الوثائق، وبعض الآثار القديمة التي لم يبق منها أثر، ومنها ما نشره الكاتب الفرنسي **فايسيت** (Waysettes) مؤرِّخ تراجم بايات قسنطينة، الذي قام برحلة في المنطقة ونشرها مسلسلة تحت عنوان: **(من بوسعادة إلى المسيلة)**، نشرها في **(المجلة الإفريقية)** بعددها المؤرَّخ في يوليو 1861م، وصف في هذه الرِّحلة مدينة **(المسيلة برج طبنة)**، والمدينة الأثرية الرومانية **(زابي)** [1] التي يعرف موقعها الآن بـ : **بشليقة** (Bechilga)، وهو يبعد عن **المسيلة** بنحو (5) كلم، وأهمّ ما في رحلة **فايسيت** وصف **قصر طبنة** ـ أي: بقاياه ـ كما استفدنا منه أنه وجد أسرةً مِن أُسر **المسيلة** تحتفِظ بشجرة نسبها الذي يتَّصِل بالسيد **إسماعيل بن علي بن يحيى**، كان من سكَّان جبل **المعاضيد** حوالي سنة 777هـ ، وأهمية هذه الشَّجرة هو وصل عمود نسبها إلى سنة 41هـ، ولا يخفى أن هذا النوع من الوثائق له أهمية عظمى، حيث إنَّ كثيرا من سكان المنطقة وغيرها تثبت تاريخ انتقالها إلى عهد الفاتحين، كما يوجد في عمود النَّسب أسماء شخصيات لامِعة.

وإلى هنا ننهي هذا **القسم** مِن ملخَّص تاريخ المنطقة في المجالات الحضارية والثقافية، ولنرجع إلى الحديث عن دراستَي المستشرقَين المذكورَين في القسم الأول مِن هذه المحاضرة، وأولهما **إيبلوقا رسيا قوميس** الإسباني الشَّهير بتآليفه في ميدان الاستشراق، فقد تناول في دراسته المذكورة الشاعر **ابن هانئ الأندلسي**، الذي خلَّد

---

(1) (Zabi) لا زال علماء الآثار للعهد الروماني يخصِّصونها بالدِّراسات، إذ لها مكانة في التاريخ الحضاري والسياسي .

معالم **المسيلة** وأمراءها، وذكر الظروف التي اتَّصل فيها **ابن هانئ** بديوان **أبي الطيب المتنبي**، إذ معظم مؤرِّخي تاريخ الأدب العربي بصفة عامة، وتراجم الشُّعراء، متأكِّدون مِن أنَّ **ابن هانئ** تأثَّر بشعر **أبي الطيب** واقتبس منه الكثير، وهما وإن كانا متعاصرَين إلا أن طريق الاتصال بقي مجهولا، وإن كانت بعض الروايات تشير إلى أنهما اجتمعا في **القيروان**، ولكنَّها رواية ضعيفة، تعرَّض **قارسيا قوميس** في دراسته التي عنونها بـ : **(المتنبي وابن هانئ)**، ونشرها بمناسبة تأبين المستشرق الفرنسي **ويليام مارسي**[1] المتخصص في دراسة اللغة العربية ولهجات بلاد المغرب العربي، للظروف التي اطلع فيها **ابن هانئ** على ديوان المتنبي وانطباعاته على شخصية المتنبي وشعره، قال في مستهل دراسته: «إذ استثنينا شعراء الجاهلية الذين يستدل بأشعارهم في جميع المدارس والأزمنة كشواهد لغوية، فمن المسلم أننا لم نجد في شعراء العهد الإسلامي من احتل في بلاد المغرب مكانة تضاهي مكانة **أبي الطيب المتنبي** (303 ـ 351هـ/ 965م)، ولهذا فإن دارسي تاريخ اللغة العربية وآدابها عندما يتعرَّضون لدراسة مبدأ هذا التاريخ يجدونه مرتبطا بتأثير شعر **أبي الطيب المتنبي** في هذا القطاع من البلاد الإسلامية »، ثم واصل حديثه فقال: «وهذا ما لفت انتباه صديقي العالم الأستاذ **رجيس بلاشير** عند تأليفه للكتاب الذي يحمل العنوان التالي: «شاعر عربي في القرن الرابع الهجري **أبو الطيب المتنبي** »، ثم استرسل **قوميس** في حديثه، وقال : «إن بلاشير خصَّص للمتنبي فصلا في تأليفه المذكور تحت عنوان: **(المتنبي في المغرب)**، ومن جملة ما قاله في هذا الفصل: أن الأديب **القزاز** (المتوفى سنة 412هـ / 1021م) ألَّف كتابين[2] خصَّصهما لـ : **المتنبي** أحدهما سماه: **(ما أخذ على المتنبي)** وقد فقد، وبداية من ذلك العهد، اهتم كبار أدباء

---

(1) Mélanges William Marçais Edit . G.p. Maisonneuve : Paris 1950.

(2) هذان الكتابان هما: **(ما أخذ على المتنبي من اللحن والغلط)**، والثاني: **(أبيات المعاني في شعر المتنبي)**.

إفريقيا، كـ : **ابن رشيق** و**الحصري** و**ابن شرف** بإذاعة شعر المتنبي بإفريقية كما نقلوها بالأندلس بعد هجرتهم إليها »، ثم واصل **قوميس** حديثه عن **بلاشير** فقال: «إنه قبل **القزاز** لم يعتمد **بلاشير** على مصدر وثيق، وإنما التجأ إلى الافتراض، فقال: إن الخليفة الفاطمي **المعز لدين الله** اطلع على مكانة **المتنبي** وحاول الإتيان به لبلاطه، و**المتنبي إذ** ذاك في **مصر**، ثم حاول جلب أبي القاسم بن هانئ ـ المولود سنة321هـ/ 933م، والمتوفى سنة 362هـ/ 973م ـ إلا أن **ابن هانئ** توفي في تلك الآونة، **مما** جعل الملك **المعز** يصرِّح بأنه كان يأمل أن يضاهي به شعراء المشرق » [1].

ثم واصل **قوميس** حديثه عن **بلاشير** فقال: «إنه حاول الجمع ما بين الشاعرين المشرقي والمغربي، ولقَّب ابن هانئ بـ : **متنبي المغرب**، وأن الشاعرَين اجتمعا في **القيروان**... الخ »، فنفى **قوميس** رواية **بلاشير** هذه ـ أي: اجتماع الشاعرين بالقيروان ـ وذكر أن الاتصال بين الشاعرين كان بصفة أخرى، وهي التي خصَّص لها دراسته، وتتلخَّص في أن رجلا ادَّعى أنه كان له اتِّصال بـ : **أبي الطيب المتنبي**، وأنه درس معه ديوانه، فحينئذ طلب منه **ابن هانئ** إعارته إياه، فأجابه لرغبته، إلا أنه يظهر أن **ابن هانئ** ماطل صاحب الديوان عندما طلب منه إرجاعه، فألحَّ عليه المستعير وكاتبه بلهجة رأى **ابن هانئ** أنها تمسُّ كرامتَه، فأجابه **ابن هانئ** بقصيدة لها أهمية في الموضوع، حيث ضمَّنها ظروفَ هذا الحادث الهام، وهو إطِّلاع ابن هانئ على **ديوان أبي الطيب**، والظروف التي ساعدته على ذلك، ثم انطباعاته عن **المتنبي** وعن شعره، وهذه القصيدة منشورة في (**ديوان ابن هانئ**)، وقد علَّق عليها محقِّق **الديوان كرم البستاني**[2] بقوله : «كتب إلى رجل زعم أنه لقي **أبا الطيب المتنبي** وقرأ عليه شعره، فسأله **أبو القاسم** عارية الكتاب، فأعاره إياه ثمَّ أساء المعاملة في تقاضيه»، وهذا نص القصيدة :

---

(1) **الإحاطة** لابن الخطيب، ط . مصر، 1319هـ (ص: 215).

(2) دار صادر بيروت 1384هـ 1964م .

تنبــأ المتنبـــي فـــيكم عصـــرا ولــو رأى رأيكــم في شــعره كفــرا
مهــلا فــلا المتنبــي بــالنبي ولا أعــدوا أمثالــه في شــعره الســورا
تهــتم علينـــا بمـــرآه وعلكـــم لم تــدركوا منــه لاعينــا ولا أثــرا
هــذا عــلى أنكــم لم تنصــفو ولا أورثتمــوه حميــد الــذكر إن ذكــرا
ويلمـــه شـــاعرا أخملتمـــوه ولم نعلــم لــه عنــدنا قــدرا ولا خطــرا
فقــد حملــتم عليــه في قصــائده ما يضحك الثقلــين الجــن والبشــرا
صحفتم اللفظ والمعنـى عليـه معـا في حالــة وزعمــتم أنــه حصــرا
إذ تقســمون بــرأس العــير أنكــم شــافهتموه فهــل شــافتهم الحجــرا
فــما يقــول لنــا القرطــاس ويلكــم إنــا نــرى عظــة فــيكم ومعتــبرا
شــعرا أحطــتم بــه علــما كــأنكم فاوضــتم العــير في فحــواه والحمــرا
فلــو يصــيخ إلــيكم ســمع قائلــه مــا بــات يعمــل في تحبــيره الفكــرا
أريتمــوني مثــالا مــن روايــتكم كــالأعجمي أتــى لا يفصــح الخــبرا
أصــم أعمــى ولكنــي ســهرت لــه حتى رددت إليـه السـمع والبصـرا
كانــت معانيــه لــيلا فامتعضــت لــه حتى إذا ما برهن الشـمس والقمـرا
ضـــجرتم وأتانـــا مـــن ملامكـــم ومن معاريضكم ما يشـبه الضـجرا
تـــترى رســـائلكم فيـــه ورســـلكم إذ أتـــت زمـــرا أردفـــتم زمـــرا
فلــو رأى مــا دهــاني مــن كتــابكم وما دهــاني شــعره مــنكم لمــا شــعرا
ولــو حرصــتم عــلى إحيــاء مهجتــه كــما حرصــتم عــلى ديوانــه نشــرا
هبـــوا الكتـــاب رددنـــاه برمتـــه فمـــن يـــرد لكـــم أذ هانـــه أخـــرا
لئن أعـدت علـيكم منـه مـا ظهـرا فما أعـدت علـيكم منـه مـا اسـتترا
أعرتمـــوني نفيســـا منـــه في أدم فمن لكم أن تعاروا البحث والنظرا

هذا ملخَّص دراسة المستشرق **قارسيا قوميس الإسباني** التي نشرها في السِّجل الخاص بتأبين العالم اللغوي الشهير **ويليام مارسي** نشرها بالفرنسية، وهي كما ذكرنا هامة جدا حيث أزاح صاحبها الظلام الذي كان يكتنف الظروف التي اتصل فيها **ابن هانئ** الأندلسي بديوان شعر **أبي الطيب المتنبي** ووضَّح ذلك بحجج، وكل ما يمكننا أن نزيده في الموضوع هو التعريف بـ : **القزاز**، الذي ذكره **قارسيا قوميس** وأنه هو أول من أدخل شعر المتنبي إلى إفريقيا نقلا من المستشرق **بلاشير** في تأليفه الذي خصَّصه لترجمة **أبي الطيب المتنبي**، إذ لم يزد بلاشير عند ذكره لـ : **القزاز** على ذكر لقبه، وكذلك **قوميس** فيما نقله عنه، و**القزاز** هو **أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي** المعروف بـ : **القزاز القيرواني**، أديب مشهور في تاريخ الأدب العربي، وقد اهتم به أخيرا الدكتور المنجي الكعبي الأستاذ بجامعة **تونس**، فخصصه بتأليف [1] ضمَّنه ترجمةَ حياتِه وتحقيق بعض تآليفه.

إن كل مَن ترجم **القزاز** ذكر أن تاريخ وفاته كان سنة 412هـ، وقد نشأ بـ : **القيروان** وارتحل في أخريات حياته إلى **دمشق**، وكان من أبرز تلامذته **ابن رشيق** الذي كان يشيد به في معظم تآليفه، وبالخصوص في كتابه: **(العمدة)**.

ولنرجع إلى تأليفي **القزاز** اللذَين خصَّص بهما **أبا الطيب المتنبي**، فأولهما كتاب: **(ما أخذ على المتنبي مِن اللحن والغلط)**، وقد وصفَه د. **المنجي الكعبي** في ترجمة حياة **القزاز**، فقال: «وهذا الكتاب يقع في جزء واحد، وقد كنا نحرص على معرفة آراء نقَّاد **القيروان** أو على الأقل رأي واحد منهم ـ وهو **القزاز** ـ في هذا الشَّاعر العظيم، الذي ملأ ذكره عصره وعصور الناس من بعده، وما أكثر ما أخذ الناس على **المتنبي** وصنفوا في ذلك، والملاحظ أنه لما كان **المتنبي** في آخر أيامه كان **القزاز** في ذلك الوقت في زهرة

(1) **القزاز القيرواني، حياته وآثاره**: تأليف المنجي الكعبي، الدار التونسية للنشر، 1968م.

شبابه، ولا بد أن صاحبنا تأثَّر به نوعا من التأثر، وإنه عندما أخذ في تأليف هذا الكتاب عنه فقد مآخذ الناس عليه، وقد يكون أسقط عنه كثيرا من تحامل النقاد، ونظن ظنا نجد ما يقويه، وهو أن **القزاز** لم يقصد في كتابه إلا الرد على الذين عابوا على **المتنبي** اللحن والغلط من جهة اللغة والنحو بصورة خاصة ـ وهما ديدن **أبي عبد الله** ـ وذلك لأننا نراه ينحو هذا المنحى مع **المتنبي** ومع غير **المتنبي** في مقدِّمة كتابه: (**ما يجوز للشاعر في الضرورة**)، ونراه ينحى باللائِمة على الذين يآخذون الشعراء بالغلط في ألفاظهم وأعاريبهم، دون أن يعرفوا ما يجوز له من ذلك ضرورة الشعر، ونراه في كثير من الأحيان يلتمس للشعراء مخرجا لطيفا من تضييق النقاد عليهم ومراحا واسعا لهم رغم اللغويين والنَّحاة، على أن هذا الكتاب قد لا يهمُّنا وجوده واكتشافه، لأخذ النصفة لـ : **المتنبي** مِن نقَّاده ـ كما قدرنا أن يكون ـ وإنما لأن الكشف عنه وظهوره، سيفيداننا إفادة محقَّقة عن **القزاز** نفسه، إذ يمكننا عندئذ أن نستجلي الموقِف النَّقدي لـ : **أبي عبد الله القزاز** بصورة واضحة تكمل لنا ملامحه النقدية التي يمدنا بها بضَنانَة كتابه في ضرورة الشعر» اهـ .

وقال **المنجي الكعبي** على التأليف الثاني للقزاز الذي سماه: (**أبيات معان في شعر المتنبي**) قال: «كذا ضبط اسم هذا الكتاب كل من ياقوت والقفطي، وليس كما ضبطه الأستاذ **حسن حسني عبد الوهاب** (**أبيات المعاني في شعر المتنبي**)، وواضح الفرق في التعبيرين، والأول أصح في نظري، لأنه أخص، وفيه تحديد للأبيات، وليس في الثاني تحديد للمعاني، وليس كل بيت يحمل معنى بالمفهوم النقدي القديم، فهم كانوا يقصدون بالمعنى، المعنى الحكمي، أو الأخلاقي أو المعنى الذي يقوم على فكرة بصورة عامة، ويخرج من ذلك الأبيات التي تقوم على تصوير بياني وصنعة لفظية».

ونلاحظ أخيرا أن **المتنبي** حظي من **القزاز** بكتابين: هذا الكتاب، والكتاب الذي سبق ذكره، وما أحوجنا إلى هذَين الكتابين لتدوين الاتجاه النقدي في المغرب بالمقارنة مع اتجاهه في المشرق.

ذكرنا هذه الفقرات من ترجمة القزاز القيرواني الذي كان أول أديب مغربي اعتنى بأبي الطيب المتنبي وخصه بتألفين، وكانت كتابته منطلق اهتمام بقية أدباء المغرب العربي بالمتنبي، ولنواصل حديثنا عن الدراسة الثانية[1] وهي للمستشرق الفرنسي **كانار** (Canard) الأستاذ في عهده بجامعة الجزائر، وقد كتبها بمناسبة تأبين المستشرق الفرنسي المتخصص في الفن المعماري الإسلامي **جورج مارسي** (Georges Marçais)، وهذه الدراسة مفيدة جدا وقد عنونها بالعنوان التالي: «أسرة كانت من أنصار الفاطميين بإفريقيا الشمالية ثم عارضتهم »، ويقصد بها أسرة **علي بن حمدون ابن** الأندلسي والد **الأميرين يحيى وجعفر أميري المسيلة** اللذين خلَّد مآثرهما **ابن هانئ** الأندلسي، والحديث عن المسيلة التي كانت قاعدة **الزاب** بدلا مِن **طبنة**، ولعبت أدوارا في عهد الأميرين المذكورين، إذ هي مؤسسات الفاطميِّين، وهذه الدراسة عبارة عن تأليف خاص لتاريخ هذه المنطقة ولأسرة **علي بن حمدون** الذي كان صديقا لـ : **عبيد الله المهدي** قبل تأسيس دولته، كما تعرَّض فيها لمكانتها الحضارية وتطوُّرها، ثمَّ للظروف التي خلع فيها **الأمير جعفر بن علي** طاعة الفاطميِّين والتِحاقه بملوك الأندلس، وهذه الأحداث وإن اعتنى بها جل المؤرِّخين الذين تناولوا بالبحث تاريخ الفاطميِّين ثم خلفائهم بالمغرب العربي **بلكين** وبنيه، والظروف التي غادر فيها الأمير **جعفر المسيلة**، ومنهم **ابن خلدون** و**ابن حيان** وغيرهما، إلا أن كثيرا مِن الجوانب بقيت مجهولة في تفاصيلها، ولضيق مجال هذا البحث المحدود اكتفيتُ بلفت نظر الباحثين إلى هذه الدراسة القيِّمة الفريدة في موضوعها، إذ أتيحت لصاحبها مُعطيات لم تتوفَّر لسابِقيه، وعلى ضوئها كتبَ دراستَه المذكورة، ونظرا للظروف التي كتِبت فيها هذه الدِّراسة (1957)، والعدد المحدود مِن مطبوعات هذا السِّجل، فهي في حاجة إلى اهتمام قرَّاء العربية بها .

(1) Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident Musulman … T.2. Homage à Georges Marçais. Imprimerie officielle. Alger 1957.

لقطات من تاريخ غيليزان
الثَّقافي والسِّياسي عبر التاريخ[1]

إنني استجابة لدعوة الإخوة المشرفين على الأسبوع الثقافي بهذه المدينة التي شاهدت أحداث تاريخ البلاد العام منذ مئات القرون، حيث كان موقعها الجغرافي وضعها في منطقة حساسة بين المغرب والمشرق وبين الشمال والجنوب، وإنني لم أقصد التعرض في هذه المحاضرات التي تعهدت منذ مدة بإلقائها عبر أنحاء الوطن للتاريخ القديم أي المتعلق بالبلاد قبل الإسلام وإنما عندما اخترت مواضيع هذه الدراسات في التاريخ فذلك مرجعه إلى التاريخ في عهد الإسلام، وإن كان تاريخ هذه المدة أو تاريخ سكانها سواء في ذلك تاريخها القديم أي قبل الفتح أو الحديث الذي هو بعد الفتح يهمُّنا كله فلكل رجاله وكل ميسر لما خلق له، وهذا لا يمنعنا من التعرض في هذه الأحاديث إلى التاريخ القديم إن جرنا سياق الحديث إلى ذكره لربط صلة الحاضر بالماضي.

وإن مدينة غيليزان لم تكن من المدن المعروفة إثر الفتوحات ككثير من المدن المجاورة لها، وكل ما عثرنا عليه فيما يخصها هو ما ذكره المؤرخ يحيى ابن خلدون صاحب كتاب: (**بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**)، وهو الكتاب المشهور الذي خصصه مؤلفه للملك **أبي حمو موسى الثاني الزياني** ملك **تلمسان**، ويحيى هذا هو كما تعلمون أخو **عبد الرحمٰن بن خلدون** المشهور بكتاب (**العِبر**).

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المحاضرة على نسخة مخطوطة تقع في (46) صفحة، وهي مبتورة الآخر.

هذا، وإن مدينة **غيليزان** كما ذكرنا وإن لم نجد لها ذكرا قبل اطلاعنا على (**بغية الرواد**)، فهذا غير مانع مِن أنها لربما كانت موجودة تحت اسم آخر، إذ كثير من مدن وقرى هذه الناحية اندثرت.

هذا، وإن من بين المدن التي اشتهرت بناحية **غيلزان** وبقربها مدينة **البطحاء** المعروفة الآن بـ : **المطمر**، كقاعدة لـ : **هوارة** ثم لـ : **سويد** بعدهم، فمدينة **البطحاء** اشتهرت كمحطة ممتازة بين المغرب والمشرق، إذ يذكرها الرحالون الذين كانوا يمرُّون عليها في طريقهم من **الجزائر** ـ أي: العاصمة ـ إلى **تلمسان**، فكانت **البطحاء** مِن أهمِّ المحطات، يذكر الرحَّالون المدن التي يمرُّون عليها مثل **مليانة** ثم **تنس** ثم **مازونة** ثم **البطحاء**، ثم **قلعة هوارة**، فـ : **وهران** إلى **تلمسان**، وقد خلَّد هذا الطريق العالم الأديب **أبو علي الحسن بن الفكون القسنطيني** في منظومته التي ضمَّنها رحلته من مدينة **قسنطينة** إلى مدينة **مراكش** بالمغرب، حيث ذهب لزيارة خلفاء الموحِّدين مِن أبناء **عبد المؤمن بن علي** في أواخر القرن السادس، كما سنذكر نموذجا منها في هذه المحاضرة.

وقد زار **البطحاء** أيضا مِرارا **عبد الرحمٰن بن خلدون**، وأفادنا بالخصوص بوصف الطريق الذي كان يربط بين هذه المنطقة وبلاد الجنوب، وسنتحدَّث عما ذكره في موضعه.

هذا، وإن مِن بين المدن التي اشتهرت بناحية **غيلزان** أيضا، **منداس**، **ويلل**، و**قلعة هوارة**، وإن امتازت **قلعة هرواة** باعتناء المؤرِّخين إلى عصرها الأخير، حيث قامت بأدوار هامة واختيرت كعاصمة الغرب الجزائري في العهد التركي، ورزقَت أبناءً بررة خصَّصوها بتآليف قيِّمة، فإن **منداس** نجِدها اشتهرت بمركزها الحربي، وببعض القبائل التي سكنتها ولعبت أدوارا في تاريخ البلاد، أما تاريخها الخاص ـ وخصوصا التاريخ الثقافي ـ فإنه لم يصِلنا منه شيء، اللهم إلا تراجم بعض علمائها، سنذكر كذلك نماذج منهم.

بَقيت **يلل**، فإنها عُرفت واشتهرت بمَوقعها الجغرافي ابتداءً من القرن الثاني الهجري، وهي كذلك لم يتعرَّض لتاريخها أو تاريخ رجالها أحد، وأقصدُ بقولي هذا: لم يتعرَّض لها أحد، أي: لم يصلنا إلى الآن، ولم نعثر له على ذكر، وهذا لا يمنع مِن أن نواحيها ازدهرت بالمراكز العلمية كما سنبيِّنه.

هذه النقاط هي التي سأتناولها بالبحث في هذه المحاضرة، لتعطينا صورة ولو مصغَّرة على حياة هذه المنطقة، إذ تاريخ المدن الحضاري لا يهمُّ الباحثين إلا مِن ناحية التخطيط والفنِّ المعماري، وإنما الذي يهمُّ بصفة جلية تاريخ سكَّانه، وقد صدق الشاعر العربي الذي قال:

ما حـبُّ الـديار شـغفن قلبـي   ولكن حب مَن سـكن الـدِّيارا

وإنني أيضا ألفت انتباه حضرات المستَمعين إلى أن هذه المحاضرات المحدودة المجال لا يمكن للمحاضِر أن يستوعب فيها جلَّ ما يتعلَّق بتاريخها، سواء الثقافي أو الحضاري أو السياسي، إلا أنه عملا بالقول المأثور: «ما لا يدرك كله، لا يترك جله »، فإنَّ الغرضَ من هذه المحاضرات الإعادة إلى الأذهان أن بلادنا هذه كما وصفها أحد كبار أدبائها: «كانت ذات بساتين وأنهار، وروضات وأطيار، وغدران وأشجار، وآصال وأسحار، وأعياد ومواسم، وثغور بواسم، ونفحات ونواسم، وجهاد وملاحم، وكرات ومزاحم، مشايخها تقاة، وكهولها ثقات، وولدانها طغاة، وعساكرها غزاة، وفرسانها عقبان، وأفراسها عقيان ... لا يقف لبأسها واقف، ولا يذعن لرجعيتهم راجف، ما بغى عليهم باغية إلا حطَّموه، ولا طاغية إلا حاربوه، فهزموه وقصموه، الله أكبر ما أصعب حملتهم، وأعصب جملتهم ».

فإننا نعيد إلى الأذهان أن سكَّان هذه البلاد تركوا بصمات أصابعهم في تاريخ البلاد العالمي، سواء في المجالات البطولية والحربية أو في المجالات الثقافية والدينية، إذ تاريخ

هذه المناطق جزء لا يتجزَّأ من التاريخ الإسلامي بصفة خاصة، ومن التاريخ البشري العام بصفة عامة، وهدفنا أن نمحو من الأذهان ما علق بها في العصور الأخيرة من اختلال مَقاييس فاسدة ما أنزل الله بها من سلطان، إذ طغت موجات حاولت أن تنشر نظام طبقية مزعومة لا أصل لها في تعاليم الإسلام، الذي غيَّر الأوضاع التي كانت تسود الجاهلية، وسطر منهجية ومقاييس، مِن بينها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ (الحجرات: ١٣)، إلَّا أننا مع الأسف لا زال الكثير منا يرمي قبائل بتمامها بالانحطاط والتدهور والتخلُّف، ويعاملونها معاملة الهنود لمنبوذيهم، مع أن الكثير منها ينحدر من رجال اشتهروا بالبطولة والصلاح والعلم، ولا زالت أسماؤهم مرتبطة بالأحداث الحاسمة التي اجتازتها البلاد في حالتَي الحرب والسلم، ابتداء من القرن الثالث الهجري، فمِن هذه القبائل التي اشتهرت بهذه النواحي وخلَّد التاريخ أمجادها قبائل **بني مانو** و**بني يلوما** الذين كانوا بسهول **منداس**، ويحدِّثنا التاريخ أنهم كانت لهم مصاهرة مع ملوك **بجاية** من **بني حماد**، كما أن لهم مواقف حاسمة في حروب الموحدين، وقبائل **مغرواة** الذين حكموا هذه المنطقة بعد الفتوحات مباشرة، وكانت دولتهم تمتد ما بين سهول **مليانة** إلى **تلمسان**، وقضت على دولتهم الأولى الدولة **الفاطمية** في حرب طاحنة دارت رحاها بين **البطحاء** و**تيارت**، وقد ذكرها **ابن خلدون**، وقال: «إنها من الحروب القليلة النظير»، ثم أحدث أفراد هذا القبيل دولة بـ: **ليبيا** عرفت بدولة **بني خزرون**، وبعد مسيرة **بني هلال** استوطن هذه النواحي ـ أي: ما بين سهول **مليانة** إلى **وهران** ـ قبيلة **سويد** العربية، التي لا زالت كثير من قبائل هذه النواحي تنتمي إليها، وسنتحدث عن كلِّ هذا بمزيد من البيان.

وقبل أن أتعرَّض لذلك أواصل الحديث عن المدن التي كانت مجاورة لغيليزان عبر التاريخ وأول هذه المدن وأشهرها مدينة **البطحاء** التي ذكرنا أن موقعها كان حيث

توجد مدينة **المطمر** الحالية، وأن تاريخ تأسيس مدينة **البطحاء** وقع فيه خلاف بين المؤرِّخين، فمنهم مَن قال إن أول من أسَّسها هم الموحِّدون، والحقيقة أنها أسِّست قبل دولة الموحِّدين، بدليل أن مؤسِّسي دولة الموحِّدين، وهما الإمام **المهدي بن تومرت** وتلميذه وخليفته من بعده **عبد المؤمن بن علي الكومي** عند رجوعهما من **بجاية** في طريقهما إلى **المغرب** نزلوا بـ : **البطحاء**، وهم كما نعلَم كانوا مختفين، فلما نزلوا بـ : **البطحاء** أكرمهم سكَّانها وبالغوا في إكرامهم، وعندما وصلوا إلى **المغرب الأقصى** وثاروا على دولة **المرابطين** اللمتونيِّين وهزموها، جدد **عبد المؤمن بن علي** بناءها، وقيل علم أحد مضيفي عبد المؤمن، أن أعداء عبد المؤمن يتربصون به السوء، فجاءه ليلا وطلب منه استبدال محلَّ مبيته، ونام المضيف في المحلِّ الذي أعِدَّ لـ : **عبد المؤمن**، وفي الصباح وجدوا المضيف ميتا، فاهتدى **عبد المؤمن** للمكيدة التي دبِّرت له وذهبَ ضحيَّتها مضيفهم الذي فَداه بنفسه، ومن هذا يظهر لنا أن **البطحاء** كانت موجودة قبل دولة الموحِّدين، وقد ذكر ابن خلدون مدينة البطحاء مرارا في تاريخه قال متحدثا عن الملك أبن حمُّو موسى الثاني: «ونهض ـ أي: الملك **أبو حمو** المذكور ـ من تلمسان لشفاء نفسه من حصين ... فلقيناه بالبطحاء وضرب لنا موعدا بالجزائر، انصرف به العرب إلى أهليهم وتخلفت بعدهم لقضاء بعض الأغراض واللحاق بهم، وصليت به عيد الفطر على البطحاء وخطبت به وأنشدته عند انصرافه من المصلى أهنيه بالعيد وأحرضه:

هـذي الـديار فحـيِّهن صـباحا ... وقـف المطايـا بيـنهن طلاحـا
لا تسـأل الأطـلال إن لم تروهـا ... عـبراتُ عينِـك واكفـا ممتاحـا
فلقد أخذت على جفونك موثقا ... أن لا يُريْن مـع البِعـاد شِـحَاحا
إيــه عــلى الحــيّ الجميــع وربّــما ... طرب الفؤاد لـذكرهم فارتاحـا
ومنـازل للطـاغين اسـتعجمت ... حزنا وكانت بالسـرور فصـاحا

ثم قال ابن خلدون: «وهي طويلة ولم يبق في حفظي منها إلاّ هذا ».

فإننا نرى أن الرجل العظيم، والمؤرخ الفذ زار هذه البلدة وصلى فيها العيد بأعظم ملك لا زالت مآثره الفكرية والعمرانية تملأ كتب التاريخ كما لا زال الكتاب والباحثون يخصصونه بالتآليف القيمة ثم بذكر ابن خلدون مرارا زيارته للبطحاء في تاريخه، نكتفي بذكر بعضها: منها قوله عندما عزم على التفرغ للحياة العلمية واختار الإقامة بمدرسة العياد إلا أن الملك **أبا حمو** كلفه سفارة أخرى ولم ترضه وفي ذلك قال: فاستوحشت منه، ونكرته على نفسي لما آثرته من التخلي والانقطاع وأجبته إلى ذلك ظاهرا وخرجت مسافرا من **تلمسان** حتى انتهيت إلى البطحاء فعدلت ذات اليمين إلى منداس ولحقت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول فتلقوني بالتحفى والكرامة، وأقمت بينهم أياما حتى بعثوا عن أهلي وولدي من **تلمسان** وأحسنوا العذر إلى السلطان عني في العجز عن قضاء خدمته وأنزلوني بأهلي في قلعة ابن سلامة من بلاد بني توجين فأقمت بها أربعة أعوام، متخليا عن الشواغل كلها، وشرعت في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب ... الخ ».

فمن هذه الجمل نرى أن هذه المنطقة لها مكانة في تاريخ البلاد، إذ هي ترتبط بأعظم الأحداث.

نقتصر على هذه الفقرات التي ذكرها المؤرخ ابن خلدون ولو تتبعنا ما ذكره عن هذه المواقع أي البطحاء ومنداس ومينا وشلف لما وسعنا مجال هذه المحاضرة، ونجد البطحاء التي وقع الخلاف بين المؤرِّخين في تأسيسها وقع أيضا بين المتأخرين في موقعها خصوصا المستشرقين فمنهم من قال بأنها كانت حيث ملتقى وادي مينا بوادي شلف إلى أن ظهرت تآليف القاضي محمد الصباغ القلعي فذكر أن مدينة البطحاء هي حيث يوجد ضريح سيدي عبد الهادي بوغنيسة، أي عند محطة السكة الحديدية التي تمر

على المطمر وهذا نفس رأي المؤرخ أبي راس الذي قال في بعض شروح سينيته التي خصصها لتاريخ فتح مدينة وهران فقال: إن البطحاء تارة يقصد منها مدلولها اللغوي أي سهول الناحية وتارة المدينة المسورة التي دفن فيها سيدي عبد الهادي بوغنيسة المار الذكر.

ثم اطلعنا على وثيقة هامة وهي عبارة عن منظومة تحتوي على حوالي مائتي بيت ضمنها مؤلفها قسما هاما ذكر فيه هذه المدينة وتراجم بعض علمائها، سنتحدث عنها ما يسمح لنا به مجال هذه المحاضرة. والذي ينبغي أن يلفت الانتباه هو أن هذه المدن لم تكن كلها مبنية بالحجارة بل كان الكثير من سكانها يستعملون الخيام والأخصاص، والمنظومة المخصصة لمدينة البطحاء صريحة في ذلك إذ نجد كثيرا من العلماء المنسويين لسكانها مساكنهم تبعد عن البلدة ببضعة أميال، وقد فرق صاحب المنظومة بين سكانها، أي: من يسكنون داخل السور وخارجه.

هذا، وإن السكان الذين تركوا بصمات أصابعهم في هذه المنطقة ابتداء من القرن السابع ولعبوا أدوارا في تاريخها إلى أواخر القرن الثاني عشر الهجري وبالضبط إلى أوائل عهد الاحتلال الفرنسي هم أفراد قبيلة سويد، إذ لما انهارت دولة الموحدين المركزية في أوائل القرن السابع واستقل ولاتها بمناطق نفوذهم: فبنو مرين استقلوا ببلاد المغرب الأقصى، وبنو زيان ببلاد تلمسان والجزائر، وبنو حفص بتونس.

واشتدت الخلافات بينهم والحروب، وكان موقع بني زيان الجغرافي جعل بلادها تتعرض تارة لهجومات بني مرين وتارة لبني حفص، تداخل سكان قبيلة سويد الذين كانوا حكاما بأمرهم في هذه المنطقة، أي ما بين سهول مليانة ومستغانم، وكانوا ينتصرون لبني مرين على بني زيان، وهذه الفترة هي التي عاشها المؤرخ عبد الرحمٰن بن خلدون وأخوه يحيى وكل منهما ترك انطباعاته عنها.

وسويد هذه قبيلة عربية عتيدة استوطنت ناحية شلف الغربي في أول أمرها وكان

لرؤسائها اختصاص ببني زيان الذين أقطعوا لهم أتاوات على بلد سيرات والبطحاء وهوارة.

وقال المؤرخ أبو راس: وما زالت بطونهم ـ أي: سويد ـ إلى يومنا هذا في تلك النواحي وهم فليتة ومجاهر وجوثة وغفير وشافع ومالف وكانت رياستهم لعهد يغمراسن وما قبله في أولاد عيسى بن عبد القوي وكانوا ثلاثة مهدي وعطية وطراد، واختص مهدي بالرئاسة عليهم ثم ولده، وأقطع يغمراسن يوسف بن مهدي ببلاد البطحاء وسيرات، وكان يغمراسن يستخلف عند حروبه عمر بن مهدي على تلمسان وما إليها من ناحية الشرق.

وقال أبو راس في موضع آخر من (**عجائب الأسفار**) عند حديثه على قبيلة سويد قال: «ومن قبائل سويد صبيح ونسبتهم إلى صبيح بن علاج بن مالك، وكان من فروعهم فليتة ومجاهر وأولاد قصير، وكان من رؤسائهم أولاد عريف، ثم خلفهم دقيش وأبناؤه فبنى حميدة العبد، ثم حدث بين سويد ويغمراسن ملك دولة بني زيان ومؤسسها فتنة هلك فيها عمر بن مهدي ـ الذي سبق لنا ذكره وبلغت منزلته عند يغمراسن حتى كان يستخلفه على مملكته ـ فنتج عن هذا الخلاف أن ارتحل سويد عن التلول والأرياف من بلاد بني زيان إلى شلف بلاد مغراوة الذي ذكرنا أنها كانت تمتد ما بين سهول مليانة ومستغانم، وقد كانت مغراوة أول دولة بربرية أقر الإسلام رؤساءها على حكم بلادهم بعد إسلام أميرهم صولان بن وزمار على يد الخليفة عثمان بن عفان، وتكونت منهم دول في الجزائر ثم في المغرب الأقصى وفي ليبيا، وقد قضي على دولتهم الأولى بالجزائر التي كانت تعرف بدولة بني خزر سنة 360هـ إثر حروب طاحنة دارت رحاها بين مدينتي البطحاء وتيارت.

وفي عهد الموحدين وبإعانتهم تكونت دولة مغراوة على يد بني منديل وكانت

عاصمتها مازونة إلى أن قضى عليها بنو زيان لأخبار تطول لا يسعها مجال هذه المحاضرة المحدودة كما ذكرنا ذلك مرارا. نزل سويد ناحية شلف وفي عهد الملك أبي تاشفين الزياني الأول كان رئيس سويد عريف بن يحيى، فغضب عليه أبو تاشفين وأهانه، فغضب عريف واتصل بأعداء ملوك بني زيان إذ ذاك وهم بنو مرين فلجأ عندهم فأكرموا نزله وأدنوا مجلسه لمكانته من قبيلته، ولمكانة قبيلته أي موقعها الجغرافي الذي جعلها في المحور الذي يربط بين المشرق والمغرب وبين الشمال والجنوب، وكانت من نتائج هذا الاتصال زحف الملك أبي الحسن المريني على تلمسان التي حاصرها مدة ثم ملكها وعندئذ رفع الملك أبو الحسن المريني منزلة أمير سويد عريف كما قال ابن خلدون ورفع قدمه بمجلسه على كل عربي في إيالته وخصه بالسفارة بينه وبين الملوك لعهده من بني حفص بتونس وبني الأحمر بالأندلس والترك بالقاهرة، ثم لما تغلب الملك أبو عنان على المغرب الأوسط رعى لسويد ذمة الانقطاع إلى قومه، فرفع الأمير وانزمار بن عريف على سائر رؤساء البدو من زغبة وأقطعه السرسو وقلعة ابن سلامة (قلعة ابن سلامة بنواحي فرندة كانت تابعة لونشريس، وهي التي أقام فيها ابن خلدون أربع سنوات وشرع في تأليف كتابه ديوان العبر الخالد فأتم مقدمته بها)، وكثيرا من بلاد ونشريس.

وعندما استرجع ملوك بني زيان مملكتهم إذا الحرب كانت بينهم وبين بني مرين سجالا، غادر ونزمار السويدي شلف والتحق ببني مرين فبنى حصنا على حافة وادي ملوية التابعة لبني مرين، وذكر ابن خلدون الذي كان من أصدقاء ونزمار وزاره في محله أن ونزمار بقي بملوية إلى عهد تدوين تاريخه.

هذه الخطوط العريضة من تاريخ الطبقة الأولى لقبيلة سويد وقد لعبت أدوارا ملموسة كان لها أثر كبير في ترجيح كفة انتصارات بني مرين على بني زيان وكانت رئاستهم كما ذكرنا في عهد يغمراسن لأولاد عيسى بن عبد القوي ثم في عهد ملوك بني

مرين لعريف بن يحيى ثم أولاده من بعده، ونزمار الذي استوطن المغرب وأخويه أبو بكر بن عريف أمير كلميتو ومحمد بن عريف أمير مازرنة.

وفي أواسط القرن التاسع إلى أوائل القرن العاشر ظهر من رؤساء هذه القبيلة يوسف بن محمد بن دقيش ثم جثم القصير وأخوه حميدة العبد إلى أن أسقطت دولة بني زيان ودخل في الميدان خير الدين باشا وإخوته.

وقد بين التاريخ أن قبيلة سويد عندما دب الخلاف بين ملوك بني زيان وملوك بني مرين ثم الحفصيين هبّت ريح القبائل العربية على حد تعبير ابن خلدون وقد ألجأ سويد بالخصوص ملوك بني زيان الاعتراف بسيادتهم على مناطق نفوذهم أي ما بين سهول مليانة إلى مستغانم، وقد أيد هذه النظرية فقهاء البلاد الذين استفتوا فقهاء الأمصار، وبالخصوص الإمام ابن عرفة وقد نشر هذه الأسئلة وأجوبتها صاحب **(الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة)**، وفحوى السؤال الذي عنونه صاحب الدور المكنونة قضية قتال بني عامر وسويد اختصرته في هذه الفقرات قال السائل ... [1].

الدين ضرورة إن كان يعلم أن هؤلاء البغاة على ما وصفوا به فقد اجتمعت الصحابة عن حقيقة رجوع عمر لقول أبي بكر رضي الله عنهما بوجوب قتال مانعي الزكاة فكيف بصفة هؤلاء المسؤول عنهم والله تعالى أعلم اهـ.

هذه صفات ذكرتها لها أهمية بالنسبة إلى تاريخ هذا القطاع وليس المقصود منها الاقتصار على المستمعين من الحاضرين في هذه الندوة إذ هذه المحاضرات نعدها للنشر لنحقق تاريخ بلادنا اعتمادا على الوثائق والمصادر الأصيلة التي أهملها الخلف واعتمد كثير من الباحثين على ما كتبه المغرضون الذين كان هدفهم تشويه ماضي هذه البلاد

(1) ضاعت من هذه المحاضرة (ص: 27 ـ 28).

حتى يشككوا الخلف في أمجادهم.

هذا وإن قبيلة سويد العتيدة كبقية القبائل العربية والبربرية لها محاسن ومساوئ ولهذا إذا رأينا مواقف رجالها في الحروب -وكان في عهد ضعف الحكومات المركزية تتكون عصابات تعيث في الأرض فسادا وهذه العصابات هي التي أفتى ابن عرفة في الجواز في قتالها وردعها- التي دارت رحاها بين ملوك بني مرين وملوك بني زيان، ثم ما وصفها به الفقيه الذي وجه سؤاله للإمام ابن عرفة، فلا ينبغي لنا تعميم هذه الأحكام عليهم، كما أن كثيرا من الأسر العلمية كانت تسكن بهذه المنطقة وكان قد صور لنا بعض رجالها من أفذاذ العلماء الذين لهم الفضل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد تركوا لنا آثارا لها وزنها في تاريخ هذه الحقبة، ومن جملة هؤلاء العلماء الشيخ يحيى بن عبد العزيز المعروف بـ : يحيى الصغير، وهو والد سيدي **محمد بن عودة** الشهير، وقد عاصر الشيخ **يحيى بن عبد العزيز** ظلم **سويد** وجورهم، فالتجأ إلى الله بالدعاء والابتهال وأنشأ غوثيته المشهورة، وهذه شنشنة علماء الإسلام الذين كانوا عند عجزهم على تغيير المنكر يتوجهون إلى أحد بالدعاء نظما أو نثرا وهذا النوع من الدعاء هو المعروف في تاريخ الأدب العربي بالغوثية استهلها الشيخ **يحيى** بقوله:

بســم الله ابــديت نظــم ادعايــا   سبحانك يــا خــالقي الاعظــم
الصــلاة عــلى احمــد مــولاي   صــــلى الله عليــــه وســــلم

إلى أن يقول:

دق الظـــالم دقتــــك مكانــــا   أبقــدرة ربي قـــاع مـــا تخطيـــه
اجعـــل بيتـــه للخــــلا والهنـــا   واهــدم رجمــو كيــف لا يبينــه

ثم يستغيث بالصالحين على عادة المستغيثين، ولكن لم يفارق الشيخ **يحيى بن عبد**

العزيز هذا الحياة حتى شاهد احتلال **الأسبان** لـ : **وهران**، وتسرُّب جنودهم لهذه النواحي، فقال في قصيدة باللغة الدارجة:

يا شايلني انعيد لك هاذو الاخبار	قصتهم شفتها بالبصيرة
كجا ذا الفونصو خلطها كالفار	مطمورة الغدر من بكري محفورة
تسم الاسنان يقتل غول ابلا عار	واسقاوه بكاش من مات الغدرا
يا حسراه على طنابر العيد اتقرع	يا حسراه على المحال[1]كانت معدودة
يا حسراه على ارسامهم قعدت تخلع	والحديث ما امكنشي ذا العدا
واحلف يا احنششي ذا الرجل	شاف اعساكر مع شلف يغدوا

ويولوا ... إلخ

والحديث عن **سويد** سواء في عهد **بني مرين** **وبني زيان** أو في العهد التركي يستدعي سلسلة محاضرات.

هذا، ولما كان غرضنا من هذه المحاضرة تاريخ هذه الناحية الثقافي والسياسي كما يدل على ذلك عنوانها وذكرنا الخطوط العريضة من تاريخها لسياسي، آن الأوان أن نذكر نبذا من تاريخها الثقافي الذي نخصصه لتراجم بعض العلماء الذين اشتهروا بهذه الناحية كنماذج.

وقد كان مِن بينهم العالم الذائع الصيت الشيخ محمد بن يحيى بن عبد العزيز، أي ولد صاحب الغوثية المذكور، واشتهر بـ : **محمد بن عودة**، نسبة لمربيته السيدة عودة بنت العالم الشهيد سيدي **محمد بن علي المجاجي**، صاحب **(الرحلة)** المشهورة عند المؤرِّخين، وكان الشيخ **ابن عودة** هذا من مواليد سنة اثنين وسبعين وتسعمائة، وتوفي

(1) يقصد بالمحال سويد إذ اشتهرت فرقة منهم باسم المحال.

سنة أربع وثلاثين وألف، وكان من تلامذة الشيخ عبد القادر السماحي المشهور بسيدي الشيخ، الذي اشتهر أحفاده بالثورة على فرنسا سنة 1864م.

وعلى ذكر هذه الثورة أي ثورة أبناء سيدي الشيخ نجد أن أحفاد الشيخ محمد بن عودة هذا أيدوا أبناء سيدي الشيخ في ثورتهم على فرنسا، والذي أعلن الجهاد في هذه المنطقة هو السيد الأزرق الذي هاجم زمورة والرحوية وعمي موسى، كما أشعل النيران في عدة مزارع للمستعمرين، وكان هدفه احتلال مستغانم التي كانت مركزا استعماريا ذا أهمية، وبالفعل استعد لذلك وقطع أسلاك التليفون الرابطة بين واد أرهيو ومستغانم، إلا أن الفرنسيين تفطنوا لذلك وأرسلوا على طريق البحر النجدة لمستغانم وكانت معركة حاسمة بين الثائر المجاهد سيد الأزرق والجيش الفرنسي بقرية دار بن عبد الله استشهد فيها سيدي الأزرق ونخبة من المجاهدين وخلفه أخوه السيد **عبد العزيز**، وكان سكان هذه المنطقة لم ينتظروا ثورة أبناء **سيدي الشيخ**، فقد سبقت ثورة قام بها العالم الصالح الشيخ محمد بن عبد الله الفليتي ناشر الطريقة الرحمانية بهذه الربوع وقد تلقاها على طريق قريبه الشيخ جلول بن محمد بن الفضيل بن واضح وهو، أي السيد جلول بن الفضيل عن قريبه أيضا محمد بن علي بن العباس بن يحيى بن عبد العزيز عن الشيخ **محمد بن عبد الرحمٰن الجرجري** الشهير، وقد كانت هذه الثورة أول ثورة بعد الاحتلال الفرنسي مباشرة ومن حسن الحظ أن عثرنا على تسجيل لبعض أحداثها سجلها العالم الشيخ السيد أحمد بن عبد القادر بن يسعد في شبه مذكرات، لها أهمية جوهرية، فمما ذكره الشيخ **ابن يسعد** المذكور أنه في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة 1261 هاجم الجيش الفرنسي سكان **قلعة بني راشد**، وقتل منهم اثنين وثمانين رجالا ونساء وصبيانا ،وذلك عندما ثار الشيخ **محمد بن عبد الله الفليتي** وقضى مدة استجمام بناحية **تلوانت** و**السمار**، فبلغ ذلك إلى الجنرال (Delly) حاكم منطقة أم عسكر فلحق بهم بجيش عرمرم وجعل طريقة على برج الحيطى ثم رماصة وكانت

ملاقاة الجيشين أي الجيش الفرنسي وجيش فليتة في البياض أمام ابن هاشم وكانت المعركة بينهما حامية الوطيس ظلت اليوم بتمامه وأسفرت عن هزيمة الجيش الفرنسي هزيمة شنعاء، وتداخل المعركة سكان قبيلتي البرجية وأولاد رياح وانتصروا للجيش الفرنسي ووشوا سكان القلعة الذين اتهمهم الجيش الفرنسي بأنهم كانوا في إعانة جيش السيد محمد بن عبد الله فأمدوه بالمال والعتاد، ورغم أن أعيان القلعة أرسلوا وفدا منهم إلى الجنرال دلى إثر الهزيمة وكان يترأس هذا الوفد قائد القلعة إذ ذاك المعروف المنور وأمّنهم القائد الفرنسي، إلا أنه إثر الوشاية المذكورة قصدهم على حين غفلة ودافع القلعيون دفاع المستميتين الأبطال وكانت هذه المعركة داخل مدينة القلعة وأرباضها كحومة السوق وضريح سيدي صالح بن علي وشعبة البير وضريح سيدي أحمد المغراوي وقرب سيدي مصباح، وقد دام القتال نحو الساعتين بمرأى من الشيخ أحمد بن يسعد الذي سجل هذه الأحداث ثم ذكر المؤرخ أن الفرنسيِّين قادوا عشرات السكَّان رجالا ونساء كأسرى، عند انتهاء المعركة.

هذه لقطات هامة في التاريخ البطولي لهذه الناحية قام بها بعض رؤساء الدين من قبيلة فليتة التي اشتهرت ابتداءً من الشيخ يحيى والد سيدي محمد بن عودة صاحب (**الاستغاثة**) السابق الذكر، وقد ذكر هذا القبيل العلامة الشيخ العربي المشرفي في تأليفه المسمى: (**ياقوتة النسب الوهاجة**) وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة، فقال: «ومن شرفاء الشهرة شرفاء فليتة وهم فروق وجموع أولوا نجدة في الأصول والفروع عصبيتهم قاهرة باهرة لعدوها وعليه ظاهرة، تخدمهم القبائل وتذعن لكلمتهم الأواخر والأوائل، أغناهم شرفهم الطاهر على الرسوم والظواهر، وظائفهم مضروبة على عرب مناس، ووطأتهم شديدة على أعراب سويد تدوسهم بالمداس، ولا يستنكف أحد من وطأتهم، ولا يجزم أو يفزع من جرأتهم، فصولتهم صولة الملوك لا يرد عليهم غني ولا صعلوك، يكرمون الوافد ويغنون القاصد، يغمدون الرماح على

وجوه السماح، لا تأخذهم في الله لومة لائم، إذا اجتمعت الناس في الولائم، وتكلموا على إظهار الحق من الباطل، يأنفون ويستنكفون من جيد الشرع العاطل، وجرأتهم هي التي أهدت القوم للطريق، يسلكها المسلم والبطريق، فتحوا للمخزن الأبواب، كانوا لملوك الأتراك عينا ناظرة وبصيرة باصرة، ولذلك كتب توقيرهم في الصحف والألواح، وسطر تعظيمهم في لدن الرماح، وما أحسن تعظيم الملوك للأشراف إذا أعتت في البلاد اللئام والأطراف.

بهذا القدر نكتفي عما عرفت به هذه القبيلة التي واصلت ربط مجد الأواخر بالأوائل، ولنذكر علماء آخرين اشتهروا بهذه الناحية وخلد لهم التاريخ مآثر في المجالين البطولي والثقافي، فمن هؤلاء سيدي أبو زيد الحاج التوجيني دفين ضواحي البطحاء، عرّفه الشيخ الطيب بن المختار، ابن عم الأمير عبد القادر في تأليفه: **(القول الأعم في بيان نسب الحشم)** فقال: «ومنهم أولاد سيدي العيد ويعرفون الآن ببني ما قضي والأشهر أنهم من بني العباس بن عبد المطلب، والجد الذي يجمع هذه القبيلة سيدي أحمد بن محمد، وكان مشهورا بالخير والصلاح، وحبس عليه معاصروه عقارا كثيرا من جملته وطن عين الزيتون، وولده سيدي أبو زيد هو الذي ألف **(عقد الجمان)** وحفيده سيدي العيد بن أبي زيد كان مشهورا بالشجاعة معروفا بالرماية وأخباره في ذلك كثيرة ومآثره في حرب اسبنيول وقت إقامته بوهران شهيرة، وقد انتقل سيدي أبو زيد هذا لضيم أدركه من بعض الظلمة واستوطن بلاد المحال قرب وادي مينة وأهله الآن بها يعرفون بأولاد ابن حواء وقد ولي القضاء منهم سيدي عبد الله بن حواء وسيدي الطاهر بن حواء، وخاتمة الأئمة الأعلام وآخر علماء الإسلام السيد **محمد بن حواء،** وقد استوزر منهم لمولانا الأمير **عبد القادر** ... الخ ».

وعرّفه الشيخ **محمد أبو راس**: ومن علماء بني توجين التجاني شارح الشفاء

والمقامات والشيخ **أحمد بن محمد** وابنه الشيخ عبد الله وابن ابنه الشيخ أبو زيد **دفين** البطحاء من أرض المحال المعاصر للباي شعبان وزين العابدين ابن عباية (زين العابدين هذا هو سيدي عابد) مات (رحمه الله) ـ أي: سيدي **أبو زيد** ـ سنة 1098 وقصيدته (**الميمية**) التي مدح بها جدَّ الشيخ زين العابدين تدلُّ على غزارة علمِه وتمهُّره في اللغة وعلم العروض. اهـ.

و جد الشيخ **زين العابدين** الذي مدحه سيدي **أبو زيد الحاج** هذا بقصيدته (**الميمية**) المذكورة، هو سيدي **أبو عبد الله المغوفل** (دفين حافة شلف)، والذي سنتحدَّث عنه بمناسبة منظومته التي ضمَّنها تاريخ علماء مدينة البطحاء، وإنَّ السبب في هذه القصيدة هو أنَّ سيدي **أبو زيد** هذا كان تعرَّف بعد انتقاله مِن **غريس** إلى **مينا** بـ: **سيدي عابد** وزاره مرَّة لمنزله بـ : **المرجة،** فجرَّهما الحديث إلى ذكر قصيدة سيدي **بو عبد الله** التي مدح فيها النبي ﷺ بحروفٍ مهملة لا تنقط، ولما اطلع عليها الحفيد مدح صاحبها بقصيدته (**الميمية**) التي ذكرها الشيخ **أبو راس**، وهذه بعض أبياتها:

عــلى جبــل الصــفاح مــع وارزن ووا	دي ارهيـــوا وازرو غـــاب ســـلام
ومن بينهم خصوصا صاحب ألفيته هي	لــــه فــــوق العلويـــات مقـــام
ومـا كنـت قبـل اليـوم أعـرف قـدره	مكانتـــه في العلـــم كيـــف تقـــام
نعـــم شـــهرة الآثـــار عمـــت أفقـــه	بأنـــه قطـــب شـــلفها وامـــام
ســماعا عــلى الإجمــال غــير مفصــل	فليتنـــي منـــه عنـــه جـــاء كـــلام
ولمـــا فـــتح الله في الســـير لابنـــه	عليـــا زيـــن العابـــدين الهـــمام
تحــدثنا والحــديث شــجن ببعضــه	فثـــار لميـــدان الحـــديث فتـــام
فقــال لنــا الشــيخ عنــدي قصــائد	فقلـــت لـــه ومثلـــه مـــا يقـــام
فقــم أو أقــم مــن يأتنــا بهــا عــاجلا	فبــا لفــوز للشــيخ اســتكان قيــام

فناولنيهـــا بعـــد أن جـــاء بهـــا قـــائما ولكـــــــل المفعـــــــولات تمــــــام
فلـــما فتحـــت الطـــرس وانحـــل عقـــده بـــــدت لي درر في الســــــمو فخــــام
فجـــاء بهـــا صـــماء لا نقـــط فيهـــا بـــل منــــــورة بنــــــوره لا تــــــــرام
لــــه فيهـــا منهـــا شـــاهد ومخاصـــم فإنــــــه في الــــثلاث حقــــا إمـــــام
معـــــان بيـــــان مـــــع بـــــديع جـــــزاه ربــــه إلا وفى والخطـــــوب حســـــام
واســـكنه الفـــرد وس منزلـــة العـــلى بـــدار الســـلام فيهـــا معـــه تـــدام

ولنرجع إلى تتمة الحديث عن مدينة البطحاء إنجازا لما وعدت به عندَ الحديث عنها، فنذكر أن الشيخ أبا عبد الله المغوفل جد الشيخ علي زين الدين العابدين ممدوح الشيخ أبو زيد الحاج الذي كان من علماء القرن التاسع، وبالضبط أنه ولد سنة 828 وتوفي سنة 923، وله منظومة توجد منها نسخة بالمكتبة الوطنية بالجزائر سماها: (**فلك الكواكب وسلم الرقيا إلى المراتب**)، وقد استهلها ناظمها بالتوجيه التربوي الديني، ثم تعرض إلى ذكر علماء مدينة البطحاء:

وبعـــد ذا نـــذكر مـــا وعيـــت مـــن الأشـــياخ وعـــنهم رويـــت
مناقـــب بعـــض أهـــل الإغاثـــة في منشأهم في القـــرون الثلاثـــة
مشهور الاسم أن فشـــا ســـميته وغـــــيره إلى غـــــيري ســــــلمته

إلى أن قال:

منهم رجـــال ســـكنوا البطحـــاء كانـــت بهـــا بـــدورا أصـــفياء
لم يعرفـــوا قبـــورهم في عصـــرنا إلا مــــع التمنــــي في أماكنــــا
فكلهـــم درســـوا مـــا نـــدراس زمـــانهم فهـــم مـــن المنـــاسي
ولم يبق إلا النزر والحـــل خفـــى جـــر عليـــه الـــدهر نبلـــه غفـــا
وبعضــــهم أفـــاق لم يـــدخلا في الحصـــن في قريـــة منفصـــلا

وهذه المنظومة تحتوي على250 بيتا وإن كانت لغتها مهلهلة إلا أن قيمتها في موضوعها لها أهمية عظمى، وقد سبق لنا أن مدينة البطحاء أمكننا كشف الغطاء عنها بعد اطلاعنا على شرح موجز لـ : **(سينية)** أبي راس، قال فيه عند شرحه لـ : **(سينيته)**، قال: «ومرادنا بالبطحتين: سيرات، وملانة، وإلا فالبطحاء حيث أطلقت عندهم فالمراد بها قاعدة سويد، سمِّيت باسم مدينة هوارة الكائِنة بشاطئ نهر مينا ... ».

لقطات من تاريخ مدينة تيهرت
التاريخي والحضاري في القرون الأولى من العهد الإسلامي(1)

محاضرة: المهدي البوعبدلي، قرأها بالنيابة الدكتور بحاز إبراهيم

اخترتُ هذا العنوان لموضوع دراستي التي أساهِمُ بها في هذا **الملتقى** غير مقيَّد بالمحاور التي حوصر فيها موضوع هذا **الملتقى** لعدَّة أسباب مِن أهمِّها أنَّ تاريخ هذه المنطقة وإن حَظِيَ باهتمام كبير مِن نخبة المؤرِّخين والباحثين، كما حظيت كثير مِن تآليف هذه النُّخبة بالنَّشر والطَّبع إلَّا أن جلَّها نفدت طبعاته واختفى مِن أسواق الكتب، والتجأ الكثير مِن الباحثين إلى المراجع الأجنبية التي لا تخلو من أخطاء وغلطات، فمعذرة .

مدينة تيهرت: تعرَّض لتعريفها كثيرٌ مِن المؤرِّخين والجغرافيين، ونظرا لمجال هذه الدراسة المحدودة اخترت بين هذه التَّعاريف تعريفا جامعا اشتهر صاحبه بالدّقة والنزاهة والكفاءة وهو المؤرخ الجغرافي الشريف الإدريسي صاحب (**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**) الذي قال في تعريفه لمدينة تيهرت ما يلي: «مدينة تاهرت كانت فيما سلف من الزمان مدينين كبيرتين إحداهما قديمة والأخرى محدثة، والقديمة من هاتين المدينتين ذات سور وهي على قنة جبل قليل العلو وفيها ناس وزمل من البربر، ولهم تجارات وبضائع وأسواق عامرة، وبأرضها مزارع وضياع جمة، وبها من نتاج البرذان والخيل وكذلك العسل والسمن، وسائر غلاتها كثيرة مباركة، وفي مدينة تيهرت مياه

(1) ألقيت في الملتقى الوطني الأول حول تاريخ تيهرت الحضاري (من 1 إلى 2 أفريل 1987م).

متدفقة تدخل أكثر ديارهم ويتصرفون فيها، ولهم على هذه المياه بساتين وأشجار تحمل ضروبا من الفواكه الحسنة، وفي الجملة إنها بقعة حسنة »، ويقصد الشريف الإدريسي بتعريفه هذا مدينة تيارت الحالية، أي مقر ولاية تيارت المركزية، أما مدينة تاهرت في عهد الرستميِّين التي كانت عاصمة مملكة أئمتهم فكانت تعرف بتاهرت الحديثة، وتاهرت الحديثة هي التي عرفها الجغرافي الأندلسي الشهير أبو عبيد البكري حيث قال: «مدينة تيهرت مسورة لها أربعة أبواب باب الصفا، وقيل باب الصبا وقيل هكذا بين قوسين وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن وغيرها، وهي على سفح جبل يقال له جزول، ولا زال هذا الجبل يحمل اسم قزول، ولها قصبة مشرفة على السوق تسمَّى: المعصومة، وهي على نهر يأتيها من القبلة يسمى: رمينه قبلتها، ونهر آخر يجري من عيون تجمع تسمى: تاتش، ومن تاتش شُربِ أهلها وأرضها »، إلى أن قال: «وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج »، ثم ختم أبو عبيد البكري تعريفه بقوله: «قال بكر بن حماد أبو عبد الرحمٰن وكان ثقة مأمونا حافظا للحديث، سمع بالمشرق من عمر بن مرزوق، وبشر بن حجر، وبإفريقيا من سحنون وغيرهم، وسكن تيارت، وبها توفي، ثم ينقل ما قاله بكر بن حماد في تيهرت مِن قصيدته:

ما أخشن البرد وريعانه ... وأطرف الشمس بتاهرت

تبدو من الغيم إذا ما بدت ... كأنها تنشر من تخت

فنحن في بحر بلا لجة ... تجري بنا الريح على السمت

نفرح بالشمس إذا ما بدت ... كفرحة الذمي بالسبت

ثم قال البكري: «وهذه تاهرت الحديثة »، وبهذا الوصف المدقَّق الذي ختم به البكري تعريفه لتاهرت تبيَّن لنا أن تعريفه كان لتيهرت الحديثة التي أسَّسها الرستميُّون واتَّخذوها عاصمة مملكتهم، وهي مدينة: تاقدمت الحالية، وقد أشار إلى تعريفه البكري

وأكَّده في تعريفه لها بسطرين، السطر الأول قال فيه: «وعلى خمسة أميال تاهرت القديمة، وهي حصن برقجانة وهو شرقي الحديثة »، ونستنتج من تعريف البكري أنه لم يبق من تيارت القديمة ـ وهو المدينة الحالية ـ في عهد الرُّستميِّين إلا حصن قبيلة برقجانة الذي أطلق عليه ياقوت الحموي في تأليفه المشهور (**معجم البلدان**) أطلق عليه اسم: ابن بخاثة، كما سبق ذكره.

نقتصر على هذه التعاريف للتَّفرقة بين تيارت القديمة التي عرفها الشريف الإدريسي وتيارت الحديثة، أي التي أسَّسها الرستميُّون واتخذوها عاصمة مملكتهم وهي المشهورة في زمننا هذا، أي آثارها بتاقدمت، إن كثيرا ما تسربت أغلاط وأخطاء لكثير من الكتاب والباحثين في هذا الموضوع، هذا وإنه كما سبقت لنا الإشارة إلى ذلك، وبعد التعريف بمدينتي تيارت أو تاهرت القديمة والحديثة، نواصل حديثنا عن بقية موضوع الدراسة كما يدل عليها عنوانها: «**لقطات من تاريخ مدينة تيارت الحضاري والثقافي في القرون الأولى من العهد الإسلامي**»، إذ تتبع الموضوع يستدعي عدة محاضرات، ولهذا أكتفي ببعض اللقطات التي يسمح لنا بها مجال هذا الملتقى، فنتحدث عن ملخص العهد الرستمي ثم عهد مملكة ونشريس الذي كانت تاهرت أو بعبارة أوضح تاقدمت عاصمة المملكة، وقد امتازت تاهرت في العهد الرستمي أنها احتفظت بتراث تاريخنا كاملا غير منقوص ومن أهم التراث: (**كتاب تاريخ الأئمة الرستميِّين**) لابن الصَّغير ـ الذي حقَّقه ونشره المستشرق الفرنسي ـ موثيلا نسكي دوكالا سوتني، سنة 1905م بمؤتمر المستشرقين المنعقد في مدينة الجزائر ـ ولا زال اعتناء بعض المستشرقين بتاريخ الدولة الرستمية وآثارها متواصلا إلى عهدنا هذا، وكلُّ ما نلفت انتباه المستمعين والقرَّاء إليه هو أن بعض هؤلاء المستشرقين يرَون أنَّ الدولة الرستمية هي أول دولة تكوَّنت بالجزائر في العهد الإسلامي، وهذا غير صحيح، فإن أول دولة

جزائرية كوّنت في العهد الإسلامي هي دولة مغراوة التي كانت رقعتها ما بين سهول مليانة إلى وهران، وهي التي أسَّس ملوكها مدينتي: تنس، ووهران، وقد قضى عليها بلقين بن زيري في عهد الملوك الطائفيِّين في معركة حاسِمة دارَت ما بين البطحاء وتاهرت، كما نقله سليمان الباروني عن ابن الصغير ففي تأليفه: (**أزهار الرياض**) يصف تاهرت في العهد الرستمي بما يلي: «ثمَّ شرعوا في العمارات والبناء، وإحياء الموات، وغرس البساتين، وإجراء الأنهار، واتخاذ الرحى والمستغلات، وغير ذلك واتَّسعوا في البلد وتفسحوا فيه، وما أتتهم وفود الغرباء إلا استوطن معهم وانتمى بين أظهرهم لما يراه من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته، وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويِّين، وهذا مسجد البصريِّين، وهذا مسجد الكوفيِّين، واستعملت السُّبل إلى بلاد السودان، وإلى جميع البلدان مِن مشرق ومغرب بالتِّجارة »، إلى أن قال في حقِّ الإمام أفلح: «وشمخ ملكه، وابتنى القصور واتخذ أبوابا من الحديد، وبنى الجفان وأطعم فيها الجيعان، وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات، وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق، وتنافس الناس في البنيان».

نكتفي بهذا القدر لننتقل إلى تاهرت في عهد مملكة الونشريسي كما عرفها الشريف الإدريسي الذي قال في حديثه عن جبل الونشريس ما يلي: «جبل ونشريس يسكنه قبائل من البربر منها: مكناسة، وحرشون، وأوربة، وبنو أبي خليل، وكتامة، ومطماطة، وبنو مليلت وبنو ارتجان، وبنو أبي خليفة ... وطول هذا الجبل أربعة أيام، وينتهي طرف هذا الجبل إلى قرب تاهرت ... وكانت بمملكة ونشريس هذه، قلاع حصينة، منها: تاقدمت، وتافرقينت، والمدية، وتاغزوت ... الخ ».

تكوَّنت مملكة ونشريس هذه في أواخر القرن الرابع الهجري عندما اشتد الخلاف

بين باديس ملك بني زيري بالقيروان وعمه حماد بن بلقين فانتصر بنو توجين هؤلاء لباديس وكان النصر حليفه، فاعترف لهم بالجميل وأقطع لهم حكم جبل ونشريس، وكانت إمارتهم في بدايتها تعرف بإمارة بني توجين ثم استحالت إلى مملكة في عهد الأمير عبد القوي وصارت تعرف بمملكة ونشريس، ولعبت أدوارا في تاريخ البلاد كما سنبين ذلك، وكانت رياسة توجين لما تكونت إمارتهم في أسرة بني دفلى، وتداول أفراد هذه الأسرة الإمارة التي كانت في بدايتها إمارة بدوية، ولنترك الكلمة للمؤرخ عبد الرحمٰن بن خلدون الذي خصص هذه المملكة في صفحات تأليفه وهي وإن كانت متفرقة إلا أنها جامعة تناول فيها مراحل تاريخها وقد أطلق عليها اسم: **مملكة ونشريس**، قال ابن خلدون في الموضوع ـ أي: في التعريف بأمرائها بني توجين الذين كانت تنسب إليهم في أول عهدها قال: «كان هذا الحي من أعظم أحياء بني باديس وأوفرهم عددا وكانت مواطنهم حقا في وادي شلف قبل جبل ونشريس من أرض السرسو، وهو المسمَّى لهذا العهد نهرصا، وكان بأرض السرسو وبجهة الغرب منه بطون من لواتة، وغلبهم عليهما بنو وجديجن ومطماطة، ثم صارت أرض السرسو لبني توجين هؤلاء، واستضافوها إلى مواطنهم الأولى، وصارت مواطنهم ما بين موطن بني راشد ـ مدينة أفلو ـ وجبل دراك في جانب القبلة، وكانت لهم رياسة أيام صنهاجة لعطية ابن دافلتن وابن عمه لقمان ابن المعتز كما ذكره ابن الرقيق ولما كانت فتنة حماد ابن بلقين مع ابن أخيه باديس ونهض إليه باديس من القيروان، حتى احتل بواد الشلف، تحيز إليه بنو توجين هؤلاء وكل لهم في حروب حماد أثار.

ولما كان تتبع مراحل تاريخ هذه المملكة الخالدة، لا يسعه المجال كما سبقت الإشارة إلى ذلك في مقدمة هذه الدراسة، فلنقتصر على ذكر بعض الخطوط العريضة من تاريخها، وأهمها.

إن دولة الموحدين في أول نشأتها وتكوينها نجد لها علاقة متينة بهذه المملكة، حيث

إن **ابن تومرت** مرَّ عليها بعد مفارقته لبجاية فأكرمه سكانها وانضم إليه أحد أبنائها وهو عبد الله بن محسن المكنى بالبشير الونشريسي الذي ولاه الإمام المهدي قيادة جيشه عندما ثار على الملك علي بن يوسف ابن تاشفين (رحمهما الله تعالى، ورضي عنهما وأرضاهما) كما ولاه رتبة سامية وهي عضو في أعلى مجلس حربي وسياسي كان تخصصه التصرف التام في جميع دولة الموحدين، ولما تكونت دولة الموحدين وثار عليها بنو غانية من بقايا وأقارب الدولة الَّلمتونية، فنزلت [جنودهم] على حين غفلة بمرسى بجاية ثم انسحبوا إلى بلاد الجريد، لخبر يطول، جهز لهم ملك دولة الموحدين الخليفة يعقوب المنصور بن يوسف بم عبد المؤمن بن علي المراكشي الظاهري (رحمه الله تعالى، ورضي عنه وأرضاه) جيشا لمتابعتهم وقمعهم ومر في طريقه على مملكة ونشريس وكان أميرها إذ ذاك عطية ابن دفلتن فانضم إلى جيش الخليفة الموحِّدي ورافقه في مسيرته فمن عليه الخليفة، ونالت إمارته التي كانت تعرف بإمارة ابن توجين وكانت قاعدتها تاقدمت فنالت استقلالها الذاتي على حد تعبير المعاصرين، ثم نالت استقلالها التام في عهد الملك ابن زكريا الحفصي، لخبر يطول.

وفي عهد الحملة الصليبية التي قام بها الملك سان لوي الفرنسي على مصر ثم تونس كان لجيش مملكة ونشريس يد في رد العدو الصليبي، وذلك أن الملك المستنصر بالله الحفصي استنجد بصهره ملك ونشريس محمد بن عبد القوي فكان لملك ونشريس المذكور أياد في النصر، فاعترف له بها الملك الحفصي وعينه من جملة نخبة قادة الجيش الذين كلفوا بعقد صلح الاستسلام.

هذا وإن كانت مدينة قرطاج لا زالت تحتفظ بضريح الملك الفرنسي سان لوي إلى عهدنا هذا، فإن الأخبار المتواترة عن معظم المؤرخين أن الملك لقي حتفه إثر مرض.

وقد خصص ابن خلدون لهذه الواقعة فصلا قيما امتاز بإظهار مواقف ولي عهد

مملكة ونشريس البطولية ومواقف جيشه الباسل في رد عدوان هذه الحملة الصليبية التي قام بها الملك الصليبي الشهير سان لوي، ولما كانت القاعدة الجارية عند الباحثين والمؤرخين أنه: «ما لا يدرك كله لا يترك جله »، وكانت مملكة ونشريس لها مكانة في تاريخ بلاد المغرب العربي وبالخصوص في الجزائر، وقد تناول تاريخها بتفصيل العالم الشهير عبد الرحمٰن بن خلدون والشريف الإدريسي، كما تناول تاريخها السياسي والثقافي بعض الفقهاء في نوازلهم وبالخصوص يحيي بن زكريا المازوني في: (**الدرر المكنونة في نوازل مازونة**) عندما تحدث عن قبيلة بني تيغرين التي كانت تحكم من مملكة ونشريس في عهدها الأخير وهو عهد انحطاط المملكة.

ومما لا يفوتنا أن نلفت انتباه القراء إليه هو أن قبائل هذه المملكة انطلاقا من ظهور إمارة بني توجين في عهد خلفاء دولة الموحدين بقي أفراد المملكة من بني دافلتن يتداولون حكمها، كما لا زالت هذه القبائل تحتفظ بأسماء رؤسائها، خلفا عن سلف، خصوصا اسم أول رئيس تولى الإمارة التي استحالت إلى مملكة كما سبقت الإشارة إلى ذلك وهو عطية بن دافلتن التي تكونت في عهده الإمارة التي عرفت في أول عهدها بإمارة بني توجين ثم استبدلت بمملكة ونشريس.

وقد اشتهرت هذه القبيلة لا في ميادين الحروب والبطولة فقط بل في ميادين الثقافة، وقد كان من حسن حظ التاريخ أن خصص أحد أبنائها البررة وهو العلامة أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب: (**المعيار المغرب عن فتاوى إفريقيا والأندلس والمغرب**) الموسوعة الفقهية الشهيرة خصص مواطنيه بتأليف جمع فيه وفيات بعض أعلامها، وقد طبع مع كتاب (**ذيل الدِّيباج**) لأحمد بابا التنبكتي .

وقبل الختام اسمحوا لي: إن كثيرا من علماء التاريخ ما زالوا إلى يومنا هذا يعقدون المؤتمرات يخصصونها لدراسة آثار اسم وحضارات بادت منذ قرون، مع الأسف

الشديد إن هذه المملكة التي تركت بصماتها في تاريخ بلاد المغرب العربي بصفة عامة وتاريخ الجزائر بصفة خاصة طيلة سبعة قرون أو أزيد وتركت جل قبائلها الذين خلدوا أمجادها في الميادين البطولية والثقافية أبا عن جد ولم يفارقوا البلاد، إلا أنهم لقوا الجحود وعدم الاكتراث الدالة على التخلف والهوان.

وقبل الختام أستسمحكم العفو أن أقتصر على بعض الخطوط العريضة من تاريخ هذه المملكة التي أحيا ذكرها الأمير عبد القادر في عهده، وأنشأ فيها بعض مؤسَّسات الدولة، كما نقل إليها كثيرا من الأسر التركية، وقد تعرض للآثار التي تركها الأمير عبد القادر في مدينة تاقدمت المستشرق المشهور جورج مارسي المتخصص في عهده بدراسة أثار الفن المعماري الإسلامي، فكتب عنها فصلا ذكر فيه أن تاقدمت لم تحتفظ من تاريخها الطويل والأدوار التي لعبتها في عهد بني توجين، و أن سبب ذلك يرجع إلى أن سكانها، كانوا يحتفظون ببداوتهم حيث كانوا يسكنون الخيام.

هذه لقطات ذكرناها من تاريخ هذه المنطقة التي احتفظ لها التاريخ بمكانتها وأمجادها فأملنا أن يسعى أبناء هذه الناحية إلى الاشتغال بتاريخ بلادهم ويجمعوا الوثائق التي لا زال الكثير منها يحتفظ به بعض الخزائن الخاصة والعامة منها قبائل: مكناسة، ومطماطة، وحرشون، وسحنون، وغيرهما.

المهدي البوعبدلي

لقطات من تاريخ الهجار
في المجالات الثقافية والحضارية والسياسية[1]

إنني بمناسبة انعقاد المؤتمر الثالث عشر للفكر الإسلامي بتمنراست قاعدة الهجار ومبادرة (**مجلة الأصالة**) كعادتها لتخصيص عدد مِن أعدادها لهذه الملتقيات، اخترتُ أن أتناولَ بالبحث هذه الدِّراسة التي هي كما يدلُّ عليها عنوانها: (**لقطات من تاريخ الهجار في المجالات الثقافية والحضارية والسياسية**)، إذ هي النقطة الأولى مِن النقاط الأربع التي تنحصر فيها دراسات الملتقى.

لفتت هذه المنطقة أنظار الباحثين والمؤرِّخين مِن عهد قديم، يرجع إلى عشرة قرون قبل الميلاد، وقد خصِّصت بدراسات وتآليف لا زال معينها لم ينضب بعد، هذا وإن كان كثير مِن الباحثين هدفهم التعمُّق في البحث العلمي لهذه المنطقة التي جعلها مَوقعها الجغرافي صِلة وصلٍ بين حوضي الأبيض المتوسط وتخوم السُّودان، وبالطبع كانت هذه المنطقة ممرًّا للقوافل التِّجارية مِن قديم ـ أي قبل الإسلام وبعده ـ.

كان منطلق الاعتِناء بتاريخ الهجار وسكَّانه ـ التوارق ـ مِن عهد أفلاطون وهيرودوت وغيرهما، وإنَّني في هذه الدِّراسة سأقتصر على تاريخ ما بعد الإسلام بإيجاز، ثمَّ أركِّزها على أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الجاري الميلاديَين، ولا يمنعني هذا الالتزام من التعرُّض إلى تاريخها القديم كلما جرني إلى ذلك سياق الحديث، إذ تاريخ هذه المنطقة ـ كما سبق لنا ذكره ـ كان محلّ عناية مؤرِّخي

(1) مجلة الأصالة، العدد 72، ص2-17.

مختلف الأجناس، ولا زالت استمرارية تلك العناية إلى عهدنا هذا، كما سنبيِّن ذلك.

نذكر مِن بين المؤرِّخين والرَّحَّالين المسلمين الذين اعتنَوا بتاريخ هذه الناحية ابن حوقل، وأبا عبيد البكري، وغيرهما ـ فتعرَّضوا للقوافل التجارية التي كانت تجوب الطريق، انطلاقا مِن بلاد المشرق ـ على طريق مدينة القيروان (عاصمة إفريقيا)، ثمَّ على طريق قلعة بني حماد، بعد سقوط القيروان ـ إلى أوداغست منبع مناجم الذَّهب، ذلك الذَّهب الذي وصفه أبو عبيد البكري بقوله: «وذهب أوداغست أجود ذهب الأرض وأصحّه».

وقال في موضع آخر يصف **(قلعة بني حماد)** التي ورثت مكانة القيروان الاقتصادية ما يلي: «وهي اليوم مقصد التُّجَّار، بها تحلُّ الرِّحال مِن العراق والحجاز ومصر والشَّام وسائر بلاد المغرب»، وقد عرف هذا الطريق عند القُدامى بطريق الذَّهب.

هذا، ولم تكن الناحية الاقتصادية التي كانت منطقة الهجار مِن أشهر محطَّات قوافلها التجارية في طريقها إلى أوداغست، هي الدَّاعي الوحيد إلى اهتمام الباحثين والمؤرِّخين الذين سبق الحديث عنهم، بل كانت هناك دواع أخرى، منها آثارها الحضارية، كبقايا فنِّ النَّحت والتَّصوير، كما أنَّ كثيرا من العلماء المتخصِّصين في دراسات السُّلالات البشرية ذهبوا إلى أنَّ التوارق ـ سكَّان الهجار ـ مِن بقايا سكَّان جزيرة خسفت بسكَّانها الأرض، ولم يبق مِن سكَّانها إلا أقلية اندمجت في قبائل التوارق، وهذه الأقلية تعرف بـ : **(المازيك)**، الذين تحدَّث عنهم المؤرِّخ اليوناني هيوردوت (Hérodotte)، وهذا لا يمنع ـ في نظرهم ـ بأنَّ أغلبية سكَّان التوارق من أصلٍ بربري، كما سنتحدَّث عن ذلك بِمزيد مِن التَّفصيل.

بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 توغَّلت فرنسا واحتلَّت أجزاءً كثيرة

من الصَّحراء والسنغال، وحينئذ فتحت أبواب هذه المناطق إلى مختلف روَّاد الصَّحراء مِن عسكريِّين ومدنيِّين وقسِّيسين، تقمَّصوا مختلف الأردية لتغليط السكَّان وتضليلهم، حيث كانوا يتتبَّعون حركاتهم بمزيدٍ مِن الحيطة والحذَر، ولهذا كان جل هؤلاء الرُّواد يتعرَّضون للاغتيال، وكان المسؤولون الفرنسيُّون يخفون الأسباب الحقيقية لهذه الاغتيالات التي كثيرا ما ينسبونها إلى الُّلصوص وقطَّاع الطُّرق، هذه المواضيع التي سأتعرض إلى دراستها في هذا البحث، بعد التعريف بهذه المنطقة.

كانت تمنراست هي قاعدة بلاد التَّوارق وهي محاطة بقرى يسكنها الحراطين والسود الذين كان التوراق يسخرونهم للخدمة التي يأنفون من مباشرتها بأنفسهم كالحراثة، والرعي، وما إلى ذلك.

استولى الفرنسيون على ناحية تمنراست ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر، ومن جملة من وصفها بعد الاحتلال الفرنسي مباشرة، الراهب الأب دوفوكو الذي اختارها للإقامة من سنة 1905 إلى أن لقي حتفه في ديسمبر 1916.قال دوفوكو: «اخترت الإقامة بتمنراست التي وجدت فيها اثنين وعشرين كانونا » ـ أي أسرة ـ ثم قال: «موقعها في قلب جبل الهجار، منعزلة عن القرى الآهلة بالسكان، يلوح لي أن هذه القرية ستبقى بعيدة عن العمران الأوروبي، لا تتخذ فيها قشلة عسكرية، ولا محطة للبريد والمواصلات، كما لا تتخذ البعثات مقرا، ولهذه الأسباب اخترت هذا المقر المهجور، وألقيت فيه عصا التسيار » اهـ.

وقبل أن تتخذ تمنراست قاعدة المنطقة كانت القاعدة هي حصن موتيلانسكي، ولم يستبدل حصن موتيلانسكي بتمنراست إلا في سنة 1920، كانت منطقة الهجار إثر الاحتلال الفرنسي تمتد من الشمال إلى الجنوب بنحو الألفين كم، ومن المشرق إلى المغرب بنحو الألف كلم، وجميع سكان المنطقة لا يجاوز عددهم عشرة آلاف نسمة،

ورغم استحالة تمنراست إلى قاعدة الهجار فلم ينم عدد سكانها إلا ببطء، حيث إنه عندما زارها الوالي العام بالجزائر إذ ذاك هو كارد (سنة 1932) رافقه الجنرال دوشان (Deschamp)[1] الذي دون رحلته وقال مقارنا بين حالة تمنراست إذ ذاك، وما سبق من وصف الأب دوفوكو عندما نزل بها سنة 1905 فقال: «والآن استحال عدد الكوانين ونما، فبعد أن كان اثنين وعشرين وصل إلى أربعين »، ثم قال الجنرال دوشان: «ويطل على سكان هذه الكوانين حصن لابرين (Laperrine) وقد بني بالقرية **نزل كاتلان** (Hôtel Catala)، ومركزا للبريد، وسكنها الأوروبيون، كما أقيم بها معرض سنة 1930 » اهـ.

هذا ما وصلنا من وصف تمنراست بعد الاحتلال الفرنسي، ولنرجع إلى الوراء قليلا لاستعراض تعاريف بعض المؤرخين المسلمين، من بينهم الرحالة ابن بطوطة والمؤرِّخ **عبد الرحمٰن بن خلدون**، ثم المؤرخ الجزائري **محمد أبو راس الناصري**[2] الذي قال في تأليفه: (**عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**)[3] عند تعداده لقبائل صنهاجة فقال: «قلت وقد أخبرني الطالب الأجل، الناسك الأمثل، شقيقي سيدي عبد القادر، برد الله ضريحه، وأسكنه من الفردوس فسيحه، وكان ذا معرفة بتلك البلدان لما مر بها وتخطاها إلى السودان ... وكان إخباره لي بذلك، لما سألته سنة أربع وتسعين ومائة وألف... »، إلى أن قال: «ثم إن صنهاجة أهل اللثام المعروفون عندنا بالتوارق مساكنهم

(1) دون الجنرال دوشان رحلة الوالي العام كارد ونشرها بنشرة الجمعية الجغرافية بالجزائر المؤرخة في جانفي 1932 بعدد سنتها السابعة والثلاثين (37 éme année).

(2) محمد أبورأس الناصري الراشدي (1165 – 1237 هـ) له تآليف عدة.

(3) عجائب الأسفار ولطائف الأخبار: شرح به منظومته السينية التي هنأ بها الباي محمد بن عثمان فاتح وهران سنة 1206 هـ، والكتاب لم يطبع إلا أنه ترجمت كثير من فصوله ونشرت في المجلة الإفريقية والمجلة الآسيوية الفرنسية.

بين السودان وبين الرمال التي هي تخوم بلاد البربر، متصلون بالبحر المحيط لهذا العهد، في المغرب إلى ساحل النيل بالمشرق، وهم الآن على اختلاف الكلمة، واختلاف السنن على عهدهم الأول، بعضهم يعطون الطاعة لملك السودان ويفرون في عسكره، ولهم شرف بأرضهم، وتمر عليهم القوافل إلى السودان، فكان أحب شيء عندهم الدخان، وإن أراد أحدهم الأكل وهو من أهل الكبار تنحى قليلا، ونصب درقته بينه وبينهم، حذرا من أن يروا فمه، وإن ظفروا في غزوهم بمال، أخذوا منه الإبل والبقر، وأما الغنم فيأخذها حشمهم يقال له العنادى، وبيوتهم من الجلد، وإن ذبحوا لضيف جمعوا له كل اللحم، فيأكل والباقي يتزود به، وبإزائهم رهط يقال لهم كُنْتَ (بإشمام، وهي الآن بعضها تابع لمالي، وبعضها لموريطانيا) وأفراد هذه القبيلة ينتمون إلى بني أمية والأنصار، لم تتغير اللغة العربية عندهم إلى الآن »، ثم واصل أبو راس حديثه فقال: «هكذا أخبرني شقيقي سيدي عبد القادر رحمه الله، فقبيلة كدالة منهم ـ أي من صنهاجة ـ قبلة المعقل عرب سوس الأقصى، ولمتونة وتريكة في مقابلة ذوي الصور » ثم قال أبو راس: «ومر الكلام على ملوك لمتونة، ومسوفة في مقابلة المغرب الأوسط، ولمطة في مقابلة عرب الزاب، وتركا في مقابلة إفريقيا ... الخ » .

والخيل عندهم قليلة أو معدومة ويركبون من الإبل الفاره يسمونها النجيب، ولهم مع بني سعيد من بطون رياح عرب ورقلة وقائع وغارات إلى الآن، ويغيرون أيضا على سوف وغدامس وفزان وغيرهم، وأما أهل ورقلة فهم من بني يفرن ومن مغراوة، وأميرهم يقولون له السلطان، وعلى عشرين مرحلة إلى القبلة منحرفا قليلا إلى المغرب، بلدة نكدة لصنهاجة، وقد اجتاز بهم نفر من تجار مالي أيام أبي عنان ـ الملك المريني ـ فأعطوهم اثني عشر ألف راحلة زكاة، وأما أهل فجيج وتيكرارين وتوات، وأكثر مصاب فكلهم صنهاجة، وبعض مصاب من لماية، والله أعلم » اهـ .

ما ذكره أبو راس أثبته على طوله وأقتصر عليه دون غيره من تعاريف ابن بطوطة وابن خلدون لقرب عهده، ولما اشتمل عليه من التفاصيل، حيث صور لنا حال المنطقة وسكانها، تصوير خبير شاهد عيان، إذ نجد معظم من تعرض لتاريخ هذه النواحي من المتأخرين إلا واعتمد في كتاباته على المصادر الأجنبية، وكلها خلط بين التاريخ والأساطير، كما أنها لا تخلو من تزييف وتشويه، وقد تصدى لكشفها والرد على أصحابها، كاتب فرنسي معاصر، سنتحدث عنه في هذه الدراسة، وقد رأيت أن ألحق تعريفا له أهمية لمؤرِّخ معاصر وهو هنري تيراس (Henri Terrasse)[1].

قال في تأليفه: (**تاريخ المغرب**) في التعريف بدولة المرابطين اللمتونيين: «وقد عرف الصنهاجيُّون بعد الفتوحات الإسلامية بالملثمين، وكانوا متفرقين من غدامس إلى المحيط الأطلنطي، ومن جنوب المغرب إلى السنغال والنيجر، وفي القرن التاسع الميلادي كانت جموعهم تشمل لمتونة ومسوفة، وكانوا يجوبون الصحراء، وحينئذ اتخذوا أوداغست قاعدة حكمهم، وقد نظموا التجارة بواسطة القوافل التي كانت تصل إلى تخوم صحراء مصر » اهـ.

نكتفي بهذا القدر من التَّعاريف بهذه المنطقة التي اهتم بها المؤرخون القدامى والمتأخرون ثم لفت أنظار الكتاب والباحثين إليها من جديد، استيطان الراهب دوفوكو لقاعدتها بتمنراست، وكانت مدة إقامة دوفوكو بها، مرتبطة بأحداث عقائدية وسياسية اجتاحت المنطقة، ولا زالت محل عناية الباحثين من مختلف الملل والنحل، إذ حياته كادت أن تجمع بين النقيضين: الحياة المادية والحياة الروحية، ثم تغلبت حياة الزُّهد والتقشُّف على حياة البذخ والترف والاستهتار، وهذا الصراع بين الحضارتين

---

(1) هنري تيراس كان أستاذا بجامعتي الجزائر والرباط في الخمسينات، له كتاب سماه: (**تاريخ المغرب**)، كان يدرس بثانويات المغرب الأقصى، كما أن له تآليف قيمة في الآثار الموحِّدية.

صبغ كثيرا من الرجال الأفذاذ ينتمون لمختلف الأجناس والديانات، وقد شخصه أحد الشعراء المعاصرين في حياة أبي الطيب المتنبي الذي تنازع فيه هذان العاملان وقال في تأبينه الألفي على لسانه:

يا لعمر مشيا فيه معا

بجسده النازل عن شهوته سلم العارم روح السامية

فهو لا ينفك عن شهوته وهي لا تعرف إلا آلاما

هذا وإن الأب دوفوكو كما يقال: قتلت حياته بحثا وهي كغيرها من تراجم أمثاله، إلا أن هناك بعض الجوانب منها فيه عبر، فالرَّجل الذي كان ينتمي إلى أسرة نبيلة ثرية، وقد تخرج من كلية حربية ضابطا، وأطلق لحياته الاستهتارية عنانها حتى كان كثير من وزراء عهده يعجزون عنها، إذ كان ينفق في مباذيله حوالي خمسة ألف فرنك شهريا في التسعينات من القرن الماضي الميلادي، وبعد اعتناقه للمسيحية تحوَّل إلى حياة الزُّهد والحرمان والتقشُّف، حتى نصحه أطبَّاؤه بأنه إن تمادى على تلك الحياة يهلك، وبعد حياة مليئة بالمفاجآت والاضطرابات، والخوف والجوع، تفرَّغ لمهمَّتِه التَّبشيرية، حيث ختم به المطاف بتمنراست، وقد أدرك مِن أوَّل وَهلة أنَّ مهمَّته في مجال التَّبشير لم تلق نجاحا، ولكنه لم يبال بنتائج أعماله، ولم يستعجل جني ثمارها، بل رأى أنه عليه أن يخطِّط الخطط، ويضرب المثل للتَّضحية، فبعد أن ضحَّى بالحياة المادية في جميع مظاهرها: حياة القصور والسهرات والمطاعم الأنيقة، صار يلبس الخشن من الثياب ـ عباءة الصوف ـ وصار يأكل الخبز أو التمر والحليب حتى سقطت أسنانه، ثم اختار سكنه قرية تمنراست المنعزلة عن العمران، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى تنازع فيه عاملان أيضا، مهمته التبشيرية، ووطنيته، وهو وإن كان يرى أن الدين في خدمة الوطن، فقد تغلبت عليه الروح الوطنية، وصادف إذ ذاك اندلاع الثورة الليبية على

الإيطاليين سنة 1916، تلك الثورة التي دعمها التوارق، وسكَّان الصَّحراء الذين كانوا تحت حكم الفرنسيين، وكلفت الإيطاليِّين والفرنسيِّين خسائر فادحة، فعندئذ خرج الأب دوفوكو من عزلته، واسترجع بذلته العسكرية التي خلعها عند عبوره لبلاد الصَّحراء، وإنني سأتعرَّض بمزيد من البيان لموقفه الذي جر له اغتياله بتمنراست في ديسمبر 1916 في هذه الدِّراسة، إنما لا يفوتنا أن نذكر أن مدة إقامة الأب دوفوكو بتمنراست من سنة 1905 إلى 1916 فتحت الأبواب لمختلف الدارسين فأعادوا النظر في تاريخ هذه المنطقة، وبالطبع كانت كتاباتهم لا تخلو من مبالغة وتزييف، مما أدى ببعض زملائهم إلى الرد عليهم على أضواء الوثائق التي فتحت من جديد، وأعيد النظر لماضي الهجار بعد عبور الرعيل الأول من رواد الصحراء الذين سبق الحديث عنهم، كان في طليعة من تولى الرد على الكتاب المذكورين الصحافي الفرنسي كلود موريس روبير [1] في تأليفه المسمَّى: **(ناسك الهجار)** [2]خصصه لمراحل ترجمة دوفوكو نستعرض منها بعض اللقطات، قال: «بعد مرور ربع قرن على احتلال الجزائر، كتب أحد الصحفيِّين ما يلي: «إن التوارق يكنون الاحترام والإعجاب للفرنسيِّين، فالتوارق أمة قوية مهابة يرغبون في توثيق علائقهم مع الفرنسيِّين في ميادين التجارة، وبالفعل فإن هذه الأمة تشغل موقعا واسعا بين الصَّحراء الجزائرية وبلاد السُّودان تمبكتو (Tombouctou)، ثم قال: «يبلغ عدد سكَّان التوارق مليون نسمة، وقد جعلهم موقع بلادهم الجغرافي صِلةَ وَصلٍ بين الجزائر وتمبكتو، ثمَّ تمتدُّ هذه الصِّلة فيما بعد بيننا وبين مستعمرتنا السِّنغالية » اهـ.

(1) كلود موريس روبير (Claude Maurice Robert) محرِّر جريدة صدى الجزائر اليومية (L'écho d'Alger).

(2) l'ermite du Hoggar, Edit Bacconier, Alger, 1939.

وعقَّب الصَّحافي **موريس روبير** على هذه الجمل بقوله: «هذه الترهات نشرت بجريدة صدَرت في وهران سنة 1856 »، ثمَّ أضاف عيِّنة أخرى فقال: «وبعد نصف قرن فقد مِصباحنا إنارتَه، حيث إنَّ الكاتب **بول لوروا بوليو** (Paul Leroy Beaulieu) الكاتب الشهير كتب من دون حياء أو خجل، مخاطبا رجال حكومة فرنسا بقوله: «انشروا الأمن في هذه النواحي الشاسعة، وأضيفوا إلى ذلك استغلال المياه للانتفاع بها، فحينئذ يمكن للصحراء بعد حقبة من الزمان أن تغذي عشرة ملايِين نسمة، إن لم تكن عشرين مليونا ».

ثم واصل الصحافي روبير حديثه بقوله: «إنني لم أخترع شيئا فيما ذكرته فذاك ما نقلته من تأليف سماه صاحبه: **(الصَّحراء)** نشر سنة 1904م، وهذا الكتاب يوجد في واجهات كل المكتبات بالجنوب ـ أي بالصحراء ـ حيث لم نجد أثرا لكتاب: **(اكتشاف المغرب)** تأليف الأب دوفوكو » ـ وهنا بين قوسين يرى الصَّحافي روبير أنَّ دوفوكو لم يخف في تأليفه المذكور تشاؤمه مِن مغبَّة احتلال الصَّحراء، ولهذا تواطأ أنصار الاحتلال لبلاد الصَّحراء على ترويج التآليف التي تدعِّم آمالهم وأحلامهم، وبالطَّبع كان المروِّجون لهذه المغريات ضبَّاط الجيش الذين تمكَّنوا مِن استرجاع نفوذهم الذي فقدوه بالشَّمال بعد استبدال الحكم العسكري بالحكم المدني، ثم واصل الصَّحافي روبير حديثه بقوله: «أما تمبكتو ملكة الصحراء التي لا زالت توصف بالخفية رغم دنسها وقذارتها فهي كما يقال عن القطران: إنه يشفي الجرب كما يشفي السودان الفقر »، ثم علَّق على ما نقله بقوله: «إن الكتاب الذين يسبحون في بحر الخيال والأوهام لا زالوا يحلمون بالقوافل التي تحمل دقيق الذهب، وريش النعام، والعاج، والزمرد الذي أشيع أن قافلة رائد الصحراء **فلاتير** (Flatters) [1] اكتشفته بكثرة، وكان من بينه من يبلغ حجم بيض

---

(1) ذكر هذه الرواية القبطان بروسلار:

Capitaine Brosse lard: " les deux missions Flatters ".

الدجاج »، ثم قال الصحافي **روبير**: «والآن عندما أزيل القناع عن التوارق انحل اللغز، فدقيق الذهب موجود، إلا أنه يتمثل في رمال التلول ... »، ثم قال: «ينبغي أن نعيد النظر لتصحيح موقفنا في قيمة الصحراء الاقتصادية، فإنها منعدمة تماما، وستبقى منعدمة، وإنما تنحصر قيمتها في المجالين السياسي والموقع الجغرافي ـ المعبَّر عنه الآن الاستراتيجي ـ فالصحراء برزخ، يفرق بين عالمين، كانت العداوة بينهما محكمة، عالم إفريقيا البيضاء، وإفريقيا السوداء، وبعبارة أصح عالم متمدن وعالم همجي متخلف ».

ثم أضاف الصَّحافي روبير إلى ما قاله مخاطبا قراءه بقوله: «إنكم كثيرا ما تطلعون على أمثال هذه الترهات التي لا يقصد منها إلا ذر الرَّماد للسُّواح والصحفيِّين الأغبياء، مثل قولهم: الصَّحراء إمبراطورية، مساحتها تُعادِل مساحة فرنسا عشر مرات ».

« والحقيقة أن هذه الإمبراطورية فارغة وستبقى فارغة ... »، إلى أن قال: «ذكرت في الطبعة الأولى من هذا الكتاب (أي ناسك الهجار) إن عدد التوارق يبلغ 7800 نسمة، منها خمسة آلاف من الهجار وثمانمائة وألفين من أزجر، وقد كنت سخيا حينئذ، إذ نشرت الحصافة الإحصائيات الأخيرة لعدد السكان، فذكرت أن عدد سكان الهجار يبلغ ثلاثة آلاف، وعدد إخوتهم أزجر من سكان منطقة جانت يبلغ خمسمائة وألف، فالجميع خمس مائة وأربعة آلاف، ولهذا نرى أننا بعيدون من عدد المليون نسمة، الذي قدمه الصحافي الوهراني، سنة 1856 »، ثم واصل الصحافي روبير حديثه بقوله: «ومن جملة ناشري هذه الترهات الكاتب هنري دوفيري (Duveyrier) فإذا كانت حالة التوارق الذين عرفهم بمثل ما وصفهم به سنة 1860، فكيف نصف حالتهم التي هم عليها في وقتنا هذه » أي: سنة 1938، ثمَّ قال الصحافي **روبير**: «ومن ذلك العهد ـ أي: صدور كتاب دوفيري (Duveyrier) ـ نجد سوَّاحا وكتَّابا وموظَّفين تبارَوا وتسابقُوا إلى خلق بلاد الهجار البعيدة كل البعد عن الواقع التاريخي، أكثر مِن **بيير بونوا** (Pierre Benoit) الذي ضمن روايته المسماة: (**اتلانتيد**)، تلك الرواية التي فتحت للكتاب

الخياليين الافتراضات والتكهنات من بينها أن بلاد الهجار هي ينبوع البربر، وإن موقعها هو محور البشرية ... الخ ».

ثم قال الصَّحافي **روبير** رادًّا على الكتَّاب الذين حاولوا تزييف التاريخ، ومِن بينهم **قوتي** (Gauthier) صاحب كتاب: (**الصَّحراء**) الذي نقض الصحافي المذكور بعض ما كتبه في تأليفه (**الصَّحراء**) الذي روَّجه المستعمِرون العسكريُّون، إلا أنَّ الصَّحافي **روبير** اقتصر في ردِّه عليه على ما يتعلَّق ببعض الجوانب الاقتصادية والجغرافية، وترك ما يهمُّ موضوع بحثِنا وهو المتعلِّق بالتوارق، فتولَّيتُ نقلَه إتماما لموضوع الدِّراسة، قال **قوتي** في كتاب: (**الصحراء**) المذكور، متحدِّثا عن التوارق وميزتهم عن بقية سكَّان الصَّحراء ما يلي: «إن هؤلاء الناس ـ أي: التوارق ـ أقرب إلينا من العرب فإنهم متفتحون، والسبب في ذلك أن إسلامهم ضعيف، سطحي، فهم لا يعرفون كلمة عربية ـ العربية لغة القرآن ـ وهم لا يصومون شهر رمضان، ونسائهم متحررات، ولهذا فهن أقرب شبها بنسائنا، وهم يتحدثون باللغة البربرية، ويمتازون عن بقية البرابر، إذ إنهم لا زالوا يحتفظون بكتابة هذه اللغة، دون بقية سكان العالم، حيث انفردوا باستعمال الحروف الهجائية الليبية القديمة المشهورة بحرف تيفنار (Tifinar) »، وختم قوتي قوله فصله هذا بقوله: «من جملة ما ورثه التوارق من أصلهم البربري، وعضوا عليه بالنواذج، هو بغضهم للعرب الفاتحين، ولهذا فالحروب بينهم متواصلة، كما لا زالوا يحتفظون بذكر كسيلة البطل الأوراسي قاتل عقبة بن نافع الفاتح العربي الأول سنة 683م »، وهذه الترهات لم يخصصها المستعمرون للتوارق فقط، بل استعملوها أيضا لجلب البربر وتضليلهم لحاجات في نفوسهم، وإلا فإنهم في دراساتهم الخاصة بمجتمعاتهم لا يخفون انطباعاتهم عنهم، ويعددون مثالبهم كما نراه من بعض انطباعات الأب دوفوكو في **مذكِّراته** عن التوارق أنفسهم.

نكتفي بهذه العينات أو اللقطات التي من حسن الحظِّ لم يغتر بها بعض الكتاب

أمثال الصحافي كلود موريس روبير، الذي يعد من غلاة المعمرين، هذا وإنني إن خصصت لهذه الآراء صفحات، فليس الغرض من ذلك إحياء الإحن والخلافات التي كانت توحي لهؤلاء الكتاب، حسبما تدعوهم إليه المصالح الاستعمارية أو الخلافات العقائدية، فإننا في عصرنا هذا نجتاز ظروفا تسعى في طي صفحات التطاحن والخلافات وتستبدلها بالتعاون في الإشادة بالقيم، وبتوحيد الجهود في إحياء التراث العالمي، سواء منه الثقافي والحضاري، والتعاون على نشره وتجريده من الرواسب التي ساعدت في تضخيمها الأغراض السياسية والعقائدية، ومما يجعلنا نتفاءل للقضاء على هذه الرواسب السلبية، ما نراه من التسابق إلى عقد الملتقيات والمؤتمرات في بلدان مثل روما واسبانيا وصقلية وباريس ومالطة لدراسة حضارات البحر المتوسط وغيرها من الحضارات، وإننا بنقل ردود الصحافي روبير على مؤلف كتاب: (**الصحراء**) نريد تجريد التاريخ مما ألصقه به بعض المغرضين، الذين لا زالوا متشبثين بآرائهم، أي بالرجوع إلى مثل هذه المصادر المزيفة، ويرون أن الفتوحات الإسلامية ببلاد المغرب العربي جنت على البلاد والعباد، حيث وقفت عجلة الحضارة، إذ كانوا يرون أن هذه البلاد طبعها الفينيقيون ثم الرومان والبيزنطيون بالطابع الذي حاول استرجاعه أقطاب الاستعمار العقائدي، أمثال الكاردينال لافيجري، ولكنهم نسوا أن الإسلام الذي نجح في أداء رسالته، وعمت تعاليمه سكان الشمال والصحراء والسودان ومن بينهم التوارق.

رغم ترهات الكتاب الذين ذكرناهم، ورد عليهم الصحافي موريس روبير، وهناك أدلة أخرى تثبت استماتة التوارق في سبيل العقيدة الإسلامية، لا فرق بينهم وبين مواطنيهم من مختلف قبائل الصحراء والسودان، فمن ذلك ما ذكره الجنرال ميني(Meynier)[1] في دراسته القيمة التي خصصها للثورة العارمة التي كان منطلقها

---

(1) نشر الجنرال ميني دراسة تحت عنوان: (**الحرب المقدسة للسنوسية في إفريقيا الفرنسية: 1915 ـ 1918**) بالمجلة الإفريقية سنتها الرابعة والثلاثين 1939.

من جنوب ليبيا على الإيطاليين، ثم آزرها بقية سكان الصحراء التونسية والجزائرية، ومن بينها سكان التوارق بأجمعهم، وهذه بعض اللقطات نثبتها من هذه الدراسة مما ذكره الجنرال ميني، قال في معرض حديثه عن مراحل هذه الثورة وصبغتها: «بعد إخلاء تبستي (Tibesti) في أوت 1916 نتج عن ذلك تحركات بالهضاب العليا من السنغال والنيجر منطقة التوارق الذين استعدوا للثورة استجابة لدعوة قبيلة كل السوق (Kelessouk)، وكذلك التوارق من سكان أوليمندن (توارق تمبكتو) وكانت من الغلطات التي ارتكبها الفرنسيون إلقاءهم القبض على الرئيس فيهرون (Fihroun) وسجنوه بـ : غاو(Gao) بعدما حكموا عليه بخمس سنوات سجنا، وقد تمكن من الفرار من السجن في فبراير 1916 والتحق بعشيرته، وبمجرد اتصاله بأفراد عشيرته، كاتب حاكم تمبكتو الفرنسي برسالة استهلها بقوله: «إن حكم الكفار قد انتهى»، ثم أردف هذه الجملة بقوله: «وإنني أعلن الحرب على الفرنسيين.» .

وقد وقع هذه الرسالة رؤساء القبائل الذين كان من بينهم توارق الهجار الذين كان يترأسهم موسى أق امستان، تحصن أفراد القبائل بمرج أمدرامبوكان (Amderambouken) حيث يجتمع واديا ازاواق واسكاري، كان عدد إبلهم خمسة آلاف وعدد البقر خمسة عشر ألفا وعدد الغنم ثلاثين ألفا، أمكن لأفراد القبيلة التَّحصُّن بهذا المرج، وهنا وصف لنا الكاتب ما لا يترك شكا لأحد بأن العقيدة الإسلامية العميقة في نفوس السكان، هي التي كانت تذكي هذه الحروب، التي كثيرا ما نجد بعض الباحثين سواءً من كانوا يؤيدون المعمرين أو من كانوا يتفيهقون يحاولون إرجاع هذه الثورات أوالتَّمرُّدات، رد فعل لإهانة لحقت حاكما أو رئيس قبيلة، أو كانت لأغراض مادية محضة، والجنرال مينى الخبير بدراسات تلك القبائل، التي سجل مراحل ثوراتها على الإيطاليين، ثم على الفرنسيين، وكانت له معطيات جمعها عندما تولى التفتيش العام بشمال إفريقيا، ذكر وصفا رائعا لهذه القبائل في بعض معاركها قال:

«كان المحاربون يجتمعون للصلوات على سوط الطبل وأناشيد السلام »، ثم قال: «كان هذه الأناشيد التي تنطلق بها أصوات المحاربين في سكون الليل، شبيهة بأناشيد أبطال هوميروس (Homère) في حروب طروادة [1]. فمن هذه الفقرات تتجلى الحقيقة التي لا يتطرق إليها الشك، أن سكان مناطق التوارق برهنوا على أنهم دافعوا عن العقيدة الإسلامية، ولنرجع إلى الوراء قليلا، لنبين أن رواد الصحراء الذين قتلوا أثناء أداء مهماتهم بالصحراء، وخصصهم الصحافي روبير بقائمة طويلة، لم تكن غاياتهم واحدة، إذ كان بعضهم يرى أن مصلحتهم العليا خصوصا في الميدان الاقتصادي، تفرض عليهم الاتصال والتعاون مع السكان المسلمين، ولما كان التاريخ يعيد نفسه، فإنني أثبت ترجمة أحد الرواد الذي لعب دورا وذهب ضحية خصومه الأقوياء، هذا الضابط الفرنسي هو من أسرة نبيلة مثرية، ولما كان الدور الأول الذي حاول أن يلعبه له خيوط تتصل بالتزاحم والصراع بين الدول والأحزاب، وقد ظهرت فيه الرأسمالية اليهودية التي كانت تهيمن على سياسة الدولة الفرنسية إذ ذاك، ظهر في الأفق هذا الرائد الذي لقي حتفه في الصحراء، وعد في قائمة ضحايا رواد الصحراء، إلا أن غايته وهدفه، كانا يخالفان كثيرا من زملائه، ولهذا تتبعت ترجمته ومختلف نشاطاته بإيجاز، كان هذا الضابط يعرف بالمركيز دو موراس (Le Marquis de Morés)، وهو علاوة على ثروة أسرته تزوج بامرأة أمريكية مثرية سنة 1882 ».

وفي سنة 1888 زار الهند والصين وحاول إحداث السكة الحديدية التي تربط بين الهند والصين، وبعد رجوعه إلى فرنسا صادف الحملة ضد اليهود فانخرط في صفوفها، وكان من أبرز محرِّري جريدة (**الكلمة الحرَّة**) (La libre parole) 1892 لسان حال أعداء اليهودية الرأسمالية ولهذا جرت عليه مقالاته عدة مبارزات مع كثير من الكتاب

---

(1) نقل الجنرال ميني هذه الفقرات من تأليف:
D.A.Richer:" les touaregs du niger"

اليهود أمثال: **دريفيس** (Dreyfus)، والقبطان **ماير** الذي قتل في المبارزة، وغيرهما.

لم يكتف الماركيز دو موراس بمحاربة اليهود في الميادين الصحافية بباريز، بل شد الرحال إلى الجزائر، حيث كان للحركة أنصار أقوياء، فسعى في ضم المسلمين لهم، ولما وصل إلى الجزائر عقد تجمعا كبيرا بباب الواد، ألقيت فيه خطب ووقعت توصيات فحواها التحذير من الرأسمالية اليهودية التي كانت تحميها انكلترا ...

ثم واصل الماركيز جولته إلى تونس وذلك في نوفمبر 1895 وكان قصده الذهاب من تونس إلى السودان على طريق زندر (Zinder) وأقدز (Agadés)لفتح باب التبادل التجاري، وفي 29 مارس 1896 ألقى محاضرة بالمسرح البلدي في تونس كان عنوانها: **(عبور بلاد السودان الفرنسي بالتعاون الإسلامي الفرنسي)** (La Pénétration du Soudan par l'Alliance Franco Islamique)، كان من جملة الشخصيات التونسية المؤيدة لنظرية الماركيز دو موراس الشَّيخ الأصرم صاحب **(الرِّحلة إلى المناطق السنوسية)** التي ألَّفها بمشاركة المراقب المدني الفرنسي **فيكتور سير** (Victor Serres)، وبعد الفراغ مِن المحاضرة وقَّع الحاضرون على التَّوصية الآتية: «إن الفرنسيِّين والمسلمين وسكَّان مناطق البحر الأبيض المتوسط (La Méditerranéens) الذين اجتمعوا بتونس وعددهم ألفان، يؤيِّدون تعاون الفرنسيِّين والمسلمين، وكذلك سكَّان شواطئ البحر الأبيض المتوسط للدِّفاع عن مبدأ الاستقلال الذَّاتي، والتَّعاون لتحرير الأرض والسُّكَّان مِن قبضة الرأسمالية التي يشخِّصها الإنكليز في زماننا هذا، إذ هم ممثِّلوها في الميدان السِّياسي، إن هذا التَّجمُّع المنعقد في تونس يقدِّم إلى المسلمين الذين يحاربون اليوم على ضِفَّة وادي النِّيل تحيَّاته وأجمل أمانيه »، ثم قال الكاتب:« إن الماركيز دو موريس بشجاعته وصراحته لقي إقبالا عند أعيان المسلمين ذوي المكانة المرموقة بتونس منهم سي أحمد بن ضياف، وسي الطاهر العجيمي، وهما اللذان عرفاه بالشيخ

الوقور محمد بن عثمان الحشايشي محافظ خزانة جامع الزيتونة »[1]، وحقيقة إن هؤلاء العلماء من أمثل علماء تونس في عهدهم وتركوا آثارا هامة.

نكتفي بهذا القدر من ترجمة أحد ضحايا الصحراء الذين خصصهم مواطنوهم بتراجم ضافية تعرضوا فيها لظروف اغتيالاتهم، والكثير منهم كانوا من معارف وزملاء الأب دوفوكو الذي لم ينج بدوره من السيل العرم الذي اكتسح منطقة الهجار اثر اندلاع ثورة الليبيين على إيطاليا، ثم تسرب منها إلى المناطق الصحراوية التي كانت تحت الحكم الفرنسي، ولنرجع إلى الحديث عن الأب دوفوكو، الذي طبع بدوره منطقة الهجار بطابع له وزنه وأثره، بقطع النظر عن آراء الناس في نشاطاته العقائدية الصرفة، إذ لم يخف رهبانيته على أحد، عند استيطانه لتمنراست التي لقي فيها حتفه، كما لم يخف خيبة أمله في التنصير، وصرح بأن الوقت لم يحن بعد إلى ذلك، حيث إن حصانة سكان الصحراء ومناعتهم المكتسبين من التربية الدينية الإسلامية، جعلت كل محاولة لتحويل عقائدهم، ترتطم بالفشل الذريع، اللهم إلا أفراد قلائل، يتصلون بهم، ويظهرون اعتناقهم للمسيحية رغبا أو رهبا، كما لم يعتنق دوفوكو أفكارا من كانوا يدعون أن التوارق يحملون الحقد على الإسلام من عهد الفتوحات، هذا وإن حياة دوفوكو قتلت بحثا وتنقيبا، ونشرت ترجمته، تتبعت مراحل حياته من مهدها إلى لحدها، كما أن وزارة الشؤون الدينية، خصصت له ضمن نشاطات المبشرين في الجزائر نقطة من نقاط مواضيع الملتقى السابع للفكر الإسلامي، المنعقد في مدينة تيزي وزو، ولهذا اقتصرت في مدة الدراسة على الإشارة لبعض الجوانب من حياته بمناسبة انعقاد هذا الملتقى في منطقة اشتهرت به، ولا زالت قوافل السياح تشد إليها الرحال، وبعض نشاطاته في

---

(1) نشرت المجلة الجغرافية لمدينة الجزائر وإفريقيا الشمالية بعددها 123 سنة 1930 تحت عنوان: ضحايا الصحراء: الماركيز دوموريس ومنها نقلت هذه الترجمة.

المجال الثقافي تولى مواصلتها بعض مريديه، ومن بينها إتمام (**المعجم**) الذي جمع فيه ترجمات المفردات البربرية ـ لغة التوارق ـ إلى الفرنسية والجانب الذي ركزت عليه ترجمته هو حياته المثالية في الميدان البشري، حيث تحدى عبيد البطون والشهوات، عندما تحول من حياة رجل بالغ في حياة الاستهتار إلى منتهاها، وسهلت عليه بلوغ مرامه فيها، ثروة أسرته، فتخلى عنها، ومال إلى الحياة الروحية حياة العباد والنساك، وقد تعرض بعض مترجميه ومنهم الصحافي **روبير** عندما تعرَّض إلى مراحل حياته الأولى وتحوله من حياة البذخ والترف إلى حياة التقشف والزهد، أن من جملة الأسباب، أنه في سنة 1881 عندما أعلن السيد **بوعمامة** ثورته على الفرنسيين، تلك الثورة التي دعم بها ثورة أقاربه المشهورة في التاريخ بـ (**ثورة أولاد سيدي الشِّيخ**) صادفه الحال بفرنسا وطلب الالتحاق بجيش المقاومة، فأرسل إلى نواحي سطيف في قرية كان سكانها المسلمون يترددون على المسجد في صلواتهم، ويسمعون قراءة القرآن والأذان فرأى أن هذه المظاهر للحياة الدينية هي الشغل الشاغل لهؤلاء الناس، وحينئذ صار في نقده الذاتي يقارن بين حياتهم وحياته، مما أداه إلى التفكير في تحويل مجرى حياته، والحياة المثالية للمسلمين كان لها تأثير، كثيرا ما التجأ إليها بعض القسيسين إثر الاحتلال الفرنسي مباشرة، حيث كانوا يضربون المثل بابتعاد المسلمين عن الحانات والمواخير، فالأمير عبد القادر عند اجتماعه برئيس الكنيسة في الجزائر **دبيش** (Dupuch)، وصرَّح له **ديبيش** بأنهم أهل كتاب ودين، فتعجب الأمير من تصريحه، وقال له كيف تدعون أن لكم دينا وكتابا سماويا وأنتم تجاهرون بشرب الخمر ...، والإسلام في هذا الميدان، أي الحياة المثالية التي يدعو إليها، واحترام الأديان والكتب السماوية، لا ينكرها إلا المغرضون، ورغم ذلك فإن كثيرا من الباحثين من الأجانب لا زالوا إلى يومنا هذا كلما أثير هذا الموضوع وهو تسامح الإسلام الدِّيني نجد من يعترف للمسلمين بهذه الحسنة، ومن ذلك أنه نشر في (**جريدة لوموند**) اليومية الباريسية (Le Monde) مقال لأحد الأساتذة

الفرنسيين قضى أزيد من عشر سنوات أستاذا بمعهد فرنسي في مدينة اسطنبول (تركيا) كتب هذا المقال في الثاني من ماي 1979 ردًّا على ما كتبه أحد الكتاب الأرمينيين بمناسبة إحياء قمع الدولة التركية سنة 1915 للأرمن، والذي يهمُّنا من هذا الرد في موضوع دراستنا هو ما اعترف فيه كاتبه لمعاملة الخلافة العثمانية بإسطنبول لرعاياها المتدينين بديانات غير إسلامية، وبعد أن استعرض إحصائيات رسمية عما يتمتَّع به الأرمن طيلة أربعة قرون بتركيا، وكذلك غيرهم من الرَّعايا المسيحيين واليهود، قال متحدثا عن الأتراك: «إن جميع المؤرخين متفقون على أن الأتراك مثل منفرد للدولة الحاكمة، في تسامحها المثالي في الميدان الديني، ـ وذلك حتى في عهودها القديمة ـ مع رعاياها غير المسلمين، ومن ذلك أنهم آووا اليهود الذي طردهم وشرَّدهم الأسبان في القرن الخامس عشر، ثمَّ أووا الآخرين سنة 1933 عندما طردهم النازيون».

وكاتب هذا المقال الجوهري في موضوعه والمدعم بالحجج والإحصائيات، هو جان لاروش (Jane Laroche)والكل يعرف أن الأرمن نظموا حملات دعائية وكثيرا ما يتعرض من انتصر إلى الأتراك، أو على الأقل أدى شهادة نزيهة إلى الاغتيال.

ولنختم هذه الدراسة بما كنت تعهدت به من أن تاريخ منطقة الهجار لا زال محل عناية الباحثين من مختلف الأجناس، خصوصا للعناية بتاريخها القديم الذي يرجع إلى حوالي عشرة قرون قبل الميلاد، فقد نشرت الصحف في بداية السنة نقلا عن وكالات الأخبار بمدينة لشبونة (البرتغال) تحت عنوان: (**هل اكتشف السوفييت جزيرة الأتلانتيد؟**)، هذا السؤال هو الذي طرحته الصحافة البرتغالية بعد التصريحات التي صرح بها في لشبونة العالم الروسي أندري أكسينوف (Andrei Aksinov) عضو المجمع العلمي في الإتحاد السوفييتي، أن السيد أكسينوف يقود قافلة متركبة من خمسين عالما تقلهم باخرتهم الإِكتشافية فيتاز (Vitiaz)، وصرَّح تصريحه هذا عندما وقفت الباخرة

بميناء لشبونة وقال في تصريحه: «إن بعض رفقائه أخذوا صورا لبعض آثار من بقايا أسوار ومدارج في عمق البحر في النواحي التي يعتقد ـ حسب الأساطير ـ أنها كانت توجد في (**الأتلانتيد**)».

ولم تمض إلا أسابيع قليلة حتى طالعتنا الصحف بمقال طويل نقلته جريدة الشعب الجزائرية تحت عنوان: (**قارة أطلانطيس غرقت في البحر المتوسط وليس في المحيط الأطلسي**)، وقد بسط الكاتب القول في الموضوع، وذكر أن موقع هذه الجزيرة كان بقبرص، واستعرض العلماء أصحاب هذا الرأي ابتداءً من أفلاطون... الخ، سقت هذين المقالين لاستدلال على أننا لازلنا بعداء عن مجاورة الباحثين الذين حاولوا أن يفرضوا علينا أن منطقة الهجار هي موقع **الأتلانتيد** وكل هذا أيضا يزيدنا إيمانا ورسوخا بأن كثيرا من الكتاب يرسلون الأقوال على عواهنها، ولهذا ينبغي لنا أن لا نجاريهم في آرائهم ولو خلعوا على أنفسهم ألقابا لا دخل لها في الموضوع إذ التاريخ وثائق.

لقطات من تاريخ معسكر
الثقافي والسياسي عبر العصور[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أيها السادة، السلام عليكم ورحمة الله، وبعد:

فإن محاضرة اليوم للأستاذ **المهدي البوعبدلي** المكلف بمهمَّة، وعضو المجلس الإسلامي الأعلى تندرج في إطار برنامج المركز الثقافي الإسلامي الواسع ومنه جولة الأستاذ المهدي البوعبدلي هذه الذي سيلقي محاضرات بكل من ولايتي معسكر وتيارت[2].

وولايتنا ـ لا ريب ـ تعيش ركودا ثقافيا خانقا، رغم المبادرات التي تقوم بها الهيئات المختصة في نطاق ضيق محدود.

ومظاهر هذا الركود تبدو في انعدام المكتبات العامة بالولاية – إذا استثنينا مكتبة بلدية معسكر – وندرة الكتب في دور البيع القليلة، التي يتردد عليها الشباب هذه الأيام فلا يجد لما يطلب أثرا.

---

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المحاضرة على نسخة مرقونة تقع في (21) صفحة، وهو مبتورة الآخر.

(2) **المحاضرات هي: [1] لقطات من تاريخ معسكر الثقافي والسياسي عبر العصور، [2] دور تاقدمت السياسي والثقافي في عهد دولتي بني رستم ومملكة ونشريس، [3] جوانب مجهولة من حياة الإمام أحمد بن يحيى الونشريسي، [4] عبد القادر بن الشريف الفرندي بطل ثورة درقاوة في العهد العثماني.**

أما المحاضرات فإنها قليلة جدا، وما ينظم منها داخل المؤسسات التعليمية وغيرها فهو لفئات معينة، ولا أخالكم تجهلون أن النوادي الثقافية غير موجودة في الولاية كلها، وأن ما وصل إلى البلديات من كتب ضمن حملة وزارة الإعلام والثقافة في السنة الماضية، ما يزال معبأ في الصناديق لم يمس بسوء.

وأعتقد أن الهيئات الرسمية المكلفة بهذا الموضوع، لا تستطيع أن تفصل كل شيء إذ أن مهمتها الأولى التنظيم والتنسيق، ورعاية المبادرات التي تأتي من الأوساط الثقافية نفسها، وبهذا الصدد أشير إلى أن الكثير منا ما يزال يرى الثقافة ترفا زائدا على الحاجة، ونعيما يتجاوز الأساسيات إلى الكماليات، وقد يكون من بين هذه الأساسيات الجلوس إلى طاولات المقاهي.

ومديرية الشؤون الدينية تحاول ـ وإمكانياتها محدودة ـ الإسهام في إزاحة هذا الغشاء المطبق على الولاية، وقد استضافت منذ نشأتها عدة أساتذة حاضروا في مواضيع تاريخية ودينية، ومن بينهم الأستاذ المهدي الذي زارنا منذ سنة وحاضر في هذه القاعة نفسها.

والذين يهتمون اهتمام الأستاذ قليلون، ذلك أن الدراسات التاريخية لا تعوزنا والحمد لله والذي ينقصنا وما يزال خاما لم يستخرج في الكثير من جهات الوطن هو التاريخ المحلي الجهوي الذي يعتبر أساسا للتاريخ العام.

ومعسكر بالذات ما يزال تاريخ رجالها، علمائها وفقهائها، مغمورا يستغيث، وتأتي هذه المحاضرة ضمن أسبوع الكتاب والمكتبات بمناسبة يوم العلم: الذكرى الأربعين لوفاة رائد النهضة وموقظ الأمة، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عبد الحميد ابن باديس (رحمه الله).

بن حنفية عابدين

لقطات من تاريخ معسكر الثقافي والسياسي عبر العصور

إنني في هذه السلسلة من المحاضرات عبر أنحاء الوطن في إطار بحوث المركز الثقافي الإسلامي التابع لوزارة الشؤون الدينية اخترت أن يكون موضوعها التاريخ المحلي، أي التاريخ الجهوي في المجالات الحضارية والسياسية والثقافية، وقد مرت على معسكر أدوار تركت بصماتها فيها مدة قرون، وهذه الأدوار التي مرت عليها أثرت على تاريخها الثقافي والسياسي ابتداء من القرن الرابع الهجري إلى أواخر العهد التركي، إذ شاءت الأقدار أن تكون معسكر هي منطلق جيش التحرير الذي أخرج الأسبانيين من وهران بعد احتلال مرير دام حوالي ثلاثة قرون، كما حبت الأقدار معسكر فكانت منطلق وقاعدة جيش مقاومة الاستعمار الفرنسي حوالي عشرين سنة، ولهذا كله فهي في حاجة إلى سلسلة محاضرات، ولكن عملا بالقول المأثور وهو: «ما لا يدرك كله لا يترك جله »، فإني سأقتصر في هذه المحاضرة على لقطات من تاريخها، كما يدل على ذلك عنوان المحاضرة.

إذ سبق لي منذ سنتين، عندما تشرفت بزيارة هذه العاصمة الخالدة، أن تطرقت إلى نفس الموضوع خصوصا ونحن في عهد يستدعي إعادة النظر في تاريخ بلادنا بصفة عامة، وفي تاريخ عواصمنا العلمية بصفة خاصة، وتاريخ معسكر سواء منه السياسي أو الثقافي، له مكانة في التاريخ العام للجزائر وهو مرتبط أيضا بتاريخ الفكر الإسلامي بالمشرق والمغرب، وقد امتاز علماء معسكر القدماء بتسجيل تاريخ بلادهم فخصصوه بتآليف قيمة، إلا أنها مع الأسف ضاع معظمها، حيث لم تحظ بالنشر، وعار كبير على عدم اكتراث سكان هذه العاصمة بتراث بلادهم الممتاز، وإننا كلنا مسؤولون على هذا الإهمال، إذ تاريخ معسكر سواء منه الثقافي أو السياسي جزء لا يتجزأ من تاريخ الجزائر بصفة خاصة، وتاريخ الفكر الإسلامي بصفة عامة، كما سبق لنا ذكره.

وإنني بهذه المساهمة المتواضعة، التي لم نقصد منها الاقتصار على مخاطبة الإخوان الحاضرين في هذه الندوة التي نجتمع بهم فيها الساعة والساعتين ثم نفترق خصوصا وأن الكثير منهم أدرى بتاريخ بلادهم منا، وإنما هدفنا هو جمع ما تمكن من تاريخ بلادنا على ضوء الوثائق والمصادر التي حفظها لنا التاريخ، ثم نشرها لتعميم فوائدها، وضمان حفظها، ثم القصد من هذه المحاضرة والاجتماع بنخبة المثقفين، وتبادل الآراء معهم في هذه الندوات، لفت الأنظار إلى قيمة هذا التراث المهمل، إذ علاوة على ما أصاب التراث أثناء الحروب والانتفاضات وهجرة السكان كما هو معلوم فقد تعرض أيضا للجمود من الخلف العهد بالجمود أو الرجعية، على حد تعبير كثير من المعاصرين ورموهم بالدعوة إلى الشعوذة والتخلف وما إلى ذلك، واعتمدوا في تهمهم هذه الأحكام الجائرة، كما قام بعض الجهلة – ومعظمهم عوام ـ بتصوير أولئك العلماء المجاهدين بالسيف والقلم ـ صورا مخالفة تماما للواقع التاريخي، إذ نقلوا تراجمهم بما نسبوه إليهم من كرامات وخوارق العادات فبالغوا فيها و جردوهم من قيمهم الحقيقية الجوهرية كنشر العلم والجهاد، والدفاع عن حمى الوطن، وهذا الموضوع هو الذي سأتعرض لبيان فصوله بإيجاز، إذ مجال هذا النوع من الدراسات محدود، فأتناول بالبحث نبذة من التاريخ السياسي لهذه المنطقة، ثم أعزز بلقطات من تاريخها الثقافي والحضاري.

عرفت هذه الناحية، أي عرفت صلتها بالعمران البشري منذ عشرات القرون، إذ اكتشف علماء الآثار في أوائل هذا القرن في بحيرات تيغنيف آثارا متعددة، يرجع عهدها إلى عشرات القرون، وقد تصدى لدراستها اختصاصيون، كان لبحوثهم صيت رددته الأوساط العلمية، أما تاريخ منطقة معسكر الحديث، أي بعد الفتح الإسلامي فنجد القبيلة البربرية التي كانت تحكم المنطقة، هي قبيلة بني يفرن الزنتية التي كان موقعها يمتد من نواحي تلمسان إلى نواحي آفلو، وقد لعب أفراد هذه القبيلة أدوارا عظيمة في

تاريخ البلاد، إذ هم الذين اختطوا مدينة تلمسان قبل الفتح وهم الذين أدركهم الفتح الإسلامي بغرب البلاد يتقاسمونه مع قبيلة مغراوة، وفي القرن الرابع الهجري وبالضبط سنة 338هـ أسس أمير القبيلة المذكورة يعلى بن محمد بن صالح اليفرني مدينة إيفكان، واتخذها عاصمة لإمارته. وقد اكتشف بعض علماء الآثار موقع هذه المدينة بقرب مدينة عين فكان الحالية تبعد عنها حوالي 3 كلم، قضى على هذه القاعدة ايفكان الملوك العبيديون الفاطميون فخربوها وقتلوا أميرها يعلى، لكن الإمارة امتدت في عهد أبناء يعلى وحفدته، فولده **يدو** استولى في عهده على مملكة فاس كما استولى أبناؤه على مدن شالة سالة وسلا والرباط.

عرف مدينة إيفكان أبو عبيد البكري فقال: «مدينة إيفكان كانت سوقا قديمة من أسواق زناتة، فمدنها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني وكان ابتداء تأسيسه لها سنة 338هـ، وارتحل إليها أهل المعسكر من أهل تاهرت ويلل وشاطئ بني وطيل ووهران وقصر الفلوس، فعمرت وتمدنت وعظمت » اهـ.

عرف مدينة معسكر ونواحيها كثير من المؤرخين والرحالة كالبكري وابن حوقل والإدريسي وأبو الحسن الوزان المشهور ومن ذلك العهد عرفت بمعسكر، وفي عهد بني زيان -أي قبل العهد التركي مباشرة- لفتت معسكر الأنظار إليها حيث اشتهرت بنخبة علمائها الذي اشتهروا بتخصصهم في علمي الفقه والتوحيد، ثم اتخذها الأتراك قاعدة القطاع الغربي بدلا من وهران، التي كانت من أوائل مدن شواطئ الشمال الإفريقي التي سقطت في أيدي الأسبان عندما جددت الحملة الصليبية على مدن شواطئ المغرب العربي التي سقطت من جرائها مدن وهران وبجاية ثم تونس وطرابلس بعد أن سبق سقوط سبتة ومليلية بالمغرب الأقصى وهما لا زالتا ترزحان إلى يومنا هذا في قيود الذل والهوان.

هذه هي الخطوط العريضة من تاريخ معسكر السياسي ذكرناها باختصار كتوطئة وتقديم لموضوع دراستنا ولنواصل الحديث على لقطات من تاريخها الثقافي وهي لقطات مبعثرة لم أراع في ذكرها اتِّباع الترتيب الزمني، كما أجنب المستمعين الدخول في التفاصيل.

استوطن سهول معسكر في عهد ملوك بني زيان قبائل بني راشد، وأطلق اسم بني راشد على المدينة وسهولها، فصارت تعرف بالراشدية، والحديث عن بني راشد، وإطلاق الراشدية على المدينة وسهولها التي استبدلت في عهدنا بتسمية غريس، تضاربت فيه أقوال الباحثين والقول الفصل في الموضوع هو ما ذهب إليه المؤرخ المحقق عبد الرحمٰن بن خلدون فليراجعه من أراد التعمق في الموضوع.

اشتهرت معسكر في المجال الثقافي ابتداءً من القرن التاسع الهجري حيث كانت قلعة هوارة وجبل هوارة مركزين علميين، إذ ساعدهما موقعهما الحصين على ضمان الاستقرار الذي تتطلبه الحياة العلمية، وقد ألحقت قلعة هوارة من ذلك العهد بموطن الراشدية وصارت تعرف بقلعة بني راشد، بعد أن احتفظت باسم مؤسسها من قبائل هوارة حوالي ثلاثة قرون، إذ أسسوها في أوائل القرن الخامس الهجري، وإن جردت القلعة من اسم مؤسسها الذي استبدلته باسم محتليها الجدد -أي بني راشد- فجبلها احتفظ إلى عهد قريب باسم مؤسسيه وساكنيه من قبائل هوارة.

كان الفوج الأول من العلماء الذين أسسوا معاهد علمية بالراشدية من تلامذة الشيخ محمد بن يوسف السنوسي مجدد علم التوحيد ببلاد المغرب العربي، واشتهروا بالتخصص فيه حتى صار جل علماء المغرب العربي يفتخرون بسندهم المتصل بعلماء الراشدية على الصغرى، ومن بينهم أحمد المقري التلمساني صاحب كتاب (**نفح الطيب**)، فإن له من جملة التآليف حاشية على الصغرى للسنوسي ذكر فيها سنده في علم التوحيد ونوه بأساتذته وقال عنهم: «إنهم العارفون بهذا الشأن »، كما ذكر عالم المغرب

في عهده عيسى السكتاني قاضي مدينة مراكش في حاشيته على الصغرى وذكر أن سنده في علم التوحيد يتصل بعلماء الراشدية منبع علم التوحيد.

تكونت طبقة علمية في الراشدية وكان لآراء علمائها وزن في الفقه المالكي أيضا إذ كثيرا ما كان علماء هذه الطبقة يناقشون علماء الأزهر يردون عليهم ولا يخفى أن مختصر خليل كان عليه مدار الفتوى ببلاد المغرب العربي، فنجد الشيخ مصطفى الرَّماصي ألف رسالة أحصى فيها غلطات الشيخ الخرشي في شرحه على مختصر خليل وبين في بعض أجوبته على سؤال وجهه إليه أحد تلامذته فقال فيه : «وأراك أيها السائل تحتفل بكلام عبد الباقي الزرقاني وذلك بمعزل عن التحقيق لأن شرحه وشرح الخرشي لا نكترث بهما في بلادنا لعدم تحقيقهما وعمدتهما كلام علي الأجهوري وهو كثير الخطأ ».

والشيخ مصطفى الرَّماصي من مفاخر بلاد الإسلام، ونعلم كلنا أن الشيخ الدردير شارح مختصر خليل اعتمد حاشيته على التتائي عندما كان بصدد تأليف شرحه على المختصر، أخبر بذلك تلميذه محمد بن القندوز المستغانمي الذي قال إن شيخه المذكور أي الدردير كان يعتمد حاشية الرَّماصي علق التتائي ويقول: «إن صاحبها محقق، فهي تغنيني عن غيرها».

وكذلك الشيخ البناني الفاسي فإنه اعتمد في حاشيته على الزرقاني، حاشية الرماصي المذكور، حسبما ذكر ذلك الفقيه محمد الحجي وزير المعارف في عهده بالمغرب في تأليفه: (**الفكر السامي تاريخ الفقه الإسلامي**).

وقد تعرَّضتُ في محاضرتي السَّابِقة إلى الخلاف الذي نشأ بين فقهاء تلمسان -حيث انتصروا لشرح الخرشي- تلمسان التي تولى بعض أعلامها، وهو الشيخ محمد بن عبد الرحمٰن سليل أحمد بن الحاج اليبدري، تأليف (**حاشية على شرح الخرشي**) وتبارى كثير من علماء تلمسان في الإشادة به وبشرحه.

وإنما ذكرت الرَّماصي كنموذج من فقهاء المذهب المالكي، وكدليل على ما ذكرت أنقل فقرات من رسالة كتبها الشيخ مصطفى الرَّماصي إلى تلميذه الشيخ أحمد بن عامر البرجي، يؤنبه فيها على فتوى أصدرها وهي تخالف فتوى أستاذه الرَّماصي، فقال في تأنيبه : «أحللت نفسك للفتوى، لم تسألني عن مسألة ولم تباحثني في قضية والأئمة ترد علي أسئلتهم من تلمسان، من المغرب الأقصى، ومن الجزائر، والإخوان عن يمينك وعن شمالك تباحثني مكاتبة ومشافهة وكتابة بجودة الأبحاث ».

والشاهد عندنا أن الرَّماصي أول من صرح بالرأي العام الذي تكوّن بالبلاد الراشدية حيث قال في إحدى رسائله لبعض تلامذته: «...وذلك بمعزل عن التحقيق لأن شرحه وشرح الخرشي لا نكترث بهما في البلاد الراشدية ».

ونجد كنموذج لهذه الطبقة من علماء الراشدية أيضا الحافظ أبا راس الناصري صاحب التآليف القيمة التي من بينها رحلته الشهيرة التي ضمنها رحلتين إلى المشرق سنتي 1204 و1226هـ ثم ألحق بهما رحلته إلى المغرب الأقصى.

وأبو راس وإن نال سمعة واسعة النطاق في الأوساط العلمية العربية، فإن تآليفه على كثرتها لم تحظ بالنشر، بخلاف مكانتها عند الأجانب، فإن الكثير منها حظي بالنشر والترجمة والتعليق إلى عهد قريب، ومن بين هذه التعاليق والدراسات فصل ممتع خصصه له المستشرق الروسي **كراتشوفسكي** في تأليفه: **(الأدب الجغرافي العربي)**.

وتمتاز رحلة أبي راس بأن ضمنها نشأته بمسقط رأسه ثم رحلته لطلب العلم ووصفه للحياة الثقافية بعد أن اندثرت، ثم تسجيله لانطباعاته عن العواصم العلمية التي مر عليها في طريق رحلاته شرقا وغربا وتبادله الإجازات مع علمائها.

وتمتاز أيضا رحلته بأنه أول من وصف معهد القيطنة في عهد مؤسسه الشيخ مصطفى بن المختار جد الأمير عبد القادر، وحقق تاريخ نشأته بما يخالف التاريخ الذي

اعتمده كل من كتب عنه، أي عن تأسيس المعهد وتاريخه.

ولضيق مجال هذه الدراسة أقتصر على أبيات من القصيدة البليغة التي قرظ بها العالم الشهير إبراهيم الرياحي شيخ الإسلام في عهده بتونس بعض التآليف جمع منها بعض امتيازاته، إذ كان أبو راس من الحفاظ الأفذاذ، قال :

وسلم الأمر الورى لأبي ... راس و دان مثلما دانوا ليزدان
جبر تفيض بعرفان جوانبه ... إن لم نقل هو في التحقيق عرفان
تراه جامع أشتات الفضائل من ... قوم مضوا فكأن القوم ما بانوا
إذا تحدث فاسمع مالكا وإذا ... بفقه (أفتى) فالإعجاب نعمان
وما شعرت بغير الأشعري إذا ... تكلمت منه بالتوحيد أركان
ولا نظرت إلى غير الجنيد إذا ... أبصرته وله بالشوق تحنان

إلى أن قال :

هذا الإمام أبو راس محمد من ... تيارت بتبريزه في الخلق ركبان
هذا الذي أقلعت أنباؤه صمما ... وأبصرت نوره الملتاح عميان
أجلى الجهالة فانجابت غياهبها ... واشتد منها لدين الله بنيان

صور لنا أبو راس في رحلته الثقافية، وتراجم كثير من أساطينها صورة جلية، وأهميتها أنها خلاصة للحياة الثقافية في أواخر العهد التركي.

أما علماء الراشدية وأئمتها قبل عهد أبي راس فقد حظوا بتراجم مواطنيهم كمنظومة: (**بغية الطالب في ذكر الكواكب**) للشيخ أبي مهدي عيسى التوجيني (دفين وادي الطاغية)، وشرحها للشيخ محمد بن الأعرج الغريسي ومنظومة: (**العِقد النفيس في بيان علماء وأشراف غريس**) التي خصَّصها مؤلِّفها لترجمة أستاذه الشيخ عبد الرحمٰن بن زرفة، المشهور بسيدي دحو وبعض معاصريه من (**معهد مجاجة**) الذي كون وحدة

علمية تمتدُّ ما بين قسنطينة وتلمسان، و(معهد مجاجة) لم يكن معهدا علميا فحسب، بل كان رِباطا للمجاهدين بتنس، وقد أضاف على هذه المنظومة العلامة الجزري في شرحه النادر المثال.

وهذه التآليف كانت في بداية العهد التركي ثم ظهرت تآليف لا تقل عنها قيمة في عهد أبي راس المتقدِّم الذِّكر ـ أي: في أواخر العهد التركي ـ مثل: (**الرِّحلة القمرية في الأخبار المحمدية**) للشيخ مصطفى بن عبد الله بن زرفة الدَّحاوي كاتب الباي محمد بن عثمان، ضمنها رباط علماء الراشدية والذي مهد به الباي محمد بن عثمان احتلال وهران بعد أن احتلها الأسبان حوالي ثلاثة قرون، وكذلك كتاب: (**الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**) للشيخ أحمد بن سحنون الراشدي في نفس الموضوع وهو الكتاب الوحيد من بين كتب التراث المعسكري الذي حظي بالطبع رغم رداءة الطبع، وهناك كتب أخرى مثل: (**بهجة الناظر**) للشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي شيخ أبي راس الذي عينه الشيخ مصطفى بن المختار مدرسا بمعهد القيطنة وقد طبع أيضا، وهناك كتب أخرى لا تقل عنها أهمية، مثل: (**رحلة المشرفي**)، ودراسة قيِّمة اكتشِفت منذ سنوات قليلة ـ أي: بعد الاستقلال ـ ببعض الخزائن الخاصَّة كان يملكها قائد حرب فرنسي، وهي للأمير عبد القادر ألفها عندما كان أسيرا بقصر أمبواز، وقد تعرض فيها للحياة الثقافية بمنطقة معسكر في عهده بتفصيل، ثم ألحق بها ما سبق عهده بنحو القرنين، وهذه التآليف التي ذكرناها لا شك أنها معروفة عند كثير من الإخوان المستمعين المعتنين بتاريخ معسكر وإن لم تكن معروفة عندهم في تفاصيلها فهي معروفة في مجملها، ولكن لا زالت بعض الآثار لعلماء معسكر مجهولة تماما حتى جاد علينا ببعضها الزمان، مثل دراسة الأمير عبد القادر بقصر أمبواز، التي تقدم لنا الحديث عنها، ومثل تأليف صغير لأحد أقارب الأمير، ألفه قبل مبايعة الأمير بشهور، ومثل رسالة قيمة نادرة في موضوعها اكتشفت أيضا ببعض الخزائن الخاصة بعد الاستقلال، وهي للعالم الشيخ

محمد بن يخلف بن حواء تلميذ الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي رئيس المدرسة المحمدية التي أسسها الباي محمد بن عثمان قرب مسجده المشهور الآن بمسجد المبايعة، أي المبايعة الثانية للأمير عبد القادر، والتي كان من بين الموقعين عليها الشيخ محمد بن يخلف بن حواء المذكور.

والدراسات المذكورة لها علاقة متينة بتاريخ تطور الفكر الإسلامي، إذ هي تتعلق بتاريخ ظهور الطريقة التيجانية وانطباعات علماء معسكر نحوها، كان مؤسسها الشيخ أحمد التجاني وهو محرِّر الرِّسالة التي أرسلها للشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي، الذي لا شك أنه تعرف به في فاس أيام الطلب.

هذه الرسالة هي من الوثائق النادرة الهامة في تاريخ تطور الفكر الإسلامي ببلاد المغرب العربي، بل ببقية العالم الإسلامي فهي تكشف القناع على منطلق الطريقة التيجانية والظروف التي ظهرت فيها .

وأهميتها أن مؤسس الطريقة التيجانية هو الذي كتبها بنفسه كما أنها سجلت في عهده، ثم إن الجيلالي زيادة على مكانته العلمية، حيث إنه أسندت إليه إدارة المدرسة التي أنشأها الباي محمد بن عثمان، وتبارى كثير من شعراء ذلك العهد في الإشادة بها، فإنه ـ أي الجيلالي ـ هو الذي انتخبه العلماء المجاهدون رئيسا لرباط وهران المتقدم الذكر الذي كان يساعده في إدارته الشيخ الطاهر بن حواء والشيخ مصطفى بن زرفة.

وهنا نطرح سؤالا عن السبب الذي كاتب من أجله الشيخ أحمد التجاني زميله الشيخ محمد بن عبد الله الجلالي هل هي مجرد مراسلة بين ما صديقين، أم كان الداعي إلى كتابتها جس نبض الجيلالي لمكانته العلمية والسياسية عند الباي محمد بن عثمان ؟

فلنترك الجواب عن هذا السؤال المطروح للظروف التي ربما تكشف عن بعض الأضواء تنير أمامنا الطريق. إننا لم نعثر على الرسالة المرسلة من طرف الشيخ التيجاني

وإنما اطلعنا على جوابها الذي كتبه الشيخ محمد بن يخلف بن حواء على لسان أستاذه محمد بن عبد الله الجلالي وهذا الجواب لا تقل أهميته عن الرسالة، إذ هو زيادة على تسجيله لهذه المراسلة يطلعنا على انطباعات وآراء بعض علماء الفكر الحرة في قضية شائكة لها علاقات تطور الفكر الإسلامي ببلاد المغرب العربي، والخلاف بين السلفيين والمتصوفين الذي ساد البلاد من بداية القرن الثامن الهجري.

استهل محمد بن حواء كتابة بقوله: «الحمد لله، من عبد الله سبحانه محمد بن حواء إلى أخينا في الله ومحبنا من أجله السيد أحمد التجاني السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فقد ورد علينا كتابك الذي كتبته للسيد محمد بن عبد الله الجلالي فتصفَّحناه وقرأناه وعرفنا معناه وفهمنا عباراته وإشاراته، غير أننا تحيرنا في قولك: من آخر عمر الصحابة إلى يوم ينفخ في الصور، ما قاربني ولي من أولياء الله فيما أعطاني الله من إتساع العلم ... إلى أن قلت: وذلك لا يدل على التفضيل واحتجيت بما يدفع عنك دعوى التفضيل وأتيت بدليل ينفي عنك ذلك ويثبت لك غير ما هناك من كثرة العلم والرسوخ فيه ونقص الرعية في المكانة والتفضيل فأوقعت الناس في أمر طائل، وجدل طائل ومعارضة في الكلام ومخالفة فيه حتى وجد المعترض فسحة وفرصة للاعتراض ولا يدري المجيب بماذا يجيب ولا سيما من يحبك من الإخوان، فقد انبهم عليهم الأمر وضاق منهم الصدر، وليس ذلك من أجل أنه محال عقلا بل من أجل أنهم لم يجدوا دليلا يدل على صدق الدعوى، فبقوا دائما في دهشة وحيرة. وأما المعترض فقد وجد السبيل إلى الاعتراض رحبا، وضيق على من يلتمس المعاذر شرقا وغربا، ووجد الماء الزلال فعبه عبا، وكل من سمعه يقول: حق له أن يذب عن جميع أولياء هذه الأمة ذبا، وربما نسب القائل إلى الكذب وسبه سبا، ولما كان كذلك كتبت إليك أيضا أيها المحب

هذا الكتاب لتخبرني بمرادك ومقصودك بهذا العلم الذي فقت به جميع أولياء هذه الأمة، حتى أويس القرني ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم، وغير ذلك من أولاد الحسين بن علي وأولاد الحسن الذين آخرهم محمد الفاطمي المخبر بإتيانه في آخر الزمان، إلى غير ذلك من أقطاب هذه الأمة ونجبائها وأبدالها وأوتادها ومجتهديها، كـ : مالك والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وسفيان الثوري، وإسحاق بن راهويه، والأوزاعي، وغيرهم من المجتهدين .

هل هو علم المعارف والحقائق الباطنة والتوجه الخاص الذي انفرد به أهل التجريد والتفريد والذوق الكشفي، أو هو علم الأحكام الظاهرة التي يعرف بها الحلال والحرام وصحة الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والذكاة والنكاح والبيوع وغير ذلك من الأحكام التي تدخل تحت علم الظاهر، أو المراد العلمان معا، فبين لنا يرحمك الله ما مرادك بهذا العلم، فقد مست الحاجة إلى بيانه فإن قلت بالأول يقول لك قائل الزيادة في المعارف الوهبية الفتحات الكشفية والمحادثة والمكالمة القلبية بعد المشاركة في العلم الظاهر والعمل به تقتضي التفضيل، لأنهم نهوا على أن التفضيل إنما يكون بالمعارف والاستغراق في التوحيد الخاص بعد المشاركة في علم المعاملة، وإن أدرت الثاني فقط وهو علم الظاهر يقول لك: على أي مذهب أنت الآن؟. فإن قلت على مذهب الإمام مالك مثلا، يقول لك لم يقارب درجتك في العلم فلم تقلده، وأنت أكثر منه علما، بل يليق بك أن تجتهد وتترك اجتهاده إلا على سبيل الاتفاق، ولا يصح لك أن تقول على سبيل التمتع لم أر بذلك أرباب المذاهب، لأنه لا يساعدك أحد على أنهم ليسوا بأولياء قلت وإن بالثالث ، وهو علم الظاهر والباطن معا، وأنك جمعت بينهما جمعا على أكمل الأمر، فهذه مرتبة للقطبانية والشيخوخة الكاملة، لكن القطبانية لها شروط وعلامات يقصر عن دركها الفهم ولا يحيط بها الوهم، وجلب ذلك وتتبع أقوال القوم فيه يطول.

فإن قلت: وأنا بفضل الله وجوده من أهل هذه المرتبة، يقول لك: إن القطب هو

الذي يحل المشكلات والمعضلات ويشرح الكلمات التي حارت فيها عقول كثيرة من الخواص فضلا عن العوام ... الخ».

أثبت هذه الفقرات من هذه الرسالة القيمة النادرة مع طولها بهذه المحاضرة المحدودة الزمان، لأهميتها من عدة نواح: أولا فإن جيلنا لا زال كثير من أفراده يعانون أثر هذه الخلافات بين أفراد الأمة ومثقفيها منذ قرون، والذي كدر مفهومها في الأزمنة الأخيرة هو تدخل العوام وأشباههم في الخلافات، تلك الخلافات التي لها جذور في تاريخ الفكر الإسلامي من عهد الخلفاء الراشدين، إلا أن الأوائل كانوا يمتازون ويقارعون الحجة بالحجة، بخلاف العوام وذوي الأغراض، كانوا لا يخرجون بها عن الإطار الطبيعي، وهذه الوثيقة ترشدنا إلى ما ذكرناه حيث إن الشيخ **التيجاني** لما كاتب صديقه محمد بن عبد الله الجلالي أجابه بصراحة وصدق وأوقفه أمام الحقيقة والواقع وأفرغ ذلك في قالب النصيحة وترك له الحرية في الموقف الذي يتخذه بعد ما حذره وأنذره، وقد أثبت هذه الرسالة أيضا، ما دمت بصدد الحديث عن هذه العاصمة العلمية التي وإن اشتهرت بأنها قامت بدورها كمركز إشعاع لعلوم الفقه والتوحيد طيلة قرون، وقد كان لعلمائها سمعة وشهرة في البلاد الإسلامي وكانوا محل ثقة المنتقدين من العلماء والشيخ محمد بن يخلف بن حواء الذي تولى كتابة جواب أستاذه أو زميله الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي وإن لم نعثر على ترجمته الشخصية، فيكفينا أنه ينتمي إلى أسرة علمية توارث أفرادها العلم قرونا، وكل ما نعرفه عنه أنه حضر في البيعة الثانية للأمير عبد القادر التي وقعت بجامع حسن في 12 رمضان 1248، فتذكر لنا الوثائق أنه حضر في هذه البيعة[1] الشيخ محيي الدين والد الأمير وعم الأمير علي ابن أبي طالب والشيخ الأعرج بن محمد بن فريحة والشيخ محمد بن حواء بن يخلف والشيخ

---

(1) عن كتاب: (**طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود**) نسخة محفوظة بمكتبة متحف وهران عدد 466.

بن عبد الله بن الشيخ المشرفي سقاط والشيخ أحمد بن التهامي ... إلخ.

وقد عرف القاضي الطيب بن المختار في تأليفه: (**القول الأعم في نسب الحشم**) بأفراد هذه الأسرة: أي أسرة بن حواء فقال: «ومنهم أولاد سيدي العيد يعرفون الآن ببني مقضي، والأشهر أنهم من بني العباس بن عبد المطلب، والجد الذي يجمع هذه القبيلة سيدي أحمد بن محمد وكان مشهورا بالخير والصلاح معتقدا في عصره، وحبس عليه معاصروه منارا كبيرا... وولده سيدي أبي زيد كان مشهورا في حروب (**أصبنيول**) وقت إقامته بوهران، وقد انتقل سيدي أبو زيد هذا لضيم أدركه من بعض الظلمة واستوطن ببلاد المحال قرب وادي مينة [1] وعقبه الآن يعرفون بأولاد بن حواء وسيدي الطاهر بن حواء (وهنا بين قوسين نتذكر بأن الشيخ الطاهر بن حواء هذا كان قاضي القضاة في عهد الباي محمد بن عثمان وعضوا بمجلس إدارة رباط وهران الذي كان يترأسه الشيخ محمد بن عبد الله الجلالي ومعهما الشيخ محمد بن علي أبو طالب مدير مدرسة مازونة الفقهية والشيخ مصطفى بن زرفة الدَّحاوي كاتب الباي محمد بن عثمان وكان الشيخ الطاهر أول المستشهدين في تلك الحروب ورثاه تلميذه الشيخ مصطفى بن زرفة بقصيدة مؤثرة ».

وعلى ذكر هؤلاء وجمعهم بين الجهاد بالسيف والقلم، نذكر كما سبق لنا ذكره أنهم لم يقتصروا على تدريس العلوم المتداولة إذ ذاك في البلاد الإسلامية كالتفسير والحديث والفقه وما إلى ذلك، بل كانوا يهتمون بمشاكل الحياة اليومية وتركوا آثارا في هذه الميادين، صوروا لنا فيها حياة البلاد صورا واقعية، وصلتنا منها عِدَّة أراجيز للشيخ محمد بن حواء (دفين مستغانم) واحدة في تاريخ البلاد وتراجم علمائها، وهي : (**سبيكة العقيان فيمن حلَّ بمستغانم وأحوازها من الأعيان**)، والثانية من النوع المشهور

(1) وقد ترك سيدي أبو زيد هذا منظومة بليغة نوه بها العالم الشيخ أبو راس وقد احتفظ لنا بها.

بالوصية ضمنها توجيهات ونصائح لأولاده وتلامذته، وهذا النوع مشهور في تاريخ الأدب العربي، وهي هامة في مواضيعها، إذ تثبت أن علماءنا لم يكونوا كما حاول تصويرهم بعض المعاصرين من أنهم كانوا متقشفين ويدعون إلى الكسل والزهد وحياة التقشف وما إلى ذلك، و هذه المحاولات مجرد تحامل وظلم وسوء نية.

استهلَّ محمد بن حواء نصيحته هذه بقوله :

وبعـــد فـــاعلم أننـــي أردت ... نصـــيحة وجيـــزة فقلـــت
يـا ولـدي ويـا سـليل ولـدي ... وكـل شـخص عاقـل موحـد
أوصـــيكم إيصـــاء ذي وداد ... محـــذرا مـــن خلطـــة العبـــاد
فـــإنهم لهـــم طبـــائع شـــهوه ... تخـــالف الســـنة والمـــروه
ولهـــم عوائـــد رديـــه ... تجـري وعـرف فاسـد كذيـه
قـد جعلوهـا حكـما مطاعـا ... واهطعـوا وراء مـا اهطاعـا
واخترعـوا في الشـريعة اختراعـا ... مسـائلا تخـالف الإجماعـا
وجعلـوا العـرف بهـا شريعـة ... وهـــذه جهالـــة شـــنيعة
وإنـما العـرف الصـحيح المرعـي ... مـا لم تخالفـه أصـول الشـرع
وكـن عـلى الشـريعة الغـراء ... بوقتـك المظلـم ذا بكـاء
لم يبـق منهـا الآن إلا الاسـم ... ولا مـن القـرآن إلا الرسـم
وصـار نهجهـا القـويم حالكـا ... فـلا تـرى إلا عليـه سـالكا
وانقرضـت جماعـة الحـراس ... لهـا مـن التغيـير والوسـواس
الراسـخين في علـوم الشـرع ... السـالكين للطريـق المرعـي
وبقيـت حثالـة الحثالـه ... لـيس بهـا الله يبـالي بالـه
واجتنـب الخطـط والمراتبـا ... وكـن إلى الأقـاصي منهـا هاربـا
لاسـيما القضـاء والافتـا ... إذ فـيهما الآثـام والـبلا

ومـــن يـــرد الإلـــه ســـخطه   يجعــل لــه عــلى الأنــام خطــه
لـــيس لـــه بضـــبطها قيـــام   ولا لـــــه بحقهـــــا إلمـــــام
فيعتريـــــه الهـــــم والتكـــديـر   والـــبغض والأثـــام والتقصـــير
تبــا لهــا مــن صــفقات خــاسره   في الدين والـدنيا والـدار الآخـره
لأنهـــا في صـــلاح القـــرون   قـد قـال فيهـا الشـيخ عـز الـدين
الخطــط اليــوم بهــذه الأزمنــه   اســـما بـــلا مســـميات باطنـــه
وصــن عــلى الإخــوان والكــرام   وجهــك واحــذر منــة اللئــام
لا تكـــن للضـــيف ذا تكلـــف   إن كنــت عادمــا لمــا بــه يفــي
ولتحضــر المقــدور ثــم اعتــذر   فــإن أبــى فهــو بالــذم حــري
والتـــزم الرفـــق والاقتصـــادا   في مـــؤن المعيشـــة اســـتعدادا
ولتـــدخر للعـــام والأعـــوام   كغايـــــــة الطعـــــــام والإدام
ولا تبـــع نســـيئة أو تســـلف   صـاحب مطـل بـالحقوق لا يفـي
واجتنـــب الخلطـــة للتجـــار   عبـــدة الـــدرهم والـــدينار
كـــي لا تكـــون شـــارها ولوعـــا   أو خـــاسرا أو شـــاكيا جزوعـــا
فاســلك عــلى طريقــة الرســول   الثابــت النقــل عــن العــدول
فهـــذه نصـــيحة مختصـــرة   لمـــن لـــه بصـــيرة منـــورة
فلتعملـــوا بضـــمنها لتربحـــوا   واتخـــذوها قـــدوة لتفلحـــوا
فنســأل الكــريم عــون الكــل   عــلى الطريــق المســتقيم العــدل

أتمها يوم الأربعاء الثامن من جمادى الأولى عام ثمانية وستين ومائة وألف 1168، وكان قد سبق له نظم أرجوزة من نوع الاستغاثة المشهورة أيضا في تاريخ الأدب العربي استهلها بقوله:

وبعـــد فالـــدعا ســـلام المـــومن   وجنـــة حصـــينة للمـــوقن

لا سـيما إن حصـل اخـتلال	في الـدين والفـتن والأهـوال
وهـذه الأزمـان والـبلاد	قـد عمهـا الـبلاء والفسـاد
وارتفعـت أشرارهـا ارتفاعـا	كسـب أهـل خيرهـا اتضـاعا
وخـبط الأنـام في الجهالـة	وارتكبـوا طرائـق الضـلالة
وصـار كـل منكـر معروفـا	لا يختشـي عامـده تعنيفـا
وأسـكتت ألسـنة الشـريعة	مخافـة الإيقـاع والوقيعـة
فـلا تـرى المنكـر مغـيرا	ولا لحـق مهمـل منتصـرا
وكـادت الشـريعة الميمونـه	ترفـع لـولا الفئـة المصـونه
ولـيس فيهـا طالـب لعلـم	أو خطـة أو قـائم برسـم
أو عـالم ذو درس أو منـاظره	إلا بنيـة تنـافي الآخـرة
إلا القليـل النـادر الوجـود	والنـادر الوجـود كـالمفقود

أتمها سنة 1167.

إلى هنا ننهي حديثنا الذي حاولت أن أطلق عليه عنوان: (**لقطات من تاريخ معسكر الثقافي والسياسي عبر العصور**)، وإن الجديد فيه هو نشر فقرات من الوثيقة الهامة لموقف علماء الراشدية الذين سجل لهم التاريخ تخصصهم في علمي التوحيد والفقه، ذلك التخصص الذي اعترف لهم به علماء المغرب العربي، واكتشاف هذه الوثيقة نستدل بها أيضا على أنهم اختيروا للتحكيم في قضية شائكة ترجع إلى الخلاف بين السلفية والتصوف، وذلك من عهد الشيخ محمد بن يوسف السنوسي مجدد علم التوحيد دفين تلمسان، وقد ظهر لنا من الجواب الذي أرسله الشيخان محمد بن عبد الله الجيلالي ومحمد بن يخلف بن حواء أن آراء علماء معسكر إلى قسمين: قسم معارض منكر، وقسم متحفظ مرشد، لم يحكم حكمه النهائي قبل مراجعة...، ولهذا فهم

ينتظرون منه إعادة النظر في فحوى رسالته ليمكنهم من اتخاذ موقفهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، شأن علماء السلف الذين كانوا أمناء ثابتين لا يندفعون في أحكامهم حتى يتبيَّنوا وتجتمع لديهم كل المعطيات، ولهذه الأوصاف كانوا محل ثقة معاصريهم عدة قرون.

هذا ولا يمكن لأي باحث تكلم عن تاريخ معسكر إلا أن يقف ولو وقفة قصيرة عند حياة الأمير عبد القادر سواء في الناحية البطولية التي اشتهر في مجالاتها أو الناحية الثقافية التي كرس عليها حياته.

وحياة الأمير وإن خصِّصَت بتآليف عديدة حتى كاد معاصروها أن يحفظوها عن ظهر قلب، إلَّا أنه أصيب بِعقوق بَعضِ المعاصرين، أو مِمَّن في قلوبهم مرض، فحاولوا التَّشكيك في عظمتِه وإِخلاصه، ومنذ ثلاث سنوات، وبالضَّبط في 10 يونيو 1976م أقامت جماعة **الكوليج دو فرانس** بباريس ملتقى خصَّصته لحياة الأمير بالمشرق بعد أن وضعَت حربَه مع الفرنسيِّين أوزارها، فمِن جلَّة مَن تصدَّى له أحد كبار الباحثين الفرنسيِّين (Ageron) الذي زار الجزائر عدَّة مرَّات وحاضَر في (ملتقى الفكر الإسلامي)، وفي (المركز الوطني للدِّراسات التاريخية)، فأثبت أنَّ الأمير نظرا لشخصيته القويَّة عرضت عليه فرنسا مملكة المشرق فتلطَّف في الامتناع، وبعد الإلحاح أجابهم بصراحة بهذا الجواب: «إنني لم أصب إلى تولِّي الملك وإنَّما ظروف بلادي ألجأتني إلى تحمل الدِّفاع عن وطني، وعندما انتهت مهمَّتي فإني سأتخلَّص للحياة العلمية، ولا حاجة لي بالملك أو السلطنة »، وقد علَّق المحاضر **آجرون** على هذا الجواب بقوله: «إن قضية إنشاء مملكة عربية بالمشرق كانت هدف كل مِن فرنسا وإنكلترا، وقد وصلت إنكلترا إلى مبتغاها، إذ وجدت **فيصلا**، أما فرنسا فقد وجدت مِن سوء حظِّها الأمير **عبد القادر**، وشتَّان بين الرَّجلَين ».

كما أن الأمير عندما طويت صفحة الجهاد لم تستهوه حياة القصور، فقد كرَّس حياته لخدمة العلم ونشر أمهات الكتب القيِّمة، واقتدى به أصحابه الذين رافقوه في المنفى أو هاجروا البلاد، فهذا الشَّيخ مصطفى بن التهامي الذي كان خليفته وأقرب الناس إليه، ختم حياته كإمام بالجامع الأموي بدمشق، وثبت عنه أنه كان في شهر رمضان يصلي التَّراويح المعهودة بالجماعة، وبعد الفراغ منها ينزوي ببعض زوايا المسجد فيصلي منفردا في كل ليلة يختم القرآن في ركعتَين.

لقطات من تاريخ مملكة ونشريس الثّقافي والسِّياسي والحضاري في عهد دولة بني توجين[1]

تكونت مملكة ونشريس التي تعرف أيضا بمملكة بني توجين، في عهد دولة بني زيري، وبالضبط عندما تفاقم الخلاف بين رئيس الدولة إذ ذاك باديس بن المنصور بن بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي، وعمه حماد بن بلقين بن زيري عامل الدولة الزيرية بالقطاع الغربي (الجزائر الحالية) كان باديس بعاصمة المملكة الزيرية، وهي مدينة القيروان، أما عمه حماد فكان بالعاصمة الثانية للمملكة وهي مدينة أشير التي أسسها عميد الأسرة زيري بن مناد، بإعانة الدولة الفاطمية، وإثر هذا الخلاف جهز باديس جيشا لقمع حماد وحاصره بأشير لخبر يطول، وأثناء الحصار انتصر سكان جبل ونشريس لرئيس الدولة باديس وأمدوه بالمال والعتاد فانتصر باديس على عمه، واعترف لسكان ونشريس بالجميل، فأقطع لهم منطقة جبل ونشريس، وكان سكان المنطقة يعرفون إذ ذاك ببني توجين، كانت رياسة قبائل بني توجين في عهد نيلها للاستقلال الداخلي أي الاستقلال الذاتي حسب تعبير المعاصرين لعطية بن دافلتن، وقد اعتنى المؤرخ ابن خلدون الذي قضى أربع سنوات بقلعة من قلاع مملكة ونشريس، اعتنى بتاريخ ونشريس بمزيد من البيان والتفصيل فقال في التعريف بسكانه بني توجين: «كان هذا الحي من أعظم أحياء بني يادين وأوفرهم عددا وكانت مواطنهم

---

(1) ملتقى الفكر الإسلامي الرابع عشر 1980م، الجزائر، ج1، ص91-94، مع الملاحظة بأن محاضرات هذا الملتقى طبعت ملخصة ومختصرة في جزء واحد.

حقا في وادي الشلف، قبلة جبل ونشريس من أرض السرسو، وهو المسمَّى لهذا العهد: (**نهر صاء**) وكان بأرض السرسو بجهة الغرب منه بطون من لواتة، وغلبهم عليها بنو وجديجن ومطماطة، ثم صارت أرض سرسو لبني توجين هؤلاء واستضافوها إلى مواطنهم الأولى وصارت مواطنهم ما بين موطن بني راشد ـ آفلو ـ وجبل دراك في جانب القبلة، وكان لهم رئاسة أيام صنهاجة لعطية بن دافلتن وابن عمه لقمان بن المعتز، كما ذكره ابن الرقيق ولما كانت فتنة حماد بن بلقين مع ابن أخيه باديس، ونهض إليه باديس من القيروان حتى احتل بوادي شلف تحيز إليه بنو توجين هؤلاء، وكان لهم في حروب حماد آثار مذكورة ...، فلما انهزم حماد راعى لهم باديس انحيازهم إليه وسوغ لهم ما غنموه، وعقد للقمان على قومه ومواطنه، وعلى ما يفتحه من البلاد بدعوته، ثم انفرد برئاستهم بعد حين بنو دافلتن، وكان رئاستهم لعهد الموحدين لعطية بن مناد بن العباس بن دافلتن ... »، إلى أن قال: «... وكانت رئاسة بني توجين جميعا عند انقراض أمر بني عبد المؤمن لعبد القوي بن العباس بن عطية الحيو... ».

ثم قال **ابن خلدون**: «فلما وهن أمر بني عبد المؤمن وتغلب مغراوة على بسائط متيجة (1) ثم على جبل ونشريس، نازعهم عبد القوي هذا وقومه أمر ونشريس وغالبوهم إلى أن غلبوهم عليه واستقر في ملكه وأوطانه بنو تيفرين وبنو منكوش من أحيائهم ثم تغلبوا على منداس ...، ولما تغلبوا على الأوطان والتلول وأزاحوا مغراوة على المدية وونشريس وتافركينت واستأثروا بملكها وملك الأوطان عن غريبها مثل منداس والجعبات وتوغازوت (2) ورئيسهم لذلك العهد عبد القوي بن العباس والكل

(1) بسائط متيجة: السهول المحيطة بعاصمة الجزائر، وكانت آهلة بالسكَّان.

(2) **تاوغزوت**: اسم الحصن الذي كانت فيه قلعة ابن سلامة، الذي أقام فيه ابن خلدون أربع سنوات، وأنهى فيه (**مقدِّمة**) تاريخه.

لأمره، فصار لهم ملك بدوي، ولم يفارق فيه سكنى الخيام، ولا أبعاد النجعة ولا ائتلاف الرحلتين، ينتابون في مشاتيهم إلى مصاب والزاب، وينزلون في المصائف بلادهم هذه من التل، ولم يزل هذا شأن هذا عبد القوي وابنه محمد إلى أن تنازع بنوه من بعده، وقتل بعضهم بعضا، وغلب بنو عبد الواد [1] في عامة أوطانهم وأحيائهم، واستبد عليهم بنو يرناتن وبنو يدللتن فصاروا إلى بني عبد الواد، وبقي أعقابهم بجبل ونشريس إلى أن انقرضوا على ما نذكره بعد ... الخ » اهـ.

ما ذكره ابن خلدون عن مملكة ونشريس منذ تأسيسها، وقد نقلته على طوله لأنه المؤرخ الوحيد الذي تعرض للتعريف بمزيد من التفصيل والتدقيق لهذه المملكة التي تركت بصماتها في بلاد المغرب العربي لا في الميادين السياسية بل حتى في الميادين الثقافية والحضارية، وامتازت بإنجابها لقادة أبطال شاركوا في أحداث حروب بلاد المغرب العربي في عهد الموحدين، حيث إن أول قائد لجيش دولة الموحدين الناشئة وتولى اختياره الإمام المهدي ابن تومرت هو من تلامذته الونشريسيِّين، كما سنذكر ذلك في هذه المحاضرة، ويمتاز تعريف ابن خلدون أيضا، أنه تتبع تطور هذه المملكة التي لم تحظ باهتمام غيره من المؤرخين، اللهم ما نجده مبعثرا في بعض كتب التراجم الذين تعرضوا لتراجم بعض علمائها الذين هاجروا إلى الأندلس والمغرب.

ولنرجع إلى الحديث عن تاريخ نشأة هذه المملكة فنجد من جملة من عرفها الشريف الإدريسي في تأليفه: **(نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)**، فقال في التعريف بجبل ونشريس: «تسكنه قبائل بربرية منها مكناسة، وحرشون، وبنو أبي خليل، وكتامة،

---

(1) **بنو عبد الواد**: هم الذين عرفوا في التاريخ بملوك بني زيان وحكموا تلمسان حوالي ثلاثة قرون بعد تلك أوصال دولة الموحدين المركزية التي تقاسمها عمالها: بنو مرين بالمغرب الأقصى، وبنو زيان في تلمسان، وبنو حفص في تونس.

ومطماطة، وطوله أربعة أيام ينتهي إلى قرب تاهرت ـ تيارت ـ ».

ولا زالت كل هذه القبائل سواء ما ذكره منها ابن خلدون، أو ما ذكره الشريف الإدريسي، محتفظة بمواقعها وبأسمائها، وهي وإن كانت تعرف ببني توجين فكانت هذه القبائل تتداول على حكم الدولة ابتداءً من قبيلة دفلتن الذي ينتمي إليها عطية بن دافلتن الذي قال عنه ابن خلدون في حديثه عن بني توجين: «وكانت لهم رياسة أيام صنهاجة[1] لعطية بن دافلتن... الخ »، وفي هذه المملكة التي كانت تشمل أربعة قلاع أو حصون: المدية، تاوغازوت، تاقدمت، وتافرقينت، بقيت قلعة المدية وهي المدينة التي بناها بلقين بن زيري، في عهد الدولة الفاطمية بعد تأسيسه لمدينة الجزائر الحالية، ومدينة مليانة، ومنذ ثمان سنوات، احتفلت الجزائر بالعيد الألفي لبناء هذه المدن الثلاث، أما قلعة تاقدمت، فهي المدينة الخالدة في التاريخ التي أسسها الرستميون واتخذوها قاعدة مملكتهم، ثم اتخذها بنو توجين قاعدة إمارتهم، وإن احتفظت بآثار الرستميِّين فإنها لم يبق بها أي أثر حضاري لدولة بني توجين، ولا نستغرب ذلك حيث وصف ابن خلدون فيما تقدم لنا ذكره، دولة بني توجين في عهد ازدهارها فقال متحدثا عن عبد القوي بن العباس الذي كوَّن الدولة في عهد الحفصيِّين: فصار له ملك بدوي ولم يفارق فيه سكن الخيام ولا إبعاد النجعة، ولا ائتلاف الرحلتين، يتنابون في مشاتيهم إلى مصاب والزاب، وينزلون في مصائف بلادهم هذه إلى التل.

واتخذ بنو توجين قاعدة مملكتهم البدوية مدينة تاقدمت التي أسسها الرستميون واتخذوها قاعدة مملكتهم حوالي 130 سنة، وحظيت تاقدمت باعتناء المؤرخين

---

(1) يقصد بأيام صنهاجة عهد بني زيري بن مناد، إذ كان أفراد هذه القبيلة أي زيري بن مناد من القبائل التي انتصرت للفاطميين واعترف لهم الفاطميون بذلك، وعينوا بلقين بن زيري عاملا على بلاد المغرب العربي عندما نقلوا.

فعرفوها بتدقيق، إلا أنها لم تحظ باهتمام الباحثين في عهد بني توجين الذين اتخذوها قاعدة مملكتهم حوالي أربعة قرون، وحتى علماء الآثار بعد الاحتلال الفرنسي خصصوا لعهدها الرستمي تآليف وبحوثا قيمة ثم قفزوا إلى السنوات القليلة التي اتخذها الأمير عبد القادر قاعدة مملكته المتنقلة، أي ما بين سنوات 1835 و1841 وبنا بها نحو المائتي منزل أسكن بها أسر الكلغانيين وبقايا الأتراك الذين ألزمهم بالإقامة الإجبارية، وهم من سكان تلمسان والمدية ومازونة ومليانة ومعسكر، وضربوا صفحا عن عهد بني توجين، ومن بين هؤلاء الأثريين الأستاذ جورج مارسي الذي خصص لتاقدمت دراسة قيمة فرز فيها آثار الرستميِّين ثم آثار الأمير عبد القادر، وغالب الظن أن ذلك راجع إلى صبغة تاقدمت البدوية التي وصفها بها ابن خلدون من بين القلاع أو الحصون التي اشتهرت بمملكة ونشريس قلعة تاوغازوت، وهي القلعة التي حصنها سلامة بن علي بن نصر شيخ أو أمير على حد تعبير المعاصرين بني يدللتن على عهد عبد القوي بن العباس الذي نالت في عهده مملكة ونشريس استقلالها بإعانة الدولة الحفصية. وقد اشتهرت قلعة تواغزوت من ذلك العهد بقلعة ابن سلامة، ثم شاءت الأقدار أن يختارها المؤرخ عبد الرحمٰن بن خلدون للإقامة فيها فيتفرغ لكتابة تاريخه وبالفعل أقام بها أربع سنوات أنهى خلالها مقدمة تاريخه، وبقيت تلك القلعة تعرف بقلعة ابن سلامة إلى أن خربها ملك تملسان أبو حمو الثاني سنة 770هـ، للعداوة المحكمة التي كانت بين ملوك تلمسان، وملوك بني حفص الذين كان من بين أنصارهم ومؤيديهم بنو توجين.

كان الاتصال بين أمراء بني توجين أي أمراء ونشريس ـ كما سبق لنا ذكره ـ وثيقا بملوك بني زيري ثم توثقت علائقهم بدولة الموحدين، حيث تعرفوا بمؤسس الدولة الموحدية الإمام المهدي بن تومرت عند قفوله راجعا من بجاية إلى مراكش صحبة

تلميذه وخليفته من بعده، عبد المؤمن بن علي الكومي، والبيدق مدوِّن الرِّحلة، فنزلوا بونشريس فاستضافهم سكَّانها، ورافقهم من سكانها عبد الله بن محسن المكنى بالبشير، وقد كان له شأن في دولة الموحدين الناشئة، حيث ولاه الإمام ابن تومرت قيادة الجيش إثر إعلانه الحرب على دولة المرابطين في عهد الملك علي بن يوسف ابن تاشفين، كما عين الفقيه الونشريسي المذكور عضوا في مجلس الشورى العشرة الذين كان لا يقدم الإمام ابن تومرت على فعل أي شيء خاص بالدولة، إلا بعد استشارتهم وموافقتهم، وقد توفي الونشريسي في المعارك الأولى مع جيش دولة المرابطين، إلا أن علائق بني توجين بدولة الموحدين تمتَّنت ونجد من آثار متانة هذه العلائق و ثقة الموحدين بأمراء ونشريس أنه لما ثار بنو غانية- بقايا دولة المرابطين- على الموحدين، واحتلوا بجاية وبعض مدن المملكة الموحدية، وتصدى لتتبعهم الملك المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، الذي كان بعاصمة المملكة إذ ذاك مراكش حين وقع هجوم بني غاية على بجاية، فقصد في طريق ذهابه، العباس بن عطية الونشريسي وذلك سنة 584 هـ ،وقد رافقه في ذهابه وإيابه وقد وصل الملك المنصور في هذه المسيرة إلى تونس، وكان من آثار هذه المسيرة اعتراف الملك المنصور الموحِّدي بالاستقلال الذاتي لعميد أسرة بني حفص لمملكة تونس، ثم استحال هذا الاستقلال الذاتي إلى استقلال نهائي أعلنه أبو زكرياء الحفصي، وفي هذه المسيرة أيضا توثقت الصلة بين أمير ونشريس وأبي زكرياء الحفصي، وإن تلاها توتر وفتور ثم استحالت إلى صداقة ورعاية، إذ الملك أبو زكريا الحفصي المذكور هو الذي حما مملكة ونشريس، وأنالها استقلالها رغم معارضة دولة بني زيان، وهذه فترة حرجة اجتازتها بلاد المغرب العربي إذ ذاك، عندما انهارت الدولة المركزية للموحدين، وأعلن كل من عمالها الثلاثة استقلالهم عنها، فوقع اضطراب وتطاحن بين العمال المذكورين فبنو مرين أعلنوا استقلالهم بالمغرب الأقصى، وبنو زيان عمال الدولة المركزية أعلنوا استقلالهم بتلمسان (أي: الجزائر)، وبنو حفص أعلنوا

استقلالهم بتونس، وكل منهم كان يدعي أنه هو الأحق بوراثة الدولة الموحدية المركزية سواء في الميدان السياسي أو الميدان الروحي العقائدي، أي وراثة الإمام المعصوم (**المهدي بن تومرت**) ورغم ما جره هذا الخلاف على البلاد من أهوال ومحن، فقد بلغت بعض هذه الدول خصوصا دولتي المرينيِّين والحفصيِّين، أوج العظمة والسؤدد وانهالت على رؤسائها وفود البيعة من أطراف المعمورة النائية كبلاد الأندلس والحجاز، وقد عاش هذه الظروف علماء فطاحل ودونوا هذه الأحداث بتفصيل، خصوصا ابن خلدون الذي خصص بعض ملوك هذه الدول بتراجم مسهبة موضوعية، وكذلك زميله ومعاصره لسان الدين بن الخطيب السلماني، ومما يتعلق بموضوع بحثنا نجد دولة ونشريس وأمرائها خصوصا الأمير عبد الأمير التوجيني مرتبطين بتلك الأحداث، وقد ذكر ابن خلدون أو أشار إلى الظروف التي اتصل فيها الأمير عبد القوي بالأمير زكريا الحفصي ملك تونس في عهده، فقال يصف ألويته بعد إعلانه استقلال تونس عن الدولة الموحدية المركزية قال: «احتل المغرب الأوسط ودخلت في طاعته قبائل صنهاجة، وفرت زناته أمامه وردد إليها الغزو فأصاب منهم، وتقبض في بعض غزواته على عبد القوي بن العباس أمير توجين، فاعتقله بالحضرة ثم من عليه، وأطلقه على أن يستألف له قومه فصاروا شيعة له ولقومه آخر الدهر، ونهض الأمير أبو زكريا بعدها إلى تلمسان، فكان عبد القوي وقومه في جملته حتى إذا ملك تلمسان ورجع إلى الحضرة (أي: تونس) عقد لعبد القوي هذا على قومه وأذن له في اتخاذ الآلة فكانت أول مراسيم الملك لبني توجين هؤلاء » اهـ.

هذه بعض صفحات أو لقطات من تاريخ مملكة ونشريس، التي عرفت في كتب التاريخ أيضا بمملكة بني توجين، أثبتها في هذا الملتقى الذي خصص أو بعبارة أصح ركز على تاريخ هذه الدولة التي لعبت أدوارا في تاريخ البلاد البطولي والثقافي وحتى

الحضاري، وتركت بصماتها في تاريخ البلاد العام بصفة عامة وفي تاريخ المغرب العربي بصفة خاصة، ومن استعراضنا لبعض العينات من مراحل هذه الدولة أثبتنا أنها لم تكن من الدويلات التي عاشت على هامش الأحداث التي اجتازتها البلاد، بل كانت في جميع أطوارها يطلق عليها قول الشاعر الحكيم:

لنا الصدر دون العالمين أو القبر

فهي على ضيق رقعتها تبوأت مكانة قرأت لها الدول العظيمة لها حسابها، فلم يستغن عن إعانتها الملك المنصور الموحِّدي الذي جعل طريق مسيرته التي تتبع فيها خطى ثوار بني غانية إلى تونس، واستصحبَ معه أمير ونشريس وجيشه الباسل في الذهاب والإياب، كما وقع اختيار الإمام المهدي بن تومرت على عبد الله بن محسن الونشريسي قائدا أعلى لجيش دولته الناشئة، ثم رأينا أن الملك يحيى أبا زكرياء الحفصي ملك تونس، رغم إلقاء القبض على زعيمها عبد القوي في مسيرته التي احتل فيها تلمسان وسجنه، قربه وصاهره وأقطع له مملكة ونشريس، وبقيت هذه العلائق متواصلة إلى أن هاجم الملك الصليبي سان لوي تونس، فاستنجد ملكها محمد المستنصر بالله الحفصي بأميرها قريبه محمد بن عبد القوي، والملك محمد المستنصر بالله الحفصي الذي بلغ في عهده أوج العظمة والقوة وخصصه ابن خلدون بترجمة وافية، لم يحظ بها ملك آخر من المعاصرين لابن خلدون، أو من السابقين لعهده ويكفي في الدلالة على عظمته أنه في عهده آوى وفتح الباب على مصراعيه لنخبة علماء الأندلس، الذين استوطنوا بجاية وتونس وتركوا لنا تراثا فكريا يشمل جميع فنون المعرفة، ولم يبق من هذا التراث إلا كتاب بعنوان: **(الدراية فيمن عرف من العلماء القرن السابع ببجاية)**، وكتاب: **(الفارسية)** لابن قنفد القسنطيني وكتاب: **(تاريخ الدولة الحفصية)** للمستشرق الفرنسي برنشويق (Brunchuig) لكفانا دليلا على ما ذكرناه.

لنختم هذه الدراسة بنقل فقرات من وثيقة أصيلة جوهرية في موضوع بحثنا، وهي للعلامة أبي عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني والد أبي زكريا يحيى بن موسى صاحب كتاب: (**الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة**)، تعرض فيها لتراجم بعض ملوك ونشريس من أبناء وأحفاد الأمير عبد القوي خصوصا ترجمة مسهبة لولده البطل محمد بن عبد القوي الذي استنجد به ملك تونس محمد المستنصر بالله الحفصي عند غزو ملك فرنسا سان لوي تونس.

ولأبي عمران موسى المازوني عدة تآليف من بينها (**ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار**)، ويعرف هذا التأليف أيضا بكتاب: (**مناقب الشلفيِّين**)، وقد وجدنا تعليقا للمؤلف خصصه لترجمة مواقف محمد بن عبد القوي البطولية كما تحدث عن إخوته وعلائق القرابة بينهم وبين الملك المستنصر بالله الحفصي التي لم يشر إليها أحد فيما وصلنا من تراجم الأمير عبد القوي وابنه، ولهذا أثبت لقطات من هذه الترجمة الأصيلة التي تعرض فيها المازوني لجوانب متعددة من ترجمة الأمير محمد بن عبد القوي، التي وإن تعرض إلى بعضها ابن خلدون بإجمال فإن جانبا منها أهمل خصوصا فيما يخص الناحية الحضارية لدولة بني توجين، وقد سبق لنا ذكر إهمال المؤرِّخين القدامى والمتأخرين كآثار قاعدة المملكة (**تاقدمت**) في عهد ملوك دولة بني توجين، وافترضت سبب ذلك صبغة الدولة البدوية، وإن كان ابن خلدون تعرض لوصف وذكر قصبة بناها عبد القوي، وقال بعدما تحدث عن مصير دولة ونشريس الذي قال فيه: «وتغلب بنو عبد الواد ـ أي: ملوك تلمسان الزيانيون ـ على عامة أوطانهم وأحيائهم، واستبد عليهم بنو يرناتن وبنو يدللتن، فصاروا إلى بني عبد الواد وبقي أعقابهم بجبل ونشريس إلى أن انقرضوا على ما نذكره بعد ... الخ».

ثم قال ابن خلدون: «وكان عبد القوي لما غلب مغراوة ـ ملوك أو أمراء مازونة ـ

على جبل ونشريس اختط حصن مرات بعد أن كان منديل المغراوي شرع في اختطاطه فبنى منه القصبة ولم يكمله فأكمله محمد ابن عبد القوي من بعده ... الخ ».

هذا كل ما نعرفه عن الجانب الحضاري لدولة عبد القوي وبنيه، وفي الوثيقة نجد وصفا دقيقا لمعسكر محمد بن عبد القوي يدل على طابع الدولة البدوي الذي سبق لنا ذكره، ولا أظن أنه طرأ عليه تغيير، قال المازوني في ترجمته للأمير محمد بن عبد القوي: اعلم حفظك الله أن هذا الإمام محمد بن عبد القوي كان زعيما في قومه معظما في قبائله وعشائره، إن نزلت عليهم بلية، فإليه يرجعون وعليه يعتمدون، وكان (رحمه الله) رجلا جزازا بالحسام، خواضا في الظلام، يهد من الجبال شواهقها، ويهدم من الممالك أساسها، وكان شجاعا في الوغى الحروب هجاما ذو بأس وشدة، فمما ذكر عن جلالته وشدة ساعده، إذا تزاحم مع أعدائه في المعترك يضرب بالسيف حتى تتضايق فيه الأنفاس، وتتكامل فيه الشحنة والافتراس، يرد سيفه لغمده، ويهجم على الفارس فيرفعه ويضرب به الآخر ...»، إلى أن قال: «...وكان له ثلاثة إخوة اثنان من الأب وواحد شقيق فاللذان من الأب أولاد الأمة، والشقيق هو اشريّط بن عبد القوي، وقد كان اشريّط هو الذي يلي ـ أي يتولى الحكم ـ أوطان المشرق بجبل ونشريس، وبها أزيد من ألف بيت من سندس وديباج وقطن، وكان في وسط الخباء قيطون من كيتان طوله ثلاثون ذراعا وعرضه نحو الميل وهو ـ أي اشريّط أمير مغراوة ـ يقصد مازونة – وبني تيقرين اشتهر الأمير اشريّط بالشجاعة والبطش والشدة، إذا عسر على أخيه المذكور أمير توجين محمد بن عبد القوي تلقاه بنفسه، فيكفيه مؤونته، وكان لهما قهر على أقطار البلد، شرقا وغربا ... الخ »، ثم تحدث صاحب التأليف على أحداث جرت بين هؤلاء الإخوة بتفصيل، وهي التي أشار إليها ابن خلدون بإيجاز حيث قال: «وقتل بعضهم بعضا وغلب بنو عبد الواد على عامة أوطانهم... إلى آخر ما سبق لنا ذكره».

كما تعرض صاحب التأليف لذكر صلة القرابة بين الملك المستنصر بالله الحفصي ومحمد بن عبد القوي، فقال: «إنه ابن خالته ولربما تكون هذه المصاهرة وقعت بعدما ألقى الأمير أبو زكريا القبض على عبد القوي، ونقله إلى تونس ثم أطلق سراحه وأرسله إلى قومه، وأذن له في اتخاذ الآلة، فكانت أول مراسم الملك لبني توجين على حد تعبير ابن خلدون، إذ قال في الموضوع: «احتل الأمير أبو زكريا المغرب الأوسط ودخلت في طاعته قبائل صنهاجة، وفرت زناته أمامه وردد إليها الغزو فأصاب منهم، وتقبض في بعض غزواته على عبد القوي ابن العباس أمير توجين، فاعتقله بالحضرة ثم من عليه أطلقه على أن يستألف له قومه، فصاروا شيعة له ولقومه آخر الدهر، ونهض الأمير أبو زكريا بعدها إلى تلمسان فكان عبد القوي وقومه في جملته حتى إذا ملك تلمسان، ورجع إلى الحضرة ـ أي تونس ـ عقد لعبد القوي هذا على قومه وأذن له في اتخاذ الآلة، فكانت أول مراسيم الملك لبني توجين هؤلاء » اهـ.

فمما ذكره ابن خلدون يتبيَّن لنا أن هذه المصاهرة وقعت بتونس.

نكتفي بهذا القدر من تاريخ هذه المملكة التي لها مكانة في تاريخ البلاد، اقتصرت فيها على الخطوط العريضة من تاريخها الذي استوعبه ابن خلدون، كان أعرف الناس بالمنطقة، التي قضى في إحدى قلاعها أربع سنوات، وخالط علماءها وزعماءها، وكان مثلا للحكمة التي يرددها شعبنا في أمثال هذه المناسبات فيقولون للرمز عن الوفاء والاعتراف بالجميل: «الطير الحر يشكر أبناؤه »، وبالفعل قام **ابن خلدون** بهذا الواجب فوفى لأمراء ونشريس حقهم، وأشاد بخلالهم، ثم ألحقنا بها لابن خلدون الوثيقة الجوهرية النادرة وهي ما كتبه أبو عمران موسى بن عيسى المازوني تتميما وتوضيحا لما أجمله أو أشار إليه ابن خلدون من دون أن يدخل في التفاصيل، لعل بعض الباحثين يعيرون اهتمامهم لإعادة النظر في تاريخ بلادهم.

لقطات من تاريخ قسنطينة الثقافي والسياسي من بداية القرن العاشر الهجري[1]

إنّني إجابة لرغبة الأخ رئيس المجلس الشّعبي البلدي، الذي كنت تشرَّفت بالتعرّف به في الملتقى الثقافي الذي نظّمته بلديّة وهران في السنة الماضية، اخترت أن يكون موضوع المحاضرة: (**لقطات من تاريخ قسنطينة الثقافي والسياسي من بداية القرن العاشر الهجري**)، ونظرا للمكانة التي نالتها قسنطينة في تاريخها الطويل، في المجالات الثقافية والحضاريَّة والبطوليَّة، في بلاد المغرب العربي بصفة خاصة، وبلاد العالم الإسلامي بصفة عامَّة، ونظرا لقلَّة اعتناء الباحثين بمواصلة الدراسات التاريخيّة المحليّة، وضياع كثير من المصادر حتى صار جلّ الكتَّاب في هذه المواضيع يعتمدون على المصادر الأجنبيّة، اخترت ـ كما ذكرت ـ تناول هذا الموضوع، وركَّزته على الجانبين الثقافي والسياسي.

شغلت قسنطينة ـ كما هو معلوم ـ مكانة، جعلتها منطلق إشعاع ثقافي طيلة قرون، وامتازت بمحافظتها على هذه المكانة، رغم ما تعرَّضت له في تاريخها من أهوال ومحن، إلا أنَّ ميزتها عن بقية العواصم العلمية بالجزائر، أنها بقيت محتفظة باستمرارية الحياة الثقافيّة حتى في أحلك الأوقات، أي بعد الاحتلال الفرنسي، كما سنبيّن ذلك، لفت علماء قسنطينة وأدباؤها أنظار مؤرِّخي الأدب العربي، ابتداء من القرن السادس الهجري وامتازت قسنطينة أيضا، بأنّها من بين العواصم العلميّة، التي أنجبت أسرا علميَّة توارث

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المحاضرة على نسخة مخطوطة تقع في (26) صفحة، مبتورة الآخر.

أفرادها العلم قرونا، أبا عن جد، وإنني نظرا لمجال هذه المحاضرة المحدودة، أقتصر على ذكر نماذج مما سبق ذكره، عملا بالقول المأثور، وهو: «ما لا يدرك كلّه، لا يترك جله ».

وبعد هذا التمهيد أشرع في صميم الموضوع:

شاهدَت قسنطينة في بداية القرن العاشر الهجري تساقط عواصم المغرب العربي الشمالية، الواحدة بعد الأخرى، من جرَّاء تجدُّد واستئناف هجومات الحروب الصليبية التي انتقلت من المشرق إلى المغرب، تلك الحروب التي تبنَّتها إسبانيا، ونسبت إليها، وهذه العواصم، هي: وهران، وبجاية، ثمَّ تونس، وطرابلس، وقد سبقتها سقوط سبتة ومليلية بالمغرب الأقصى، الَّلتَين لا زالتا من ذلك العهد مستعمرتَين، كانت قسنطينة إذ ذاك تتقاسم مع بجاية مركز القاعدة الثانية للدَّولة الحفصيَّة، التي كانت تحكم تونس وشرقي الجزائر ما يقرب من ثلاثة قرون، وهي وإن تحصَّنت بموقعها الجغرافي، فسقوط بجاية هزَّها هزَّة عنيفة، ثمَّ لما ظهر في الميدان خير الدِّين وإخوته، استجابة لطلب أعيان الجزائر، وحاول الأتراك احتلال قسنطينة، تعرَّض لهم الوالي الحفصي بالبلاد، إذ سبق لآخر ملوك الدولة الحفصيَّة الحسن التعرُّض لخير الدين بتونس بعد احتلاله لها، واستعان عليه بالطاغية شارلكان قائد الحملة الصليبية فأَخرجه، كان أثر موقف والي قسنطينة الحفصي أن عارضته أكثريَّة السكَّان، وعلى رأسهم العالم الشَّيخ عبد الكريم بن يحيى الفكُّون الجد، ووقَفت الأقلية من سكَّان المدينة في صفِّ الوالي الحفصي، وترأَّسها شيخ الإسلام عبد المؤمن، وانقسمت البلدة إلى قسمين مدَّة ثلاث سنوات، انتهت هذه الأزمة بانتصار القسم المؤيِّد للأتراك بعد ما تمكَّن من إلقاء القبض على شيخ الإسلام عبد المؤمن وإعدامه، قضى الأتراك باحتلالهم لمدينة قسنطينة على آخر معقل للدَّولة الحفصيَّة، وكان لانهيارها دوي داخل البلدة وخارجها، فحينئذ نجد قسنطينة وإن مرَّ عليها خطر الغزو الصليبي بسلام حيث

أكسبها موقعها الجغرافي مناعة وحصانة، إلا أنَّ الخلاف الطارئ بين سكَّانها طيلة ثلاث سنوات، وانشقاق رجال العلم بها، ثمَّ تفكُّك عُرى الإدارة الحفصيَّة داخل البلدة وخارجها، ترك فيها آثارا سيِّئة، منها أنَّ رؤساء الإقطاع الذين كانوا يهيمنون على البلاد، حيث مكَّنتهم الدولة الحفصيَّة بعد سقوط بجاية من النفوذ المطلق الذي صيَّر كلَّ رئيس مِن رؤساء الإقطاع حاكما بأمره، وبعد ما خلا لهم الجوُّ بسقوط الدولة الحفصيَّة اغتنم هؤلاء الرؤساء الفرصة لتوسيع مناطق نفوذهم على حساب جيرانهم وخصومهم، فنشبت بينهم حروب، ولا شكَّ أنَّ جواً كهذا أصاب الحياة الثقافية في الصميم، حيث غادر كثير من العلماء البلدة والتحقوا بالجبال، هذه في الجملة حالة بلدة قسنطينة بعد سقوط الدَّولة الحفصيَّة وأوائل العهد العثماني.

ولنرجع إلى ماضيها الذي وإن ركَّزت المحاضرة على بداية القرن العاشر من تاريخها، فقد جرى سياق الحديث وربط الموضوع بعضه ببعض إلى الإشارة إليه، كانت بداية لفت الأنظار إلى علماء مدينة قسنطينة من أواخر القرن السادس الهجري، في عهد دولة الموحِّدين، فظهر عالم أديب فذٌّ لا زال محلَّ عناية كل مَن كتب عن قسنطينة من مؤرِّخي الأدب العربي، وهو أبو علي حسن بن الفكُّون، ذلك العالم الذي كان عميد أسرة من الأسر العلمية التي سبقت الإشارة إليهم، فإنَّ قسنطينة امتازت بأنها أنجبت أسرا علمية توارث أفرادها العلم ما يزيد على سبعة قرون.

اشتهر أبو علي حسن بن الفكُّون بمنظومته التي ضمّنها رحلته من قسنطينة إلى مراكش، وقد خلَّد هذه المنظومة وكان أول من لفت أنظار العلماء إليها، الرحالة العبدري الحيحي في رحلته المغربية ، وقد استهلَّها بقوله:

ألا قـل للسـريّ بـن السـريّ أبي البـدر الجـواد الأريحـيّ

إلى أن قال:

فلـما جئـت ميلـة خـير دار	أمـا لتنـي بكـلّ رشـا أبـى
وكـم أورت ظبـاء بنـي ورار	أوار الشـوق بـالريق الشـهيّ
فجئـت بجايـة فجلـت بـدورا	يضيق بوصفها حـرف الـروى
وفي أرض الجزائـر هـام قلبـي	بمعسـول المراشـف كـوثري

وقد أفادت هذه المنظومة زيادة على قيمتها الأدبية، المعتنية بعلم الجغرافيا، حيث أثبتت وسطرت مراحل ومحطّات الطريق البري الرابط بين قسنطينة ومراكش، وسنتحدَّث عن بعض أفراد هذه الأسرة بإيجاز.

ثمّ اشتهر من بين الأسر العلميّة التي توارث أفرادها العلم أسرة أبي الحسن أحمد بن الخطيب بن القنفذ صاحب التآليف القيّمة والشهيرة من بينها: (**الفارسيَّة في مبادىء تاريخ الدولة الحفصيَّة**)، و(**الوفيات**) التي حضيت باهتمام علماء التراجم والوفيات، فتسابقوا إلى اعتمادها كدعامة وأصل ركّزوا عليها تآليفهم، منهم أحمد بن القاضي الفاسي صاحب (**درَّة الحجال**)، وعبد العزيز الفشتالي وغيرهما، كما اعتمد كتاب (**الفارسيَّة**) كثير من المؤرّخين المستشرقين.

ثمَّ كانت أسرة ابن باديس التي عرّفها عبد الكريم ابن الفكون في تأليفه: (**منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية**) ضمن تعريفه لأحد تلامذته من أفرادها فقال: «أبو العباس أحمد المدعو حميدة بن باديس وهو من بيئات قسنطينة وأشرفها، وممّن له الرياسة والقضاء والإمامة بجامع قصبتها، وخلفُ سلف صالحين علماء، حازوا قصب السّبق في الدراية والمعرفة والولاية، وناهيك بهم من دار صلاح وعلم وعمل، وكيف وصاحب (**السِّينيَّة**)، و(**شرح مختصر ابن هشام**)، ينبئك عما لصاحبيهما من كمال المعرفة والفطنة ».

وختم ابن الفكُّون هذه الترجمة بقوله: «ويقال إنَّه اجتمع فيهم أربعون، كلّهم صاحب منصب، حازوا المناصب الشرعيّة ببلدهم، والمخزنيَّة، وتوفي ـ أي: مترجمه ـ في عام تسعة وستِّين وتسعمائة ».

أثبت هذه الترجمة على طولها لأنَّها استوعبت ترجمة أسرة علمية من الأسر التي أشرت إليها في تقديم هذه الدراسة، وقلت إنِّي سأتعرَّض لذكرها كنماذج للأسر العلميّة التي توارث أفرادها العلم قرونا وتوارثُ الأسرِ العلمَ قرونا قليل، خصوصا لبلاد تعرَّضت في تاريخها للأهوال.

وأسرة ابن باديس كأسرتي ابن الفكُّون وابن القنفذ لعب أفرادها أدوارا في تسيير شؤون البلاد، فلم يقتصروا على الحياة الثقافيّة فقط، فعميد أسرة ابن الفكُّون الذي سبق ذكره، كانت له مكانة عند خلفاء بني عبد المؤمن الموحدين، كما نال نفس المكانة آل ابن القنفذ في البلاط الحفصي، كان عميد أسرة ابن باديس القاضي حسن بن أبي القاسم من علماء القرن الثامن تخرَّج من قسنطينة ثمّ رحل إلى المشرق فأخذ عن أشهر علمائها إذ ذاك من بينهم خليل بن إسحاق صاحب المختصر الفقهي، وإمام النحاة ابن هشام صاحب المغني وغيرهم، ولحسن بن باديس المذكور رحلة مشهورة تعرف بـ **(السِّينية)**، ضمَّنها جلَّ مشايخه الذين لقيهم في **رحلته**، وقد استهلّ هذه الرِّحلة المنظومة بقوله: ألا عج إلى بغداد فهي منى النّفس.

وقد حظيت هذه الرّحلة بعدّة شروح، وصلنا منها: شرح عامل تلمسان الجهبذ أحمد بن الحاج البيدري من تلاميذ محمّد بن زكري.

وتتبّع تراجم بعض أفراد هذه الأسر التي اخترت الاقتصار عليها كنماذج لا يسعه مجال هذه الدراسة، وإنَّما لا يفوتني أن أضيف إلى ما سبق لي ذكره، بعض الأفراد لهم ارتباط وصلة قوية بموضوع بحثنا، فمن هؤلاء يحيى ابن الفكُّون والد عبد الكريم

الجد الذي تزعَّم الصفَّ المؤيِّد لدخول الأتراك بقسنطينة، والذي اعترفت له الدولة العثمانية بهذه الخصلة فعيَّنته شيخ البلد، ثمَّ أضافت له مشيخة الإسلام مدَّة حياته وأورثها لبنيه وأحفاده طيلة العهد التركي، كان يحيى بن الفكُّون من أكابر علماء عهده وهاجر إلى تونس وكان من أبرز وأمثل أساتذة جامع الزّيتونة، وهو من بين الأساتذة المستشهدين في صحن جامع الزّيتونة عندما أباح الطاغية شارلكان، جامع الزّيتونة لجيشه، واستشهد يحيى هذا وهو في حلقة درسه، ثمّ اشتهر حفيد المترجم عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن يحيى صاحب التآليف المشهورة التي من بينها: (**منشور الهداية، في كشف حال من ادّعى العلم والولاية**) الذي نقلنا منه فقرات من ترجمة أسرة ابن باديس، وهو المؤلَّف الوحيد الذي تعرَّض لترجمة هذه الأسرة ترجمة وافية.

وهذا التأليف من أهم تآليف البلاد وهو وإن كان من كتب التراجم إلا أنه امتاز عنها بتقسيم مترجميه إلى أربع طبقات: العلماء الذين جمعوا بين العلم والصلاح واتّخذهم قدوة، ثمَّ العلماء الذين تولّوا الوظائف الشرعيّة والمخزنيَّة من دون استحقاق، حيث استعملوا وسائل غير شريفة لنيلها كالتزلُّف والرشا، ثمَّ القسم الثالث الذي خصَّصه لمن ادَّعوا الصلاح والمشيخة، وهم الذين ينطبق عليهم عنوان التأليف (**منشور الهداية، في كشف حال من ادّعى العلم والولاية**)، ثمَّ القسم الرابع والأخير خصَّه لمعاصريه ولو كانوا من أفراد الطبقتين الثانية والثالثة أي الموظَّفين السَّاميين كالقضاة، والمفتين، ومشايخ الطرق، إلا أنَّهم معتدلون ومحاسنهم أكثر من مساوئهم، وهذه التراجم التي شملت جلّ معاصريه ومواطنيه كادت أن تجمع معظم الأسر العلميّة والمخزنيَّة بمدينة قسنطينة ومن بينهم أقاربه وتلامذته.

ويمتاز هذا التأليف من تآليف التراجم، بأنَّه يذكر مترجميه بأسمائهم وألقابهم وخططهم ويدعم أوصافهم بالحجج والبراهين سواء في بالمدح أو القدح، ثمَّ نجد أسرة

ابن الفكُّون هذه جمعت خزانة كتب لها شهرة عالميّة فضلا عن بلاد المغرب العربي، وقد نوّه بها كثير من العلماء القدامى والمتأخِّرين، ثمَّ زارها ونوّه بذخائرها كثير من المستشرقين، وقد نشر (**التقويم الجزائري**) لسنة 1330هـ/ 1913م ترجمة أسرة ابن الفكُّون وذكر بتلك المناسبة الخزانة فقال: «حتى كانت خزانتهم في العهد الأخير، تشتمل على عدَّة آلاف من الأسفار الثمينة النادرة، في فنون شتى، وفيها ما يعدّ من الآثار القديمة المخطوطة في القرون الأولى وجمعت غالب الكتب التي كانت على ملك الشَّيخ مرتضى الزَّبيدي شارح (**القاموس**)، والشّيخ بيرم الخامس صاحب (**الرِّحلة**)»اهـ.

وقد سبق للعالم الشهير أحمد ساسي البوني من علماء القرن الحادي عشر أن نوَّه بهذه الخزانة في منظومته المسمَّاة: (**الدرَّة المصونة في علماء وصلحاء بونة**) التي ضمَّنها تراجم علماء بونة ومن ورد عليها من العلماء المجاورين كعلماء قسنطينة الذين عقد لهم فصلا عنونه بقوله: «الفصل الأوَّل في بعض مَن دخلها ـ أي: بونة ـ من فضلاء قسنطينة »، فاستهلَّ الفصل بقوله:

بسـيّدي عبـد الكـريم العـالم   الصّـالح الفكـون ذي المكـارم
مؤلّـــف التـــآليف الكثـــيرة   وكـــان ذا مناقـــب أثـــيرة

ثمَّ أشار إلى الخزانة الفكُّونيَّة بقوله:

وعنـــده الكتـــب بـــالآلاف   والمجـد تالـد بـلا خـلاف

ثمَّ ذكر بعض علماء قسنطينة ممَّن زاروا بونة فقال:

بســـيِّدي محمّـــد النَّعـــيم   العـــالم الصّـــالح ذي الفنـــون
وبـــابن بـــاديس والســـويدي   يبلـــغ الله الكـــريم قصـــدي

ولهـــا حـــبّ عظـــيم زائـــد في والـــده وحزبـــه الأماجـــد
ومـــــدحا بلــــدي كثــــيرا وكـــان كـــلّ عـــالم كبـــيرا

إلى أن قال:

ولابـــن بـــاديس مؤلّفـــات نافعـــة نعـــم المخلّفـــات
أجاز لي فيها بخطّـه الصـحيح وهو بنيل مطلبي غـير شـحيح
وكـان قـد آمـل منـي أنّنـي أجعـل تاريخـا لأهـل الـزمن
أجمـع فيـه بعـض أهـل العلـم فقــدّر الله بهـــذا الـــنظم

وإنَّني إن لم أتعرَّض لأسرة ابن القنفذ فإنَّ تأليفه القيِّم: (**الفارسيَّة في مبادىء الدولة الحفصيَّة**) حضيَ بالطَّبع منذ عشر سنوات، وقد تولَّى تحقيقه عالمان خبيران من أساتذة تونس، استوعبا فيه ترجمته من جميع جوانبها، فنحيل مستمعينا إليه، وإنَّ اقتصاري على بعض التراجم المذكورة لا يمنع من أنّ قسنطينة أنجبت طيلة قرون أئمّة وأدباء من أسر مختلفة، تناول تراجمهم بالتَّحليل مؤلِّفو التراجم والرَّحالون وعلماء الحديث، ومن بين الرحالين المتأخِّرين الذين زاروا قسنطينة وسجّلوا انطباعاتهم عنها وعن بعض علمائها المؤرِّخ الجزائري أبو راس الناصري[1] (دفين معسكر) الذي عقد رحلة إلى المشرق سنة 1204هـ ومرَّ في طريق ذهابه على قسنطينة، ثمَّ الرحالة أبو القاسم الزياني[2] في رحلته المسمَّاة: (**الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرا**)[3] سنتحدّث عنهما بعد أن نذكر

(1) محمد أبو راس النَّاصري (1165 ـ 1237هـ)، له رحلة إلى المشرق في سنة 1204 و 1226هـ زار خلالها قسنطينة.

(2) أبو قاسم الزياني المغربي (1147 ـ 1249هـ).

(3) **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرا**، تحقيق عبد الكريم القلالي نشر وزارة الأنباء، بالرّباط

شخصية علمية أجمع سكّان البلاد والعلماء الواردين على قسنطينة على فضله والإشادة به، وهذه الشَّخصية هي شخصية أبي حفص عمر الوزَّان، الذي كان والده مديرا للجمارك بقسنطينة، وبهذه المناسبة تعرّف مع العالم الشّيخ أحمد زرُّوق البرنسي الفاسي، الذي أقام مدّة طويلة ببجاية، وألف فيها معظم تآليفه، ولا زال محل اعتناء الباحثين المعنيين بتاريخ الفكر الإسلامي، إذ هو آخر العلماء الذين جمعوا بين الحقيقة والشريعة، وألّف أحسن تأليف في الموضوع وهو كتاب قواعد التصوّف الذي ألَّفه ببجاية عندما شاهد انقسام علماء البلاد بين أنصار السلفية وأنصار المتصوِّفين، وهذا التأليف هو الذي بسّطه عبد الرحمٰن الأخضري في منظومته الشَّهيرة بـ **(القدسيَّة)**، ورغم كثرة مترجميه، فإنّ ناحية من نواحي حياته لم يذكروها كلّهم، وهي اشتغاله بالتّجارة ومروره على قسنطينة صحبة قوافل التجَّار الفاسيَّة، ونفس الاتّصال التجاري بين فاس وقسنطينة كان مجهولا رغم اهتمام العلماء في المجالات الاقتصادية به، ومن ذلك أنّ أحد كبار العلماء الألمانيين زار الجزائر في السّنة الماضية وألقى محاضرات في العلائق التجارية بين مصر وفاس ونفى أن تكون هناك علائق بين الجزائر ومصر لخبر يطول، فلهذا كانت كتب التراجم لم تقتصر على تحليل شخصية المترجم لهم بل كثيرا ما تتعرّض إلى نواحي سياسية وحضارية لها ارتباط بتاريخ البلاد، ولولا تراجم بعض العلماء لما عثر عليها، ومن بين علماء قسنطينة الذين تعرّف بهم الرحالة أبو القاسم الزَّياني في أوائل القرن الثالث عشر الهجري عند زيارته لها في طريقه إلى المشرق، الأديب محمد بن كشك علي الكوغلي الذي تولّى الكتابة الخاصّة عند صالح باي، ولمّا نكب وتولّى خلفه حسن باي ـ كان الزياني صديقا للباي حسن الذي تعرف به عندما كان مقيما بتلمسان وصادف أنّ الباي حسن كان منفيا بها ـ.

وقد حكى محمد بن كشك هذا نكبته بعد قتل صالح باي، إذ صودرت أمواله

وسجن ثمَّ أطلق سراحه، وألزمه حسن باي بتولي الكتابة فقال محمد بن كشك الزياني محذِّرا من خدمة الملوك والسَّلاطين فقرات عقد لها الزياني فصلا عنونه بقوله: «التحذير من خدمة الأمراء»، قال فيه: «ولمَّا سرَّحني... ».

أضواء على تاريخ (الجزائر) في العهد التُّركي
من خلال مخطوط: الثَّغر الجماني في ابتسام الثّغر الوهراني(1).

هذا التأليف الذي نقدمه اليوم للقراء هو من التآليف النادرة القيمة التي تميط اللثام عن جوانب كثيرة من تاريخ الجزائر في العهد التركي الذي ما زال يكتنفه الغموض.

اعتنى كثير من الباحثين بدراسة هذه الفترة من تاريخ الجزائر إلا أن جلهم اعتمدوا على كتب المستشرقين أو ترجموه من المصادر الغربية.

إن أكثر المستشرقين اهتماما بتاريخ العهد التركي هم الأسبان إذ خصصوا مئات التآليف لهذا العهد وما زالت خزائن الوثائق في إسبانيا مملوءة بها، وقد نشر الكاتب الإسباني رودريقيز ماران(2) (Rodriguez Marin) فهرسا لهذه الوثائق يحتوي على 900 تسعمائة صفحة.

كما اعتنى كثير من المؤرِّخين والرَّحَّالين والتُّجار والقسِّيسين من مختلف الأجناس بتدوين مذكرات انطباعاتهم للمدَّة التي أقاموها بالجزائر، ثم ظهرت بعد ذلك تآليف

---

(1) مجلة الأصالة، العدد 8، ص273-292، ربيع الثاني- جمادي الاولى 1392هـ/ ماي - جوان 1972م.

(2) Rodriguez Marin: Guia historica y descriptiva de los (1) archives, bibllotéchas y muscos arqucologicos de Espana: archios historicos.madrid (surprendre de la bouista de archios 1916 n 827 p).

أخرى خصوصا بعد الاحتلال الفرنسي (1830م) جل أصحابها من الفرنسيِّين اعتنوا بالمصادر العربية فترجموا معظمها أو لخصوه، وساعدهم على مهمتهم استحواذهم على كثير من بقايا التراث فدرسوها في المؤتمرات العلمية بعد أن حققوها ونشروا نتائج بحوثهم في سجلات تلك المؤتمرات، وفي المجلات الخاصة لهذا النوع من الدراسات، كالمجلة الإفريقية التي كانت تصدر بالجزائر، والمجلة الأسيوية التي تصدر بباريس، فأحيوا فيها كثيرا من الآثار التاريخية التي اكتشفوها في بعض الخزائن العامة والخاصة وبعثوها من مرقدها.

هذا، وإننا وإن كنا نعترف بالفضل لبعض هؤلاء الكتاب على ما بذلوه من جهود في سبيل المحافظة على تراثنا وإحيائه، وعلى ما استفدناه من بحوثهم، فإننا نلاحظ، أنه إن كان الهدف للكثير منهم البحث العلمي النزيه، فإن الآخرين شوهوا الحقائق، بعضه جهلا والبعض الآخر عمدا، جريا على ما كانت تتطلبه المصالح الاستعمارية، أو التعصب العقائدي، وقد وصل الكثير منهم إلى أهدافهم حيث بذروا الشك في عقول كثير من المواطنين، ولقنوا حقائق تاريخية، أقل ما يقال فيها أنها مشوهة، ولهذا فنحن في أشد الحاجة إلى إعادة النظر في البحث عن ماضينا، وإلى معرفتنا بقيمنا الحقيقية، والاعتناء بدراسة هذا الماضي دراسة علمية دقيقة، مجردة عن الأغراض والارتجال، وهذا يتوقف قبل كل شيء على جمع الوثائق المختلفة لذلك العهد، ودرسها من جديد، وتقديمها للقراء حتى يتسنى للخلف أن يعرفوا حقائق ماضي البلاد بصورة واضحة وأن يطلعوا على المشاكل التي واجهت السلف وتغلب عليها أو تغلبت عليه، ولهذا يشترط في الباحث أن يتحرى الصدق في النقل، وأن لا يتسرع بالتصرف في النصوص أو بالحكم على الأحداث حسبما تمليه عليه الأهواء أو التيارات الفكرية، فيؤول النصوص، أو يلفق منها ما يؤيد به رأيه أو مذهبه في الظروف التي فيها، إذ لا تخلو من

تيارات أو مذاهب تجتاح المرة بعد المرة البلاد، فيندفع الرأي العام على غير هدى وروية، ثم لا تلبث أن تهدأ فورتها، فتخبو وتنطفي، ولهذا قيل: إن المؤرخ ينبغي له أن يكون أمينا كالفنان المصور، كما يشترط في الباحث أن لا يحكم على أحداث الماضي بمقاييس ومناظر العصر الحاضر، فمثلا: إن الوطنية الضيقة الحدود، كانت مجهولة إذ ذاك في كثير من بلاد الإسلام حيث كان المسلم أينما حل فهو في بلاده ووطنه، وبهذه النظرة يمكننا أن نتصور عهد الحروب التي كانت متواصلة بين ملوك بني زيان ملوك تلمسان، وبين بني مرين ملوك المغرب، ثم بينهم وبين ملوك بني حفص ملوك تونس، وكان الجزائريون، كثيرا ما ينتصرون للمرينيِّين ولبني حفص على ملوك بلادهم بني زيان.

إنَّ أثر الاحتلال الأسباني للجزائر الذي أعقبه الاحتلال التُّركي، ومقاومة البلاد طيلة قرون، شحذ قرائح الكُتَّاب الجزائريِّين وجعلهم يهتمُّون بالأحداث التي اجتازتها البلاد، فألَّفوا تآليف كثيرة لها أهمية، خصوصا بعد انتصاراتهم على الأسبان، وطردهم من وهران، التي دام احتلالهم لها ما يقرب من ثلاثة قرون، إذ احتلَّها الأسبان سنة 914هـ وأخرجوا منها سنة 1119هـ ثم استرجعوها سنة 1144هـ وبقوا بها ربع قرن، إلى أن أخرجوا منها نهائيا سنة 1206هـ على يد الباي محمد بن عثمان الكبير الكردي ـ باي الولاية الوهرانية ـ فعندئذ تسابق الكتاب والشعراء إلى تخصيص هذا الفتح بعدة تآليف، كما سبق أن خصص سلفهم للفتح الأول الذي وقع سنة 1119هـ في عهد محمد بكداش باشا الجزائر وخليفته مصطفى بوشلاغم باي الولاية الوهرانية إذ خصصوا الفتح الأول بعدة تآليف وملاحم وقصائد وصلنا منها ما جمعه العالم الأديب محمد بن ميمون الجزائري وسماه: (**التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر**

المحمية)[1] والذي ترجم فيه للباشا الفاتح وكتاب: (**بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيِّين من الأعراب كبني عامر**) للشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي خصه للمتعاونين مع العدو، وبعد أن بين أصول القبائل المتعاونة وفصولها تعرض لحكم الله فيها، ثم شرح (**أرجوزة الحلفاوي**) للرحالة **عبد الرحمٰن الجامعي الفاسي** صاحب الرحلة المشهورة الذي ساهم المهنئين للباشا بكداش في الفتح بقصيدة بليغة ذكرها صاحب (**التحفة المرضية**).

أما الكتَّاب الذين خصَّصوا تآليفهم للفتح الثاني والأخير الذي وقع على يد محمد بن عثمان، فهم المؤرخ **محمد أبوراس الناصري** في تأليفه: (**عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**)، و**محمد المصطفى بن عبد الله بن زرفة الدحاوي** في: (**الرحلة القمرية في السيرة المحمدية**)، و**أحمد بن سحنون** في: (**الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**) موضوع مقدِّمتنا هذه، وهو كما ذكرنا من أهم وأنفس ما ألف في ذلك العهد، إذ هو عبارة عن مذكِّرات دوَّنها مؤلِّفها الذي كان يعيش في بلاط الباي، وكان ملازما لولده ولي عهده، وسنتعرَّض للحديث عن التأليف بتفصيل في آخر هذا التَّقديم.

كانت هذه الحرب المشهورة بحرب الأسبان حربا صليبية تجددت في شمال المغرب الأقصى حيث هاجم الإسبان والبرتغال شواطئ المغرب، وسقطت بعض مدنه الساحلية كسبتة، سنة 817هـ والقصر الصغير سنة 862هـ ثم تطوان وطنجة ومليلة وبعد سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين بالأندلس سنة 897هـ صفا الجو للإسبان وأدت بهم نشوة الانتصار إلى تتبع المسلمين في عقر دارهم، فكان احتلال وهران سنة 914هـ بعد احتلال المرسى الكبير ثم احتلال بجاية، فتونس، وطرابلس.

---

(1) حقَّقها وقدَّمها الأستاذ **محمد بن عبد الكريم الزموري** لنيل شهادة الدِّراسات العليا بكلية الجزائر منذ سنة.

كان ملك اسبانيا إذ ذاك فردينان (Fredinand) وقد استشاره الصليبيون على شن هذا الهجوم فوافقهم مبدئيا واعتذر لهم على تأخيره للعجز المالي، فتقدم إذ ذاك الكاردينال كسيمنيز (Ximenez) أسقف طليطلة وتعهد بتحمل نفقات هذه الحرب بشرط أن يكون ذلك فرضا من الكنيسة، كانت صلة الكاردينال كسيميز هذا وثيقة بالملكة إيزابيل المشهورة بالكاثوليكية زوج الملك فردينان والمتعصبة للحرب الصليبية إذ هي التي تداخلت في الصلح بين قومها والبرتغال فطلبت من البابا ألكسندر السادس (Alexandre 6) التدخل في هذا الصلح ليتقاسم فيه الإسبان والبرتغال مناطق النفوذ بينهما فكان الاجتماع المشهور باجتماع طرودزيلا (Trodesillas) سنة 1492م، فخصص البابا للبرتغال مدن شواطئ المحيط الأطلنطي، والبقية أي شوطئ البحر الأبيض للأسبان، وبعد احتلال شواطئ الجزائر عزز البابا قرار 1492م بقرار آخر، أعلن فيه الحرب الصليبية على بلاد المغرب العربي سنة 924هـ الموافق ل 1518م، وأمر ملوك أوربا بعقد مهادنة لمدة خمس سنوات، تتفرغ فيها إسبانيا لاحتلال ما تبقى من مدن المغرب العربي.

كانت بلاد المغرب العربي أثناء هذه الأحداث سيئة جدا، فعلاوة على عوامل الضعف والانحطاط التي عمت البلاد السلامية كلها ابتداء من منتصف القرن الثامن الهجري كما ذكر ذلك المؤرِّخ **عبد الرحمٰن بن خلدون** وشاركه في رأيه أستاذه الجزائري محمد المقري التلمساني وان اختلفا في الأسباب، فالمقري كان يرى أن النظام الملكي[1] هو من أسباب ذلك التدهور حيث إنه مناف للتعاليم الإسلامية المحبذة للشورى، وابن خلدون يرى أسبابا أخرى بينها بتفصيل في تاريخه (**ديوان العبر**).

---

(1) بحث طريف في الموضوع، نشره أحمد المقري في ترجمة جدِّه (نفح الطيب (ج/ 3، ص: 147)، المطبعة الأزهرية 1302هـ.

نال المغرب العربي حظه من هذا التدهور ولم تتغير حالته طيلة القرن التاسع، ويظهر ذلك جليا في ضعف الملوك وتنمر القبائل العربية التي كانت تتمتع بشبه استقلال في إقطاعاتها وكلما أحست بضعف الملوك إلا وبالغت في تمردها وتحديها ومطالبها إذ كان لا يهمها إلا مصالح القبيلة والعشيرة، فعندما فوجئت الجزائر بالاحتلال الإسباني كانت مجزأة إلى نحو خمسة عشر جزءا، الكل تهيمن عليه قبيلة عربية أو بربرية، فقبيلتا سويد وبني عامر الشهيرتان كانتا تسيطران على معظم سهول ولاية وهران، وكان آل المقراني يتصرفون في القبائل الصُّغرى (وادي بجاية) وكانت قاعدة إمارتهم قلعة بني عباس ثم حولت إلى مجانة والقبائل الكبرى تحت تصرف آل ابن القاضي ومقر إمارتهم جبل كوكو، ومدينة الجزائر وسهول متيجة تحت تصرف قبيلة الثعالبة ورئاستهم إذ ذاك في آل ابن التومي، كما كانت كل من قبائل الذواودة والأحرار وسد ويكش وبني تيقرين تهيمن على ناحية لا تنالها في تصرفاتها أحكام الملوك، وقد تعرض كثير من الفقهاء لحالة بعض هذه القبائل، خصوصا صاحب: (**الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة**) بذكر كثير من الأسئلة الواردة في حق هذه القبائل وتمردها على الحكام فقال: «وسئل الحفيد سيدي **محمد العقباني** عن هؤلاء الأعراب المتغلِّبين على البلاد لضعف السلطنة، أحيانا يكونون خدَّاما للسلطان، وتارة يكونون مخالفين على السلطان كما يفعل عرب بلدنا مثل بني عامر وسويد يعمد أحدهم إلى تولية قاض في وطنه ـ أي: إقطاعه ـ بأمر الإِمام فيقضي، هل تصح توليته وتنفَّذ أحكامه ؟ الخ وقال في موضع آخر: «... مع أن أحكام السلطان أو نائبه لا تنالهم بل ضعف عن مقاومتهم فضلا عن بلاد رعيته، ونصب عمالهم فيها وقطع نظر عمل السلطنة عن النظر في جبايتها...الخ».

هذه في الجملة حالة بلاد الجزائر إذ ذاك نتجت عن انهيار دولة الموحِّدين وتفكُّكها في أوائل القرن السابع إثر ثورة بني غانية ـ بقايا اللمتونيين المرابطين ومشايخهم ـ كما

كانوا يُدعون حينئذ، الذين تسابقوا إلى وراثة تعاليم الإمام المعصوم، فاندلعت الحرب بينهم، وبقيت طيلة قرون.

كانت دولة بني زيان في تلمسان بحكم موقعها الجغرافي بين نارين، تارة تحارب بني مرين ملوك المغرب، وتارة بني حفص ملوك تونس، وعلاوة على هذه العوامل كلها طرأ عامل آخر وهو كارثة الأندلس وسقوط مملكة غرناطة، فلجأ إلى الجزائر سيل عرمرم من المهاجرين الأندلسيين فحذروا السكان وأطلعوهم على جرائم الأسبان وعلى نواياهم نحو البلاد الإسلامية إذ كانوا عازمين ـ لو حققت أمانيهم ـ أن يخلوا بلاد المغرب العربي من سكانها ويعمروها بالمسيحيين.

كان من جملة اللاجئين إلى وهران من الأندلسيين الملك السابق لمملكة غرناطة أبو **عبد الله الزغل** (1) أمير مالقة عم آخر ملوكها المشهور عند الكتاب الأوربيِّين ببوعبدل وقد انتقل من وهران إلى تلمسان حيث دفن بها سنة تسع وتسعين وثمانمائة، وقد عثر على شاهد قبره بتلمسان كتب عليه ما يلي:

قبر سلطان قد مات في حال انجلائه ... بتلمسان غريبا مهملا بين نسائه

بعد أن جاهد في الله جهد اعتنائه ... حكم الدهر عليه قهرا حكم قضائه

وآتاه الله صبرا عند انزوال بلائه ... فسقى الله قبره دائما غيث سمائه

أما ابن أخيه الملك المخلوع آخر ملوك غرناطة فإنه لجأ إلى المغرب وتوفي بمدينة فاس كما ذكر ذلك **أحمد المقري** في: (**نفح الطيب**)، وغلط كثير من المؤرخين خصوصا

---

(1) أبو عبد الله الزغل هذا هو المشهور بالمجاهد، قال المقري في نفح الطيب (ج/ 2 ص: 6) الطبعة الأزهرية بمصر 1302هـ في ذكر حوادث سنة 895هـ: «ولما رأى ذلك السلطان الزغل ـ وهو عبد الله محمد بن سعد ـ عم سلطان غرناطة بادر بالجواز لبر العدوة فجاز لوهران ثم لتلمسان واستقرَّ بها نسله إلى الآن يعرفون ببني سلطان الأندلسي».

المستشرقين ـ بعد اكتشاف الشاهد المذكور بمدينة تلمسان إثر الاحتلال الفرنسي[1] ـ فحسبوا أن آخر ملوك غرناطة هو دفين تلمسان صاحب الشاهد.

لم يلق الأسبان مقاومة تذكر عند احتلالهم للشواطئ الجزائرية بل الأنكى أن بعض أمراء تلمسان من بني زيان تسابقوا للاتصال بهم وعرضوا عليهم خدماتهم، كان كثير من العلماء يتوقعون هجوم الأسبان على الجزائر بعد سقوط غرناطة واحتلالهم لبعض المدن المغربية فأنذروا السكان وحذروهم من الخطر الذي يهدد البلاد، ومن هؤلاء العالم الأديب الشيخ محمد التواتي الذي خاطب سكان وهران بقصيدة طويلة نقتطف منها هذه الأبيات، قال:

يا أهل وهران أنظروا نظر شفقة ... لبلدتكم من قبل أن تتردتي
وقبل مجيء المنشآت ببحرها ... وأي قلوب عندها مستقرتي
ولا تكلوها غيركم وليت يكن ... فما غائب مثل المقيم ببلدة

إلى أن يقول:

فلا تهملوا أمر الأعادي فإنهم ... بحال اجتماع واتفاق وشدة
وقد قطعوا قطعا فإن ظفروا بكم ... فقد ظفروا طرا بأهل الجزيرة
ولا يحمي مرساكم ضعاف رجالكم ... ولا البدو بل تحميه أهل الجزيرة
فإن لهم بالطعن والضرب خبرة ... وكم فتكوا بالكفر أكبر فتكة

لما ظهر ضعف ملوك البلاد على المقاومة واتصال بعض الأمراء بالعدو، اجتمع علماء الدين ونادوا بالجهاد والاعتماد على النفس وإحياء الرِّباطات، وكان **عرُّوج**

---

(1) اكتشفه **بروصلار** نائب والي بتلمسان ثم والي وهران إثر الاحتلال، وقد نشر سلسلة مقالات عن الآثار العربية بتلمسان في (**المجلة الإفريقية**).

وأخويه **خير الدِّين والإسكندر** يجوبون البحر الأبيض المتوسط فينقلون اللاجئين الأندلسيين إلى شواطئ البلاد الإسلامية وكانوا كثيرا ما ينزلون ببعض الشواطئ مختفين يتصلون ببعض الشخصيات الدينية فمن جملة من اتصل بعروج من هذه الشخصيات الشيخ **أحمد بن يوسف الراشدي** (دفين مليانة) [1] الذي كان من ألد أعداء الملوك الزيانيِّين وحكموا عليه بالإعدام، فصادف أنه كان بقرية كرشتل (على شواطئ البحر غربي وهران بينها وبين شاطئ أرزيو) وحوله مريدوه فلمحه **عرُّوج** فقصده وحدَّثه بواسطة ترجمانه، وقد ذكر هذه القصة الشيخ **علي بن الحاج موسى** في **(ربح التِّجارة)** [2] الذي ذكر فيه ترجمة الشَّيخ **أحمد بن يوسف** وكراماته التي منها هذه، وهي أن **عرُّوج** لما اجتمع بالشيخ قال له: «إنني أنوي أمرا إن سهَّله الله فلا ننساك »، والذي يهمُّنا من هذه الرواية هو أنَّ **عرُّوج** كان يقصد بعض الشواطئ مختفيا، وكان يتَّصِل بمن يتوسَّم فيهم الفائدة، وعلى كل حال فالأتراك لم ينسوا **أحمد بن يوسف** فكانوا يعينون على رأس ركب الحجِّ سنويا أحد أولاده، وقد بنَوا له ضريحه ومسجده الحاليَين بمليانة، كما عيَّنوا أحد تلامذته نقيبا لأشراف الجزائر، وبقى أولاده يتوارثون هذه الخطة في عهد الأتراك.

كما اتصل بالأتراك من علماء الجزائر ورؤسائها الشيخ أحمد بن القاضي الزواوي صاحب جبل كوكو، واختلف كثير من المؤرخين في شخصيته وكيفية اتصاله بالأتراك فمنهم من ذهب إلى أن ابن القاضي لما رأى خطر الصليبية كاتب الخلافة العثمانية وهي التي أمرت **عرُّوج** وإخوته بإجابة رغبته، ومنهم من قال بأنه اتصل بهم هو و**سالم بن التومي** وسهَّلا عليهم احتلال العاصمة، ووقع ذلك بالفعل، ولا يبعد أن اتصاله بهم

(1) أحمد بن يوسف الراشدي قرأ ببجاية عن أحمد زروق البرنسي وانتصب للوعظ والإرشاد بالراشدية، توفي سنة 927هـ.

(2) **علي بن الحاج موسى الجزائري** (1244 ـ 1330هـ) عالم محدِّث له تأليف سماه: **(ربح التجارة)** في مناقب الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي، وتوجد منه نسخة في مكتبة ضريحه بمليانة.

كان من نوع اتصال الشيخ **أحمد بن يوسف** بهم، أما شخصيته فالحقيقة أنه تولى قضاء **بجاية**، وقد عثرنا على وثيقة تثبت ذلك، وبعد تزعمه لحركة المقاومة اتخذ جبل كوكو مقرا لإمارته، كما ذهب المؤرِّخ **أبو راس الناصري** بأن أبناءه استوطنوا مجاجة ـ قرب الأصنام ـ ومنهم الشيخ **عبد الرحمٰن بن القادر المجاجي** صاحب التأليف الشَّهير في المغارسة، ثم ترجم له ـ أي: **لأحمد بن القاضي الزواوي** (1) هذا ـ كثيرٌ من المؤرِّخين وأصحاب السير، وبالخصوص ابن عسكر في (دوحة الناشر)، قيل: إِنَّه من بقايا الحفصيِّين ببجاية، كما خصَّه بالترجمة كثيرٌ مِن المستشرقين إلَّا أنهم لم يتوصَّلوا إلى نتيجة مقنعة، والحقيقة أنه بعد احتلال الأتراك لبجاية والعاصمة اختلف معهم ثم صالحهم ثم حاربهم إلى أن مات في واقعة بثنية بني عيشة لخبر يطول، وخلفه أولاده وأقاربه، ومنهم مَن سمِّيَ باسمه، وكانوا في حالة حرب وسلم مع الأتراك ومع جيرانهم ومنافسيهم آل المقراني بمجانة والذي يتلخص لنا من هذا هو أن الأتراك لم ينزلوا بالجزائر تلقائيا بل جاءوها كمواطنين مسلمين ليشاركوا في الدفاع عنها وينقذوها من خطر الصليبيين ولهذا لقيهم جل السكان بالتجلة والترحيب، اللهم إلا بعض أمراء بني زيان وبعض رؤساء القبائل الذين كانوا يعتقدون أن الأتراك يقرونهم على التصرف المطلق في إِقطاعاتهم كما كانوا زمن الملوك الضعفاء، فتبين لهم أن عروج وإخوته جنود جديون يقدرون الظروف الخطيرة التي كانت تجتازها البلاد فصاروا يعاقبون ويردعون كل من لم يتعظ بالأحداث كأمير الجزائر السابق **سالم بن التومي** الذي قتله عروج بيده وأمراء بني زيان ملوك تلمسان وأحمد بن القاضي الزواوي.

---

(1) قال صاحب (**دوحة الناشر**) بعد ما عرفه: «ولم يزل (رحمه الله) متابدا على سيرته النبوية إلى أن كان من أمره مع خير الدين التركماني مما هو مشهور، وهو كان السبب في دخول التركماني لمدينة الجزائر واستيلائهم عليها وعلى المغرب الأوسط إلى الآن ... وقتلوه شهيدا (رحمه الله) في العشرة الثالثة والله أعلم »، قتل في معركة مع الأتراك بـ: (ثنية بني عائشة) سنة 933هـ الموافق 1527م.

وقد استغل بعض الكتاب خصوصا الأوربيين قتل **عروج** لأولئك الأمراء الذين رمى بعضهم في صهريج، وشبهوه بملوك رومة الذين كانوا يقدمون ضحاياهم إلى الوحوش فتفترسها على مرأى من المتفرجين.. ولنترك هنا الكلمة للمؤرخ أبي راس ليبين لنا الداعي لقتل عروج أولئك الأمراء وكذلك الظروف والمحل الذي قتل فيه عروج، قال **أبو راس** في (**عجائب الأسفار**) يصف احتلال خير الدين لتلمسان: «... ولما دخل تلمسان استعمل عليها أخاه عروج، ثم بعد منصرفه تعصب **المسعود** ـ من ملوك بني زيان ـ وهجموا على عروج فأخرجوه عنهم، ثم زحف إليهم بمن معه وكان شديد البأس فدخل تلمسان وقتل سبعة من المترشحين للملك، ونحو الستين من الأمراء، ولما رأى **المسعود** ما وقع ذهب إلى وهران واستنجد بالملك الاسباني، فأرسل معه إلى تلمسان يحاصر عروج، فلما طال الحصار عليه خرج بمن معه من الجيش والبطانة فلحقوه بجبل بني موسى[1] وقتلوه ومن معه يوم عيد الفطر سنة خمس وثلاثين وتسعمائة.

وقد ذهب كثير من الكتاب إلى أن عروج استشهد في (شعبة اللحم) بالمالح ـ غربي مدينة **عين تمشنت** ـ وهو خلاف الواقع، وقد أيد ما قاله المؤرخ الشهير **بربقجير** في بحثه القيم الذي نشره في (**المجلة الإفريقية**) المؤرخة في أكتوبر 1859 تحت عدد الجزء 19 ترجم فيه بعض الوثائق الاسبانية تثبت أن عروج بعد حصار طويل في تلمسان التجأ مع عدد قليل من أنصاره إلى الانسحاب لبلاد المغرب فلحقته كوكبة من الجيش الإسباني التي كانت تحاصره فالتقى الجمعان ودافع عروج رغم قلة أصحابه دفاع الأبطال إلى أن توفى بالمكان المذكور في جبل بني يزناس بالمغرب الشرقي.

---

(1) كان قاتل عروج هو قارصيا فرننديز دولابلازا ـ وقد قلده الملك شارل الخامس لقب الأشراف بنفسه ـ المجلة الجزائرية 1873 العدد: 17.

هذه حالة بلاد الجزائر ذكرناها مجملة بعد نزول الأتراك بها، أما حالة المغرب فإنها كانت لا تختلف عنها بكثير، ولنكتف بما وصف به حالة المغرب إذ ذاك العلامة أحمد بن القاضي المشهور بأبي محلي السجلماسي الذي ثار من جهته على الملوك السعديين واحتل سجلماسة ومدينة مراكش، ونادى هو الآخر بالجهاد وبإحياء الرِّباطات التي كان دعا إليها قبله علماء آخرون مثل الشيخ **أبي عبد الله محمد بن أحمد العياشي السَّلاوي**، قال **ابن القاضي** يصف حالة بلاد المغرب الأقصى وتزاحم الأمراء على طلب الملك وتهاونهم في الدفاع عن حمى الوطن، بل اتَّصل بعضهم بجيش الاحتلال واعترف لهم بالسيادة على بعض الجهات المحتلة كمدينة العرائش ...الخ، قال: «...وكل من تغلب على جهة قليلة منهم إنما يبايعه من لا بال له، أو مكرَه على بيعته خوفا مِن ظلمه، فسابت الأمة، وعمت البلية والغمة، وفاض الكفر، وغاض النصر، حتى أخذت السواحل، ولا مغيث لأهلها مع استغاثتهم لجميع القبائل، وعطل فيها الأذان، وضرب الناقوس في مساجدها ونصبت الصلبان، وعبدت في محارب الله من دونه الأوثان، وكل عالم بزعمه، أو صالح بوهمه أو أمير بدعواه».

انتشرت الرباطات في شواطئ المغرب الأقصى والجزائر ووقع الاتصال بين رجال الرباطات، خصوصا بعد إعلان ثورة أحمد بن القاضي أبي محلي فاتصل به وفد من علماء ورؤساء القبائل بالجزائر كان على رأسه العلامة الشهير سعيد قدورة [1].

حفظ لنا التاريخ بعض وثائق لهذه الرباطات منها رباط تنس ورباط شواطىء تلمسان فقد عثر على وثيقة مؤرخة سنة 954 هـ بخط الشيخ عبد الرحمٰن اليعقوبي

---

(1) عالم مؤلف تولى الفتوى بالجامع الأعظم بالجزائر، وتخرج عليه كثيرون من فحول العلماء، كيحيى الشاوي، وأبي مهدي عيسى الثعالبي، وسليمان الروداني السنوسي، صاحب **(الفهرس)** الشهير في العالم الإسلامي، توفي سعيد قدُّورة بالجزائر حوالي 1066هـ.

صاحب المعهد الشهير باسمه إلى الآن بنواحي ندرومة، عقد هذا العالم مؤتمرا جمع فيه رؤساء قبائل انقاد وبني سنوس وترارة ومطغره وبعض أعيان تلمسان لإحياء الرباطات، وهذه الوثيقة عبارة عن عرض حال يتعهد فيه سكان القبائل المذكورة بإمداد الرباط بالرجال والعتاد والمؤونة الخ، وهذا المؤتمر شبيه بمؤتمر الشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد العياشي الزعيم المغربي الذي نادى بالجهاد وقاوم البرتغال وجمع هو الآخر أعيان المغرب وزعماءه فبايعوه، وقد بين لنا المؤرخ الناصري في كتاب: **(الاستقصا)** بيانا ضافيا هذا المؤتمر حيث قال: وقدموه ـ أي العياشي ـ على أنفسهم والتزموا طاعته، وأن أي قبيلة خرجت عن أمره كانوا معه يدا واحدة على مقاتلتها حتى تفيء إلى أمر الله فأعطوا بذلك خطوطهم في ظهير وأنهم رضوه وقدموه على أنفسهم، ووافق على ذلك قضاة الوقت وفقهاؤه من تامسنا إلى تازا، وكان الحامل له على طلب ذلك منهم أنه بلغه عن بعض طلبة الوقت أنه قال: لا يحل الجهاد إلا مع الأمير، ففعل ذلك خروجا من تلك الدعوى الواهية.

كان خطر الحملة الصليبية في كل من المغرب والجزائر اللذين تقاعس ملوكهما عن الدفاع سببا في توحيد صفوف السكان والتفافهم حول زعمائهم المختارين، ولم يكتفوا باختيار الزعماء ومبايعتهم بل صاروا دعاة لجمع كلمة الزعماء أنفسهم، منذرين لهم بالخطر الذي يهدد البلدين وأن الجزائر والمغرب مرتبطان بالأحداث، وأنه إذا قدر للعدو احتلال إحداهما فليتخذها مطية إلى احتلال الأخرى، والذي يثبت ما ذكرناه بصفة جلية هو كتاب وجهّه علماء البلاد إلى الزعيم الديني محمد بن أبي بكر الدلاشي الذي كان حاضرا للمؤتمر الذي وقعت فيه مبايعة العياشي إلا أن العلائق السرية كانت بينهما غير مرضية، فكاتبه الجماعة بكتاب طويل هام في الموضوع افتتحوه ببعض الأبيات ومن جملة ما قالوه فيه من ارتباط البلدين المغرب والجزائر هذا: «والله الله

سيدي في جعل إنقاذ هذا المغرب في صحيفة أعمالكم والاعتناء بتطهيره من نجاسة الكفر من خيار أحوالكم، وشمروا سيدي عن ساعد الاجتهاد، وأذنوا في الناس بالجهاد، واغتنموا الفرصة في أوقاتها، وبادروها قبل فواتها، مادامت كلمتكما مسموعة ـ أي: هو والعياشي ـ وآراء الأعيان إلى آرائكما مجموعة، فلو غبتما عنا لعظم الأمر وهال، ووجبت الهجرة والترحال، ولم يبق في المغرب مسلم إلا وقد دخل للكفر تحت الذمام، وجعل في عنقه زمام الدجن وبيس الزمام، وسلك هذا العدو هذا القطر إلى تلمسان، وكيف لا وقد رأينا ذلك بالعيان »[1].

كان لهذه الاتصالات بين نخبة سكان البلدين وإحداث الرباطات والاعتماد على النفس بدلا من الاعتماد على الملوك والأمراء المتقاعسين، ثم اتصال خير الدين بالخلافة العثمانية، وانطوائه تحت لوائها وتعيينه من طرف الخليفة العثماني باشا على الجزائر، كان لهذا كله أثره الفعال، فتوحدت البلاد لأول مرة في تاريخها، ونظمت الإدارة والجيش، وأحس رؤساء القبائل بتغيير الأحوال، وإن المسيرين للجزائر رجال أكفاء أقوياء، ذوو جد وحزم، كما كان مصير سالم بن التومي بالعاصمة، وأحمد بن القاضي وأمراء تلمسان من بني زيان وغيرهم، درسا عمليا قاسيا يقرأ له السكان ألف حساب، ومن جهة أخرى فإن الهزائم التي تتابعت على الجيش الإسباني خففت من نشوة انتصاراته الأولى، فتلاشت أحلامه، وصار رابضا في مراكزه، محاصرا في مراسيه، قطع عنه التموين برا في جميع مراسيه، فصارا يستوردها بحرا، إلا أن الأسطول الإسلامي كان بدوره يهيمن على البحر الأبيض المتوسط، وغاراته متواصلة على شواطئ اسبانيا وايطاليا، وغنائمه من أساطيل العدو تعد بالآلاف، حتى أصبح الملك شارلكان الذي كانت مملكته هو الآخر واسعة الأطراف بالبحر الأبيض إذ كانت تضم قسما من إيطاليا وصقلية كان

(1) من مخطوط للعالم أحمد بن يحيى بن أحمد بن سليمان الفشتالي، يقول في عنوانه: «كتبه بعض أعيان المغرب إلى الزعيم أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدلاشي ».

يصعب الانتقال إليها فتولى إذ ذاك تجهيز الأساطيل لغزو العاصمة فجهز أسطولا تحت قيادة **دييقو دوفيرا** سنة 922هـ فقاومه عروج وهزمه، ثم أعاد الكرة مرة ثانية وجهز أسطولا تحت قيادة **هيقو دومنكاد** نائب ملك صقلية سنة 925 هـ فلم يفلح وكان سبق لهذا القائد المعجب بنفسه أن كاتب **خير الدين** قبل المعركة، آمرا له بالإستسلام وإلا فسيكون مصيره مصير أخويه عروج و**الإسكندر** المستشهدين بقلعة بني راشد، فأجابه خير الدين بأنه يترك الحكم للسيف وكان السيف في صالح خير الدين، ثم جهز الملك شارلكان أسطولا بنفسه بعد احتلاله لتونس واختار الظروف المناسبة فاغتنم فرصة غياب خير الدين الذي عينه الخليفة قائدا لأسطول الخلافة فهزم شر هزيمة وذلك سنة 948 هـ، وقد خصص كثير من المؤلفين مسلمين وغيرهم لهذه الهزائم التآليف العديدة فلا حاجة إلى إعادتها وإنما لا يفوتنا أن نذكر أن شارلكان في انسحابه إلى بجاية بعد أن أشرف على الهلاك فرأى كثيرا من الأهالي بلباسهم القومي داخل بجاية فامتعض لذلك وسأل عن السبب، إذ كان الأسبانيون لا يسمحون للمسلمين حتى المتعاونين معهم بالدخول إلى مدنهم المحتلة وإن لزم الأمر كأصحاب قوافل الحبوب فيغمضون عيونهم، فأخبروه أن هؤلاء ليسوا بمسلمين وإنما هم اليهود المطرودون من الأندلس، وكان ملك بجاية آواهم وأسكنهم في البلاد، ولما كانوا يحسنون اللغة العربية عرضوا خدماتهم على الأسبان ليتجسسوا لهم ويطلعوهم على أحوال البلاد فاستعملوهم لذلك فأمرهم شارلكان بطردهم فورا وقال كلمته المشهورة في وصفهم: «إننا لهذه الصفة الذميمة وهي الخديعة المتأصلة فيهم أطردناهم، وقد آواهم هؤلاء الناس وبدلوا خوفهم أمنا فكان الجزاء الخداع، ولم يراعوا فيهم إلا ولا ذمة فركنوا إليكم »، أخرج شارلكان اليهود بعد أن جردهم من جميع أملاكهم وأمر بإحراق كتبهم المقدسة زيادة في النكاية [1] إلا أن المعركة الحاسمة التي قلبت الأوضاع وقضت على أحلام اسبانيا

---

(1) فيرو (Feraud) تاريخ بجاية، وكاهن (Cahen) اليهود في إفريقية.

هي معركة الكُنت دالكادوت (Le Conte d'Alcadaute) والي وهران من سنة 1534م إلى 1558م، كان صديقا حميا للملك شارلكان ورفيقه عند احتلاله لتونس وهجومه على الجزائر وهو أول إسباني بوهران جمع بين السلطتين المدنية والعسكرية، وقد ضاق ذرعا بمرسى مستغانم فحاول مرتين الاستيلاء عليها وذلك في سنة 949 هـ، ثم في سنة 952 هـ وباء بالفشل وفي المرة الثالثة استعد لها أحسن استعداد فذهب بنفسه لقرطاجنة واختار الجيش الذي كان معظمه من نخبة الفرسان وخانه الحظ في هذه المرة أيضا وكانت الهزيمة الشنعاء التي ما زال الكتاب يخصونها بالتآليف ويتساءلون عن أسبابها وإن من حظ التاريخ الجزائري أن أحد قواد الجيش الجزائري سجل هذه المعركة التي شارك فيها وخاض غمارها في ملحمة شعبية خلدت الشاعر المجاهد الذي ما زال أهل تلك الناحية يحيون ذكراه سنويا وينشدون قصائده، وفي هذه الأسابيع دشن مسجد بقرب ضريح هذا الشاعر، ثم إن هذه الملحمة أو المنظومة تمتاز بخلوها من مبالغات الشعراء حيث إنها تتفق تماما مع أحداث الوثائق الاسبانية المترجمة.

دامت المعركة ثلاثة أيام خسر فيها الأسبان تسعة عشر ألف قتيل وأسير من بينهم خمسون ضابطا ومات في المعركة قائد الحملة الوالي الكنت دالكادوت، وإِننا رأينا أن نقتطف بعض الأبيات من هذه المنظومة وإن كانت باللغة الدارجة وكان هذا النوع من التقديم لا يسمح بتتبُّع الأحداث وذكرها بتفصيل، رأينا ذلك لنلفت نظر القراء إلى الشعر الشعبي في بلادنا الذي يمتاز بأنه سجل هام لتاريخ البلاد وجغرافيته، وأن سكان بلادنا رغم الهموم التي اجتازوها والمحاولات التي بذل فيها أصحابها الجهود لقطع صلته بماضيه يبقى محافظا على تراثه مشجعا لهذا النوع من الشعر الذي كان حفاظه ينشدونه في الولائم والحفلات مبجلين محترمين، ولو اندس فيهم بعد الحرب العالمية الأولى دخلاء لم يصونوا إعراضهم إلا أنهم، مع هذا كله لم يعدموا أنصارا ومشجعين ماديا وأدبيا كان لهم الفضل في هذه البقية.

تعرض شاعرنا الشيخ الأكحل بن خلوف الشهير بالأخضر وهو دفين مزيلة (شرقى مستغانم بنحو (60 كلم) للمعركة بتفصيل فأوفى لها حقها وبين الطريق التي سلكها باشا الجزائر الأمير حسن عند خروجه من العاصمة في طريقه إلى مستغانم ثم بين القبائل التي شاركت في هذه المعركة وانضمت للباشا ومنها قبائل سويد التي انتصر بعض أفرادها إلى الأسبان، كما سنبين ذلك في هذه المقدمة، ثم بين شاعرنا الصبغة الدينية التي اكتستها هذه المعركة، وبالتالي إن الانتصار فيها يعد أخذا لثأر غرناطة وانتقاما لها، قال الشاعر:

يـا سـايلني عـن طـراد الـرُّوم   قصـــة مزغــــران معلومـــة
يــا ســايلني كيــف ذا القصَّـــة   مـا بـين النصـراني وخـير الـدِّين

إلى أن يقول:

اجتمعـــوا في بـــرهم الأقصـــى   قـواوا الجـيش اوجـاوا معتمـدين
تـــرى ســـفون الـــرُّوم محترصـــة   صـبحوا في المنـا أعـداء الـدين
خرجوا لـك للـبرّ خـرج الشُّـوم   وانجلـوا مـن فـوق وجـه المـا

ويقول:

ارفـع رأسـك يـا عـلي المفهـوم   يـــا ســـيد الحســـنين وفطيمـــة
شوف ابلادنـا كيـف راهـا اليـوم   تســــبيها الكفــــار الظالمـــة

قصة مزغران معلومة

وهنا يذكر الشاعر الطريق التي مر عليها الجيش الاسباني بعد خروجه من وهران في طريقه إلى مستغانم فخالف الطريق المعتاد حتى لا يلفت النظر وقصد جبال تاشالة حيث تعود الجيش الاسباني الخروج إليها للمناورات العسكرية وهذه المكيدة لم تفت

عيون الجيش التركي من سكان البلاد الذين كانوا يتتبعون العدو في حركاته وسكناته فأرسلوا من يخبر الباشا حسن بالعاصمة، وإلى هذا أشار الشاعر بقوله:

أركــب فــارس اســبق ودنــا	بــالتَّعريف ابيشَّرــ السُّــلطان
البــارح يقــول جــات الــرُّوم	يــا فرســاني غــاولوا أنــتما

ثم يذكر كيف استجاب حسن باشا للإنذار وجهز جيشه وبعد أن جال الباشا بجنوده في العاصمة وزار معاهدها وأضرحتها على العادة المتبعة إذ ذاك خرج متوجها إلى مستغانم:

ظــلّ يســير بعســاكره والقــوم	في وطــن متيجــة أولــج المــا
في أمــره جــات العــرب أطمــوم	ســلطان عــادل طاعتــه الأمــه

قصة مزغران معلومة

طبلــه عنــد الشــفا نقــر	واعلامــات النصــر منشــورة
جــات اخيــول إفريقيــة تنجــر	وافراســين الحــرب مــذكورة
مــن لا ضره الله لا ينضــر	لــو طاحــت الأرقــاب منصــورة
في زكــار أمقــيم كــم مــن يــوم	لــين جاتــه قيادهــا ورمــات
أخضــا الــواد الشــايع المعلــوم	فيــه أصــلان أســويد ملمومــة
جــاوا شــيوخ ســويد للســلطان	وفــيهم أبــو بكــر ومحمــد
قــالوا للأمــير لا تليــان	لا ديــن إلا ديــن محمــد
استشــرح ســلطاننا وازيــان	جــاتوا القــوم زاهيــة ترعــد

ثم يذكر القبائل التي أرسلت جيشها للمشاركة في هذه المعركة فيقول:

مــن بنــي راشــد[1] و آل ســويد[2]	وأفراســين الــنطح عبــد الــواد [4]
يــا مغــراوة[3] اتحزمــوا للكيــد	مــنكم خلقــت اســلاطنا وأجــواد
يــا تيجــان الحــرب لــيس بعيــد	مــن مــات ســكن جنــة الميعــاد

ثم يذكر الشاعر ذعر الجيش الاسباني وقواده عند ما أنبئوا بلحاق جيش الباشا وكيف بدأت المعركة وقواد جيش العدو الذين ماتوا في المعركة واحدا واحدا وكثيرا ما يذكر جملا ومفردات بالاسبانية على سبيل التهكم والاستهزاء.

قال في عدد الأسرى والقتلى:

حزنــاهم للسُّــور ذاك اليــوم	تســعة آلاف أبقــات مغنومــة
من حيط الـدَّشرة لحـوض الـدُّوم	عشــرة آلاف امشــات محطومــة

ثم يذكر موت قائد الجيش الكونت دالكادوت فيقول:

طل على الفرطـاس يـوم أن مـات	في المغـرب أهـل الخـزي وردمـوه
احلــف لهــم ســلطاننا باثبــات	شـيب النـار مـن الثـرى جبـدوه
احتفظــوا بالفــاس والمســحات	لحقــوا بــه مــن الثــرى جبــدوه

(1) بنو راشد، و يقال لهم: أهل الرَّاشديَّة، نواحي (معسكر) و(قلعة بني راشد)، و يسمون اليوم بـ (غريس).
(2) آل سويد: هم أهل قبيلة (سويد)، تحدَّثنا عنها في هذا التَّقديم
(3) مغراوة: قبيلة عتيدة كانت تحكم أوَّل الفتح الإسلامي مابين (مليانة) و(تلمسان)، وكان مقرُّها (شلف)، وقد حكم بعض أمرائها (المغرب) و(ليبيا)، وقضى على إمارتهم الأولى بلكين، إذ كانوا أحلافا لبني مروان.
(4) عبد الواد قبيلة صغيرة قرب (قلعة بني راشد)، ولعلَّها من بقايا بني عبد الواد (ملوك تلمسان).

ثم يختم قصيدته بقوله:

الأمـــير حســـن يـــوم مزغـــران اخلـف الثـأر مـن العـدو تحقيـق
تـــرى البهجـــة روضـــة البلـــدان غرنـــاوط إلى امســـات حريـــق

وهنا نلفت نظر القراء مرة ثانية إلى أن الجزائريين لم يهملوا قضية الأندلس، بل هذا شاعر له مكانته في البلاد ويمثل بحق رأيها العام الذي لم ينس مأساة الأندلس، ويرى في هذا الانتصار أخذا لثأرها ومحوا لآثار عدوان الأسبان.

وعلى ذكر موقف الجزائريين مع الأندلسيِّين خصوصا اللاجئين منهم إلى شواطئ البلاد، فقد وقعت لبعضهم حوادث مؤلمة استغلها كثير من الكتاب وعمموا تهمهم للبلاد كلها فذكروا أن مصير اللاجئين الأندلسيين ببعض شواطئ الجزائر كان نصيبهم القتل والنهب وبالفعل وقع ذلك لبعض اللاجئين سنة 1018 هـ أي بعد سقوط غرناطة بما يزيد على القرن وهو الجلاء الأخير، وقد ذكر ذلك المؤرخ **أبو راس الناصري** في (**عجائب الأسفار**) فقال:«... مات الشيخ محمد أقدار التوجيني دفين أرض ميتا (قرب البطحاء) سنة خمس وستين وألف (1065هـ) لكونه حرض الشيخ احميدة العبدان يغزو بسويد على هبرة ـ بين المحمدية وسيق ـ لما فعلوه بالمسلمين الخارجين من غرناطة إلى مرسى أرزيو لما غلب عليهم قشتالة، حتى إنهم كانوا يبقرون بطونهم لما يظنون من ابتلاع نحو جوهر، فأتاه احميدة المذكور من الرسو بجنود عظيمة يوم الجمعة، ووافق ذلك ختمه **صحيح البخاري** ثم ساروا ولقيتهم هبرة فانهزموا وركبت سويد أكتافهم فقتلوهم كيف شاءوا، وفي ذلك يقول شاعرهم[1]:

جينـــا يـــا ربِّ بـــين النَّـــار والنَّـــار بين انصارت دوك وانصارت قدار[2]

(1) يقصد بـ : «نصارة دوك » إسبان وهران الذين كانوا يغزونهم المرة بعد المرة.

(2) (**انصارات قدار**): سويد.

ميتين وعشرين قعدت في مشوار دوَّار من الملاح ما عزى دوَّار
الموت من الإله وأسبابه قدار لابد للحي يتفكر الأحرار

وفي هذه الرواية ما يكفي لرد جميع التهم التي ألصقت بالجزائر منذ قرون وما زال المتأخرون يرددونها في كل مناسبة تدعوهم إلى الكتابة أو الحديث عن مصير المهاجرين الأندلسيين لشواطئ المغرب، وقد رأينا أن هذا العالم المرابط لنشر العلم والدين لم يكتف بتغيير المنكر بلسانه وقلبه فقط بل غيره بيده، على ذلك برئيس القبيلة العتيدة، وفي هذه الرواية أيضا ما نستدل به على أن (**صحيح البخاري**) كان يدرَّس في الجزائر في القرى النائية فضلا عن المدن، إذ ذهب كثير من المعاصرين أن طيلة قرون الاحتلال التركي لم يكن يدرَّس بالجزائر إلا **مختصر خليل** ...

ولنرجع إلى الحديث عن واقعة دالكادوت، فنجد أن كثيرا من المؤرخين الفرنسيين والإسبانيِّين اعتنَوا بها وما زال الكثير منهم إلى زماننا هذا يبحث عن أسباب الهزيمة، ومعظم الوثائق الإِسبانية المنشورة تتَّفِق مع أرجوزة شاعرنا، سواء في أيام المعركة وعدد الأسرى والقتلى وموت قائد الحملة ونبشه من التراب بأمر الباشا حسن، ثم إرسال جثَّته إلى وهران لولده ففدوها بفداء عظيم، ودفنوها بكنيسة سانت دومنيك (Ste Dominique) ومن هؤلاء المؤرخين الأسبان هايدو (Haido) وديقو سياريز (Diego Suarez) والمؤرخان الفرنسيان بول ريف (Paul Ruff) والجنرال ديدي (Didier) وقعت هذه المعركة سنة 965 وقد أرخها بعض الأدباء الجزائريين فقال:

فتح خير الدِّين مزغرانا مرتجيا لفتحه وهرانا
في (يه) قعدة زوال الجمعة سنة (هر) فصخ فاستمعه
وهذه القصة عند النَّاس مشهورة بقصَّة الفرطاس

والفرطاس هو لقب الكنت الكادوت كما ذكر ذلك الجنرال ديدي أيضا في تاريخه لوهران قال: «إن المسلمين كانوا يلقبون دالكادوت بالفرطاس » كما ذهب كثير من المؤرخين الاسبانيين منهم دييقو كريزداو (Diego Suarez) ودييقو سياريز (Diego Suarez) وبدمور اليس (B. De Morales) على أن الباشا حسن لو تتبع هجومه بعد هزيمة دالكادوت لاحتل وهران بغاية السهولة (**تاريخ الجنرال ديدي**)[1].

La domination espagnole a Oran sans le gouvernement du conte d'alcadante Paul Ruff 1534-1558 (paris Leroux 1900).

لم نتعرض لكثير من المعارك التي سبقت هذه خصوصا التي قادها الملك شارلكان إذ تعرض لكثير منها بعض المؤرخين الجزائريين إجمالا وتفصيلا كصاحب (**الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة**)[2].

والخلاصة أن الإسبانيين ولو دام احتلالهم لوهران ما يقرب من ثلاثة قرون فإن هذا الاحتلال وبال عليهم فقد كلفهم مصاريف باهضة وضحايا كما جر عليهم فساد السمعة وتشتيت الشمل، وقد أيد هذه النظرية الكتاب الإسبانيون أنفسهم كالوالي فاليجو (Vallejo) فقد ذكر في يومياته أن دعوة المحتلين الصليبية كانت تخفي الجشع والطمع، وشبه غاراتهم على القرى الآمنة بغارات التتار على بولوندا أو غيرها إذ ذاك من الدويلات الشرقية، وإن أهم ما كانوا يحصلون عليه في هذه الغارات اختطاف السكان من رجال ونساء وصبيان ثم الحبوب والأنعام، فالصبيان كانوا يرسلونهم للتنصير، وأما الرجال

(1) تاريخ الجنرال ديدي عن وهران، الجزء السادس، طبع بوهران 1929م.

(2) الزهرة النائرة هذه ألفها محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الجيلاني بن رقية التلمساني، ألّفها سنة 1189 الموافق لـ 1775م، سجل فيها الهجومات التي توالت على الجزائر بعد احتلال الأتراك لها، وبالخصوص هجوم (Dereilly) سنة 1189م، وذكرها بتفصيل لأنه كان شاهد عيان وأتم تأليفه 1194 هـ.

والنساء فكان لقائد الجيش الأعلى بوهران الحق في اختيار رجل وامرأة والباقي يقسم بين الضباط والجنود والموظفين أو يباعون في أسواق اسبانيا بأثمان مرتفعة، وكانوا في أول الأمر يحاولون تنصير الجميع إلا أنهم لم ينجحوا، وقد أحصى فاليجو أن ثلاثين شخصا كانوا يتنصرون سنويا إلا أنهم لم يخلص منهم في التنصير إلا الصبيان.

وقد ذكر الرحالة أبو زيد عبد الرحمٰن الجامعي الفاسي في شرحه على: (**أرجوزة الحلفاوي**) أنه لما زار الجزائر حوالي سنة 1119 هـ وشارك وفود المهنئين لفتح وهران على يد بكداش باشا قال: «كنت وفدت على العالم العلامة الراوية النقاد منهل العلم الأصفى ابن عبد الله سيدي **محمد المصطفى الرماصي**[1] بوجدة يسكن بيوت الشعر قرب غابة في رأس جبل يأوي إليهم ليلا ويظل بالنهار في داره ومسجده يطالع ويقرئ طلبته، فسألته عن ذلك فقال: كنا على هذه الحالة على عهد الاسبانيين خوفا منهم فإننا كنا لا نأمن في الدور من أن يصكونا ليلا فخرجنا لبيوت الشعر ليسهل علينا الفرار لغابة الجبل».

وكانوا يستعملون بعض المتعاونين معهم لاختطاف الصبيان فيرسلونهم للقرى في زي التجار الدواسين، وبعد الفتح الأول أثيرت هذه القضية وحوكم أصحابها فيمن حوكموا مع المتعاونين وقد أفردها العالم الشيخ **عبد القادر بن عبد الله المشرفي** بتأليف خاص سماه: (**بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيِّين مِن الأعراب كبني عامر**).

---

(1) **محمد المصطفى**: فقيه حافظ له حاشية مشهورة على التتائى وهي التي اعتمدها الدردير شارح المختصر وقال إن صاحبها من المحققين فهي تغنينى عن غيرها، روى ذلك محمد بن علي السنوسي دفين ليبيا، كما ذكر الفقيه الحجوى المغربي في تأليفه – الفكر السامي- وقال إن كثيرا من علماء المغرب اعتمدوا هذه الحاشية كمحمد بن الحسن بناني، كان معهده في مسقط رأسه رماصة.

ذكر في هذا الكتاب موبقات هؤلاء المتعاونين ثم تعرض بتفصيل لأصولهم وفصولهم ومواطنهم وحكم الله فيهم ولخص موضوع التأليف في هذه الجمل (.. إن هؤلاء الفرق الثمانية الضالة وهم كرشتل وشافع وحميان وغمرة وقيزة وأولاد عبد الله وأولاد علي والونازرة، لما اجتمعوا عند الاسبانيين وصاروا على كلمة واحدة في الدفع والجلب اشتد بهم عضد النصارى وقويت شوكتهم وكثر بأسهم على المسلمين إلى أن صار وطن سيرات وملاته من جملة مسارح ومزارع العدو وليس للمسلمين فيه مطمع إلا من لاج في حزبهم وصار من رعيتهم ودخل في حمايتهم وأدى لهم الجباية وكان معينا لهم على مرادهم وصاروا يتجسسون لهم الأخبار على المسلمين في السهل والأوعار حتى إذا تعينوا له يصكهم بخيله ورجله وهم معه، فيقتل ويأسر ويسبي ويفعل ما أراد الله بفعله، واشتد غزوه بهؤلاء الفرق الضالة التي رغبت في عرضه الفاني رفيق الدين منهم والجاني، فانتهكوا حرمة الإسلام غاية الانتهاك.

وصاروا لنقص أهل الإسلام وأعوانه الذين يشن بهم الغارات على الأبعدين، وهذا فعل الأعداء المرتدين حيث جسروا العدو بخيلهم ورجلهم على اقتحام حلل المسلمين ودورهم بكلهم وانتهاك حريمهم وانتهاز الفرصة فيهم، والعجب العظيم منهم أنهم مع هذا التلاعب بالأديان وموالاة الكافرين لهم بالخدمة والنصيحة والمبايعة لهم على الطاعة والإذعان والإعانة لهم في أمورهم وتقوية سوادهم والاستضاءة بنارهم وموادتهم لهم ، كانوا يعتقدون أنهم على الإسلام وصحيح الإيمان وأنهم في رحمة الله خالدون ولم يقرأوا قوله تعالى في المائدة﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (المائدة: 81)، إلى أن يقول على هذه الفرق: «انقسموا على ثلاثة فرق.

ففرقة منهم لجأت لحصن العدو وصارت معه وتدافع بجهدها عنه، والحكم في

هذه الفرقة إباحة مالها ودم رجالها والبالغين من ذراريها لمن ظفر بهم من المسلمين لكونها ردءا، وأما الصغار من الأولاد فلا يقتلون ولا يكونون فيئا للمسلمين، وقد ذهب بعض الونازرة مع الاسبانيين بعد الفتح لعدوتهم واستقر بسبتة فهو بها للآن.

وفرقة منهم لجأت للمسلمين وصارت تقاتل معهم العدو غير أنها في الخفية تعلمه بأحوال المسلمين وتأمره بالثبات وتواعده بالرجوع عنده إذ وجدت السبيل، والحكم فيها أنها فرقة الزنادقة يقتل كل من اطلع عليه منها وإلا فأمره إلى الله سبحانه وتعالى، وفرقة منهم تابت لله تعالى وأنابت من موالاة العدو ومواصلاته وتركت الإعانة له ظاهرا وباطنا وندمت على ما بدر منها سابقا.

والحكم فيها أنها واحدة من جماعة المسلمين، كثر الله عدد جيش الإسلام، إن لم يتقدم منها ما يبيح الدم، وهذا التفصيل هو المعول عليه في الشرع لأنه عين النازلة ولا تلتفت لمن عمم، وقال بإباحة المال والدم في الجميع وهو الفقيه أبو العباس سيدي **أحمد الفلالي التلمساني** في (**تاريخه**)».

وقد تم هذا التأليف سنة ثمان وسبعين ومائة وألف (1178هـ) كان الشيخ عبد القادر المشرفي[1] هذا من ألمع شخصيات زمانه ومن كبار المجاهدين، وكفاه فخرا أن الشَّيخ **مصطفى بن المختار الراشدي** جد الأمير عبد القادر لما أسس معهده بالقيطنة اختاره للتدريس وبهذا المعهد تعرف به المؤرخ أبو راس وأخذ عنه، وقد شارك في حرب الأسبان بوهران على عادة علماء البلاد.

إِنَّ من تأمل وتتبع تراجم علماء ذلك العهد يجد الأكثرية منهم ماتوا استشهادا في

---

(1) عبد القادر بن عبد الله المشرفي: كان يدعى بإمام الراشدية، توفي بمسقط رأسه الكرط ـ قرب معسكر ـ سنة 1192هـ، وهو والد العالم القاضي الطاهر المشرفي، وجد ابن عبد الله المشرفي الحافظ الذي تولى الخلافة والقضاء في عهد الأمير عبد القادر.

حرب وهران، وقد حكى تلميذه **أبو راس** في معرض الحديث عن الظروف التي استرجع فيها الأسبان وهران سنة 1144هـ بعد أن بقيت تحت يد المسلمين 45 سنة قال: «لقد أخبرني شيخنا الأكمل وأستاذنا الأمثل خاتمة أهل التحقيق وعمدة أهل التوفيق الشيخ سيدي عبد القادر بن عبد الله المشرفي (شرَّف الله في الجنان مكانه) وكان حاضرا لتلك الواقعة أنَّ الكفرة لما تكامل عسكرهم في البر وبقي جل مددهم في البحر لم يعملوا صفا للقتال، ولم يطلبوا مجالدة الرجال، وإنما زحفوا للبلد بجميع الرجالة والفرسان، وهم كهيئة الرحى في الدوران، بارودهم كرعد متصل، ورصاصهم كمطر منهطل، لا يستطيع أحد قربهم ولا يكر شجاع نحوهم، وأَن الباي مصطفى ـ مصطفى بوشلاغم ـ باي وهران وفاتحها مع بكداش باشا سنة 1119هـ سقط في ذلك اليوم عن فرسه لشدَّة تحريضه على الجهاد وكثرة عدوه ... الخ ».

هذه في الجملة حالة البلاد بعدما استرد الأسبان وهران، وهذا لم يمنع الأتراك من التمادي في توحيد البلاد وحماية الحدود والقضاء على الإِقطاع، إلا أنهم ارتطموا بكثير من التَّمرُّدات والثورات، فتارة ينجحون في القضاء عليها، وكثيرا ما كانت تتغلب عليهم الأحداث لاختلاف المسيرين، ومن هذه الثورات التي دامت ما يزيد على القرنين ثورة الذواودة شرق الجزائر، وثورة سويد غربها المشهورة عند العامة بثورة المحال، وقد كان من حظ التاريخ الجزائري أن سجل بعض شعراء البلاد ثورة سويد هذه، وكان الشاعر سويديا وهو ابن السويكت الشاعر الشعبي، فقد سجل عدَّة معارك خاض غمارها قومه مع الأتراك، ولما ضعفوا عن المقاومة اختار الكثير منهم الجلاء على الاستسلام.

كانت قبيلة سويد من القبائل العربية التي لعبت أدوارا عظيمة في تاريخ البلاد، وقد تحدثنا عن جوانب منها أول هذا التقديم، ولما احتل الأتراك الجزائر كانت لهم

إمارة بتنس تمتد من قبر الرومية شرقا إلى مصب نهر شلف غربا ـ قرب مستغانم ـ وكان موطنهم ابتداء من القرن السابع الهجري ما بين العطاف شرقا إلى مستغانم غربا، وقد شاركوا في حروب بني مرين فتارة ينتصرون لهؤلاء وتارة لأولئك، وقد ذكر ذلك بتفصيل المؤرخ عبد الرحمٰن بن خلدون.

وفي أول عهد الأتراك انتصر بعض رؤسائهم إلى الاسبان كما تدل على ذلك بعض الوثائق التاريخية التي عثر عليها الكاتب إيلى دو لابريمودي (Elie de la Primaudie) في الخزانة الملكية الاسبانية بمسنكا ـ ضواحي مدريد ـ ونشرها الكاتب الفرنسي شارل فيرو (Charles Feraud) بـ (المجلة الإفريقية) المؤرَّخة في سنة 1873م، الجزء: 17، فمن جملة هذه الرسائل رسالة عربيَّتها مُهلهلة أرسلها بعض رؤساء سويد إلى ملك إسبانيا، وأخرى إلى الكنت دالكادوت والي وهران يطلبون أجرتهم حيث حاربوا في صفوفهم بأمر رئيسهم احميدة العبد [1]، ويظهر من هذه الرسائل أنهم كانوا متصلين بسالم بن التومي أمير العاصمة قتيل عروج حيث أظهروا تأسفهم على موته.

إلا أننا بعد تتبع ودراسة أحداث تلك الفترة تبين لنا أن أصحاب هذه الرسالة لا يمثلون إلا أقلية، أو لم تطل موالاتهم للأسبان، إذ كانت مشاركة أفراد القبيلة ورؤسائها لحسن باشا في حرب مستغانم مشاركة علانية، ثم إن الكتاب الذين سجلوا الأحداث لم يغفلوا عن القبائل المتعاونة ولم نجد واحدا منهم ذكر هذه القبيلة في قائمة القبائل المتعاونة كصاحب بهجة الناظر وغيره، وهذا لا يمنع أنهم ثاروا على الأتراك وحاربوهم ما يزيد على القرنين، ولما عجزوا اختاروا الجلاء بدلا من الاستسلام.

اختلف المؤرخون في سبب هذا التمرد، ولا شك أن رؤساء هذه القبيلة الذين كان لهم التصرف المطلق في إقطاعاتهم وكان الملوك كثيرا ما يخضعون لهم، رفضوا الخضوع

(1) **احميدة العبد**: من رؤساء قبيلة سويد وهو يطلق على عدة أفراد تداولوا رئاسة هذه القبيلة.

للأتراك، وقد لخص أحد شعرائهم سبب هذا التمرد واختيارهم الاستماتة في المقاومة في بيتين فقال:

قالوا التُّرك ندو (شلف) لا وهمة — قلنا لهم جدودنا في الواد
ما نتركوش (شلف) حتَّى تطيب الصمَّة — وما نهدوش العقبة على الأولاد

كانت الحرب بينهم وبين الأتراك في أول التمرد سجالا وأكثر المعارك كانت في موطنهم الأصلي شلف، وقد سجَّل شاعرهم الشعبي ابن السويكت كثيرا مِن هذه المعارك، فذكر منها واحدة، قال :

على أرهيو[1] وعلى جديوية [2] كارسين — الترك جوف وسويد جاو للقبلة
خيمة مع أخبا وبنود متقابلين — من الصبح للمسا كل يوم مقتلة
الترك جاروا والسويد اعقابهم طافحين — والترك شاربين لهبال في سطلة
البـاي قـد شـور ليهم — وسـويد ليه زادو حملـوا
ارفـد سـناجقو والحقهم — عمـدوا للقتـال او قتلـوا
جا بالعراج بيده بالمستحين — احنا اسويد وأهل النقار بالجملة
احنا أهل الشنا واحنا اللي طايغين — أحنا أهل الطبل والعلام والصولة
ربعين باي قبلك قعدت أمرشقين — ربعة والعشرين مشاو مقتلة
أداكم الطمع في أمطافل أمتمقين — أسويد ما يطيعوا الترك قتالة
الـترك للـبلا ينـزادوا — واسـويد ما أعطـوا الصـفحة
البـاي جـاهم بجنـوده — طيعـوا يا سـويد الوكحـة
سـور الحديـد واش ايهـدوا — هيهـات ما تصـيبوا راحـة

---

(1) أرهيو: هي مدينة (وادي أرهيو)، منتصف الطَّريق بين (غيليزان) و (الأصنام).
(2) جديوية: قرية شهيرة غربي (وادي أرهيو) بنحو (10) كلم.

محمـــــود ليـــــه لفـــــت عــــوده   والبـــــاي واجبـــــه باقباحـــــة
الســـــانجاق حـــــم رفــــــده   وســـــويد للـــــبلا دلاحـــــا
ظهروا شوايع اسويد قعدت متـورخين   ملكـوا الشرـق والغـرب تـل والقبلـة
مــع الأمــير عقبــة جــاوا اامجاهــدين   امنــين كانــت النــاس كلهــا جهــالا
جــازوا اجــوزوا في أيــامهم ســاعدين   واجميــع مــن اقصــد أذى بــلا قلــة
يهــدوا ايــبلهم والمــال للقاصــدين   غنيــات والحصــون ينقــادوا شــلا

ذكرنا هذه القصيدة على طولها في هذا التقديم الذي لم يتعود القراء التطويل فيه، إذ على الأكثر يحال فيه القارئ إلى المصادر، إلا أننا ـ خصوصا في بلادنا التي ضاع جل تراثها ـ صرنا من الصعب أن نحصل على هذه المصادر، ثم إن الشعر الشعبي كما هو معروف سجل هام لهذه الأحداث وهو ممتاز حتى عن الكتب التاريخية لذلك العهد، حيث إن معظم المؤرخين الذين وصلتنا آثارهم وإنتاجهم كانوا من الموالين للأتراك أو موظفين عندهم وهم بطبيعة الحال لا يصورون القضايا إلا بما يرضي الهيئات الرسمية، فنشر هذه القصائد يلقي أضواء على الأحداث ويصورها تصويرا جليا.

أضواء على مدينة تمنطيط
ودور الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات[1]

إنني بمناسبة انعقاد هذا الملتقى الذي خصص لتاريخ هذه المنطقة الثقافي والحضاري، وركز على إحياء ذكرى العالم الجليل محمد بن عبد الكريم المغيلي اخترت أن أتناول فيه، التعريف بمدينة تمنطيط التي ترك فيها المغيلي بصماته، كما تركها في بلدان إفريقيا المجاورة لها، لا في قضية يهود توات، التي اشتهر بها، وردد صداها علماء بلاد المغرب العربي، فحسب، بل شارك مشاركة فعالة في قضايا شائكة اهتم بها الرأي العام الإسلامي في عهده، من بينها قضية الخلافة وقضية ما يعرف في زماننا هذا بالثقافة الأجنبية، وسيشمل بحثنا هذا الذي ركَّزته على التعريف بمدينة تمنطيط، عاصمة بلاد الصحراء التي جرت فيها قضية يهود توات، موضوع المحاضرة، ثم أتحدث عن قضيتي الخلافة والثقافة الأجنبية اللتين أثبت لنا التاريخ مشاركته فيهما، وقد احتفظ لنا التاريخ بوثائق هامة، أصيلة تتعلق بترجمة الإمام المغيلي وجم نشاطاته السابقة الذكر في تقديم هذه المحاضرة.

ولما كانت قضية يهود توات جرت أحداثها في مدينة تمنطيط عاصمة الصحراء الخالدة، فإن موضوع بحثنا في هذه القضية يتوقف كثيرا على معرفتها، وقد اعتنى المؤرخون والباحثون من الدول الإسلامية بترجمة المغيلي ودوره في قضية اليهود[2]، إلا

---

(1) مجلة الثقافة، العدد 94، ص83-95.

(2) هذا هو عنوان المحاضرة التي كنتُ ألقيتها بمدينة أدرار في الملتقى الذي أقيم بها من 2 إلى 5=

أن هناك جوانب من حياته بقيت إلى زماننا هذا مكتنفة بالغموض، وقد طرح الأسئلة عنها بعض الباحثين المعاصرين الذين اعتمدوا على مصادر هامة عربية وأجنبية، إلا أنهم ارتطموا بفقد المصادر والمراجع التي يستعينون بها في أجوبتهم على الأسئلة المطروحة الخاصة بالجوانب المذكورة، فالتجأ هؤلاء الباحثون إلى الافتراضات، ومن بين هذه الجوانب، ما يتعلق بترجمة المغيلي في بلاد تلمسان، قبل هجرته إلى تمنطيط، ثم تحديد تاريخ وصوله إلى تمنطيط والظروف التي هاجر بسببها بلاده، وقد أجاب عنها بعض الباحثين في دراسات عميقة موضوعية إلا أن أجوبتهم عنها كانت كما سبقت الإشارة إلى ذلك مجرد افتراضات لا تعتمد على مرجع تاريخي صحيح، وقد احتفظ لنا التاريخ بمصدر جوهري في موضوع بحثنا، ومِن مِنَن الله عليَّ أني اطلعت عليه وحقَّقته، ولهذا ركزت هذه المحاضرة على حصيلة ما استفدته منه ولنبدأ أولا بمراحل تعريف هذا المصدر:

فهو كتاب (**البسيط في أخبار تمنطيط**) الذي ألف في القرن العاشر، ومؤلفه من سكان تمنطيط ومن مواليدها وكبار علماءها، بقي هذا التأليف مغمورا في بعض خزائن المنطقة، مجهولا عن عموم القراء ببلاد المغرب العربي، وقد اكتشف هذا التأليف في أوائل القرن الجاري الميلادي، اكتشفه ضابط فرنسي شارك في الاحتلال الفرنسي للمناطق الصحراوية، كان هذا من فرقة الضباط المترجمين برتبة رائد ختم به المطاف حاكما عسكريا بمدينة البيض (جنوب وهران)، وكان سبق له أن جمع كل ما عثر عليه من الوثائق العربية بالمناطق الصحراوية وترجمها إلى الفرنسية وقدمها للطبع في مجلد ضخم تربو صفحاته على الخمس مائة، إلا أنه تأخر طبعه لأسباب ذكرها جامعه في

=مايو 1985م، بمناسبة إحياء ذكرى المغيلي، تحت رئاسة السيد وزير الشؤون الدينية بالجزائر، وشارك فيها علماء أجلة مثَّلوا بلدان إفريقيا، كـ: مالي، ونيجيريا، والنيجر.

مقدمته، لا يسعنا مجال هذه المحاضرة لذكرها.

هذا وإن كنا نعرف أن هذا النوع من التأليف محدود العدد، فإن الخزائن المشهورة ومستودعات الوثائق الرسمية وحتى دور الكتب المتخصصة في هذا النوع من التآليف كانت لا تخلو منها، إلا أننا عندما ظهر في الخمسينات من القرن الميلادي الجاري تأليف الباحث المشهور الشَّيخ **عبد السلام بن سودة الفاسي** المسمى بـ : **(دليل مؤرخ المغرب)** في جزأين، وذلك في قائمة المصادر وجدناه ـ أي: مؤلف **(دليل مؤرخ المغرب)** ـ ارتكب أغلاطا فادحة عند تعريفه للتأليف المذكور:

الغلطة الأولى: في عنوان الكتاب فقال فيه: «البسيط في أخبار من حل من العلماء بتمنطيط».

الغلطة الثانية: في اسم مؤلفه، فنسبه إلى الرحالة الشهير ابن بطوطة المتوفى في آخر القرن الثامن.

الغلطة الثالثة: في وصف حجمه فذكر: «أنه يقع في مجلد ضخم»، وختم وصفه للتأليف بقوله: «على ما أخبرني أحد سكان القبيلة».

والحقيقة أن المخطوط لا تربو أوراقه على الخمسين، وهذا ما يبرر غلطات صاحب **(دليل مؤرخ المغرب)**، ومن كل ما ذكرناه يتبين لنا أن هذا الكتاب كان مجهولا عند عموم القراء بل وحتى عند المختصين في البحوث التاريخية أمثال صاحب **(دليل مؤرخ المغرب)** الذين لا نبالغ إن قلنا إن المغرب الأقصى وخزانته العامة والخاصة كانت مستودعات لتراث بلاد المغرب العربي.

وفي سنة 1978م زرت منطقة توات، وبالضبط عاصمتها الحالية مدينة أدرار في إطار النشاطات الثقافية لوزارة الشؤون الدينية، ومدينة أدرار تبعد عن مدينة تمنطيط

بحوالي عشرة أميال، ولا زالت تحتفظ بهيكلها وأحيائها ومعالمها وببقية سكانها إلى عهدنا هذا، كما وصفها مؤلف: **(البسيط في أخبار تمنطيط)** موضوع دراستنا.

وقد ألقيت محاضرة في معهد العالم المثالي الشيخ محمد بن الكبير التواتي موضوعها: **(تاريخ منطقة توات الثقافي والحضاري)**، حضرها جل علماء المنطقة وأئمتها، وقد ركَّزتها على تاريخ مدينة تمنطيط، اعتمدتُ فيها على ما ترجمه الضابط الفرنسي السَّابق الذِّكر، وقد كان أطلق على مجموعه اسم: «أربعة قرون من تاريخ الصحراء ابتداءً من سنة 1504م».

وفي مدَّة إقامتي بمدينة أدرار، منَّ الله عليَّ بالِإطلاع على نسخة أصيلة من كتاب: **(البسيط في أخبار تمنطيط)** وعليها تعاليق مفيدة جدا، وهي كما ذكرناه صغيرة الحجم، لا تتجاوز صفحاتها مائة صفحة، وقد عكفتُ على مطالعتها بإعانة أحد أبناء الشيخ محمد بن الكبير البررة، فسجلت منها الخطوط العريضة، وأمكنني أن أصلح بعض أخطاء النسخة المترجمة، ثمَّ عدت إلى أدرار مرتين، استجابة لدعوة المشرفين على الأسابيع الثقافية بها، ألقيت محاضرتين تتعلقان بتاريخ مدينة تمنطيط ركَّزتهما على النسخة الأصلية من كتاب: **(البسيط)** التي عثرت عليها بمعهد أدرار، وكانت في حكم التراث المفقود، ولهذا اغتنم هذه الفرصة أحد مالكيها فنسبها لنفسه، ونقل مقدِّمتها حرفيا وزاد عليها زيادات لا وجود لها في النسخة الأصيلة، ولا في النسخة المترجمة اللتين سبق لنا الحديث عنهما، ومن حسن الحظ أنني كنت أثناء المحاضرة الثانية التي تعرضت فيها لاكتشاف كتاب: **(البسيط)** أنني كنت برفقة الإخوة الدكتور **عمار طالبي** (مدير جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة)، والأستاذ **عبد القادر حجار** (المحافظ الوطني لحزب جبهة التحرير الوطني بورقلة)، والأستاذ **ناصر الدِّين شعلال** (مدير وزارة التربية إذ ذاك بولاية أدرار)، فأفادنا الدكتور **عمار طالبي** عن نسخة من كتاب:

(**البسيط**) المذكور، اكتشفها أحد الأساتذة بالمنطقة وكانت موضوع أطروحته التي قدَّمها إلى جامعة الجزائر لنيل شهادة في الدراسات المعمَّقة، وبالفعل نوقشت هذه الأطروحة ونال صاحبها رغبته، وتوجد منها نسخة مصوَّرة عند الأخ **طالبي** حسبما أخبرني بذلك أخيرا ـ أي: أثناء ملتقى أدرار الأخير لإحياء ذكرى المغيلي ـ (موضوع هذه المحاضرة) كما أفادني بكثير من خطوطها العريضة التي تلقي أضواء على هذه النسخة التي كانت في حكم كتب التاريخ المفقود.

هذه لقطات مبعثرة ذكرت فيها مراحل اكتشاف هذا الكتاب النادر المثال، إذ هو زيادة على استيعابه لتاريخ مدينة تمنطيط العاصمة الخالدة لبلاد الصحراء لا في الميادين السياسية فقط، بل في الميادين الثقافية والحضارية، وضبط مؤلفه لتاريخ المهاجرين من بلاد الشمال إلى تمنطيط عبر التاريخ، وفي طليعتهم العلماء، وظروف هجرتهم، وتعرض بالخصوص للناحية الاقتصادية، مما يعبر عنه المعاصرون الذين يطلقون على هذا النوع من التأليف: «بالحياة اليومية »، ومع كل ما ذكرته عن النسخة الأصيلة، فهذا لا يمنع من الاعتراف بقيمة النسخة المترجمة التي اعتمدتها في محاضرتي الأولى (التي ترجمها الرائد مارتان)، إذ تحتوي على تراجم لبعض الرحلات، ولوثائق مختلفة تنعكس فوائدها على تاريخ مدينة تمنطيط والمناطق الصحراوية قديما وحديثا، رغم ما فيها من أغلاط وأخطاء في الترجمة.

لننتقل إلى التعريف بالكتاب على ضوء النسخة الأصيلة التي نقلت كثيرا من فقراتها.

التعريف بالكتاب:

البسيط في أخبار تمنطيط: مؤلفه هو العلامة محمد الطيب بن الحاج عبد الرحمٰن التواتي التمنطيطي القرشي ـ كما عرفت ـ وقد استهل تأليفه بقوله: «هذا التأليف أردت أن أجمع فيه أخبار مدينة تمنطيط على ما بلغني من ذلك، وعلى ما فهمته من آثارها

هنالك وعلى ما سمعت الناس يتحدثون به وظننت أنه كذلك، وعلى ما وجدته مكتوبا في بعض التقاييد لاستحالة القراءة الدالة على ذلك، وسميته: (**البسيط في أخبار تمنطيط**)، ومن الله استمد الإعانة والتوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ».

التقديم:

ثم انتقل المؤلف إلى تحليل اسم مدينة تمنطيط، فذكر أنه يتركب من كلمتين بربريتين... الخ، وواصل حديثه عن مؤسسي المدينة وتاريخ تأسيسها فقال ما ملخصه: «إن مؤسِّسيها هم من بقايا دولة المرابطين اللمتونيِّين، أسَّسوها عندما أطاحت بدولتهم في المغرب والأندلس دولة الموحدين في أوائل القرن السادس الهجري، كما ذكر المؤلف أسباب اختيار موقعها في تخوم الصحراء كان مقصودا حيث يبعد عنها خطر طمع الملوك والسلاطين ».

ثم تعرَّض المؤلِّف إلى قائمة سكان المدينة فذكر: «أن أول من بنى قصرها الأول، جده: أبو يحيى ابن محمد المنياري نسبة لبني منيار [1] قبيلة من العرب معروفة بأرض التلول».

ثم قال المؤلف: «إِن جده الذي وضع أول لبنة للقصر الذي بني في مدينة تمنطيط كان له بعض الأقارب يسكنون خارج مدينة تمنطيط ».

وقصرهم يعرف بقصر الجعافرة وهو أولوا قوة أيضا وأولوا بأس شديد.

ثم استرسل المؤلف في الحديث فقال: «إن منازلنا بتمنطيط كانت تعرف بـ : (تجعفرت)، نسبة إلى الجعافرة »، ثمَّ قال: «وبنو منيار أصل نسبهم ينتمي لقريش ».

ثم تعرض لضبط تاريخ تأسيس المدينة فقال: «إن نزول جدنا بتمنطيط كل عام خمسة عشر من القرن التاسع، ثم استمر في بيان قائمة سكان مدينة تمنطيط الذين كان

(1) توجد حاليا قبيلة بني منيار في ضواحي مدينة سعيدة جنوب مدينة وهران.

جلهم من مهاجري مدينة تلمسان »، فقال: «وجاء سيدي عبد الله العصنوني إلى توات عام خمس وسبعين من القرن التاسع، وجاء سيدي محمد بن عبد الكريم لتمنطيط سنة (882) ونزل بأولاد يعقوب».

وهنا بين قوسين نذكر أن تاريخ وصول المغيلي إلى توات انفرد بذكره وضبطه مؤلِّف: (**البسيط في أخبار تمنطيط**) دون غيره من بقية المؤلفين الذين ترجموا تاريخ حياته.

ثم واصل المؤلِّف حديثَه عن الإمام المغيلي بعد أن حدَّد تاريخ وصوله فقال: «وانتقل المغيلي من أولاد يعقوب إلى بوعلي وبه ضريحه، وهو مشهور بالعلم الظاهر والولاية الباطنية، فهو آية الله في أرضه، وحجته في شريعته، وقصته في جلاء اليهود من تمنطيط حين ظهر منهم على نقض العهد والخروج عن الذمة، وخالفه في ذلك القاضي سيدي عبد الله العصنوني حتى ترافعا بنازلتهما إلى علماء الآفاق، فوافق الأكثر رأي العصنوني وقوله بناء على الظاهر.

ووافق أهل الظاهر والباطن الإمام السنوسي والتنسي رأي المغيلي على ما بلغنا من أمرهما، واستنتصر المغيلي بهما وبالعناية الربانية على جلاء اليهود، وقد تقدم أنه لم يتناطح عنزان» انتهى ما علق به مؤلِّف: (**البسيط**) على التعريف بالإمام المغيلي وقضيته، وهذا التعريف وإن كان موجزا ومقتضبا إلا أن وزنه لا ينكر، حيث إن صاحبه أدرى بالقضية وأبعادها، إذ يمتاز عن أكثرية من خاض غمار هذه المعركة أنه لم يكن متحيزا لصف من الصفين المتعارضين، وعند تعرضه لقضية جلاء يهود توات ومعارضة العصنوني له، فقد تعرض لها كمؤرخ بدليل قوله: «على ما بلغنا من أمرهما »، ومن هنا كان لشهادته وزنها، وبالخصوص أنه علَّل ثورة المغيلي بسبب: «نقض العهد والخروج عن الذمة »، ولم يشر ألبتة إلى ما ركز عليه القاضي العصنوني استفتاءه، الذي اتهم فيه المغيلي من أنه تعدى على اليهود عندما أمر بهدم كنيستهم وخالف الشَّرع الإسلامي

الذي يكفل بحماية أهل الذمة، كما سنبين ذلك في هذه الدراسة، إذ خصَّص الفقيه الشهير **أحمد بن يحيى الونشريسي** في موسوعته الفقهية: **(المعيار المعرب، عن فتاوى إفريقيا والأندلس والمغرب)** فصلا جمع فيه فتاوى فقهاء المغرب العربي المؤيدين للقاضي العصنوني في وجهة نظره والمؤيدين والمدافعين عن الإمام المغيلي، كما تعرض لهذه القضية بعض علماء التراجم أمثال: **أحمد بابا التنكبتي** في تأليفه: **(ذيل الديباج)**، وابن مريم في تأليفه: **(البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان)**، وابن عسكر في: **(دوحة الناشر في بيان علماء القرن العاشر)**، ولضيق مجال هذه المحاضرة من جهة، وتداول هذه المصادر المذكورة بين أيدي القراء، اكتفيتُ بالإشارة إليها، ولنواصل حديثنا عن الداعي الحقيقي لثورة المغيلي على يهود توات، فعندما وصل إلى منطقة توات وجدها تحت سيطرة اليهود يتصرَّفون فيها كيف ما شاءوا، وسكانها المسلمون رؤساء ومرؤوسون خاضعون لأوامرهم، في عاصمة البلاد تمنطيط أو خارجها، ومن ذلك أنه وردت عليه استفتاءات من بينها سؤال اكتشف أخيرا فقط، أي عندما جمع المشرفون على (الملتقى المنعقد بأدرار من 2 إلى 5 مايو الماضي) ـ موضوع هذه المحاضرة ـ عنوانه: **(حول قبائل في آخر الصحراء لا تنالهم أحكام الأمراء يسمون الغلائف)**، فأجاب عنه المغيلي، إلا أننا ما زلنا لم نطلع على فحواه، ثم شاهد المغيلي إحداث اليهود في عاصمة البلاد تمنطيط كنيسةً بِدَعوى ضيق البيعة العتيقة، فخاطب قاضي البلدة مواطنه الشيخ عبد الله العصنوني في القضية ولم يخف عنه نظره، فحينئذ وجَّه القاضي استفتاءه لمعظم فقهاء بلاد المغرب العربي: تلمسان، فاس، تونس ... الخ، وقد وجَّه استفتاءه الأول إلى مفتي تلمسان **أحمد بن زكري**.

وهذا نصُّ القاضي العصنوني:

«سيدي (رضي الله عنكم) جوابكم الكريم في مسألة وقع فيها النزاع بين طلبة

الصحراء، وهي كنائس اليهود الكائنة في توات وغيرها من قصور الصحراء، فقد شغب علينا فيها **المغيلي** وولده سيدي عبد الجبار تشغيبا كاد أن يوقع فتنة، إذ سألني **الفجيجي** عنها وعن فصول أخرى في شأنهم مما أنكره عليهم ».

فأجاب فقيه تلمسان ومفتيها **أحمد بن زكري** فقال: «هدم الكنائس المسؤول عنها لا يجوز بمقتضى الشريعة المحمدية على رأي المحققين في الفقه المالكي الناظرين إليه في القضية، والتَّشغيب فيها من عدم التحقيق في أصول المسائل الفقهية... الخ »، الفتوى المنشورة في (**المعيار**).

كان هذا الاستفتاء وجواب **ابن زكري** (مفتي تلمسان) هو منطلق هذه القضية التي أطلق عليها الونشريسي في (**المعيار**): «قضية يهود توات »، وهي كما نرى أن القاضي **العصنوني** في سؤاله لم يتعرَّض إلى **الوجه الثاني** في القضية، التي أثبتها مؤلِّف كتاب: (**البسيط**) حيث علَّل ثورة المغيلي على اليهود بسبب: «نقضهم للعهد وخروجهم عن الذمة »، وكما تعرض لها بتفصيل الإمامان السنوسي والتنسي، وقد رمى العصنوني المغيلي وولده: «بالشغب الذي كاد يحدث فتنة » في سؤاله المطروح.

ولنرجع إلى المغيلي، فإنه كما سبق لنا ذكره بمجرد وصوله إلى تمنطيط والاطلاع على أحوالها ورد عليه سؤال عن طائفة اليهود كانت لا تنالها أحكام الأمراء المسلمين أي كانوا شبه مستقلين، ثم تسرع اليهود في تجديد كنيستهم وتوسيعها فثار عليهم الرأي العام، ووردت على قاضي المدينة أسئلة من مختلف الجهات خصوصا من إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي الذي كان مرجع كل المشاكل الدينية والسياسية في بلاد الصحراء في عهده، كما سنتعرض لها.

بقي المغيلي يتتبع أحداث تمنطيط وبالخصوص وضع اليهود فيها، إلى أن ظهرت فتوى الإمامين السنوسي والتنسي اللذين أيدا وجهة نظره في القضية، فحينئذ جمع

أنصاره ودخل في ميدان تغيير المنكر بيده ولسانه فهدم الكنيسة كما أشار إلى ذلك الباحثون والمؤرخون بما لا شك فيه، حيث ذكروا أن المغيلي استنصر بالسنوسي والتنسي في تحريضه على هدم الكنيسة.

هذه هي أوضاع حالة البلاد إذ ذاك، ولنقف قليلا لتوضيح وضع اليهود في الصحراء، فإنهم كانوا ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يشمل اليهود الأصليين الذين كانوا من أهل الذمة والمشرفين على قضايا جاليتهم وهم الذين كانوا حكاما بأمرهم في البلاد وعاثوا في الأرض فسادا.

القسم الثاني: اليهود الأصليون الذين اعتنق آباءهم وأجدادهم الإسلام واندمجوا مع المسلمين وكانوا يترددون على المساجد ويصومون رمضان وكانوا يعرفون بالمهاجرة وتجري عليهم أحكام المسلمين.

القسم الثالث: وهم موضوع الاستفتاء الذي ورد على المغيلي وسبقت الإشارة إليه، وهم الذين كانوا يعرفون بالغلائف، وهذان القسمان: ـ أي المهاجرة والغلائف ـ انضموا إلى بني ملَّتهم عندما أثيرت قضية الكنيسة بِتمنطيط.

وقد أسفرت المعركة التي أثارها وتبناها القاضي **العصنوني** بنجاحه فيها، حيث التجأ المغيلي إلى هجرة البلاد وأقام بالسودان، فانتقم خصومه مِن ولده وحكموا عليه بالإعدام، وهو الفقيه سيدي عبد الجبار، كما بقي القاضي **العصنوني** محتفظا بمنصب القضاء ما يربو على الربع قرن، إذ لم يفارق خطة القضاء إلا في سنة 914 هـ، وخلفه فيها ولد أخيه الشيخ السيد سالم بن محمد ـ الذي كان من أعلم أهل عصره – وبقي سالم هذا قاضيا بتمنطيط إلى سنة 934 هـ وهذا لله فيه دلائل واضحة على أن العصنوني وأنصاره وعلى رأسهم الطغمة اليهودية اكتسبوا انتصار الرأي العام بتمنطيط وبلاد توات، ما في

ذلك أدنى شك، وهذا ما يؤيده تدخل العالم الشهير الشيخ إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي قاضي فجيج في عهده، الذي سبق لنا الحديث عنه، حيث ذكره القاضي عبد الله العصنوني في استفتائه لفقهاء بلاد المغرب العربي، وذكر أنه كان اتصل بسؤال من عنده طلب منه توضيح القضية، أي قضية المغيلي مع اليهود وقضايا أخرى، والفجيجي المذكور من أكابر علماء الصحراء، بل ومن أكابر علماء بلاد المغرب العربي وقد أدلى بشهادة جوهرية في موضوع هذا البحث، حيث انتصر للمغيلي وأدان خصومه وعلى رأسهم القاضي العصنوني، وحكم على سكان توات حكما قاسيا لا يقبل أي تأويل، ولهذا أثبته في هذه الدراسة لأنه يلقي أضواء على هذه القضية الشائكة التي مازلت إلى يومنا هذا محل عناية الباحثين والمؤرخين، كما لازلت مكتنفة بالغموض، خصوصا وأن أنصار القاضي العصنوني حاولوا إخفاء أحد وجهيها، وذلك أنه كما سبقت الإشارة إلى ذلك، أن قضية يهود توات ذات وجهين: الوجه الفقهي المنحصر في هدم الكنيسة المخالف لحماية الدين الإسلامي لأهل الذمة، والوجه الثاني يتعلق بالقضية التي ثار بسببها الإمام المغيلي وهي: «نقض اليهود للعهد وخروجهم عن الذمة».

والوجه الأول: هو الذي تشبث به القاضي العصنوني وأنصاره من المفتين، وفي طليعتهم مفتي تلمسان الشيخ أحمد بن زكري الذي سبقت الإشارة إلى فتواه.

أما المغيلي فقد أيده بصفة جلية واضحة العالمان الجليلان محمد بن يوسف السنوسي دفين تلمسان ومجدِّد علم التوحيد، والذي كتب لتآليفه الخلود، حيث كانت تدرَّس في جامعات العالم الإسلامي من عهده إلى زماننا هذا، كالأزهر، والزيتونة، والقرويِّين، وزميله العالم محمد بن عبد الجليل التنسي صاحب التآليف المشهورة في البلاد الإسلامية، خصوصا في علم القراءات، كما أيَّده بحجج وبراهين مؤلِّف كتاب: (**البسيط في أخبار تمنطيط**)، وضرب صفحا عن الوجه الأول للقضية الذي اعتمده

خصوم المغيلي وركَّز عليه القاضي العصنوني استفتاءه، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وسار على منواله بقية المفتيين ببلاد فاس وتونس.

ولنرجع إلى حكم الإمام ابراهيم الفجيجي في هذه القضية التي إن قيست فتواه بالفتاوى السابقة الذكر التي أدان أصحابها المغيلي نجدها أرجح، وأصوب، وأصح، حيث إنه شاهد عيان أدرى بقضية يهود توات من بقية المفتين المذكورين الذين عللوا وركزوا فتاويهم على سؤال القاضي العصنوني الذي طرحه عليهم، وقرائن الأحوال تدل أنهم يجهلون أو تجاهلوا أوضاع اليهود بتمنطيط وتصرفاتهم فيها المنافية لسلوك أهل الذمة حتى يضمنوا لأنفسهم حماية الدين، إذ ما ثار عليهم المغيلي إلا لعدم مراعاتهم لذلك، وقد حصر جل المنتصرين للمغيلي أن ثورته كانت لعدم مراعاة اليهود لذلك.

فإن الذي يتتبع القضية مِن بدايتها إلى نهايتها ويقارن بين فتاوى الفقهاء المؤَيِّدين للقاضي العصنوني، والفتاوى المؤيِّدة للمغيلي، خصوصا حكم إبراهيم الفجيجي على أهل توات وإدانتهم، لا يتردَّد لحظة في تبرير موقف الفجيجي، ويرجِّح وجهة نظره، لا في الميادين الفقهية، بل في الميادين السياسية أيضا، بناءً على أنَّ الفجيجي علاوة على ما كان يتمتَّع به من مكانة في بلاد الصحراء، وبالشجاعة الأدبية والغيرة الدِّينية، فقد تتبَّع هذه القضية من بداية ظهورها، ولم يحكم حكمه ـ ولو كان قاسيا حيث جمع فيه كل السكان ـ إلا بعد نهايتها وختامها، ولم يخفِ هذا الجانب على ابن أخيه أبي القاسم الذي شاركه في حكمه وقال مشيرا إلى قصيدته التي أرسلها القاضي العصنوني وأنصاره: «عندما صح عنده ... ».

ولنرجع الآن إلى الحديث عن شهادة إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي التي أثبتها ولد أخيه الشيخ أبو القاسم في ترجمة عمِّه المذكور في شرح قصيدته المشهورة بـ : (**السَّلوانية**) في الصيد، فقال بعد ما ذكر إحدى قصائده ذم فيها أهل بلده فجيج لخبر

يطول، فقال: «وله أيضا قصيدة لامية في معارضة أهل توات من بلاد الصحراء وفقيههم العصنوني التلمساني والرد عليهم عندما صح عنده إكرامهم لليهود بها ـ أي: بتمنطيط ـ وتعظيم قدرهم لديهم فيها، وإباحتهم من الأمور ما منعهم من الشرع العزيز »، وجعل ذلك محصورا في قوله: «نظرا لما يصيبونه من دنياهم، فجعلوا ذلك ثمن إخراجهم، ورضي بذلك أعلمهم وأعلاهم، كما رضي عنهم أجهلهم وأدناهم ...»، إلى أن قال الشارح المذكور: «قال في أولها ـ أي: عمُّه ـ :

أيا قاطني توات فاصغوا إلى قولي ... فقد آن أن أبوح بالبعض والكل
أأنتم على دين النبي محمد ... أم أنتم واليهود شكل إلى شكل
فما بالكم شرفتموهم عليكم ... والإسلام أولى أن يشرف في الأصل
فإن كان هذا الرأي رأي فقيهكم ... فما الظن بالسفيه والناقص العقل

وقد رأينا أن إبراهيم بن عبد الجبار صاحب القصيدة ما أقدم على حكمه هذا الذي أدان فيه سكان توات وركزه على إدانة القاضي العصنوني الذي عناه بقوله: «فإن كان هذا الرأي رأي فقيهكم » لم يرسل القول على عواهنه، بل كان من الذين اهتموا بهذه القضية عند ظهورها مباشرة حيث أشار إليها القاضي العصنوني في استفتائه الذي وجهه إلى علماء بلاد المغرب العربي وقال فيه: «لقد شغب علينا فيها المغيلي وولده سيدي عبد الجبار تشغيبا كاد أن يوقع فتنة ... الخ ».

فمن كل ما سبق لنا ذكره تبين لنا أن إبراهيم بن عبد الجبار تتبع عن كثب هذه القضية، كما ذكرنا من بدايتها إلى نهايتها، وأن إصداره لحكمه الذي أدان فيه أهل توات جميعا كان نتيجة دراسة عميقة وقد شاركه حكمه ولد أخيه المذكور، وهولا يقل مكانة ولا قيمة في الأوساط العلمية عن عمه، وقد خاض بدوره معارك دينية وسياسية في عهده من بينها المعركة الفكرية التي أثارها تلميذه أحمد بن القاضي أبي محلي على صهره

الشيخ عبد القادر بوسماحة دفين الأبيض سيدي الشيخ، وشارك فيها علماء أجلة خلدها ابن أبي محلي في عدة تآليفه لا زالت إلى يومنا هذا محل عناية للكتاب من مختلف الأجناس.

وعلى كل حال فإن التاريخ أنصف المغيلي وبرأه من التهمة التي حاول خصومه إدانته بها، والحكم القاسي الذي حكمه الفجيجي على أهل توات رؤساء ومرؤوسين وعلى رأسهم فقهاؤهم لم يكن تلقائيا، بل كان هناك ما يبرره.

نكتفي بهذا القدر ولنواصل حديثنا عن بقية ترجمة المغيلي بما تعهدت به في تقديم هذه المحاضرة، والتعرف لبقية الجوانب التي طرحها مؤرخو ترجمته من بينها الظروف التي هاجر فيها المغيلي بلاده تلمسان، وذكر أحد مترجميه أن السبب فيها هو الجو المكفهر الذي كان يسود تلمسان إذ ذاك بعد سقوط مملكة غرناطة وتهديد الطاغية الإسباني لغزو تلمسان، وهذا الرأي وإن كان هناك ما يبرره ويؤيده، إلا أننا ما دمنا في ميادين الِإفتراضات فلا مانع من أن نذكر بأن تلمسان شاهدت أحداثا أخرى في ذلك العهد من بينها اكتشاف ملكها المتوكل على مؤامرة الإطاحة بملكه، وكان من جملة المتهمين الإمام أحمد الونشريسي الذي امتهن فصودرت أمواله وهدمت داره سنة 874 ولم ينج بنفسه إلا بمعجزة، « فقد التجأ إلى فاس إلى أن ختم حياته بها ».

كان لهذه الحادثة في صفوف العلماء، ولا مانع من أن يكون القاضي العصنوني الذي هاجر تلمسان سنة 875، وهاجر معه أفراد أسرته من المصابين بشظايا هذه التهمة، إذ كانت أسرته من الأسر العلمية التي توارثت العلم قرونا وكانت أول أسرة علمية هاجرت إلى تمنطيط، والمغيلي وإن تأخرت هجرته إلا أنه كانت له علائق بالونشريسي حيث كان من أقرب تلاميذه.

إلى هنا ينتهي بحثنا عن تاريخ تمنطيط وأدوار الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات كما أطلق عليها ذلك الونشريسي في موسوعته الفقهية السابقة الذكر، وهي قضية جديرة

بالاهتمام والتعمق في دراستها وقد حظيت بما تستحقه خصوصا عندما فكرت الجزائر في إقامة ملتقى خصص لإحياء ذكرى هذا العالم الذي يعد بحق في طليعة قائمة أبطال الإسلام، وقد ساهم فيه علماء أجلة من مختلف دول إفريقيا، وأثروا مآثره بوثائق هامة أصيلة كانت تحتفظ بها بلدانهم، وعرضوا الكثير منها في المتحف الذي خصص لاستعراضها، والمغيلي جدير بتأليف خاص يجمع ترجمة مفصلة عن أطوار حياته وجل ما كتب عنه المسلمون والأجانب، لا قضية يهود توات وما أثارته من جدل ومحاورات، بل آراءه في قضية الخلافة الإسلامية وقضية الثقافة الأجنبية هاتان القضيتان اللتان لا زالتا محل عناية الباحثين من المسلمين والأجانب خصوصا الخلافة الإسلامية، أما الثقافة الأجنبية التي كانت تنحصر في علم المنطق والفلسفة انطلاقا من القرن الثالث الذي شهد ترجمة تآليف اليونان، وقد خصصت بتآليف ودراسات من أهمها دراسة ألقاها العالم أحمد زكي باشا المصري في مؤتمر المستشرقين المنعقد في أثينا، وقد خصص دراسة قيمة للعلائق الثقافية بين الخلافة الإسلامية في عهد ازدهارها مع اليونان، وقدم للمؤتمر الذي رافقه فيه ثلة من كبار علماء المسلمين عينات من نوادر التآليف المترجمة من اليونانية إلى العربية، أما موقف المغيلي من الثقافة الأجنبية فإنه ينحصر في مناظرته للسيوطي الذي أفتى بتحريم المنطق، إذ قضية الثقافة الأجنبية المنحصرة في علمي المنطق والفلسفة اليونانيين واجهها المغيلي في عهده ورغم شهرة العلماء الذين أفتوا بتحريم قراءة علم المنطق في عهد المغيلي كالأئمة أحمد بن تيمية وابن صلاح والنووي، فقد ناظر المغيلي الإمام جلال الدين السيوطي عندما اجتمع به في رحلته إلى المشرق وتبادل معه قصيدته المشهورة التي أظهر فيها أن الممنوع من الثقافة الأجنبية هو ما يخص العقائد الإسلامية، أما بقية العلوم خصوصا المعروفة في عهدنا بالتكنولوجية فلا مانع من تعليمها، بل يجب تعلم العلوم بقطع النظر عن عقائد أصحابها، إلا فيما يرجع للعوم الدينية، وقد أثبت رأي المغيلي في قراءة علم المنطق الذي رد به على السيوطي كثير من علماء التراجم من بينهم صاحب:

(**البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان**) في ترجمته للمغيلي.

أما نظريته في الخلافة الإسلامية فقد بينها بصفة واضحة جلية في أجوبته للأسقيا ملك السودان في عهده، وقد نشرت هذه الأجوبة منذ عشر سنوات بالجزائر بفضل محققها وناشرها الدكتور **عبد القادر زبايدية** المتحدث عنه في هذه المحاضرة.

ولنختم هذه المحاضرة بناءا على القول الجاري: «الشيء بالشيء يذكر »، إن الحديث عن الثقافة الأجنبية التي كانت تنحصر في علم المنطق والفلسفة وذكرت موقف الإمام المغيلي في دفاعه عن قراءة علم المنطق ومناظرته للإمام السيوطي في وجهة نظره، إلا أن الخلاف الذي أثاره علم المنطق في صفوف العلماء ظاهر، وقد أشار إليه العالم الجزائري عبد الرحمٰن الأخضري في التأليف الذي خصصه لعلم المنطق:

الخلــف في جــواز الاشــتغال   بـــه عـــلى ثلاثـــة أقـــوال
فـابن الصـلاح والنـواوي حرمـا   وقــال قــوم ينبغــي أن يعلـــما
والقولــة المشــهورة الصــحيحة   جـــوازه لكامـــل القريحـــة
ممـــا رس الســـنة والكتـــاب   ليهتـــدي بـــه إلى الصـــواب

اهـ.

أما فيما يخص الفلسفة فأمرها الخلافات التي أحدثتها تركت مأساة وضحايا وكان الفقهاء يتتبعون المتهمين بالانتصار إليها وعينوا لها محاكم تفتيش محاطة بالكتمان، ولما كان تقدم لنا ذلك عند إثارة هذا الموضوع وموقف مترجمنا المغيلي في قضية علم المنطق جرنا الحديث إلى إماطة اللثام عن عالم من أكابر علماء الجزائر وأدبائها كان من ضحايا الثقافة الأجنبية إذ اتهم بانتحاله للفلسفة وحوكم بمحكمة سرية أقامها له خصومه بإحدى العواصم الإسلامية ـ خارج بلاده ـ كان يتردَّد عليها وكان أعضاء مجلسها من

كبار فقهاء تلك العاصمة، لما مثل أمام المجلس وطرحت عليه الأسئلة: أجاب عنها واحدا واحدا، معترفا بانتحاله الفلسفة ومفتخرا بها وبأهميتها ومشيدا بها، وقد اعترف محرر الوثيقة الذي كان من المكفرين للفلاسفة، بأنه أفحم أعضاء المجلس وكانت النتيجة تقييده في سجل الزنادقة الذين تهدر دماؤهم، أي حكم عليه بالإعدام، والغريب في الأمر هو أن هذا المتهم كان يعيش في بلاده عيشة العزلة والمسكنة والانزواء، وقد اختلف مترجموه فيه رغم أن من اعتنوا بترجمته كانوا من أكابر علماء الدنيا في عهدهم أمثال لسان الدين الخطيب وأحمد المقري وابن خلدون وغيرهم، وهذا الأديب هو أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني (650 ـ 708هـ) الذي بقيت ترجمة حياته مكتنفة بالغموض إلى أن ظهرت وثيقة أصيلة جوهرية وهي عبارة عن رسالة كتبها بخطه قبل وفاته بست وعشرين سنة لأحد أصدقائه كان من قضاة العاصمة الإسلامية التي نصبت له فيها محكمة تفتيش كما اكتشفت وثيقة أخرى لا تقل عنها أهمية ـ إلا أنها كانت في حكم التاريخ المفقود ـ وكان صاحبها رغم أنه من أعداء الفلاسفة ولم يتردد في حكمه عليهم بالكفر والزندقة، إلا أنه كان مؤلفا أمينا، وإن ألزمته ظروف قاهرة لهذا التأليف ترضية لملك عهده، فقد تخلص من أداء الأمانة في دائرتي النزاهة والصدق، خصوصا فيما يخص استعراضه للمحاكمة التي سيق إليها وباغت محاكميه بشجاعة وثبات، بل صرح بآرائه وأشاد بمذهبه، وإني ما دمت أتحدَّثُ عن المغيلي والجوانب المجهولة من تاريخ حياته، خصوصا فيما يتعلّق بقضية اليهود التي استوعبها كتاب (**البسيط**) الذي كان مفقودا ولم يكتشف إلا في عهدنا هذا، وجرَّنا الحديث على ذكر موقف المغيلي في قراءة علم المنطق الراجع إلى الثقافة الأجنبية « التي اجتازتها البلاد الإسلامية وكان من بينها: الفلسفة التي ذهب ضحيتها كثير من أكابر المفكِّرين»[1]، ختمتُ هذه الدراسة بنموذج من نماذج ضحاياها

(1) مجلة (Histone) عدد 253 دجنبر 1967 باريس.

لم يكشف النقاب عنه إلا في عهدنا هذا، ولهذا فإن هذه الكتب التي كانت ضمن قوائم الكتب المفقودة، ينبغي لنا أن لا نتركها معرضة للضياع إما في الخزائن العامة أو الخزائن الخاصة، ونعطي الأولوية والأسبقية لكتب أخرى بدعوى أنها تهم الجماهير وتلقى الرواج، بخلاف كتب التراث فإنها لا تهم إلا فئة قليلة.

هذا، وإني أعتذر حيث إنني لم أقتصر على نصِّ المحاضرة التي ألقيتُها بـ **(ملتقى** أدرار) وكان مجالها محدودا، بل أضفتُ إليها صفحاتٍ دعاني إليها سياق الموضوع.

المهدي البوعبدلي

جوانب من تاريخ تمنراست الثَّقافي والحضاري عبر العصور[1]

عُرفت قرية تمنراست باسم واد بها لما اتخذت قاعدة لبلاد التوارق، في سنة 1920 بدلا من حصن موتيلانسكي (Motylinski)[2] الذي كان مركز المنطقة. من بداية الاحتلال الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر، كانت تمنراست في أول عهدها قرية بسيطة لا يزيد عدد سكانها عن اثنين وعشرين أسرة، عرفها إثر الاحتلال الفرنسي مباشرة الأسقف دوفوكو الذي اختارها للإقامة سنة 1905 وبقي بها إلى أن قتل فيها سنة 1916 فقال: «اخترت تمنراست القرية البسيطة التي تحتوي على اثنين وعشرين كانونا موقعها في قلب جبل الهجار منعزلة عن القرى المسكونة، إذ يلوح لي أن هذه القرية ستبقى بعيدة عن العمران الأوروبي، ولا تتخذ فيه قواعد عسكرية ولا محطة اللاسلكي، ولا تقيم فيها مختلف البعثات والإرساليات، ولهذه الأسباب اخترت هذا المكان الهادئ، وألقيت فيه عصا التسيار» اهـ ما دونه دوفوكو في بعض كتاباته.

كانت تمنراست محاطة بقرى، أو تجمعات، يسكنها الحراطين الذين يستخدمهم التوارق في المهن التي يأنفون مباشرتها بأنفسهم كالفلاحة، إن أرض التوارق كانت تمتد من الشمال إلى الجنوب بنحو الألفين كلم ومن المشرق إلى المغرب بنحو الألف كم وكان عدد سكانها إثر الاحتلال الفرنسي على منطقتها لا يتجاوز 10 آلاف نسمة، ولما اتخذت

---

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المحاضرة على نسخة مخطوطة تقع في (56) صفحة.

(2) يعرف الآن بتاغَوْغَاوت ولم يبق من الحصن إلا الآثار.

قاعدة بلاد الهجار سنة 1920 بقيت على بساطتها وقلّة سكّانها، وقد زارها سنة 1932 الوالي العام بالجزائر **كارد** وكان بصحبته الجنرال دوشام (Deschamp) الذي دوّن **(رحلته)** فوصف تمنراست مُستنِدا إلى ما وصفَها به **دوفوكو** قبله فقال: «والآن استحال عدد كوانينها ونمى بعد أن كان اثنين وعشرين وصل إلى أربعين، ويطل على سكّان هذه الكوانين حصن لابرين (Laperrine) وقد بني بالقرية أيضا نزل كاتلان (Catelan) كما بني مركز للبريد، وسكنها الأوروبيون، وأقيم فيها معرض سنة 1930م » اهـ .

هذا كلُّ ما وصلنا مِن وصف تمنراست قاعدة بلاد التوارق، وجبالها الشّامخة، التي لفتت أنظار الكتّاب والمؤرِّخين والفنّانين، فخصّصوا لها عشرات التآليف، سنستعرض عيِّنات مِنها في هذه الدِّراسة، وقبل ذلك نتحدَّثُ عن بعض مَن عرّف هذه المنطقة مِن الباحثين المسلمين بعد الفتوحات، ولنبدأ بتعريف المؤرِّخ الجزائري محمد أبو راس الناصري [1] الذي قال في كتابه: **(عجائب الأسفار ولطائف الأخبار)** عند تعريفه لقبائل صنهاجة قال: «... قلت وقد أخبرني الطالب الأجل الناسك الأمثل، شقيقي سيدي عبد القادر برّد الله ضريحه، وأسكنه من الفردوس فسيحه، وكان ذا معرفة بتلك البلدان لما مرّ بها، وتخطى إلى السودان وكان إخباره لي بذلك لمّا سألته سنة أربع وتسعين ومائة وألف (1194)...»، إلى أن قال: «...ثم إن صنهاجة أهل اللثام المعروفون عندنا بالتوارق، مساكنهم بين السودان وبين الرمال، التي هي تخوم بلاد البربر، متصلون بالبحر المحيط لهذا العهد في المغرب العربي إلى ساحل النيل بالمشرق، وهو الآن على اختلاف الكلمة واختلاف السند، على عهدهم الأول بعضهم يعطون الطاعة لملك السودان، ويفرون في عسكره، ولهم شرف بأرضهم، وتمر عليهم القوافل إلى السودان، فكان أحب شيء عندهم الدخان، وإن أراد أحدهم الأكل تنحى قليلا ونصب درقته

---

(1) محمد أبو راس الناصري المعسكري (1165 ـ 1237هـ).

بينه وبينهم حذرا من أن يروا فمه، وإن ظفروا في غزوهم بمال أخذوا منه الإبل والبقر، وأما الغنم فيأخذها حشمهم ـ أي: خدّامهم ـ يقال لهم العنادى، وبيوتهم من الجلد، وإن ذبحوا لضيف، جمعوا له كل اللحم فيأكل والباقي يتزود به، وبإزائهم رهط يقال لهم كُنْتَ (كنت باشمام هي الآن بعضها تابع لمالي وبعضها لموريتانيا) وأفراد قبيلة كنت ينتمون إلى بني أمية والأنصار، لم تتغير اللغة العربية عندهم إلى الآن، هكذا أخبرني شقيقي سيدي عبد القادر (رحمه الله)، والخيل عندهم قليلة أو معدومة، ويركبون من الإبل الفاره، يسمونها النجيب، ولهم مع بني سعيد من بطون رياح عرب ورقلة وقائع وغارات إلى الآن، ويغيرون أيضا على سوف وغدامس وفزان وغيرهم، وأما أهل ورقلة فهم مِن بني يفرن ومن مغراوة، وأميرهم يقولون له السُّلطان، وعلى عشرين مرحلة إلى القبلة منحرفا قليلا إلى المغرب بلدة نكدة لصنهاجة، وقد اجتاز بهم نفر من تجار مالي أيام أبي عنان، فأعطوهم اثني عشر ألف راحلة زكاة، وأما أهل فجيج وتيكرارين وتوات وأكثر مصاب، فكلُّهم صنهاجة، وبعض مصاب لماية، والله أعلم » اهـ ما كتبه المؤرِّخ أبو راس في التعريف بهذه الناحية، أثبتُّه على طوله لما اشتملَ عليه مِن الفوائد، إذ أنه قريبُ عهد للاحتلال الفرنسي، فلم يطرأ على الناحية تغيير كبير، أما الكتَّاب المتأخِّرون، فإنَّ معظمَهم استمدَّ كتاباته مِن المصادر الأجنبية، وهي في مجموعها لا تخلو مِن تَشويه وتَزييف، وقد تصدَّى لكشفِ أَقنعتها بعضُ الكتَّابِ الأجانب أنفسهم، وسنبيِّن ذلك في مَوضعِه مِن هذه الدِّراسة.

ولنرجع إلى بقية مَن عرَّفوا هذه المنطقة بعد الفتوحات الإسلامية، فنجد أمثلهُم وأسبقهُم أبا عبيد البكري، الذي خصَّص ملوك السودان ومِن بينهم التوارق الذين ينتمون إلى صنهاجة، فقال معرِّفا بقاعدتهم الأولى وهي أوداغست، فقال في تأليفه: (**المسالك والممالك**): «وهي ـ أودغست ـ مدينة كبيرة، بها جامع، ومساجد كثيرة، في

جميعها المعلِّمون للقرآن، وحولها بساتين »، إلى أن قال في وصف سكَّانها: «وهم أرباب نِعَم جزيلة، وأموال جليلة، وسوقها عامر الدَّهر كلّه، لا يسمع الرَّجل فيه كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله، وتبايعهم بالتّبر، وليست عندهم فضَّة، وبها مَبان حسنة، ومنازل رفيعة، وهو بلد ألوان أهله مصفرَّة، وأمراضهم الحميات والطِّحال، لا يكاد يخلو مِن إحدى العِلَّتَين أحد منهم، ويجلب إليها القمح والتمر والزَّبيب من بلاد الإسلام على بعد، وسكَّانها أهل إفريقية، وبرماجنة، ونفوسة، ولواتة، وزناتة، ونفزاوة، هؤلاء أكثرهم ... ويجلب منها العنبر المخلوق الجيِّد لقربِ البحر المحيط منهم، وذهب أدوغست أجوَد ذهب أهل الأرض وأصحّه، وكان صاحب أودغست في عشر خمسين وثلاثمائة تين يروتن رجل مِن صنهاجة، وكان قد دان له أزيد مِن عشرين ملكا مِن ملوك السُّودان كلُّهم يؤدِّي له الجزية » اهـ.

ومما يؤيِّد هذا التَّعريف ويوضِّحه ما ذكره المؤرِّخ أبو راس المتقدِّم الذِّكر في التَّعريف بصنهاجة تفصيلا وجملة فقال: «وتميَّزوا باللثام بين الأمم، وهم بطون، ومساكنهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى قبلة برقة، وهم الذين يقال لهم التوارق، وكان دينهم المجوسية ثمَّ أسلموا بعد فتح الأندلس، وكان يتلوتان من ملوكهم يركب في مائة ألف نجيب ـ أي: مهري ـ ويؤدِّي له الجزية عشرون ملكا مِن السودان.

كما عرَّف المؤرِّخ الفرنسي **هنري تراس**[1] في تأليفه المسمى (**بتاريخ المغرب**) وكان هذا التأليف يدرس في ثانويات المغرب الأقصى في عهد الحماية، فقال عند تعريفه لدولة المرابطين اللمتونيِّين الصنهاجيِّين : «وقد عُرف الصنهاجيُّون بعدَ الفتوحات الإسلامية بالملثمين، وكانوا متفرقين من غدامس إلى المحيط الأطلنطي، ومن جنوب المغرب إلى

---

(1) هنري تراس (Henri Terrass) الأستاذ بجامعتي الجزائر والرباط(
Histoire du Maroc, Editions atlantides Casablanca

السنغال والنيجر، وفي القرن التاسع الميلادي كانت جموعهم تشمل لمتونة ومسوفة، وكانوا يجوبون الصحراء، وحينئذٍ اتخذوا أودغست قاعدة حكمهم، فنظَّموا التجارة التي اتخذوا لها مراكز ومحطَّات طول الطريق الذي يربط بينها وبين بلاد الشمال مِن جهة، وبينها وبين صحراء مصر مِن جهة أخرى » اهـ .

وقد أجمع المؤرِّخون أنَّ السكَّان الأصليِّين لهذه المناطق كانوا قبائل السود والحراطين، ولما نزحت صنهاجة إلى هذه النواحي من بلاد الشمال ابتداءً من القرن الثالث قبل الميلاد، وقيل: قبله بكثير، أجْلَت قبائلُ صنهاجة السكَّان الأصليِّين ـ أي: الحراطين والزُّنوج السود ـ ولازال هذا الموضوع يثير عناية الباحثين، وفي سنة 1976 لما انعقد المؤتمر الدولي الثاني لدراسة ثقافات غربي البحر الأبيض المتوسط بمالطة، خصَّص الباحث الشَّهير بدراساته في تاريخ الصَّحراء الأستاذ **لويسكي** البولندي دراسةً قيِّمة ضمَّنها تاريخ جلاء قبائل صنهاجة من الشمال إلى الجنوب، كان أمراء هذه القبائل وسلاطينها، كما أطلق عليهم ذلك المؤرخون (بعدما اشتهرت الناحية باكتشاف مناجم الذَّهب فيها، وصارت مقصد قوافل التُّجار مِن مختلف بلدان المعمورة)، كوَّنوا مجموعةً لإماراتهم، أو دولهم، يتداولون حكمها، وهذا هو ما سبق لنا ذِكره، للمؤرِّخ أبي راس الذي قال: «وهم الذين يقال لهم التوارق ... وكان يتلوتان مِن ملوكهم يركب في مائة ألف نَجيب ـ أي: مهري ـ ويؤدِّي له الجزية عشرون ملكا من السودان » اهـ .

نكتفي بهذا القدر في تعريف هذه الناحية عِند القُدامى والمتأخِّرين ـ مسلمين وأجانب ـ وقد امتازت ناحية التوارق عبر تاريخها الطويل أنَّها كانت محلّ اعتناء الباحثين والمؤرِّخين الذين اعتنَوا بتاريخها الحضاري والعقائدي، خصوصا لما احتفظت به مِن الكتابة الخاصة بها، وآثار الصُّوَر الحيوانية على جُدران الكهوف، تبارى هؤلاء الكتَّاب الذين كان معظمُهم مِن الأوروبيِّين وتسرَّب في صفوفهم مَن أَطلقوا العَنان

للخيال والأوهام، دعاهم إليها الوصول إلى تدعيم أغراضهم السِّياسية والعقائدية، فصوَّروا بلادَ التوارق صورا أقلُّ ما يقال فيها أنَّها أقرب إلى الأساطير منها إلى الواقع التاريخي، ومِن حسنِ الحظِّ أنَّ الذين كشفوا القناع عن هذه التُّرهات وتصدَّوا لنقضها والردِّ على أصحابها هم كتَّاب أوروبيُّون، وكان في طليعتهم الكاتِب الفرنسي الشَّهير **كلود موريس روبير** أحد محرِّري **(جريدة صدى الجزائر)** اليومية لسان حال المعمِّرين الفرنسيِّين في عهد الاحتلال، والتي عوضت واستولت على إدارتها ومطبعتها **(جريدة المجاهد)** اليومية الحالية، وقبل أن أستعرضَ آراء وانطباعات هؤلاء الكتَّاب الذين كان جلُّهم فرنسيِّين إذ كانت فرنسا بعد احتِلالها لبلاد السِّنغال والجزائر تسعى بشتَّى الوسائل لضمِّ مناطق الصَّحراء والسُّودان، وكانت تلقَى في طريقها مُزاحمة ومعارضة الدُّول الأخرى، وبعد أخذٍ وردٍّ دعا الوزير الألماني **بسمارك** (Bismarck) الذي عقد مؤتمرا ظاهره يدعو إلى مقاومة التِّجارة في الرَّقيق وباطنه تقسيم مناطق النُّفوذ بإفريقيا، فانعقد **(مؤتمر برلين)** سنة 1885م، وكان انعقاد هذا **المؤتمر** كذلك ترضيةً واستجابةً للحملة التي شنَّها الكاردينال لافيجري لمقاومة بَيع الرَّقيق التي اتَّخذها تَغطيةً لحملتِه التَّبشيرية، وكان مُنطلقها مِن بلدةِ بسكرة، وقد خصَّصت وزارة الشُّؤون الدِّينية في الملتقى السَّابع للفكر الإِسلامي المنعقِد في تيزي وزو حركةَ التبشير ونشاطات الكاردينال لافيجري في الصَّحراء بمزيدٍ مِن التَّوضيح والبيان.

هذا، وقد أسفر **(مؤتمر برلين)** المنعقد سنة 1885م إلى تحصيل ألمانيا على بلدان الكامرون وطوڤو وزنجبار وبقي نصيب الأسد لفرنسا التي مكنها احتلالها للجزائر والسنغال مِن جمع مُعطيات خوَّلتها الإطلاع عَن كثبٍ على المناطق المتاخمة لممتلكاتها، وكانت بِدايتها دراسة مفيدة جِدًّا لبلاد التوارق التي استعصت على الرُّواد الأوروبيِّين، إذ جلُّ مَن حاول اختراق آفاقِها تعرَّض للاغتيال.

كانت أول هذه الدِّراسات دراسة جمعها إسماعيل بوضربة المترجِم الجزائري بإدارة الأغواط، فقد قدَّمها سنة 1850م، ثمَّ أعقب إسماعيل بوضربة الرَّائد الجغرافي الفرنسي (Duveyrier)، وقد حظي تأليف (Duveyrier) بأنه اتُّخِذ مصدرا للكتَّاب الذين كتبوا عن التوارق، واتَّخذوه حجَّةً إلى أن ظهر كتاب الصَّحافي كلود موريس روبيير (Claude Maurice Robert) سنة 1938م، وقد خصَّصه لترجمة دوفوكو فتصدَّى فيه للرَّدِّ على معظم آراء (Duveyrier) في التوارق ونقضها، كما ألحق (بديفيري) جل الكتَّاب الذين أسرفوا في افتراءاتهم عن تاريخ التوارق فمزجوا فيها معلومات خيالية هي مجرَّد افتراضات و تكهُّنات، وهذه بعض العيِّنات مما كتبه الصَّحافي **كلود موريس روبيير** في تأليفه الذي سماه: (**ناسِك الهقار**) أو (**حياة** شارل **دوفوكو في الصَّحراء**)، وقد طبع هذا التأليف في الجزائر سنة 1932م، [1] قال في الموضوع بعد مرور ربع قرن على احتلال الجزائر: «كتب أحد الصحفيِّين[2] بأن التوارق يكنون الإعجاب والتَّقدير لفرنسا، كما ذكر بأن التوارق أمة قوية مهابة يرغب سكَّانها في ربط صِلتهم بفرنسا في ميادين التِّجارة، وهم يشغلون موقعا واسعا بين الصحراء الجزائرية والتومبوكتو، ويبلغ عدد سكَّانهم مليون نسمة، وقد جعلهم موقعهم الجغرافي صِلة وصلٍ بين الجزائر وتومبوكتو، وستمتدُّ فيما بعد هذه الصِّلة بيننا وبين مستعمراتنا السنغالية »اهـ.

ثم عقب كلود موريس روبيير على هذا الرأي بقوله: «هذه الترهات نشرت بجريدة تصدر في وهران سنة 1856 »، ثمَّ واصل تعقيبه على هؤلاء الكتَّاب فقال: «وبعد نصف قرن فقدت مصابيحنا إنارتها حيث إن الكاتب الشَّهير بول لووروا بوليو (Paule Leroy Baulieu) كتب مِن دون خجَلٍ يخاطب حكومة فرنسا قائلا: انشروا الأمن في هذه الرُّبوع الشَّاسِعة، ثم أَضيفوا إلى ذلك جلب المياه، فحينئذ يمكن للصَّحراء بعد حقبة مِن الزَّمن أن

---

(1) Edition baconnier Alger 1938.(1 (.(1).

(2) **صاحب هذا القول** : capitaine Brassilard " Les deux missions Flatters.

تغذِّي عشرة ملايين نسمة، إن لم تكُن عشرين مليونا»اهـ.

فعلَّق الصحافي المذكور على هذا الكاتِب بقوله: «إنني لم أخترع شيئا فيما ذكرتُه، فهذا ما نقلته مِن تأليف سماه صاحبه: **(الصَّحراء)**، نشر سنة 1904م، وبوجود هذا التأليف في جميع رفوف المكتبات ببلاد الصحراء بخلاف كتاب: **(اكتشاف المغرب)** للراهب دوفوكو فإنه لم يوجد له أثر هناك ـ وذلك أن الراهب دوفوكو لم يخفِ في تأليفه المذكور **(اكتشاف المغرب)** تشاؤُمَه مِن نتائج احتلال الصحراء، ولهذا تواطأ المعتنون والمتفائِلون باحتلال الصَّحراء على تسهيل نشر التآليف المؤيِّدة لآرائهم، وبالطَّبع لمَّا كان ضبَّاط الجيش في بلاد الصَّحراء هم الحاكِمون بأمرهم، فلم يصعب عليهم إشهار ما يرضون عليه مِن التآليف وإخفاء الكتب التي تُعارض آراءهم، إذ أقل ما استفاده روَّاد الصَّحراء في ذلك العهد استرجاع النفوذ الذي كان عِندهم ببلاد الشمال، ذلك النفوذ الذي فقدوه عندما استُبدِلَ حكمهم العسكري بالحكم المدني »، ثم استرسل الصحافي **كلود موريس روبير** في الرَّدِّ على مزاعم الرائد (Duveyrier) وصحبه فقال: «أما **تمبكتو (ملكة الصحراء)** التي لا زالت توصف بـ **(الخفيَّة)** رغم دنسها وقذارتها اللتَين تتخبَّط فيهما، فهي كما يقال في القطران: إنه يشفي الجرب مثل ما يشفي السودان من الفقر »، ثم قال: «إن هؤلاء الكتَّاب الذين يسبحون في متاهات الخيال والأوهام لا زالوا يحلمون بالقوافل الحاملة لدقيق الذَّهب، وريش النعام، والعاج، والزُّمرُّد الذي قيل: إن رائد الصَّحراء **فلاتير** (Flatters) اكتشفه بكثرة ـ أي: الزمرد ـ وكان من بينه ما يبلغ حجم بيض الدجاج ».

ثمَّ واصل الصحافي **روبير** حديثَه فقال: «والآن عندما أزيل القناع عن التوارق انحل اللغز، فدقيق الذهب موجود ولكنه يتمثل في رمال التلول ...»، إلى أن قال: «ينبغي أن نعيد النظر لتصحيح موقِفنا مِن قضية الصحراء، وذلك أن قيمتها الاقتصادية مُنعدِمة

تماما، وستبقى على حالها، وإنما إذا رجَعنا إلى الحقيقة والواقع فنجد قيمة الصحراء تَنحصر في المجالين السِّياسي والجغرافي، إذ هي برزخ بين عالمين، كانت العداوة بَينهما محكَمة، وهما إِفريقية البيضاء، وإفريقيا السَّوداء، وبعبارة أوضَح وأشمل عالم متمدِّن، وعالم متوحِّش هَمجي، وعلى كلِّ حال إن إمبراطورية الصَّحراء فارغة خاوية على عروشها، وستبقى على حالتها هذه، ودونكم مثلا واحدا أدعِّمُ به ما ذكرته، فمِن ورقلة إلى جني (Djenné) توجد مسافة 1600 كلم، وهي تُعادِل المسافة التي تفصل باريس بمدينة نابل (Naples) الإيطالية، ففي هذه المسافة كلِّها تعرَّض لنا في طريقنا رجلٌ واحد ممتطيا جمله ، ثمَّ انتقل الصحافي **كلود موريس روبير** إلى صميم الموضوع الذي فنَّد فيه مزاعم الكِتاب السَّابق الذِّكر فقال: «إنني تعرَّضتُ في الطَّبعة الأولى من هذا الكتاب– أي: ترجمة **دوفوكو**– فذكرتُ أن عددَ سكَّان التوارق بهذه المنطقة ـ أي: جبل الهجار ـ يبلغ 7800 نسمة، منها خمسة آلاف مِن الهجار، و2800 مِن أجر، وقد كنتُ حينئذ سخيًّا، والآن بعدما كشفَتْ لنا الإِحصائيات الأخيرة التي نشرتها الصحافة بأنَّ عدد الهجار يبلغ ثلاثة آلاف نسمة، وعدد إخوتهم أجر من سكَّان **جانت** يبلغ عددهم 1500، فالجميع أربعة آلاف وخمس مائة، فمن مجموع هذا العدد نَجِد أنفسنا بَعيدين عَن عددِ المليون الذي قدَّمه الصُّحفي سنة 1856م، خمسة آلاف نسمة عبارة عن مجموعة بشرية مُعظمها يعيشون في المسغبة والأوساخ، يسكنون في مساحة مِن الأرض تُعادِل مِساحة فرنسا خمس مرَّات، فهذه في الحقيقة هي: (دولة التوارق)، التي سالت بسببها أودية من الدِّماء والمداد »، ثمَّ يستنتج الصَّحافي من حديثه في الرَّدِّ على أولائك الكتَّاب التلخيص التالي: «هذا هو الفرق بين الحقيقة التاريخية والأساطير، ويجب علينا أن لا نسمِّيه تفاؤلا بل هو متاهات أحلام وأوهام وخيال فكري ».

ثم واصل الصحافي حديثه فقال: «ومن جملة ناشري هذه الترهات ومروِّجيها

الكاتب هنري ديفري (Henri Duveyrier) فإذا كان التوارق الذين عرفهم بمثل ما وصفهم به في سنة 1860م، فكيف نفسر حالتهم التي هم عليها الآن أي سنة 1938 ثم قال كلود موريس روبير: ومن عهد صدور كتاب (Duveyrier) نجد كتَّابا وسوَّاحا وموظَّفين سامين تَباروا في خلق بلاد الهجار البعيدة عن الواقع، مثل ما حاول ذلك الكاتب الفرنسي (Pierre Benoit) عضو الأكاديمية الفرنسية الذي ضمَّن إحدى رواياته (**ملكة الهجار**) التي يرجع عهدها إلى آلاف السنين، وهذه الرواية [1] هي التي فتحت أبواب الخيال على مصراعيه، وذهب بعض الكتَّاب إلى أن الهجار هو منبع العنصر البربري، وأن موقعه محور البشرية ... الخ.

ثم أثبت الصَّحافي **كلود موريس روبير** انطباعات الرَّحالة ابن بطوطة الذي ذكر مروره على بلاد الهجار في عهده، وقال عنها:« إنه لا يوجد فيها النبات إلا قليلا، وأكثر أرضها حجرية، وإن أهلها يتلثَّمون، والمحاسن عندهم نادرة »، وعلَّق الصحافي على كلام ابن بطوطة وانطباعاته عَن التوارق فقال: «اشتهر سكان التوارق ـ أي: الهجار ـ بالغزو على السودان وليبيا ولهذا لقبوا بـ : (إيماهور) (Imahor)، وإموشار، وهذان اللقبان ينطبق مدلولهما عليهم، إذ لقب إيموهار مدلوله سارق، قاطع طريق ... الخ »، وقد استقى **كلود موريس روبير** هذا التعليق من الضابط (Cyrdel) الذي قال في مقالٍ له: إنَّ معنى إيموهار وإيموشار باللغة الأصيلة البربرية هو اسم التوارق، وقد لقَّبهم به العرب بعد الفتوحات التي اعتنق فيها التوارق الإسلام، وقد طرأ على هذَين اللقبَين التَّغيير، فاشتقَّ منهما اسم الهجار ».

ثم واصل الصحافي تعاليقه في الموضوع فقال: «إذا استعملنا المنطق الجاري به العمل في الوقت الذي أنا بصدد كتابة هذه الدِّراسة، فأقول: إنهم ـ أي: الهجار ـ كانوا

---

(1) اسم الرواية: (**L' Atlantide**)، طبعت في العشرينات.

لصوصا في هذه الأراضي التي تتجلَّى على سكَّانها الفوضى، والاضطراب، واللصوصية، وهذا كلُّه كان **دوفوكو** يعرفه، إذ كان على علمٍ مِن أنَّ التوارق هم الذين قتلوا في سنوات 1876م و1881م سِتَّة أنفار مِن الآباء البِيض، سبقَ أن تعهَّدوا لهم بالحماية مدَّة وجودهِم في مناطق نفوذهم، كما كان **دوفوكو** على علمٍ مِن اعتدائهم على قافلة الرَّائد **فلاتير** (Flatters) بتاجموت، ثم فتكهم في طريق غدامس بزميله في الدِّراسة بـ (**كلية سان سير الحربية**) (St Cyr) أنطوان واللُّمْبْرُوزْ (Antoine Wallomprose)، المدعو بالمركيز دو موريس (Le Marquise De Mores) .

ثم استرسل الصحافي في تعداد قائمة ضحايا التوارق الذين كان **دوفوكو** على علم من اغتيالهم، فذكر مِن بينهم الملازم (Lr Pellât) الذي قُتل غربي عين صالح، وكامي دولس(Camille Douls)، وبول كْرُمْبيل (Paul Crampel)، وكالو (Callot) ، وغيرهم.

ثم ختم الصحافي مقاله بقوله: «إن عدد ضحايا التوارق مِن الرُّواد والضُّبَّاط الفرنسيِّين كثير لا يمكن حصره وتتبُّعه ».

ثمَّ انتقل إلى الحديث عن الرائد ديفيفري (Duvevrier) فحلَّل فقرات من تأليفه الصادر سنة 1860 بقوله: «في سنة 1860 كتب (Duvevrier) ما يلي: إننا إلى الآن لم يصلنا نبأ تعرُّض أي مسافر أوروبي مِن الزُّوار لبلاد إفريقية لأذى داخل بلاد التوارق أو مِن طرفِ شخصٍ تارقي ».

فعقَّب على هذه الفقرة بقوله: «ولكن بعد تاريخ ظهور كتاب **ديفيفري** كم كان عدد المجازر هناك ؟ »، وبعد ذلك تعرَّض الصحافي لقضية تجارة الرَّقيق عند التوارق فقال: «إنني أستشهِد بكلام ديفيفري المسؤول الأول عَن خَيبة كلِّ آمالنا في هذه البلاد، حيث قال: عن التوارق المقيمين بالهجار: لم يوجد فيها إلا القبائل النبيلة، ثم قبائل الحشم ـ أي: الخدم ـ وبالطبع فإن قبائل الحشم أكثر عددا مِن القبائل النَّبيلة.

فإن وجد عِند قبائل أجر أربعة خدَّام لكلِّ سيِّدٍ نبيل، فعند الهجار نجد ثمانية خدَّام، وقد تقدَّم لنا أنَّ التوارق بهذه الناحية ـ أي: تمنراست ـ ينقسمون إلى قسمين: سكَّان الجبل، وهم الذين يطلق عليهم أهجار، ومساكنهم في المناطق الجبلية، والقسم الثاني: وهم سكَّان منطقة جانت، ويطلق عليهم أجر، وكلٌّ مِن القِسمَين زيادة على خدَّامهم المذكورين يَستخدِمون العَبيد الذين يشتَرونَهم مِن تجَّار الرَّقيق، أو يختَطِفونَهم في غزَواتهم، وكذلك حشمهم ـ أي: خدَّامهم ـ لهم الحقُّ مثل مخدوميهم في اشتراء الرَّقيق وملك رقابهم، إلَّا أنَّ الرَّقيق له ميزة عَن العبد، فالعبدُ يمكن له أن يفتدي نفسَه مِن مالكه، بِخلاف الحشم فهم مُرتبطون بِخدمة ساداتِهم، لا حقَّ لهم في الفِداء ولا في المزار، ويسمَّى هذا النَّوع مِن الحشم: إيمراد » اهـ.

وختم فصله هذا بقوله: «فهؤلاء هم التوارق النبلاء الذين أراد الرائد (Duveyrier) ومَن نقلوا عنه فرض إعجابنا بهم » اهـ تعاليق الصحافي **روبير**.

وكل ما يمكننا أن نعقب به على ما ذكرناه وأثبتناه في هذه الدراسة، فيما يتعلق بالتوارق، الذين حظوا باهتمام كتاب وباحثين من مختلف الملل والنحل الذين خصصوهم بتآليف وبحوث لا تخلو من فوائد رغم مبالغة أصحابها، وقد تبين لنا أن مبالغة الرعيل الأول من الكتاب كانت تمليها عليهم الأفكار العقائدية أو العنصرية التي امتاز بها أصحابها، وقد استعملوها سلاحا لمحاربة العقيدة الإسلامية التي انتشرت في بلاد إفريقية وعجزت قبلها التيارات العقائدية التي اجتاحت هذه الربوع عبر تاريخها الطويل، ولهذا رأينا أنه بمجرد ما تقاسم الأوروبيون مناطق نفوذهم بإفريقية فتح الاستعمار العسكري العنصري أبواب التنصير على مصراعيه وفرق دعاته طول البلاد وعرضها لنشر مثالب العرب التي ركزوها على مسيرة بني هلال وصاروا يتقربون للبربر وبالخصوص للضعفاء منهم، بأنهم هم أقرب للمسيحيين والأوروبيين من العرب،

ولكن الحقيقة ولو حاولوا إخفاءها طغت وكشفت عن نواياهم، التي هي عكس ما كانوا يعلنونه ويظهرونه، ومن ذلك إظهار التوارق بأنهم أمة قديمة لها صلة بقدماء اليونان وأن تاريخهم يرجع إلى عهد نبتون (Neptune) إلـه البحر، وأن منطقة جبل الهجار نالها في قسمته، وهذه الآراء هي التي أفرغها الكاتب الفرنسي المعاصر بيير بونْوا في روايته الشهيرة أتلانتيد (Atlantide) [1]، وضمَّنها هذه الأسطورة وجعل (Antinéa) كناية عن ملكة الهجار القديمة، وقد رأينا الكاتب الفرنسي الذي تصدَّى لتفنيد هذه المزاعم وأقلع جذورها مستعينا ومستدلا بآراء دوفوكو الذي اعتنى بهذه القبائل ودرس تاريخهم وتاريخ لغتهم وحضاراتهم، وقد أماط اللثام عن آرائه الصحافي **كلود موريس بير**، وبيَّن انطباعاته عنهم، تلك الانطباعات التي شملت القبائل العربية والبربرية مِن سكَّان هذه المنطقة التي اصطبغ فيها سكَّانها بالصبغة الإسلامية، تلك الصِّبغة التي انتشرت عند معظم سكَّان إفريقية، وكانت حصانة حالت بينهم وبين اعتناق أيِّ عقيدة مستوردَة، وهذه الصِّبغة هي التي كانت محل عناية مِن طرف الباحثين الأوروبيِّين، ولا زالت آثارها إلى يومنا هذا، وعلى سبيل المثال نذكر أن مسيرة تدشين الطريق البرِّي الرابط بين شمال الجزائر والسنغال الذي أشرفت عليه قوافل الغرف التجارية بالجزائر ووهران وقسنطينة، وشارك فيها جلُّ السَّاسة من نواب برلمانيين ورجال الأعمال والشَّركات، وقد قام بتدوين مراحلها الكاتب الفرنسي (Eurgine Gruk) أوجين كريك، تحت عنوانين[2]: **(الجزائر في مهمَّة إلى النيجر)**، و**(من وهران إلى داكار على طريق تانزروفت)**، وقد قدم هذه الرحلة الطبيب قاسير (Gasser) عضو مجلس الشيوخ وعضو أكاديمية العلوم الاستعمارية، فتبنى بدوره آراء الكتاب الذين تقدم لنا ذكرهم، وفند مزاعمهم الصحافي

(1) Pierre Benoit de l'académie Française auteur " Atlantide " Edit Albin Michel Paris1920.

(2) l'Algérie en Mission au Niger.Oran à Dakar par le Tannez rauft " Par Engéne Gruk rédacteur du journal l'écho Oran Eritl Herning Oran 1927.

كلود موريس روبير، أثار الدكتور (Gasser) في تقديمه (**ماضي الصحراء**) مستدِلًّا بما نقله عن المؤرِّخَين الشَّهيرَين للعهد اليوناني والروماني، وهما: (Heradato) و(Platemée) **هيردوت، وبلوتيمي**.

أما مدوِّن (**الرِّحلة**) **أوجين كرير** محرِّر (**جريدة صدى وهران**) اليومية، فكان المرَّة بعد المرَّة يوقِفُه الجوُّ الدِّيني الإسلامي وآثاره، فيطلِقُ العنانَ لقلمه، ومن ذلك عندما وصلت القوافل إلى غاو (Gar)، وتحدَّث عن خرابها على أيدي التوارق ثم تجديد بنائها، تحدَّث بإسهابٍ عن مسجد أسقيا وتاريخ بنائه وما وجدوه من آثار على قبور أفراد الأسرة، وقبل وصول القوافل إلى **داكار** وقف بهم القطار بمحطة ديرودال (Diroudel) حيث كان شيخ الطريقة الكنتية الشيخ أحمادو بامبا البالغ من العمر إذ ذاك ـ أي: سنة 1926م ـ أربعا وسبعين سنة، كان ملزما بالإقامة الإجبارية فيها، وفي ديرودال هذه كان مسجد الشَّيخ الكنتي في الساحة العمومية، وكان قريب عهد بالبناء، فأثار مظهر فنِّه المعماري إِعجابَ أعضاء القافلة، وقال مدوِّن (**الرِّحلة**): «إن بناءه تكلَّف بنحوالعشرين مليون فرنك »، ثم تعرَّض إلى الطريقة الكنتية ابتداءً من ترجمة مؤسِّسها وانتشارها بالسنغال، ومواردها التي كانت على كاهل السكَّان، وهذا كلُّه يدلُّنا دلالةً واضِحة أنَّ الاستعمار الأوروبي ببلاد إفريقية لم تَشغله حالة البلاد والسكان في المجالات السِّياسية والاقتصادية فقط، بل كان الجوُّ الدِّيني الذي يعيش فيه السكَّان شغلهم الشَّاغِل، فهذه قوافل قادتها الغرف التجارية بولايات الجزائر إذ ذاك، وكانت مهمَّتها اقتصادية في وقتٍ كان الاستعمار تألَّق نَجمه وبلغ أوج العظمة والقوة، إلا أن مرورها على مركزَين دينيَين بـ: (**غاو** (Gaw) **وديرودال**) جعلاها تقف طويلا لتتبُّع أصولها وفصولها، ولم يقتصر مدوِّن (**الرِّحلة**) على تتبُّع أطوار هذَين المركزَين فقط، بل كان ذلك شأنه عند تسجيل تراجم الشَّخصيات الدِّينية التي تَرتبِط بالمناطق التي مرُّوا عليها، ولا زالت استِمرارية هذا الاهتمام إلى يومنا هذا، ومما يؤيِّد ما ذكرتُه فإنَّني عندما كنتُ بِصَددِ إعداد هذه

المحاضرة طالعتنا صحيفة (Le Monde) اليومية الفرنسية بعددها المؤرَّخ في 12 نوفمبر الشَّهر الجاري بِمقال لمراسل الجريدة مِن بلاد النِّيجر وعنوانه: (**الأزهر الجديد في الغرب الإفريقي**) استهله محرره الكاتب الفرنسي فيليب ديكران (Philippe de Craen) بإعطاء معلومات عن تاريخ قرية صاي(Say) التي تبعد عن ميامي قاعدة النيجر بنحو560 كيلومتر، فقال: «إن صاي قرية صغيرة على ضفَّة وادي النيجر الذي كان يسمِّيه الضُّبَّاط الفرنسيون: (**النيل الفرنسي**) »، وكان الداعي إلى حديث المراسل عن هذه القرية وجود ضريح أحد المشايخ المسلمين بالقرية وهو الشيخ ألفا محمان ديوبي (Alfa Mahamane Diobi)، وقد تعرَّض المراسل إلى ترجمة حياته ابتداءً من وروده على القرية سنة 1800 وأقام بها 9 سنوات وبها توفي وأُقبِر، وصار قبره من أعظم وأشهر المزارات، ثم قال الكاتب: «إن قرية صاي هذه مكانتها الدِّينية لا تقلُّ عن مكانة مدينة أَقْدَزْ (Agades) شرق البلاد بجمهورية النيجر »، وبعد أن تحدَّث عن ماضي مدينة صاي كمركز للدَّعوة الدِّينية المنتشرة عند جلِّ سكَّان البلدان المجاورة، قارن بينها وبين القاعدة الحالية ميامي التي كانت مَرسى بسيطا لصيد السَّمك، ولهذا كانت مدينة صاي هي التي تستحقُّ أن تكون قاعدة البلاد، ثمَّ تطرَّق إلى ذكر انطباعات كثير من الرَّحالين الأوروبيِّين الذين زاروا هذه البلدة، أمثال: الرحالة الألماني **هانريش بارت** (Heinrich Barth) الذي سجَّل انطباعاته عنها سنة 1853م، وكذلك الضابط الفرنسي **لويس مانتاي** (Louis Monteil) الذي زارها سنة 1902م، وكل هذا جعله تمهيدا لمدلول عنوان المقال وهو: «**أزهر المستقبل في الغرب الإفريقي** »، ودخل في صميم الموضوع فقال: «على بعد خمسة كلم خارج القرية وضع رئيس الحكومة **سايني كوتشة** (Seyni Koutcha) الحجر الأساسي لأزهر المستقبل: (Le Future Al-Azhar De L'ouest Africain)، وقد شُرِع في جمع التَّبرُّعات لبنائه، فبلغت التَّبرُّعات الأولى 17 مليون فرنك إفريقي، وقد ورد على البلدة جمع من المهندسين المصريِّين لتخطيط التَّصميم، كانت بداية التفكير في هذا المشروع ـ أي: بناء الجامعة الإسلامية ـ عند اجتماع القمَّة لرؤساء الدُّول الإسلامية في (**مؤتمر**

لاهور) سنة 1974م »، وختم الكاتب مقاله بقوله: «الله أكبر، فكلُّ شيءٍ هنا يمرُّ على طريق الإِسلام»اهـ.

ومما نقلناه من مختلف الباحثين الذين تناولوا تاريخ إفريقيا بصفة عامة، وتاريخ الهجار وسكَّانه التوارق بصِفَة خاصة، نجدهم متَّفِقين على أن سكَّان هذه المناطق كان تأثير الإسلام يتجلَّى في جميع تصرُّفاتِهم، خصوصا مقاومتهم للاستعمار السِّياسي والعقائدي، ورغم الجهود التي بذلت في المجالات السِّياسية والتَّاريخية لإِقناع سكَّان التوارق أنَّهم ينتَمون إلى فصيلة بشرية تنتمي إلى حضارة قديمة لها صِلة تَربطها بالأُمم الأوروبية منذ آلاف السِّنين، فقد ارتطَموا بالواقع الذي أثبتَ لهم أن التوارق رغم الخِلافات التي كانت تفرِّق بينَهم وبين كثير مِن جيرانهم الأَفارقة مما جعل تسلسُل الحروب مُستمِرًّا بينهم، ومع هذا كلِّه فهم جزء لا يتجزَّأ مِن سكَّان إفريقية المسلمين، وإن كانت لهم ميزات في العوائد والأخلاق ونظم الحياة اليومية فهم لا يقِلُّون إيمانا وغيرةً إسلامية على بقيَّة مُواطنيهِم، وإنَّ الإسلام الذي طبعهم بهذا الطابع العميق الجذور لم يكن مجرَّد دعوة كثيرا ما يستجيب لها الناس رغبا أو رهبا، بل الدَّعوة الإسلامية التي انتشرت في هذه الرُّبوع هي الدَّعوة الإسلامية الصَّحيحة التي وصلت عن طريق الفاتحين الأوَّلين في عهد عقبة بن نافع الفِهري، وتَوارثَها الدُّعاةُ خلفا عن سلف إلى أن جدِّدت في عهد دولة المرابطين اللمتونيِّين، ثم رعاها وجدَّدها بعدهم زعماء الإسلام الذين وصفَهم القرآن بالصِّدق والوفاء بالعهد عند قوله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: 23)، وكان مِن جملة هؤلاء الدُّعاة المجدِّدين آل أسقيا الذين ذهب عميد أسرتهم إلى الحجِّ واجتمع بالخليفة العباسي، وبعد رجوعه جمعَ في قصره ثلَّة مِن العلماء، أمثال: عبد الكريم المغيلي التِّلمساني بطل قضية يهود توات، إلَّا أن نشاطات آل أسقيا لم يرتَح لها ملوك المغرب الأقصى إذ ذاك، فلهذا أرسل الملك السَّعدي محمد الشيخ إلى الملك إسحاق أسقيا الذي كان تحت تصرُّفه السودان والنيجر

وغينيا...الخ، فطلب منه تمليكه معادن الملح بتزغا، فعندئذ جهَّز إسحاق أسقيا الأول جيشا مِن التوارق يتركَّب من أَلفَي فارس، فلم يسَع الملك السَّعدي محمد الشَّيخ إلا التَّغافل عَن طلبه، وفي عهد الملك أحمد المنصور الذَّهبي الذي تهيَّأ لغزو بلاد قورارة وتوات، فاغتنم تلك الفرصة لإرسال سفراء إلى الملك إسحاق أسقيا محمَّلين بالهدايا، طالبا منه إعانته بضريبة على الملح في شكلِ المساهمة في الدِّفاع عن ثغور المغرب المهدَّدة مِن طرف البرتغاليِّين، وفي عهد إسحاق الثاني جمع المنصور الذهبي قادةَ جيشه وأَطلعَهم على نواياه في غزو السُّودان، فحينئذ أجابته أغلبيتهم بأنَّ محاولته هذه محفوفة بالمكاره، إذ بلاد السودان بلاد إسلامية مستقِلَّة، ولكنه أصرَّ على رأيه ونفَّذه.

تناول هذه الأحداث كثير مِن المؤرِّخين، واتَّفقوا كلُّهم على أن هذه المحاولة لم تَنجح، وباءت بالفشل، وكلَّفت الملك أحمد المنصور خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد، ومن الناحية المعنوية لازال المؤرِّخون يعدُّونها مِن هفوات أحمد المنصور الذي امتاز بكثيرٍ مِن السَّجايا، وسجَّلوا هفوتَه هذه التي كان مِن جملة ضحاياها العلامة أحمد بابا التنبكتي صاحب التآليف العديدة، والمواقف الشَّريفة، الذي وإن نقله الملك إلى بلاطه وعاش في جوٍّ من التَّقدير والتَّمجيد بعاصمة المملكة إذ ذاك مدينة مراكش، فأفاد واستفاد، وأخذ عنه جلَّة علماء عهده، ومن بينهم أحمد المقري التِّلمساني صاحب كتابي: (**نفح الطيب**)، و(**أزهار الرياض**) الذين كتِبَ لهما الخلود.

ومما عابه المؤرِّخون على الملك أحمد المنصور في غزوته على السودان أنه أسند قيادتها إلى المرتزقة الإسبانيِّين الذين عاثوا في الأرض فسادا، ورغم جنوح إسحاق الثاني ملك السودان إلى الصلح وتعهُّده بدفع 40 ألف دينار ذهب وعشرة آلاف أسير وضريبة سنوية، وقبول المملوك جوذار وقائد الحملة لذلك مؤيِّدا إجابة رغبة السودان، أصرَّ الملك ورفض وتجدَّدت الحرب بين المعسكرَين، فقُتِل الملك السوداني في إحدى المعارك، وفقد جيش الملك الذَّهبي كتائب جيشه، وبلغ خبره إلى الملك إلَّا أنه أمر بإظهار معالم

الزِّينة والفرح للانتصارات التي أحرزَ عليها جيشه، وهي انتصارات تبيَّن أنها مزيفة.

والخلاصة أن التَّعاليم الإسلامية التي دان لها سكَّان هذه المناطق الإفريقية وحافظوا عليها ثم أورثوها الأبناء والأحفاد، بعد أن دافعوا على مبادئها دفاع الأبطال المستميتين هي التعاليم التي وصلتهم على طريق الدعاة أمثال أئمة المرابطين اللمتونيِّين وآل أسقيا الذين توارثوا ممالك هذه المناطق قرونا، والتنبكتيين الذين كان من بينهم الإمام أحمد بابا والكنتيِّين، فهذه هي التعاليم التي أثمرت الثمرة الطيبة، لا غزوات السلاطين والملوك الذين كانوا يتخذون بعض غزواتهم تغطية للتوسع والنهب، فأساؤوا إلى سمعة الإسلام.

هذا وإنني في هذه الدراسة التي ركزتها على صفحات من مقاومة هذه البلاد للاحتلال الأجنبي في أوائل القرن الجاري، واعتراف الكتاب الأوروبيِّين أنفسهم بعجزهم على التغلب على معنويات سكان هذه المناطق فهي شبه تمهيد للملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي الذي سينعقد في هذه البلدة ـ إن شاء الله تعالى ـ ويشارك فيه جلَّة علماء البلاد وخارجها، فيتناولون تاريخ هذه المنطقة مِن شتَّى النَّواحي بتفصيل، ولنختم دراستي بِقَول الحكيم المسلم: «ما كان لله دامَ واتَّصل، وما كان لغير الله انقطعَ وانفصَل».

المهدي البوعبدلي

جوانب من تاريخ بونة
الثقافي والسياسي عبر العصور[1]

اشتهرت هذه المدينة ابتداءً من القرن الرَّابع قبل الميلاد، في عهد المملكتين البربريتين اللَّتين تقاسمتا بلاد (الجزائر)، وقد عُرفتا في التَّاريخ باسم: ماسيسيل وماسيل (Massessyles et Massyles)، فالأولى كانت تطلق على المنطقة الغربية وكانت عاصمتها مدينة (سيق) التي تبعد عن مرسى أرشقون، حيث مصبُّ نهر تافنا في البحر الأبيض المتوسط (تلمسان)، والثَّانية كانت عاصمتها (سيرتا)، مدينة (قسنطينة) الحالية، وكثيرا ما كانت تتَّخِذ بونة مقرًّا لملوك هذا القطاع، ولهذا احتفظت بونة من ذلك العهد بمركزها الدِّيني حيث اتخذتها الكنيسة المسيحية مركزا ثانيا بعد مركز قرطاجنة [2].

كانت بونة إذ ذاك تدعى بـ (هيبو ريجيوس)، (Hipoo Régius) وكان الملك البربري الذي تولى عليها قاية (والد ماسينيسا) المشهور بحروبه مع القرطاجنيِّين.

إن موضوع دراستنا الذي ركَّزنا عليه هو العهد الإسلامي، وإنما تعرَّضت لفترة ما

---

(1) مجلة الأصالة، العدد 34/ 35، ص206-221، جمادي الثانية- رجب 1396هـ/ جوان - جويلية 1976م.

(2) (l’Algérie dans l’antiquité , par Mahfoud Kaddache)
طبع ونشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

قبل الإسلام كتمهيد، حيث إنَّ تاريخها الإسلامي مرتبط به، إذ اشتهرت من أواخر القرن الرابع الميلادي بأسقفيتها التي لعبت دورا ملموسا في تطور الديانة المسيحية العالمية، فقد أضفى عليها أحد أساقفتها شهرة عالمية، ويعد هذا الأسقف أعظم شخصية علمية، تأثرت الحياة الفكرية المسيحية بشخصيته إلى زماننا هذا، إذ لازالت تآليفه من أهم المراجع في القضايا الدقيقة، كان هذا الأسقف من مواليد سوق أهراس ، وبالضبط مداوروش، وتثقف ثقافة عميقة بمسقط رأسه، ثم بقرطاج وروما، فأتقن عدة لغات، منها الفينيقية واليونانية والبربرية واللاتينية، وانتشرت تآليفه العقائدية في الأوساط المسيحية بروما وقرطاج، ومعظم تآليفه، كتبها بكنيسة بونة، التي كان يشغل فيها إذ ذاك رتبة مساعد لأسقفها الهرم، ثم خاض غمار حروب الخلافات المذهبية التي كانت تتقاسم مسيحيي ذلك العهد، فأظهر عبقريته وقوة حججه، حتى عد شخصية فذة، لم تنجب الكنيسة المسيحية شخصية تضاهيه، ولهذا كله، اشتهرت بونة (هيبون) باسم أسقفها حتى بعد مضي قرون من الفتوحات الإسلامية، ومن ذلك أن الجغرافي الأندلسي الشهير، أبو عبيد البكري عندما عرفها في منتصف القرن الخامس الهجري قال: «مدينة بونة أولية، وهي مدينة أوغوستين العالم بدين النصرانية ... الخ »، فأوغستين هو اسم سانت أوغستين (Saint Augustin) .

افتتح المسلمون بونة [1] على أصحِّ الأقوال سنة 78 هـ، في أيام حسان بن النعمان وكان سكانها الأصليون إذ ذاك ينتمون إلى قبائل أورية ومصمودة، ونفزاوة وولهاصة، وقد ملكها بنو الأغلب والفاطميون، إلا أنها كانت مدينة بسيطة كما عرفها ابن حوقل في منتصف القرن الرابع في كتابه: (**المسالك والممالك**) فقال: «مدينة بونة مدينة مقتدرة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة، وهي على نحر البحر، ولها أسواق حسنة، وتجارة

---

(1) دراسة محمد بن شنب نشرها في (**التقويم الجزائري**) لسنة 1331هـ/ 1913م .

مقصودة وأرباح متوسطة، وفيها خصب ورخص موصوف، وفواكه كثيرة وبساتين قريبة وأكثر فاكهتها من باديتها ... وبها معادن حديد كثيرة ويزرع بها الكتان ...».

ثم يتعرض ابن حوقل إلى مركزها السياسي فيقول: «... ولها عامل قائم بنفسه ومعه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة، وبها وجوه من التجارة، كالصوف، والأغنام، وبها من العسل والخيرات ما يزيد على من داناهم من البلاد المجاورة لهم، وأكثر سوائمهم البقر، ولهم إقليم واسع ... الخ »

فتعريف ابن حوقل صريح بأن بونة التي تداول على حكمها إذ ذاك بنو الأغلب، ثم الفاطميون، كانت إلى أواخر القرن الرابع بلدة متوسطة.

وقد عرفها بعد ابن حوقل أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي (375 هـ/ 985م) في كتابه: (**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**) فقال: «... وبونة بحرية مسورة بها معدن حديد، شربهم من آبار ».

وقد عرفها، بعد تعريفه بمرسى الخزر مباشرة فقال: «... ومرسى الخزر مدينة في جزيرة على البحر يدخل إليها من موضع واحد ومنها يرتفع المرجان لا معدن له غيرها، ولا يخرج إلا من بحرها ».

تمصرت بونة وازدهرت في عهد الملك المعز بن باديس، في أوائل القرن الخامس لما أقطعها إلى عم أبيه، زاوي بن زيري بن مناد، بعد وروده عليها من الأندلس حوالي 410 هـ.

هاجر زاوي كما هو مشهور من الجزائر إلى الأندلس بعدما شارك في تمرد أخيه ماكسن بن زيري على قريبهم المنصور بن بلقين، الذي خلف والده بلقين، وقد تصدى لقمع الثوار حماد بن بلقين، فقتل ماكسن، ونجا زاوي من القتل، إلا أنه أبعد إلى

الأندلس صحبه ابني أخيه ماكسن، وقد قام بدور خلد ذكره في الأندلس وفي العالم الإسلامي، حيث تزعم حركة الجيش البربري عند سقوط الدولة الأموية بالأندلس.

وتولى حكم ما عرف بمملكة غرناطة التي كان أول مؤسسيها وبعد ما بلغه موت ابن أخيه المنصور بن بلقين، اختار الرجوع إلى البلاد بعد أن عين ابني أخيه ماكسن وهما حبوس وحباسة على حكم غرناطة، وبعد وصوله إلى إفريقية، تلقاه المعز بن باديس بحفاوة بالغة، تعرَّض لها كل مؤرخي تلك الفترة ولازال المؤرخون المعاصرون، يستدلون بها على ما وصلت إليه الحضارة الزيرية إذ ذاك، قيل: إن المعز بن باديس أقطع لزاوي مدينة بونة التي اختارها للراحة والاستجمام، ومن ذلك العهد صارت تعرف ببونة زاوي كما عرفها البكري، ذلك التعريف الذي لازال مرجع الباحثين في تاريخ بونة من مسلمين وأجانب، وهذا تعريف البكري لبونة بتمامه قال: «مدينة بونة أولية، وهي مدينة أوغستين العالم بدين النصرانية، وهي على ساحل البحر في نشر من الأرض، منبع مطل على مدينة سبوس، وتسمى اليوم مدينة زاوي، وبينها وبين المدينة الحديثة، نحو ثلاثة أميال، ولها مساجد وأسواق، وحمام ،وهي ذات ثمر وزرع، وقد سورت مدينة بونة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة، وفي بونة الحديثة بئر على ضفة البحر، منقورة في حجر صلد، يسمى بئر النثرة، منها يشرب أكثر أهلها، وبغربي هذه المدينة ماء سائح يسقي البساتين، وهو مستنزه حسن، ويطل على بونة جبل أدوغ، وهو كثير الثلج والبرد، ومن العجائب أن فيه مسجدا، لا ينزل عليه شيء من ذلك الثلج، وإن عم الجبل كله، ومدينة بونة برية بحرية، كثيرة اللحم واللبن، والحوت والعسل، وأكثر لحمانهم البقر، إلا أنها يصح بها السودان، ويسقم البيضان، وحول بونة قبائل كثيرة من البربر، مصمودة، وأوربة وغيرهما، وأكثر تجارها أندلسيون، ومستخلص بونة غير جباية بيت المال عشرون ألف دينار » اهـ .

فمن هذا التعريف المسهب، يتبين أن بونة زاوي، التي وصفها البكري بأنها في سفح هيبون، وعرفت بـ : سيبوس، هي التي قال عنها، بأنها تحتوي على المساجد والمحلات التجارية والحمامات، ثم هناك المدينة الحديثة، التي قال عنها البكري أن بينها وبين مدينة زاوي ثلاثة أميال وهي المدينة الحالية، التي لازلت باقية، إذ الأولى هيبون احتفظت بآثارها المسيحية في عهد الاحتلال، والثالثة التي أطلق عليها البكري في تعريفه بونة الحديثة، هي التي كتب لها الخلود.

لعبت بونة أدوارا في التاريخ، إ ذ كانت مرفأ للأساطيل التجارية والحربية بفضل موقعها الجغرافي، إذ هي أقرب شواطئ إفريقيا لـ : كافلياري(Cagliari) بـ (سردينية) التي كانت مركزا لأساطيل جنوب إيطاليا وغيرها من أساطيل المسيحيين، وهذه الأساطيل كانت متصلة بها في أزمنة السلم والحرب.

كان المعز بن باديس الذي دامت دولته حوالي نصف قرن أي من 406 إلى 453 هـ على أصح الروايات، بلغت مملكته أوج الرقي والعظمة والازدهار، حتى إن ابن خلدون المشهور بتحفظه، وصف هذه المملكة في عهد المعز بن باديس بقوله: «كان أضخم ملك عرف للبربر بإفريقيا وأترفه وأبذخه ... الخ ».

وبطبيعة الحال كانت بونة إذ ذاك من المدن الرئيسية لمملكة المعز، التي لاشك أنه اعتنى بها عناية خاصة، ترضية لعم والده زاوي، الذي زيادة على أواصر القربى نال شهرة البطولة والمجد في الأندلس، بقيت بونة تابعة لبني زيري عندما تقاسموا مملكتهم مع أبناء عمهم بني حماد، حوالي سنة 408هـ/ 1017م .

كان المعز بن باديس كما وصفه الكاتب الشهير أمية بن أبي الصَّلت الداني الأندلسي الذي قال فيه: «ولم يكن أحد في زمانه أشد بأسا في الملاحم، ولا أطول يدا بالمكارم، ولا أغنى بلسان العرب، ولا أحنى على الأدب ... وكان متوقِّد الذِّهن، حاضر الخاطر،

حاذقا بطرائق الألحان، عالما بالمنثور والمنظور من الكلام ...»[1].

وقال فيه ابن خلدون: «كان رقيقا رفيقا، سمحا جوادا، محبا للعلم وحامليه، متجنبا لسفك الدماء، حليما حسن الصحبة والعشرة، لين الجانب للأوداء، خشنه للأعداء، ملك من برقة إلى فاس، وسكن الثوار بإيناس منه وإيساس، وكان يخضع لأحكام الشَّرع ... الخ »[2].

ولهذا نجد بونة ازدهرت في عهده وتدفق عليها سيل من علماء البلاد والأندلس، إذ صادف عمرانها خراب عاصمة القيروان، التي خلفت مكانتها قلعة بني حماد، ثم بجاية والمهدية، كان من جملة اللاجئين الأندلسيين الذين استوطنوا بونة أبو عبد الملك مروان بن علي الأسدي القطان القرطبي المعروف بالبوني، ذلك العالم الذي اشتهرت به بونة الحديثة، كما اشتهرت بونة العتيقة (هيبون) بـ (سانت أوغستين) (Saint Augustin)، اشتهر أبو عبد الملك مروان بعلمه وتآليفه ومساهمته في ثورة الفقهاء التي كان جل أفرادها بإفريقية زملاءه خريجي مدرسة أبي الحسن الفاسي، تلك الثورة التي خصصت بعدة تآليف ولا زال معينها لم ينضب بعد .

اشتهرت بونة أيضا في تاريخها المبكر، بأنها من الثغور التي أنشئت فيها الربطة إذ كان ساحلها معرضا للغارات البحرية التي كان يشنها عليهم المسيحيون من جنوبي إيطاليا وسردينيا ثم صقلية، ولهذا لا نستغرب وجود المسجد التي تحدث عنه البكري وقال إنه في قمة جبل إيدوغ .

ورباطات الثغور كانت ملازمة للمساجد، ونفس مسجد أبي مروان، كان له رباط

---

(1) **الورقات** (ج 2) لـ : حسن حسني عبد الوهاب التونسي.

(2) من دراسة لعبد العزيز الراجكوتى السلفي الأستاذ بالكلية الشرقية في لاهور (باكستان)، نشر مطبعة «**الاستقامة**» بمصر.

من أروع الرباطات في الفن المعماري والحربي، وقد اهتم بدراسته كثير من علماء الآثار، وصلنا منها دراسة علمية قيمة لجورج مارسي (George Marcais)، صاحب التآليف المشهورة في الفن المعماري الإسلامي بإفريقية عامة، وعهد بني زيري وآثار المعز بن باديس بالخصوص، خصص مارسي دراسة عنونها بقوله: «جامع سيدي بومروان ببونة» [1].

فبعد أن أعطى لمحة عن المسجد الذي هدم منه الكثير، استعرض نقل وصف كثير من الباحثين، الذين أمكنتهم مشاهدته قبل تخريبه، فكان من بين من ذكرهم، الرحالة الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي (Léon l'Africain) الذي زار بونة في أوائل القرن العاشر الهجري، ثم الكاتب بيصونال (Pyssonnel) الذي زارها سنة 1725، ثم الكاتبان: ويلد، ولصور، اللذَين زاراها سنة 1835م، وأخيرا الكاتب الأثري بربروقجير (Berbrugger) الذي وصف المسجد والرباط سنة 1843، وكل هؤلاء الباحثين نشروا صورا تدلُّ على عظمتها، حتى إن بيصونال (Peyssonnel) قال: «إن أحسن مبنى ببونة هو مسجد أبي مروان »، وختم مارسي مقاله بعد أن وصف بتدقيق وتفصيل ما تبقَّى من آثاره، وختم حديثه عنه بقوله: «إن هذا المسجد كان من أفخر المباني التي احتفظت بها الجزائر من ماضيها المجيد، إذ هو عبارة عن مسجد للعبادة، ورباط للدفاع الوطني ».

ثم واصل مارسي حديثه عن المسجد والرباط فقال: «إن الوصف الفني للمسجد يمكننا من تحديد تاريخ بنائه، ولهذا فإن ما ذكره أحمد البوني [2] المؤرخ المحلي يتفق مع الواقع، ففي تأليفه (**الدرة المكنونة**) قال: «إن بناء المسجد وقع سنة 425هـ/ 1033م،

---

(1) Mélanges Willian Marçais» Edit, Maisinneuve; paris 1950

(2) أحمد بن قاسم ساسي البوني (1063- 1139 هـ).

بناه رجل صالح يدعى أبو الليث[1] المتوفي سنة 450هـ/ 1058م ».

ثم واصل مارسي حديثه فقال: «أما سيدي أبو مروان الذي لازال المسجد يحمل اسمه، فقد ورد على بونة سنة 489هـ/ 1087م، وقد توفي أبو مروان سنة 505هـ/ 1111م » [2] .

ثم ذكر مارسي أن هذه الفترة من تاريخ البناء تتفق مع مدة حكم الملك المعز بن باديس (1016 ـ 1062)، ثم استرسل في حديثه فقال: «... ذكر ابن خلدون أن البربر كونوا مملكة في ذلك العهد، لم ير لها مثيل في السعة والغنى، وقد توقفت عجلة تاريخ هذا الازدهار بعد عشرين سنة مع الحملة الهلالية، ثم قال: «إن الخلافات وحروب الزيريِّين ملوك القيروان مع بني عمهم بني حماد ملوك القلعة وبجاية، انتهت بالاتفاق الذي وقع سنة 1017م/ 408هـ، ذلك الاتفاق الذي اعترف للحماديِّين بحكم الناحية الغربية للمملكة، بقيت بونة إذ ذاك تابعة لبني زيري أي المعز وبنيه من بعده » اهـ .

والحقيقة أن حكم بني زيري لم يطل على بونة، ففي عهد المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي، لما ثار عليه عمه بالبار ولى قسنطينة ثم عزله المنصور، وعين مكانه قريبه، أبا يكنى بن محمد بن القائد بن حماد، وأضاف إليه بونة، وهذا دليل على أن بونة كانت تحت حكم الحماديِّين إذ ذاك، ثم ثار الوالي الجديد، أي أبو يكنى والي بونة على المنصور حوالي سنة 487هـ / 1094م باتفاق مع تميم بن المعز بن باديس الذي أرسل له لإعانته ولده أبا الفتوح وتبين بعد ذلك، أنهم كانوا على اتفاق مع دولة المرابطين، ولولا يقظة المنصور بن الناصر لأودَوا بالدولة الحمادية الناشئة، إلا أن المنصور كان

(1)ذكره أحمد ساسي في قائمة علماء بونة وهو دفينها: **(الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة)**

(2) وقد غلط مارسى حيث أن أبا مروان ولد سنة 405 هـ، وتوفي ببونة سنة 440 أو قبلها بقليل **(الصلة)** لابن بشكوال.

مستعدا للطوارئ، فهاجمهم وحاصرهم ببونة سبعة أشهر، وألقى القبض على أبي الفتوح بن تميم ابن المعز بن باديس، وفر أبو يكنى بن محمد بن القائد بن حماد، ورجع لمقر ولايته بقسنطينة، إلى أن قبضه المنصور وقتله، ثم ولى المنصور وجهته إلى الملك يوسف بن تاشفين وهزمه في معركة تاسالة ودخل تلمسان، وذلك في سنة 498هـ/ 1105م.

فتبين مما ذكر، أن بونة لم تطل تبعتها لحكم بني زيري، بل استرجعت في عهد المنصور بن الناصر، وبقي الحماديون يتداولون حكمها إلى أن احتلها عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين، وقضى على الدولتين، أي: الحمادية والزيرية في آن واحد، بدليل أيضا أن الموحدين لما ملكوا بجاية فر منها ملكها يحيي بن العزيز الحمادي إلى بونة التي كان أخوه الحارث بن العزيز متوليا عليها، فأنَّبه على عدم دفاعه على بجاية فارتحل يحيي من بونة إلى قسنطينة، وكانت تحت حكم أخيه الثاني الحسن، وانتهى الأمر بمبايعة يحيى بن العزيز لعبد المؤمن سنة سبع وأربعين، ونزل عن قسنطينة، واشترط الأمان لنفسه، فوفَّى له عبد المؤمن، ونقله إلى مراكش فسكنها، ثم انتقل إلى سلا سنة 558 هـ، فسكن قصر بنى عشرة إلى أن هلك في سنته أي 558 هـ.

وأما الحارث بن العزيز حاكم بونة، فإنه رفض الاستسلام لعبد المؤمن، وفرَّ إلى صقلية مستصرخا صاحبها، فوعده بالعون وبعد رجوعه إلى بونة، غلبه الموحدون وقتلوه صبرا وانقرض ملك بني حماد ببونة لا ببجاية » اهـ.

ولنرجع إلى دراسة مارسي، فبعد أن بينا أن بونة انتقلت من حكم بني زيري في عهد تميم بن المعز، وبقيت تحت حكم بني حماد إلى أن لفظت دولة بني حماد أنفاسها فيها، لا في بجاية عاصمة المملكة، ثم ذكر مارسي موقع بونة معتمدا في ذلك على تحليل تعريف البكري فقال: «إن البكري الذي تحدث عن بونة ذكر ثلاثة مواضع:

1) المدينة التي اشتهرت بأغستين العالم المسيحي الشهير، فهذه المدينة جبلية طريقها وعر.

2) المدينة الثانية في سفحها وهي مدينة سيبوس، التي تحتوي على المساجد والمحلات التجارية والحمامات، وهي المعروفة بمدينة زاوي، وقد علق دوصلان[1] في ترجمته لكتاب البكري على كلمة زاوي فقال: «إن المقصود منه هو زاوي بن زيري أحد أعمام المعز، رجع من غرناطة ولقيه المعز بحفاوة وأقطعه بونة».

3) بونة الحديثة التي قال عنها البكري: «إنها تبعد عن مدينة زاوي بنحو ثلاثة أميال وهي المدينة الإسلامية الآن».

ثم استرسل مارسي في دراسته وقال: «فمن هذا يتبين أن هذه المدينة أي الإسلامية الحالية، هي التي بعد الأولى، التي هي هيبون، والثانية التي اكتشف آثارها الأثريون وهي سيبوس أو مدينة زاوي بن زيري»، ثم شاءت الأقدار أن بونة لم تنتفع بتحصينها بحرا وبرا، فقد قال الإدريسي: إنها فقدت مكانتها، وازدهارها حيث استولى العربان على سهولها، وسقطت المدينة في يد **روجار** الثاني، ملك صقلية النصراني وذلك سنة 1153م.

ثم ختم مارسي دراسته بهذه الجملة التي قال فيها: «وقد أمكن لهذه المدينة جمع الآثار الوثنية، والمسيحية، ثم الآثار الإسلامية، الدالة على إشعاع الفن الإسلامي الإفريقي» اهـ.

اشتهرت بونة أيضا بمركزها الاقتصادي فهي علاوة على معدنها الحديدي، كانت بقربها مرسى مدينة الخزر التي قال عنها الشريف الإدريسي في (**نزهة المشتاق**): «وهي

---

(1) دوصلان Deslane ترجمان عسكري كان في ديوان الوالي العام بعد الاحتلال، وترجم عدة كتب منها تاريخ ابن خلدون، والمسالك والممالك للبكري.

مدينة صغيرة، عليها سور حصين، ولها قصبة، وحولها عرب كثير، وعمارة أهلها لها على صيد المرجان، والمرجان يوجد بها كثيرا، وهو أجل جميع المرجان الموجود بسائر الأقطار، مثل ما يوجد منه بمدينة سبتة، وصقلية، ويقصد التجار من سائر الأقطار هذه المدينة، فيخرجون منه الكثير إلى جميع الجهات، ومعدن هذا الجوهر في هذه المدينة مخدوم في كل سنة، ويعمل به في كل الأوقات الخمسون قاربا »، ثم يتعرض الإدريسي بمزيد من البيان والتفصيل لكيفية صنع هذا المرجان ... الخ.

هذه نبذة ذكرناها من التاريخ السياسي والاقتصادي لهذه المدينة في العهد الإسلامي، وقد استرجعت مكانتها في العهد الحفصي حيث كانت تتقاسم ولايتها نخبة الأمراء الحفصيِّين مع قسنطينة وبجاية، وكثيرا ما كان يتولى ولاتها على المملكة كلها ابتداءً من مؤسس الدولة الحفصية أبو زكرياء الذي مات بها، ودفن في ضريح مسجدها الأعظم، وببونة أيضا بويع ولده المستنصر بالله، الذي هو أمثل ملوك الدولة الحفصية، وخصه ابن خلدون بدراسة لم يحظ بمثلها غيره.

ولا يمكننا تتبع تاريخ هذه الفترة، ولا فترة العهد التركي، وإنما نذكر نبذة من تاريخها الثقافي ثم نختم هذه الدراسة بلقطات من عهدها بالاحتلال الفرنسي.

فتاريخها الثقافي يظهر أنها لم تخل من استيطان نخبة فطاحل العلماء، ابتداءً من القرن الخامس، أي من عهد أبي مروان حسبما نجده في كتب التراجم، وفي التأليفَين القيمين اللذين خصَّصهما علي فضلون لتراجم علمائها ـ كما ذكرنا ـ ابتداءً من القرن الخامس إلى القرن التاسع، ثم واصل هذا التاريخ أحمد ساسي البوني من القرن التاسع إلى منتصف القرن الثاني عشر، وهذان التأليفان من التاريخ الجهوي، فالأول نثر والثاني نظم، وقد شرح أحمد ساسي تأليفه، إلا أنه لم يصلنا مع الأسف إلا تأليف أحمد ساسي البوني (1063 ـ 1139هـ) (**الدُّرَّة المصونة في علماء وصلحاء بونة**)، وكانت تحتوي على

3000 بيتا، ثم اختصرها في ألف بيت، وعُرفت بالألفية، وقد استوعب فيها تأليف مواطنه علي فضلون الذي أنهاه بتراجم علماء القرن التاسع.

وأحمد ساسي هذا من أكابر علماء عهده، فقد ترجمه العالم الذائع الصيت عبد الرحمٰن الجامعي الفاسي في رحلته: (**التاج المشرق الجامع لمواقيت المغرب والمشرق**)، إذ زاره بمحله سنة 1120هـ، وأقام عنده مدة قال فيها: «لما دخلناها ـ يعني بونة ـ أممت دار الشيخ الرباني، العالم العرفاني الولي الصالح، البر الناجح، أبي عبد الله قاسم بن الولي الصالح أبي عبد الله محمد المعروف ساسي، فوجدته طلق المحيا، وأنزلني بمنزل لإكرام أضيافه مهيا، فأقمت عنده ينزهني في كل يوم في رياض تآليفه الحديثة وغيرها، وينثر علي كل ساعة من فوائد فوائده ما تبخل به على الغائصين قعور بحرها، وكنت أحضر تلك المدة مجلس رواية الصحيحين بين يديه، من مشايخ بلده وولديه، ومما رويته عنه فسح الله أجله وأسهب، (وإن تآليفه بلغت ما ينيف على المائة ما بين مختصر ومسهب)، ولما وقفت في علم الحديث على البحر العباب، والعجب العجاب، سألته الإجازة فيما وقفت عليه وغيره مِن تصانيفه ...» اهـ [1].

وقد أفرد أحمد ساسي البوني تآليفه في كتاب سماه: (**التعريف بما للفقير من التآليف**)[2]

ومنهاج المؤلِّف في (**الدُّرَّة المصونة**) أنه بعد أن ذكر العلماء الذين ذكرهم علي فضلون في تأليفه ـ أي: من القرن الخامس إلى القرن التاسع ـ ألحَقَ بهم علماء القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر، وابتدأ بعلماء البلدة، ثمَّ ضواحيها، ثمَّ الواردين عليها شرقا وغربا، استهلَّ منظومته بقوله:

---

(1) «**تعريف الخلف برجال السلف**» (ج 2) لأبي القاسم الحفناوي.

(2) ذكره أيضا أبو القاسم الحفناوي في: «**تعريف الخلف برجال السلف**».

يقول راجي عفو ربٍّ راحم   من كل ذنب أحمد بن قاسم
ابن محمد ابن المسيتي   ثم التميمي بلا تنكيت

ثم يقول:

لذاك رام مني بعض الأذكياء   توسلا بذكر بعض الأزكياء
فجئته بدرة مصونة   ذكرت فيها أوليا بونة
لكن بلا طول ولا تاريخ   لضيق نظم بهم صريخي

إلى أن يقول:

وأستعينه على الفية   بذكر بعض مجدهم وفية
وربما سمحت القريحة   في بعضهم بنبذة صريحة
طالبها مسافر وذو عجل   زودته به وإني في خجل
ومن يرد زيادة كثيرة   فلينظر المنظومة الكبيرة
عددها كبيعة الرضوان   تسلي عن الإخوان والغواني

إلى أن يقول:

وقد أردت ذكرهم تفصيلا   لكي أنال بهم تحصيلا
حواهم جمع (علي فضلوني)   لآخر التاسع من القرون
ثم أتيت بالذين بعده   أرجو بهم تفريج كل شده
من عاشر القرون والحادي عشر   وفي البلاد ذكرهم قد انتشر
قد عرفوا بعلم أو صلاح   وربنا المسؤول في الفلاح
بعدهم أذكر أهل الزمن   من كان في البلد أو في الوطن
أو دخل البلد أو شيخا لنا   حل يفرج الكريم هولنا

بشـرط أن كـانوا لعلـم درسـوا   أو لصلاح نسبوا مـا اندرسـوا

بيَّن أحمد ساسي منهاجه في المنظومة التي وإن كانت من قسم التاريخ الجهوي الذي انتشر في الجزائر ابتداءً من القرن التاسع الهجري، فهي مزيج بين التاريخ والاستغاثة، وهذه الأخيرة وإن كان جل أصحابها يفرغونها في قالب دعاء وابتهال إلى الله ويدعون الله لينتقم من ظالميهم، وقد انتشرت في الجزائر، ابتداءً من القرن التاسع الهجري، إلا أنها مفيدة جدا من حيث تاريخ البلاد الجهوي، وبعض هذه المنظومات يذكر فيها أصحابها العلماء والصالحين لمجرد التبرك بهم، وأحمد ساسي صريح بأن منظومته قصد بها أيضا الاستغاثة حيث قال:

ثــم أتيــت بالــذين بعــده   أرجـو بهـم تفـريج كـل شـده

وقد قسَّم (**المنظومة**) إلى أبواب وفصول: «الباب الأول في ذكر علماء وصلحاء بونة (حرسها الله تعالى) آمين، الذين ذكرهم العلامة المؤرِّخ سيدي علي فضلون البوني ممن كان في البلد أو قريبا منه »:

أسـأل ربي الحفـظ والإتقـان   بالعـارف القطـب أبي مـروان

نـور القلـب شـارح الموطـا   وبـين أهـل العلـم مـا تغطـى

وقـال بعـض شراح البخـاري   ولـيس ذا بعجـب يـا قـاري

ذكـره عيـاض والخلـواني   وابـن سـليمان أبـا خـلاني

وأما إشارته إلى مكانة مترجميه وإنتاجهم، فهذا نموذج منها، فذكر أحد مترجميه ابن رحمون بأنه رحل إلى تلمسان وأخذ عن الإمام ابن مرزوق وفي ذلك قال:

وبـابن رحمـون أي الفضـلى   محمـد المعظـم الجـلى

وهو الذي رحل لابن مـرزوق   أخذ عنه العلم فهـو مصـدوق

والنموذج الثاني الذي ذكر فيه مؤلفات مترجميه يتمثل في أبي زكرياء الكسيلى الذي قال فيه:

وبـــأبي زكريـــاء الكســـيلى العــــالم العلامـــة الجليــــل
مؤلفاتــــه غــــدت عديـــدة كثــــيرة نافعــــة ســــديدة
تزيد في العـدد فـوق الأربعـين نثرا ونظما رشقت قلب اللعـين
منهـا حواشـيه عـلى المـرادي تسـعة أسـفار لـدى التعـداد

... الخ

وقبل أن ينتهي صاحب **المنظومة** مِن مترجمي مُواطنه علي فضلون ـ الذين استوعبهم في (**منظومته**) ـ يلخص أوصافهم ومكاناتهم في قوله:

فبعضهم في المصر شعره وشي وبعضـهم فـاق عـلي المراكشـي
وبعضــهم في لغــة قــد نبــغ ولكرامــــة الرجــــال بلــــغ
وبعضهم قاض وبعضهم مفتـي وبعضــهم مــدرس ذو وقــت
وبعضــهم ألــف في الفــرائض ففـاق فيهـا صـنع كـل رائـض
ولابــن فضــلون بــذا منامــه عـــلا بهـــا في مصـــرنا مقامـــه
حاصـــلها أنهـــم مـــن أهـــل علـم ونبـل وتقـى لا جهـل

ثم يعقب الناظم على هذه الأبيات بمقارنة المترجمين مع معاصريه فيقول:

والآن يلحنـــون فـــوق المنـــبر لا يقبلون النصح حتى من بري
لم يبـــق فـــيهم نـــاثر أو شـــاعر يحيــــي بــــه الله ذوي المشـــــاعر
وفي مــواطن العلــوم أفلســوا لأنهـم مـن كسـبها قـد فلسـوا
وكتـب الجهـل عـلى جبـاهـهم اليــوم يخــتم عــلى أفــواههم

لو كنت أرسلت عنان القول آلت فريضتهم للعول
ليت الجدود نظروا إليهم ولو رأوهم لبكوا عليهم

وقبيل أن ينتهي من مترجمي علي فضلون ويعقب عليهم بمترجميه نبه على ذلك بقوله:

وبابن فضلون علي زين الخلف وهو الذي ذكر كل من سلف
وقد تبرعت بشيء فلا زيادة عليه لما كملا
وزاد هو أيضا أشياء أخرى في نثره يرجو لديك ذخرا

وإن علماء بونة ونواحيها المذكورون في هذه الأرجوزة سواء من ذكرهم علي فضلون أو أحمد ساسي هم سكَّان النواحي القريبة من البلدة، أما النواحي البعيدة كـ: تيفاش وقالمة ... الخ، فلم يتعرضا لذكرهم وقد اشتهر كثير من نبغائهم ولهم مكانة في كتب التراجم.

ولنختم هذه الدراسة بالتعرُّض إلى جانب مِن تاريخها بعد الاحتلال الفرنسي أثار الجدل ولازال الباحثون مهتمين به، حيث لازال يكتنفه الغموض، وذلك مثل اتصال الولاة الفرنسيِّين بأحمد باي قسنطينة، وتولية المملوك يوسف بايا عليها، وظهور فضائح اختلاس قام بها الماريشال كلوزيل ونائبه ببونة الجنرال ديزار (D'Uzer).

كانت السلطات الفرنسية إثر احتلال العاصمة، تنوي الاحتفاظ بمدن الشمال، الرئيسية كالجزائر ووهران ثم بونة، ولهذا كلف الوالي الفرنسي الدوك دو روفيقو (Duc de Rovigo) في شهر أوت 1832، بالاتصال بأحمد باي[1] ليعرض عليه شروط فرنسا لإبرام معاهدة تعترف بمناطق نفوذه، وتتعهد له بالحماية والتأييد وكانت بنودها[2] كما يلي:

---

(1) حمدان بن عثمان خوجة المشهور.

(2) **حوليات بيليسي دو رينو،** Annales Pélissier de Raynaud (ج 2، ص: 259).

1) تسليم مدينة بونة التي كان احتلالها وقع في أواخر يوليو 1830م.

2) الاعتراف بالسيادة الفرنسية.

3) دفع جزية سنوية يقع الاتفاق عليها.

4) اتخاذ مرسى بونة مركزا للصادرات والواردات بدلا من مرسى تونس.

5) اعتراف فرنسا بمناطق نفوذه التي تحدد، وإعانته في الميادين الحربية والاقتصادية ... الخ.

إلا أن الباي أحمد رفض تلك الشروط جملة وصرح بأنه مستعدة لإبرام معاهدة صلح لا معاهدة استسلام، وأكد أنه من رعايا الباب العالي لا من رعايا الفرنسيين، وركز رفضه للشروط التي يوجد من بينها تسليم مدينة بونة ودفع الجزية للمسيحيين.

وهنا بدأت مناورات المملوك يوسف(1) الذي كان الدافع الحقيقي له، خشية إبرام هذه المعاهدة التي تحرمه من التولية على بونة التي وعد بها، وبالفعل عين بايا عليها سنة 1836، بعد أن كان رائدا عسكريا ولعب أدوارا مخزية ببونة مدة حكمه على منطقتها، من جملتها أنه أسس شركة تجارية يرأسها المرابي اليهودي العسري (Lassery): رأس مالها ما كان ينهب جيشه للسكان العزل ... الخ.

أما الفضيحة المالية التي هالت حكومة باريس وعينت لها لجنة بحث مدنية، وهي تتلخص في استيلاء الماريشال كلوزيل على عدة أملاك ببونة زورت عقودها بواسطة الجنرال ديزار والي بونة، وكان الفضل في اكتشافها لقاضي بونة الشرعي الذي وجد

---

(1) كان من مماليك بايات تونس والتحق بالجيش الفرنسي بعد احتلال الجزائر ولاطلاعه على خبايا القصور وتضلُّعه باللغة العربية لعب أدوارا كثيرة استفاد منها جيش الاحتلال خصوصا المكيدة التي دبرها عندما استولى على زمالة الأمير عبد القادر وغيرها إلا أنه جوزي جزاء سنمار وأبعد نهائيا من الجزائر.

أملاك الأحباس ضمن الأملاك المختلسة، والذي لعب دورا في القضية هو مصطفى بن كريم، الذي حملته لجنة البحث المسؤولية، وأدانته، إلا أن السلطات مكنته إلى اللجوء إلى تونس، وأخيرا، أي حوالي 1295هـ، زار المدينة محمد بيرم الخامس ودون انطباعاته عنها في رحلته (**صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**)[1]، وهي هامة في موضوعها.

هذه لقطات من تاريخ هذه المدينة لمختلف عصورها ذكرناها بإجمال، ونتمنى أن يكون هذا الملتقى سببا لجمع ما أمكن من ماضيها المجيد، وأن لا يقتصر المسؤولون عن تقديم كتب أنيقة الطبع مزخرفة، إلا أن محتواها منقول كلُّه عما كتبه المستعمِرون في عهدٍ كانوا يَرون فيه العهدَ الإسلامي لا يثير انتباههم، اللهم إلا إذا عدَّت نقائصه.

(1) المطبعة الإعلامية بمصر سنة 1303هـ.

جوانب مِن ماضي وهران الثقافي عبر العصور[1]

اخترتُ هذا العنوان لهذه الدِّراسة التي ركَّزتها على ترجمة أحد أعلام (وهران) نال شهرة عالمية، وترجمه معظم مؤرِّخي الأدب العربي، إلاَّ أنَّ بلاده لم تجُد عليه إلاَّ بإطلاق اسمه على نادٍ بـ (**سطيف**) مواجه لحانة مِن حاناتها العديدة، وهذا العالم الأديب الفذُّ هو ابن عبد الله محمَّد ابن محرز الوهراني، المتوفى سنة 575هـ بـ (**دمشق**).

إنني أتناول في هذه الدِّراسة لقطات من تاريخ وهران انطلاقا من تأسيسها في أواخر القرن الثالث الهجري والذي دعاني إلى تناول ترجمته هو تسرُّب خطأ فادح في ترجمة حياته لأول مترجميه ونقله عن بقية مترجميه من القرن السابع الهجري إلى عهدنا هذا، حيث كشف الغطاء عنه العالم الباحث الدكتور صلاح الدين المنجد الدمشقي الذي نشر إحدى مقاماته عثر عليها في مكتبة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية في قسم المخطوطات مقتبسة من تأليفه المسمى: (**جليس الطريف**) كما سنتحدث عنه بمزيد من التفصيل، نشر د. صلاح المنجد العضو في المجمع العربي بدمشق هذا الأثر تحت عنوان : (**الوهراني ورقعته عن مساجد دمشق**) لمحمد بن محرز الوهراني المتوفى سنة 575هـ، (طبع بدمشق 1384 ـ 1965) وفي تقديمه لها تعرض د.صلاح الدين المنجد للفت انتباه القراء إلى الخطأ الذي تسرب إلى ترجمة الوهراني

(1) مجلَّة (الثقافة)، العدد: (83/ 84)، ص: (19ـ 28)، السَّنة التَّاسعة، شعبان ـ رمضان 1400هـ/ جويلية ـ أوت 1980م، كما اعتمدنا في تحقيق نصِّ هذه الدِّراسة على (نسخة) بخطِّ الشَّيخ المهدي (رحمه الله تعالى) تقع في (38ص).

ابتداء من مترجمه الأول ابن خلكان في (**وفيات الأعيان**)، ونقله عنه من جاء بعده من مترجمي ابن محرز الوهراني موضوع دراستنا، وقد فند صلاح الدين المنجد هذا الخطأ بحجج قوية كما سنبين ذلك، وقد ظهرت ترجمة ابن محرز الوهراني أخيرا في العدد الثاني من مجلة كلية الآداب سنة 1970 للدكتورة سعيدة رمضان وارتكبت نفس الغلطة أو الخطأ الذي تسرب إلى ترجمة الوهراني وقد أثر تأثيرا سيئا.

وقبل أن نواصل حديثنا عن ترجمة ابن محرز الوهراني أقف قليلا لذكر نبذ من تاريخ وهران بإيجاز.

كانت مدينة وهران متصلة ببلاد الأندلس منذ تأسيسها، إذ أسسها بعض البحارة الأندلسيين الذين كانت قوافلهم التجارية تجوب شواطئ البحر الأبيض المتوسط، فأسسوا مدينة وهران سنة 290هـ، كما أسسوا مدينة تنس في تلك الفترة وكان حكم البلاد حينئذ لدولة قبيلة مغراوة الذين أسسوا أول دولة بالجزائر إثر الفتوحات الإسلامية مباشرة وذلك أن عميد هذه القبيلة أي مغراوة ونزمار وقع أسيرا عند الفاتحين، فقيد إلى مقر الخلافة في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وأرضاه فأسلم على يديه، فحينئذ منّ عليه الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وأقره على حكم قبيلته التي كان موقعها ما بين سهول مليانة إلى مدينة مستغانم.

كان في عهد تأسيس البحارة الأندلسيين لمدينة وهران الأمير خزر المغراوي وكان مواليا لخلفاء بني أمية بالأندلس إذ كان المؤسس لدولتهم ونزمار المغراوي الذي أسلم على يد الخليفة مواليا للخليفة المذكور، ثم بعد موته بقي ولاء أفراد أسرته لخلفاء بني أمية بدمشق، ولما انتقل خلفاء بني أمية إلى الأندلس استمر ولاؤهم لهم، وقد وصف الكثير من الرحالين مدينة وهران في عهد أمراء مغراوة وذكروا كثيرا من أعلامها، ومن بينهم أبو القاسم الهمذاني الذي انتقل إلى الأندلس وروى عنه بعد أعلامها كابن عبد البر وابن حزم الظاهري، كما أثبت ذلك ياقوت الحموي في تأليفه: (**معجم البلدان**).

ولنرجع إلى متابعة حديثنا عن ابن محرز الوهراني الذي وإن شحت كل المصادر التي وصلتنا عنه بترجمته في مسقط رأسه قبل رحلته إلى بلاد المشرق حيث توفي في عهد دولة الملوك الأيوبيين، فإن كل مترجميه تناولوا حياته ابتداءً من وصوله إلى المشرق.

كان أول من ترجمه ابن خلكان في كتابه **(وفيات الأعيان)**، ثم ترجمه مترجمون آخرون قلدوا ابن خلكان، وتسرب في تراجمهم الخطأ الذي دام أثره السيئ طيلة قرون إلى أن تفطن إليه **د. صلاح الدين المنجد** وتعرض لتزييفه عندما اكتشف بعض مخطوطاته في مكتبة جامعة برنستون الأمريكية ونشرت هذه الرسالة تحت إشراف المجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1965 .

ذكر ابن خلكان في ترجمته لابن محرز أنه عند وصوله إلى المشرق لقي في بلاط السلطان صلاح الدين الأيوبي بمصر القاضي الفاضل الذي كان من أبرز **(أعلام الأدب)** في عصره كما كانت له منزلة عظيمة عند صلاح الدين الأيوبي، ووجد أيضا في بلاط صلاح الدين الكاتب الشهير العميد الأصفهاني فحينئذ مال ابن محرز إلى الأدب الهزلي ـ الذي اشتهر به ـ و هذا نص ترجمة ابن خلكان : «أحد الفضلاء الظرفاء، قدم من بلاده إلى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي، وفنه الذي يمت به صناعة الإنشاء، فلما دخل البلاد، رأى القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني الكاتب وتلك الحلبة، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ولا تنفق سلعته مع وجودهم فعدل عن طريق الجد، وسلك طريق الهزل » اهـ .

وقد تابع ابن خلكان في ترجمته كل من ترجموه بعد ابن خلكان، قال **د. صلاح الدين المنجد** معلِّقا على تعريف ابن خلكان: «فيفهم من قوله ـ أي ابن خلكان ـ أن الوهراني عدل عن طريق الجد أن لقي العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل عند صلاح الدين الأيوبي بمصر».

ثم قال صلاح الدين المنجد مفندا لتعريف ابن خلكان ما يلي : " الكلام يحتاج إلى تصحيح، فسلوك الوهراني طريق الهزل كان قبل أن يصبح صلاح الدين الأيوبي سلطانا، لأنه كتب كثيرا من مقاماته الهزلية ورسائله في أيام نور الدين بدمشق، كما سنرى ولم يجتمع بالعماد والفاضل بمصر إلا بعد موت نور الدين ثم إن مجيئه من بلاده إلى المشرق لم يكن أيام صلاح الدين الأيوبي بل كان أيام نور الدين، وقد وصف في إحدى رسائله عندما سئل عنه ـ أي: عن نور الدين ـ وهو في بغداد فقال: «سهم الدولة مديد وركن الخلافة شديد، وأمير زاهد، وملك مجاهد، ساعدته الأفلاك، وخدمته الجيوش والأملاك» اهـ .

ثم قال صلاح الدين المنجد مؤكِّدا رده على تعريف ابن خلكان: «وعجيب أن يخطئ ابن خلكان مثل هذا الخطأ والأمر واضح على تتبُّعِه وشدَّة تحرِّيه، وقد تابعه فيه الصَّفدي في: (**الوافي**) فقال: قدم من المغرب إلى مصر وهو يدعي الإنشاء فرأى الفاضل والعماد... إلى آخر ما قاله ابن خلكان في ترجمته.

ثم واصل صلاح الدين المنجد عن الوهراني فقال: «والذي عرفناه عن سيرته (أي الوهراني) بعد مطالعة آثاره المخطوطة خاصة أنه زار دمشق في أيام نور الدين واتصل به »، ثم واصل حديثه فقال: «ذكر الوهراني في (**منامه**) الكبير حادثة وقعت في دمشق سنة 553 هـ ...أنه مرَّ بصقلية وزار بغداد ثم اتخذ دمشق دارا واستوطنها وكان نور الدين شديد العطف على المغاربة وتوجهت إليه خطابة مسجد داريا، فبقي بها وزار مصر، وترجح أنه زارها بعد وفاة نور الدين وعاد إلى دمشق وبقي في درايا حتى توفي سنة 575 هـ أيام صلاح الدين، ودفن على باب تربة أبي سليمان الداراني، وله رسالتان كتبهما إلى صلاح الدِّين» اهـ .

ولنرجع إلى إتمام ترجمة ابن خلكان للوهراني الذي قال: «ثم إن الوهراني المذكور تنقَّل في البلاد وأقام بدمشق زمانا، وتولَّى الخِطابة بداريا، وتوفي سنة خمس وسبعين

وخمس مائة للهجرة بداريا (رحمه الله)، ودفن على باب تربة الشيخ أبي سليمان الداراني»، ثم قال ابن خلكان: « ونقلت من خطِّ القاضي الفاضل: وردَت الأخبار من دمشق في سابع عشر رجب بوفاة الوهراني، والوهراني هذا نسبة إلى وهران، وهي مدينة كبيرة في أرض القيروان، بينها وبين تلمسان مسافة يَومين، وهي على ساحل بحر الشام »، ثم قال ابن خلكان: «ذكر الرشاطي أنها أسِّست سنة تسعين ومائتين على يد محمد بن عون، ومحمد بن عبدوس، وخرج منها جماعة من العلماء وغيرهم » اهـ ترجمة ابن خلكان لابن محرز الوهراني.

ولنذكر ما قاله ابن فضل الله العمري عن الوهراني المذكور وأثر القاضي الفاضل في حياته نقلا عما نشرته الدكتورة سعيدة رمضان في **(مجلة كلية الآداب)** التي كانت تصدرها **(جامعة الجزائر)**، وذلك في عددها الثاني المؤرَّخ سنة 1970م، قالت: «قال العمري: الوهراني أديب اخترع طريقا في المقامات طلعت شمسه مِن المغرب، ولم تغلق للرحمة بابا، وقدم والدولة الصلاحية قد استعلت، ويد تصرُّفها مع البلاد قد استوَلت، والمجلس الناصري معمور بالأجِلَّاء، مأهول بالقاضي الفاضل وأقرانه من الفضلاء، وريح الأدب قد هبت، ووفود الخواطر قد لبت، والحظ الفاضل قد أخذ معه حظ كل فأخذ ما للكل، ولم يترك لهم إلا الفاضل، وكان يغار على بنت كل فكر، وكان الوهراني لوذعيا تحميه لألاؤه، والمعيا نريه البصيرة آراءه، فخاف نفاث ذلك الصل، وعينات ذلك السيف الذي لا يكل، فمال إلى السخف، إذ كان لا يحمد على مكبيه، ولا ينافس في ترديه وتحليه، وجعل هذا سببا لإظهار ما عنده من الإحسان، وتكلم ولم يخف من عثرة اللسان، فرفرف عليه جانب من الحنو الفاضلي، ورق عليه كما يرق عليه غسق البابلي» اهـ .

ثم قالت الدكتورة سعيدة رمضان: «إن هذه العبارة مع ما سبق أن أوردناه مما ذكره ابن خلكان، ترينا ملمحا من الحياة الأدبية، في ذلك الحين، فالأديب كان عليه أن يجني

رزقه بالعمل في دواوين الدولة وما كان يشذ عن هذه القاعدة، إلا القلة النادرة »، ثم قالت: «كان القاضي الفاضل من أبرز أعلام الأدب في عصره، وما كان يدع أحدا يحتل منصبا مرموقا في هذه الدواوين »، ثم واصلت الدكتورة حديثها في الدراسة التي خصصتها للوهراني فقالت: «كان على الوهراني إذًا أن يسلك السبيل الذي سلكه أهل الأدب في عصره، من إظهار الخضوع للقاضي الفاضل والسعي لنيل عطفِه، فهل فعل ابن محرز الوهراني ذلك ؟ »، ثم تولت الدكتورة الإجابة عن هذا السؤال الذي طرحته فقالت: «كان ابن خلكان ومن بعده ابن فضل الله العمري ينُصَّان على أن الوهراني حين جاء إلى مصر وفي نيته أن يعمل في ديوان الإنشاء ـ أو غيره من الدواوين ـ غير أنه وجد السبيل إلى هذه المناصب موصدا فعمد إلى الكتابة الهزلية يفرغ فيها طاقته الفنية، ويظهر براعته في ميدان، لا ينافسه القاضي الفاضل فيه، وكان اصطدما ما وقع بين الرجلين، وحربا خفية قد نشبت بينهما، فلا القاضي الفاضل يصرح بعدائه للوهراني، ولا الوهراني يهاجم القاضي الفاضل علانية. وقد أوضح صلاح الصَّفدي طبيعة العلائق بينهما حين قال عن الوهراني: وكان قد سلطه الله على الشيخ تاج الدين الكندي وعلى المهذب ابن النقاش، وعلى القاضي الفاضل، فإنه ما كان يجسر على التصريح بذكره، بل تعرض به في رسالة كتبها إلى مجد الدين بن المطلب »، (وقد ذكرت بعض الفقرات منها)، ثم قالت: «وجلي على أن منشأ هذا الصراع فيما أحسه الوهراني من الغبن وبين إظهار فنه وإبراز نبوغه في صناعة الكتابة، ولنا أن نصوره يقطع الأفاق من وهران إلى القاهرة وقد بهره بريق مجد صلاح الدين الأيوبي وانفساح مملكته مهيئا للأمر عدته، وما أكثر عدد الكتابة الديوانية في ذلك الحين، وإذا به يجد القاضي الفاضل يحول بينه وبين ما يريد، ويكون تحوله إلى الكتابة الهزلية معبرا عن أزمة المسعى الخاسر والأمل المشحوب... ».

ثم واصلت الدكتورة سعيدة رمضان دراستها فقالت مظهرة حكمها في الموضوع: «ولا شك أن هذا التغير الذي طرأ على منهاج الوهراني، لم يولد بين يوم وليلة وإذا

كانت المصادر قد صمتت تماما عن أمر حياته بوهران ونتاجه فيها فإن الاستنتاج الذي يسوقنا إليه نتاجه بعد ذلك، فإنه كان بطبيعته نزاعا إلى التعبير الرشيق والفكرة المرحة الساخرة والتخيل الملحق العابث ».

ثم قالت الدكتورة رمضان في ختام حديثها: «والاستنتاج الذي نراه أيضا أنه كان في مسقط رأسه عكوفا على فنه الأساسي من الكتابة الديوانية، ينميه ويتقن أصوله، استعدادا لليوم الذي يرحل فيه إلى المشرق، وليس بعيدا أن يكون القاضي الفاضل قد لعب دورا حاسما في تعيين الوهراني خطيبا بجامع داريا حتى يكفل له سبيل العيش من جانب ويؤمن غائلة لسانه الساخط من جانب آخر » اهـ ما ذكرته الدكتورة سعيدة رمضان التي امتازت عن بقية مترجمي ابن محرز الوهراني في أخطائهم وغلطاتهم وعدم تحرِّيهم وإصدارهم الأحكام الجائرة المبنية على أسس واهية، وأن أعذار المترجمين السابقين الذين كان عذرهم في ثقتهم بابن خلكان، ونقلوا عن تعريفه مِن دون تمحيص فالدكتورة زيادة عن امتيازها بإطلاق العنان لترجمتها واستنتاجاتها وهي قريبة عهد ويظهر أنها تناولت دراسة حياة ابن محرز في أطروحة لنيل الدكتوراه أو غيرها وكانت قد ظهرت دراسة الدكتور صلاح الدين المنجد التي طبعها المجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1965 كما سبقت رسالة المنجد طبع المقامات المنامات بمصر تمكن تجنب الخطر التي تسرب إلى ترجمة الوهراني، وإن وجدنا أعذارا للمترجمين الأولين الذين كما تمالؤوا على أن ابن محرز تحول من الإنشاء الجدي إلى الأدب الهزلي لوجود القاضي الفاضل وزميله العميد الأصفهاني فمن الذي أنبأهم أن ابن محرز الوهراني كان يعد عدته للذهاب إلى المشرق يستجدي الأيوبيين لنيل منصب في دواوين دولتهم والذي يعلمه الباحثون والمؤرخون أن عصر ابن محرز كانت أفواج كبار كتاب الأندلس وبلاد المغرب العربي تضيق بهم مدن بجاية ووهران وتلمسان، كما كانت من جهة أخرى

قوافل علماء الجزائر يشدون الرحال إلى بلاد الأندلس في عهد ملوك الطوائف ثم في عهد دولتي المرابطين والموحدين وإذا وجدنا أن أكثر علماء بلاد المغرب العربي كانوا يذهبون إلى المشرق فالسبب الأول في ذلك هو الحج لا للارتزاق أو الهجرة لضيم كان يلحقهم في بلادهم، وإذا جاز لنا الافتراض ـ ما دامت تنقصنا الوثائق الأصيلة ـ أن هجرة ابن محرز إلى دمشق، فإن بلاده وبالخصوص مدينة وهران اجتازت أهوالا في عهد الثورة الفكرية التي أحدثها الموحدون ضد الفقهاء الذين كانت تحميهم وتؤازرهم دولة المرابطين، ولما استحالت تلك المعركة الفكرية إلى حرب ضروس بين الدولتين ببلاد المغرب ثم انتقلت إلى الجزائر، وقدر لدولة المرابطين أن يلفظ آخر ملوكها تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين (رحمه الله) وأن يلتجأ إلى وهران في انتظار أسطول الدولة الذي كان مرابطا في جزر ميورقة لينقله إليها، وقتل تاشفين بوهران، وكان عبد المؤمن بن علي له بالمرصاد، فحاصر وهران التي كان سكانها موالين للمرابطين، فلما فتحها انتقم من سكانها شر انتقام، إذ في وهران لفظت دولة المرابطين الَّلمتونيِّين أنفاسها، ولا نستبعد ـ وهو محض افتراض ـ أن شخصية مثل ابن محرز الوهراني لم يكن بمعزل عن الصفين المتقاتلين، وكانت هجرته إلى المشرق لا لطلب وظيف بسيط ألهاه به القاضي الفاضل ليأمن مزاحمته في بلاط صلاح الدين الأيوبي، ويأمن في وقت واحد غوائل لسانه، والرجل الذي صب جام انتقاداته وسخريته على جل علماء مصر ودمشق ومن بينهم القاضي الفاضل وأمراء وكبار الموظفين الأيوبيِّين الذين قيل إنه لم ينج منهم إلا الملك صلاح الدين الأيوبي، ولهذا فإننا نرى هذا الأديب الفذ الذي نال مكانة في عهده بعيد كل البعد عن التزلف أو التقرب لنيل وظيفة أو المحافظة عليها، وأمنيتنا أن تكشف بعض الوثائق الأصيلة مجردة عن التكهنات والافتراضات التي لا تمت إلى الحقائق بصلة وضررها أكثر من نفعها، مادامت أمانة النقل غير مرعية، ولنرجع إلى ما ختم به ترجمته الدكتور صلاح الدين المنجد الذي له الفضل في تصحيح الغلط أو الخطأ

الذي تسرب إلى ترجمته وصوره تصويرا مشوها بعيدا عن الحقيقة فقال: «والذي يطالع آثار الوهراني هذه تبدو له براعته في التهكم، والتصوير الهزلي، وكان لا يتورع من السخرية بنفسه متخيلا ما يقوله أعداءه عنه، وصف القاضي الفاضل فقال: فلم أشعر إلا والحائط ـ حائط حمام ـ قد انشق، وخرج منه شخص عجيب الصورة ليس له رأس ولا رقبة ـ إذ كان القاضي الفاضل أحدب ـ وإنما وجهه في صدره، ولحيته في بطنه»اهـ .

ووصف مجلسا ضم القاضي الشهرزوري وابن النقاش وابن العميد جرى فيه الحديث عن المغاربة يأتون من المغرب إلى الشام، ومنهم هو نفسه فقال: «يقول ابن العميد ضيعتم الوقت في حديث الوهراني، والله إن ملك المغرب نحس، ما جاءنا قط منهم إلى حارس كرم أو ناطور بستان ... وهذا الوهراني من بينهم شهد الله أثقل على القلوب من الغدة الخارجة في الحلق، وأوحش من الورم النافذ في الأوداج ... الخ ».

وهي طويلة نكتفي بهذه السطور منها، ولنختم حديثنا هذا بانطباعات الدكتور صلاح الدين المنجد عن ابن محرز وآثاره فقال: «وكيف كان أمر الوهراني فيما ابتغاه من سخريته، فإنه يكاد يكون نسيج وحده في أدبنا العربي فيما كتب، وهو جدير بدراسات واسعة تكتب عنه، وآثاره المخطوطة ينبغي أن تنشر »، ثم قال عن الرِّسالة التي نشرها عن مساجد دمشق، والتي كانت سببا في اكتشاف الخطأ المتسرِّب إلى ترجمة حياته ودام قرونا قال عنها: «فهي من مضمونات كتابه: (**جليس كل ظريف**) وهو كتاب نادر، حلو وجدناه في قسم المخطوطات بجامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو محفوظ فيها (1/ 665)، ولم يعرف بروكلمان هذه المخطوطة »، ثم قال المنجد: «وقد رأينا نشر هذه الرقعة لأنها من النصوص المتعلقة بتاريخ دمشق»، ثم لفت انتباه قرائه إلى أهمية أثار ابن محرز وألح على أهميتها إذ هي من الآثار الممتازة التي تثري الآداب العربية.

ولما كان الشيء بالشيء يذكر فلنقارن بين أثار الوهراني وأثار ابن قزمان الأندلسي ـ

الذي كان من معاصريه ـ فقد احتفظ التاريخ بنسخة من ديوان نسخت في صفد (فلسطين) وقد كانت في خزانة أحد القناصلة الفرنسيين ببيروت ينحدر من سلالة الشاعر الفرنسي لامارتين، فبيعت هذه المكتبة بعد الحرب فاشترتها خزانة لينين غراد، في عهد القياصرة، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية وحصار لينين غراد كان محافظ القسم العربي بالمكتبة المستشرق الروسي كارتشوفيسكي فبذل جهودا لوقاية محتويات المكتبة وهو ببعض المستشفيات ومر خطر الحصار بسلام على المكتبة وقد نشر حوالي الخمسينات من القرن الجاري الميلادي المستشرق كاراتشوفيسكي كتابا قيما عنوانه: (**المخطوطات العربية**) بمكتبة لينين غراد فذكر قصة: (**ديوان ابن قزمان**) التي كانت هي النسخة الوحيدة في العالم، وقد تداول على تحقيقها أزيد من عشرة باحثين متخصصين من مختلف الأجناس، وكان آخر محققي الديوان المذكور المستشرق الإسباني (**غارسيا غوميز**) فأنهى تحقيقه سنة1972م في ثلاث مجلَّدات، كما اهتم به وبتحقيقه العالم الأديب الدكتور عبد العزيز الأهواني المصري، ولا أبالغ إن قلت بأن الفرق بين الأديبين ابن محرز الوهراني ـ موضوع دراستنا ـ ومعاصره ابن قزمان مختلف جدا حتى ولو لم تصلنا من ترجمة ابن محرز إلا ما ترجمه ابن خلكان ومن بعده.

وسنعود إلى الموضوع ـ إن شاء الله ـ.

المهدي البوعبدلي

ماضي أدرار الحضاري والثَّقافي عبر العصور(1)

سبقَ لي عندما تشرَّفت بزيارة هذه المنطقة الصَّحراوية في الشَّهر الماضي، وألقيتُ فيها محاضرتَين في إطار النَّشاط الثَّقافي الذي تقوم به (وزارة الشُّؤون الدِّينيَّة) بأمَّهات مدن الوطن، (الأولى): بـ (بشَّار)، و(الثَّانية): بـ (أدرار).

وكان عنوان كلٍّ منهما: (**صفحة مِن تاريخهما الثَّقافي والسِّياسي**).

وبيَّنتُ حينئذ أنَّ المقصودَ من عنوان المحاضرتَين ليس هو تاريخ المدينتَين ـ أي: (بشَّار) و(أدرار) ـ القريبتَي العهد بالتَّأسيس، وإنَّما المقصود مناطقهما، وإنَّني عدتُ اليوم استجابة لدعوة المشرِفين على (المهرجان الثَّالث للنِّصف الشَّهر الثَّقافي والاقتصادي)، لأواصلَ موضوعَ دراستي السَّابقة تحت عنوان: (**ماضي أدرار الحضاري والثَّقافي عبر العصور**)، إذ (أدرار) ومناطقها في حاجة إلى تآليف خاصَّة بها، فضلا عن سلسلة محاضرات.

إنَّني سأتناول بالبحث في هذه المحاضرة منطقة (أدرار) الشَّاسعة، التي تشمل واحات (توات) و(قورارة) و(تديكلت)، وهذه الواحات كما سيتبيَّن لنا ذلك من خلال هذه الدِّراسة، لها مكانة مرموقة في التَّاريخ الإسلامي بصفة عامَّة، وفي تاريخ بلاد المغرب العربي بصفة خاصَّة، وذلك أنَّها بحكم موقعها الجغرافي الذي جعلها محورا بين بلاد الشَّمال والجنوب من جهة، وبين بلاد المغرب وبلاد المشرق من جهة أخرى،

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المحاضرة على نسخة مرقونة تقع في (10) صفحات، ولم نقف على القسم الأول من هذه المحاضرة.

وبفضل موقعها الممتاز كانت صلة وصل بين القوافل التِّجاريَّة التي كانت تنطلق من عواصم بلاد الشَّمال إلى جنوب السُّودان، كما تعرَّض إلى ذلك كثيرٌ من الجغرافيِّين والرَّحَّالين ابتداءً من القرن الثَّالث الهجري.

وكانت أيضا صلة وصل ومحطة ممتازة لقوافل الحجَّاج والتجار في طريقهم من المغرب إلى المشرق، كما نجد هذه الناحية ملجأ ومقرا لكثير من اللاجئين السياسيين الذين غادروا بلاد الشمال في مختلف العصور، حيث كانت مسرحا للحروب والغارات، والدليل على ذلك أن أهم القصور التي أسست بها، وضع لبنتها الأولى بقايا دول شهيرة خلد ذكرها ومآثرها التاريخ، وقبل الدخول في صميم الموضوع، ألفت انتباه المستمعين إلى أنني ركزت دراستي هذه على العلائق والروابط المتينة التي كانت تجمع سكان هذه المناطق ببلاد الشمال، سواء في الميادين الثقافية والاقتصادية أو السياسية عبر فترات من تاريخها الطويل، وبالخصوص ابتداءً من القرن التاسع الهجري، ولما كان التاريخ يتوقف قبل كل شيء على المصادر والوثائق.

وإنني في هذه الدراسات لم نقصد مخاطبة الجماهير بهذه المناسبات فحسب، بل نعدها لتعميم فوائدها للنشر والتوزيع، خصوصا وأن مصادر تاريخ هذه المنطقة مازال مجهولا في تفاصيله، رغم أن هذه المنطقة حظيت بكُتَّاب سجّلوا أحداثها بمزيد من التفصيل، ومما يُؤسف له أنَّ جُلَّ ما كتب عنها مازال مجهولا إذ لم يحظ بالنشر، اللهم إلا النَّزرَ القليل، وقد اعتنى بتاريخ هذه النواحي بعض الباحثين الفرنسيين الذي كانوا في طليعة جيش الاحتلال في بداية القرن الميلادي الجاري، فجمعوا ما عثروا عليه من الوثائق، وترجموها ثم نشرها أحدهم، وهو الرائد مارتان في مجموع مفيد جدا، كان من جملة المصادر التي اعتمدناها في هذه الدراسة: (**رحلة الحاج عبد القادر بن سيدي عمر التنيلاني**)، و(**رحلة مولاي هاشم بن أحمد**) المشهور بسيدي باهية، من علماء القرن

الثاني عشر، وهو مدفون في باعبد الله بتيمي، وقد نقل جُلَّ وثائقه مما كتبه سيدي عبد الله بن سيدي أحمد الحبيب من علماء القرن العاشر، وكذلك اعتمدت على **رحلة أبي زيد عبد الرحمن بن عمر التواتي** المتوفى سنة 1139هـ، الذي كان ينقل عن العلامة الحاج بوبكر بن بالقاسم الزجلاوي، ثم كتاب: (**البسيط في أخبار تمنطيط**)، وتآليف الشيخ أحمد بن القاضي أبي محلي السجلماسي ورحلة العياشي الشهيرة، هذه قائمة المصادر التي اعتمدتها في هذه الدراسة. جمع الرائد الفرنسي كثيرا من وثائق بلاد توات بحكم وظيفه من الخزائن العامة كخزائن المساجد والزوايا ومن الخزائن الخاصة وترجمها إلى الفرنسية، ثم نشرها في أوائل القرن الجاري تحت عنوان: (**أربعة قرون من تاريخ المغرب: الصحراء من سنة 1504 إلى سنة 1902، والمغرب من سنة 1394 إلى سنة 1912م**) [1] كانت وثائق هذا المجموع تشمل جُلّ ما يتعلق بتاريخ هذه المناطق ابتداءً من القرن التاسع الهجري، حياة القبائل الثقافية والسياسية والاقتصادية أيام الازدهار والقحط، حياتها في الحرب والسلم بين السكان، المعاهدات المبرمة بين القبائل، اتصال سكان هذه المناطق بسكان الشمال والتبادل الثقافي والتجاري بينهم، وفي العصر الأخير بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، لجوء كثير من الثوار الجزائريين إلى هذه المناطق أمثال أبناء سيدي الشيخ وبوشوشة، وبوعمامة ... الخ.

هذه النقاط هي التي أتعرض لها في هذه الدراسة بما يسعه مجالها المحدود عملا بالقول المأثور: «مالا يُدرك كُلُّه لا يُترك جُلُّه ».

إن تاريخ هذه المنطقة المشهورة ببلاد توات لها تاريخ حافل في الميدان الثقافي، فقد

(1) Quatre siècles d'histoire marocaine au Sahara de : 1504 a 1902 au Maroc de 1394 a 1912 d'après articles et documentations origines par A.c martin .Paris El - roux 1923.

كانت بها مراكز إشعاع لا تقل عن مراكز العواصم العلمية ببلاد الشمال، كما اشتهرت فيها خزائن علمية جمعت نوادر المخطوطات من مختلف بلاد العالم الإسلامي، كما أشار إلى ذلك الرحالة أبو سالم العياشي عندما تحدث عن خزانة الشيخ محمد بن إسماعيل القوراري الذي جمع فيها 1500 تأليفا كلها منتقاة من اسطنبول، عاصمة الخلافة العثمانية، وقد تعرَّضتُ لذكرها بمزيد من البيان في محاضرتي الأولى التي ستطبع وتوزَّع ـ إن شاء الله ـ كما أشرت في نفس المحاضرة إلى ما ذكره الرحالة مولاي هاشم بن أحمد المشهور بسيدي باهية عن بعض الخزائن التي اطَّلع عليها بتوات وذكر أنَّ أصحابها أتوا بها لاجئين من تلمسان ومن عاصمة الجزائر بعد غارات الإسبان على وهران وغيرها من مدن شواطئ المغرب العربي فيما بينها طرابلس أوائل القرن العاشر الهجري، ومن بين هذه الخزائن خزانة تحتوي على تآليف الشيخ عبد الرحمٰن الثَّعالبي دفين الجزائر وخُتِمَ بها المطاف في قرية بغيول بتسابيت [1].

إن منطقة أدرار الشاسعة كانت تشمل واحات توات وتديكلت، هذا ولما كان كثير من القراء لهذه المحاضرة بل وحتى المستمعين الذين لم يسبق لهم عهد بمعرفة هذه الربوع، أذكر لهم موجزا أُحلِّلُ فيه بعض الإصطلاحات الصحراوية فالواحة عبارة عن مجموعة من الأراضي المغروسة بالنخيل بعضها يُسقى وبعضها بور، كما تشتمل الواحة على مجموعة مساكن يُطلق عليها تارة اسم قصر وتارة اسم قصبة، والفرق بين القصبة والقصر، أن القصر مسكن للفيف، بخلاف القصبة التي كانت في الأصل خاصة بسكنى أسر ممتازة ذات مكانة ونفوذ، وإنّ موقع بلاد توات الذي كان حيث ملتقى وادي الساورة بوادي الرمل قرب بودة تشتمل على قصر المنصور وابن أدراعوا وأدرار (وهي غير المدينة الحالية) وقرمللي التي كانت تعرف بأغرم أعلى ثم زاوية حيدة – التي

(1) عن كتاب: «**أربعة قرون من تاريخ المغرب**» (ص: 77)، مجموعة مارتان.

ستتحدث عنها في موضعها – وبالقرب من هذه الناحية، يوجد تيمي الذي يشتمل على حوالي عشرين قصرا منها أدرار (الحالية) التي كان سكانها عند الإحتلال الفرنسي يبلغ عددهم 520 ساكنا، وأدرار هذه هي التي اتُّخِذت قاعدة توات بدلا من تمنطيط كما تشمل واحة تيمي وأولاد ونقال وبني تامرت وزاوية البكري، وقد ألحقت بها أيضا امراقن وتينيلان، وفي الجنوب الشرقي لسبخة تيمي توجد تمنطيط التي هي عبارة عن قصر عظيم، وبغربي تمنطيط يوجد امقيد وواحة بوفادي، وتسمى أيضا بأولاد الحاج، وبغربها واحة تاسفاوت كما يوجد بواحة تيمي فنوغيل، وأعباني، وأودغاغ، ومقرة التي كانت قصرا عامرا، ولم يبق منها إلا الأثر، ثم زاوية سيدي عبد القادر، وزاوية سيدي يوسف ثم قسم تامست مع باعمر، والأحمر.

أما قورارة فإنها تشمل ناحية تيفركوك التي تحتوي على واحات تبلكوزة ـ اسم النبات المعروف بالزياتة ـ وفا تيس، وأودغاغ، وزاوية الدباغ، وهذه الواحات تسكنها قبائل المحارزة العربية، كما تشمل قورارة الخنافسة الذين يسكنون قصور الحاج قلعان، والكاف، وتاغيارت، وايغزر، ومعمورة، وقبائل الخنافسة هم عرب أيضا، ونجد بقورارة قسم قصور تلالت وبدريان، وأزقور وألملال، ثم الواحة العظمى لأولاد سعيد، الذين يبلغ عددهم الألف، ويضُمُّ قسم قورارة أيضا، قصر تيميمون، الذي يوجد فيه القصر القديم المُندثر، المعروف بقصر تاحتايت الذي كان مسكنا لليهود البرابرة، وهوأقدم من قصر تيميمون ، ويشتمل قصر تيميمون على واحات بني ملوك وتاورسيت، والواجدة وآثار عوعيدان، وبالغازي كما توجد فيه سمجان، غربي أولاد سعيد وتنضزي، وأقنتور التابعة لكالي وسيدي عياد وتاسفاوت وبني أسلم، وقد كانت تيقورارين من أعظم المراكز التجارية وقد أقام فيها مدة الملك أبو حمو الزياني ملك تلمسان كما ذكر ذلك ابن خلدون وغيره.

أما قسم تيدكلت فهويشتمل القصر المندثر المعروف بقصر شارف، ثم واحات أولف العرب، وأولف الأشراف، وكُلٌّ منهما يتراوح عدد سكانه بين الألف ومائة، وألف وخمسمائة نسمة، ثم نجد تمقتنان، وتيط، ثم أقابلي ومعها أربعة قصور بها عدة زوايا، وهذه الواحة تتقاسم مع رقان وعين صالح محطة قوافل التوارق وتمبكتو، ثم نجد سبخة وواحة عين صالح، مع قصورها العشرة، من بينهم قصر العرب، وأولاد باجودة والدغامشة، وأولاد بالقاسم، وأولاد الحاج، هذا موجزٌ من التقسيم والجغرافي الإداري الحديث، أي في العهد الاستعماري، تعرَّضْتُ له لإفادة القراء والمستمعين الذين لم تسبق لهم معرفة بهذه المناطق، أما سكان البلاد، فإنهم أدرى منا بشعاب بلادهم.

كانت قاعدة بلاد توات في القديم، أي قبل الاحتلال الفرنسي، قصور تمنطيط التي اشتهرت بمعاهدها العلمية، وحسبما ذهب إليه الشيخ محمد بن الحاج عبد الرحيم، في تأليفه القيم الذي سماه: (**البسيط في أخبار تمنطيط**)، وقد ترجم أصله العربي إلى الفرنسية صديقنا الأستاذ عبد القادر بوعقلة، مدير الشؤون الثقافية بولاية وهران، والذي سبقت له نفس الخطة بولاية بشار، تولَّى تحقيق هذا الكتاب، وتَرْجَمته ثم طبَعَهُ.. ترجم صاحب «البسيط في أخبار تمنطيط».

كما تعرض لذكر تاريخ تأسيس البلدة، فقال بأن مؤسسيها الأوائل كانوا من بقايا دولة المرابطين اللمتونيِّين بعد أن هزمهم الموحدون، وإننا نعلم كلنا أن الموحدين الذين ثاروا على الملك علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني ثم انتصارهم عليهم بمدينة وهران، عندما تغلب عبد المؤمن بن علي على تاشفين بن علي بن يوسف آخر ملوك المرابطين في أوائل القرن السادس الهجري . إن أهم ما يلفت النَّظر في كتاب (**البسيط في أخبار تمنطيط**) أنّ مؤلفه اعتنى بضبط كثير من الأحداث التي اجتازتها البلاد، كما

اعتنى بتراجم جُل العلماء الواردين على تمنطيط من مختلف الجهات، وبالخصوص من جهة الشمال، ولهذا يُعَدُّ هذا التأليف من أهم مصادر تاريخ هذه المنطقة، وهذه نبذة من الخطوط العريضة التي ضَمَّنَها المؤلف تقديمه الذي قال فيه: «هذا تأليف أردت أن أجمع فيه بعض أخبار مدينة تمنطيط على ما بلغني من ذلك، وعلى ما فهمته من آثار ما هنالك، وعلى ما سمعت الناس يتحدثون به، وظننت أنه كذلك، وعلى ما وجدته مكتوبا على ذلك في بعض التقاييد، وضاربا على ما أظنه صحيحا في المسالك، لاستحالته عادة بالقرائن الدالة على ذلك، لأن الحق يظهر من معنى ومن كلم، وسميته بـ : (**البسيط في أخبار تمنطيط**)، ومِن الله أستمدُّ العَون والتَّوفيق، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم » اهـ .

ثمَّ تعرَّض المؤلِّف لتحليل اسم تمنطيط اللغوي فقال: «إن الاسم يتركب من اسمين عجميين أي بربريين، وهما: (اتما)، و(اتيط)، ومعنى (اتما): النهاية، و(اتيط) معناها: العين، فتركَّب الاسمان وحذِف الأَلِفان اللذان هما آخر (اتما) وأول (اتيط)...»، ثم عقد المؤلف فصلا خصَّه لتأسيس تمنطيط فقال: «إن أول من نزل بها وبنى القصر الأول يقال لهم لمتونة، أولاد الملك ابن تاجفين ـ وقد رسم تجفين بتاء فجيم ـ ويقصد ابن تاشفين مؤسِّس دولة لمتونة المشهورة بدولة المرابطين، ثم ذكر أن تاريخ هذا التأسيس كان حين انكسرت شوكته بالمغرب والأندلس، وما قاله صاحب كتاب (**البسيط**) مِن أنَّ مؤسِّسي تمنطيط الأوائل هم بقايا دولة لمتونة، نجد مثله في تاريخ تأسيس قصر بودة، حيث قيل: إن قصرها الأول أسَّسه بعض بقايا دولة بني مرين، مع لفت الانتباه إلى أن هذه القصور كانت آهلة بالسكَّان، كما مرَّت عليها أزمنة رفاهية ويسر، لا من حيث خصوبة الفلاحة، ولكن مما كانت تُدِرُّها عليها تجارة الذهب مع السودان، ولكنها شاهدت أيضا سنوات عسر وقحط، وانتشار الأوبئة إثر الجفاف وتسليط الجراد عليها، ثم الفتن التي توالت عليها كما سنبين ذلك، ثم تعرَّض التَّمنطيطي في تأليفه إلي تاريخ الأُسَر اللاّتي سكنت

تمنطيط، فذكر من بينها أسرته وفي ذلك قال: «فصل في ذكر علماء تمنطيط: أولهم على ما بلغنا ذكره جدنا السيد أبو يحيى بن محمد المنياري نسبة لبني منيار، قبيلة من العرب معروفة بأرض التلول »، إلى أن قال: «غير أن أول منازلنا بتمنطيط كان يسمَّى: تجعفرت، نسبة للجعافرة، وبنو منيار أصل نسبتهم ينتمي لقريش »، ثم واصل حديثه فقال: «إن نزول جدنا بتمنطيط كان عام خمسة عشر في القرن التاسع » ـ أي عام 815 هـ ـ ثم قال: «ومن بعد جدِّنا سيدي أبو يحي جاء سيدي **يحي ابن ابدير** لـ : **توات** عام خمسة وأربعين في القرن التاسع (845هـ) الذي ذكرته ومن تلامذته الشَّيخ **ابن عبد الكريم المغيلي**، وضريحه بمقبرة أولاد **علي بن موسى** مشهور مُعَلَّم، وقد ذكر الشيخ مولاي **أحمد بن هاشم** في **(رحلته)** التي ذكرناها، من بين المصادر المعتمدة في دراستي هذه أن مؤسسي زاوية ميمون بتيمي هاجروا تلمسان بعد احتلال الإسبان لوهران، كما ذكر أنه في سنة 1535م وقعت حرب في **تمنطيط** بين **علي بن عمر** وأولاد **علي بن موسى**، فمات **علي بن عمر** وخلفه ولده **عبد الله بن علي**، وهو الذي وسَّع بناء **تمنطيط**، ثم ذكر أن أسرته هاجرت التل الوهراني مِن بني منيار الذين هم أقارب الجعافرة وسكنت قبيلة بني منيار، أول قدومها قصر الجعافرة الذي كان قرب **تمنطيط**.

من هذه الفقرات يتبيَّن لنا أن الِاتصال بين هذه الواحات، وبين بلاد الشمال كان وثيقا، ولم يكن خاصا بالأفراد، بل كان يشمل القبائل المتنقلة من الشمال إلي الجنوب أيام الفتن والأهوال، فإن بني منيار الواردين على تمنطيط وكانوا ضمن الأسر التي استوطنت بل أسست تمنطيط، سبق لأفرادها أول ما دخلوا البلاد النزول عند أقاربهم سكان قصر تجعفرت، وهذا ما سجله مؤلف خبير لكلامه وزن وأيُّ وزن.

ولنرجع إلى مواصلة حديث مؤلِّف **(البسيط في أخبار تمنطيط)** الذي عدَّد الأسر الواردة على تمنطيط أوائل القرن التاسع فقال: «ثم جاء من بعده ـ أي: بعد سيدي يحيى بن ابدير الذي جاء من بعد جد المؤلف السيد أبو يحيى بن محمد المنياري ـ السيد عبد

الله العصنوني، وأخوه سيدي محمد بن سيدي أبي بكر عام اثنين أو ثلاثة وستين في القرن التاسع »، ثم قال: «وتقضى الصالح العالم سيدي سالم بن محمد الولي المشهور في حياة عمه سيدي عبد الله المذكور عام أربعة عشر في القرن العاشر، ولد عام اثنين وثمانين في القرن التاسع، وفي تلك السنة جاء ابن عبد الكريم لتمنطيط، ونزل بأولاد يعقوب، وانتقل عنها لبني علي وبه ضريحه ومقامه، وهو مشهور بالعلم والولاية الباطنة، فهو آية الله في أرضه، وحجته في شريعته، وقصته في جلاء اليهود من تمنطيط حين ظهر منهم نقض العهد وخروج الذِّمة، وخالفه في ذلك القاضي المشهور سيدي عبد الله العصنوني حتى ترافعا بنازلتهما ومحاورتهما إلى علماء الآفاق من المغرب، فوافق الأكثر رأي العصنوني وقوله بناءً على الظَّاهر، ووافق من أهل الظاهر والباطن الإمام السنوسي والتنسي رأي المغيلي على ما بلغنا مِن أمرهما، واستنصر المغيلي بهما ـ أي: بالسنوسي وبالتنسي ـ وبالعناية الرَّبانية على جلاء اليهود، وقد تقدَّم أنه لم يتناطح على ذلك عنزان »، ثم قال التمنطيطي: «ومات الشيخ ابن عبد الكريم المغيلي عام تسعة في القرن العاشر (909هـ)، ومات سيدي سالم ـ أي: العصنوني ـ في ذي الحجة عام 59 في القرن العاشر (959هـ)».

نقلنا هذه الفقرات من كتاب (**البسيط في أخبار تمنطيط**) لأهميتها، إذ ما زال تاريخ انتقال الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، وكذلك انتقال القاضي عبد الله العصنوني بطلي قضية يهود توات، تلك القضية التي لا يخلو من ذكرها تأليف من تآليف ذلك العهد، ولازال إلى الآن مَعِينُها لم ينصب بعد، والتي ما زال تاريخ هجرتَيْهِما مُكْتَنَفًا بالغموض، ولذلك نجد أنّ ما ذكره في الموضوع صاحب كتاب (**البسيط في أخبار تمنطيط**) لم يسلم، وقد اطّلعت على تعليق على المخطوط الأصلي للكتاب، يقول فيه صاحبه: «إن المغيلي جاء إلى تمنطيط سنة 892هـ بدلا مِن سنة 882هـ »، وذكر « أن سيدي عبد الله العصنوني جاء إلى توات سنة خمس وسبعين من القرن التاسع بدلا مِن

سنة اثنين أو ثلاثة وستين وثمانمائة »، التي ذكرها صاحب (**البسيط في أخبار تمنطيط**)، كما وجدت في التعليق المذكور ما يهمُّ موضوع دراستنا هذه، ففي حديثه عن بعض الأسر العِلمية التي نزحت إلى تمنطيط، ذكر أسرة عبد الحق بن القاضي عبد الكريم، وقال عنها بعدما وصفها بالعلم قال: «والآن قد انقطع منهم العلم، ولم يزالوا يتشوَّقون إليه، ولم يخلوا منه كل الخلاء ... الخ»، فعلَّق المعلِّق على هذه الفقرة بقوله: «بل لابدَّ فيهم مِن أثره وبعضه، لكنه ماء راكد، لم يسل على عادته »، ثم قال: «وعندهم خزائن كتب تكررت فيها الخطاطيب والقواميس والتفاسير، أعاد الله ماءهم لمجراه، وسقى به ما حوله وما بعده، وكانوا ينتسبون لبني مرين وإلى الخزرج، ولا شكَّ أن حالهم وكرمهم وهِمَّتهم تؤذن بعلوِّ نسبهم ومقامهم، والله أعلم » اهـ.

فمن هذه الفقرات التي نقلتها يتبيَّن لنا انتشار خزائن الكتب بهذه الدِّيار، كما يتبيَّن لنا أيضا أن أصحاب هذه القصور ومؤسِّسيها كانوا ينتمون إلى أسر توارثت العلم والمجد، وما قيل مِن أن بقايا الملوك اللمتونيِّين، وبقايا دولة بني مرين كانوا في طليعة بناة بعض قصور توات كـ : تمنطيط وبودة، صحيح لا مبالغة فيه، كما أن ضبط تاريخ انتقال أسرة القاضي عبد الله العصنوني، وانتقال الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي مِن تلمسان إلى توات، تفيدنا أن بطلي قضية يهود توات: المغيلي والعصنوني كانا قريبي عهد ببلاد توات، عندما أثيرت قضية اليهود، وأن هجرة المغيلي من تلمسان وقعت إثر أحداث وقعت في عهد الملك المتوكل الزياني، والتي كان مِن ضحاياها العالم الجليل[1] أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب (**المعيار**) الذي صودرت أمواله، وهدِّمت داره، وهجر تلمسان إلى فاس، حيث توفي بها بعد وفاة المغيلي بنحو الخمس سنوات، كانت

(1) هذا مجرَّد افتراء حيث لم يتعرَّض لذلك أحد من المترجمين للمغيلي، إذ لم يتعرَّضوا للظروف التي غادر فيها تلمسان.

قضية يهود توات من القضايا الشائكة والحاسمة ببلاد المغرب العربي بصفة خاصة، وببلاد العالم الإسلامي بصفة عامة، تجلت فيها روح حرية الفكر إلى منتهى حدودها، إذ وجد كُلٌّ من الطرفين أنصارا أيَّدوا وجهات نظرهم في القضية، وكانوا يُعَدُّون بحق، في طليعة قادة الفكر في كل من تلمسان وفاس وتونس.

ولم تقتصر نشاطات المغيلي في قضية يهود توات بل ترك آثارا وكوَّن رجالا منهم الشيخ محمد بن عبد الجبار الفجيجي صاحب المركز العلمي الخالد الذكر بفجيج، وصاحب المنظومة الشهيرة في الصيد، التي مازالت تثير إعجاب كل من اطلع عليها، وكان ابن عبد الجبار الفجيجي هذا من الذين انتصروا للمغيلي في قضية يهود توات، كما نجد في بعض هذه الوثائق علاوة على أُسرَتَيْ العصنوني والمغيلي اللتين انتقلتا من تلمسان إلى تمنطيط أُسَرًا علمية أخرى انتقلت من بلاد الشمال إلى توات كأسرة مؤلف كتاب: (**البسيط في أخبار تمنطيط**)، وهي أسرة بني منيار التي ذكرها علاوة على مؤلف البسيط، الرحالة مولاي أحمد بن هاشم في رحلته، وقال إن بني منيار انتقلوا من التل الوهراني وهم أقارب قبيلة الجعافرة الذين كان لهم قصر قرب تمنطيط، كما ذكر هذا الرحالة أن زاوية ميمون بتيمي أسسها مهاجرون من تلمسان هاجروا تلمسان عند احتلال الأسبان.

ولنرجع الآن إلى مواصلة الحديث عن ذكر نماذج من تأسيس بعض القصور والمعاهد العلمية ببلاد توات، جريا على القاعدة التي كثيرا ما نكررها في موضوع بحثنا وهي: «ما لا يُدرك كله لا يُترك جله».

كان من جملة مراكز العلم التي أُسِّسَت في توات زاوية ركان، قيل إن بعض الشرفاء الفيلاليِّين انتقلوا إلى الموضع المعروف بـ: انتهت في أرض توات فرادى وجماعات، وكان من بين هؤلاء المهاجرين عالم يدعى: مولاي علي، وذلك في القرن العاشر

الهجري، حيث كان يقود قافلة تجارية إلى تمبكتو، وعند مروره على توات اشترى منه بعض تجار توات سلعا دَيْنًا، وعند عودة التاجر مولاي علي الفيلالي امتنع مَدينُه من أداء ما بذِمَّتِهِ، فأقام التاجر بتوات مدة تزوج فيها ببنت شيخ تاوريرت، وعندما رحل إلى تمبكتو أدركه المنون، وصادف أنه ولد له ولد سمي عبد الله، فخلف والده في طريقه لمَّا بلغ سن الرشد، سافر إلى تافلالت، ونزل ضيفا عند الشيخ ابن عبد الكريم المغيلي بقصر بوعلي فتلقاه بحفاوة، وغمره بالهدايا، فاشترى بها عدة قطاع زراعية ونوى السكنى بها، إلا أن سكان البرمك ألحُّوا عليه في البقاء عندهم فاستجاب لرغبتهم، وأسس غربي تاوريرت معهدا في المكان المعروف بـ:انتهت، وانتهت هذه وصف للموضع الذي انتهت فيه واحة توات، وهذا المعهد هو المعروف الآن بزاوية رقّان، وكانت تسمى أيضا بزاوية الرقّاني، ثم سافر مولاي عبد الله هذا مرة ثانية إلى القنادسة، حيث اتصل بشيخ الطريقة الزيانية وتتلمذ له، كما استوطنت توات عدة أسر شريفة كانت في طليعة الطبقات الممتازة بالبلاد، ثم تليها طبقات المرابطين التي لا تقل عنهم نفوذا وسمعة، ثم توسعت هذه الطبقات مع الزمان كمًّا وكيفًا، وكان يمثلها رجال الزوايا والعلماء والفقهاء وحُفاظ القرآن الذين كانوا يعيشون بمعزل عن الخلافات القبلية وكان القبائل عندما يقع بينهم الخلاف يتحاكمون عندهم، وكانت في طليعة القبائل المتنازعة قبائل سفيان واحْمَدْ، فكانتا تتقاتلان ومزقتا وحدة البلاد رغم الجهود التي كانت تبذلها الأسر الدينية في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإن تتبع الخلافات والحروب التي كانت تقع بين القبائل، ثم المعاهدات التي كانت تبرم بينهم إثر هذه الحروب التي نتج عنها اندثار عدة قصور، لم يبق إلا اسمها، وبعض آثارها، لا يسمح لنا مجال هذا البحث بتتبعها، فنكتفي بذكر بعضها، يتطلبها سياق هذا البحث: كان من جملة سلالة المرابطين بتوات أولاد سيدي موسى بتاسفاوت والمنحدرون منهم سكان الواجدة وفي طالمين وفي تيميمون وفي شروين، ثم يأتي من بعد

الأشراف والمرابطين طبقات العرب والبربر من زناتة، ثم الحراطين وهم من سلالة المعتوقين، ثم المماليك الذين كانوا عبيدا.

وإن هذا التقسيم لم يكن خاصا بسكان توات، بل كان ينطبق على جل سكان الصحراء والسودان، مرَّت على هذه الواحات فترات استقرار وأمن، فازدهرت بها حياتها الاقتصادية والثقافية، إذ استفادت البلاد من نخبة المهاجرين إليها الذين كان في طليعتهم رجال العلم والاقتصاد والسياسيون، فنُظِّمت وسائل الرَّي بإحداث الفقارية، وحفر الآبار الدافقة.

كما كانت تجوب البلاد قوافل التجار في غُدُوِّهم ورواحهم إلى بلاد السودان، وازدهرت الحياة الثقافية بوفرة عدد التآليف التي ظهرت، وانتشر تأسيس المعاهد الدينية والزوايا التي كونت الوحدة الثقافية بالصحراء والسودان وربطت بينهما وبين بلاد الشمال، ونتج عن هذا الازدهار أن أصبحت القصور آهلة بالسكان حتى الفقاقير وصار عدد سكان القصر الواحد يبلغ الألفين والثلاثة آلاف نسمة، واستبدل اسم القصر باسم المدينة، كمدينة أودغاغ بتنركوك وتيميمون، وبرنكان، وتمنطيط ومكرة بفنوغيل، وأدغا بتمس، وأولاد عيسى وأولاد إبراهيم، وأولاد أوشن الذين كان عددهم لا يقل عن الخمسة آلاف نسمة، ثم اجتاحت البلاد مجاعات وصف بعضَها الرحالة أبو زيد عبد الرحمٰن التواتي الذي سبق لنا الحديث عنه، وذكرنا أنه كان ينقل عن العلامة الشهير أبي بكر بن بلقاسم الزجلاوي، فذكر الرحالة عند وصفه للمسغبة التي اجتاحت البلاد في القرن الحادي عشر الهجري وبالضبط سنة 1656م، أن تلك المسغبة نتجت عن الجراد الذي بقي مدة أربعة أشهر متتابعة في توات لم يُبق بالبلاد ثمرة ولا ورقة شجر، وبلغ سعر رطل الثمر الواحد مثقالا ونصفا ذهبا، ثم صار الجراد يتردد على البلاد من دون انقطاع ثلاث سنوات لا يغادرها إلا في فترات قليلة ثم يرجع

إليها من حيث أتى، ورغم ما كانت تتلقاه البلاد من الإعانة الخارجية القريبة والبعيدة فكان عدد ضحايا هذه المجاعة يُعَدُّ بالآلاف ففي تيمي وصل عدد الأموات في بعض الأيام ألفًا، وفي مكرة دفن في يوم واحد خمسون رجلا ومائة وعشرون امرأة، ثم صار يتعذر الدفن لتلوث الجو بالروائح الكريهة، وبلغ تأثير هذه المجاعة أن صار السكان يأكلون جثث الأموات الآدميين، بعد أن أكلوا الميتة من الحيوانات، أصابت هذه المسغبة تيمي وبودة ثم تمنطيط وتامست وأعقبتها هجرة ما تبقى من السكان إلى الدغامشة وتيقورارين الذين تلقاهم سكانها بالإكرام والتبجيل خفَّفَ على الكثير منهم آثار المسغبة، كما كانت قوافل الخنافسة التجارية تنقل التمر من وادي ميزاب وورقلة وتقرت وبسكرة وتبيعه رخيصا، ثم عززتها قوافل عريب ووادي درعا التي كانت تحمل بدورها التمر والشعير والصوف، وقوافل تفلالت المحملة بالأغنام والحبوب، كل هذه الظواهر الإنسانية تدل على التضامن وعلى مصداق الحديث الشريف الذي يقول: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » أو كما قال ﷺ.

نجد هذه المسغبة لم يطل أمدها بل لم تَمُرَّ عليها خمس سنوات حتى استبدلت العسر باليسر، حيث إن الرحالة أبا سالم العياشي دخلها سنة 1664 على طريق وادي الساورة مارًّا على قصيبات (أو قصابي) فوصف البلاد التي أقامت فيها قافلته مدة فقال: «إن سبب إطالة مكثنا بتوات أنّ كثيرا من الحجاج نظرا لغلاء ثمن الذهب بتافلالت اختاروا شراءه بتوات حيث ثمنه رخيص، وكذلك الشعير والتمر، ثم إنه بهذه البلاد مجمع القوافل التجارية الواردة من تمبكتو ومن بلاد أقدز و بقية نواحي السودان. وتوجد السلع المختلفة الأنواع الواردة من البلاد المذكورة، بخلاف السلع الواردة من المغرب فإنها غالية الثمن كالخيل والثياب الملف والحرير، فعند وصولنا كان سوق البلاد عامرا» اهـ .

ولنرجع إلى مواصلة حديثنا عن تأسيس المعاهد المشهورة بتوات فنذكر تأسيس زاوية سيدي البكري التي أسستها أسرة من أسر المرابطين الذين سكنوا بقصر أولاد محمد في تمنطيط قبل تأسيس الزاوية بنحو القرن ونصف، اشتهر كثير من أفراد هذه الأسرة بالعلم والصلاح ابتداءً من القرن العاشر الهجري، وقد تولى أحد أفراد الأسرة البكرية القضاء بـ أقدز (Agadez) (هي في بلاد النيجر في العبر)، إنّ الوثائق التي يحتفظ بها بعض أفراد الأسرة تُثبت اتصالاتهم بالأدارسة وبالمرينية، أسس الزاوية البكرية سيدي محمد بن البكري بعد رجوعه من الحج، حيث تعرف بكثير من علماء المشرق الذين كان يتبادل معهم الرسائل ـ احتفظت ببعضها أسرته ـ وأنه بعد خلاف وقع بينه وبين بعض أقاربه من جهة وبينه وبين سكان تمنطيط من جهة أخرى، اشترى عدة قطاع أرضية بقصر تازداية وأسس بها زاويته التي اشتهرت ببث العلم وإيواء الفقراء والمساكين وعابري السبيل، كان لهذه الزاوية نفوذ عظيم ببلاد السودان كما كان كثير من متخرِّجيها [1] يتردَّدون على السودان، وقد احتفظ أفرادها بظهائر من أمراء السودان يستوصون بالمنتسبين إلى الزاوية البكرية خيرا في بلادهم.

تأسيس الزاوية الرقادية:

ورد إلى بلاد توات الشيخ أحمد بن محمد الرقادي من أدغاغ، فأسس الزاوية التي احتفظت باسم الزاوية الرقادية، وأحاطت بها أسر شريفة، صارت تتصرف في الزاوية الكنتية، وقد توفي سيدي أحمد الرقادي سنة 1651م.

كما نجد من الزوايا التي اشتهرت ببلاد توات زاوية سيدي أبو الأنوار، فقد ذكر الرحالة الحاج عبد القادر ابن السيد عومر التيليلاني الساكن بالمهدية في تمى في رحلته

(1) **رحلة العياشي**: ترجمة مارتان في مجموع: (**أربعة قرون من تاريخ المغرب**).

التي شرع في تدوينها سنة 1230هـ (1815م) بمناسبة اجتماع سكان منطقة توات عند تأهبه للذهاب إلى الحج وكان منطلق رحلته من قصر بوعلي وقصر تديكالت، كان مؤلف الرحلة المذكور ضمن الجماعة التي انطلقت من بوعلي، وبعد ثلاث مراحل وصلت القافلة إلى زاوية سيدي أبو الأنوار بن عبد الكريم بتيديكالت وقد عرف الرحالة السيد عبد الكريم مؤسس هذه الزاوية فقال : «ولد بتينيلان وأخذ عن سيدي محمد دين الله بتيطاف، ثم سافر إلى تكرور وبعد رجوعه أسّس هذه الزاوية التي تعرف بزاوية سيدي أبوالأنوار، وتوفي الشيخ عبد الكريم هذا مؤسس الزاوية سنة 1163هـ/ 1750م، نزلت القافلة بها وتلقاه مولاي هبة الله وأولاده بحفاوة وإكرام »، وقد ذكر الرائد مارتان في تعليقه أن هذه الزاوية هي المعروفة بزاوية هيبة بأولف.

ثم وصف الرحالة المراحل التي قطعوها في طريقهم إلى عين صالح فذكر أنهم مروا على زاوية الحنون ثم أقبلي وزاروا ضريح سيدي **عبد الله التيليلاني** إلى أن وصلوا عين صالح فتلقاهم سكانها فرسانا ومشاة رجالا ونساء بالحفاوة على عادتهم في ذلك عند ورود قوافل الحجاج إليهم، فأقاموا في عين صالح تسعة أيام في انتظار حجاج قورارة الذين التحقوا بهم، وكان عدد الجميع 126 حاجا، فمروا على حاسي أقاية ووادي تنشت.

ولنرجع الآن إلى الحديث عن بعض المعاهدات التي كان يبرمها السكان بينهم، ففي أبريل 1871 كانت أسرة من بودة تُعرف بأسرة السيد محمد عبد الكريم البربوشي وإخوته أولاد بربوشي وكل من ينتمي لهم بالقرابة أو المصاهرة، وذلك من بوة إلى رقان، عقدت هذه المعاهدة بينهم وبين قبيلتين تنتميان إلى ذوي منيع، وهم العوائد والعلاونة، اللتين تعاهدتا بضمان بقية قبائل عمور وأولاد جرير الذين يعترفون لهم بالسيادة والقيادة، وفي شهر أوت من السنة المذكورة أي 1871، اجتمع بزاوية الكنتة

جماعة بودة وتمنطيط وأولاد الحاج ثم أولاد سيدي حمو بالحاج بتيوريرين في تيطاوين، تعاهدوا بدفع ستين مثقالا سنويا لجماعة لغنانمة، وذلك إثر خلاف وقع بين الغنانمة وأولاد سيدي حمو بالحاج .

وقد عيَّن الغنانمة تسعة من رؤسائهم منهم شيخان من أولاد حمو وشيخان من أولاد رزوق وشيخان من العطاونة وشيخان من المعاضد وشيخ من أولاد حسين هؤلاء المشايخ تعاهدوا بإرجاع كل ما أخذ لأولاد سيدي حمو بالحاج عمدا أو غلطا، ففي هذه المعاهدة عُيِّن سيدي محمد سالم بن منصور الممثل الوحيد والمسؤول ببودة، كما كان الشيخ سيدي محمد بن مولاي إسماعيل من أولاد سيدي حمو بالحاج الساكن بزاوية كنته، هو الممثل المسؤول لجميع سكان ممّا بين تيلولين أي تيطاوين وهذه القصور التي ذكرت في المعاهدة بأسمائها هي : تيلولين ـ تاخفيف ـ بوعلي ـ غرم أملال ـ الزوي، وتيطاوين، وزيد في المعاهدة أن شرفاء رقان وبريش والمستور لهم الحق أن ينضموا إلى المعاهدة مع أولاد سيدي حمو بالحاج، ثم زيدت معاهدة مؤرخة ما بين 27 أكتوبر و6 نوفمبر 1871 عقدتها جماعة تمنطيط ابتداءً من قصبة أولاد الحاج المأمون إلي تيمليحة وسبخة أولاد المقدم، والأدارسة الذين يتكلمون باسم ذوي منيع وكل المتعلقين بهم مثل أولاد جرير وعمور، كما يوجد في المعاهدة فصل يُلحق بجماعة تمنطيط جماعة بودة وأولاد الحاج.

لم تقتصر علائق بلاد توات ببلاد الشمال في المجالات الثقافية والاقتصادية بل تجلّت في المجالات السياسية بوضوح، فإن أثر ثورة أبناء سيدي الشيخ التي اندلعت شمال البلاد حوالي سنة 1864 وثورة بوشوشة التي انضم إلى أولاد سيدي الشيخ حوالي سنة 1860 هاجروا وانسحب بعض هؤلاء الثوار إلى بلاد توات، ففي سنة 1863 التجأ الثائر بوشوشة وهو محمد بن التومي إلى تيديكالت حيث كانت تقيم بها أسر من قبائل الشعابنة التي سبق لها أن هاجرت الجزائر بعد تمردها على سلطات الاحتلال ، أمكن للثائر محمد بن التومي المشهور ببوشوشة أن يجمع حوله نصف

سكان الشعابنة الذين انتقلوا من نواحي ورقلة إلى نواحي تيديكالت، فكانت تيديكالت هي منطلق هجوم بوشوشة على القليعة ومتليلي سنة 1870، ثم انسحب إلى ملجئه بعد أن هزمه الجيش الفرنسي المرابط بالأغواط في وادي مرسب، ثم رد الكرة سنة 1871 وهاجم ورقلة وتقرت ثم وادي سوف، وعندما تغلب عليه الجيش الفرنسي التجأ إلى قورارة ثم قصد مرة أخرى القليعة، وعندما أخفق التجأ من جديد إلى الخنافسة بقورارة، ثم واصل مسيرته إلى تيدكالت حيث هاجم ورقلة، إلا أن آغا ورقلة الذي كان يحارب في صفوف الفرنسيين كان له بالمرصاد فنصب له كمينا جنوب تيديكالت وبعد معارك حاسمة وقع أسيرا في قبضة الفرنسيين الذين قادوه إلى عاصمة الجزائر، وأمكن لكثير من أنصاره وأتباعه الالتجاء إلى قصور تيديكالت حيث آواهم السكان ولقوا في ديارهم برا وكرما وفي نفس هذه الظروف التي التجأ فيها الثائر بوشوشة إلى تيديكالت التجأ ثائر جزائري آخر له مكانته وهو السيد قدور بن حمزة من أولاد سيدي الشيخ الذين خاضوا معارك حاسمة ضد الفرنسيين طيلة ثمانية سنوات التجأ الثائر عند الخنافسة بقورارة سنة 1872 إثر المعارك التي دارت رحاها بأم الدبداب والمنقوب وخسرها، كان أفراد قبيلة الخنافسة متصلين بأبناء سيدي الشيخ من عهد جدهم عميد الأسرة وسيدي عبد القادر بوسماحة دفين الأبيض سيدي الشيخ، فلهذه الصلة كانوا في طليعة المشاركين في ثورة أولاد سيدي الشيخ من بدايتها إلى نهايتها.

أمكن للثائر بوشوشة مدة إقامته بتيديكالت أن يجوب المناطق التواتية فوصل إلى تيمي حيث انهالت عليه الإعانات،أما أولاد سيدي الشيخ فقد آواهم الخنافسة والتحق بهم سنة 1876 اللاجئون الذين كانوا مرافقين لبوشوشة بتيديكالت وقد تفرقوا على الواحات كمنداس والتوارق، وكثيرا ما كانوا يتعرضون للقوافل التي كانت تجوب تادمايت بين تيديكالت وقورارة.

ثم انتقل أولاد سيدي الشيخ إلى ذوي منيع بواد غير، حيث كوّن السيد قدور بن

حمزة جيشا من اللاجئين والمتطوِّعين فهاجم به ورقلة وميزاب ومتليلي والقليعة، ثم رجع إلى قورارة، وفي السنة التي تلتها إلى سنة 1880 جدّد السيد قدور بن حمزة حملته تحت قيادة أخيه السيد الدين بن حمزة وأمكنه أن يغنم ألف جمل لسكان دائرة البيض قرب قصر بريزينه.

وبعد خلاف وقع بينهم وبين ذوي منيع التجأ أبناء سيدي الشيخ إلى تافيلالت فمكثوا بها سنة، ثم رجعوا إلى ذوي منيع حيث ساندوا ثورة بوعمامة سنة 1881، وعند ذوي منيع التجأ بدوره بوعمامة عندما ارتطم بالجيش الفرنسي.

كان من جملة المشاركين في هذه الثورة، أي ثورة أبناء سيدي الشيخ الذين لجأوا إلى توات علاوة على السيد قدور بن حمزة ولد عمه السيد سليمان بن قدور رئيس فرع أولاد سيدي الشيخ بالمغرب الأقصى، ثم السيد بوعمامة الذي أعلن الثورة سنة 1881، وقد دبّ في صفوفهم الخلاف، ومنشؤه تقاسم مناطق النفوذ، والذي يهمُّنا في هذه الدراسة الأدوار التي قامت بها هذه المنطقة (موضوع دراستنا) والتي برهنت على أن العلائق بين بلاد توات وبلاد الشمال لها جذور وحقائق وهي ليست مجرد ادّعاءات، يقدمها أصحابها عند الحاجة، فنجد السيد سليمان بن قدور هذا وصل إلى بودة حيث أرسل ولده إلى تيمي وذهب هو إلى الدغامشة فنصب معسكرا بين دلدول وأولاد راشد،وأرسل ولده إلى تيمي حيث تبرع سكانها عليه بالأموال الطائلة، وفي هذه الناحية اقترن السيد قدور بن حمزة مع ولد عمه السيد سليمان المذكور فقصد السيد قدور بن حمزة تينركوك و قصد السيد سليمان وادي الساورة جنوب المغرب الأقصى.

هذه صفحات ذكرناها من ماضي توات مبعثرة إلى أن خطوطها العريضة تدلنا على أنها كانت منطقة ثرية بالأحداث وثرية بمراكز الإشعاع، أحدثت في ربوعها ثورات ثقافية ساهمت في توحيد ثقافة البلاد وكانت صلةَ وصل، لا في المجال الثقافي الممتاز فحسب، بل في الميدان الاقتصادي.

وقد تعرّضتُ في محاضرتي السّابقة إلى ما وصف به العالم الجليل أحمد المقري التلمساني شركة تجارية كان يُشرف عليها أجداده وذكر بتفصيل قوافل شركة أجداده التي كانت تذهب من الشمال إلى الجنوب، قال في وصفها عندما تحدث عن جده الجامع لأسرة المقري بتلمسان قال: «ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار، واتخذوا طبلا للرحيل وراية تُقَدَّمُ عند المسير»، ثم ذكر أن الإخوة الخمسة الذين أسسوا الشركة التجارية كان كلٌّ منهم قائما بعمل فقال: «فعقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه ويملكونه على السواء بينهم والاعتدال فكان أبو بكر ومحمد وهما أرومتا نسبي من جميع جهات أمي وأبي بتلمسان وعبد الرحمٰن وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة وعبد الواحد وعلي وهما شقيقاهم الصغيران بـ : إيوالاتن، فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط والديار...»، إلى أن قال: «وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي، بما يرسم له من السلع، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان، ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان حتى اتسعت أموالهم وارتفعت في الضخامة أحوالهم، ولما افتتح التكرور كورة إيوالاتن وأعمالها، أصيبت أموالهم فيما أصيب من أموالها وصادفوا توالي الفتن ولم يسلموا من جور السلاطين، فلم يزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمان » اهـ .

وقد عرّف قبل هذه الفترة بقرون، بعض المراكز الصحراوية أبو عبيد البكري في كتابه (**المسالك والممالك**) الذي ألفه في منتصف القرن الخامس الهجري فقال في التعريف بأوداغست وسكانها فقال: «وهي مدينة كبيرة بها جامع ومساجد كثيرة آهلة في جميعها المعلمون المسلمون للقرآن وحولها بساتين...»، ثم وصف سكانها فقال: «وهم أرباب نعم جزيلة وأموال جليلة وسوقها عامر الدهر كله، لا يسع الرجل فيها

كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله، وتبايعهم بالتبر، وليست عندهم فضة، وبها مياه حسنة ومنازل رفيعة... ويجلب منها العنبر المخلو الجيد لقرب البحر المحيط منهم، وذهب أوداغوست أجود ذهب أهل الأرض وأصحه، وكان صاحب أوداغست في عشر الخمسين وثلاثمائة تين يروتان ... رجل من صنهاجة وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدي له الجزية » اهـ .

وهذا ما يفسر لنا ما عرّف به البكري قلعة بني حماد عاصمة الجزائر في أوائل القرن الخامس حيث قال: «وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة، وتمصرت بعد خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وهي اليوم مقصد التجار وبها تحل الرحالة من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة ... الخ »،من هذا التعريف لمدينة القليعة التي ورثت عاصمة القيروان التي بدأت في عهد ازدهارها تشد إليها رحال قوافل تجار العراق والحجاز ومصر والشام ... الخ. يتبين لنا أنَّ هدف هذه القوافل مناجم الذَّهب التي كانت بـ (أودغست)، وكان ذهبها كما عرَّف بذلك البكري، وقال: ذهب (أودغست) أجود ذهب أهل الأرض، كما كان أميرها الصَّنهاجي دان له أزيد من عشرين ملِكا من ملوك (السُّودان)، كلُّهم يؤدِّي له الجزية، وذلك قبل ظهور (دولة المرابطين) بأزيَد مِن قرن، وإذا تتبَّعنا البحث التَّاريخي العلمي النَّزيه، الذي مازال كبار علماء الدُّنيا يكرِّسون له حياتهم وبحوثهم، نجد مثلا العالم الاختصاصي في تاريخ الصَّحراء، وهو الباحث الشَّهير: (طادوز لويكي) (Tadeuze Leuiki) الأستاذ بـ (جامعة بولندا) خصَّص دراسة قيِّمة لـ (مؤتمر حضارات غرب البحر الأبيض المتوسِّط)، المنعقد في (جزيرة مالطة): [ما بين]: 23و28 يونيو1976م، تحت عنوان: (**أصل قبائل صنهاجة النَّازحة من بلاد الشَّمال إلى الصَّحراء**)، وهذا نصُّها بالفرنسيَّة، إذ قدَّمها صاحبها باللُّغة الفرنسيَّة:

(L'origine Nord Africaine Antique de Mystérieux Peuple saharien des Bafors)

كما ظهر كتاب آخر منذ عشر سنوات تحت عنوان: (**حضارات الصَّحراء**) للمؤرِّخ الإيطالي: (قوديو أنيليو).

وقد ظهر لنا جليًّا أنَّ البحث في قضيَّة ارتباط بلاد الصحراء ببلاد الشمال قديم جدا والاتصال وثيق، وجذوره بلغت في العمق منتهاها، لا ما يتوهَّمه كثير ممن يريدون استغلال التاريخ للأغراض، ويشوهونه على حسابها، فينشرون ظهائر يوجِّهها ملك من الملوك دون حياء أو خجل إلى خدامه وهؤلاء الذين يعنونهم بالخدام هم العلماء والصالحون والأشراف والمجاهدون وسليلو الأبطال الفاتحين، لا الملوك الذين وصفهم العلامة أحمد بن القاضي أبي محلي السجلماسي الذي وصف حالة بلاد المغرب العربي بعد وفاة الملك أحمد المنصور ا لذهبي فقال : قلت وهو أشبه شيء بزماننا هذا منذ ثمان سنين أو أكثر والأمر قد مرج، والهرج فيه عن الحد من كل وجه قد خرج، والأمة ما اتفقت فيها على واحد، وكل من تغلب على جهة قليلة منهم، إنما يبايعه من لا بال له، أومكره على بيعته خوفا من ظلمه، فسابت الأمة وعمّت البلية والغُمّة، وفاض الكفر وغاب النصر، حتى أُخذت السواحل، ولا مغيث لأهلها مع استغاثتهم لجميع القبائل، وعُطِّل فيها الأذان، وضرب الناقوس في مساجدها ونصبت الصلبان، وعبدت في محارب الله من دونه الأوثان، وكل عالم بزعمه أو صالح بوهمه، أو أمير بدعواه...الخ.

فهذا الباحث البولندي الذي قدم دراسته في مؤتمر عالمي معظم أعضائه أوروبيون اللهم إلا بعض الجزائريين والتونسيين والمغاربة، أثبت في بحثه أن أصل صنهاجة الذين اشتهروا بالصحراء قبل الإسلام بنحو الأربعة قرون نزحوا من الشمال أي من جبال بابور شمالي مدينة سطيف، فعار علينا ونحن مطالبون بربط صلتنا بماضينا أن لا نغتنم فرصة تحقيق ما تبقى لنا من الوثائق ونسجلها، بدلا من أن نترك خلفنا يجهل ماضيه، وإذا حاول أن يدرسه تعوزه المصادر، فيلجأ إلى متاهات الافتراض.

واسمحوا لي إن أطلتُ أن أختم هذه الدِّراسة بنموذج من علماء (توات) الذين

انتقلوا إلى الشَّمال، وانتصبوا للتَّدريس، وكوَّنوا جيلا من أبرز العلماء، وكان هذا العالم يتردَّد على مسقط رأسه، ويرجع إلى (الجزائر) إلى أن توفي بها (رحمه الله).

هذا العالم هو الشَّيخ العربي بن بلقاسم التَّواتي، من (أولاد سعيد)، تخرَّج من معهد علمي قرب مدينة (مازونة)، وقد عثرتُ على نصِّ الإجازة التي أجازه بها شيخه سنة 1325هـ، وتشتمل على سنده في (**مختصر خليل**) يتَّصل بالشَّيخ **عليش** الأزهري، شارح (**المختصر**) بخطِّ مترجمنا الشَّيخ العربي التَّواتي.

هذا، وإنِّي إن ذكرتُ هذا العالم كنموذج للرِّباط المتين الذي كان يجمع بين سكَّان هذه المنطقة وبلاد الشَّمال، وزاد مع الأيَّام متانة، فللدِّلالة على أنَّ هذه الرَّوابط قائمة بنفسها، تثبت وجودها مِن دون تكليف أو لجوء إلى أبواقٍ للدِّعاية، فما علينا إلاَّ أن نبرزها وننشرها، ومِن ناحية أخرى نرى أنَّ هذه المناطق رغم تدهورها مع الزَّمان، احتفظت وما زالت تحتفظ بتراث ثقافيٍّ مستقلٍّ، كما ما زالت آثارها تنمُّ على حيويته، خصوصا في الجوانب التي روَّض الكثير من سكَّان هذه البلاد أنفسهم عليها، ووجود معهد علمي ديني بقاعدة المنطقة (**أدرار**) يديره رجلٌ يمثِّل علماء السَّلف، لَدليل على امتداد المراكز الثَّقافيَّة المثاليَّة بهذه الرُّبوع، ويمكن لخلفِها أن يردِّد قول الشَّاعر العربي:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جَمَعتْنا يا جرير المجامع

وقول الآخر:

تلك آثارنا تدلُّ علينا ... فانظروا بعدنا إلى الآثار

والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ماضي المسيلة السياسي والثقافي عبر التاريخ
والخلاف بين زيري بن مناد وجعفر بن علي أمير المسيلة[1]

إنَّني سأتناول بالبحث في هذه المحاضرة: دور المسيلة الثقافي والسياسي، وأركِّزه على الخلافات التي وقعت بين زيري ابن مناد الصنهاجي المشهور وبين أمير المسيلة والزاب، جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي.

ومما لا شك فيه أن مدينة المسيلة قامت بدور ملموس في تاريخ بلاد الزاب، التي كانت منطقة حساسة جوهرية، في عهد الفتوحات الإسلامية واستمرت علي ذلك إلى أواخر القرن السادس الهجري، إن مسيرة الدولة الموحِّدية.

وإنني في هذه السلسلة من المحاضرات عبر أمهات مدن الوطن، تعهدت أن أتعرض فيها لتاريخها الخاص وهو التاريخ الجهوي، وارتباط تاريخ هذه المنطقة بتاريخ البلاد هو جزء من التاريخ العام، لا تاريخ الجزائر فحسب، بل تاريخ الإسلام العام، ومما يجب أن يلفت له النظر، هو أن تاريخنا دائما في حاجة إلى مزيد من البحث والتحقيق، لتجريده من الرواسب التي ألصقت فيه، والغلطات التي تسربت إليه، بعضها عمدا، وبعضها خطأ وغفلة، والذين يرون أن تاريخ هذه المنطقة قتل بحثا، والاشتغال به تضييع للوقت، إذ هو ينافي ما يقتضيه العصر الذي هو عصر اكتشافات واختراعات، وعصر رواد الفضاء، ثم إن كثيرا ما نجد أصحاب هذه الادعاءات

---

(1) نص المحاضرة التي ألقيت يوم الاثنين 20/ 6/ 1977م بمتوسطة أبي علي حسن بن علي المسيلي، بمدينة (المسيلة).

يتهمون هذا النوع من الباحثين بأنهم رجعيون ومتعصبون، والحقيقة أن دراسة تاريخ البلاد، وإعادة النظر فيه، بناء على ما جد من الاكتشافات للوثائق، والمصادر التي كانت في حكم المفقود، لا ينافي مسايرة العصر في مجال التقدم العلمي إذ لا منافاة بينهما، فالأمم المتقدمة في عصرنا هذا والتي أعطت الأمثلة في ميادين السبق إلى الاختراعات والاكتشافات العلمية، نجدها في مقدمة الدول المعتنية بهذا النوع من البحوث لتاريخ دول بادت ولم تبق من حضاراتها إلا الأطلال، من ذلك أني حضرت في السنة الماضية صحبة ثلة من أساتذة جامعة الجزائر بمؤتمر انعقد في جزيرة مالطة موضوعه: (**دراسة حضارات غربي البحر الأبيض المتوسط**) وكان عدد الباحثين والباحثات يربو على 70، كانت أعمال المؤتمر التي دامت أربعة أيام تنعقد بجامعة مالطة تحت رئاسة وزير ثقافتها المتخصص في عدة فروع من هذه الحضارات، وكان رغم كبر سنه يقضي طول نهاره مع المؤتمرين الذي من بينهم من بلغ أرذل العمر من رجال ونساء، وكثير من هؤلاء الباحثين كانوا لا يعتمدون في دراساتهم إلاَّ على الاكتشافات الأثرية، مثل ما وُجد مكتوبا على النصب التذكارية، أو شواهد القبور، أو الأسلحة والأدوات المنزلية ... الخ، وقد تتبعوا دراسة هذه الحضارات مثل حضارة الفينيقيين مثلا من مهدها إلى لحدها، أي كل ما يعبر عنه أهل زماننا « بالحياة اليومية ».

أما نحن كمسلمين فإننا نرى أن كل منطقة ببلادنا، لها ارتباط بالتاريخ الخاص أعني تاريخ الجزائر والمغرب العربي، والتاريخ العام البشري، فإننا أحوج الناس إلى تولية هذا الجانب بمزيد من العناية، وأن تاريخ هذه المدينة أي المسيلة، موضوع بحثنا هذا ميزته أن منطقتها قامت بأدوار عبر التاريخ، لها صلة وارتباط وثيق بالفتوحات الإسلامية، إلا أننا مع الأسف عندما نلقي نظرة على ما وصلنا من تاريخها المسجل نجده يحمل أخطاء لا مبرر لها، كما أن كثيرا من مصادر هذا التاريخ كانت مجهولة،

ووصلنا بعضها محرفا، فأردت في هذه الدراسة التي ليس المقصود منها إلقاءها في هذه القاعة فقط، بل تسجيلها ونشرها لتعميم فوائدها ولإثارة همم الباحثين من أبنائنا الطلبة والطالبات. الذين يجب عليهم قبل غيرهم الاعتناء بتاريخ بلادهم، إذ « ما حك جلدك مثل ظفرك » ولا نقصد بهذا التاريخ القديم فقط، بل تاريخها الحديث، خصوصا في العهد العثماني، وأوائل عهد الاحتلال الفرنسي، ومعظم هذا التاريخ، أي تاريخ العهد العثماني وما بعده يوجد مسجلا في الشعر الشعبي وفي بعض وثائق النسب المحفوظة عند بعض الأسر أو الإجازات العلمية، أو ما يسجله بعض الفقهاء في المخطوطات من تاريخ الازدياد أو الوفيات حيث إنهم يؤرخونها تارة بالتاريخ الهجري أو بتاريخ الأحداث التي كانت تقع في البلاد وتكتسب شهرة، هذه كلها سجلات هامة للتاريخ الجهوي، ولازلنا نكتشف الكثير منها داخل البلاد وخارجها، فإننا لهذا أردنا اغتنام هذه الفرصة، للفت الأنظار إليها، كما لا يخفى على حضراتكم أن إحياء التراث يتوقف على جمع ما تبقى منه، وتحقيقه ثم نشره لضمان بقائه، والانتفاع به، إذ المخطوط المنفرد الذي لا توجد منه إلا نسخة واحدة إن ضاع لا يعوض بخلاف إذا طبع منه ولو مائة نسخة فذلك أضمن لبقائه واستمرارية الانتفاع به.

ولنرجع إلى صميم موضوع بحثنا الذي خصصناه لتاريخ مدينة المسيلة، وتاريخ المسيلة الثقافي والسياسي يحتاج إلى سلسلة محاضرات أو بعض مجلدات، وإنما عملا بالقول المأثور وهو: ما لا يدرك كله لا يترك جله، فإننا نقتصر على ما يسمح لنا به مجال هذه المحاضرة المحدود.

فإن المسيلة التي عرفت بعد تأسيسها بالمحمدية، بنيت سنة 313 هـ ، وقيل أن هذا التاريخ هو تاريخ الشروع في بنائها الذي انتهى منه سنة 315 هـ ، على خلاف في ذلك بين المؤرخين، وموقعها الجغرافي في بلاد الزاب التي اشتهرت ابتداء من

الفتوحات الإسلامية، إذ ببلاد الزاب دارت المعارك الحاسمة، التي خاض غمارها الفاتحون الأولون، ولقي فيها الفاتح الشهير عقبة بن نافع الفهري وأصحابه حتفهم، كانت هذه المعارك والكمين الذي سقط فيه عقبة وصحبه، قرب مدينة طبنة الشهيرة التي كانت من أعظم مراكز الروم، وهم البيزنطيون، ثم اتخذها كسيلة مقرا وقاعدة مملكته أثناء غزوات المسلمين، كانت مدينة طبنة كما وصفها الجغرافي الشهير الأندلسي أبو عبيد البكري، أعظم مدينة بين مدينتي القيروان وسجلماسة، ولهذه المكانة اتخذها الفاتحون المسلمون قاعدة الزاب التابع إذ ذاك للعاصمة الأولى بإفريقية وهي مدينة القيروان، فكانت مدينة طبنة هي العاصمة الثانية وقد وصفها كثير من الرحالين، وبطبنة هذه تولى واليا إبراهيم بن الأغلب، الذي عندما اعترف الخليفة العباسي هارون الرشيد بالاستقلال الداخلي لعامله بإفريقيا انتقل منها، أي من طبنة واستقر بالقيروان، وكانت هذه الدولة هي الدولة الأغلبية التي خلد لها التاريخ أمجادها وقد خصصها كثير من المؤرخين بدراسات وتآليف قيمة كان من جملتها دراسة الأستاذ قندريدي مدير مدرسة قسنطينة في عهده ضمن تاريخها أطروحته التي نال بها الدكتوراه، والدولة الأغلبية هذه هي التي قضت عليها الدولة الفاطمية العبيدية وعلى أنقاضها بنت دولتها الناشئة بإفريقيا أي ببلاد المغرب العربي الحالي، والحديث عن الدولة الفاطمية الشيعية وكيفية تكوينها مشهور، ولضيق الوقت أجنب المستمعين والمستمعات الدخول في التفاصيل، اللهم إلا ما يقتضيه سياق الحديث.

اعترف بعبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي قبل توليته الحكم، وكان علي بن حمدون هذا في طليعة نخبة تلامذة وأنصار عبيد الله المهدي، فلما قضى عبيد الله على الدولة الأغلبية واستتب له الأمر بإفريقيا، أسس مدينة قرب طبنة قاعدة الزاب إذ ذاك سماها المحمدية، ثم تغلب عليها اسم

المسيلة، وولى عبيد الله المهدي عليها علي بن حمدون، فبقى أميرا عليها إلى أن توفي في حرب الثائر الخارجي الذي أقض مضاجع الملوك الفاطميين، وهو مخلد بن كيداد المشهور بأبي يزيد الخارجي، كان موت علي بن حمدون حوالي سنة 334هـ ، فخلفه على ولاية المسيلة ولده جعفر بن علي بن حمدون، فاقتضى نظر الملك الشيعي إذ ذاك أبو القاسم القائم بن عبيد الله المهدي باتخاذ المسيلة قاعدة الزاب بدلا من طبنة وعين جعفر بن علي واليا على الزاب كله، فنقل الأمير جعفر إطارات الدولة من طبنة إلى المسيلة التي تمصرت، وبنى فيها جعفر القصور والحدائق وسكنتها جالية أندلسية، فكانت حضارتها أندلسية، ولهذا اختارها الملوك الفاطميون وبنوا بها القصور التي خلد ذكرها شاعر البلاد المسيلي الخالد الذكر ابن هانئ الأندلسي، ولهذا نجد أن الملك المعز لدين الله الفاطمي ولد بالمسيلة، وبها نشأ مع جعفر بن علي أميرها وبلقين ابن زيري بن مناد، وهنا بين قوسين نذكر أنه يوجد في كثير من كتب التاريخ أن المعز لدين الله الفاطمي ولد بالمهدية، وهذا خطأ.

فوثائق الدولة الفاطمية التي كشف عنها القناع في السنوات الأخيرة وطبعت صريحة في أن الملك المعز ولد في المسيلة، ومن جملة أصحاب هذه الرواية أبوعلي منصور العزيزي في تأليفه: (**سيرة الأستاذ جوذر**) المعاصر للملك المعز، وقد طبع هذا التأليف أخيرا فيما طبع من (**سلسلة مخطوطات الفاطميين**)، وأثار هذا التأليف اهتمام كثير من المؤرخين مسلمين وأجانب من المتخصصين في تاريخ الدولة الفاطمية، فأصلحوا على ضوء ما وجدوه في هذه الكتب التي منها: (**سيرة الأستاذ جوذر**) كثيرا من الأخطاء، تسربت إلى تاريخ الفاطميين وتركت الكثير من المؤرخين القدامى يعتمدون على ما وصلهم من مؤرخي الفترة التي أعقبت تفكك عرى الدولة الفاطمية ثم اضمحلالها فشوهوا تاريخها، ولم ينج من هذه الاستهتارات إلا ابن خلدون الذي كان متحفظا.

خلد تاريخ المسيلة ومعالمها الشاعر المشهور ابن هانئ الأندلسي، إلا أن ابن هانئ لقي مقاومة من معاصريه، إذ سبق له قبل مغادرته الأندلس انحراف في سلوكه، وقيل إن خصومه كانوا أقوياء وكان السبب في ذلك التنافس بين بلاطات المغرب والمشرق، وذلك أنه في عهد ابن هانئ، أي: أوائل القرن الرابع الهجري، اشتهر بالمشرق الشاعر الذي ملأ شعره الدنيا أبو الطيب المتنبي، وكان أبو القاسم محمد بن هانئ اشتهر في بداية أمره بالمسيلة إذ فيها لازم بلاط أميرها جعفر بن علي بن حمدون وأخاه يحي ومدحهما، كما مدح بعض أفراد أسرهما، فلقب بمتنبي المغرب فاغتاظ لذلك كثيرا من شعراء وأدباء المشرق وفي طليعتهم أبو العلاء المعري، الذي كان إذا سمع شعر ابن هانئ يقول: «ما أشبهه إلا برحى تطحن قرونا لأجل القعقعة التي في ألفاظه »، ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ، ثم قال ابن خلكان راوي هذا الحديث في ترجمة ابن هانئ: «ولعمري ما أنصفه في هذا المقال، وما حمله على هذا إلا فرط تعصبه للمتنبي ».

وإننا نحن الجزائريِّين لولا شعر ابن هانئ لبقيت جوانب من تاريخ المسيلة وأميرها جعفر بن علي مجهولة تماما.

والمسيلة كما سنرى كانت مرتبطة منذ تأسيسها بالدولة الفاطمية وملوكها، ثم جددت صيتها بملوك بني حماد الذين رغم استبدالهم لمدينة المسيلة كقاعدة الزاب بالقلعة التي أنشأها حماد بن بلقين زيري، بن مناد واتخذها قاعدة الزاب بدلا من المسيلة، بقيت المسيلة محتفظة بصلتها مع ملوك بني حماد وأبناء عمهم بني زيري، وقد احتفظت ببعض قصورهم منها قصر السيدة الذي دفن فيه تميم بن المعز بن بإدريس وذلك سنة 501هـ .

كان الملك المعز الذي التحق ببلاطه الشاعر بن هانئ وخلد كثيرا من مآثره في قصائده خصوصا في القصيدة التي هنأه فيها بفتح مصر وبانتصاراته في حروبه، كما

خصص كثيرا من قصائده لمدح قائده البطل الشهير جوهر الصقلي فاتح مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط، كان الملك المعز يراعي هذا الشاعر أي ابن هانئ ويتباهى به ويريد أن يكسبه مكانة في مصر بعد وفاة أبي الطيب المتنبي، ولهذا تأسف المعز لوفاته، ويذكر أنه عندما بلغه نبأ وفاة ابن هانئ قال متأسفا: «كنا أردنا أن نباهي به شعراء المشرق »، يقصد بشعراء المشرق أبي الطيب المتنبي.

كما أنه راجت رواية أن ابن هانئ اجتمع بأبي الطيب في القيروان، وقد ضعف هذه الرواية بعض الباحثين المعاصرين.

لازال الباحثون مهتمين بآثار المسيلة، إذ تاريخها كما ذكرنا ذلك مرارا مرتبط بتاريخ الزاب الذي كان منطقة حساسة منذ بداية الفتح، وتعاقب على هذه الفتوحات أمراء ودول اتخذوا هذه المنطقة مركزا حربيا وحضاريا، وألحقوا بها مدينة المسيلة التي كان دورها حضاريا ممتازا إذ كانت حضارتها أندلسية رائقة، ولذلك اتخذها الملوك الفاطميون مقرا للراحة والاستجمام واستبدلوها بقصور رقادة والمهدية والمنصورية والقيروان طيلة مدة إقامتهم ببلاد المغرب العربي الحالي.

اشتهر الشاعر ابن هانئ من بين الشعراء الذين كانوا في عهد الفاطميين بأن جل قصائده خصصها لمدينة المسيلة، ومعالمها، وحياة أمرائها جعفر بن علي وإخوته، ولهذا نجد كثيرا من الباحثين مسلمين وأجانب مهتمين إلى عهدنا هذا بدراسة ابن هانئ، ومن بين هذه الدراسات التي اخترناها في موضوع بحثنا، دراسة الباحث الخبير المتخصص في تاريخ الأدب الأندلسي قديمه وحديثه المستشرق الشهير عند دارسي تاريخ الأدب العربي بالأندلس إيميلو قارصيا قوميس (Emilio Garcia Gomez) فإنه خصص ابن هانئ بعدة دراسات، منها دراسة قيمة مفيدة، خصصها للشاعر أبي الطيب المتنبي، وقد ذكر قارسيا قوميس هذا ما كتبه في الموضوع المستشرق الفرنسي رجيس بلاشير:Régis)

Blachère الذي نشر دراسة عن أبي الطيب المتنبي، وأثره في الغرب، أي بلاد المغرب العربي والأندلس، وادعى المستشرق رجيس بلاشير في دراسته أن ابن هانئ اجتمع بالمتنبي في القيروان، فنفى المستشرق الإسباني قارسيا قوميس هذا الزعم، وذكر أن الذي ثبت حقيقة، وإنما غفل عنه رجيس بلاشير ولم يتعرض له، هو أن ابن هانئ خصص المتنبي بقصيدة وقد اطلع عليها قارسيا قوميس في ديوان ابن هانئ الذي حققه وشرحه (أو علق عليه) علي زاهد وسماه: (**تبيان المعاني في شرح ديوان ابن هانئ** الأندلسي المغربي)، كما ذكر قوميس في دراسته أن القزاز المتوفى سنة 412هـ/ 1021م، ألف كتابا سماه: (**كتاب ما أخذ على المتنبي**) ذكر فيه أن من جملة من تأثر بالمتنبي من أدباء المغرب العربي ابن رشيق المسيلي وابن شرف القيرواني، والملك المعز لدين الله الفاطمي ... الخ.

ولنرجع إلى القصيدة التي ذكرها المستشرق قارسيا قوميس وقال إن ابن هانئ خصصها لأبي الطيب المتنبي وهي تحتوي على 21 بيتا وقد ترجمها قوميس بتمامها، وذكر حسبما نقله عن شرح ديوان ابن هانئ الذي حققه علي زاهد المذكور آنفا، قال: إن السبب في هذه القصيدة أن رجلا ادعى أنه كانت له علائق مع أبي الطيب المتنبي وأنه راجع معه، أي مع المتنبي بعض قصائده وأن هذه القصائد مع التعاليق عليها سجلت في شرح الديوان الذي هو من أملاكه، فحينئذ طلب منه ابن هانئ أن يعيره له فأجابه لمرغوبه وعندما طالت المدة طلب صاحب الديوان ابن هانئ باسترجاعه واستعمل أسلوبا رآه ابن هانئ غير مرضي، فأرسله إليه مصحوبا بقصيدة سجل فيها ابن هانئ انطباعاته عن الديوان وصاحبه المتنبي ومعيره إياه، وهذه هي قصيدة ابن هانئ:

تنبـــأ المتنبـــي فـــيكم عصـــرا ... ولـــو رأى رأيكـــم في شـــعره كفـــرا
مهـــلا فـــلا المتنبـــي بـــالنبي ولا ... أعـــدوا أمثالـــه في شـــعره الســـورا
تهـــتم علينـــا بمـــرآه وعلكـــم ... لم تـــدركوا منـــه لا عينـــا ولا أثـــرا

هـذا عـلى أنكـم لم تنصـفوه ولا أورثتمـوه حميـد الـذكر إن ذكـرا
ويلمــه شــاعرا أخملتمــوه ولم نعلـم لـه عنـدنا قـدرا ولا خطـرا
فقـد حملـتم عليـه في قصـائده مـا يضـحك الثقلـين الجـن والبشـرا
صحفتم اللفظ والمعنـى عليـه معـا في حالـة وزعمـتم أنـه حصـرا
إذ تقسـمون بـرأس العـير أنكـم شافهتموه فهـل شـافهـتـم الحجـرا
فـما يقـول لنـا القرطـاس ويلكـم إنـا نـرى عظـة فـيكم ومعتـبرا
شـعرا أحطـتم بـه علـما كـأنكم فاوضـتم العـير في فحـواه والحمـرا
فلـو يصـيخ إلـيكم سـمع قائلـه مـا بـات يعمـل في تحبـيره الفكـرا
أريتمـوني مثـالا في روايـتكم كـالأعجمي أتـى لا يفصـح الخـبرا
أصـم أعمـى ولكنـي سـهرت لـه حتـى رددت إليـه السـمع والبصـرا
كانت معانيـه لـيلا فامتعضـت لـه حتى إذا مـا بهـرن الشـمس والقمـرا
ضـجرتم وأتانـا مـن ملامكـم ومـن معاريضكم مـا يشـبه الضـجرا
تـترى رسـائلكم فيـه ورسـلكم إذا أتـت زمـرا أردفتـم زمـرا
فلـو رأى مـا دهـاني مـن كتـابكم ومـا دهـى شـعره مـنكم لمـا شـعرا
ولو حرصـتم عـلى إحيـاء مهجتـه كـما حرصـتم عـلى ديوانـه نشـرا
هبـوا الكتـاب رددنـاه برمتـه فمـن يـرد لكـم أذهـانه أخـرا
لئن أعدت علـيكم منـه مـا ظهـرا فـما أعـدت علـيكم منـه مـا اسـترا
أعرتمـوني نفيسـا منـه في أدم فمن لكم أن تعاروا البحـث والنظـرا

ولابن هانئ كما ذكرنا قصائد كثيرة مدح بها أمير المسيلة جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي وآخاه يحي وبعض أفراد أسرتها، كما أن له قصائد كثيرة مدح بها الملك المعز لدين الله الفاطمي وأساطيله البحرية، ولما كان مجال هذا البحث محدودا نقتصر على قصيدة وصف فيها دارا بناها بالمسيلة إبراهيم بن الأمير جعفر بن علي قال فيها:

الشـــمس عنـــه كليلـــة أجفانهـــا عـــبرى يضـــيق بســـرها كتمانهـــا
لـــو تســـتطيع ضـــياءه لـــدنت لـــه يعشـــــو إلى لمعانـــــه لمعانهـــــا
وأريكهـــا تخبـــو عـــلى برجائهـــا لم تخـــف مذعنـــة ولا إذعانهـــا
إيـــوان ملـــك لـــو رأتـــه فـــارس ذعـــرت وخـــر لســـمكه إيوانهـــا
واســـتعظمت مـــا لم يـــخلد مثلـــه ســـابورها قـــدما ولا ساســـانها
سجدت إلى النيران أعصرتها ولـو بصـرت بـه سـجدت لـه نيرانهـا

ومع هذه القصائد كلها كان يشيد بالزاب إذ يقول فيه:

إنـما الـزاب جنـة الخلـد فيهـا مـن نـداه غضـارة التفويـف

وإنما وجدنا أدباء المغرب أيضا يتحاملون على ابن هانئ، فإنهم كثيرا ما كانوا ينصفونه بخلاف أدباء المشرق، أمثال ابن شرف الذي قال في انتقاده: «وأما ابن هانئ، فرعدي الكلام، سردي النظام، متين المباني، غير مكين المعاني، يجفو بعطفها عن الأوهام، حتى تكون كنقطة نظام، إلا أنه إذا ظهرت معانيه، في جزالة مبانيه، رمى عن منجنيق، يؤثر في النيق، وله غزل قفري لا عذري، لا يقنع بالطيف، ولا يشفع فيه بغير السيف ».

إلى أن يقول: «وكانت عند أبي القاسم (أي: ابن هانئ) مع طبعة صبغة، فإذا أخذ في الحلاوة والرقة، وعمل بطبعه وعلى سجيته، أشبه الناس، ودخل في جملة الفضلاء، وإذا تكلف الفخامة، وسلك طريق الصنعة، أضر بنفسه، وأتعب سامع شعره، ويقع له من الكلام المصنوع والمطبوع، في الأحايين أشياء جيدة، ثم ذكر له من كلا القسمين، بيتا، بيتا، ثم قال فهذا كله جيد وقد زاد فيه على البحتري ... الخ ».

فإننا نرى من هذه الفقرات أن ابن شرف غير مائل عن جادة الإنصاف، ولا هائم على وجهة في الشطط والاعتساف، نقتصر في حديثنا على هذه الفقرات من ترجمة ابن

هانئ الذي يشخص العصر المزدهر من تاريخ مدينة المسيلة وولايتها، وقد تعرض لحياته كثير من الكتاب والأدباء، وقارنوا بين شعره وشعر أبي الطيب المتنبي الذي تسرب شعره إلى بلاد المغرب في عهده، ومن بين الكتاب الذين تعرضوا للمقارنة بينهما، ابن خلكان وياقوت الحموي وابن المؤيد والذهبي وغيرهم، كما أن كتابا وباحثين آخرين حاولوا المقارنة بين ابن هانئ وأبي تمام، منهم ابن الآبار في التكملة، وقد شارك هؤلاء الكتاب بعض المعاصرين، وهو الأستاذ سعد الدين ابن شنب مدير جامعة الجزائر بعد الاستقلال، والمتوفى في السبعينات من القرن الجاري الميلادي فقد قدم دراسة قيمة عنوانها: (**أبو القاسم محمد ابن هانئ الشاعر الأندلسي وأحكام الأدب عليه**)، ألقاها في المؤتمر الثامن المنعقد بمدينة الرباط (المغرب الأقصى) في شهر أفريل من سنة 1933، ونشرها في مجلة الشباب التي كانت تصدر بقسنطينة بعددها الثامن المؤرخ في سنة 1933.

كان بعض هؤلاء الأدباء عند مقارنتهم بين الشاعرين يرون الاستدلال على تأثر الشعراء المغاربة بالمشارقة، لا للمفاضلة بينهم، وقد رأينا مما سبق أن أبا علاء المعري كان في طليعة هؤلاء الأدباء ولهذا عندما اطلع على قصد بعض الكتاب الذين نزعوا في بحوثهم إلى المقارنة بين ابن هانئ وأبي الطيب صب على ابن هانئ جام غضبه وساق في (**رسالة الغفران**) بيتين من شعر ابن هانئ مدح بهما الملك المعز لدين الله الفاطمي وصرح بأن شعر ابن هانئ عار عن الأفكار، وإنما هو مملوء بالألفاظ المزخرفة، إلا أن ابن خلكان، وكذلك قارسيا قوميس رأيا أن السبب في تحامل أبي العلاء على ابن هانئ، هو إعجابه المفرط بأبي الطيب، وقد أظهر علي زاهد محقق ديوان ابن هانئ، في تقديمه، لوجوه الشبه بين الشاعرين وكثيرا ما فضل أحدهما على الآخر، وختم فصله الذي عقده للمقارنة بينهما، إن كلا من الشاعرين هاجر موطنه وعاش في بلاد الغربة، كما أن كلا منهما احترف الشعر، ومات قتيلا في ريعان الشباب، ولكن علي زاهد لم يطلع على القصيدة التي خصصها ابن هانئ للمتنبي

مما يدل على إطلاع ابن هانئ على شعر المتنبي وتأثره به حيث اقتبس منه في بعض قصائده كالقصيدة التي مدح بها المعز لدين الله الفاطمي.

وإننا إذ ذكرنا هذه الصفحات من ترجمة ابن هانئ الذي خلد مآثر المسيلة ومعالمها، وخصص أميرها جعفر بن علي وأفراد أسرته بديوان شعره، كما خلد مآثر الملوك الفاطميين الذين التحق بهم، لازال هذا الشاعر محل اعتناء رجال الفكر والأدب من مختلف الملل والنحل، فعار على أبناء المسيلة والزاب أن يزهدوا في تراث بلادهم، أو يعتمدوا على الدراسات التي كثيرا ما وصلتنا مشوهة ناقصة، إذ من السهل مقارنتها مع ما جد من الاكتشافات للتراث الفاطمي، الذي كان موءودا طيلة قرون، واهتمت بإحيائه في هذه السنوات الأخيرة المكتبة الشرقية فحققت الكثير منه ونشرته.

ولنواصل حديثنا عن الخلافات التي وقعت بين زيري بن مناد الصنهاجي، وجعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي، تلك الخلافات التي انتهت بقتل جعفر بن علي زيري ابن مناد، ومغادرته إمارة المسيلة للأبد وقد حاول كثير من الباحثين كشف الغطاء عن الأسباب الداعية إلى هذه الخلافات، فكانت هذه المحاولات مجرد افتراضات إلى أن نشرت بعض الوثائق الفاطمية فأنارت الطريق، ومن هذه الوثائق كتاب: (**سيرة الأستاذ جوذر**) لأبي علي منصور العزيزي الذي طبع منذ سنوات قليلة في سلسلة مخطوطات الفاطميين.

ولنبدأ بترجمة جعفر بن علي أمير المسيلة: فهو جعفر بن علي بن حمدون بن السماق بن مسعود بن منصور الجذامي الملقب بابن الأندلسي، أصل أسرتهم من الشام، وانتقل جدهم عبد الحميد إلى الأندلس فاستوطن البيرة، ثم تنقل حفيده علي بن حمدون والد جعفر إلى بجاية فصحب فيها أبا عبد الله الشيعي الداعي والمؤسس للدولة الفاطمية، ورافق علي ابن حمدون هذا عبيد الله المهدي إلى سجلماسة وسحب معه وبعد تأسيس

الدولة الفاطمية فعين علي بن حمدون هذا واليا عليها، ولما توفي علي بن حمدون كما تقدم في حروب الثائر أبي يزيد الخارجي حوالي سنة 334 هـ خلفه ولده جعفر بن علي، على ولاية المسيلة، فحينئذ اتخذت المسيلة قاعدة الزاب بدلا من طبنة وعين جعفر واليا على الزاب فتمصرت المسيلة التي نقلت إليها معظم إطارات الدولة الذين كانوا بمدينة طبنة، واكتست حضارة المسيلة طابعا أندلسيا، وفي ذلك العهد، أي عند اندلاع ثورة مخلد بن كيداد المشهور بأبي يزيد الخارجي التي لقي فيها أمير المسيلة علي بن حمدون حتفه، وكلفت هذه الثورة الدولة الفاطمية الخسائر الباهظة في المال والرجال وكاد اليأس أن يستولي عليهم خصوصا بعد سقوط عاصمة الدولة القيروان، التي أقام فيها الثائر أبو يزيد وضرب بها السكة، لأخبار تطول: وتحصن الفاطميون بالمهدية ليسهل عليهم مغادرة المملكة على طريق البحر فاستنجدوا بزيري بن مناد الذي كان يقود أعظم جيش وأقواه فكان لتداخله أثر ملموس حيث فك حصار المهدية وتتبع زيري الثائر إلى أن هزم بجبل كيانة قرب المسيلة، وجبل كيانة هذا هو الذي بنيت على إحدى قممه مدينة قلعة بني حماد، وكثيرا ما نجد المؤرخين يطلقون عليه اسم كتامة أي جبل كتامة بدلا من جبل كيانة، فمن ذلك العهد تألق نجم زيري بن مناد وعشيرته خصوصا ابنه القائد البطل بلقين.

وكانت المسيلة ونواحيها آهلة بقبائل زناتة، أمثال هوارة وبني يرزال وزنداج وصدراته ومزاتة، وأن العداوة بين قبائل صنهاجة وقبائل زناتة محكمة، والحروب بين الفريقين متواصلة وإن ظهرت دول زناتة بعد الفتوحات الإسلامية مباشرة وكونوا دولتين عظيمتين كدولة بني خزر ملوك مغراوة الذين كان موطنهم الأصلي بين سهول مليانة وتلمسان، ويقاسمهم بنو عمومتهم أمراء بني يفرن الذين أسسوا مدينة تلمسان، وكان زعيمهم في ذلك العهد يعلى بن محمد اليفرني مؤسس مدينة ايفكان قرب معسكر.

وعندما ظهرت دولة الفاطميين تحاربت مع دولة بني خزر وانتصر عليها بنو خزر وأعقب تلك الحروب صلح، إلا أن دولة يعلى اليفرني لقيت حتفها وخرب جوهر الصقلي قائد الفاطميين قاعدتهم ايفكان التي لم تحظ بالبقاء إلا سنوات قليلة ثم وقعت حرب من جديد بين مغرواة والفاطميين سنة 360هـ انهزمت فيها مغراوة شر هزيمة وكان القائد المنتصر بلقين بن زيري بن مناد.

هذه بالجملة الأطوار التي مرت على البلاد بعد اتصال زيري بن مناد وعشريته بالفاطميين وانتصارهم لهم عندما حوصروا بالمهدية، فمن هذا العهد صارت مكانة زيري وولده عند الفاطميين تمتاز عن جميع قادة جيوشهم وأنصارهم من المتأخرين والقدامى أمثال قادة وزعماء قبيلة كتامة، وكان أول من أحس لهذا وتأذى منه أمير المسيلة جعفر بن علي إلا أنه كظيم الغيظ.

وقبل أن نواصل حديثنا على موقفه مع زيري بن مناد نرجع إلى تتمة بقية الحديث عن مدينة المسيلة التي عرفها كثير من الجغرافيين والمؤرخين من بينهم الشريف الإدريسي الذي عرفها بقوله: «وهي مستحدثة استحدثها علي بن الأندلسي، وهي عامرة في بسيط من الأرض، ولها مزارع ممتدة أكثر مما يحتاج إليه، ولأهلها سوائم خيل، وأغنام وأبقار، وجنات وعيون وفواكه، وبقول ولحوم ومزارع قطن وقمح وشعير.

وبعد أن ذكر القبائل البربرية التي كانت تسكنها ـ وسبق لنا ذكرها ـ قال: «وهذه المدينة أيضا عامرة بالناس والتجار، وهي على نهر فيه ماء كثير، مستنبط على وجه الأرض، وليس بالعميق، وفيه سمك صغير فيه طرق حمر حسنة، ولم ير في بلاد الأرض المعمورة، سمك على صفته، وأهل المسيلة يفتخرون به، ويكون مقدار هذا السمك من شبر إلى ما دونه، وربما اصطيد منه الشيء الكثير فاحتمل إلى قلعة بني حماد، وبينهما 12 ميلا »، وبعد أن عرَّف الإدريسي **(قلعة بني حماد)** قال: وعلى 12 ميلا منها المسيلة التي

تقدم ذكرها غربا، ثم تعرض لموقعها الجغرافي فقال: «والمسيلة في أرض طبنة، وفي جهة المغرب من مدينة القلعة ومن القلعة أيضا في جهة المشرق مدينة محدثة تسمى الغدير، وبينها وبين القلعة ثمانية أميال، والغدير مدينة حسنة، وأهلها بدو، ولهم مزارع، وأرضون مباركة، والحرث بها قائم الذات، والإصابة في زروعها موجودة والبركات في معاملاتهم كثيرة، وبين المسيلة والغدير 18 ميلا ».

وقد زار هذه الناحية الرحالة المقدسي (335 ـ 378 هـ) فوصف الزاب بعد أن حولت قاعدته من طبنة إلى المسيلة فقال: «والزاب مدينتها المسيلة، ولها مقرة، وطبنة، وبسكرة، وبادس، وتهودا، وطولقة، وجميلة، وبنطيوس، وأدنة وأشير »، ورحلة المقدسي كما هو معلوم تسمَّى: **(كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)**، ولازال اعتناء الباحثين يتابعون دراستها على ضوء مختلف مخطوطاتها.

ولنرجع إلى مواصلة الحديث عن الخلاف بين زيري بن مناد وجعفر بن علي بن حمدون والي المسيلة، اللذين بلغ كل منهما أوج العظمة والتقدير عند الملوك الفاطميين، خصوصا في عهد الملك المعز لدين الله الفاطمي المولود ـ كما سبق لنا ذكر ذلك ـ في المسيلة، وقد تربى معه في المسيلة بلقين بن زيري وجعفر بن علي وكان هذا الأخير أخاه من الرضاع، وقد وقعت جفوة إذ ذاك بين زيري وجعفر للأسباب التي ذكرناها، وتفطن لها الملك المعز، ولمكانة كل من الزعيمين منه شخصيا ومن دولته حاول إصلاح ذات البين بينهما فجمعهما مرارا عنده، وقد كشف الغطاء عن أسباب هذا الخلاف في الوثائق الفاطمية التي طبع الكثير منها خصوصا **(رسالة الأستاذ جوذر)** التي ضمنها مؤلفها معظم الرسائل المتبادلة بين الملك المعز وقائده جوذر الذي لا شك أنه كان يشغل مكانة سامية عند الملك المعز لدين الله الفاطمي، فمما استفدناه من هذه الرسائل أن اتهام جعفر بموالاته واتصاله بعيون ملك الأندلس – العدو اللدود للفاطميين – والقبائل الزناتية

الموالية لملك الأندلس والتي حاولت التمرد مرارا على الفاطميين، هذا وإن كان الفاطميون مدة حكمهم ببلاد المغرب العربي كانوا يلاقون التمردات والثورات حتى من الصنهاجيِّين أنفسهم ومن ذلك ما قاله المؤرخ أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد القلعي في تأليفه: (**أخبار ملوك بني عبيد**) الذي قال فيه: «وفي سنة 335هـ غادر إسماعيل المنصور ابن أبي القاسم الفاطمي القيروان متوجها إلى المغرب ـ يقصد الجزائر الحالية ـ فختم به المطاف بطبنة، فأقام بها مدة، وورد عليه كتاب من جعفر بن علي والي المسيلة يخبره عن ثورة قام بها غلام بجبال أوراس، وانضم له زواوة وصنهاجة وعجيسة، وقد ألقى جعفر القبض عليه، وقاده إلى الملك إسماعيل وهو بطبنة، فأمر إسماعيل بسلخه حيا، وحشا جلده قطنا، وجعله في تابوت، فكانوا يصلبونه في كل موضع يحل به، وكذلك كان يفعل بأمثاله... وعبأ العساكر وجهز الجيش، وكتب إلى هوارة الذين كانوا بالغدير بأخذ أبي عمار الأعمى وأصحابه وكانت قبل ذلك على أبي يزيد هزيمة عظيمة بموضع يعرف بعين السودان بين جبل كياتة، فانهزم أبو يزيد وتبدد أصحابه فأخذ أبو يزيد نحو صحراء مدينة بني خزر، وأخذ أبو عمار الأعمى وأبو مدكول الأعمى صاحب آخر له نحو الغدير ... وتوجه إسماعيل من المسيلة في طلب أبي يزيد، وقد بلغه أنه في جبل سالات، وهو جبل وعر شامخ، دونه مفاوز ورمال ودكادك فلم يدخلها جيش قط، فمشى أحد عشر يوما في تلك القفار والأوعار، ثم نزل بسفح الجبل المذكور، وأتاه أهل الجبل مطعين طائعين فسألهم عن أبي يزيد فلم يجد عندهم خبرا، فأخبرهم إن مر بهم راجعا أن يأخذوه ووعدهم على ذلك بأموال ووصلهم في الحال، ثم واصل الملك إسماعيل المنصور مسيرته إلى حمزة (البويرة) فنزل هناك، وفرق الأرزاق، وأجزل العطايا، ووصل إليه زيري بن مناد في عساكر صنهاجة، فوصله وفضله وخلع عليه ثيابا كثيرة من لباسه، وأعطاه من الطيب والطرايف الملوكية ما لا يحيط به الوصف ولا يعمه الحصر وحمله وحمل أولاده وإخوته وبني عمه ووجوه أصحابه، على الخيل العتاق، بالسروج واللجم

المحلاة بالذهب والفضة، وأفاض عليهم وعلى كافة صنهاجة الواصلين معه الأموال، إفاضة استسلم بها قلوبهم، واستخلص عيونهم، فصفت نياتهم، وخلصت طوياتهم، وحسنت فيه معتقداتهم، ورحل من حائط حمزة، فنزل على وادي لعلع في شعار كذلك، فمرض به نحو شهرين، وعميت أخبار أبي يزيد، وعزم على المسير إلى تاهرت، فتوجه إليها وبلغ أبا يزيد ذلك فخالفه إلى المسيلة فحاصرها، واتصل الخبر إلى إسماعيل المنصور، وكر راجعا فأجد السير، وكانت المعركة الأخيرة بجبل كيانة، ولما ألقى القبض على أبي يزيد، صنع قفصا من خشب، وأدخل فيه قردين، ذكر وأنثى ومعهما أبو يزيد وفي ذلك قال الشاعر محمد بن المنيب:

حـــــل الــــبلاء بمخلــــد	وجميـــع شـــيعته النـــواكر
أمســـى بـــأرض كيانـــة	قـــد بـــان منـــه كـــل نـــاظر
يرنـــو بطـــرف خاشـــع	نظـــر المحـــاصر للمحـــاصر
يرنـــو إلى عـــدد الحصـــا	والرمـــل مـــن تلـــك العســـاكر
يـــا مخلـــد ابـــن سبيكـــة	يـــا شر بيـــت في العشـــائر
ذق مـــا جنتـــه يـــداك قبـــل	مـــن الكبـــائر والصـــغائر
ذق هـــول شـــقك البطـــون	ومـــا ارتكبـــت مـــن الجرائـــر
يـــا شر مـــن بكيانـــة	وكيانـــة شر البرابـــر
انظـــر إلى القفـــص الـــذي	لابـــد فيـــه أنـــت صـــائر
وانظـــر إلى يـــديك فيـــه	ومؤنســـيك ومـــن تجـــاور
وقـــد طـــال شـــوقهما إليـــك	فزرهمـــا يـــا شر زائـــر

ولما ألقي عليه القبض سلخ، وحشوا جلده قطنا، فوصفه على حالته هذه بعض الشعراء فقال:

أمـــا النفـــاق فقـــد نســـخ وأبـــو الكبـــائر قـــد ســـلخ
كـــان الفويســـق مخلـــد قـــردا ولكـــن قـــد مســـخ
لـــو قـــد رأيـــت محلـــه وبنـــوا الحدايـــة تستصـــرخ
لرأيـــت مـــا عقـــد اللعـــين بلطـــف ربـــك قـــد فســـخ

ثم انصرف إسماعيل بعد هذه الواقعة إلى المسيلة، ومنها توجه إلى تيارت، وبعد رجوعه إلى القيروان أعلن موت والده أبي القاسم الذي أدركه الموت سنة 334هـ ، وأخفى ولده موته لأسباب معقولة.

وإننا ذكرنا هذه الأحداث التي أثبتها المؤرخ أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد القلعي على طولها لاشتمالها على الظروف التي ألقي فيها القبض على الثائر أبي يزيد وموقعها بتفصيل، كما اشتملت على الظروف التي التحق فيها زعيم صنهاجة زيري بن مناد بالملوك الفاطميين، وارتباط هذه الأحداث بالمسيلة، ودور المسيلة في الأحداث التاريخية العظمى التي اجتازتها البلاد، والتي كثيرا ما شوهت واشتبهت على من نقلوها من دون تمحيص وتسربت إليها أغلاط فادحة ولو في الإعلام والمواقع.

ولنرجع إلى تتمة البحث عن الخلاف الذي ذكرنا أنه فشلت في تلافيه جهود الملك المعز لدين الله الفاطمي الذي كان على بصيرة من أسبابه ولا يمكننا تتبع ذلك بتفصيل فنكتفي بنشر رسالة من رسائل الملك المعز لدين الله كتبها إلى قائده الأستاذ جوذر جوابا عن تقرير سري وصله منه فحواه تصرفات أمير المسيلة جعفر بن علي المريبة فقال فيها، قال: «والذي يجعلنا نتزيد من الصبر، بصيرة بما عليه أكثر الناس من الكيد والحسد والبغض، وإن حاربناهم خشينا من آثامهم، لكننا نجتهد في صلاح ما استطعنا إصلاحه، فإن تم لنا ما نريده كان لنا أجر ذلك وفخره، وإن لم يتم كان إثم الهلاك على نفسه، فعاقبة الصبر لنا محمودة بفضل الله، وهذا الرجل الذي ذكرت، يوصف لنا بمثل

ما بلغك، ويقال أن له من جعفر أوكد حرمة، وابن أبي رماحة لا يقف لنا في حاجة، ويعنى بأسبابه ورياعه وأملاكه، العناية الوكيدة فاكتب لنا أنت إلى جعفر كأنك تسأله عن أمره وخبره، وأن ذلك يبلغك من الوقيعة فيه، من غير أن تشرح له ما الذي بلغك، ليذكر لك هو صورة أمره، فتستدل بقوله على ما عنده إن شاء الله »، فيظهر ظهورا جليا أن الخلاف سياسي وسببه مزاحمة زيري بن مناد الذي لم يلتحق ببلاد الفاطميين إلا أثناء هزيمة أبي يزيد الخارجي حوالي سنة 336هـ .

وقد ذكر المؤرخ الأندلسي الخبير بأحداث ذلك العهد وجهة نظر أخرى تبيِّن الأسباب التي جعلت أمير المسيلة يضيق ذرعا بالمسيلة وخطته فيها، واختياره الجلاء واللحاق بأعداء الفاطميِّين إثر هزيمة مغراوة التي ذكرنا أنها وقعت سنة 360هـ .

تلك المعركة التي انتصر فيها بلقين بن زيري ومات فيها أبطال مغراوة وتسلل الباقون منهم على المغرب الأقصى في طريقهم إلى الأندلس قال المؤرخ ابن حيان فيما نقله عن صاحب كتاب: (**مفاخر البربر**) فقال: «إن زيري ابن مناد، عقب هذه الوقعة، استطال على بوادي البربر، وظن أن لا غالب له، وبسط على قبائل زناتة النازلين بأكناف المسيلة، وأميرهم يومئذ جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي، فأذله زيري فيهم، فتغير جعفر لذلك، وأحقده ذلك على الدولة العبيدية، وتحمل على مدينة المسيلة، مظهرا اللحاق بالمنصورية ـ قرب القيروان ـ وذلك في جمادى الثانية 360هـ .

ثم مال بأهله وماله وعدده وعبيده ورجاله، إلى جمع زناتة وخلع طاعة معد – أي المعز لدين الله، واعتصم بدعوة المروانية، وتوافت إلى زناتة أمدادها من زناتة، وغيرهم ممن تخالف عن الوقعة فبادر نحوهم زيري ابن مناد، طمعا في فضهم قبل أن تقوى شوكتهم، فألقى نفسه عليهم، وهو منهم على غاية الشقة، وذلك في رمضان سنة 360هـ.

فاشتد القتال بين الفريقين، وزيري في صدر خيله يحرضها بفضل نخوته وشدة

جراءته، إلا أن أعقر به فرسه، وجدت زناته في القبض عليه، وصنهاجة في استنقاذه ودارت رحى الحرب ساعة، قتل فيها من أنجاد الطائفتين جماعة، إلى أن ظهرت عليه زناتة، وهو عقير، فاحتزت رأسه، واستمرت الهزيمة على صنهاجة، فأبادتهم، وذهبت زناته إذ ذاك برأس زيري، قاصدة الأندلس، وكان الوفد الذي قدم رأس زيري إلى الملك الحكم المستنصر بالله الأموي يترأسه يحي بن علي أخو جعفر بن علي والي المسيلة.

هذه صفحات من تاريخ المسيلة الثقافية والسياسية ذكرناها للفت انتباه أبناء هذه الناحية خصوصا ونحن في قائمة تحمل اسم أحد كبار أعلامها لعب أدوارا في تاريخ بجاية حيث كان يشغل خطة قضائها عندما هاجمها بنو غانية الميورقيون بقايا دولة المرابطين الملثمين ووقف قاضي بجاية حسن بن علي المسيلي من أميرهم موقف قضاة العدل إذ طلب منه أن يزيل عن وجهه اللثام حتى يتبين من شخصه لخبر يطول. فإننا نلفت انتباه أبناء هذه الناحية حتى يسعوا في إحياء تراثها ويعيدوا كتابة تاريخها على أضواء ما جد من الاكتشافات ويربطوا صلة حاضرها بماضيها المجيد الجدير بإحيائه ومنزلته المنزلة اللائقة به، حيث هو مرتبط بالتاريخ العام العالمي الذي لازال معينه لم ينضب بعد.

المهدي البوعبدلي

لمحات من دور الدَّولة الرُّستميَّة
في ميادين الحضارة والفكر
لبعض الباحثين القُدامى والمتأخِّرين(1)

تكوَّنت دولة بني رستم في (تاهرت) حوالي سنة 160هـ ـ776م، وكانت هي الدَّولة الثَّانية التي تكوَّنت بـ (الجزائر) بعد الفتح الإسلامي.

إذ كانت الدَّولة الأولى التي سبقتها، هي دولة (بني خزر) المغراويِّين الزَّناتيِّين، الذين كانت لهم إمارة قبل الفتح ما بين سهول (مليانة) و(تلمسان)، ولمَّا أسلم زعيمهم على يد الخليفة عثمان منَّ عليه الخليفة، وأقرَّه على حكم إمارته كما هو معروف عند جلِّ المؤرِّخين.

أمَّا دولة بني رستم التي تكوَّنت بـ (تاهرت)، فكانت دولة مستقلَّة عن الخلافة، ومتمرِّدة عليها، وهي تختلف عن دولة (بني خزر) من عدَّة نواحي، فدولة (بني خزر) كانت تجمع بين أفرادها عصبية القبيلة، ودولة بني رستم كانت تتكوَّن من قبائل شتَّى (بربرية، وعربية، وفارسية)، وإن كان أكثرها من العنصر البربري، الذي اعتنق فكرتها بمجرَّد وصول دعاتها، وكانت كلُّ هذه العناصر التي تكوَّنت منها الدَّولة الرُّستميَّة تجمع بينها فكرة عقائديَّة، وهي: فكرة الخارجيَّة الإباضيَّة، التي ظهرت بعد (واقعة صفِّين) المشهورة في تاريخ الإسلام، وقبل أن ندخل في صميم موضوع بحثنا نتعرَّض بإيجاز لتاريخ ظهور المذهب الخارجي، حسبما ذهب إليه جلُّ مؤرِّخي المذاهب الإسلاميَّة،

(1) مجلة الأصالة، العدد 41، ص193-206، محرم 1397هـ/ جانفي 1976م.

وكان الدُّعاة إلى التَّحكيم في طليعة من اتَّهموا الرَّاضين به بالكفر ـ إن لم يتوبوا ـ واتَّخذوا شعارا كُتب له الخلود وهو: «لا حكم إلاَّ لله».

إنَّ فكرة الخوارج وفرقهم كـ (الإباضيَّة) و(الصفريَّة) وغيرهما قُتلت بَحثاً، وبطبيعة الحال أحدثت هزَّة في البلاد الإسلامية، شرقا وغربا، واعتنى بها الباحثون ومؤرِّخو المذاهب على اختلاف مللهم ونحلهم وأجناسهم، ولازال معينها لم ينضب بعد، ولا نبالغ إن قلنا إنَّ هذا المذهب، رغم قلَّة أتباعه حظيَ باعتناء كبار قادة الفكر العالميِّين، مسلمين وأجانب، ومن بينهم المستشرقون الذين خصَّصوه بتآليف قيِّمة، حلَّلوا فيها المذهب الإباضي، والمراحل التي اجتازها بالمشرق، ثمَّ بالمغرب، كما تعرَّضوا لتطوُّر المذهب بعد أنْ أطاح الملوك الفاطميُّون بالدَّولة الرُّستميَّة، وقضوا على مملكتهم بـ (تاهرت) سنة 296هـ.

والذي سهَّل مهمَّة هؤلاء الباحثين من المستشرقين هو اكتشافهم وثيقة هامة، اعتنى فيها مؤلفوها بتسجيل تاريخ المذهب الإباضي، وتاريخ حياة مجتمعه منذ ظهوره، ثم مراحل تطوره بالمشرق والمغرب، فسجلوا فيها ما يعبر عنه في زماننا هذا، بالحياة اليومية، وهذا ما نتعرض له بتفصيل في هذه الدراسة التي هي كل ما يدل عليها عنوانها: (**التعريف بالدولة الرستمية**)، ثم الدُّور الذي قامت به في مجالات الحضارة والفكر، عملا بالقول المأثور: «ما لا يدرك كله، لا يترك جله».

إن جل مصادر تاريخ الدولة الرستمية كما ذكرنا معروف لدى الباحثين، والكثير منه اكتشف بوادي مزاب، وهذا من الأدلة على أن الدولة الرستمية، ولو فقدت كيانها كدولة مستقلة منذ أحد عشر قرنا، فإنها أورثت جاليتها التي التجأت إلى الصحراء عبء الأمانة التي تجلت في المحافظة على الشعائر الدينية ومبادئ المذهب الإباضي، ثم التراث الذي يرونه جزءا لا يتجزأ عن سيادة الدولة ونظام حكمها، إذ كانت الدولة لا ترتبط بالمحافظة على قطعة التراب، بل كانت الدولة نفسها في خدمة المجتمع، المرتبط

بمذهبه العقائدي، وإن فقدت الدولة كيانها، فجماعة المسلمين مطالبون، بمواصلة أعمالها من حيث تطبيق تعاليم المذهب، وما أمكنهم من تطبيق نظام الحكم في مجالات الاقتصاد والقضاء السياسية... الخ، كما هو معروف عند دارسي المذهب الإباضي، ولننتقل إلى الحديث عن التراث الذي احتفظ به الإباضيون.

كان الكتاب الأول من كتب التراث الإباضي هو: **(تاريخ الأئمة الإباضية)** لابن الصغير التاهرتي الذي وصلنا على طريق المستشرق الفرنسي موتيلانسكي (Motylinski) المدير ـ في عهده ـ بالمدرسة الرسمية بقسنطينة، فقد نشر تلخيصا منذ سنة 1885م، ثم عززه بنشر النص الكامل بالعربية مع ترجمته إلى الفرنسية، وذلك في المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين، المنعقد في مدينة الجزائر سنة 1905.

وأضاف إلى نشر النص تعاليق مفيدة من بينها ترجمة المؤلف، وأثبت أن هذا التأليف لا توجد منه إلا نسخة واحدة ببلاد مزاب، كما أن تعاليق موتيلانسكي تشمل تاريخ ابتداء ظهور المذهب الإباضي بالمشرق، والظروف التي انتقل فيها إلى المغرب، والأحداث السياسية التي سبقت تأسيس الدولة الرستمية بتاهرت.

وقد جمع ابن الصغير في تأليفه **(تاريخ الأئمة الإباضية)** ابتداءً من تولية عبد الرحٰمن بن رستم مؤسس الدولة، وأنهاه بولاية أبي حاتم يوسف ابن الإمام أبي اليقظان الذي عزل سنة 281هـ، ويظهر أن ابن الصغير أتم تأليفه سنة 290هـ، أي قبل سقوط الدولة الرستمية بست سنوات.

وميزة التأليف أن كاتبه سجل كثيرا من الأحداث التي شاهدها أو استقى رواياتها من عناصر مختلفة من سكان المملكة غير مقيد بالعواطف المذهبية.

والمصدر الثاني من كتب تراث الدولة الرستمية هو: **(كتاب السِّيرة وأخبار الأئمة)** لأبي زكرياء يحي أبي بكر السَّدراتي الورثلاني المتوفى سنة 471هـ/ 1078م، وقد ترجم

هذا التأليف المستشرق الفرنسي إيميل ماسكري(Emile Masqueray) سنة 1878م، ثم ظهرت منه نسخ أخرى حوالي سنة 1930م، فاختار المستشرق الفرنسي روجير (Roger Le Tourneau)أصحَّها وترجم ثلثها إلى الفرنسية، ومهد لترجمته تقديما لخص فيه محتوى التأليف، قال فيه: «إن هذا التأليف يذكر فيه صاحبه تاريخ انتشار المذهب الإباضي بالمغرب، ومن قام بهذا النقل ونشر الدعوة، وحصر ذلك في خمسة أشخاص ذكرهم بأسمائها، كان من بين هؤلاء الأشخاص أبو الخطاب عبد الله بن أبي السَّمح المعافري (العربي)، وعبد الرَّحمٰن ابن رستم (الفارسي)، ثمَّ يتعرَّض لسند صاحب التأليف أبي زكرياء يحي بن أبي بكر السدراتي في روايته التي تتَّصِل بالإمام أفلح الذي يروي عن أبيه عبد الوهاب، وهو يروي بدوره عن أبيه الإمام عبد الرحمٰن بن رستم ـ مؤسس الدولة ـ الذي يتصل نسبه إلى الملك الفارسي سابور ذي الأكتاف، ثم يختم المؤلف فصله بترجمة حياة عبد الرحمٰن بن رستم بتدقيق وتفصيل، كما ترجم بقية الأفراد الخمسة واحدا واحدا، وهؤلاء الأفراد ـ كما ذكرنا ـ هم دعائم نشر المذهب الإباضي ببلاد المغرب».

كما نجد من جملة مصادر التراث الإباضي التي وصلتنا كتاب: **(طبقات المشايخ)** لأبي العباس أحمد الدرجيني الذي ألفه بعد سنة 626هـ، ثم كتاب: **(السِّير)** لأبي العباس أحمد الشَّماخي المتوفى سنة 928هـ.

يرى مؤرِّخو المذهب الإباضي من المستشرقين أن كتاب: **(السير)** للشَّماخي هو أحسن المصادر، إذ اعتنى به صاحبه اعتناءً دلَّ على تعمُّقِه في البحث والنزاهة، استقى الشماخي مصادره فيه من التآليف الإباضية وغير الإباضية، وقد حظي هذا التأليف باهتمام المستشرق البولندي طادويز ليفيسكي (Tadeauz Lewicki) الأستاذ بجامعة كراكوفيا (Cracovie Polognie)، والمستشرق ليفيسكي هذا من أبرز المتخصصين في تاريخ الصحراء بصفة عامة، وتاريخ الإباضية بصفة خاصة، ولهذا كان تحقيقه لتأليف

الشماخي تحقيقا علميا جامعا لكل ما عرف عن تاريخ المذهب الإباضي ورجاله، ولأهمية التأليف الذي علاوة على ما ذكرناه، استوعب فيه صاحبه كل ما سبقه من التآليف ـ الموجودة والمندثرة ـ ونظرا لعدم انتشار تآليف المذهب الإباضي بالمكتبة العربية، ومعظم ما برز إلى الوجود منه فُقد أو نشر في بعض سجلات المؤتمرات أو المجلات المتخصصة في هذه البحوث، وهي محدودة النشر، رأيت تلخيص تقريظ المستشرق ليفيسكي لتأليف الشماخي ليأخذ القارئ ـ الذي لم يسبق له اطلاع على تاريخ المذهب الإباضي بتفاصيله ـ صورة ولو مصغرة عن تاريخ الدولة الرستمية والمذهب الإباضي.

تعرض ليفيسكي في تقريظه إلى ترجمة المؤلف أبي العباس أحمد بن عثمان الشماخي الذي ينتمي إلى أسرة علمية، توارث أفرادها العلم قرونا بجبل نفوسة، وامتاز الشماخي بسعة الأفق، وحرية الفكر، حيث لم يقتصر في مصادره على المصادر الإباضية فقط، بل كثيرا ما اعتمد المصادر غير الإباضية، ظهر تأليف **(السير)** هذا بجبل نفوسة (ليبيا) لأول مرة، ووصلت منه نسخة إلى أوروبا حوالي سنة 1860م، على طريق الرحالة الفرنسي هنري دوفيري (Duveyrier Henri)، وبعد سنوات من وصولها، أمكن للباحث ماسكري (Masqueray) أن يحصل على نسخ منها بمزاب ونفوسة، فترجم بعض الفصول الأولى منها تشمل تاريخ حياة الإباضيين بالمشرق، وذلك في تعليقه على ترجمة: **(كتاب السيرة وأخبار الأيمة)** لأبي زكرياء يحي الورثلاني الذي ترجمه وطبعه بالجزائر سنة 1878م.

وفي سنة 1301هـ ظهرت طبعة تأليف الشماخي: **(السير)** بمصر، قام بها الشيخ سليمان بن مسعود النفوسي الذي كان من سكان مدينة قسنطينة، ثم اهتم بهذا التأليف الأستاذ ليفيسكي البولندي، فخصَّصه بدراسة علمية نادرة المثال، نشرها في **(مجلة البحوث الإسلامية)** سنة 1934م، وفيما يلي فقرات نقلناها من هذه الدراسة أو التقريظ، قال المستشرق ليفيسكي، بعد أن تعرَّض بإسهاب لترجمة الشماخي وأسرته

قال: «إن كتاب (**السير**) عبارة عن مجموع لتراجم المشايخ الإباضية، ابتداءً من ظهور المذهب الإباضي إلى عهد المؤلف الشماخي ـ القرن العاشر هجري ـ.

فهذه التراجم هي التي ركَّز عليها المؤلِّف كتابه، ومن خلال هذه التراجم الثرية بالتفاصيل التاريخية التي وإن كانت غير مرتبة، فهي تفيدنا بحالة البلاد الإسلامية من أول عهدها، كميلاد أو ظهور الخوارج، وانتفاضات الإباضية وتمرُّداتهم، وفي الأخير نشاطات الحركات الإباضية في إفريقيا الشمالية، تلك الحركات التي نشأت عنها بالمغرب الأوسط دولة الأئمة الرستميِّين القوية، التي يشمل تاريخها بتمامه كتاب (**السير**)، كما يشمل الكتاب أيضا عدَّة تفاصيل، تصوِّر لنا الحياة الاجتماعية لسكان البربر وعوائدهم، تشملها تراجم المشايخ الإباضيِّين من إفريقيا الشمالية الذي ينتمون في أغلبهم إلى الجنس البربري».

ثم واصل المستشرق ليفيسكي تقريظه بقوله: «إن المؤلف ـ أي الشماخي ـ سلك في تأليفه سلوكا منظَّما، لم يقتصر فيه على ذكر الأحداث المنقول من الكتَّاب المتقدِّمين، بل كان يقارنها مع غيرها، ويستنتج المختار منها، كما كان يذكر دائما المصادر التي اطلع عليها واعتمدها، ولهذا أطلعنا على فقرات عديدة من تآليف قديمة يرجع عهدها إلى أواخر القرن الأول، والقرن الثاني من الهجرة».

ثم يواصل حديثه فيقول: «ونظرا لظهور فهرس (**كتاب السير**) الذي نشر ـ يشير بهذا إلى الفهرس الذي نشره موتيلانسكي (Motylinski) المتقدِّم الذكر سنة 1885م ـ فإنني أقتصر على ذكر محتوى التأليف الذي يمكننا أن نقسم الحديث عنه إلى قسمين:

القسم الأول: يشمل تاريخ الإباضية، وبدايته بالمشرق (ص: 1 ـ 123).

و**القسم الثاني**: وهو الأهم: (ص: 123 ـ 577) يستعرض فيه مراحل الإباضية بالمغرب.

القسم الأول ذكر فيه حياة النبي ﷺ: (ص: 1 ـ 16)، وحياة الخلفاء الأربعة، وبداية الحركة الإِباضية بعد واقعة صفِّين ونهروان (ص: 16 ـ 53)، ثم يذكر تراجم الأئمة والمشايخ الإِباضيِّين بالعراق والبصرة وعمان وحضرموت حتى نهاية القرن الثاني هجري (ص: 53 ـ 123).

أما **القسم الثاني** مِن كتاب: (**كتاب السير**): (ص: 123 ـ 138) فقد استعرض فيه المؤلف تاريخ دخول الإباضيِّين في إفريقيا الصُّغرى والأئمة الإباضيِّين في هذه البلاد، ثم يحدِّثنا المؤلف عن دولة بني رستم ويمزج حديثه بكثير من التراجم (ص: 136 ـ 272)، ويختم حديثه بتراجم المشايخ بالمغرب (ص: 272 ـ 577).

كما نقل المؤلف بعض الوثائق والرسائل القديمة جدا، مثل رسالة الإمام عبد الوهاب إلى مشايخ نفوسة (ص: 180 ـ 181)، التي يظهر أنها نقلت من مجموع (**أجوبة الأئمة**)، ثم يتعرض المستشرق ليفيسكي إلى المصادر التي اعتمدها الشماخي في تأليفه المذكور (**السير**)، فيقول: «إن المؤلف ولو كانت معظم مصادره إباضية، فإنه اعتمد أيضا المصادر الغير الإباضية »، وبدأ باستعراض المصادر الغير الإباضية فذكرها حسب الترتيب التالي:

1) إن أقدم مصدر غير إباضي اعتمده الشماخي، هو تأليف منسوب إلى شخص يدعى ابن الصغير، فقد ذكر هذا التأليف عند حديثه على تاريخ الرستميِّين (ص: 192 ـ 221)، وتأليف ابن الصغير هذا أُلِّف في تاهرت حوالي سنة 290هـ، وقد نشره موتيلانسكي الذي أعطى بسطة عن التأليف وصاحبه.

2) المصدر الثاني الغير الإباضي لكتاب الشماخي، هو لمؤلف شهير: أبو الحسن علي بن حسين المسعودي المتوفى سنة 345هـ/ 956م، نقل عنه الشماخي عدَّة مرَّات عند تعرُّضِه لتاريخ الخلفاء الأوائل (ص: 10 ـ 31 ـ 32 ـ 39 ـ 40 ـ 59).

3) المصدر الثالث الغير الإباضي الذي اعتمده الشماخي هو تأليف ابن الرقيق، أي أبو إسحاق إبراهيم بن أبي القاسم ابن الرقيق، المؤرخ العربي في القرن الرابع الهجري (المتوفى سنة 383هـ/ 993م).

كان ابن الرقيق يعيش في مدينة القيروان في عهد الدولة الزيرية (زيري بن مناد الصنهاجي)، حيث ألف ديوان شعر، وتاريخ في نسب البربر، وتاريخ إفريقيا الشمالية.

إن هذا التأليف الأخير الذي كتبه بعد سنة 377هـ/ 987م كان مصدرا للشماخي في تأليفه (**السير**)، إذ ذكر فيه تاريخ الإباضية في إفريقيا (ومن ذلك غزو القيروان لأبي الخطاب المعافري الإمام الأول للإباضية) (ص: 127)، وقضية ابن طولون (ص: 127).

وبعد انتهائه من ذكر المصادر الغير الإباضية، انتقل إلى عرض المصادر الإباضية فقال عنها: «أما فيما يخصُّ المصادر التي اعتمدها الشماخي في (**كتاب السير**) فأقدمُها وَصلنا مِن مؤَلِّفين شرقيِّين هما مِن البصرة وعمان، أولهما: (**كتاب النهروان**) المذكور في تأليف الشماخي مرارا (ص: 51 ـ 55)، والمتعلِّق بقضية التحكيم بعد واقعة صفِّين، ومعركة النهروان.

وبعد أن يذكر ليفيسكي سند صاحب (**كتاب النهروان**) ينتقل إلى المصدر الإباضي الثاني فيقول: «ومن مصدر قريب العهد لـ (**السير**) كتاب (**المسند**) للربيع بن الحبيب ـ ترجمه الدرجيني في طبقاته ـ كان الربيع هذا يعيش في أواسط القرن الثاني الهجري، ومسكنه بمدينة البصرة، ثم انتقل إلى مكة، كان الربيع هذا محترما عند مواطنيه إلى حد التقديس، ويعد عندهم من أكابر أئمة المذهب، وتأتي منزلته بعد منزلة أستاذه الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، مباشرة، يحتوي كتاب (**المسند**) على ثلاثة أجزاء إلا أنه كان غير مرتب إلى أن تولى ترتيبه أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي ـ الذي كان يعيش في مدينة ورقلا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ـ.

ويظهر أن الشماخي الذي يذكر هذا التأليف في صفحات: (104 ـ 113 ـ 117) كان من جملة مصادره، وقد اطلع على النسخة المذكورة أي التي رتبها يوسف بن إبراهيم السَّدراتي المذكور لا النسخة الأصلية.

إن فصول كتاب (**السير**) المتعلقة بتاريخ الإِباضية في المشرق، وتراجم مشايخ البصرة، عمان، حضرموت ... الخ، اعتمد فيها الشماخي على (**كتاب أبي سفيان**) حيث ذكره مرارا (ص: 67 ـ 117)، إن صاحب هذا التأليف يدعى أبا سفيان محبوب بن الراحل، الذي كان حيا في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، وذلك في أواخر عهد الإمام الإباضي عبد الوهاب بتاهرت، وأسرة أبي سفيان المذكور تنتمي إلى قبيلة قيس العربية، وعند ثورة شبيب الإِباضي سنة 77هـ، كانت أسرة أبي سفيان تسكن مدينة البصرة في حي الأزدي، ثم يذكر الشماخي أن من جملة مصادر كتاب « أبي سفيان » أبو نوح صالح الدهان، عالم إباضي من علماء النصف الأول من القرن الثاني الهجري، وهو من معاصري أبي سفيان إلا أنه أسن منه، وفي نفس العهد الذي ظهر فيه تأليف أبي سفيان المذكور، ظهر تأليف آخر يعرف بـ: (**كتاب الحجَّة على الخلق في معرفة الحق**) لأبي صفرة عبد الملك بن صفوة شيخ من مشايخ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري.

ومن مصادر الشماخي الإباضية كتاب ابن سلام بن عمر الإباضي الذي كان يعيش في منتصف القرن الثالث الهجري، وقد ذكره الشماخي في (ص: 133 ـ 135 ـ 141 ـ 142 ـ 161 ـ 162 ـ 260 ـ 262).

كان صاحب هذا التأليف ـ أي ابن سلام ـ من سكان إفريقيا، سكن مدينة توزر قبل سنة 240هـ، وقد ألف كتابه بعد سنة 260هـ، إذ ذكر لنا في تأليفه أحداثا وقعت في تلك السنة ـ أي سنة 260هـ ـ.

كما تحدث ابن سلام في تأليفه عن المشايخ الإباضية من شمال إفريقيا مثل أبي صالح النفوسي وابن نصر النفوسي معاصر المهدي النفوسي.

ثم ظهر تأليف آخر من إفريقيا الشمالية اعتمده الشماخي، وهو تأليف الشيخ أبي الربيع سليمان بن يخلف المتوفى سنة 471هـ، وهو مدفون بورقلة، واسم التأليف: **(كتاب في الكلام وفي أصول الفقه)**، وقد نقل منه الشماخي عدة فقرات (ص: 176 ـ 215 ـ 226 ـ 227 ـ 231 ـ 237 ـ 239 ـ 263 ـ 353 ـ 433)، وقد طبع هذا التأليف بتونس سنة 1321م.

ثم قال المستشرق ليفيسكي: «إنني لم أشتغل بكتاب أبي زكرياء يحي ابن أبي بكر الورقلاني المصدر المختار للشماخي فيما يخص الدولة الرستمية التي ذكرها في صفحات: (128 ـ 135 ـ 143 ـ 148 ـ 151 ـ 155 ـ 161 ـ 164 ـ 188 ـ 192 ـ 193 ـ 214 ـ 221 ـ 229 ـ 262 ـ 268 ـ 270 ـ 272 ـ 279 ـ 282 ـ 287 ـ 319 ـ 387 ـ 406).

وذلك أنه يمكن الإطلاع على ما يتعلق بهذا التأليف، من مجموع مقالات موتيلانسكي (Motylinski)، وماسكوري (Masqueray)، وهذا الأخير ترجم تأليف الورقلاني، ولو كانت ترجمته رديئة.

وقد تقدم لنا في أول هذه الدراسة، أن تأليف الورقلاني، أعيدت ترجمته، على ضوء النسخ التي اكتشفت بعد النسخة التي ترجمها ماسكوري (Masqueray)، وتولى الترجمة الأخيرة المستشرق الفرنسي روجير لوتورنو (Roger Le Tourneau) ترجم ثلثها، وواصل الترجمة الأستاذ إدريس التونسي.

ثم ذكر ليفيسكي أنه بفضل كتاب (**السير**) أمكن للباحثين والمؤرخين أن يطلعوا على آثار تاريخية هامة، منها: **(كتاب السؤالات)** لعالم من علماء القرن السادس الهجري، وهو عثمان بن خليفة السوفي الإباضي (ص: 486) وقد استدل به الشماخي في صفحات: (212 ـ 262 ـ 465 ـ 466 ـ 486 ـ 552 ـ 533).

كما ذكر الشماخي أثرا آخر ذا أهمية عظمى للمعنيين بتراجم مشايخ جبل نفوسة،

وهذا الأثر هو كتاب (**سير مشايخ نفوسة**)، ويعرف أيضا بـ (**السير**)، احتفظ لنا الشماخي بقطع هامة من هذه الكتاب في تأليفه من (ص: 143 إلى 344).

ويظهر أن صاحب التأليف من جبل نفوسة، واسمه مقرين بن محمد البغطوري، وقد ألفه سنة 599هـ، ومحتوى هذا التأليف يظهر من آثار أستاذ البغطوري، وهو الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسعود الذي كان مشهورا بتضلُّعِه في علم التَّراجم.

وقبل أن يختم ليفيسكي تقريظه قال: «وزيادة على المؤلفين المذكورين الذين اعتمدهم الشماخي يمكننا أن نضيف إليه (**كتاب الطبقات**) للدرجيني الذي ألف بعد سنة 626هـ».

ثم ختم تقريظه لتأليف الشماخي بقوله: «والذي يهمُّنا أن نلفت إليه انتباه القراء، أن أسلوب الشماخي في تأليفه، أسلوب راق بالنسبة لبقية التآليف الإباضية بإفريقيا الشمالية، ما عدا (**الطبقات**) للدرجيني »، ثم قال: «ويظهر أن المؤلف ـ أي الشماخي ـ كان يجد صعوبة عندما ينقل عن التآليف الإباضية التي يصلح أخطاءها في الرسم والأسلوب، وهي طريقة لا تعين على الاستفادة من النصوص، وكثيرا ما تتسبَّب في سوء الفهم » اهـ تقريظ المستشرق ليفيسكي.

نكتفي بهذه النماذج من الباحثين الذين كان جلهم مستشرقين، وقد جمعوا تراث الدولة الرستمية وحققوه تحقيقا علميا دقيقا، وموضوعيا نزيها، ولننتقل إلى ذكر جوانب من دور الدولة الرستمية في المجالات الحضارية والفكرية، كما يدل عليه عنوان الدراسة.

ففي الميدان الحضاري، نجد آثار الأبنية العامة والخاصة بمدينة تاهرت ـ عاصمة الدولة ـ وقد استخرجها الباحثون من تأليف ابن الصغير بتفصيل، كما تعرض لها بعض الأثريين المتأخرين مثل جورج مارسي الأستاذ بجامعة الجزائر في عهده، والمتخصص في الفن المعماري الإسلامي، كما تعرض الأثريون إلى آثار فنهم المعماري الذي اكتشفوه بسدراته، التي التجؤوا إليها بعد سقوط الدولة الرستمية بتاهرت، وبعض ما تبقى من

الآثار القديمة بغرداية وبقية القصور المحاطة بها التي راعوا فيها المحافظة على التقاليد والعوائد، وما يتطلبه الأمن العام والخاص، وقد تعرض كثير من الاختصاصيِّين للفن المعماري بمزاب قديما وحديثا، ومنها كتاب خاص بالفن المعماري بغرداية، سماه صاحبه **(الحضارة المعمارية في مزاب)** ومؤلفه هو الكاتب مارسيل مرسى (Marcel Mercier)، إلا أن نشاطهم الجوهري في الميدان الحضاري الذي خلده لهم التاريخ، يظهر جليا في التجارة، وربط الصلة بين السودان وبلاد الشمال الإفريقي، أجمع المؤرخون والرحالون أنهم كانت لهم مراكز تجارية هامة في أوداغست عاصمة الصحراء الشهيرة في القرن الرابع الهجري، التي اشتهرت بمناجمها الذهبية والتي كانت ترد إليها قوافل المشرق والمغرب، وقد ذكر البكري عند ما وصف أوداغست أن معظم تجارها كانوا من قبائل الشمال التي كان يستوطنها الإباضيون، وفي ذلك قال في وصفه لأوداغست: «هي مدينة كبيرة، وبها آبار عذبة، والبقر والغنم أكثر شيء عندهم، يشترى بالمثقال الواحد عشرة أكبش وأكثر، وعسلها أيضا كثير يأتيها من بلاد السودان، وهم أرباب نعم جزيلة، وأموال جليلة، وأسواقها عامرة الدهر كله، وتبايعهم بالتبر، وليست عندهم فضة، وبها مبان حسنة، ومنازل رفيعة ».

ثم يذكر سكانها فيقول: «وسكانها أهل إفريقيا، وبرقجانة، ونفوسة، ولواتة وزناتة، ونفزاوة، هؤلاء أكثرهم، وبها نبذ من سائر الأمصار » إهـ، ولنعلم أن برقجانة، ونفوسة، ولواتة، ونفزاوة، إباضيون.

وفي هذا الموضوع ـ أي: النشاط التجاري للإباضيِّين بالصحراء والسودان ـ قدم المستشرق ليفيسكي دراسة هامة لمؤتمر المستشرقين المنعقد بموسكو سنة 1960م تحت عنوان: **(تجار ودعاة إباضيون في السودان الغربي والأوسط من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر ميلادي)**، وقد علق على هذه الدراسة الأستاذ كنار الفرنسي ـ من أساتذة جامعة الجزائر في عهده ـ ونشر تعليقه في **(المجلة الإفريقية)** عدد: 466 ـ 467، سنة

1961م، فقال بعد أن عرف بصاحب الدراسة ليفيسكي، اعتمد على ما كتبه في الموضوع الأستاذ شاخت الألماني (Schacht)، ثم قال: «إن من جملة تأثير الإباضيِّين في السودان ما عثر عليه في الفن المعماري الديني، الذي هو شبيه بالفن المعماري الموجود في الجنوب التونسي وبلاد مزاب » ثم قال: «كما ذهب ـ ليفيسكي ـ إلى أن الإباضيِّين نشروا الإسلام عند السود، معتمدا في ذلك على ما ذكره الرحالة ابن بطوطة وكذلك الشماخي، ويؤيد هذا الرأي ما نجده في تأليف البكري، كما أشار إلى ذلك بعض المؤلفين الإباضيِّين كابن الصغير وأبي زكرياء الورقلاني، والدرجيني، والشماخي، الذين أثبتوا العلائق التجارية التي كانت بين سكان إفريقيا الشمالية الإباضيِّين والسودان من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر ميلادي.

وقد تعرَّض المستشرق ليفيسكي إلى محطات القوافل التجارية التي كانت تربط بين مدن الساحل الإفريقي والسودان، وكانت محطة ورقلا من أهمها.إهـ

واصل الإباضيون نشاطهم في الميدان الاقتصادي ـ قوة وضعفا ـ عبر التاريخ إلى العهد التركي، حيث ذكر الرحالة الفرنسي فنتير دو باراديز (Venture de Paradis) الذي زار الجزائر في القرن الثامن عشر الميلادي، قال: «إن المزابيِّين بالجزائر ـ يقصد العاصمة ـ يتمتَّعون برعاية ولاة الأتراك أكثر مما يتمتع بها العرب، إنهم يديرون المطاحن والمخابز والحمامات، وضيعات تربية المواشي.

وكانت لهم تعاضُدِيات تخضع لقوانين خاصة، ويشرف عليها الأمين الذي يرشحونه وتوافق على ترشيحه السلطات، وهذا الأمين هو الذي يتولى قبض المغارم، وغيرها، بحيث إنه هو الواسطة بين رعاياه والسلطات.

ومما يضاف إلى نشاطاتهم الاقتصادية إحياء الأرض الموات ونظام الري، والأمن العام، كما أن للمرأة الإباضية دورا مرموقا في الميدان الفكري، إذ هي تساند الرجل في

تربية النشء، وتوجيه المرأة ومراقبتها، وقد خصصت لهذا الجانب الآنسة قوانشوه (Goichon) كتابا أطلقت عليه اسم: (**حياة المرأة في مزاب**)، وقدَّمه المستشرق الشهير وليام مارسي (أستاذ جامعة باريس) في عهده، كما قرَّظه مارسيل مرسي (Marcel Mercier) المتقدِّم الذكر ـ أي: الذي ألف كتابا في الفن المعماري ببلاد مزاب، ونشر تعليقه في (**المجلة الإفريقية**) بعددها المؤرَّخ في سنة 1933م، وهذه الدراسات أو التقاريظ لا تخلو مِن أغراض ـ رغم فوائدها ـ إذ كثيرا ما يمزج أصحابها التاريخ بالأساطير.

والخلاصة: إن الإباضيِّين أمكنهم أن يصارعوا الأهوال والأحداث بحكمة ويقظة، فحافظوا على تعاليم مذهبهم وسايروا الزمان في ميادين النشاط الاقتصادي، فزاحموا في التجارة بمدن الشمال التي أخضعها التجار اليهود الذين غزوا العالم ومن جملته بلاد المسلمين التي وجدوها لقمة سائغة، ودورهم في عهد الأتراك مشهور عند جل المؤرخين، كما أن نظامهم الاِجتماعي والديني مكناهم من اطمئنان نفوسهم على أهلهم وذويهم، الذين كانت تلجئهم ظروف الهجرة إلى مفارقتهم، حيث كانت جماعة المسلمين هي التي تتولى رعايتهم، أي تربية البنين والبنات وتعليمهم ورقابة الأسرة، والاهتمام بشؤونها، في الحياة العامة والخاصة، ونظام القضاء والشرطة، ولازال للقضاء سيفه الحاد، الذي يسلطونه على كل من سولت له نفسه الانحراف، وعدم الخضوع للأحكام الصادرة عن القضاء الشرعي، وكيفما كانت آراء الناس في هذه النظم، التي ينسبها البعض إلى التعصب، والعنصرية، أو الرجعية المتخلفة، فإنها مكنت طائفة من الطوائف الإسلامية، أن تجمع بين محاسن الماضي والحاضر، وتفرض احترامها على المواطنين الذين يعيشون معهم في بلاد الشمال، وقد برهنت هذه الطائفة أنها خدمت العلم واللغة العربية بوسائلها الخاصة ومجهودات المواطنين، فكانت مدارسها الأهلية ونظام الحج، والتعريب مما خلّدها لها التاريخ.

صفحات من تاريخ بشَّار
الثَّقافي والسياسي في القَرن التَّاسع وما بعده [1]
(مديرية الشؤون الدينية) لـ(ولاية بشَّار)[2]

تمهيد:

في إطار النَّشاط الثَّقافي الذي تقوم به (وزارة الشُّؤون الدِّينيَّة) عبر مختلف مدن الوطن، ألقى هذه المحاضرة: الأستاذ المهدي البوعبدلي (المكلَّف بمهمَّة)، يوم 6 ربيع الأوَّل1398هـ الموافق لـ:14 فبراير 1978م، على السَّاعة السَّادسة والنِّصف مساءً، بقاعة سينما البلدية.

وقد اختار المحاضر عنوان:(**لمحات تاريخيَّة من حياة بشَّار الثَّقافية، في القرنَين التَّاسع والعاشر للهجرة**)، لأنَّ مدينة (**بشَّار**) كانت ولا تزال عاصمة المنطقة الجغرافيَّة.

وما يمكن استخلاصه واستنتاجه مِن فحوى هذه (**المحاضرة**)، هي تلك الرُّوح التي كانت سائدة بين شعوب المغرب، وخاصَّة بين نخبة العلماء والمثقَّفين، رغم التَّقلُّبات السِّياسيَّة والمناوشات التي كانت تدور بين الأقطار والبلدان بين الفَينة والأخرى. ولئن قد تعدَّدت السُّبل والوسائل، إذ إنَّ الغاية واحدة، والهدف مشترَك لتحقيق الوحدة المنشودة، ولن يتأتَّى ذلك إلاَّ بنشر الثَّقافة والوعي.

الإدارة

(1)
(2)

إنَّني سأتناول بالبحث في هذه (**المحاضرة**)، جوانب من منطقة (بشَّار) في المجالين الثَّقافي والسِّياسي، هذا، وإن كان عنوان (**المحاضرة**) يشير إلى (بشَّار)، فذلك راجع إلى أنَّ (بشَّار) هي قاعدة المنطقة التي يتناولها البحث، وإلا فإن المدينة قريبة العهد بالتأسيس، إذ شرع في بنائها حوالي سنة 1904م، وهذا لا يمنع من أن مدينة بشار الحالية بنيت على أنقاض قصور قديمة كانت تسكنها قبائل بربرية تعرف بـ (تاكدة) و(واقدة)، ومن الوثائق التي اعتمدتها كمصدر لموضوع هذه الدِّراسة (أي تأسيس مدينة بشار الحالية) وثيقة شاهدة عيان، زارت بشار أثناء الشروع ببنائها وشاهدت ورشات البنائين وما إليهم من العمال والتجار، فضمنت كله تأليفا خاصا، وهذه الشاهدة هي الكاتبة والصحافية المشهورة إيزابيل ايبرهاردت الروسية الجنسية والمسلمة الأصل، وقد أطلقت على تأليفها هذا الاسم : (**في ظل حرارة الإسلام**)، وهذا التأليف عبارة عن مجموعة مقالات سجلتها بالفرنسية ضمنتها انطباعاتها من القرى التي زارتها في رحلتها من عين الصفراء إلى الجنوب وكان من بين هذه القرى بشار، وذلك في قالب قصصي روائي، صادفت زيارتها بشار في طور التأسيس،فذكرت عناصر سكان موقعه الذين كانوا من بني سبع وأولاد جرير ومن الحراطين كما ذكرت الأجانب الذين كانوا يتكون منهم العمال والتجار،وهم من الأسبان واليهود، وكان اليهود وردوا من القنادسة ويحترفون صنع الحلي،واتخذوا لذلك فساطيط فيها كوانين ليصهر في بوتقاتها الدنانير الفضية المعروفة بالدور وكانوا يشترونها من الجيش المرابط ببشار.

وقبل مواصلة البحث، لا بأس أن ذكر أنّ قصرين من القصور في هذه الناحية اشتهرا بالعمران والحضارة من قديم، وهذان القصران هما القنادسة، وفجيج، وكما أن جنوب هذه المنطقة التي كانت تعرف بالساورة شاهدت مناطق حضارية عبر التاريخ،

إلا أننا لم نحظ بتاريخها المسجل خصوصا التاريخ الجهوي الذي كان خاصا ببعض القرى والقصور،اللهم إلا ما يوجد مبعثرا في تراجم بعض العلماء أو بعض تآليفهم الموضوعة في بعض الفنون، أو ما ذكره بعض الرّحالين وأصحاب النوازل الفقهية،وهذا هو فحوى موضوع هذه المحاضرة التي ركَّزتها على الجوانب الثقافية والحضارية لهذه المنطقة التي اشتهرت بكثير من معاهدها وتكونت في ربوعها وحدة ثقافية، كما انبثقت من هذه الناحية شبه ثورة فكرية في المجالات الثقافية والعقائدية، وكان لها أثرها في شمال البلاد وجنوبه، وإنني كذلك عملا بالقول المأثور الذي كثيرا ما نردده في سلسلة هذه المحاضرات، التي تعهدت بإلقائها عبر أنحاء الوطن، وهو: «ما لا يدرك كله لا يترك جله»، إذ القصد منها هو لفت أنظار المثقفين خصوصا سكان هذه النواحي، إلي الاعتناء بإحياء ما تبقى من تراث فيبذلوا جهودهم لإنقاذه، حتى يتمكن تحقيقه ونشره،إذ الوثيقة التي تبقى مغمورة في الخزائن العامة والخاصة، هي عرضة للتلف، بخلاف الوثيقة التي تطبع وتنشر،فطبعها ولو كان عدده كمية قليلة،أضمن لبقائه وحفظه، كما أن هدفنا من هذه المحاضرات غير مقصور على الجماهير الحاضرين في هذه الندوات، بل المقصود منه نشرها لإعادة النظر في تاريخ بلادنا الذي تعرض للتشويه والافتراء عليه، حيث إن كثيرا من مصادره الأصيلة ضاعت، وصار كثير من باحثينا يلتجئون إلى ما كتبه بعض من تصرفوا فيه حسبما كانت تدعوهم إليه المصالح والأهواء،كما نجد بعض معاصرينا ومن سبقهم زهدوا في بعض هذه المصادر التي لا شك أنها اصطبغت بالطابع الذي به ثقافة بلادنا قرونا،وأثقل تراجم من علمائنا بما أضفاه عليهم معاصروهم من نسبة كرامات وخرق وعادات، مبالغ فيها وأهملوا الجوانب الإيجابية كالعلم والاستقامة والجهاد وما إلي ذلك ولهذا لا ينبغي لنا أن ننصب أنفسنا حكاما على هذا التراث،فنثبت منه ما يوافق التيارات التي كثيرا ما يتشبث بها الرأي العام المتقلب، ونهمل ما يخالفها، فعلينا أن ننقل وننشر هذه المصادر كما تفرضه

علينا أمانة النقل،ولنعلق على ما نراه فيها من الغلو أو الزيف،هذا وإننا لم نقتصر في هذه الدراسة على بلدة أو قرية بعينها من هذه الناحية، كما يوهم بذلك عنوان المحاضرة، وهو: (**ماضي بشار الثقافي**)، فإن اختيارنا لهذا العنوان كما ذكرت مرجعه إلى أن بشار هي قاعدة الناحية الجغرافية والإدارية، وكانت الناحية آهلة بالمراكز العلمية كمركز كرزاز، والقنادسة، وفجيج.

ولما كان مجال هذه المحاضرة لا يسعنا لتتبع دراسة هذه المراكز كلها وقع اختيارنا على مركز فجيج الذي هو أقدمها وأمثلها، كما أنه احتفظ له التاريخ بماضيه الثقافي والحضاري، وإنني ركزت موضوع دراستي هذه على أسرة علمية من سكان فجيج أضفت على البلدة طابعا علميا جعل فجيج في مصاف أمهات المدن العلمية، وقد أنجبت هذه الأسرة فطاحل العلماء الذين توارثوا العلم قرونا وتركوا آثارا كتب لها الخلود وهذه الأسرة هي أسرة :عبد الجبار الفجيجي، الذين نزح بعض أفرادها من الشمال ـ أي من معسكر ـ وإنني أغتنم هذه الفرصة، لأبين أن كثيرا من المعاصرين يحاولون جعل كل بلدة ـ خصوصا بالجنوب :أي الصحراء ـ منزوية وراء الحدود الضيقة وتناسوا أن بلاد الإسلام بصفة عامة وبلاد المغرب العربي بصفة خاصة كانت تجهل الحدود الضيقة المصطنعة، وإنني في هذه المحاضرة ـ كما سترون ـ أثبت أن الاتصال العلمي بين هذه المناطق الجنوبية وبلاد الشمال كان حقيقيا ووثيقا متينا لم ينقطع، فالأسرة العلمية التي ركزت عليها موضوع هذه المحاضرة نزح بعض أفرادها من الشمال كما نزحت الكثير من الأسرة العلمية من الجنوب إلى الشمال، ولم تقتصر هذه الصلة على نزوح السكان من جهة إلى أخرى، بل كانت التيارات الفكرية وبالخصوص في المجال العقائدي تنتقل بسرعة من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال ومنها حركة التأليف التي كانت تتبادل بين هذه النواحي، وبالجملة فإن التيارات

الفكرية في جميع مجالاتها الثقافية والعقائدية والسياسية كانت تجتاح كامل البلاد من الجنوب إلى الشمال وبالعكس، كما كان اهتمام المثقفين الذين كونوا وحدة متينة بينهم يشدون أزر بعضهم بعضا وبذلك كونوا رأيا عاما موحدا يقرأ له ألف حساب، وهذا ما سأحاول إثباته في هذه الدراسة.

لنواصل حديثنا عن المركز الثقافي الذي أشرته إليه وهو فجيج الذي اشتهرت فيه الأسرة العلمية طيلة قرون، وهذه الأسرة هي أسرة عبد الجبار الفجيجي.

اشتهرت أسرة عبد الجبار فجيج، إلا أننا لم نجد من تعرض إلى تاريخ نزوحها من بلاد معسكر إلى أن اطلعنا على تأليف العلامة الشيخ محمد الجوزي المشهور عند المؤرخين بـ (المزيلي) في تأليفه المسمَّى:(**فتح الرَّحمٰن في شرح عِقد الجمان**)، و(**عِقد الجمان**) هذا، للعلاَّمة الشَّيخ أبي زيد عبد الرَّحمٰن بن عبد الله بن أحمد التُّوجيني، من علماء القرن الحادي عشر، وقد سمَّى تأليفه هذا (**عِقد الجمان النَّفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس**)، ضمَّنه تراجم علماء (غريس)، وقد ذكر شارحه المزيلي الظُّروف التي التقى فيها بمؤلِّف (**عِقد الجمان**) الذي التمس منه شرح تأليفه، فقال: «وقد كنتُ قديما وحديثا، يحدو بي حادي الشَّوق نحو شرحه حثيثا، ويصدُّني عن ذلك ما في باعي من القصر، ويطردني زماني الكثير الفتن والعبر، ثمَّ لما قرب الأجل للاختتام، بترادف أهوال جيوش الحمام، التقيتُ أنا ومصنِّفه ذات يوم من الأيام، فناولنيه وكلَّفني بالشَّرح عليه تكميلا لما النُّفوس مشوق إليه، فقلت له:ألم تعلم أنَّ من العناء العظيم، استيلاد العقيم والاستشفاء بالعقيم، فقال: والذي بعث محمَّدا ﷺ بخير الأديان، وقطع به كلمة البهتان، ما أنت في هذا بمُقال، ولتنقلن ما لي من المقال، ولمَّا رأيتُه على ذلك عازما، ولترك الإقالة حازما، استخرت ذا الفضل والجود، وشمَّرت على ساعد الجدِّ وبذلتُ المجهود، من قصر الباع، لما رأيت من ذلك من فوائد الانتفاع، وشرحته شرحا

أبرز فيه من اللآلي خدمة لسدة الآل، وسمَّيته:(**فتح الرَّحمٰن في شرح عِقد الجمان**).

كان في طليعة المترجم لهم في كتاب:(**عِقد الجمان النَّفيس في بيان علماء وأشراف غريس**) الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الجبار، قال في التعريف به بعد أن بين أصل الأسرة المنحدر من المولى إدريس وأوليته في بلاد المغرب الأقصى ثم الجزائر وما وقع من الخلاف في رجل من رجال عمود النسب، قال المزيلي: «وقد غلط من جعلهما واحدا بسبب توافق التسمية ثم واصل كلامه بقوله:« ويرحم الله المصنف لم يعرف بالغالط سترا عليه، رحمة الله عليه ».

ثم قال: «وللأول الذي عقدت له الترجمة، أي الشيخ أبا الحسن علي بن عبد الجبار – عقب وقبره معروف عند أهل محلة غريس[1] الشرقي يزورونه ويتوسلون به إلى ربهم في زعازع الأمور ويقضي الله ما شاء رحمة الله عليه، وفي نسخة غفر الله له ».

إنّ ما ذكره العلامة الجوزي المزيلي في تفسيره على عقد الجمان الذي سمَّاه:(**فتح الرحمٰن في شرح عقد الجمان**) وهو كما نرى يثبت أن جد أسرة ابن عبد الجبار المشهور ببلاد فجيج ينحدر من بلاد غريس التي كانت تعرف في التاريخ بالراشدية، كما اشتهرت في التاريخ بأنها كانت من مراكز الإشعاع لعلمي التوحيد والفقه طيلة ثلاثة قرون، وذلك ابتداءً من القرن التاسع الهجري .

ولنتحدث بعد هذه التوطئة عن التاريخ الثقافي لهذه الناحية، أي فيجيج الذي هاجرت إليه أسرة ابن عبد الجبار وسنقتصرعلى ذكر بعض أفرادها كنماذج، ونلحق بهم غيرهم، حسبما يسمح لنا به مجال المحاضرة المحدود:

---

(1) **غريس**: هو الاسم الذي لا زال يطلَق على سهول بلاد (أمِّ عسكر)، وكان يعرفُ قبل بـ (الرَّاشديَّة). (م)

فمن بين أفراد أسرة عبد الجبار الشيخ :أبو إسحاق إبراهيم ابن العلامة الرحال الشيخ عبد الجبار بن أحمد الفجيجي، صاحب منظومة الصيد المشهورة بـ (**روضة السلوان**)، وبـ (**العينية**)، وكذلك بـ (**السلوانية**)، وقد شرحها بن أخيه العلامة ذائع الصيت الشيخ أبو القاسم ابن الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الجبار بن أحمد ابن موسى البرزوزي الفجيجي المذكور سابقا، وقد سمى شرحه هذا: (**الفريد في تقييد الشريد وتوصيد الوبيد**)، وهذا الشرح علاوة على اعتناء مؤلفه بتحليل محتوى موضوع التأليف، أي روضة السلوان، فقد تعرض فيه صاحبه لدرس حالة بلاد فجيج في عهد المؤلف (**روضة السلوان**) عمه الشيخ أبي إسحاق إبراهيم قاضي فجيج في عهده بين لنا حالتها الثقافية والاجتماعية والسياسية، إذ لولا هذا النوع من التآليف لبقيت جوانب من تاريخ بلادنا مكتنفة بالغموض، رغم وجود كثير من التآليف في بقية فروع المعرفة، فهذا النوع من التآليف يمكننا أن نلحقه بالتاريخ الجهوي، اشتهر أصحابه بمزيد من الاعتناء بتاريخ البلدة أو الناحية، سواء في المجالات الثقافية أو الاجتماعية.

تعرض شارح المنظومة في تقديم شرحه لترجمة عمه أبي إسحاق صاحب منظومة (**روضة السلوان**) وذكر المحيط الذي كان يعيش فيه ببلاد فجيج خلال فترة تدهورها، وتذمر بعض القبائل من سكانها، عند ضعف السلطة المركزية التي اشتغلت بإخماد الثورات والتمردات، وكانت أحكامها لا تنفذ بالخصوص في المناطق النائية من قواعد كفجيج، وقبل أن نتحدث عما وصف به الشارح حالة بلاد فجيج نذكر موجزا عما قاله في التعريف بالتأليف والداعي إلى شرحه فقال :" إنه التمس منه بعض الطلبة وأهل العلم شرح هذه القصيدة أي منظومة روضة السلوان " وبعض تقديم اعتذاره على عادة المؤلفين الذي قال فيه: «فامتنعت لترادف عوائق تضني بالنحرير الماهر الحبر حتى تصيره كالقابض على الجمر ... »، إلى أن قال: «ولم يسبق لها أحد بشرح يكون إليه

اللجأ »، وودت أنه كان ذلك فيسع الامتناع أو يكون على غريبها تعليق يكون فيه الانتفاع، مع أنها جديرة بالاهتمام، إذ قد تضمنت من اللغة وفقه الصيد ومحاسن النزاهة ورفع الهمة والنباهة، ما لا يسع الحازم رفضه بالانفصال، فشرعت في وضع تعليق عليها يوضح إن شاء الله غريبها...»، إلى أن قال: «وأشير من المعنى اللائق بكل بيت منها لا على وجه الاستيفاء، إذ لو تتبعت المعاني والحكايات لأربى على مجلدات على تراكم أهوال الوقت وشغف الفتن المضنية كما سيأتي في أحوال البلد عن كلام الناظم رحمه الله »، ثم ذكر الشارح أن عمه صاحب التأليف أي روضة السلوان له منظومة أخرى رثا فيها عالما من علماء فجيج ضمنها وصف حالة البلاد وهي التي أشرنا إليها عند الحديث على أهمية التأليف فهي التي وصفها بقوله بعد أن تحدث عن (**روضة السلوان**) فقال: «وله في نظم آخر يرثي به بعض أهل الفضل من نظرائه إذ عدي عليه فقتل عدوانا رحمة الله على الجميع، وهذه هي المنظومة التي أشار إليها الشارح وأثبتها في شرحه فقال:

تغيرت البلاد واحلولك الليل ... وشب ضرام الشر وانهمر السيل
وآن الرحيل من ديار تأمرت ... بها المفسدون واستمر بها الهول
فلا فتكة إلا وتنسيك فتكة ... ولا فتنة إلا وبداخلها العول
ولا صلح إلا إثره ألف غدرة ... ولا قول إلا غيره العقد والفعل
سلام عليكم لا تجاور جيرة ... من الجور عتباهم إذا عتبوا القتل
أتسكن أرضا ليس ينهى سفيها ... ولا يتقى بها قصاص ولا عقل
ولا يأمن الأخيار شر شرارها ... على خطر يبقى بها من له فضل
تعين فرضا أن يهاجر عنهم ... إلى الله من له بصيرة أوعقل
نهينا عن الرهبان من غير ديننا ... فكيف بأهل الدين جاءهم الويل

فتكـتم بعبـد الحـق لا در دركـــم   عـلى قولـه للحـق وهولـه أهـــل
هنيئـا لـه نيـل الشـهادة منكـــم   وويل لكم من حاكم حكمـه عـدل
فإن يشكوكم خلق إلى خلق مثلكم   فإنـا شـكوناكم لمـن لا لـه مثـــل

ولنقف وقفة قصيرة للتأمل في هذه القصيدة التي رثا بها القاضي أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الفجيجي مواطنه العلامة الشيخ عبد الحق بن محمد بن عبد الحق السكوني الشريف نسبا الفجيجي سكنا، الذي رثاه بقوله في المرثية :

فتكتم بعبـد الحـق لا در دركـــم   عـلى قولـه للحـق وهولـه أهـــل

فيظهر من البيت جليا أن عبد الحق هذا، كان صاحب شأن وأنه لا شك وقف في وجه بعض الطغاة من رؤساء القبائل ونهاهم عن المناكر التي كانوا يستحلونها، ولم يترك صاحب المرثية شكا في الفوضى التي كانت تسود فجيج إذ ذاك، كان لسفهائها التصرف التام من دون خشية محاسبة مما أداه إلى الفتوى بوجوب هجرتها، حيث قال :

أتسكن أرضا ليس ينهـى سـفيهها   ولا يتقى بها قصاص ولا عـــقل
ولا يـأمن الأخيـار شر شرارهــا   على خطر يبقى بها من لـه فضـل
تعـين فرضـا أن يهـاجر عنهـــم   إلى الله مـن لـه بصـيرة أو عقـــل

كما أمكننا أن نستنتج من هذا القصيد أن الفوضى كانت متسببة عن الخلافات القبلية وكانت تلك القبائل يتزعمها رؤساء ينتحلون الدين والصلاح، مع أنهم كانوا لا يوفون بالعهود، كما أشار القاضي ابن عبد الجبار عند قوله :

ولا صـلح إلا إثـره ألـف غـــدرة   ولا قول إلا غيره العقد والفعـــل

أما زعامة رجال الدين وتحملهم مسؤولية قتل عبد الحق السكوني فيدلنا عليه قوله:

نهينا عن الرهبـان مـن غـير ديننـا فكيف بأهل الدين جاءهم الويـــل

وقد بين الشارح أبو القاسم بن عبد الجبار أن عمه صاحب (**روضة السلوان**) له عدة تآليف، من بينها: المرثية التي ذكرناها، ومنظومة أخرى ضمَّنها عيون الفقه ونوادر المسائل ما لم يوجد في غيرها .

ثم تعرض لترجمته في تقديم شرحه فقال: «وقد أخذ علوما من مدينة فاس- حرسها الله- عن الشيخ الصغير، وابن غازي، والونشريسي، ولقي شيوخا جلَّة بتلمسان، كالإمام السنوسي، وابن مرزوق، والعقباني، والتنسي، وأخذ في رحلته إلى المشرق أيضا عن الإمام السيوطي، والبساطي، وابن النجار الحنفي، وبالمدينة المنورة عن السَّخاوي، والأشموني، وله عن الجميع إجازات، ومناولات، ومسلسلات، وأطلقوا له القول في الجميع ... الخ »، وإننا كثيرا ما نجد في تراجم علماء السلف لذكر هذه الإجازات والمناولات والمسلسلات مكانا، فخلف من بعدهم خلف حذفوها بجرة قلم، حذفوها من التآليف المطبوعة بدعوى الاختصار، وقد جنوا بعملهم هذا جنايات لا تغتفر، حيث إن تلك الإجازات كانت تربط صلة المجاز لا بأساتذته فقط، بل بالمؤلفين للتآليف التي أخذها عن أساتذته، ثم إن هذه الإجازات لها مكانة في التاريخ الثقافي، فمنها تظهر درجة الطالب المجاز، فإذا امتاز عصرنا بالشهادات العلمية في مختلف مراحل التعليم،بداية من الشهادة الابتدائية إلي رتبة اللسانس والدكتوراه، فإن درجة حامل هذا النوع من الإجازات في الزمان السابق بلغ من الاعتناء والدقة في وصف الطالب ودرجته ما لم نصل إليه في أزمنتنا هذه،فالأستاذ كان يصور مكانة التلميذ ومقدرته في التدريس والفتوى، كما كان يضمن إجازته وصايا وتوجيهات كتحري الصدق والأمانة والنزاهة والمثابرة على المزيد من التحصيل، ومن جملة هذه الوصايا التي كانت لا تخلو منها إجازة من هذه الإجازات خصوصا عند علماء الحديث

هي قول المجيزين: «اتركوا اليأس مما في أيدي الناس، تعيشوا أعزة»، وهذا كله زيادة على ذكر الفنون التي تلقاها عنهم التلميذ، وأمكنتها، وتاريخ تأجيزه، وذكر من حضر عند أخذه للإجازة إذ كانت تعقد لها حفلات خاصة يدور فيها النقاش بين التلميذ المجاز ونخبة العلماء الحاضرين لتسليم الإجازة، وقلما نجد عند بقايا الأمم غير الإسلامية الاهتمام بالإجازات التي كان يشد لها السلف الرحال، وكان هذا التوجيه هو الذي ينعكس على التلميذ طيلة حياته العلمية.

تولى إبراهيم ابن عبد الجبار القضاء في بلد فجيج، وقد اختلف المترجمون في مكان وفاته، فقيل أنه توفي بالسودان، وقيل بفجيج، والغالب أنه توفي بفجيج حيث ذكر ذلك ابن عسكر في كتابه (**دوحة الناشر**) [1] وهو أدرى، إذ كان معاصرا كما سنبين ذلك في موضعه، كان إبراهيم هذا ككثير من أفراد أسرته كثير التجوال،ولذا لقب بالرحالة،وقد أشار إلى ذلك ابن أخيه شارح المنظومة فقال: « مع أنه رحمه الله مشغول بالأسفار في سائر الأقطار ».

وبعد أن أنهى شارح المنظومة حديثه عن ترجمة عمه ،تعرض لصلب الموضوع،أي شرح المنظومة التي استهلها مؤلفها بالبسملة،انتقل إلي وصف بلاد فجيج مباشرة فقال: «لما أن كانت بلدي فجيج أشبه بالبادية من الحاضرة، وعقول أهلها وهممهم عن معاني الناس متقاصرة، وقلوبهم بما انطوت عليه من الأحقاد متناكرة متنافرة، وعلى البغضاء والشحناء متظاهرة، فهم في فتن،تصبح فيها فئة مؤمنة وتمسى كافرة، وفي حمية جاهلية عاقبتها الندامة في الدنيا والآخرة، بحيث تجب الهجرة والهجران عن الطائفة الفاجرة، الباغية الجائرة، مع ابتلائي بخطة الفصل بينهم، ومعاناة الأجلاف والجلامد، ومقاساة شيطنة كل مارد، لاسيما الطائفة الموسومة منهم بالأفارد، فربما جن ليل

---

(1) وإن كان المؤرخون يذكرون عدم تحري ابن عسكر في «**تاريخ الوفيات**».

الانقباض فأفر إلى الصحاري كالبعير الشارد، فأستريح برهة من الزمان، من ثقل الصادر والوارد، ثم يردني لي إليهم حقوق الأهل والولد والوالد، فأتمثل بقول عبد الوهاب (رحمه الله تعالى):

لحـــا الله دنيـــا ألجأتنـــا إليهـــــم فبعدهم أشهى إليها من القـــرب
صـــحبناهم لمـــا اضـــطررنا إلـــيهم كما اضطر صياد إلى صحبة الكلب

ثم انتقل المؤلف ـ أي صاحب المنظومة ـ بعد تقديمه الذي ضمنه وصف بلد فجيج في عهده إلى الحديث عن سبب اختياره لموضوع تأليفه وهو الصيد، فقال: « فلما ألفت سياحة البراري، وقنص وحوش مهامه الصحاري، والتفكر في مصنوعات الباري، فلا قيل ولا قال، ولا همج ولا ثقال ولا جمام يسلب الهيبة كما قال :

وطـــول جمـــام المـــرء في مســـتقره يغـــير لونهـــا وريحـــا ومطعـــما

ثم بين أنه كان يختار الاستعانة بالصقر بدلا من الكلب، وعلل ذلك الاختيار بقوله: «كان مما اخترت الاصطياد به لنزاهته، ودرابته، ونجابته، الصقر دون الكلب، لحقارته وقذارته على نباهته، وسرعة إجابته، وختم ذلك بقوله وكنت أقول:صقر وقور، خير من كلب عقور .

وقبل أن نواصل حديثنا عن المنظومة، نرجع إلى تتمة الحديث عن تراجم موجزة لبعض أفراد أسرة ابن عبد الجبار،تعهدت بذكر تراجمهم كنماذج، نجد زيادة على مؤلف المنظومة القاضي أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الجبار وولد أخيه الشيخ أبي القاسم شارحها،بعض أقاربهم ممن اشتهروا بالعلم والتأليف، عثرنا على مخطوط نقله أحدهم بمدينة تونس، قال في ختامه: «نجز ولله الحمد رب العالمين، وذلك في أواخر محرم عام أربعة وخمسين وثمانمائة، وذلك بمدينة تونس كلأها الله،قرب ضريح الولي الصالح

سيدي محرز بن خلف (رضي الله عنه، ونفعنا ببركاته بمنِّه وكرمه) »، ثم قال: «انتهى على أفقر عباد الله محمد بن أحمد بن عبد الجبار ابن أحمد الفيجيجي (لطف الله به) من خط مؤلفه، وذلك ضحوة يوم الأحد غرة جمادى الأخيرة عام خمسة وخمسين وتسعمائة .اهـ

ثم وجدنا تعليقا على هذه الكتابة آخر المخطوط يعرف فيها كاتبها ناسخ المخطوط فيقول: « ناسخ هذا المجلد، هو الإمام العالم الهمام، المتضلع من المعقول والمنقول الآتي من كل فن بما بهر العقول، أبو عبد الله سيدي محمد بن الإمام العالم القاضي أبو العباس سيدي أحمد ابن الشيخ الجامع الخاشع الجامع بين العلم والولاية ومن ترقى في عالم الدرجات إلى الغاية، سيدي عبد الجبار بن أحمد بن موسى الشريف الحسني الوتد غيري ثم البرزوزي، وهم نجع من نجع بني وتدغير،أخذ عن أشياخ عصره بالمغرب ورحل إلى المشرق، وأخذ عن أشياخها أيضا،وكان كثير التقييد للفوائد، وأخذ عنه غير واحد، منهم علامة زمانه، وشيخ شيوخ عصره وأوانه،ابن عمه أبو القاسم ابن محمد بن عبد الجبار » ـ أي: شارح المنظومة موضوع دراستنا ـ ثم قال المعلق على المخطوط: «ونظم (رحمه الله) الآجرومية، وشرحها، وله تأليف في المنطق، وله نظم عجيب في شمائل المصطفى ﷺ، وقصائد أخرى (رضي الله عنه، ونفع به) انتهى ما وجد في التعليق على المخطوط.

كما وجدنا لنفس ناسخ المخطوط هذا مخطوطا نقله، وخطه كالخط الأول، جميل بديع،قال في ختامه، بأنه نقله بالمدرسة الجديدة خارج باب زير من تلمسان، ولم يذكر تاريخ النقل.

ونجد علماء آخرين،متوفرين بفيجيج، ترجم لبعضهم ابن عسكر في تأليفه (**دوحة الناشر في بيان علماء القرن العاشر**)، منهم أبو الحجاج يوسف، وابن أبي مهدي

عيسى الشريف الذي قال في ترجمته ابن عسكر: «لقيته سنة خمس وخمسين وتسعمائة، وصحبته مدة، وانتفعنا بصحبته، ورأيت له كرامات كثيرة، وله في علم الأحوال والمعاملات، وأسرار الذكر الخاص الشيء الذي لا يدرك، وكان الغالب عليه الخمول، أقام بمكة شرفها الله تعالى حاجا ومعتمرا ست عشر سنة،أخذ عن مشايخ أجلة، منهم أبو محمد عبد الله الغزواني، والشيخ أبو عيسى الفهري، والشيخ الحطاب بمكة المكرمة وغيرهم.

توجه (رضي الله عنه) إلى المشرق، سنة سبع وخمسين وقد نيف عن الثمانين سنة، ووصل مكة والمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فكان ذلك آخر العهد به، ولم ندر حيث كانت وفاته، وقد ذكر ابن عسكر إجازة أستاذه يوسف الشريف الفيجيجي المذكور مطولة في ترجمته » اهـ.

نكتفي بهذا القدر من تراجم علماء فجيج، الذين تعهدت بذكرهم كنماذج، ولنواصل الحديث عن منظومة (**روضة السلوان**) فنشير إلى فقرات من محتواها موجزة، إذ المنظومة تحتوى على 213 بيتا في ختامها :

وفي مـائتي بيـت تجلـت وعشـرة　　　لهـــن ثـــلاث للختـــام توابـــع

وهذه المنظومة كما بين ذلك شارحها في تقديمه حيث قال:

جمعت بين محاسن الصيد وسياسة وضبط أحوال النزيه المواظب على الفدافد، إذ قد تضمنت من اللغة وفقه الصيد ومحاسن النزاهة ورفع الهمة والنباهة، استهلها ناظمها بقوله :

يلومونني في الصـيد والصـيد جـامع　　　لأشـــياء للإنســـان فيهـــا منـــافع
فأولهـــا كســـب الحـــلال أتـــت بـــه　　　نصوص كتـاب الله وهـي قواطـع

وصـحة جسـم ثـم صـحة ناظـر ... وإحكـام إجـراء السـوابق رابـع
وبعـد عـن الرذائـل في صـون همـة ... وإغلاق باب القيل والقـال سـابع
وأيضـا لعـرض المـرء فيـه سـلامة ... وحفـظ لدينـه وذلـك تاسـع
وفيـه لأهـل الـدين والفضـل عـبرة ... وتـذكرة لهـا لـديهم مواقـع
ويورث طيب النفس والجود والسخا ... فيألف منه الصبر مـن هـو جـازع
وينفى الهموم المهرمـات عـن الفتـى ... ويقمع وفد الشيب كي لا يسـارع
ويـورث عنـد الالتحـام شـجاعة ... وفيـه مـن السـر الخفـي بـدائع

إلى أن قال :

وقد جاء سافروا تصحوا وتغنموا ... وذلـك مـن قـول النبـوّة شـائع
ومـارئي مفلوجـا مريـغ طريـدة ... حكى عن ذوي التجريب قوم بلاتع
وأيضا يزيد في الـذكاء وفي الـدها ... وذلـك كلـه إلى العقـل راجـع

...الخ

إن هذه المنظومة وإن اقتصر شارحها على بيان بعض محتواها بقوله: فقد جمع فيها بين عذوبة الألفاظ والسجع، من غير تكلف ولا احفاظ، إلى أن قال: «فما أخال في فتها أبدع من نظمها، ولا أجمع لغزلها من بعضها مع صغر جرمها ... الخ »، فقد ضمنها أيضا توجيه قرائه، مما اشتهر عند كثير من المؤلفين القدامى فكانوا يخصصون بعض تآليفهم لتوجيه تلامذتهم وأولادهم وكانوا يطلقون على هذا النوع من التأليف الوصية والنصيحة فيضمنوها حسن السلوك والإشادة بالمثل العليا، والتعريض بالأخلاق الذميمة المزرية، التي كانت كثيرا ما تطغى في مجتمعاتهم، وقد رأينا أن مؤلف المنظومة كان يضيق ذرعا بمواطنيه من سكان فجيج، فضمن ذلك كله في منظومته، ومن ذلك قوله:

ألا يا حسود مت بغيظك حسيرة على قلبك المسود لا سدت طابع
أبا لحسد المذموم تطمع في العلا ولا غير إلا الغل والشح هالع
أم المجد تبتغي وتأمل نيله ولا وصف إلا العجز والجبن خالع
إذا لم تسد بالعلم والحلم والتقى والجود والإقدام إنك للؤم راضع

ثم يتعرض صاحب المنظومة إلى الأخلاق اللئيمة التي تجلت على مواطنيه وكان يضيق بها درعا فيصفها بقوله :

وأرض تحار في مجاهلها القطا ولا تهتدي تسير فيها الطلائع
نروح ونغدو في نعيم توده وتترك ملكها الملوك التبابع

إلى إن يقول:

ولا راكب بغلا له عقل بغله ولا سوقة تضيق منها الشوارع
ولا ملك فظ ولا ذو تجبر ولا حاكم بالجور تدعو الأقارع
ولا عائب لما رأيت صوابه ولا حاسد فضلا بفضل يتابع
ولا جار سوء ليس يأمن جاره بوائقه إن غاب أو هو هاجع
ولا ماكر يريك شهدا وينثني فيسقيك أدهى السم ليس يضارع
ولا متلصص يراقب عورة ويبدي سمات النسك وهو يخادع
ولا سارق للسمع للقيل لاقط ولا فاسق يرمي بما هو صانع
ولا متعرض للأعراض مولع بتمزيقها تأتيك منه الفظائع
ولا أهل فتنة حرام جوارهم على ما ذوو الفتيا عليه تتابعوا
فما إن ترى للحم الإنسان آكلا ولاكن لحم الصيد ما منه مانع

يتبين لنا جليا من هذه الأبيات التي ضمنها أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الجبار

منظومته التي خصصها للصيد ومنافعه لفته لأنظار مواطنيه من سكان فجيج أن ينبذوا الشقاق والانحراف من طريق الصواب ويقلعوا عن الأخلاق الذميمة التي طغت عليهم، ويطفئوا نيران الفتن التي كان يوقدها الصائدون في الماء العكر.

بهذا القدر نكتفي لنلفت نظر القراء إلى مكانة هذه المنظومة لا في المجال الأدبي الصرف، الذي يدل عليه عنوانها، بل أهميتها أيضا في المجال الأخلاقي ينعكس والتربوي والتاريخي، حيث إنه كما سبق لنا الإشارة إلى ذلك، فكل ما تشمله المنظومة في المجال الأخلاقي، تماما على أخلاق أهل البلدة السلبية، كما استفدنا ذلك من المؤلف في مرثيته التي رثى بها مواطنه عبد الحق السكوني، وما أشار إلى بعضه في تقديمه للمنظومة، فمن هذه النواحي كلها، تتجلى لنا قيمة المنظومة التي هي سجل أدبي وتاريخي وعلمي في آن واحد، ولكن مع الأسف لم يعطها المعاصرون أهمية كبرى، حيث لا زالت لم تطبع وتنشر، حتى يعم لانتفاع بها، اللهم إلا ما نشر عنها وهو قليل جدا، وذلك إنا اطلعنا على فقرات نشرها منها العالم الباحث الشيخ عبد الله قنون في سلسلة تأليفه المعروف بالنبوغ المغربي في الأدب العربي، وكذلك سبق نشر المنظومة مجردة من الشرح بـ (**التقويم الجزائري**) الذي كان يصدر بمدينة الجزائر قبل الحرب العالمية الأولى، وذلك منذ ما يزيد على نصف قرن وبالضبط خمس وستون سنة، كما نشر بعض فصولها الشيخ عبد القادر نور الدين، المدرس السابق بالمدرسة الثعالبية مع أستاذ فرنسي، هذا ما وصلنا عن هذا التأليف الذي يعدّ من ذخائر الأدب العربي.

وإننا على ذكر هذه المنظومة ومكانتها في تاريخ الأدب العربي، نذكر أن الجزائر احتفظت بأقدم نسخ منها وأصحها، حيث كتبها تلميذ شارحها أبي القاسم بن عبد الجبار، وهذا التلميذ هو العلامة محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن أبي بكر الشريف السكوني الفيجيجي، وهكذا سجل اسمه ونسبه في المخطوط، وهو كما نرى من أقارب

الشيخ عبد الحق السكوني الذي رثاه مؤلف المنظومة، ومن البيوتات العلمية بفجيج.

ولنرجع إلى الحديث عن كل من مؤلف المنظومة وشارحها، فمؤلفها أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الجبار الذي ترجمه معاصره ابن عسكر في دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر فقال في ترجمته: ومنهم الشيخ الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار الفيجيجي، كان نقيبا، عارفا، أديبا، شاعرا، ماجدا، فاضلا، نزيها، خيرا، وكان مولعا بالصيد وله فيه القصيدة المشهورة التي مطلعها:

يلومونني في الصيد والصيد جامع لأشـياء للإنسـان فيهـا منـافع

وهي بديعة في فنها، وكونها، موجودة بأيدي الناس أغنى عن ذكرها هنا، ثم قال:« ابن عسكر توفي رحمه الله في أوائل الرابعة في بلاد فجيج » اهـ.

ومن هذا التعريف يتبين لنا عدم اتفاق المترجمين في محل وفاته، إذ سبق لنا أن بعض المترجمين ذكر أنه توفي بالسودان، وابن عسكر أثبت أن وفاته كانت بفجيج.

وكذلك نرجع إلى ترجمة ابن أخيه أبي القاسم شارح المنظومة، وقد ترجمه كثير من العلماء، اخترنا منها ترجمة صاحب كتاب (**فهرس الفهارس**) الذي قال فيه: «الإمام المحدث الصالح الرحال سيدي بلقاسم، وهو شارح منظومة الصيد لعمِّه أبي إسحاق إبراهيم المسمى بـ (**الفريد في تقييد الشريد وتوصيد الوبيد**)[1] وهو شرح ممتع في مجلد»، إلى أن قال: «وتجوَّل في الآفاق وأخذ عن أعلامها، وعمدته في الطريق سيدي محمد بن أبي الحسن البكري عن أبيه عن زروق، وروى عن والده عن ابن غازي، والونشريسي، والدقون، والسنوسي، وابن مرزوق الضرير، والقلصادي، وغيرهم، ويروي أيضا عن

(1) شرع في تأليفه حدود السبعين وتسع مائة، وفرغ منه عشية الاثنين سادس عشر ذي الحجة مختتم سنة ست وثمانين وتسع مائة.

والده عن أبي إسحاق إبراهيم التازي عن أبي الفتح المراغي عن أبي الفرات عن أبي جماعة عن المنتوري بأسانيده ... قال مات سنة 1021م ».

ثم واصل صاحب (**فهرس الفهارس**) ترجمته بقوله: «وبيت بني عبد الجبار بفيجيج له شهرة بالعلم والدين، وكانت لهم خزائن كتب عظيمة، حتى نقل الشيخ أبو عبد الله التاودي ابن سودة في أول فهرسته، عن أبي عباس الهلالي أنه مكث مدة يومين لم يتصفح فيها إلا أوائل كتبها وفي رحلة ابن عبد السلام الناصري الكبرى: كانت لهذا الإمام، يعني المترجم وبنيه من بعده، خزانة كتب عظيمة بها دواوين غريبة، ثم تلاعبت بها بين أيدي الحدثان، ومر الدهور والأزمان، فتفرقت شذر مذر، حتى لم يبق منها إلا الأثر.

والشيخ أبو القاسم بن عبد الجبار شارح المنظومة كما تقدم لنا، هو من أكبر علماء عهده، تخرج عليه أبرز علماء عصره الذين كان في طلعيتهم العالم الشيخ أحمد بن القاضي أبي يعلى (967 ـ 1022) الذي ثار على دولة الملوك السعديين أي أبناء المنصور الذهبي الذين خربهم بالتواطؤ مع البرتغاليين والأسبان الذين احتلوا بعض مدن شواطئ المغرب العربي وهران، وتفرق الرأي العام بالمغرب العربي إذ ذاك فرقتين :فريق انتصر للملك زيدان ولد ولي عهد المنصور الذهبي المذكور، وفريق قاومه، وهذا الفريق هو الذي تزعمه الثائر أحمد بن القاضي المعروف بأبي محلي، تلميذ الشيخ بالقاسم بن عبد الجبار موضوع دراستنا، وكان في ذلك العهد عالم مرشد هو الشيخ عبد القادر بوسماحة المشهور بسيدي الشيخ (دفين الأبيض) فاتهمه أحمد بن القاضي أبو محلي بالانتصار لزيدان واتخذ هذه التهمة وسيلة إلى شن حملة عليه، ركزها على الانحراف العقائدي، وقد ضمت حملته هذه عدة تآليف يطول تتبعها، وخلاصتها أنها كيفما كان حكم الأوائل والأواخر عنها، فإن من جملة آثارها الإيجابية هي تسجيل أحداث، لولاها ما كنا نعرف عنها شيئا، إذ أفادتنا التيارات الثقافية التي كانت تسود البلاد وتجتاحها، كما أفادتنا مواقف بعض علماء ذلك العهد وتراجمهم إذ لولاها لأسدل عنهم

ستار الإهمال والنسيان، دعا أحمد بن القاضي هذا علماء عصره سواء سكان المغرب الأقصى أو سكان الجزائر، إلى توحيد الصفوف، ومجابهة البرتغاليين والأسبان الذين احتلوا مدن العرائش ومليلية وسبتة ثم وهران وبجاية، فقال في إحدى رسائله نقتصر عليها كنموذج: «يا معشر المسلمين، أصلح الله بالكم، إذ انتشر هذا الخبر في غربكم، وانبهر ما كرا بكم ومخذلا لكم عن عدوكم، وبغضا في مخصصكم على امتثال ما أوجبه عليكم كلكم ربكم من الجهاد اللازم، على الجاهل اليوم والعالم والطالح والصالح والسلطان وبسبب تركه هو وإياه وهو عليه فرض في كل سنة دون ما سواه، حين فجئ العدو بجنوده التي لا قبل له بها وحده قطر الإسلام »، إلى أن قال: «والعالم متجاهل وذو الصلاح ذليل ودين للكل ـ عياذا بالله ـ كقلبه عليل، فلما عمتكم هذه البلية، وخشيت على كلكم إعطاء الجزية الدنية والتعرض لسخط الجبار، بالركون إلى الراحة والجبن والفرار، مع تعين الجهاد، اليوم على سائر العباد، وقد خلت البلاد من الأوتاد، وعم العناد والفساد، ولقد تصديت لما أمليت، إنعاشا لمن فيه بقية إيمان، وغيرة مني على دينكم وحريمكم أن يستأصلها حزب الشيطان وعبدة الأوثان فليت واحدا من أحباركم أو رهبانكم أو سلاطينكم كفاني هذه المؤونة، إذ لا رغبة لي في فخرها ولا أجرها، وإنما علي معكم المعونة، وما صدعت بهذه الرسالة العامة في الإسلام، إلا بعد تحقيق التقاعس من كلكم، وخمود نار عزمكم أو ذلكم، خوفا من أهل الكفر والضلالة، أن يذيقوكم الحمام، وربكم يقول في كتابه لذوي العقول الموقنين: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ (آل عمران:175) »، إلى أن قال: «وقد كنا من قبل رضينا قهرا وارتكابا لأخف الضررين بعموم الجور في الأقطار مع بقاء رسوم الدين في الأبشار، أفنرضى عباد الله ويلكم بعد هذا كله، باستيلاء الكفر على جميع القرى والأمصار، فإن لم تخافوا النار، فاستحيوا ويحكم من العار، فإن الفرار اليوم من الكبائر، وهو خزي في الدنيا وفي الآخرة لصاحبه دار البوار ».

هذه صفحات ذكرناها من بعض الأدوار التي قام بعض علماء فجيج وتلامذتهم الذين كان من أبرزهم وأشهرهم الثائر على الملوك السعديين أحمد بن القاضي بن أبي محلي، الذي استولى أثناء ثورته على مدينتي سلجماسة ومراكش، والذي اشتهر بالحملة الفكرية التي شنَّها على الشيخ عبد القادر بوسماحة (دفين الأبيض سيدي الشيخ)، وقد لقي نداء أحمد بن القاضي الذي ذكرناه استجابة في بلاد الشمال الجزائري، وورد عليه وفد من كبار علماء عاصمة الجزائر، يترأسه العالم الشهير الشيخ سعيد قدورة لخبر يطول، وهذا كله يدلنا على الاتصال الوثيق الذي كان بين هذه النواحي الجنوبية ونواحي الشمال، وقد تعززت هذه الحملة بانتشار تلامذة الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي دفين مليانة الذي كان من أمثلهم في هذه الناحية أحمد بن موسى الحسني مؤسس زاوية كرزاز وكان تلامذة هذه الزاوية منتشرين بأولاد جرير وفجيج وبني قومي، كما كان أحد كبار علماء أسرة عبد الجبار من تلامذة الشيخ أحمد بن يوسف المذكور، ولولا ضيق الوقت ومجال هذه المحاضرة المحدود، لكنا توسعنا بأكثر من هذا، وإنما عملا بالقول المأثور الذي نكرره دائما: «وهو أنه ما لا يدرك كله لا يترك جله»، نكتفي بهذا القدر ونغتنم هذه الفرصة السعيدة، لنكرر نداءنا إلى المثقفين من سكان هذه النواحي، أن يستقصوا عما تبقى من الآثار التي كانت تربط بين علماء هذه النواحي ونواحي الشمال، حتى نثبت وجود الصلة المتينة بين علماء سلفنا، ليتخذ منهم الخلف قدوة حسنة، فتتوحد الجهود، في خدمة الدين وإحياء التراث الإسلامي ورفع مناره، وإنني أختم هذه الوثائق بأن من الوثائق التاريخية التي بين أيدينا مساهمة سكان فجيج مساهمة ملموسة في حرب وهران التي فتحها الباي محمد بن عثمان سنة 1206 م بعدما احتلها العدو الإسباني حوالي (3) قرون، وكان أهل فجيج اختصاصيين في صنع الألغام فشاركوا في هذه الحرب، ونجد وثيقة أخرى اكتشفت بخزانة في بني ونيف هي للسيد محمد بن الصديق من قصر زناتة، تشتمل على رسالة بعثها الأمير عبد القادر إلى

سكان فجيج، يحثهم على الالتحاق بالمجاهدين ويخبرهم فيها بأن العدو احتل تلمسان، وتاريخ الرسالة 17 شوال سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف، وهي منشورة في المجلة الإفريقية عدد 288 سنة 1913 .

بهذا ننهي محاضرتنا ونتمنى أن نعود إلى الموضوع في فرصة أخرى إن شاء الله إذ الموضوع يستحق العناية والاهتمام، كما ينبغي لنا أن لا ننسى بأن الوحدة الثقافية بين بلاد المغرب العربي لم تكن تخضع للأجواء السياسية حيث كانت كثيرا ما تقع الحروب تارة بين الجزائر والمغرب، وتارة بين الجزائر وتونس وعندما تضع الحرب أوزارها، وترسل الجزائر وفد السلام إلى المغرب، وكذلك المغرب ترسل وفودها إلى الجزائر وكان هؤلاء الرسل من العلماء، فيقصدون زملاءهم بالمساجد الجامعة ويتبادلون الإجازات والتآليف ويستعينون ببعضهم بعضا على أداء مهماتهم، وقد خلد لنا التاريخ من آثار هؤلاء السفراء آثار محمد بن علي الخروبي دفين الجزائر، الذي أوفده الباشا حسن بن خير الدين إلى المغرب واحتفى به علماء فاس ومراكش، وتبادلوا فيها المناظرات العلمية التي لازالت آثارها إلى يومنا هذا، ومن سفراء المغرب إلى الجزائر الشاعر الأديب الغساني والشيخ الطيب الفاسي اللذين أوفدهما الملك مولاي إسماعيل وغيرهما كثيرون، فكانوا يتصلون بعلماء الجزائر ويتبادلون معهم التآليف والإجازات، وقد احتفظ لنا التاريخ بكثير من آثار هذه الإرساليات خصوصا القصيدتين الرائعتين اللتين تبادلهما كل من الأديب الغزال الفاسي، ومحمد بن الشاهد الجزائري.

وما قيل في سفراء المغرب والجزائر نقوله في تبادل سفراء الجزائر مع تونس، ومن أقوى الحجج والبراهين على هذه الوحدة الثقافية المغاربية، هو أن علماء التراجم مثل أبي العباس أحمد بابا التنبكتي خصَّص تراجم تأليفه (**ذيل الديباج**) إلى علماء الجزائر والمغرب وتونس، وهذا هو الجانب الذي نصبو إليه في هذه الدراسات للتاريخ الثقافي والحضاري ببلاد المغرب العربي.

لمحات من تاريخ بونة الثقافي والسياسي
ودور بعض علمائها عبر التاريخ[1]

كانت مدينة بونة من أهم المراكز العلمية بالشرق الجزائري، حيث كانت مكانتها في فترات من تاريخها تضاهي مكانة بجاية، عاصمة دولة بني حماد، وقسنطينة، وإن توقفت عجلة تاريخ بجاية الثقافي والسياسي طيلة العهد التركي، فإن بونة واصلت احتفاظها بمكانتها في الميدان الثقافي، إلا أنها لم تحظ بما حظيت به بجاية وقسنطينة ـ فإنها فقدت جل تراثها العلمي، وزهد الباحثون والمؤرخون، سواء منهم الأقارب والأباعد في نشر ما تبقى من هذا التراث، الذي كان إلى عهد قريب متداولا بين الناس، ولهذا فإني سأتناول في هذه الدراسة أربع مراحل من تاريخها الثقافي:

المرحلة الأولى: نبذة من ماضيها قبل الإسلام كمدخل وتمهيد للموضوع.

المرحلة الثانية: العهد الإسلامي وأركزه على عهد بني زيري وبني حماد.

المرحلة الثالثة: عهد الموحدين والحفصيِّين.

المحلة الرابعة: العهد التركي.

وأختمها بلقطات من تاريخها بعد الاحتلال الفرنسي، الذي ننهيه إلى أواخر القرن الثالث عشر الهجري .

---

(1) ملتقى الفكر الإسلامي العاشر 1976م، عنابة، ج1، ص 45-62، وفيه تعقيبات ج1، ص171-176، ص 423-430.

ماضيها قبل الإسلام:

أسس هذه المدينة الفينيقيون، وفي عهدهم استولى عليها ملوك البربر، المشهورين في التاريخ الأوروبي، بملوك نوميديا، كانت بونة منذ تأسيسها، تسمى بهيبو، ثم استحال اسمها إلى هيبون، ومن جملة ملوك البربر الذين حكموها: قاية (والد ماسينسا).

كانت هيبون تتبع تارة عاصمة سيرتا،وتارة تستقل عنها وفي أواخر القرن الرابع الميلادي لما اعترفت روما بالمسيحية اتخذت مركزا للكنيسة المسيحية ـ أي: صارت المركز الثاني بعد مركز قرطاج ـ وقد نال هذا المركز شهرة عالمية وذلك بسبب تولية إدارة كنيستها القسيس الشهير أوقستان الذي يعد من أعلام الفكر البشري وفي عهده صارت بونة تزاحم قرطاج، وتقاسمها كمقر لانعقاد المؤتمرات المسيحية، وذلك في سنوات: (393 ـ 395م) و(426م).

أكسب أوقستان بونة شهرة عالمية، إذ تأثَّرت الحياة الفكرية المسيحية بشخصيته إلى زماننا هذا، وذلك أنه أفرغ حياته لخدمة العلم ونشره، ولم يقتصر في تأليفه على العلوم الدينية واللاهوتية، بل خصَّص الكثير منها لبقية فروع المعرفة، خصوصا التاريخ القديم، والجغرافية التي توافرت لديه مصادرها، ولهذا لازم اسمه بونة، وصارت تعرف به بعد قرون مِن الفتوحات الإسلامية.

فنجد مثلا أبا عبيد البكري لما عرَّف بونة في منتصف القرن الخامس قال: «مدينة بونة أولية، وهي مدينة أقشتين العالم بدين النَّصرانية ».

كنتُ عازما عند الوقوف عند هذا الحد، وأنتقل إلى المرحلة الثانية، إلا أنني حضرت في أواخر يونيو الماضي منذ أسبوعين في مؤتمر الدِّراسات الثقافية لحضارة

البحر الأبيض المتوسط الذي انعقد بمالطة، وحضَرته شخصيات متخصِّصة في التاريخ القديم والآثار، فكان الباحث الذي تحدَّث عن العهد الروماني بإفريقيا، أثبت أن أوروبا استفادت في الميدان الثقافي بخزانة بونة التي جمعت التآليف القيِّمة لأقستان وتعهَّدها تلاميذه بالشَّرح والتَّحليل والتَّرجمة، فاستفادَت منها أوروبا وإنجلترا، وكانت هذه الخزانة العِلمية هي أساس النهضة الثقافية الأوروبية حينذاك، وقد أعقبت هذه الدِّراسة مناقشة حادَّة قدَّم فيها الباحث حُججاً ووثائق دعَّم بها روايته، ولم تكن هذه التآليف في اللاهوت فقط، فذلك أمر مسلَّمٌ عند جميع مَن درَس تلك الفترة مِن تاريخ الكنيسة، ولكن الذي أثبته الباحثُ هو نقل تآليف أوقستان في بقية فروع المعرفة.

والآن نُواصِل الحديث عن المرحلة الثانية، وهي مرحلة العهد الإسلامي.

فُتِحت بونة حوالي سنة 78هـ وكان سكَّانها آنذاك ينتمون إلى قبائل مصمودة وأوربة، ونفزاوة، وولهاصة.

وكانت تابعة للأغالبة، ثم للفاطميِّين، إلا أنها كانت مدينة بسيطة، لم تقُم بأيِّ دور يلفت لها النَّظر، وعلى حالتها هذه، وصفها ابن حوقل في منتصف القرن الرابع الهجري وقال: «مدينة بونة مدينة مقتدرة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة »، ثم تعرَّض لمركزها السياسي فقال: «ولها عامل قائم بنفسه، ومعه مِن البربر عسكر لا يزول كالرَّابطة، وبها وجوه من التِّجارة كالصوف والأغنام ... الخ ».

تمصَّرت بونة في عهد الملك المعز بن باديس حفيد بلقين بن زيري، لما أقطعها وأسكن فيها عمَّه زاوي بن زيري بعد رجوعه مِن الأندلس، هاجر زاوي بن زيري الجزائر إلى الأندلس إثر خلاف وقعَ بين أفراد أسرته، ذلك الخلاف الذي كان السبب فيه تمرَّد ماكسن أخي زاوي، وقمع هذا التمرُّد حماد، وهذا سبب تألُّق نجمه حيث اعترف له أخوه المنصور بالقطاع الغربي مِن المملكة الذي كان يشمل القطر الجزائري

الحالي، في الأندلس تزعَّم زاوي الجيش البربري وكان في طليعة قادته، ولما صارت بونة تعرف بزاوي، قال أبو عبيد البكري: «وتسمَّى اليوم بمدينة زاوي ... وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال ... »، ثمَّ قال: «... وقد سوِّرت بونة الحديثة بعد الخمسين والأربعمائة »، وقد اندثرت مدينة زاوي هذه، وعثر على بعض آثارها بعد الاحتلال الفرنسي، ثم عرَّفها بعد البكري الشريف الإدريسي، وياقوت الحموي، والعبدري الحيحي، والحسن الوزان، المشهور بليون الإفريقي(Léon l'africain) ...الخ.

ازدهرت بونة في عهد مؤسِّسها المعز بن باديس الذي وصلت المملكة في عهده إلى أَوج العظَمة والرُّقي، حتى إن ابن خلدون المشهور بالتَّحفُّظ كان أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية وأترفه وأبذخه.

صادف تمصير بونة في عهد زاوي سقوط القيروان عاصمة إفريقيا، وجزيرة صقلية، ذلك السقوط الذي كان مِن نتائجه تدفُّق سيل الَّلاجئين على مدُن المغرب العربي، ثم لحقهم سيلٌ آخر من مهاجري الأندلس، كان من بين اللاجئين إلى بونة العالم الشهير أبو مروان ابن علي القطان اليحصبي القرطبي الذي كانت له مكانة وشهرة في أوساط الفقهاء المالكيِّين بالأندلس وإفريقيا، وامتازا كثير مِن زملائه وأساتذته وتلاميذه بمشاركتهم في ثورة الفقهاء التي هي ثورة ثقافية حسب تعبير المعاصرين، كانت هذه الثَّورة في الأندلس وإفريقية، إلا أنهما تختلفان في الاتجاه، وقد شارك فيهما أبو مروان معا، خُصِّصت هاتان الثَّورتان بدراسات وتآليف هامة، مِن بينهما كتاب: **(رياض النفوس)** لابن المالكي الذي حقِّق وطُبع أخيرا.

استوطن أبو مروان أو ألقى عصا تسياره ببونة التي كانت إذ ذاك من الثغور الممتازة التي أنشئت فيها الربط، حيث كان ساحلها معرضا للغازات البحرية التي كان

يشنُّها عليها المسيحيون مِن جنوبي ايطاليا، وسردانية، ثم صقلية لقربها منها.

فالجغرافيون القُدامى والمتأخِّرون متَّفِقون على أن شاطئ بونة أقرب شواطئ إفريقية إلى كاقليارى (Cagliari) بجزيرة سردينية، وقد كان نفس جامع بونة الذي دفن فيه أبو مروان واشتهرت بونة الإسلامية به اشتهار بونة القديمة بالأسقف أوقستان، كان هذا المسجد رباطا ضخما بني في عهد المعز بن باديس، ذكر المؤرخ البوني أحمد ساسي: «أن بناء المسجد مع رباطه تم سنة 425هـ، وأما دفينه أبو مروان فقد توفي حوالي سنة 440هـ على أصحِّ الرِّوايات التي من بينها رواية ابن بشكوال صاحب (**الصِّلة**) »، وهذا خلاف ما ذهب إليه المستشرق الأثري جورج في دراسته القيمة التي خصَّص بها رباط أبي مروان، إذ قال في حديثه عن تاريخ بنائه: «إن بناء المسجد وقع سنة 425هـ/ 1033م، بناه رجل صالح يدعى أبو الليث المتوفى سنة 450هـ / 1058م، أما سيدي أبو مروان الذي لازال المسجد يحمل اسمه، فقد ورد على بونة سنة 489هـ/ 1087م، وقد توفي سنة 505هـ/ 1111م » اهـ، ثم ذكر مارسي « أن هذه الفترة من تاريخ البناء تتَّفِق مع مدَّة حكم المعز بن باديس (1016-1062) »، ثم قال مارسي: «ذكر ابن خلدون أن البربر كونوا مملكة في ذلك العهد ـ أي: عهد المعز بن باديس ـ لم ير لها مثيل في السعة والغنى، وقد توقَّفت عجلة تاريخ هذا الازدهار الباهر بعد عشرين سنة مع الحملة الهلالية » اهـ ، ثم ختم حديثه عن هذه الفترة من تاريخ بونة فقال: «إن خلافات بني زيري ملوك القيروان وحروبهم المتواصلة مع بني عمهم من ملوك بني حماد، ملوك القلعة وبجاية، انتهت بالاتفاق الواقع سنة 1017م ـ أي: 408هـ ـ الذي اعترف لبني حماد بحكم القسم الغربي من المملكة، فبقيت بونة إذ ذاك تابعة لبني زيري، أي المعز بن باديس ثم بنيه من بعده » اهـ.

إننا نلاحظ، أن مارسي غلط غلطتين فيما ذكره، الغلطة الأولى في تاريخ ورود أبي

مروان على بونة وتاريخ وفاته بها، والغلطة الثانية، ادعاؤه أن بونة بقيت تحت تصرف أبناء المعز من بعده، والحقيقة أنها في عهد تميم بن المعز الذي تولى بعد أبيه، استولى عليها المنصور بن الناصر الحمادي ملك بجاية، وذلك إثر حروب بينهما، وقد حاصر المنصور المذكور بونة سبعة أشهر وافتتحها سنة 487هـ، وتوراثها ملوك بني حماد، إلى أن لفظت دولتهم أنفاسها عندما قضى على دولتهم عبد المؤمن بن علي سنة 547هـ.

ومما يؤيد هذا أن يحيى بن عبد العزيز ملك بجاية الأخير التجأ بعدما سلم بجاية إلى عبد المؤمن، التجأ إلى بونة عند أخيه الذي كان خليفته فيها، فأنبه أخوه على عدم مقاومته، ومنعه من الدخول إلى بونة، فحينئذ ذهب إلى أخيه الثاني الذي كان عاملا على قسنطينة، فلهذا كانت القواعد الرئيسية في الشرق الجزائري تحت حكم بني حماد عندما تولَّى عليها عبد المؤمن بن علي، أما آخر ملوك بني زيري فقد غادر المملكة والتجأ إلى ابن عمه ملك بجاية يحيى بن عبد العزيز، وكان في نفسه منه شيء، فأذن له بالإقامة في مدينة الجزائر، ورافق عبد المؤمن في مسيرته كما هو معلوم، كانت نهاية هاتين الدولتين في آن واحد على يد عبد المؤمن بن علي، وقد وصف أحد المؤرخين [1] هذه النهاية المؤلمة بعد أن أشاد بملوكها فقال: «وكان بنو مناد لم يغتروا بالألقاب، لا بالخلافة ولا بأمير المؤمنين، إلا أن أيام ملكهم أخذت في الإدبار، وانقطعت كواكب سعودهم، وأفلت عن منازلهم الشموس والأقمار، وكانوا كلهم أهل نجدة وشجاعة وإحسان ومعروف»اهـ.

وفي عهد الموحدين استولى على بونة **روجار** ملك صقلية، ثم يحيى ابن غانية من سنة 581 إلى سنة 601هـ، وكانت الفترة من عهد الموحدين بهذه المنطقة فترة اضطراب وفتن، إلى أن تمرد أبو زكرياء الحفصى على خلفاء الموحدين وخلع طاعتهم وأعلن استقلاله الذي كان بداية الدولة الحفصية، كان السبب في هذا، هو أن الملك أو

(1) **المؤنس** (ص: 92).

الخليفة الناصر الموحِّدي، عندما فوجئ باحتلال بني غانية لبجاية، جهز جيشا تحت قيادة أبي محمد الحفصى الذي واليا على اشبيلية، وكتب له النصر على بني غانية، فولّاه الناصر حكم إفريقيا، ثم توارث ولاية إفريقيا أبناؤه، منهم أبو زكرياء المذكور الذي كان واليا بإشبيلية ثم ببونة، وكانت لبونة مكانة عند الحفصيِّين، إذ كان من جملة أنصارهم قبيلة بني مرداس الساكنة بفحصها، ومدينة بونة ارتبطت بملوك بني حفص، خصوصا مؤسس المملكة أبا زكرياء وولده من بعده المستنصر بالله، فأبو زكرياء كان رغم ذلك يتردد عليها طيلة مدة حكمه إلى أن أدركه المنون بها، ودفن بمسجدها، فخلفه ولده المستنصر الذي بويع ببونة، إذ كانت نخبة جيش الدولة مرابطة ببونة.

وفي بونة وقع الحادث التاريخي الهام، وهو نزوح أسرة ابن خلدون من الأندلس التي أقاموا فيها من فجر تاريخ فتحها، إلى بونة، إذا كانت لأسرة ابن خلدون صلة متينة بأبي زكرياء الحفصي عندما كان عاملا بإشبيلية.

ولنترك الحديث إلى ابن خلدون الذي ذكره في ترجمته، قال، بعد أن عرف بأسرته وتاريخ هجرتها إلى الأندلس والأسباب الداعية إلى مغادرة الأندلس، قال: «وكان جدنا الحسن بن محمد وهو سبط ابن المحتسب ـ كان ابن المحتسب هذا أهدى جارية إلى والد أبي زكرياء فأنجبت ولدا منه وأضنه أبا زكرياء ـ قد أجاز فيمن أجاز إليهم، فذكروا سوابق سلفه عند الأمير أبي زكرياء فقصده وقدم عليه فأكرم قدومه، وارتحل إلى المشرق فقضى فرضه ثم رجع ولحق بالأمير أبي زكرياء على بونة، فأكرمه، واستقر في ظل دولته، ومرعى نعمته، وفرض له الأرزاق وأقطع الأقطاع ... الخ ».

استرجعت بونة في عهد أبي زكرياء الحفصي ـ الذي أعلن استقلاله سنة 627هـ ـ مكانتها الثقافية والاقتصادية والسياسية، وصادف استرجاع بونة مكانتها تفكك أوصال الخلافة الموحدية بالمغرب العربي وبالأندلس، ففي المغرب العربي كان استبداد

أبي زكرياء بمنطقة ولايته، وبني مرين بولايتهم ـ المغرب الأقصى ـ وبني زيان أيضا بولاية الغرب الجزائري (تلمسان)، ثم بني هود وغيرهم بالأندلس . فلهذه الأسباب تجددت هجرة علماء الأندلس والنخبة من سكانها، وكانت أقوى دولة ظهرت آنذاك هي دولة الحفصيِّين.

وقد ذكر ابن خلدون هذه الهجرة عند وصفه لأبي زكرياء وابنه المستنصر فقال: «وكان شأن هذا السلطان في ملوك آل حفص عظيما، وشهرته طائرة الذكر، بما انفسح من أمر سلطانه ... »، إلى أن يقول: «... وما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على ابنه وخصوصا الأندلس من شاعر مفلق، وكاتب بليغ، وعالم نحرير، وملك أورع، وشجاع أهيش، متفيئين ظل ملكه، متناغين في اللياذ به، لطموس معالم الخلافة شرقا وغربا على عهده، وخفوت صوت الملك إلا في إيوانه » اهـ.

إلا أن هذا الازدهار كان سحابة صيف، فلم تطل مدته، فعندما زار الرحالة العبدري بونة، في أواخر القرن السابع، وصفها بقوله: «ثم وصلنا إلى بونة، فوجدناها بلدة بطوارق الغير مغبونة، مبسوطة البسيط، ولكنها بزحف النوائب مطوية مخبونة، تلاحظ من كثب فحوصا ممتدة، وتراعي من البحر جزره ومده، تغار لها العيون من جور النوائب، وتأسى لها النفوس من الأسهم الصوائب ... الخ ».

وإننا وإن كنا نعلم أن العبدري متشائم، ويراعي مقاييس لا يقره عليها جل الباحثين، إذ وصف في رحلته كثيرا من العواصم بأوصاف لا تتفق مع واقعها، إلا أنه لا ينبغي أن نغفل عن دقة ملاحظاته، فهولا يغتر بالمظاهر، وقد أيد ابن خلدون بدوره وصفه لبونة التي تسرب إليها التدهور، فقال يصف عهد المستنصر وأبيه: «... ودولتهم أشد ما كانت قوة، وأعظم رفاهية وجباية، وأوفر قبيلا وعصابة، وأكثر عساكر وجندا ... »، إلى أن يقول: «... ثم رجعت من بعده أدراجها، والله مالك الأمور ومصرفها كيف يشاء » اهـ.

هذه خلاصة تاريخ المرحلة الثالثة من تاريخ بونة، في عهد دولتي الموحدين والحفصيِّين، وقبل أن نواصل حديثنا عن المرحلة الرابعة، وهي تاريخ العهد التركي، نذكر بإيجاز نبذة تاريخها الثقافي.

ذكر أصحاب التراجم المغاربة والمشارقة والراحلون تراجم بعض علماء بونة مبعثرة، وقد اهتم علماؤها من فجر تاريخ ازدهارها، وخصصوها بتآليف لها أهمية، ومن بينها ما وصلنا من تاريخها الجهوي الذي كان أصحابه يخصصونه لتاريخ المدن والعلماء، وهو مفيد جدا، إذ سد فراغا، وينقسم هذا التاريخ الجهوي، إلى قسمين، منثور ومنظوم، وهذا الأخير مقتضب لا تتم فائدته إلا بالشرح، وصلنا من تآليف بونة تأليفان، أحدهما منثور، وهو لعلي فضلون البوني، كان من علماء القرن التاسع الهجري، والثاني منظوم، لأحمد ساسي التميمي البوني من علماء القرن الحادي عشر، وقد ضاع تأليف ابن فضلون الذي استوعبه ابن أحمد ساسي المذكور.

كان أحمد ساسي من أعلام بونة، وقد ترجمه الراحل عبد الرحمٰن الجامعي الفاسي في رحلته (**التاج المشرق الجامع ليواقيت المغرب والمشرق**) الرحلة التي أَلَّفها بعد زيارته للجزائر حوالي سنة 1120هـ بمناسبة ورود كثير من علماء البلاد على الباشا محمد بكداش الذي فتح وهران إذ ذاك بعد بقائها قرنين كاملين تحت حكم الأسبان، قال يصف مدينة بونة: « لما دخلتها أممت دار الشيخ الرباني، العالم العرفاني، الذي بنيت هذه الرحلة المباركة على قواعد بركته أساسي، أبي العباس أحمد بن الولي الصالح، البر الناجح أبي عبد الله قاسم بن الولي الصالح أبي عبد الله محمد المعروف بساسي، فوجدته طلق المحيا، وأنزلني بمنزل لإكرام ضيوفه مهيا، فأقمت عنده، ينزهني في كل يوم في رياض تآليفه الحديثة وغيرها، وينثر علي كل ساعة من فوائد فرائده ما تبخل به على الغائصين قعور بحرها، وكنت أحضر تلك المدة مجلس رواية الصحيحين بين يديه، مع مشايخ بلده وولديه، ومما رويته عن فسح

الله في أجله، وأسهب ـ وإن تآليفه بلغت ما ينيف عن المائة ما بين مختصر ومسهب ـ ولما وقفت على علم الحديث على البحر العباب، والعجب العجاب، سألته الإجازة فيما وقفت عليه، وغيره من تصانيفه...إلخ» اهـ.

وهذا التأليف الذي أشار إليه الجامعي مازال موجودا وإن لم ينشر، إلا أن الحفناوي نشر في (**تعريف الخلف برجال السلف**) قائمة التآليف التي خصَّص لها كتابا سماه: (**التعريف بما للفقير من تآليف**)، وإن تآليفه في التاريخ لم يصلنا منها إلا المنظومة المسماة: (**الدُّرة المصونة في علماء وصلحاء بونة**) [1] وهي المنظومة التي اختصرها من **منظومته الكبرى** المحتوية على ثلاثة آلاف بيت، وتحتوي المنظومة المختصرة على ألف بيت، وقد شرحها، وإن شرحها كان متداولا إلى عهدٍ قريب، ومصيره مصير كثير مِن كتب التراث ضاعت « بين جامد وجاحد ».

ذكر أحمد الساسي في درته هذه، تراجم علماء بونة، فبدأ بأساتذته وأقاربه، من سكان المدينة، ثم علماء القرى المجاورة، والعلماء الواردين على بونة، سواء عابري السبيل، أو المقيمين من مختلف جهات القطر، وركز تراجمه على تراجم علماء البلاد الذين ترجمهم مواطنه عل فضلون، وقد انتهى أحمد ساسي من تأليفه أواخر القرن الحادي عشر، وفي ذلك قال:

في عـام تسـعين وألـف نظمـت وآن أن أدعـــو لمـــا تممـــت

وهذا النوع من التاريخ الجهوي المنظوم، عرف أيضا بالاستغاثة، أي المقصود منه التوسُّل بصالحي البلاد لضيم أدركَ المستغيثين، وقد راعى كثير مِن المستغيثين في مترجميهم العلمَ مع الاستِقامة والصَّلاح، ولهذا قال أحمد ساسي في مترجميه:

---

(1) نشرت بتمامها في (**التقويم الجزائري**) سنة 1331هـ/ 1913م.

بشـــرط إن كـــانوا لعلـــم درســـوا أو لصـــلاح نســـبوا مـــا اندراســـوا

كما ذكر أن أحد تلامذته هو الذي طلب منه ذلك، وكان على أهبة السفر، فاستعجله، وله قدم اعتذاره في قوله:

طالبهـــا مســـافر وذو عجـــل زودتـــه بهـــا وإني في خجـــل

بعد أن قال:

لـذاك رام منـي بعـض الأذكيـاء توسـلا بـذكر بعـض الأزكيـاء
فجئتـــه بـــدرَّة مصـــونة ذكـــرت فيهـــا أوليـــاء بونـــة
لكـــن بـــلا طـــول ولا تـــاريخ لضـــيق نظمـــي بهـــم صريخـــي

ثم يقول:

ومـــن يـــرد زيـــادة كثـــيرة فلينظـــر المنظومـــة الكبـــيرة

وبعد ذلك، يشير إلى أن مترجميه، الذين عاشوا قبل القرن التاسع، مذكورون في تأليف علي فضلون، قال في ذلك:

حـــواهم جمـــع عـــلي فضـــلون لآخـــر التاســـع مـــن قـــرون
ثـــم أتيـــت بالـــذين بعـــده أرجـــو بهـــم تفـــريج كـــل كربـــه
من عاشر القرون والحادي عشر وفي الـبلاد ذكـرهم قـد انتشـر
وبعـــدهم أذكـــر أهـــل الـــزمن مَـن كـان في الـبلاد أو في الـوطن
أو دخـــل البلـــد أو شـــيخا لنـــا عـــل يفـــرج الكـــريم هولنـــا

بهذا بيَّن المؤلِّف منهجه في تأليفه، والشروط في المترجمين الذين استوجبوا اختياره الذي كما ذكرنا كان العلم والصلاح، وقد أكَّد ذلك بعد أن قال فيما سبق:

بشـــرط إن كـــانوا لعلـــم درســـوا أو لصـــلاح نســـبوا مـــا اندرســـوا

ذكر صفات أخرى لمترجميه فقال:

وبعضـــهم في لغـــة قـــد نبغـــا ولكرامـــة الرجـــال بلغـــا
وبعضهم قضـى وبعضـهم مفتـي وبعضـــهم مـــدرس ذو وقـــت

وتحدث عن أحداث تاريخية مرتبطة ببعض مترجميه فقال:

قـــد وقعـــت في عصـــرنا غريبـــه وهـــي معونـــة بغـــير ريبـــه
جـــاء غرابـــان مـــن النصـــارى لـــذلك الـــوطن ثـــم صـــارا
يخـــاتلان أهـــل ذلـــك المحـــل وأكثـــر الجنـــود مـــنهما نـــزل
فصـــادفوا أربعـــة مـــن الرجـــال قـــواهم الله تعـــالى في المجـــال
فقتلـــوا جيشـــا كثـــير العـــدد مـــنهم ذاك بقليـــل العـــدد

أشار بهذه الأبيات إلى هذا الحادث الذي وقع في أواخر القرن الثامن، وذكره علي فضلون، إذ كان البحارة المسيحيون يشنون غاراتهم على المناطق النائية، فيختطفون السكان، حتى إن كثرا من القرى التي لم تتوفر على الحرس تنتقل إلى قمم الجبال، كما ترجم لعالم شهير من علماء القرن التاسع، نقله من تأليف علي فضلون نقدمه كنموذج:

وبـــأبي زكريـــاء الكســـيلي العـــالم العلامـــة الجليـــل
مؤلفاتـــه غـــدت عديـــدة كثـــيرة نافعـــة ســـديدة
تزيـد في العـدد فـوق الأربعـين نظما ونشرا رشـقت قلـب اللعـين
منهـا حواشـيه عـلى المـرادي تسـعة أسـفار لـدى التعـداد

وقد ذكر الكسيلي هذا الرحالة المصري عبد البسيط، الذي زار بلاد المغرب العربي حوالي 867هـ، ونشر كراريس منها ـ بعد أن حقَّقها وترجمها إلى الفرنسية ـ المستشرق

الفرنسي برنشويق (Brunchwig)، قال عبد البسيط إنه استدعاه الملك الحفصي بتونس وفي قصره اجتمع « بالشيخ العالم الفاضل يحيى الكسيلي شيخ بلد العناب » ـ أي: بونة ـ ثم قال الرحالة المذكور: «فأخذ يسألني عن الشيخ يحيي العجيسى ثم انجرّ الكلام إلى مشايخه ... » اهـ.

وقد علق المستشرق الفرنسي برنشويق على هذه الفترة بقوله: «يحيى بن عبد الرحمٰن الكندي العجيسي المولود سنة (777هـ/ 1376م) تلميذ أمثل علماء إفريقية في عهده ... »، ثم ذكر المترجم برنشويق: «أن من جملة مشايخ يحيى العجيسى هذا قاضي بونة »، وعلق على ذلك بقوله: «وهذا ما يدل على اهتمام الشيخ البوني بمعرفته »، وختم حديثة بقوله: «وقد ترجمه السيوطي في (**نظام العقيان في أعيان الأعيان**)» اهـ.

وبالفعل وجدنا ترجمته في كتاب السيوطي المذكور، فبعد أن عرف به أي بقاضي بونة الذي سأل عنه يحيى الكسيلي الرحالة عبد البسيط قال السيوطي: «رحل إلى القاهرة سنة أربع وثمانمائة، فأقام بها يقرئ ويفيد ويصنف ... »، إلى أن قال: «... وقد أخذ عنه مشافهة نحو من الألفين كلهم مجتهد أو قارب الاجتهاد، ولي تدريس المالكية بالشيخونية، مات في شعبان سنة اثنين وستين وثمانمائة » انتهى تعريف السيوطي.

أتينا بهذه الترجمة على طولها للتدليل على أن المترجمين في هذا النوع من الاستغاثات ليسوا كما يتصورهم كثير من المعاصرين قصيري النظر، فيظنون أنهم دراويش أو في حكمهم.

ولنرجع إلى (**الدُّرَّة المصونة**) التي استهلَّها مؤلِّفها بقوله:

اسأل ربي الحفظ والإتقان ... بالعارف القطب أبي مروان
نور القلوب شارح الموطا ... وبين أهل العلم ما تغطى
وقال بعض شرح البخاري ... وليس ذا بعجب يا قاري

ذكـــره عيـــاض والخلـــواني وابـــن ســـليمان أيـــا خـــلاني

ثم ذكر أبا الليث الذي تقدم لنا أنه باني المسجد الذي دفن فيه أبو مروان وأبو زكرياء الحفصي ـ قبل نقل جثمانه إلى قسنطينة ـ فقال:

فبـــأبي الليـــث بـــديت نـــاظما دفـــين جـــامع تســـمى أعظـــما
ولـــيس هوالجـــامع العتيقـــا بـل جـامع السـلطان خـذ تحقيقـا
كـــذا تلقينـــا مـــن الأكـــابر علـــما وســـنا صـــار بـــالتواتر

وما ذكره المؤلف هنا من الأهمية بمكان، حيث إن الجامع الأعظم، ليس هو الجامع العتيق، بل هو جامع السلطان، وقبل أن ينتهي من نقل مترجمي علي فضلون، ويشرع في مترجميه، من علماء القرن العاشر والحادي عشر، نبه عن انتهاء من نقلهم من تأليف علي فضلون بقوله:

وبابن فضلون عـلي زيـن الخلـف وهو الـذي ذكـر كـل مـن سـلف

وشرع في ذكر مترجميه، وبعد نهايته منهم قارن بينهم وبين معاصريه فقال:

والآن يلحنـــون فـــوق المنـــبر لا يقبلون النصح حتـى مـن بـرى
لم يبـــق مـــنهم نـــاثر أو شـــاعر يحيـــى بـــه الله ذوي المشـــاعر
وفي مـــواطن العلـــوم أفلســـوا لأنهـم مـن كسـبها قـد فلسـوا
وكتـــب الجهـــل عـــلى جبـــاههم اليـــوم يختـــم عـــلى أفـــواههم
ليـــت الجـــدود نظـــروا إلـــيهم ولـــو رأوهـــم لبكـــوا علـــيهم

كما يوجد علماء آخرون لم يذكرهم علي فضلون، نقتصر على ذكر واحد منهم قبل الانتهاء من المرحلة الثالثة، وهذا العالم هو أبو محمد عبد الله العنابي أي البوني، ترجمه

صاحب (**درّة الحجال**) [1]، وذكر أنه كان معاصرا للفقيه إبراهيم بن هلال مفتي سجلماسة صاحب النوازل الفقهية، وكانا يتبادلان الرسائل، ومن جملتها قصيدة أرسلها البوني المذكور إلى ابن هلال السجلماسي سماها: (**جواهر الحلال في استجلاب مودة ابن هلال**)، فأجابه ابن هلال بقصيدة أخرى خاطبه فيها بقوله:

يـــا نخبـــة العلــــماء والفضــــلاء　　　وبغيــــة الأعــــلام والنـــــبلاء

صدر الصدور أمـامهم ووحيـدهم　　　ذوقـــا وإدراكـــا وفـــرط ذكـــاء

إلى أن قال:

بشـــراك عبـــد الله حـــزت مفـــاخرا　　　وعلــوت فــوق كوكــب الجــوزاء

أرئيســـنا الأعـــلى وبـــدر زماننـــا　　　وفتـــى العـــلا وكعبـــة العليـــاء

طـــود الزعامـــة والمهابـــة والعـــلا　　　وجمال نـادى الفضـل والفضـلاء

وختمها بقوله:

خـــــاطبتني بقصـــــيدة لاميـــــة　　　أزرت بســـمط الغـــادة الحســـناء

ضـــمنتها ســـحر البيـــان فأفحمـــت　　　عجــزا وأعيــت ألســن الشــعراء

ثم شاءت الأقدار أن يكون آخر ملوك الدولة الحفصية الحسن، عين ولده أبا العباس نائبا عنه ببونة، ولما تورط الوالد مع الأسبان الذين استنجد بهم، عندما دخل خير الدين تونس فاستجاب له الأسبان، وقاد جيش النجدة الملك شارلكان بنفسه، واحتل تونس حوالي 935هـ فحينئذ ثار ولده أبو العباس، وخلعه وتولى مكانه، وبه انتهت الدولة الحفصية.

---

(1) **درّة الحجال**، لابن القاضي المكناسي (ج 1، ص: 106).

هذه لمحات من تاريخ هذه المدينة المرتبطة بأحداث لها صدى في التاريخ العام، كحدوث أو تأسيس الدولة الحفصية، والتجاء أسرة ابن خلدون، ومحاولة آخر الملوك الحفصيِّين غسل العار الذي سجله والده ، عندما استغاث بشارلكان الذي قضى على خزانة جامع الزيتونة، وأباح للجيش أن يربط خيله بحصنها، ويقتل كثيرا من العلماء وهم في حلقات دروسهم.

ولنواصل حديثنا عن الحلقة الرابعة التي تشمل العهد التركي:

شاهدت بونة في هذا العهد انحطاطا لا نظير له، وقد رأينا ما ذكره أحمد ساسي عندما قارن بين مترجميه ومعاصريه حيث قال:

والآن يلحنـــون فـــوق المنـــبر   لا يقبلون النصح حتى مـن بـري

ولكن الأقدار شاءت أن يتولى أحد الأتراك، أقام فيها، وتزوج بها، وأخذ عن أساتذتها، منهم أحمد ساسي ووالده، فارتقى ذلك التركي، وعين باشا الجزائر، فكان وفيا لبونة وأساتذته بها، ومحمد باكداش هذا هو الذي فتح وهران سنة 1120هـ بعد احتلالها ست ومائتي سنة، وقد ذكره أحمد ساسي في منظومته بعدما ذكر صهره الذي كان عناه عندما قال في أول المنظومة:

لــذاك رام منــي بعــض الأذكيــاء   توســـلا بـــذكر الأزكيـــاء
فجئتـــه **بِــــدرَّة مصــــونة**   ذكــرت فيهــا أوليــاء بونـــة

...الخ .

وقد كان من تلامذة والده فقال عنه:

بـــابن ســـنان الفقيــه العجمـــي   واســـمه إبـــراهيم ثبــت قــدمي

وهــو الــذي في الــنظم قــد تسـببا وكـــان في والـــدنا قـــد أطنبـــا

ثم عقبه بذكر صهره الباشا المذكور فقال:

بصــــهره محمــــد البكطــــاشي من هو في الصـلاح خـير ناشـي
وهــو مــن الــذين فينـا أحسـنوا قــولا وفعــلا ديـنهم قـد أتقنـوا

إلى أن قال:

وبعـــد ذلـــك تـــولى الســـلطنة وســـار فيهـــا ســـيرة مستحســـنة
صـــار أمـــير حضـــرة الجزائـــر كنـــز العلـــوم أنـــس كـــل ســـائر
فنصـــر الشـــرع وأجـــلى الظلـــما واهـــب الجهـــل وأحيـــا العلـــما
وفرحـــت بـــه قلـــوب المـــؤمنين وقهـــرت بـــه جيـــوش الكـــافرين
وفتحـــت عـــلى يديـــه وهـــران فكمـــل المجـــد لـــه والبرهـــان
أطـــال ربنـــا أعوامـــه وســـدد الله لنـــا أقوامـــه

وقد كاتبه مهنِّئًا بفتح وهران وملفِتا نظَره إلى حالة بلاده، فقال في أرجوزة:

أريــــد أن أخــــبركم أدام ربي نصــــركم
بحــــال هــــذه القريــــة بالصــــدق لا بالفريــــة
قـــد صـــال فيهـــا الظـــالم وهـــان فيهـــا العـــالم
خربــــت المســــاجد وقـــل فيهـــا الســـاجد
حبســـها قـــد أسرفـــا نـــاظره فأشرفـــا
وأهملـــت أســـعارها وبـــدلت شـــعارها
والشَّـــرع فيهـــا باطـــل والظلـــم فيهـــا هاطـــل
والخـــوف في ســـبلها والقحـــط في ســـنبلها

وكـــــم مــــن القبـــــائح وكـــــم مــــن الفضـــــائح

إلى أن قال:

والله قـــــد ولاكـــــم حكـــما وقـــد علاكـــم

فـــداركوا الإســـلاما ونــــوروا الظلامــــا

نكتفي بهذا القدر، وننتقل إلى القسم الأخير الذي هو لقطات من عهد الاحتلال الفرنسي، فأول حادث من هذه اللقطات هو أنه بمجرد إحداث أسقفية بالجزائر، قرر المجلس الملكي الفرنسي، باقتراح من وزير الحربية، تخصيص باخرة لنقل جثة أوقستان من مدينة بافي (Pavie) الايطالية، إلى بون، وذلك في أكتوبر 1842م، دفن رسميا وأقيمت الأفراح وألقيت الخطب.

والحادث الثاني هو تولية المملوك يوسف الذي كان من مماليك بايات تونس والتحق بالجيش الفرنسي بعد الاحتلال ولعب أدوارا، وقد اشتهر بتدبير المكيدة التي نجحت في استيلاء الجيش المذكور على زمالة الأمير عبد القادر أثناء غيابه، ولعب أدوارا عندما أرسل الجنرال كلوزيل والي الجزائر، حمدان بن عثمان خوجة، ليفاوض أحمد باي قسنطينة على تسليم مدينة بونة إلى الفرنسيين، ويعترفون له بحكم منطقة قسنطينة . ثم اكتشف الفرنسيون أنه عندما تولى بايا على بونة، كون شركة تجارية يديرها يهودي مرابي (العسري) رأس مالها أموال السكَّان العزل الذين كان يشن عليهم الغارات بدعوى أنهم حاولوا التمرد، وكثر خصومه، ورغم تعيينه جنرالا، فقد أبعد من الجزائر، كما افتضح الجنرال كلوزيل والي الجزائر ببونة، إذ كان يزور عقود بيع عقارات الأتراك الذين أممت ضيعهم ببونة، واستولى على كثير من الأملاك المحبَّسة فكشف عنها القناع قاضي بونة، وأحدثت هذه القضية ضجة، رددت صداها الصحف الباريسية.

وفي ختام هذه اللقطات نذكر انطباعات الرحالة بيرم الخامس التونسي الذي زارها حوالي سنة 1293هـ ووصف معالمها وما دار بينه وبين بعض المصلين بمسجدها، ثم ختمها بانطباعاته عن أخلاق سكان الجزائر إذ ذاك فقال: «أغلب عوائد الأهالي وصفتهم في الجزائر، هي مثل ما في أهالي تونس، في السلام والحياء، غير أن الجيل الجديد في المدن تخلق أغلبه بأخلاق مخضرمة بين العادات الأصلية وبين عوائد الفرنسيين . ومن المعلوم أن النفوس مائلة إلى التشبه بالغالب، غير أنها أول ما تسري إليها الأخلاق الشريرة، أما المحامد فإنها إنما يحمل عليها العقل بالكلفة، ولهذا فشت قلة الحياء في الكثير ... ومع هذا فلا زال في ذوي البيوتات، وأصحاب الأصول مكارم الأخلاق الإسلامية، وفضائل الطباع العربية، وإن كانوا بالأصالة قليلين في المدن . وأما أهالي القبائل من البادية والمتوغلين في الجنوب ودواخل القطر، فالأكثر منهم على الطبائع والعادات الأصلية، والقليل الذين لهم علائق بالحكام، وبالتداخل معهم تغيرت عاداتهم إلى نحو ما وقع في الكثير من أهل البلدان ... الخ ».

ولنرجع إلى ماضي بونة فنردد مع الأثري الفرنسي ماري الذي خصص لرباطها دراسة قيِّمة قال في ختامها: «جمعت هذه البلدة آثار الوثنية والمسيحية والإسلام المتجلي في روائع الفن المعماري الإسلامي الإفريقي».

ردُّ السيد المهدي البوعبدلي
على الأساتذة المعقِّبين[1]

التعقيب الأول: هو للأستاذ الدكتور محمد صفوت السقا أميني، الذي لاحظ أن ختام محاضرتي بالأمس، يحمل بعض الأشياء، ربما لم تكن موافِقة لصميم موضوع المحاضرة، وهو أن هذه البلدة كما قال ذلك الأثري الفرنسي جورج مارسي التي جمعت بين الآثار الوثنية، والآثار المسيحية، وختمت بالآثار الإسلامية.

قال الدكتور صفوت: «إن هذا القول ربما يكون حجَّة لكثير مِن الذين يقولون: هذه بضاعتنا ردَّت إلينا »، وقد قالوها بالفعل، وإنما يمنع هذا أن ذلك الأثري تكلَّم بعد أن بحث ودرس أموراً فنية لا علاقة لها بالدِّين، فقد خصَّص دراسة فنية لرباطة بونة تتعلَّق بالفنِّ المعماري، وهذا لا أوافق الدكتور عليه، مع اعترافي له بالجميل على هذه الملاحظة.

إن كتابة التاريخ ينبغي لها أن تكون مجرَّدة مِن العواطف، فالآثار الموجودة في كلِّ ناحية ينبغي للمؤرِّخ النَّزيه أن يرجعها إلى أصلها، ولا يمكن لأحد أن يخفيها، وقد رأينا أنه رغم ما اتَّسم به العصر الأول مِن الفتوحات الإسلامية، لم يمنع ذلك أحد كبار المؤرِّخين الجغرافيِّين المسلمين وهو أبو عبيد البكري الذي عندما عرَّف بمدينة بونة، بلدة زاوي وأبي مروان، لم يمنعه ذلك مِن نسبتها إلى أغستان الرَّاهب النَّصراني الذي أقام بها في القرن الرابع الميلادي، وبقيت تنسب إليه إلى القرن الخامس الهجري.

---

(1) أعقب هذه المحاضرة مجموعة من الأسئلة والتعقيبات، أوردناها.

وبهذه المناسبة نذكر أن كثيرا مِن المتعصبِّين حاولوا نكران آثار أعدائهم ببلادهم، كما فعل ذلك المالطيون الذين كانوا ينكرون آثار العرب اللغوية في بلادهم، وقد أشار إلى ذلك عميد كلية الآداب في مؤتمر بحوث الحضارات بحوض الأبيض المتوسط الذي انعقد في الجزيرة منذ ثلاثة أسابيع، واعترف بهذه الحقيقة وقال: «إن كثيرا من كتَّابِنا، لشدَّة تعصُّبِهم العقائدي، حاولوا أن يرجعوا كثيرا مِن المفردات اللغوية العربية في اللغة المالطية إلى أصل فينيقي، إلَّا أنَّ الحقيقة جَعلتهم يَعترفون بأنَّ تلك المفردات أصلها عربي، ولا صِلة بينها وبين اللغة الفينيقية، وهم يَسعَون في تتبُّع المفردات الموجودة في اللغة المالطية إلى أصولها، إذ لم تترك جميع الدول التي حكمت الجزيرة ما تركته اللغة العربية في مالطا. » اهـ.

وبالنسبة إلى تعقيب الدكتور عبد الجليل التميمي، فإني أشكره، وحقيقة إن الجنرال كلوزيل كان هو العدو الألد لحمدان بن عثمان خوجة، وإنما الدُّوق دو روفيقو هو الذي أرسل حمدان المذكور، وإنني إن ذكرت ذلك فليس القصد تحقيق هذا الحادث التاريخي، وإنما لما افتضح أمر كلوزيل الذي كانت الملكية حكمت عليه بالإعدام، وعيِّن بعد الانقلاب واليا عاما، فترك له الحكمُ الجمهوري التَّصرفَ المطلَق، فداس بنود المعاهدة المبرَمة بين حسين داي ودو بورمون، وقد فضح تصرُّفات كلوزيل المغرضة قاضي بونة، كما سعى في إحباطها المملوك يوسف العلج الذي كان يطمح إلى تولية خطة باي بونة، ثم إن أحمد باي كان رجلا وطنيا، فهو أيضا لم يرض بالمعاهدة التي عرضها عليه الفرنسيون.

رد السيد المهدي البوعبدلي على أسئلة الطلبة

السؤال الأول:

كيف كانت بونة في عهد الفاطميِّين ؟ أشرتم على ما أعتقد إلى شخصيتَين تحملان نفس الاسم، أي: أبا مروان، فنرجو أن تعطونا نسب كل منهما، حتى نتمكَّن مِن التَّفريق بين هاتين الشخصيتين فأعمالهما مختلفة طبعا، وشكرا .

الطالب: محمد الجيلاني باجي (الفوج: 24)

الجواب:

إني أعتقد أنني لم أذكر إلا شخصية واحدة تحمل اسم أبي مروان، وهو المشهور بأبي مروان الحصبي القرطبي، دفين مسجد بونة، ولربما اطلعتم على اسم أبي مروان الذي كان من معاصريه، وهو أبو مروان الطبني، المنسوب إلى طبنة، العاصمة القديمة للزاب الجزائري في عهد الدولة الأغلبية، وهو الشاعر الأديب الذي ترجم له ابن بسام في (الذخيرة)، أما بونة في عهد الفاطميين، ذكرت أنها كانت مدينة منعزلة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة، حسبما وصفها الرحالة ابن حوقل في منتصف القرن الرابع للهجري، وإنما تمصرت بعد تعيين زاوي في عهد الملك المعز بن باديس، أي أوائل القرن الخامس، وها ما أيده علي فضلون الذي ألف كتابا في تراجم علماء بونة، استهله بتراجم علماء القرن الخامس وما بعده.

السؤال الثاني:

أرجوك أن تزيدنا بعض المعلومات عن حياة العالم الكبير سيدي مروان كيف وفق

في الجمع بين الدين والدنيا، والعبادة والتقرب إلى الله، وهو الرجل الزاهد المتصوف الورع، وتغليبه للدين على الدنيا، وقيل إنه كان يتعبد في مئذنة المسجد المعروف باسمه؟

الطالب: أحمد بكر

الجواب:

إن أبا مروان كان من كبار علماء زمانه، فهو زيادة على مقامه بمسقط رأسه قرطبة، اشتهر برواية الحديث، وكان أمثل تلامذته الفقيه المحدث ابن عتاب الذي يعد في طليعة علماء الأندلس في عهده، ولما هاجر إلى القيروان أخذ عن أبي الحسن القابسي، تلميذ الإمام ابن أبي زيد القيرواني زعيم فقهاء عهده، كما أخذ عن أحمد الداودي الطرابلسي دفين تلمسان، وكان علماء ذلك العهد لا يقصدون من التعلم إلا نشر الدين بجميع الوسائل والطرق، فابن أبي زيد القيرواني مثلا الذي قاوم المذهب الشيعي وهو أستاذ أبي الحسن القابسي، كان يدعو دائما ويقول عن ملوك الدولة الشيعية « اللهم اجعل بيني وبينهم سد يأجوج ومأجوج »، ومع هذا قضى حياته في تعليم القرآن على الطريقة التقليدية، أي الكتابة على الألواح والجلوس على الحصير، وهذا لم يمنع بعض تلامذته الذين كانوا مقربين لملوك الدولة الشيعية من حياة الرفاهية، وسكنى القصور، كتلميذه البراذعي صاحب: (**تهذيب المدوَّنة**).

السؤال الثالث:

ذكرتم الكثير من المؤلفين لهذه المدينة، ولكن نود منكم أن توضحوا لنا ما هي الدوافع التي كانت السب المباشر والباعث الرئيسي على التأليف، وما هي الانعكاسات الثقافية لهؤلاء المؤلفين على سكان مدينة عنابة خاصة وعلى الإنسانية ؟.

الطالب: مبارك مداح التواتي

الجواب:

إن الدوافع التي كانت السبب المباشر والباعث الرئيسي على التأليف لا تخص علماء عنابة فقط، بل مؤلفي العالم، فإنهم ساهموا بتآليفهم المتعددة لكن مع الأسف ضاعت ولم يبق لها أثر، والميزة التي امتازت بها تآليف علماء البلدة ضاع جلها، اللهم إلا ما ذكرناه من وجود (**الدُّرَّة المصونة في علماء وصلحاء بونة**) الذي لم ينشر، اللهم إلا ما عثرنا عليه في التقويم الجزائري، الذي صدر منه ثلاثة أعداد قبل الحرب العالمية الأولى، وكل ما كان يطبع من هذا التقويم لا يجاوز مائتي نسخة، وهو في حكم المخطوط النادر.

السؤال الرابع:

نودُّ أن نعرف كيف استطاع الفكر الإسلامي أن ينتشر في بونة في وقتٍ كانت فيه مركزا للإقطاع الإصلاحي المسيحي ؟.

طالب

الجواب:

قد مرَّت بعد عهد أوغستان الذي حاصره الوندال، واحتلُّوا بونة بعد أن خرَّبوها ولم يعفوا مِن ذلك إلا مكتبته ـ أي مكتبة أوغستان ـ ثم أعقب هذا الغزو سقوط البلدة في يد البيزنطيين، وفي عهدهم فقدت المسيحية كل نفوذ، وقد علَّل المؤرِّخون ذلك بالخلافات الطارئة آنذاك، وهذا الرأي هو الذي يستدلُّون به على مساعدة انتشار الإسلام بسرعة، كما ثبت أن البربر، وإن خالطوا البيزنطيِّين وخضَعوا حِقبة من الزَّمن لهم، فإنَّهم كانوا غير راضين على كثير مِن عاداتهم، من ذلك أنهم ـ أي: البربر ـ كانوا لا يربُّون الخنزير، ولا يأكلون لحمه، كما كانوا لا يشربون الخمر، ويستقبِحون الزنا، والى

هذا أشار ابن خلدون بقوله في (**كتاب العبر**): «ولما ملك الإفرنجة بلاد البربر في ضواحيهم، صاروا يؤدُّون لهم طاعة معروفة، وخرجا معروفا مؤقَّتا، يعسكرون معهم في حربهم، ويمتنعون عليهم فيما سوى ذلك حتى جاء الله بالإسلام».

السؤال الخامس:

إن هناك تناقضا عندما ذكرت أن دولة بني زيري سقطت بسبب بني هلال حسبما ذكر ذلك ابن خلدون، ثم قلتَ أظن دولة بني زيري التي سقطت على يد النورمان ـ أي: ملوك صقلية ـ.

الطالب: حسين عبد الحميد

الجواب:

أقول أنه ليس هناك تناقض في اندثار دولة بني زيري، بل هناك أسباب متعدِّدة، منها هجومات بني هلال، ثمَّ هجومات ملك صقلية في الوقت نفسه، وملك صقلية استعان ببني هلال على بني زيري، هذه حقيقة تاريخية.

السؤال السادس:

إن العاصمة الأولى في العهد الروماني أو العهد الذي كانت قبله كانت مدينة بونة.

الأستاذ زهير الزَّاهري

الجواب:

أنا أخالفكم في هذا، إذ لم تكن بونة هي العاصمة الأولى للجزائر، بدليل أنها في عهد النوميديِّين ـ أي: البربر ـ كانت تابعة لمدينة سيرتا (قسنطينة الحالية)، وكان في ذلك العهد عاصمتان: الشَّرقية، والغربية، فالعاصمة الشرقية هي سيرتا، والعاصمة

الغربية هي سيقا، القريبة مِن مرسى ارشقول، وكان في كل منهما سيبيون (Scipion)، وماسينيسا (Massinissa)، أما بونة فكانت تابعة لسيرتا، ثمَّ صارت تقاسمها كقاعدة ابتداءً من تأسيس مركزها المسيحي في عهد أوغستان.

السؤال السابع:

ما هي الأسباب الملموسة التي أدت إلى القول: بأن العهد التركي كان منحطا في تاريخ عنابة، بيد أننا نعرف أن العهد التركي، في الجزائر والبلاد الإسلامية الأخرى، كان له أثر ايجابي في الحضارة الإسلامية ؟.

الطالب: مصطفى بن صديق

الجواب:

إن ما ذكرتموه لا يمنع أن عهد الأتراك بعنابة كان بداية عهد انحطاط، خصوصا في الميدان الثقافي حسبما اتفق عليه مؤرخو البلدة، وهذا من سنة الله في الكون،ومع هذا ذكرت بأن محمد بكداش باشا الجزائر راعاها واسترجعت مكانة مرموقة ـ نسبيا ـ في عهده.

السؤال الثامن:

أرجوكم أن توضحوا لنا ما يلي: عرفت عنابة باسم بون في العهد الفرنسي، فما صلة هذا الاسم بتاريخها البوني، ولماذا أبدل باسم عنابة ؟.

طالب

الجواب:

كانت في العهد الإسلامي الأول يطلق عليها اسم بونة، حسب ما عرفها جل

الجغرافيين، ثم أطلق عليه اسم: بلاد العناب، لوجود هذه الشجرة بكثرة في ربوعها، فصارت عنابة.

السؤال التاسع:

أريد شرح تسمية عنابة ببونة، ونسبتها إلى بون صنعاء باليمن ؟

طالب

الجواب:

إن اسم بونة حسبما اتفق عليه جل المؤرخين مأخوذ من اسم الفينيقي: هيبون، أو هيبونة، وهذا ليس خاصا بها، بل هناك كثير من المدن الجزائرية وخصوصا في هذه الربوع، كقالمة، وسطيف، نقلت من اسمها الفينيقي أو الروماني، أما نسبتها إلى بون (صنعاء اليمن) فلم أطَّلِع على ذلك.

السؤال العاشر:

أرجوا أن توضح لنا كيف انتقل اسم بونة إلى مدينة عنابة الحالية ؟.

الطالب: الطيب ابن هشام

الجواب:

هذا السؤال هو الذي وقع عليه الجواب سابقا.

السؤال الحادي عشر:

متى أصبحت بونة تُدعى عنابة ؟

الجواب:

صارت بونة تُدعى بهذا الاسم ـ أي: عنابة ـ في العهود الأخيرة، ولذا نجد المؤرِّخين، وبالخصوص أصحاب التراجم والعلماء كلُّهم لا ينسبون علَمًا مِن علمائها إلَّا لبونة ـ أي: البوني ـ أما النِّسبة إلى عنابة ـ أي: العنابي ـ فقليل جدا، ومعظم هذه النسبة نجدها عند المتأخِّرين منهم.

صفحات من تاريخ وهران الثَّقافي والسِّياسي من القرن الثَّالث إلى القرن السَّادس الهجري[1]

إنني استجابة لدعوة الإخوة المشرفين على (**الملتقى الثَّقافي**) الذي نظَّمته بلدية (وهران)، واستجابة لما كلَّفني به الأخ مولود قاسم (وزير الشُّؤون الدِّينيَّة)، الذي دعِي من طرف الأخ (رئيس المجلس الشَّعبي البلدي) للحضور في هذا (الملتقى)، وعاقته عن تلبية الدَّعوة مهام متعدِّدة، تلزم بقاءه بالعاصمة، فكلَّفني بالنِّيابة عنه، وتقديم اعتذاره على عدم حضوره هذا، وإنِّي اخترتُ أن يكون موضوع المحاضرة كما يدلُّ عليها عنوانها، وهو: (**صفحات من تاريخ وهران الثَّقافي والسِّياسي من القرن الثَّالث إلى القرن السَّادس الهجري**)، وإنِّي سأتناول في هذه (المحاضرة)، تاريخ (وهران)، بداية من تأسيسها، ثمَّ أتعرَّض للأدوار التي مرَّت عليها، والتي لها أهمِّيَّة عظمى بالنِّسبة للتَّاريخ الإسلامي العام من جهة، والتَّاريخ الجزائري بصفة خاصَّة.

أشرف على تأسيس مدينة وهران أمير من أمراء أول دولة تكونت بالجزائر بعد الفتح الإسلامي مباشرة، وقد بقيت هذه الفترة من تاريخ وهران، مكتنفة بالغموض،لدى كثير من الباحثين، سأحاول في هذه الدراسة، أن أكشف عنها الغطاء،كما امتازت وهران في تاريخها بأنها شاهدت مصرع دولة عظيمة بين جدرانها،وانطلاق دولة أخرى تركت بصمات أصابعها وكثيرا من آثارها في المجالات الفكرية والحضارية ببلاد المغرب العربي والأندلس، لازالت محل اعتناء الكتاب والباحثين من مختلف الأجناس،ولما كانت هذه

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المحاضرة على نسخة مرقونة تقع في (14) صفحة.

السلسلة من المحضرات التي أقوم بها عبر أنحاء الوطن،معدة للنشر والتوزيع،داخل البلاد وخارجها، فإنني لربما أتتبع بعض النقاط بمزيد من التفصيل.

أسست مدينة وهران، في عهد أمراء بني خزر المغراويين الذين كان موطنهم الأصلي يمتد من سهول مليانة إلي وادي تافنة، وقيل إلى مدينة مستغانم.كانت قبيلة مغراوة البربرية تتمتع باستقلال ذاتي قبل الفتوحات الإسلامية، أي طيلة عهد حكم الفينيقيين والرومان، وأثناء حروب الفتح أسر أمير القبيلة، صولات بن ونزمار المغراوي، فأرسل مع الأسرى إلى المدينة المنورة، فأسلم على يد الخليفة عثمان، فمنّ عليه الخليفة، وأقره على حكم إمارته وما ذكرته، هو إحدى روايتي ابن خلدون، ولهذا اعترف أمراء مغراوة بالولاء لخلفاء بني أمية بالمشرق ثم بالأندلس، وفي عهد الأمير خزر المغراوي بنيت مدينة وهران، وذلك باتفاق مع الملك الأندلسي عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل الأموي،المشهور في التاريخ بصقر قريش، والملك عبد الله الأموي الذي بنيت وهران في عهده،من مواليد سنة 229هـ، وتوفي بقرطبة سنة 299هـ، وقد بقي في خلافة الأندلس حوالي ربع قرن.

اعتنى كثيرا من المؤرخين في تعاريفهم لمدينة وهران، بذكر القبائل التي سكنت نواحيها،ومن بين هؤلاء المؤرخين، أبو عبيد البكري الأندلسي الذي عرفها في منتصف القرن الخامس الهجري فقال: «ومدينة وهران حصينة، ذات مياه سائحة، وأرحاء ماء، وبساتين، ولها مسجد جامع، وبنى مدينة وهران محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيِّين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران باتفاق منهم مع قبائل نفزة وبني مسقن، وهم من ازداجة ».

ثم عرّف البكري هذه القبائل في موضع آخر من تأليفه فقال: «وفي عمل وهران قرية أهلها موصوفون بعظم الأجساد، ومعرفون بشدة الأيدي، أخبرني غير واحد أنه

رأى الرجل الكاهل في الخلق المعهود، يكون إلى دون منكب الرجل منهم، وأنه كان رجل منهم يحمل ستة أنفار، ويخطو بهم خطوات، يحمل على عاتقه اثنين، ويتأبط اثنين، ويحمل على ذراعيه اثنين، وأن رجلا منهم أراد عمل بيت، فاقتطع ألف كلخة وحملها على ظهره، وسوى منها بيتا تاما معرشا ».

كما عرف وهران ابتداء من عهد تأسيسها مؤرخون وجغرافيون آخرون، سنتحدث عنهم، وقد أثار تأسيس مدينة وهران وتاريخ مؤسسيها خلافات وجدالا، قديما وحديثا، حيث لازالت تثير اهتمام الباحثين داخل البلاد وخارجها، ولهذا سأغتنم هذه الفرصة لمحاولة تحرير هذا الموضوع،وإزالة الغموض الذي نجم عما يتراءى من اختلاف في روايات المعرفين، ففي تعريف البكري الذي تعرض فيه للبحارة الأندلسيين الذين بنوها باتفاق مع سكانها، ما يوهم أن تلك القبائل، هي التي كان لها التصرف المطلق في البلاد، وليست هناك سلطة أخرى غيرهم، والحقيقة أن تلك المنطقة كانت خاضعة لحكم الأمير خزر المغراوي، الذي كان تابعا للملك عبد الله الأموي الخليفة بالأندلس، وفي عهد الملك عبد الله الأندلسي هذا وقعت عدة انتفاضات بالأندلس تكونت إثرها بمرفأ المرية عدة جمعيات ومؤسسات للبحارة، اتخذت في بداية تكوينها أساطيل تجارية، ثم عزَّزتها بأساطيل حربية لحراستها، ثم سعت هذه الجمعيات في تأسيس مراكز طوال شواطئ المغرب العربي، فكان من جملة هذه المراكز مرسى تنس الذي أسَّسوه سنة 262 هـ ثم مرسى وهران الذي أسِّس سنة 290 هـ .

وكان تأسيس مرسى وهران بإذن من أمير المنطقة خزر المغراوي السابق الذكر، وما ذكرته في الموضوع لا منافاة بينه وبين ما قاله البكري من أن البحَّارين الأندلسيِّين الذين كان على رأسهم محمد بن عون ومحمد بن عبدون عندما بنوا مدينة وهران، وقع الاتفاق بينهم وبين سكان الناحية من قبائل بني مسقن الذين لا مانع أيضا من أنهم

كأنها منطوين تحت سلطة أمير المنطقة، الأمير خزر، وفي ذلك قال البكري: «وفي سنة سبع وتسعين ومائتين زحف قبائل كثيرة إلى وهران، يطالبون أهلها بإسلام بني مسقن إليهم، لدماء كانت بينهم، فأبى أهل وهران من إسلامهم إليهم، فنضموا عليهم الحرب وحاصروهم، ومنعوهم الماء، فخرج عنهم بنو مسقن ليلا هاربين، واستجاروا بازداجة وأجاروهم، وتغلبوا على أهل مدينة وهران، وخرجوا عنها مسلمين في أنفسهم، وأسلموا ذخائرهم وأموالهم، وخربت وهران، وأضرمت نارا، وذلك في ذي الحجة من هذه السنة (أي: سنة 297هـ)، ثمَّ عاد أهل وهران إليها في السنة بعدها، سنة ثمان وتسعين ومائتين ». كلام البكري.

ولإتمام الفائدة ورفع الالتباس الذي نتج من خلال تعريف البكري، نذكر ما قاله في الموضوع المؤرخ أبو راس الناصري الجزائري الذي أمكنه استيعاب جميع ما كتبه الأوائل في مراحل تاريخ وهران إلى زمانه، فقال في تأليفه: (**عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**) الذي شرح به منظومته (**الحلل السندسية**)، المشهورة أيضا بـ (**السينية**)، وقد ضمَّنها تاريخ مدينة وهران بمناسبة فتحها سنة 1206هـ فقال متحدِّثا عن الأمير خزر الذي أُسِّست مدينة وهران في عهده، قال: «وخزر هذا، كان عاملا بالمغرب الأوسط لبني أمية فمدن مغراوة وهران، وتبحرت في العمران وعدت من أمصار المغرب لا تدافع، ومن أحسن معاقله لا تنازع، وقصدها العلماء والتجار وأرباب البضائع، فكانت مقصدا للعفاة والوجود، والعساكر والحشود. ودخلها ابن خميس أحد العلماء الكبار والفقهاء الأخيار في أواخر القرن الرابع، فوقعت منه كل موقع بعد ما دخل الجزائر، وكانت الجزائر إذ ذاك قريبة العهد بالبناء كما يأتي، فقال: أعجبني بالمغرب مدينتان بثغرين: وهران خزر، وجزائر بلقين ». ونسبة الرحالة ابن خميس وهران إلى خزر، في الوقت الذي كانت تنسب فيه مدينة الجزائر إلى بلقين، يرفع الالتباس الناجِم عن تعريف البكري، حيث اقتصر في بعض على ذكر

تأسيسها للبحارة الأندلسيِّين، وذكر سكَّانها قبل بنائها، وفي الحقيقة لا منافاة بين ما ذكره ابن خميس وما ذكره البكري، وكلام كلٍّ منهما متمِّم للآخر.

كانت مدينة وهران منذ تأسيسها، مرتبطة ببلاد الأندلس، إذ كان مرفأها مخصص لرحال الأساطيل التجارية الأندلسية وإلى هذا أشار ابن حوقل بقوله وهي « ـ أي: وهران ـ فرضة الأندلس، إليها ترد السلع، ومنها يحملون الغلال ».

هذه فقرات سقناها للتعريف بوهران بعد تأسيسها، ولنرجع إلى ما يقتضيه سياق الحديث، فنذكر نبذة مِن حالة بلاد الجزائر في ذلك العهد ـ أي: في أوائل القرن الرابع ـ فنجد البلاد منقَسِمة إلى عدَّة دول أو إمارات، ففي شرق الجزائر كانت البلاد تابعة لحكم الدولة الأغلبية المنطوية تحت لواء الخلافة العباسية، وفي غرب الجزائر كانت الدولة الإدريسية هي الحاكمة ببلاد المغرب الأقصى وتلمسان، وفي الجنوب كانت دولة بني رستم بتيارت، وكانت قبيلتا مغراوة وبني يفرن يتقاسمان ما بين سهول مليانة، وجنوب تلمسان، وأمراء هذَين القَبيلتَين الزَّناتيَين مُوالين لخلفاء الأندلس، كما أن علائق خلفاء الأندلس ببقية الدُّول الثلاث التي كانت تحكم الجزائر كانت ودِّية، أي الأدارسة وبنو رستم والأغالبة، وحينئذ ظهرت فجأة الدَّولة الفاطمية شرقي الجزائر، وبالضبط في ايكجان شمال مدينة سطيف سنة 292هـ، فاكتسحت الدولة الأغلبية، ثم ولَّت وجهتَها إلى الدولة الرستمية، فألحقتها بالدولة الأغلبية، وعندئذ ارتاع ملوك الأندلس لهذه المفاجأة، فخاطب الملكُ الناصر الأموي الأميرَ محمد بن خزر المغراوي، وشجَّعه على محاربة الفاطميِّين، فاستجاب لدَعوتهم، وهاجمهم فأزاحهم عَن قنسر وشلف، وكانت الحرب بينهما سِجالا، إلا أنَّ ملك الأندلس الناصر لأسباب أو لنزوة ملوكية ـ كما يعبِّر عن ذلك ابن خلدون ـ عزل محمد بن خزر مِن وهران، وولَّى عليها يعلى اليفرني، فحارب يعلى قائد وهران محمد بن عون الأندلسي الذي تقدَّم لنا ذكره حيث بقي قائدا بالمدينة منذ انتهاء بنائها، حاصره يعلى اليفرني إلى أن فتحها، ثمَّ جدَّد بناءها ونقل إليها

قاعدة حكمه التي كانت مدينة ايفكان، قُرب مدينة معسكر، والتي لا زالت إلى الآن القرية التي بنيت على أنقاضها تحمل اسمها، أي تسمَّى الآن: عين ايفكان.

كان هذا التَّصرُّف من الملك الناصر الأندلسي مما أثار غضبَ الأمير محمد بن خزر المغراوي الذي اتصل بالفاطميِّين، وزارهم إلى قاعدة المملكة إذ ذاك القيروان، فلقيه الملك المعز لدين الله الفاطمي بحفاوة وتبجيل، وصادفت زيارة محمد بن خزر تهيؤ قائد الدولة الفاطمية جوهر الصقلي إلى غزو بلاد المغرب، وطلب من محمد بن خزر مرافقَته، إذ كان هدفه محاربة يعلى اليفرني قائد وهران الجديد، وذلك في سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، وفي هذه المسيرة قتل القائدُ جوهر الصقلي يعلى اليفرني، بعد أن خرَّب قاعدةَ إمارته الأولى ايفكان، وقيل إن قتله كان بإيعاز مِن محمد بن خزر لأخبار تطول لا يسعها مجال هذه المحاضرة المحدود، وقد نصب جوهر الصقلي محمد بن خزر على وهران.

هذا، ولا زال تاريخ هذه الفترة مبهما، وأعني به تاريخ النِّصف الأول مِن القرن الرابع، فالخلافات التي وقعت تارة بين بني خزر المغراويِّين والدولة الفاطمية، ثمَّ بين بني يعلى اليفرني وبين بني خزر تارة أخرى، مرجعها إلى اختلاف الرواة، وهي راجعة إلى بعض أخطاء النَّاسخين من حيث أسماء الأمراء، أو تاريخ هذه المعارك، ولهذا فإنها لم تؤثِّر في جَوهر الأحداث، وقد تنبَّه لهذه الخلافات المؤرِّخ الجزائري أبو راس الناصري الذي أشار إلى ذلك في تأليفه: (**عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**)، وعلَّق على هذا الموضوع بقوله: «والحاصل أن في ابن خلدون هنا تخليط وتناقض، والصواب ما ذكرته لك لأنه ثمَّة ما نظرنا من الأخبار في ذلك ... الخ ».

وقال المؤرِّخ الجزائري مصطفى بن زرفة (كاتب الباي) محمد بن عثمان فاتح وهران في تأليفه الذي خصصه لهذا الفتح وسماه: (**الرِّحلة القمرية في الأخبار المحمدية**)، قال بدوره معلِّقا على الموضوع مِن (**تاريخ ابن خلدون**) ما يلي: «قلت: وفي

كلام ابن خلدون بعض تخالف، إذ ذكر أن محمد بن خزر طرد أولياء الشِّيعة من الزاب سنة عشر، وأخذ وهران وولَّى عليها ابني الخير، ثم ذكر أن يعلى بن محمد أخذها ودخلها عنوة من يد محمدية عوى، وكان مولى عليها من سنة ثمان وتسعين ومائتين إلى تاريخ أخذها سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، كما أن بين تاريخ أخذها المذكور ووفود محمد بن خزر المغراوي على المعز ابن إسماعيل الفاطمي تخالفا أيضا، إذ ذكر أنه إنما راجع طاعة الشيعة لقارعة يعلى بن محمد اليفرني، أي: في وهران وهي سنة ثلاث وأربعين، ثم أرَّخَ وفوده على المعز سنة اثنين وأربعين، وقد يقال إنها روايات مختلفة وذلك أقرب » اهـ.

سقتُ هاتَين الرِّوايتَين اللتَين علَّق فيهما المؤرِّخان أبو راس وابن زرفة على ابن خلدون، لِلَفت أنظار كثير مِن المعتنين بالتاريخ أنَّ بعض الباحثين الجزائريِّين تعوَّدوا أن يعمِّموا أحكامهم على العهد العثماني بالجزائر، بأنه عهد تَضعضَعت فيه الثقافة، وكان مؤرِّخون يخدمون ركاب السَّلاطين والملوك، وكانت عالة على ابن خلدون وغيره، فينقلون عنهم أقوالهم مِن دون تمحيص أو نقد، وقد جاراهم في هذه الآراء بعض الكتَّاب الأوروبيِّين، خصوصا مَن تواطؤوا منهم، على أن المؤرخ أبو راس كان ينقل صورا طبق الأصل من ابن خلدون، وقد رأينا أن المؤرخ أبا راس كان يناقش ابن خلدون في بعض رواياته، وكثير ما يرد عليه بقوله: «نحن أدرى بأحداث بلادنا ».

هذا ملخص الأحداث والأهوال التي مرت على وهران بعد تأسيسها في عهد مؤسسيها من ملوك بني خزر المغراويين المنتمين لقبيلة زناتة، وقد تداولوا على حكمها منذ تأسيسها إلى أواخر القرن الخامس عند مسيرة الملك يوسف بن تاشفين اللمتوني مؤسس دولة المرابطين، التي اشتهرت بكامل بلاد المغرب العربي والأندلس، وتركت آثارها التي كتب لها الخلود منها الجامع الأعظم بتلمسان الذي لازلت تتجلى فيه آثار

الفن المعماري، وكذلك المسجد الأعظم المالكي بالعاصمة ومسجد ندرومة ومنبره، وقد كان مصرع هذه الدولة ـ أي: اللمتونية ـ بجدران مدينة وهران حيث جرت الحروب التي شنها الإمام المهدي ابن تومرت، وكان منطلقها من مدينة مراكش عاصمة الدولة اللمتونية، وكان ختامها بمدينة وهران، حيث لجأ إليها آخر ملوكها تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين.

وبعد القضاء على دولة اللمتونيين كانت مدينة وهران منطلق دولة الموحدين، التي حمل لواءها الخليفة المهدي بن تومرت وابنه الروحي عبد المؤمن بن علي، ودولة الموحدين لازالت كذلك آثارها الحضارية والثقافية والبطولية تجلب اهتمام كثير من الباحثين والمؤرخين من مختلف الأجناس .

نكتفي بهذا القدر من **القسم الأول** من المحاضرة الذي يرجع جله إلى التاريخ السياسي، وسنخصِّص **القسم الثاني** منها للتاريخ الثقافي، وقبل الشروع فيه نذكر أن دراسة التاريخ الحضاري والثقافي الإسلامي فرضَ نفسه على كثير مِن الأمم، ومكانته بين الحضارات ممتازة، اللهم إلا عند شرذمة قليلة يصدقُ عليها ما وصفها به الإمام الغزالي الذي قسَّم الناسَ إلى أربعة أصناف، منهم صنفٌ قال فيه: «لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذاك ضال فابتعدوه »، فهذا الصنف صار لا يقيم وزنا للتاريخ الحضاري العربي الإسلامي، في وقتٍ نشاهد فيه أمم الدنيا تعقد المؤتمرات لدراسة حضارات بادت من قديم كحضارة الفينيقيين والرُّومان والآشوريين وغيرهم، وعلى ذكر مكانة الحضارة العربية التي طبعت البلاد التي حكمتها طيلة قرون، ومن بينها حوض البحر الأبيض المتوسط، أذكر بهذه المناسبة أن **المركز الوطني للبحوث التاريخية** الذي تُشرف عليه رياسة الدَّولة اتَّصل بدعوة للمساهمة في **ملتقى** إقامته جمعية تأسَّست بجزيرة صقلية تحت اسم: **(الجمعية العربية الصقلية)**، هذه بعض فقرات نقلناها مِن هذا الاستدعاء: «يسعدنا

إعلامكم أنه قد أنشِئت بجزيرة صقلية منذ سنتَين جمعية ثقافية تاريخية تحت اسم: (**جمعية صقلية العربية**)، وقد انضمَّ إليها جمعٌ غفير مِن المثقَّفين والباحثين في كلِّ جهات الجزيرة، أما هدفها فهو إحياء ذكر العرب بهذا القطر، والإشادة بما كان لهم فيه مِن مدنية عالية، ومن عمران مزدهر، وما كان لذلك من أثر فعَّال في نهضة أوروبا عِلميا واقتصاديا وفنيا، ثم المحافظة على الآثار العربية الباقية بالبلاد، وإحاطتها بكلِّ ما تحتاجه مِن رعاية »، هذه التفاتة مِن دولة احتلت جزيرتها الكتائب الإسلامية، وتركت فيها آثارا، وهي بطبيعة الحال بالنسبة لسكَّان هذه الجزيرة الذين تقمَّصوا الحروب الصَّليبية قرونا، وشنُّوا الغارات على شواطئ المغرب العربي قرونا، لم يمنعهم مع طول الزمان التعصُّب الدِّيني من الاعتراف للحضارة الإسلامية التي طبعت الجزيرة مدَّة سيادة الحكم الإسلامي بها، لم يمنعهم التعصُّب الجنسي والعقائدي مِن تنظيم ملتقى يدرس نقاط ماضيها الإسلامي الذي لا يمكن إخفاء آثاره في المجال الحضاري والثقافي، فما بالنا نحن أبناء هذه الحضارة نتنكر لها، ونهملها، أو نخفِّف من شأنها إذ لم تمعننا حضارتنا ولا ديننا يوما من الأيام مسايرة الركب الحضاري العالمي.

هذا ولنواصل حديثنا عن القسم الثاني من المحاضرة الذي خصصناه لترجمة حياة شخصية وهرانية امتاز صاحبها بالعبقرية وحظيت ترجمته وآثاره بالدراسة والتحليل منذ قرون ولازالت إلى زماننا هذا محل اعتناء الكتاب والباحثين من مختلف بلادان المشرق، أما بلاد المغرب العربي وبالخصوص مسقط رأسه بوهران فلم يصلنا منهم شيء، اللهم إلا اسمه الذي أطلقته البلدية على ناد من أنديتها، أي نادي ابن محرز الوهراني، وقبل التعرض لترجمته، نذكر أن وهران اشتهرت بكثير من أفذاذ العلماء عبر التاريخ منهم أبو إسحاق شيخ الحافظ ابن عبد البر النمري القرطبي، وابن حزم الظاهري، وعبد الرحمٰن بن عبد أحمد بن خالد الهمذاني المعروف بابن الخراز المتوفى

بالمرية سنة 419 هـ، ومترجمنا العالم الأديب أبو عبد الله محمد بن محرز الملقب ركن الدين الذي هاجر إلى مصر ثم دمشق وترك آثارا أدبية لازالت تحتفظ بها بعض الخزائن العلمية ببلاد المشرق وأمريكا، ولازال كبار الكتاب والباحثين يواصلون جهودهم في دراستها، وإنه رغم اعتناء الكتاب والمؤرخين من أئمة الأدب بترجمة ابن محرز وبنقد ونشر موسوعته الأدبية، فإن جوانب كثيرة من ترجمته، ومن دراسات موسوعاته لازالت مجهولة، كان الفضل للتنقيب على آثار ابن محرز بالنسبة للباحثين المتأخرين للدكتور عبد العزيز الأهواني المتخصص في دراسة تاريخ الأدب العربي الأندلسي بجامعة القاهرة، ثم الدكتور صلاح الدين المنجد عضو المجمع العربي بدمشق، ومحمد كرد علي وزير المعارف في عهده بسوريا، نشر الأهواني مقامات الوهراني بعد تحقيقها، لما نشر صلاح الدين المنجد رسالة أو مقامة الوهراني ورقعته عن مساجد دمشق، وكلا التأليفين من روائع النثر الفني، وإنني أغتنم هذه الفرصة كما سبق لي ذكره لأخصص القسمَ الثاني من المحاضرة لذكر نبذ من ترجمته، والظروف التي غادر فيها مدينة وهران، ولما لم يحظ ابن محرز بمن اعتنى بترجمته من علماء البلاد، بقيت ترجمة حياته بوهران مجهولة تماما لم يكشف عنها الغطاء إلى يومنا هذا، وتسبب عن ذلك أن تعرضت ترجمته إلى التخيل والافتراض المبني على خطأ تسرَّب في ترجمته التي خصَّصه بها أول مترجميه، وهو القاضي ابن خلكان في تأليفه (**وفيات الأعيان**)، وقد نقل هذه الترجمة بما فيها من الخطأ جل المترجمين الذين نقلوا ترجمته مِن (**وفيات الأعيان**)، كابن فضل الله العمري في (**مسالك الأبصار**)، والصَّفدي في (**الوافي بالوفيات**)، كان أول مترجم ابن محرز ابن خلكان الذي قال في ترجمته: «أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب ركن الدين وقيل جمال الدين، أحد الفضلاء الظرفاء، قدم من بلاده إلى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله تعالى)، وفنه الذي يمت به هو صناعة الإنشاءن فلما دخل البلاد، ورأى بها القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني

الكاتب وتلك الحلبة، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ولا تنفق سلعته مع وجودهم، فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل وعمل المنامات والرسائل المشهورة والمنسوبة إليه، وهي كثيرة الوجود بأيدي الناس وفيها دلالة على خفة روحه ورقة حاشيته وكمال ظرفه، ولو لم يكن فيه إلا المنام الكبير لكفاه، فإنه أتى فيه بكل حلاوته ولولا طوله لذكرته».

إن هذا التعريف لابن خلكان تسرب منه ما أحدث بلبلة، إذ نقله عنه بقية المترجمين بتمامه ولم ينتبهوا لما فيه من الخطأ إلى أن اكتشفته أحد المترجمين المتأخرين فأصلحه، إلا أنه كانت مرت عليه سبعة قرون، وهذه الفقرة التي فعلت مفعولها السيئ هي قول ابن خلكان في الترجمة أن ابن محرز فنه الذي يمت به هو صناعة الإنشاء فلما دخل البلاد ورأى بها القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ولا تنفق سلعته من وجودهم فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل ... الخ .

وقد تدارك صلاح الدين المنجد هذا الخطأ في تقديم وتحقيق رسالة ابن محرز عن مساجد دمشق التي عثر عليها بخزانة (**جامعة برنستن**) بالولايات المتحدة الأمريكية، فأصلح هذه الغلطة بعدما فعلت مفعولها طيلة سبعة قرون، وهذا ما صوب به المنجد الخطأ الذي ذكرنا أنه تسرب إلى تعريف ابن خلكان قال: «فيُفْهم من قوله أي ابن خلكان أن الوهراني عدل عن طريق الجد بعد أن لقي العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل عند صلاح الدين بمصر ... الخ».

قال المنجد في تعليقه: «وهذا الكلام يحتاج إلى تصحيح، فسلوك الوهراني طريق الهزل كان قبل أن يصبح صلاح الدين سلطانا، لأنه كتب كثيرا من مقاماته الهزلية، ورسائله في أيام نور الدين محمود بن زنكي المتوفى سنة 569، أي الذي خلفه صلاح الدين في المملكة ـ وكان العماد الاجتماع بدمشق ـ ثم قال: «ولم يجتمع العماد والقاضي

الفاضل بمصر إلا بعد موت نور الدين »، ثمَّ قال صلاح الدين المنجد: «ثم إن مجيئه من بلاده إلى المشرق ـ أي: الوهراني ـ لم يكن في أيام صلاح الدين بل كان أيام نور الدين وقد وصفه في إحدى رسائله عندما سئل عنه، وهو في بغداد فقال عنه: سهم الدولة سديد وركن الخلافة شديد، وأمير زاهد، وملك مجاهد تساعده الأفلاك، وتخدمه الجيوش والأملاك.

ثم استرسل المنجد في تعقيبه على ابن خلكان فقال وعجيب أن يخطئ ابن خلكان مثل هذا الخطأ والأمر واضح على تتبعه، وشدة تحريه.

هذه غلطة تظهر من أول وهلة بسيطة، ولكنها فعلت مفعولها السيئ طيلة سبعة قرون، وصورت للقراء جانبا من حياة ابن محرز مختلفا لا يمت إلى الحقيقة بصلة فزهدت كثيرا من القراء في أدبه الذي ظنه الكثير منهم أنه أدب رجل احترف الأدب للتعيش ونسوا أنه على فرض صحة ما نسبه إليه ابن خلكان فتلك طريقة سلكها أئمة الأدب قبله فخلدت آثارهم أمثال ابن قزمان الأندلسي سلكها أئمة الأدب قبله فخلدت آثارهم أمثال ابن قزمان الأندلسي والفتح ابن خاقان وغيرهما، وعلى ذكر ابن قزمان تعلمون أن المصدر الوحيد الذي احتفظ لنا به التاريخ ساقته المقادير إلى مكتبة لينينغراد بالإتحاد السوفيتي فكان مخطوط ديوانه ضمن المخطوطات العربية لتلك المكتبة التي كان المحافظ عليها المستشرق الشهير كراتشوفسكي الروسي وكانت الحرب العالمية الثانية التي تعرضت فيها مدينة لينينغراد لهجمات الألمان، فماذا فعل محافظ المكتبة كراتشوفسكي وهو على سرير بإحدى المستشفيات والموت يحصد سكان لينينغراد بالمئات في اليوم الواحد فأعطى تعاليم لإنقاذ المخطوطات العربية وبالفعل مر عليها الخطر بسلام فماذا كان جزاؤه من دولته، فقد قدرت جهوده التي بذلها في إنقاذ ذلك التراث الذي لا يمت لروسيا بصلة وأنعمت عليه بأعظم وأرفع نيشيان، وهو نيشيان

لينين. وقد تمكن كثير من كبار المستشرقين من مختلف الأجناس أن يراجع تلك النسخة الفريدة في العالم والتي كتبت في صيدا وختم بها المطاف بلينينغراد لخبر يطول، ولا زال كبار أدباء العالم يواصلون دراستهم عنها.

هذا كذلك سقناه كدليل على اهتمام علماء الدنيا بالتراث البشري بقطع النظر عن جنسية أصحابه أو مذاهبهم العقائدية، ومن جملة من اعتنى بديوان ابن قزمان في الدنيا مستشرقون ألمانيون وإسبانيون علاوة على عبد العزيز الأهواني.

ولنرجع إلى ابن محرز الوهراني الذي كانت ترجمة ابن خلكان منطلق لمزه والتشكيك في قيمته، ولم يتفطن بقية المترجمين إلى إعادة النظر فيها بل جاروا ابن خلكان، فنجد الصفدي مثلا استنتج في تعريفه لابن محرز أنه قدم من المغرب إلى مصر وهو يدعي الإنشاء فرأى القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني ... الخ، وجاراه في ذلك ابن فضل الله العمري الذي قال: الوهراني أديب اخترع طريقا طلعت شمسه من المغرب، ولم يغلق للرحمة باب، وقدم والدولة الصلاحية قد استعلت ويد تصرفها مع البلاد قد استولت، والمجلس الناصري معمور بالأجلاء، مأهول بالقاضي الفاضل وأقرانه من الفضلاء، وريح الأدب قد هبت، ووفود الخواطر قد لبت والحظ الفاضل قد أخذ معه حظ كلّ فأخذ ما للكل ولم يترك لهم إلا الفاضل، وكان يغار على بنت كل فكر .

وكان الوهراني لوذعيا تحميه لألاؤه، وألمعيا نزيه البصيرة آراؤه، فخاف نفاث ذلك الصل، وعينات ذلك السيف الذي لا يكل، فمال إلى السخف، إذ كان لا يحسد على مكبيه ولا ينافس في ترديه وتجليه، وجعل هذا سببا لإظهار ما عنده من الإحسان وتكلم ولم يخف عثرة القلم، ولا زلة اللسان، فرفرف عليه جانب من الحنو الفاضلي، ورق عليه كما رق غسق البابلي.

وقد رأينا أن ابن فضل الله العمري اعتمد على ترجمة ابن خلكان وترك باله يسبح

في الإشادة بالقاضي الفاضل ويفترض أن ابن محرز كان يتقرب إليه ويستظل بظله، وحقيقة أن القاضي الفاضل كان يتمتع بالنفوذ المطلق في بلاط صلاح الدين الأيوبي حيث إن صلاح الدين صرح مرة عند مخاطبته لنخبة قادة جيشه فقال لهم: «إنه ما فتحت البلاد بسيوفكم، وإنما بقلم القاضي الفاضل »، وقد قال تاج الدين ابن السبكي: «أجمع أهل الأدب على أن الله تعالى لم يخلق في صناعة التَّرسُّل من بعده ـ أي: القاضي الفاضل ـ مثله ولا من قبله، بأكثر من مائتي عام »، ولكن هذا كله غير صحيح وفيه مبالغة، إذا ثبت أن القاضي الفاضل كان يتمتَّع بالنفوذ التام في بلاط صلاح الدين الأيوبي، فلم يثبت أن ابن محرز الوهراني خضع له أو مال إلى ما سمّاه ابن فضل الله العمري الأدب السخيف خشية مجاراة القاضي الفاضل الذي قال عنه: «أنه أخذ معه حظ كل، فأخذ ما للكل، ولم يترك لهم إلا القاضي الفاضل »، وقد سبقه ابن خلكان الذي قال: «أن ابن محرز فنه الذي يمت به هو صناعة الإنشاء فلما دخل البلاد ورأى بها القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم، ولا تنفق سلعته مع وجودهم، فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل ... الخ ».

وقد استنتجت أيضا الدكتورة سعيدة رمضان من دراسة قيمة خصصتها لابن محرز الوهراني ونشرتها بمجلة الآداب بالجزائر في عيدها الثاني فاستنتجت من تعريف ابن خلكان وابن فضل الله العمري ما يلي : (كان على الوهراني إذا أن يسلك السبيل الذي سلكه أهل الآداب في عصره من السعي لنيل عطفه، فهل فعل الوهراني ذلك ؟ ثم قالت سعيدة رمضان: «إن ابن خلكان ومن بعده ابن فضل الله العمري ينصان على أن الوهراني حين جاء إلى مصر جاء وفي نيته أن يعمل في ديوان الإنشاء أو غيره من دواوين الدولة، غير أنه وجد السبيل إلى هذه المناصب موصدا فعدل إلى الكتابة الهزلية يفرغ فيها طاقته الفنية، ويظهر براعته في ميدان لا ينافسه القاضي الفاضل فيه..» إلى

آخر ما استنتجته من الصراع الخفي بين الرجلين أي ابن محرز والقاضي الفاضل وإذا ثبت وجود الصراع المزعوم ووجوب حرب خفية فذلك ينافي ما استنتجته من هيمنة القاضي الفاضل وخشية الوهراني بأسه، ثم استرسلت سعيدة رمضان في استنتاجها المبني على التعريف فقالت: «وجلي على أن منشأ هذا الصراع يكمن فيما أحسه الوهراني من الغبن الذي حاق به إذ حيل بينه وبين إظهار فنه، وإبراز نبوغه في صناعة الكتابة ولنا أن نصوره يقطع الآفاق من وهران إلى القاهرة وقد بهره بريق مجد صلاح الدين الأيوبي وانفساح مملكته، مهيئا للأمر عدته وما أكثر عدد الكتابة الديوانية في ذلك الحين وإذا به يجد القاضي الفاضل يحول بينه وبين ما يريد ويكون تحوله إلى الكتابة الهزلية تعبيرا عن أزمة المسعى الخاسر والأمل المشحوب ... الخ».

فمن أنبأ هؤلاء أن الوهراني حين جاء إلى مصر جاء وفي نيته أن يعمل في ديوان الإنشاء؟ ومن أنبأهم أن ابن محرز قطع الآفاق من وهران إلى القاهرة، وقد بهره بريق مجد صلاح الدين وانفساح المملكة مهيئا للأمر عدته فيجد القاضي الفاضل يحول بينه وبين ما يريد ويكون تحوله إلى الكتابة الهزلية تعبيرا عن أزمة المسعى الخاسر والأمل المشحوب ؟.. الخ .

فهذا كله يدلنا على صدق ما يرى كثير من المثقفين وهو قولهم: ما أكذب التاريخ. فقد رأينا أن فقرة واحدة ذكرها ابن خلكان في تعريفه كادت أن تشوه سمعة وحقيقة أديب عبقري طيلة سبعة قرون إلى أن اهتدى إلى تصوبيها أديب بحاثة معاصر وهو صلاح الدين المنجد. وقد اتفق كل مترجمي ابن محرز القدامى والمتأخرين بأن حياته في وهران والظروف التي غادر فيها مجهولة فكيف تستنتج سعيدة رمضان أنه ذهب إلى مصر وفي نيته أن يعمل في ديوان الإنشاء، وكيف تستنتج وجود حرب بينه وبين القاضي الفاضل الذي كان ابن محرز يخشى بأسه مع أن القاضي الفاضل كان في طليعة من صب عليهم ابن محرز سخريته وتهكمه، فقال في إحدى مقاماته : " فلم أشعر إلا

والحائط قد انشق وقد خرج منه شخص غريب الصورة ليس له رأس ولا رقبة وإنما وجهه في صدره ولحيته في بطنه إذ كان القاضي الفاضل أحدب. وقد قال صلاح الدين المنجد في ترجمته لابن محرز استطاع الوهراني أن يجلب القلوب إليه، فقد كان ظريفا خفيف الروح وكان بارعا في الهزل والسخرية فصب سخريته وتهكمه على كبار علماء دمشق وفقهائها وأطبائها وكتابها كالتاج الكندي، والمهذب ابن النقاش، والقاضي الفاضل، والقاضي ضياء الدين الشهرزوري والقاضي ابن أبي عصورن وغيرهم، ولم يسلم من لسانه وقلمه علماء مصر ورجالها أيضا كالنحبوشا وابن مماته، فألف رسائل هزلية مختلفة وابتدع في المنامات الأدبية وقد شهر منامه الكبير الذي سلك فيه مسلك أبي العلاء في رسالة الغفران وجمع فيها أنواعا من المزاح والأدب .

نكتفي بهذا القدر من ترجمة ابن محرز الوهراني وأمنيتنا أن يوليه بعض الباحثين مزيدا من العناية كما دعا إلى ذلك كثير ممن اشتغلوا بدراسة آثاره، وفي طليعتهم صلاح الدين المنجد الذي قال في ختام ترجمته: وكيف كان أمر الوهراني، فيما ابتغاه من سخريته فإنه يكاد يكون نسيج وحده في أدبنا العربي فيما كتب وهو جدير بدراسات واسعة تكتب عنه وآثاره المخطوطة ينبغي أن تنشر عنه إذ لازالت جوانب هامة من حياته مجهولة خصوصا نشأته الأولى والظروف التي غادر فيها البلاد. ومن باب الافتراض نرجح أن مغادرته لوهران كان في الفترة التي اشتدت فيها الحروب بين دولتي المرابطين والموحدين، وهذا ما يجعلنا نعود إلى الموضوع إن شاء الله للمساهمة في كشف الغطاء عن ترجمة هذا العبقري الفذ.

نبذٌ من ماضي (بجاية) ووِلايتها عبر التاريخ[1]

إن مدينة **بجاية** التي تأسَّست سنة 460هـ استحالت بعد تأسيسها بنحو رُبع قرن إلى عاصمة ضاهت عواصم العالم في الميادين الثقافية والاقتصادية والبطولية، ثم احتفظت بمكانتها ما يقرب من خمسة قرون.

وقبل ذكر الأطوار التي مرَّت بها في تاريخها، نتعرَّض لحالتها الحاضرة، خصوصا موقعها الجغرافي ووضعيتها الإدارية.

فـ: **بجاية** الآن ملحقة بولاية **سطيف** التي تحدُّها شرقا ولاية **قسنطينة**، وغربا ولاية **تيزي وزو** ـ أو بلاد القبائل الكبرى ـ وجنوبا ولاية **باتنة** الأوراس، وشمالا البحر الأبيض المتوسط.

وإذا رجعنا إلى تاريخ البلاد القديم نجد التقسيم الإداري والجغرافي يرجع إلى عهد الرومان، فإنهم قسموا بلاد المغرب العربي الحالي إلى أربع مناطق.

المنطقة الأولى تشمل جمهورية تونس الحالية وقاعدتها مدينة قرطاج وكانت هذه المنطقة تسمى: إفريقيا.

المنطقة الثانية تمتد من وادي طبرقة إلى وادي بجاية وقاعدتها مدينة سطيف وتسمى نوميديا.

---

(1) ملتقى الفكر الإسلامي، الملتقى الثامن 1974م، بجاية، ج3، ص: 1385 ـ 1409.

المنطقة الثالثة تمتد من وادي بجاية إلى وادي ملوية ـ الحدود المغربية ـ وقاعدتها مدينة شرشال، وتسمَّى موريطانيا سيزاري (Césarée).

المنطقة الرابعة تشمل بلاد المغرب الأقصى بتمامه وقاعدتها مدينة طنجة، وتسمَّى: موريطانيا (Tingitane).

كان الطريق الرئيسي الذي يربط بين هذه المناطق يمتد من قرطاج إلى طنجة، وكانت مدينة سطيف[1] من أهم مراحله ومحطاته، كما كانت قطب كثير من الطرق التي تربط بينها وبين مدن المنطقة طولا وعرضا، إذ علاوة على موقعها الجغرافي، فإنها كانت مركزا لقائد الجيش الروماني الأعلى بكامل التراب ـ المغرب العربي ـ.

وفي عهد الفتوحات الإسلامية اتخذت إحدى مدن ولايتها قاعدة المغرب التابعة لعاصمة القيروان، وهي مدينة طبنة[2] الأثرية التي أقام فيها إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية قبل توليته على إفريقيا، ولما عين عاملا على إفريقيا في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد انتقل من طبنة إلى القيروان، بقيت هذه الناحية ـ سطيف ـ وبجاية تابعة للدولة الأغلبية إلى أن قضت عليها دولة الفاطميين التي تكَّونت بايقجان ـ القريبة من مدينتي سطيف وبجاية ـ حوالي سنة 280هـ.

أما التقسيم الإداري الذي أدركها عليه استقلال البلاد ـ أي: نظامها في عهد

---

(1) أفل نجم **سطيف** كمدينة هامة في العهد الإسلامي، وإنما حافظت على مركزها العسكري، إذ نجدها قاعدة عسكرية لـ: **كتامة**، ثم فيها كانت المعركة الحاسمة بين الخليفة **عبد المؤمن بن علي** و**بني هلال** حوالي سنة 546هـ، ولا زالت تعرف بـ: **واقعة سطيف**.

(2) **طبنة**: كانت أعظم مدينة بين القيروان وسجلماسة اتخذها كسيلة قاعدة، وقد أنجبت كثيرا من فطاحل العلماء ذكر بعضهم ابن القطان في (**نظم الجمان**) فقال بيت بني الطبني من الأسر المشهورة في الأندلس وأصلهم من طبنة عاصمة الزاب بإفريقيا وقد اندثرت ولم يبق إلا باب من أبواب مسجد عقبة بن نافع يحمل اسمها ((باب طبنة)) وهو من عهد المعز بن باديس.

الاحتلال الفرنسي ـ فإنها كانت دائما تابعة لولاية قسنطينة [1]، التي كانت المنطقة الثانية في عهد الرُّومان التي أطلقوا عليها اسم نوميديا[2]، كما كانت سطيف بدورها قاعدة دائرة تابعة لولاية قسنطينة.

كانت دائرة بجاية بعد الاحتلال الفرنسي سنة 1847 منطقة عسكرية، نظَّمها المارشال بيجو (Bugeaud) بعد انتهائه مِن احتلالها مباشرة، وكانت تشمل قرى وقبائل: مزاية، توجة، أولاد سيدي محمد امقران[3]، فناية، تيقرة، بني وغليس، بني بومسعود، بني ميمون، برباشة، قيفصا، بني خطاب، صنهاجة بني بو بكر، بني جليل، بني يمل[4].

ثم أعقب هذا التقسيم عندما فرض الحكم بعد الحكم العسكري إثر ثورة ابن الحداد وصهره المقراني المشهور بثورة بلاد القبائل سنة 1871، وقد أحدث هذا التقسيم ما عرف بالدوائر الممتزجة. فكانت دائرة بجاية تشمل أربع دوائر ممتزجة:

(1) كان نظام الإداري في عهد الاستعمار الفرنسي قسم الجزائر إلى قسمين: القسم العسكري الذي يشمل جنوب البلاد ـ الصحراء ـ وهو خاضع للحكم العسكري مباشرة، والقسم المدني الذي قسم بدوره إلى ثلاث ولايات، وكل ولاية لها دوائر حسب أهمية السكان.

(2) كان هذا التقسيم في العهد الأول لحكم الرومان، أي عندما كانت البلاد تتمتع بالاستقلال الداخلي تبعا لوضعيتها في العهد الفينيقي، وبعد ثورة يوغرطة بدلت رومة الاستقلال الداخلي بالحكم المباشر وألحقت نوميديا بموريتانيا يرزاري ـ أي: شرشال ـ وصارت نوميديا تسمى موريطانيا ستفانسيس (Mauritanie Siti fensis)

(3) محمد امقران دفين بجاية من أسرة المقراني أمراء القبائل الصغرى، انتقل فرع منهم إلى نواحي بجاية وقربهم الأتراك وحبسوا عليهم الأملاك كما تركوا لهم احتكار تجارة الخشب، ولا زالت آثار زواياهم بنواحي القصر ـ مدينة تبعد بنحو 20 كلم عن بجاية ـ وتسمَّى: امعدن.

(4) من مقال نشره فيرو في (المجلة الإفريقية) عدد: 48، أوت 1859م، تحت عنوان: **(معلومات عن بجاية)**، وفي هذه السلسلة لخص كتاب تاريخه المشهور عن بجاية.

سيدي عيش، أقبو، القرقور، جيجل.

كانت دائرتا سيدي عيش وأقبو قبلة العالم الإسلامي، كقبائل مشدالة، وبني ملكيش، وسمعون، ثم معاهد شلاطة، بوجليل، ابن أبي داود، ايصولا، معهد يحيى وموسى، ومعهد أحمد ويحيى بأمالو، وسيدي موسى بتيندار، ومعهد من هذه المعاهد له تاريخ ونظام داخلي محكم، والكثير منها صارع الأهوال، وأثبت وجوده والقيام بمهمته، رغم الأزمات المادية والأدبية والسياسية التي تعرضت لها، كما كانت دائرة أقبو تشمل قلعة بني عباس القاعدة الأولى لإمارة آل المقراني ولقبيلة بني مليكش التي علاوة على اشتهارها بالعلم فقد اشتهرت بالبطولة، وحكم أفرادها عاصمة الجزائر وضواحيها، وكانت قبيلة الثعالبة تدفع لها الإتاوة، إذ قبيلة مليكش تنتمي إلى صنهاجة الذين تداولوا حكم عاصمة الجزائر قبل أن يؤسِّسها بلقين.

وكانت دائرة القرقور تشمل قبائل بني يعلى التي كانت هي أيضا آهلة بالمعاهد العلمية، خصوصا بعد احتلال الأسبان لبجاية حوالي سنة 915هـ وهجرة كثير من علمائها، اشتهرت معاهد بني يعلى في القرن العاشر وما بعده بمعاهدها التي كانت المواد التي تدرَّس فيها لا تقلُّ عما كان يدرَّس بجامع الزَّيتونة في تونس، والقرويِّين بفاس، كما كان لعلمائها اتِّصال وثيق بعلماء الأزهر، وبالخصوص الشَّيخ مرتضى الزَّبيدي الذي لا زالت بعض أسرها تحتفظ بإجازاته [1].

وأما دائرة جيجل فإنها كانت قاعدة ما يسمى بقبائل الحضرة، التي تتقاسمها معها نواحي الميلية التابعة لولاية قسنطينة، وجبال بابور التابعة لدائرة سطيف.

---

(1) نجد أسرة العربي بن مصباح تحتفظ بإجازة مؤرَّخة في أواخر القرن الثاني عشر تذكر فيها الفنون التي كانت تقرأ، وهي التي قلنا إنها لا تقلُّ عن فنون جامعتي الزيتونة والقرويِّين، كما أن أسرة يحيى حمودي تحتفظ بإجازة مرتضى الزَّبيدي بخطِّه وطابعه، مؤرَّخة سنة 1201هـ.

وقبائل الحضرة هؤلاء من بقايا كتامة إلا أن لغتهم عربية دارجة لهجة عامية ـ بخلاف القبائل الصغرى والكبرى، أي سكان وادي بجاية وولاية تيزي وزو، فإن لغتهما بربرية وتمتاز لغة جيجل ونواحيها بلهجة خاصة لا يوجد لها مثيل لها في القطر الجزائري، إلا في بعض نواحي مدينتي ندرومة والغزوات (غربي البلاد)، ومن الصعب أن يفرق السامع بين نطق سكان الجهتَين، سواء في اللهجة العامية، أو إبدال الحروف ومخارجها، كإبدال القاف كافا، والكاف ياء وزيادة بعض الحروف في الكلمات ... الخ.

وقد اعتنى بعض المستشرقين المتخصِّصين في اللهجات بدراسة لغة جيجل، وكان من جملتهم المستشرق الشَّهير ويليام مارسي، وقد نشر ولده فيليب مارسي الأستاذ السابق بجامعة الجزائر تأليفا فيه نماذج من لغة جيجل ـ شعرا ونثرا ـ قيل: إنها من عمل والده، ونشر هذا التأليف ضمن منشورات جامعة الجزائر سنة 1954م.

وفي هذه الناحية ـ قبائل الحضرة ـ توجد ايقجان مركز انطلاق الدعوة الشيعية، ايقجان هي التي كانت تسمى: **(دار الهجرة)**، وهي بقرب مدينة جميلة الرومانية التي هي أعظم المدن الرومانية في الشمال الإفريقي، لا زالت محتفظة بجل آثارها ومعالمها يرجع تأسيسها إلى القرن الأول المسيحي ـ أي قبل اعتناق روما المسيحية، وقد اهتمت الحكومة الفرنسية برعايتها وأعانها على ذلك الأثريون والهواة وحافظوا عليها إلى يومنا هذا، بعكس ايقجان، فقد أهملت تماما، بل لم يقع بها أدنى اهتمام، وموقعها ـ ايقجان ـ بجبال بابور الجنوب الشرقي لبجاية والشمال الشرقي لسطيف، تسكن الناحية قبيلة بني عزيز، أما آثارها فإنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

1) الخربة التي توجد بقربها أطلال القصر.

2) شرقي هذه الخربة توجد أرض تسمَّى عند السكان: مصر.

3) خربة أخرى تسمَّى: القصر، على مسافة نحو: 5 كلم من الخربة الأولى.

وجميع هذه الأقسام الثلاثة قرب الوادي الكبير والماء الذي يجلب إلى الخربة يأتيها من عين دافقة تعرف بـ: أقارو، تبعد عنها بنحو 2 كلم.

وأرض الخربة تسمَّى: أورار ولورارى، ونجد ذكر أورار هذه كمحطَّة بين بجاية وقسنطينة، وقد ذكرها الأديب الشهير أبو علي حسن بن الفكُّون القسنطيني الذي قال في منظومته التي ضمَّنها رحلتَه من قسنطينة إلى مراكش في أواخر القرن السادس الهجري:

وكنت أظن أن الناس طرا ... سوى زيد وعمرو غير شي

فلما جئت مليلة خير دار ... أمالتني بكل رشى أبي

وكم أورت ظباء بني ورار ... أورار الشوق بالريق الشهي

كما وصف اورار هذه العبدري في **(رحلته المغربية)** (1) حوالي سنة 680هـ فقال يصف خروجه من بجاية إلى قسنطينة: « ثم وصلنا إلى بني ورار ثم إلى ميلة فلم نر إلا رسوما لحوادث الدَّهر محيلة ... »(2)، إلى أن قال: « وكلتاهما على شكل مدينة، ليست بثمينة ولا متينة، عمل البلى فيهما وفي السكان، وأدخل الجميع في خبر كان، وفي كلتيهما عين تسح، وعنصر يجود ولا يشح، وبنو ورار أعمر المحليين، وعينها أغزر العينَين، تسقي البلاد نهلا وعلا، وتفيض عليه غللا يشفي غللا ».

تكونت دولة الفاطميين في أواخر القرن الثالث بهذه الناحية ـ ايقجان ـ ثم

---

(1) حقَّقها ونشرها الأستاذ محمد الفاسي منذ سنوات بالرباط 1968م، كما حقَّق د. ابن جدو نسخة أخرى وطبعتها جامعة الجزائر.

(2) وقد شاهدت هذه الناحية أيضا مأساة (حوادث 8 ماي 1945) التي قتل فيها عشرات الآلاف من السكان الجزائريين العزل، وكان ضحايا هذه الناحية السَّابقين الأولين لضحايا القطاع القسنطيني المنكوب.

اكتسحت شرقي الجزائر فتونس، مما هو معلوم في كتب التاريخ، وكان جندها إذ ذاك كله من قبيلة كتامة، ولما حول المعز لدين الله الفاطمي المملكة من القيروان إلى القاهرة حوالي سنة 362هـ اختار عامله بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي خليفة له بالمغرب، الذي كان يشمل إذ ذاك جمهورية تونس والجزائر الحالية، أي كامل تراب الجمهورية.

كان سبب هذا الاختيار علاوة على الروابط المتينة التي كانت تجمع بين المعز لدين الله الفاطمي وصديقه (رفيق صباه) بلقين إذ نشآ معا في مدينة المسيلة(1) (جنوب سطيف) فإنه راعى مواقف عشيرته التي أعانت دولة الفاطميين في أحرج الأوقات التي مرَّت عليها عندما ثار عليها حوالي سنة 330هـ أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتي المشهور بالخارجي، وألزم الملك إسماعيل بن القائم بأمر الله الفاطمي مغادرة القيروان والتَّحصُّن بالمهدية، فأغاثه زيري بن مناد والد بلقين، فكان هذا الموقف من أسباب القضاء على أبى يزيد بجبل كيانة سنة 336هـ(2).

وقد أظهر التاريخ أن اختيار المعز لدين الله كان موفقا إذ برهن بلقين أنه من الأبطال الأفذاذ قادة الشعوب والأمم.

---

(1) المسيلة: أسسها علي بن حمدون المشهور بالأندلسي، ورد على أبي عبد الله الشيعي واتصل بعبيد الله المهدي فأقطع له هذه الناحية وأعانه ولده أبو القاسم على بناء المدينة سنة 315هـ. فنالت شهرة وخلدها الشاعر ابن هاني في قصائده التي مدح بها ولدي علي بن حمدون جعفر ويحيى، ومن المسيلة الأديب الشهير ابن رشيق المدعو بالقيرواني.

(2) جبل كيانة هو الذي اختاره حماد بن بلقين (مؤسس دولة بني حماد) سنة 398هـ لتأسيس حصن عزز به حصن العشير ـ أشير ـ وصار فيما بعد **(قلعة بني حماد)** العاصمة الأولى لدولة بني حماد، وهو جبل كيانة، لا جبل كتامة كما صحفه بعض المؤرخين.

بجاية في العهد الإسلامي:

كانت تابعة لقبيلة كتامة التي عرف ابن خلدون موطنها بقوله: « يمتد من دلس غربا إلى عنابة شرقا إلى الأوراس جنوبا، وكانت لهم مدنهم بجاية، ايقجان، سطيف، باغاية، نقاوس، بلزمة، قسنطينة، والقل، وجيجل »، «وعد ابن حزم زواوة بجميع بطونهم وهو الحق على ما تقدم... ولم يزالوا على هذه الحالة من لدن ظهور الملك، وملك المغرب إلى دولة الأغالبة، ولم تكون الدولة تسومهم بهضيمة، ولا ينالهم تعسف لاعتزازهم بكثرة جموعهم كما ذكره ابن الرقيق ».

كانت بجاية اسما للقبيلة البربرية الساكنة بالجبل الذي اختطت فيه المدينة التي سميت في أول عهدها بالناصرة اسم مؤسسها، وتغلب اسم القبيلة مع مرور الزمان ونسي اسم الملك الناصر بن علناس الحمادي، لم يطل اسم الناصرية حتى عند القدامى، فإن وجدنا الأديب أبا علي حسن بن الفكُّون القسنطيني ذكرها مرَّة باسم الناصرية، فقد ذكرها مرَّات أخرى باسم بجاية، ومن ذلك قوله في وصفها:

دع العــراق وبغــداد وشــامهما   فالناصريــة مــا إن مثلهــا بلــد
بــر وبحــر ومــرج للعيــون بــه   مســارح بــان عنهــا الهــم والنكــد
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمــع   حيث الغنى والمنى والعيشــة الرغــد

وقال مرَّة أخرى في منظومته المتضمِّنة للرِّحلة بعد الأبيات التي تقدَّم ذِكرها:

وكـــم أورت ظبـــاء بنـــي ورار   أوار الشـــوق بـــالريق الشـــهي
فجئــت بجايــة فجلــت بــدورا   يضــيق بوصــفها حــف الــروي
وفي أرض الجزائــر هــام قلبــي   بمعســول المراشــف كــوثري

وهذه المنظومة تشتمل على اثنين وثلاثين بيتا، لا يخلو كتاب مِن كتب تاريخ الأدب المغربي من ذكرها أو الإشارة إليها.

كان الناصر بن علناس مؤسس مدينة بجاية، الملك الخامس لملوك أسرة بني حماد، وكان عميد الأسرة ومؤسس الدولة الحمادية هو حماد بن بلقين بن زيري[1] عامل الدولة الفاطمية، وقد تقاسم أحفاد بلقين في أوائل القرن الخامس المملكة التي كانت تعرف بمملكة بني زيري، وتشمل معظم بلاد المغرب العربي تقاسموها إلى قسمين: القسم الشرقي الشَّامل لجمهورية تونس الحالية، وعاصمته القيروان، توارثه أبناء المعز بن باديس الذي خلع طاعة الخلفاء الفاطميين، وقطع كل صلة بهم حوالي سنة 433، واحتفظت هذه المملكة بنسبتها الأولى ـ أي: مملكة بني زيري ـ.

أما القسم الثاني وهو القسم الغربي للمملكة، فكان يشمل بلاد الجزائر الحالية، الممتد من حدود تونس إلى تلمسان وتوارثه أبناء حماد وكانت قاعدته ـ قلعة بني حماد ـ ثم انتقلت إلى بجاية في عهد المنصور بن الناصر (مؤسس بجاية)، استفادت قلعة بني حماد كثيرا من سقوط القيروان حيث التجأ إليها جل علمائها ورجال الأعمال والاقتصاد، وقد وصفها أبو عبيد البكري في أول عهدها، أي عندما كانت عاصمة لدولة بني حماد، فقال: «... قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة وتمصرت عند خراب القيروان، انتقل إليها أكثر أهل افريقية وهي اليوم مقصد التجار، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب، وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة»، وقد عرفها الإدريسي بعد ما نقلت العاصمة إلى بجاية فقال : « و أما مدينة بجاية فإنها عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد بن بلقين، وهي التي تنسب دولة بني حماد إليها، والقلعة كانت في وقتها وقبل عمارة بجاية دار الملك لبنى حماد ».

---

(1) حماد بن بلقين عينه أخوه المنصور (الذي خلف والده) عاملا على مدينة أشير (مركز الأسرة الحربي) ونواحيها وقد اختط قلعة بني حماد سنة 398هـ، وجدَّد له الاعتراف بالولاية المعز بن باديس بعد حروب بينهما، مات حماد سنة 417هـ.

وصف تخطيط بجاية الجغرافي:

قال ابن فضل الله العمري[1] في تأليفه: **(مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)** يصف تخطيط بجاية: « بجاية مدينة قديمة وقد أضيف إليها حي بقربها، يحوط بها سور واحد بحيث صارت المدينة والربض مدينة واحدة، وأما الحي فإنه في السهل أو الوطا، أما المدينة فإنها جبلية، ومن البحر نجد الشاطئ الذي تدخل منه البواخر إلى المدينة، وللمدينة عينان واحدة عظيمة [2] يسقى منها سكان البلدة... وعلى بعد ميلين من المدينة يوجد نهر وعلى حافتيه توجد حدائق ومساكن طوال حافتي الوادي بنحو 12 ميلا، وهذه البناءات متلاصقة الواحدة قرب الأخرى لا يفصل بينها إلا الطريق المؤدية للمساكن، ومصب هذا الوادي في البحر الأبيض، وفي حافتي الوادي ـ أي الشرقية والغربية ـ توجد حديقتان للملك، فالحديقة الشرقية ـ تسمى: الرفيع والربية البديع، يذهب إليهما الملك للاستجمام والراحة »، ثم ختم تعريفه بقوله: « إن بجاية هي ثانية مدن افريقية لا من حيث المناظر والموقع والأهمية التجارية ووفرة المنتوجات فحسب، بل زيادة على ذلك فهي حصينة مزهرة بفضل البواخر التي تتردد عليها وتجلب لها بضائع الدنيا ».ووصف العمري هذا كان قبل سنة 741هـ وهي السنة التي أتمَّ فيها تأليفه .

وإن كل مَن تتبَّع تاريخ بجاية يجدها فقدت كثيرا مِن مكانتها بعد دولة الحماديِّين،

---

(1) ابن فضل الله العمري (700 ـ 749هـ) ترجم المستشرق الفرنسي دومنبين (Demonbyne) القسم الخاص بافريقية إلى الفرنسية، ونشره بعد تحقيقه والتعليق عليه، كما نقد المؤلف وكتابه المستشرق الروسي كرا تشوفسكي.

(2) هي العين الموجودة في توجة (تبعد عن بجاية بنحو 20 كلم) ولا زالت القنوات والحنايا التي تربطها ببجاية من عهد الرومان.

ففي عهدهم نالت بحق ما يسمى بالعصر الذهبي، وقد عرفها في عهدها الذهبي الشريف الإدريسي في **(نزهة المشتاق في اختراق الأفاق)** فقال : « ... ومدينة بجاية على البحر لكنها على جرف حجر ولها من جهة الشمال جبل يسمَّى: مسيون[1]، وهو جبل سامي العلو، ثمَّ عدَّد كثيرا من النباتات[2]، وقال : « ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط، وهي بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة...وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابة، لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير موجود ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران، وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة »، ثم يختم الإدريسي تعريفه بقوله : « ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد، وذلك أن من بجاية إلى ايقجان يوم وبعض يوم، ومن بجاية إلى بلزمة مرحلتان، ومن بجاية إلى سطيف يومان، وبين بجاية وباغاية ثمانية أيام، وبين بجاية وقلعة بشر ـ عمل بسكرة ـ خمسة أيام، وبين بجاية وقالمة ثماني مراحل، وبين بجاية وتيفاش ست مراحل، وبين بجاية وتبسة سنة أيام، وبين بجاية ودور مدين إحدى عشر مرحلة، وبين بجاية

---

(1) جبل امسيون: أو مسيون، كان يطلق على جبل قوراية الحالي، صعب المرتقى وفي أكنافه جمل من النبات المنتفع به في صناعة الطب، مثل: شجر الحضض.

(2) كان الإدريسي من كبار علماء الطب، وقد ألف كتبا كثيرة في الطب والصيدلية منها: **(جامع الصفات لأشتات النبات)** توجد منه نسخة مخطوطة في اسطنبول، تعرَّض فيها لخصائص النبات وبعض لحوم الحيوانات والأسماك، حتى أن ابن البيطار ذكره واستدلَّ به عشرات المرَّات.

والقصرين ستة أيام، وبين بجاية وطبنة سبع مراحل » هذا ما عدا المدن الهامة التي كانت بين هذه المحطات كمجانة ونقاوس وقسنطينة ... الخ.

وقد صدق ابن الفكُّون ولم يبالغ عندما وصف بجاية إذ ذاك بعد الأبيات المذكورة قبل، وقال :

والنهر كالصل والجنات مشرفة	والنهر والبحر كالمرآة وهو يد
فحيثما نظرت راقت وكل نوا	حي الدار للفكر للأبصار تتقد
ان تنظر البر فالازهار يانعة	أو تنظر البحر فالأمواج تتطرد
يا طالبا وصفها ان كنت ذا نصف	قل جنة الخلد فيها الأهل والولد

وقد مر عليها وأقام فيها الرحالة خالد البلوي في المدة التي وصفها فيها ابن فضل الله العمري، أي حوالي 730هـ فقال في رحلته **(تاج المفرق في تحلية علماء المشرق)** [1] قال: « بجاية قدرها خطير، وذكرها في كل زمان يطير، يمتد أمامها بسيط أخضر مد البصر، قد أجرى الله فيه عذائب الماء تسقيه، وتضرب في نواحيه، كأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد، محفوفة بالزمرد العسجد، والبساتين ملتفة الأشجار، يانعة الثمار، والنهر الأعظم ينساب بين يديها، قد انعطف عليها انعطاف السوار، والحدائق تنتظم بحافتيه وتفيء ظلالها الوارفة عليه، فهي النظيرة الروح، الخضرة الريحان والروح، العذبة الأنهار، الجنية الأزهار، الطيبة الهواء، المسترقة الأضواء، التي اجتمعت عليها الأمراء وسلم لها اللواء، وشيد لها البناء، وبعد لها الصيت المجدد والثناء، وانتظم فيها من الوادي والبحر، قلادتان على ذلك النحر».

هذه لقطات تعطينا نظرة إجمالية على تخطيط مدينة بجاية وأرباضها في عهد دولة

---

(1) لا زالت هذه **(الرِّحلة)** مخطوطة في عدة خزائن: الجزائر، تونس، الرِّباط، واستدلَّ به عشرات المرَّات.

بني حماد، ثم في عهد دولة الموحدين، والقسم الأول من العهد الحفصي، وقد علمنا أن دولة بني حماد قضى عليها الموحدون، وكان من الصدف أن مؤسسها المهدي بن تومرت الذي وضع أول لبنة لدولة الموحدين، وضع تخطيط دولته ببجاية، لما مر عليها في رجوعه من رحلته العلمية إلى المشرق حوالي سنة 510هـ وذلك في عهد ملكها العزيز بالله بن المنصور بن الناصر بن علناس المتوفى سنة 518هـ.

كان المهدي صلبا قوي الجأش يغير المنكر بيده ولسانه، فانتصب للتدريس بجامع الريحانة ببجاية، فالتف حوله طلبة العلم واشتهر في الأوساط العلمية، لكن رجال الأمن ضاقوا ذرعا بنشاطه، فضايقوه، وحاولوا إلقاء القبض عليه، فالتجأ إلى حصن ملالة [1] الذي يبعد من بجاية بنحو 10 كلم، وفي ملالة اجتمع بقائديه العظيمين عبد المؤمن بن علي ـ الذي خلفه ـ ومحمد البشير الونشريسي ـ الذي تولى قيادة جيش الموحِّدين ومات في المعارك الأولى بالمغرب ـ وفي ملالة وضع تخطيط الثورة الموحِّدية التي أحدثت دويا وهزات عنيفة بالمغرب والأندلس، ودكت عروشا، ومحت دولا كان من جملتها دولة بني حماد ببجاية التي كان يرأسها إذ ذاك يحيى بن العزيز بالله آخر ملوك دولة بني حماد وذلك سنة 547هـ ، إلا أن عبد المؤمن أظهر الشَّهامة والنُّبل فلم يشمت بيحيى الحمادي ملك بجاية [2].

(1) **ملالة**: تطلق الآن على ناحية بتمامها تشمل عدَّة قرى وقد أمكننا الاهتداء إلى موقع القرية التي كانت في عهد المهدي بن تومرت حيث لا زال بها مسجد ـ لا شك أنه بني على أنقاض المسجد العتيق ـ وذلك أن بقرب المسجد يوجد ضريح ينسب إلى يحيى أبي زكرياء، وقد قال الغبريني في ترجمته يحيى أبي زكرياء دفين بجاية: « وما من ناحية من النواحي إلا وله فيها مسجد ومعلم » فاكتفينا بهذه الحجة وحددنا موضع القرية.

(2) ذكر التجاني في (**رحلته**) في موضع مصير يحيى هذا فقال: « فلما كانت سنة ثمان وأربعين وصل= =الخلفية ـ أي عبد المؤمن ـ سلا واستصحب يحيى معه فأسكنه بها في بعض قصور بني عشرة

وكان من الأقدار أن بجاية التي شاهدت تطوين دولة الموحدين ضمت بين جدرانها أيضا أعداءها الذين ساهموا في أول ثورة أعلنت على الموحدين قام بها بقايا الملوك الَّلمتونيِّين، الذين كانوا بجزر ميورقة عمالا لدولة أقاربهم، كانت بجاية منطلق هذه الثورة (سنة 581هـ) التي قضت على دولة الموحدين لخبر يطول.

وقبل مواصلة الحديث عن تخطيط بجاية ومعالمها نذكر نبذة مختصرة من حياة بجاية في الميدان الثقافي والأخلاقي، وقد اخترنا انطباعات بعض الطلاب أقاموا ببجاية في أواخر القرن الثامن وبداية التاسع وهذه الانطباعات لها وزنها، حيث إنها من طلاب عابري سبيل، فالطالب الأول هو محمد بن عمر الهواري دفين وهران (المتوفى سنة 843هـ) وكان من الصدف أن وصل إلى بجاية في نفس الوقت الذي دخلها فيه عبد الرحمٰن بن خلدون الذي دعاه ملكها أبو عبد الله الحفصي لتوليه رئاسة الوزراء (حاجب) وأقام كل منهما سنتين وذلك ابتداء من سنة 866هـ ، وقد نشر انطباعات الهوراي مترجمه محمد بن صعد الأنصاري الأندلسي[1] في تأليفه: (**روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**) فقال: « ... وكان مبدأ قراءة سيدي محمد بمدينة بجاية دخلها بعد صومه بسنة فقرأ سيدي على أعلامها الأجلة، عين منهم الإمامَين سيدي محمد في منظوماته مليئا بالثناء على أهل بجاية، وذكر محاسنهم في الإيثار والصدقات، واشتمالهم على الغرباء وحبهم للفقراء ومحافظتهم في معاملتهم على الربا، وصرح في كثير من كلامه أنه لقي بها جملة من العلماء أهل الصدق والورع أجازوه في

وأقام بسلا إلى أن مات هنالك ودفن في مقابرها الجوفية مما يلي البحر ».

(1) محمد بن أحمد بن أبي الفضل بن صعد الأنصاري الأندلسي ألف كتابه المذكور بأمر من ملك تلمسان المتوكل على الله الزياني وخصَّه الهواري وتلامذته، وتوفي المؤلف بالقاهرة سنة 901هـ أما ابن صعد الأنصاري دفين تلمسان فإنه والد المؤلف.

جميع العلوم، وفي نظمه المسمى بالتسهيل قوله [1]:

لـو وصـفت لـك مـا رأيـت في بجايـــة وهـــي هيـــا

بلـــد الـــورع والعلـــم وترابـــــى حقيقيـــــا

أما الطالب الثاني فهو عبد الرحمٰن بن مخلوف الثعالبي دفين الجزائر (المتوفى سنة 865هـ) ذكر في فهرسته التي ضمنها رحلته في طلب العلم فقال:... ثم تناهت بي الرحلة إلى بجاية فدخلتها عام اثنين وثمانمائة فلقيت بها الأئمة المقتدى بهم في علمهم ودينهم وورعهم أصحاب الشيخ الفقيه الزاهد الورع أبي زيد عبد الرحمٰن بن أحمد الوغليسي[2]، وأصحاب الشيخ أبي العباس أحمد بن إدريس، وهم يومئذ متوافرون أهل ورع ووقوف مع الحدود، لا يعرفون الأمراء ولا يخالطونهم، وسلك أتباعهم وطلبتهم مسلكهم رضي الله عنهم أجمعين .

وأحمد بن إدريس الذي أخذ عنه الهواري وأخذ عن تلامذته الثعالبي أخذ عنه أيضا ابن خلدون إلى قال عنه في معرض حديثه عن القاهرة: « وسألت شيخنا أبا العباس أحمد بن إدريس كبير العلماء ببجاية ... الخ».

ولنرجع إلى تتمة الحديث عن تخطيط مدينة بجاية التي كانت لسوء طالعها من المدن التي ابتليت باحتلال الأسبان، والأسبان كما هو معلوم عند كل المؤرخين المسلمين والأجانب، خربوا واتلفوا معالم كل مدينة إسلامية وقعت تحت قبضتهم، خصوصا المساجد والكتب، وقد جمعوا من آثار بجاية حمولة 30 سفينة وأرسلوها

---

(1) إن الهواري وان كان من أكابر علماء زمانه حيث قرأ ببجاية ثم واصل رحلته في طلب العلم إلى فاس والقاهرة والقدس إلا انه لم يؤلف إلا باللغة الدارجة.

(2) عبد الرحمٰن الوغليسي تلميذ ابن إدريس وله عدة تأليف منها الوغليسية في الفقه كما له عدة فتاوى نشرها صاحب (الدرر لمكنونة في نوازل مازونة).

هدية إلى الملك، لكن لاقت في طريقها عاصفة أغرقتها عن آخرها، وقيل: إن بعض قادتها نجوا من الغرق.

وقد ذكر خراب بجاية كثير من المؤرِّخين، وفي طليعتهم المؤرِّخ الأثري الفرنسي جورج مارسي[1] الذي قال في الموضوع : « إن إسبانية جرَّدت في عهدِ احتلالها لبجاية جميع المعالم والآثار التي امتازت بها بجاية طيلة قرون وصارت تعرف بعاصمة العلم والفن والحضارة ».

أعقب هذا الاحتلال اتخاذ الجزائر عاصمة الدولة التركية فأهملت بجاية وصار الأتراك يتخذونها مشتى للأسطول الحربي الذي كان بمرسى سيدي يحيى والأسطول التجاري المحلي بمرسى دار الصنعة، وقد امتد ذلك الإهمال إلى زماننا هذا، اعتمد أكثر من كتب عن تاريخها على ما اختارته المصادر الفرنسية، حتى إدارة الآثار، فإنها نشرت كتابا مزخرفا في تاريخ فنها المعماري أخيرا، فلم تزد شيئا عما كان معروفا في عهد الاحتلال من المصادر الفرنسية، ثم إن كثيرا مِن كتَّابِنا اعتمدوا على ما كتبه المؤرخ الفرنسي **فيرو**، وإننا نعترف لبحوث **فيرو** بجوانب مفيدة لا شك، إلا أنه مزج بين التاريخ والأساطير، ومن جملة الأساطير ما زوَّره كاتبان بجائيان، أحدهما إبراهيم المريني صاحب كتاب (**عنوان الأخبار**)، والثاني المعروف بالحفصي البجائي، وإن وجدنا المريني مجهولا عند قدماء البجائيِّين فإن الثاني معروف عندهم، إذ لا زالت آثاره منتشرة في بجاية وضواحيها، كان البجائي هذا خطَّاطا، فاستعمل هذه الموهبة الفنية في تزوير العقود، وأعمدة النَّسب الملفَّقة الجامِعة بين المتناقِضات، فيذكر في العقد ويجمع

---

(1) ابن خلدون (**المقدمة**) ولا زال معهد أحمد بن إدريس المذكور قرب العزازقة وقد ألف عدة تأليف نقل منها ابن عرفة وغيره.

فيه بين عالم القرن السابع والتاسع، ويذكر النكرات ... الخ[1].

وقد أمكنه أن يضلِّل الجنرال **بايلي** صاحب كتاب **(تاريخ آثار قلعة بني حماد)** خصوصا في صور دنانير دولة الموحدين ودنانير الموحدين موجودة في متاحف العالم، ويرجع فضل انتشارها إلى بجاية، حيث وجدت جرة تحتوي على مائتي دينار بأساس بعض دور حي اللؤلؤة بعد الاحتلال الفرنسي، فوزعت تلك الدنانير على معظم متاحف المغرب العربي وفرنسا وأوروبا.

وإن نقل فيرو عن الكاتبين المذكورين، خصوصا فيما يتعلق بمعالم البلدة جعله يجمع بين المتناقضات، ولنضرب لذلك مثلا واحدا، قال يصف هذه المعالم بعد الاحتلال الاسباني ما لخصه: « ان الأسبان لما ضايقهم البجائيون بنوا سورا يمتد من برج موسى ـ الذي بني على أنقاض قصر الكوكب ـ إلى قصبة البلاد بعد مروره على جنان الرفيع ... الخ »، وإن الذي اطلع على الوثائق الأصيلة المتعدِّدة يجدها متَّفِقة على أن حديقة ـ رافع ـ كانت على حافة وادي بجاية.

ولنعد إلى ما قاله ابن فضل الله العمري: «... وعلى بُعدِ ميلين مِن المدينة يوجَد نهر، وعلى حافَّتَيه توجَد حدائق ومساكن، وطول حافتي الوادي بنحو (1) ميلا... »، إلى أن يقول: «... وفي حافتي الوادي توجد حديقتان للملك، فالحديقة الشرقية تسمَّى: الرفيع ... الخ».

فكيف يتأتَّى مرور السُّور على هذه المسافة لولا تساهل المؤرِّخ في نقله لمصدر مزور، كما ذكر **فيرو** أشخاصا ينتمون إلى الحفصيِّين ساعدوا عرُّوج عند محاولته

---

(1) كانت عقوده التي حرَّرها للأفراد الذين ينسبهم إلى الشَّرف، فذكر أفرادا ينسبهم إلى بلدان متعدِّدة، ويخلع عليهم ألقاب القضاء والوزراء، وهم نكرات، ويظهر جليا أنه ارتجل أسماءهم.

لاحتلال بجاية، وقد اتفق المؤرِّخون بأنَّ بجاية التي كانت خاضِعة لأميري آل المقراني وأحمد بن القاضي الزَّواوي صاحب جبل كوكو هما اللذان ساعدا عرُّوج إذ ذاك ـ خصوصا أحمد بن القاضي ـ فإنه لم تَقتصر مساعدته على إمداد عرُّوج وخير الدين على استرجاع بجاية، بل على احتلال الجزائر كلِّها، وقد اتَّصل بعروج عندما كان بجيجل، وعرض عليه مُساعدته في احتلال العاصمة، كما اتفق جميع مَن ترجم لأحمد بن القاضي هذا بأنه هو الذي اتَّصل بعروج وخير الدين، بل مِنهم مَن قال إنه كاتَب الخلافة العثمانية على ذلك.

ومما يلحقُ بالأساطير التي ألصِقت بتاريخ بجاية هي أسطورة تنبُّؤات سيدي التواتي[1] وإطلاعه الملك الناصر عليها، وهذه الأسطورة لا يخلو منها كِتاب مِن كتب تاريخ بجاية المعتمدين على المصادر الأوروبية، وسيدي التواتي هذا مِن علماء القرن التاسع، ولا زالت بعض تآليفه.

ولنرجع مرة أخرى إلى معالم مدينة بجاية التي اعتمدنا فيها على بعض المصادر الأصيلة التي ذكرت منها نتف في معرض ذكر بعض أحداث البلدة، منها ما ذكره الغبريني في (**عنوان الدراية**) عندما ترجم للشاعر البجائي أبي الطاهر عمارة الشريف والد الشاعرة الأديبة عائشة البجائية، المتهم بمدح بني غانية عندما احتلوا بجاية، وعقد فصلا هاما تعرض فيه لاحتلال بجاية إذ ذاك فقال: «إن بجاية كانت بلدة غزاة، وكان غزاة قطعها يدخلون إلى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ويسوقون السبي الكثير منها، وينزل الناس لشرائه بحومة المذبح من جهة ربضها، وهناك يخمس ويقع الفصل فيه، ولم يزل الحال على ذلك، وبلغ الحال من كثرة سبي الآدميِّين، أن يباع بيضا وأن من

(1) بينما لم يوجد ذكر التواتي في كتب التراجم التي خصَّها مؤلفوها لعلماء القلعة وبجاية ابتداء من تأسيسها.

الروم بسوداء من الوحش وكانت أجفان إسحاق بن غانية بجزيرة ميورقة، وهو بقية الَّلمتونيين»، إلى أن قال ـ : «إن ولدي إسحاق، وهما: علي ويحيى وصلا إلى شاطئ بجاية بمحل بيع السبي منها وكانت البلدة شاغرة من الجيش[1] فتلقاهم الناس على عادة تلقيهم لأهل السبي فنولت الخيل معدة، ولما وصلت له مستعدة، والناس ما عندهم من شانهم خبر، فطلعوا على جبل الخليفة ودخلوا من باب اللوز إلى قصبة البلد وتملكوا البلد»، هذا ما قاله الغبريني، وهو وصفٌ جلي ـ على قلّته ـ لبعض معالم المدينة يحدِّد لنا موقع الريف الذي ذكره أولا ابن فضل الله العمري، وقال: « إنه أضيف إلى المدينة ... بحيث صارت المدينة والريف مدينة واحدة »، ثم بيَّن العمري موقع الرِّيف فقال: « و أما الحي ـ الريف ـ فانه في السهل أما المدينة فإنها جبلية ... الخ »، فنزول بني غانية بشاطئ الريف أسفل القصبة الحالية حيث وجدت آثار دار الصنعة ومن هناك طلعوا على جبل الخليفة أي على حي سوق الخميس، الحالي حيث مروا على جبل الذي لا زال يحمل اسمه وهو عبارة عن المقبرة العتيقة التي حاول الفرنسيون مرارا أن يحدثوا فها حيا لتوسيع البلدة، وتعرض السكان، واحتجوا احتجاجات صاخبة وكلفت عدة لجان بحث من طرف الحكومة المركزية لتسوية المشكل، وبقي الجبل على حالته، ومن الجبل دخل اللمتونيون أو الميورقيون ـ بنو غانية ـ على باب اللوز التي لا زالت آثارها ولا زال حي الناحية يحمل اسم (حومة باب اللوز) ومن باب اللوز ذهبوا إلى قصبة البلاد التي هي ما يسمى الآن بـ: **(برج موسى)**، و**(فور بارال)** في العهد الفرنسي، وهذا البرج أو الحصن هو الذي بناه الأسبان على أنقاض قصر الكوكب واتخذه قائد الجيش الاسباني حصنا، وفيه تحصن عندما حاصره صالح باي، ولما طال الحصار من

(1) قيل إن الجيش كان برفقة العامل أبي الربيع الموحدي في طريقه إلى تلمسان (بلغه الخبر وهو بنواحي مليانة) كما أن الاحتلال وقع يوم الجمعة ووقت صلاتها.

دون جدوى تسلَّق بعض المجاهدين سلما من حبال إلى أعلى السور، فقتلوا عن آخرهم إلا أنهم أعطوا المثل للبقية، فتعلق كل فريق سلما فانفك الحصار، وسقط الحصن، واعترافا للشهداء السبعة الذين ضربوا أروع مثل في الفداء، أقام لهم صالح باي روضة قرب القصر، ولا زال حمام بسيط يحمل اسم: (حمام الرجال السبعة)، رمزا للشهداء المذكورين، أما القصبة الحالية فإنها حديثة، وكذلك مسجدها فإنه بني في عهد مصطفى باشا حوالي 1212هـ، ولو كانت هي المعنية بالأمر، لما كان طريقها على باب اللوز، وجبل خليفة، كما أن الجامع العتيق أو الجامع الأعظم كان قرب القصر على العادة المتَّبعة في البلاد الإسلامية، خصوصا في بلاد المغرب، حيث إن المسجد يبنى قرب القصر الملكي، ولا يعقل أن الناصر بن علناس لم يبن مسجده الجامع قرب قصره، أما قصر اللؤلؤة والمسجد الأعظم الذي كان مساميا له فيمكن أن المنصور لما أسس القصر بنى بقربه مسجدا ثانيا، وقد كانت مساجد بجاية إذ ذاك تربو على الخمسين، وقد وصف موقع الجامع الأعظم ببجاية الرحالة العبدري فقال: « ولها جامع عجيب منفرد في حسنه غريب، من الجوامع المشهورة، الموصوفة المذكورة، وهو مشرف على برها وبحرها، فهو غاية في الفرجة والأنس، ينشرح الصدر لرؤيته وترتاح النفس، وأهلها يواظبون على الصلاة فيه مواظبة رعاية، ولهم في القيام به تهمّم وعناية، فهو بهم مأهول وعامر، يتخلل أنسُه مسلكَ الأرواح ويخامر».

فهذا التعريف يجعلنا نرجح وجود الجامع الأعظم في ساحة قصر الكوكب الذي كان ملاصقا ومتصلا بحومة باب اللوز [1] التي احتفظ باسمها وموقعها إلى يومنا هذا، أما قصر اللؤلؤة الذي أنشأه المنصور بعد اتخاذ بجاية عاصمة المملكة بدلا من القلعة

(1) فحومة باب اللوز وحومة اللؤلؤة (الشَّرشور) هما الحيان الرئيسيان للبلدة اليوم، أي فيهما جل أماكن البجائيِّين القدامى.

وخلده الشاعر ابن حمديس الصقلي بوصفه الرائع وزاد ابن خلدون فقال فيه: « إنه من أعجب قصور الدنيا »، وابن خلدون كان أعرف الناس بها، فهو بحي اللؤلؤة الذي كان داخل باب امسيون، وباب امسيون معروف الموقع حيث خلَّده ضريح أبي علي المسيلي الذي قال عنه مترجموه إنه دفين مقبرة خارج باب امسيون، ولا زال من المزارات البجائية، وحومة اللؤلؤة هي حومة الشرشور الحالية بدليل ما ذكرناه مِن تحديد باب امسيون، ووصف عدَّة معالم بالحي المذكور بأنَّها داخل باب امسيون، وموقعها الحالي قرب قشلة ـ معسكر ـ بريجا عند آثار باب حي الزياتين المؤدِّي إلى باب المرسى الذي لا زالت آثاره، ثم إنَّ كثيرا من سكان حي الشرشور مِن الأُسَر البجائية القديمة لا زالوا يحتفظون بعقود أملاك تثبت هذه التَّسمية، ويؤيِّد ذلك الورتلاني في (**رحلته**)، فإنه ذكر زيارته لبجاية، وبعد أن حدَّد مقبرة جبل خليفة التي زارها بعدما زار ضريح عبد الحق الفجيجي الموجود إلى الآن بسفح جبل خليفة بسوق الخميس (تُنوسِيَ اسم السُّوق، وبقيَ اسم الخميس مجرَّدا)، وصف الورتلاني في (**رحلته**) زيارته لبجاية وبعدما ذكر أنه زار مقبرة جبل الخليفة قال إنه دخل للبلدة وزار خلوة الشيخ عبد القادر، وبقربها خلوة أبي العباس السَّبتي ـ دفين مراكش ـ وهما قرب برج اللؤلؤة، ثمَّ زار ضريح المرجانة[1]، ثمَّ الجامع الأعظم القديم القريب مِن تلك الخلوة، ومن البرج المذكور »، يظهر لنا مِن هذه الفقرات أن خلوة الشيخ عبد القادر التي وصفها الورتلاني كانت داخل حي اللؤلؤة وليست هي الخلوة الحالية، إذ جامع المرجانة وبرج اللؤلؤة وبقايا الجامع الأعظم كانت كلُّها داخل باب امسيون.

وقد احتفظت بجاية بكثير مِن أبوابها، مثل: باب البنود (وهي باب فرقة)، باب البحر، آثار باب اللوز، آثار باب المرسى، آثار باب امسيون ... الخ.

---

(1) كان جامع المرجانة داخل حي اللؤلؤة حسبما ذكره الغبريني، إذ كثيرا ما يصف معالم الحي بوجودها في حي اللؤلؤة أو داخل باب امسيون.

كما احتفظت بآثار مسجد عبد الرحمٰن الوغليسي، وآثار دار الناصر ـ أي المخيَّم الذي بناه الناصر عندما كان بصدد بناء بجاية ـ ثمَّ نجد مِن جملة ما احتفظت به بجاية مجموعة مِن الدَّنانير الذَّهبية ينسبها السكَّان للناصر بن علناس ويسمُّونها: (سلطاني مولاي الناصر) [1]، وهي في الحقيقة لمختلف الملوك والعهود الذين تداولوا حكم بجاية، كـ : الحماديِّين، والموحِّدين، والحفصيِّين، وقد عثر بعد الاحتلال بحيِّ الشَّرشور ـ حي اللؤلؤة ـ على جرَّة عند حفر أساس بيت فيها كمية من دنانير ذهبية ضُربت في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي الموحِّدي، ووزِّعت تلك الدَّنانير ـ التي كانت الأولى مِن نَوعها ـ على متاحِف فرنسا وأوروبا، ولا زالت هذه الدَّار تُعرف بـ : (دار الكنز) (Villa du trésor)، كما احتفظت بجاية بعدَّة مخطوطات مِن تراثها، والتُّراثِ الأَندلسي، بعضها كان في بعض الخزائن المحلية والضَّواحي، والبعض الآخر خارج البلاد، كـ : **(ديوان عبد الحق الإِشبيلي)** الذي أملاه في حياته بجامع بجاية، فإنه توجد منه نسخة بخزانة القرويِّين، قال كاتبه في مستَهلِّه: « أنشدَني الفقيه الحافظ الزَّاهِدُ الإمام المحدِّث الخطيب أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمٰن بن عبد الله الأزدي الإِشبيلي (عفا الله عنه، وعن جميع المسلمين) بجامع بجاية سنة ست وسبعين وخمسمائة ... الخ »، وكان ذلك قبل وفاة عبد الحق بنحو الست سنين، وكان إلى وقت قريب كتاب: **(النُّبذ المحتاجة في ملوك صنهاجة)** ببعض الخزائن المحلية، وقد ذكر صاحب كتاب: **(مفاخر البربر)** نقلا عن كتاب: **(المقتبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس)** لأبي عبد الله بن حماد السَّبتي الذي ترجم فيه لبعض ملوك بني حماد، قال: « ومَن أرادَ الوقوفَ على أخبارهم وسِيَرهم فليُطالع كتاب: **(الدِّيباجة في أخبار صنهاجة)**، وكتاب **(النُّبذ المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة)**،

---

(1) والفضل في بقاء هذه الدَّنانير هو عادة نساء البلدة باتخاذ قلائد مِن هذه الدنانير للتزين.

وكتاب أبي الصَّلت الذي ألَّفه للحسن[1] صاحب المهدية ... الخ».

كما ذكر التجاني في (**رحلته**) عند حديثه عن معالم قابس قال: « قد وافقت قابس فجميع هذه الأسماء القلعة المعروفة بقلعة بنى حماد فاشتملت على معالم تسمى بجميع لك، فالعروسان بالقلعة، مبنى بناه الناصر بن علناس بن حماد، والمنار مبنى مطل عليها، بناه بن الناصر، (وعين سلام) عين بالوادي المعروف بوادي جراوة، وهو من نواحي القلعة، وحيثما ورد شيء من هذه الأسماء في شعر أبي عبد الله محمد بن علي بن حماد، فإنما يعني مباني القلعة، فانه كان معنيا بندب تلك المعاهد كقوله من أبيات:

أين العروسان لا رسم ولا طلل ... و أين ما شاد منه القادة الأول

ومجلس النوم قد هب الزمان له ... بحادث قل فيه الحادث الجلل

وما رسوم المنار الآن ماثلة ... لكنها خبر يجي بها المثل

... الخ».

كما ترجم الغبريني لابن حماد هذا ترجمة حافلة.

فقدت بجاية مكانتها، وودعت مجدها، ومركزها الذي جعلها في مقدمة مصاف عواصم الدنيا، عندما احتلها الأسبان، وقد تركت صورة مصغرة، تنم عن مبلغ حضارتها، التي لم تكن خاصة بطبقة الملوك ومن والاهم، وإنما كانت مظاهر تلك الحضارة تتجلى على السكان كلهم، وقد وصف هذا المظهر بدقة وتفصيل الرحالة الحسن الوزان المشهور بـ : ليون الإفريقي (Léon l'Africain) قال يصف نقاوس إحدى المدن التابعة لبجاية إذ ذاك قال: « **نقاوس**[2]: كانت من أعظم المدن فأهلها كانوا

---

(1) الحسن بن علي آخر ملوك بني زيري الذي حاربه ابن عمِّه يحيى ملك بجاية، وسقطت مملكته والتجأ إلى ابن عمِّه ملك بجاية فأسكنه بالجزائر.

(2) وصف الحسن الوزان نقاوس في عهد احتلال الأسبان لبجاية.

متحضرين، لباسهم شبيه بلباس حضر بجاية، ومنازلهم جميلة، كما كانت لهم ديار ضيافة، ومدرسة داخلية على نفقة الدولة، ومسجد جامع، وكل مسكن له حديقة فيها جميع أنواع الزهور، خصوصا ورود دمشق المختلفة الألوان، وبنفسج وقرنفل، والآس، وغيرها، ومعظم الدور فيها المياه الجارية، وتظهر على أهلها النظافة، والأناقة، لكثرة الحمامات بها، حتى إن المسافرين لا يفارقونها إلا عن مضض، لحسن أخلاق أهلها وكرمهم ... الخ ».

ومن حسن الحظ أن كثيرا من معاهد بجاية انتقلت إلى القرى والجبال المجاورة كما تكونت على أنقاض دولة بجاية دولتان عظيمتان أو إمارتان قويتان، إحداهما بالقبائل الصغرى وكان على رأسها آل المقراني وكانت قاعدتها قلعة بني عباس ثم حولت إلى مجانة، والثانية إمارة ابن القاضي، وقاعدتها جبل كوكو، كانت مواقف سكان هذين الإمارتين، مواقف حاسمة، وقد حاصرتا بجاية طيلة المدة التي كان الجيش الاسباني مرابطا بها، وألجؤوه إلى التموين من أسبانيا أو وهران، كما كانوا لجيش الأتراك بالجزائر أحسن معين، خلاف ما نسبه إليهم بعض المؤرخين ـ إذ كان كثيرا ما يؤدي التنافس بين رؤساء الإمارتين إلى محاولة الاستعانة بالأسبان ـ وقد سجَّلت لها الوثائق الاسبانية مواقف غفل عنها مؤرِّخونا، منها حرب حسن بن خير الدين مع أسبان وهران، فإنه حاصرها عدة مرات وبالخصوص المرسى الكبير وقد كان من الصدف وجود الكاتب الشهير ميكيل دو سيرفانتيس (Miguel de Servantes) بوهران عندما تكررت هجومات الباشا حسن بن خير الدين، زارها في مهمة كلفه بها ملك اسبانيا شارلكان بعد خروجه من معتقل الجزائر، حيث كتب روايته المشهورة دون كيشوط (Don quichotte)، وكانت مهمته محاولة إحداث انقلاب في الأوساط لخبر يطول، حضر الكاتب الاسباني دو سيرفانتيس المعارك بين الجانبين، وسجل انطباعاته في رواية كتب لها الخلود وسماها بـ (الرجل الشجاع) وفي وصفه لهذه المعارك ذكر بتفصيل أدوار

المشاركين لحسن باشا، خصوصا ابن القاضي والمقراني، والرواية وإن كانت خليطا بين الواقع التاريخي والخيالي إلا أنها وصفت هذا الحصار بمزيد من التفصيل، لا يوجد حتى في المصادر الأصيلة، وقد ترجمت إلى عدة لغات، ومثلت على مسارح الدنيا، وخلدت اسم المقراني واسم ابن القاضي وجبل كوكو مع اسم حسن بن خير الدين.

لا يمكننا أن نتعرض للحياة الثقافية بتفصيل في وادي بجاية بعدما انتقلت المعاهد خارج البلدة، وإنما لا يفوتنا أن نذكر أن كثيرا من تلك المعاهد اشتهرت طيلة ثلاثة قرون، وقد امتاز بعضها بالتخصُّص في القراءات، ذكر عبد الكريم بن الفكُّون القسنطيني (988 ـ 1073هـ)[1] في تأليفه: (**منشور الهداية في كشف حال من ادَّعى العلم والولاية**) إن كثيرا من كبار علماء قسنطينة كانوا يشدُّون الرِّحال إلى بلاد القبائل للتَّخصُّص في القراءات، كما ذكر أبو العباس أحمد برناز التركي الحنفي[2] في إحدى (**فهارسه**) أنه أقام مدَّة بِبَنِيى وغليس لأخذ علم القراءات، ثمَّ شاءت الأقدار أيضا أن تكون منطقة بجاية منطلق أعظم ثورة أقضَّت مضاجع جيش الاحتلال الفرنسي.

إن الثورات على جيش الاحتلال كانت متسلسلة، إلا أن أخطرها عليهم كانت ثورة 1871 التي قام بها المقراني بوادي بجاية، وأيَّدها صهره العالم البطل محمد امزيان

---

(1) عبد الكريم الفكُّون: من أكبر علماء عصره، ترجمه العياشي صاحب (**الرِّحلة**)، وكذلك أحمد المقري التِّلمساني في (نفح الطيب) وأشادا بِعلمه وصلاحه.

(2) أحمد برناز: ترجمه ابن الوزير السراج في: **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، طبع الدار التونسية للنشر (ج 1 ص: 78)، وقد ذكر برناز أنه اجتمع عند شيخه مدة إقامته عنده بشيخ شيخه عبد الرحمٰن البلوي صاحب المعهد الشهير بنواحي العزازقة ـ مات برناز سنة 1138هـ بتونس.

أشار بعض المؤرِّخين إلى هذا الحصار إلا أنهم لم يتعرَّضوا لأحداثه كما وقعت وتحدَّث عنها الروائي الإسباني، خصوصا مشاركة ابن القاضي والمقراني.

بن الحداد مِن سوق صدوق ـ ضواحي بجاية ـ وابن الحداد عندما نادى للثورة والجهاد كان عمره يربو على الثمانين سنة، ولما عرض عليه تلامذته ملجأً يأوي إليه لهرمه وانحراف مِزاجه رفض وقال لهم: كيف تتصوَّرون أني أدعو النَّاس للجهاد وأتأخَّر، فسأُقاسِمكم السَّراء والضَّراء، ووفَّى بعهده، وبقي ملازما ومرافقا لهم إلى أن قاسمهم مرارة الهزيمة، وقد سبق له أن ألَّف كتابا قيِّما وصف فيه حالة المجتمع في عهده ـ أي: حوالي سنة 1261هـ ـ ومن جملة ما قال فيه: « وانتشرت البِدَع وفاضَ بحرُها على الأرض كلِّها، فلم تخل بلدة ولا قرية بل ولا بيت من بدع شتى، وشاهدت ذلك بنفسي وفي غيري، إلا مَن عصمه الله بفضله وهم يسير جدا، وخمدت السنة واندَرست رسومها لكثرة الجهل وغلبة اتِّباع الهوى، فانقلبت السنة بدعة والبدعة سنة فأهل السنة غرباء أذلاء، إذا حضروا مجلسا لا يشاورون، وإذا غابوا عنه لا ينتظرون، و أما أهل البدع منهم الرؤساء والولاة والقضاء والعمال في كل الأقطار والأمصار ... الخ ».

وقد حوكم الشَّيخ لدى المحاكم العسكرية وبقي بالسِّجن مدَّة، وفيه توفي سنة 1290هـ.

أبت الأقدار أيضا أن لا تبقى بجاية منفصلة عن الأحداث التاريخية الجسام، حيث إن في إحدى قُراها الجبلية انعقد المؤتمر المشهور في العالم بمؤتمر الصُّومام، وذلك في 20 أوت 1956 قرب **قرية ايغزر امقران** الموجودة في الطريق الرئيسي بين بجاية وأقبو، وفي هذا المؤتمر حدِّد نظام جيش التحرير، ومهام جبهة التحرير لأوَّل مرَّة بعد اندلاع الثورة الجزائرية سنة 1954م.

ولنختم هذه الدِّراسة بأبيات ارتجلها أحدُ أفاضل أدباء **المدينة المنورة** زار بجاية في أول القرن الهجري الجاري وسجَّلها على ظهر مخطوط من (**خزانة جامع بجاية**

الأعظم)[1] قال فيها:

يـا راحلـين وفي قلبـي منـازلهم		هـلا رجعـتم إلى تبليـغ آمـالي
لـئن رجعـتم وخلفـتم بجايـة في		شوق فقـد علقـت مـنكم بأذيـال
يا ساكينها سقى الوسمي أرضكم		فكل غيث غزيـر السـكن هطـال
ولا بـرحتم ينـابيع العلـوم كـما		كانت أوائلكم في عصرـها الخـالي
دوموا عـلى شرف الآبـاء إن لكـم		عـلى البريـة فخـر مسـند عـالي

(1) **جامع بجاية الأعظم** كان بحي اللؤلؤة (حومة الشَّرشور)، وسمِّي بـ **(جامع سيدي الصُّوفي)**، وصار هو الجامع الأعظم ـ أي: جامع الجمعة ـ وبقي جامع حي اللؤلؤة المذكور للصَّلوات الخمس، وقد امتنع سكَّان بجاية مِن ترسيم مساجدهم إثر الاحتلال فكانت على نفقة الشَّعب.

نبذة تاريخية عن ولاية تيزي وزو[1]

هذه الولاية تشمل معظم القبائل الكبرى، أي ما يسمى ببلاد زواوة، وهي على تقسيمها الحالي تحدُّها من الشرق والجنوب الشَّرقي ولاية سطيف، وغربا ولاية عاصمة الجزائر وبعض ولاية المدية (التيطري)، وجنوبا ولاية المدية (التيطري)، وشمالا البحر الأبيض المتوسط.

جوانب من تاريخها الجغرافي:

يرجع تاريخ تقسيمها الجغرافي إلى عهد الرومان، فالرومان الذين حكموا بلاد إفريقيا الشمالية بتمامها (المغرب العربي) من ثلاثينات القرن الأول المسيحي إلى تسعينات القرن الثالث منه، قسموا البلاد إلى أربع دول:

الأولى: إفريقيا وكانت تطلق على الجمهورية التونسية الحالية وعاصمتها إذ ذاك قرطاجنة.

الثانية: نوميديا وكانت مساحتها تمتد ما بين طبرقة ووادي بجاية وعاصمتها سيرتا (قسنطينة).

الثالثة: موريطانيا القيصرية « السيزارية » من وادي بجاية إلى وادي ملوية ـ حدود المغرب ـ وعاصمتها شرشال.

الرابعة: موريطانيا التنجيتانية (Mauritanie Tingitane) وهي المملكة المغربية الحالية وعاصمتها طنجة.

---

(1) ملتقى الفكر الإسلامي، الملتقى السابع: 1973م، تيزي وزو، ج/ 5، ص: 2255 ـ 2271.

كانت هذه الناحية -أي بلاد القبائل- تابعة في أول عهدها الروماني لنوميديا، وكان حاكمها ماسنيسا يتمتع بالاستقلال الداخلي، وبعد ثورة يوغرطة حول حكمها إلى موريطانيا السيزارية (شرشال) بدلا من نوميديا، وصارت تحت حكم روما المباشر بدلا من الاستقلال الداخلي.

كانت بلاد القبائل قطعة من قبيلة كتامة الممتدة من دلس إلى القالة، وبعد تداول الدول الفاطمية ثم بني زيري وانتقال عاصمة الحماديِّين من القلعة إلى بجاية بقيت بلاد القبائل تابعة لحكم بجاية في عهد الحماديِّين ثم في عهد الموحدين فالحفصيِّين، وفي أواخر العهد الحفصي احتل الأسبان بجاية وذلك في سنة 917هـ الموافق لـ 1510م، فعندئذ تكونت، بلاد القبائل دولتان أو إمارتان، القبائل الصغرى وكان يتداول حكمها آل المقراني وكانت قاعدتها قلعة بني عباس ثم مجانة، والإمارة أو الدولة الثانية دولة آل ابن القاضي وكانت تحكم بلاد القبائل الكبرى وقاعدة الحكم جبل كوكو، كان مؤسس هذه الدولة الشيخ أحمد بن القاضي الزَّواوي قاضي بجاية في عهد الحفصيِّين ولعب دورا خطيرا، حيث كان المتسبب في احتلال عروج وخير الدين للجزائر وطرد الأسبان، والمؤرخون متفقون على هذا إلا أنهم اختلفوا في كيفية الاتصال فمنهم من قال بأنه كاتب الخليفة العثماني عندما رأى البلاد مهددة بالخطر الصليبي، والحقيقة أنه سهل على عروج لما كان بجيجل الدخول إلى العاصمة ـ الجزائر ـ وكان معه سالم بن التومي الثعالبي أميرها إذ ذاك، ولما احتل الأتراك الجزائر أساءوا به الظن وبرفيقه سالم بن التومي، فقتل عروج سالم بيده وتحارب مع أحمد بن القاضي إلى أن قتل في بعض المعارك بثنية عائشة.

إن ابن القاضي كانت بينه وبين جيرانه آل المقراني منافسة الجوار، ولما صهر الأتراك المقراني وكانوا يستعملون سياسة التَّفرقة، أوقدوا نار الفتنة واتَّهموه بموالاة

الأسبان، فكانت الحرب التي لقي فيها حتفه، وتوارث حكم الإمارة بعدَه أفراد أسرته إلى أواخر العهد التركي، بخلاف ما ذهب إليه بعض المؤرِّخين مِن أن الإمارة ذهبت مع مؤسِّسها، وهذا الحسين الورثلاني (1125ـ 1193) ذكر في (**رحلته**) أنه لما وصل إلى جامع الصَّهاريج بالقبائل الكبرى، قال: «ونزلنا عند المعظَّم سيِّدي محمد بن القاضي الشريف سلطان زواوة وعاهدنا[1] على الحج ومشى معنا ثم مات (رحمة الله عليه) بعد خروجنا من المدينة المشرفة ودفن بباب الينبع في شهر محرم سنة 1180» .

كان الحكم التركي ببلاد القبائل صوريا، وكثيرا ما كان الأتراك يكتفون بتعيين بعض القواد وفرض الضرائب الرمزية، وفي الحقيقة كانوا هم الذين يسترضون بعض القبائل بالعطايا، ومن ذلك ما ذكره المؤرخ مرسي(Mercier)في كتابه: (**تاريخ إفريقيا الشمالية**) (Histoire de l'Afrique Septentrionale) .

قال: «وفي صيف 1823 ثار قبائل بني عباس واحتلوا **البيبان** ـ الممرُّ الرئيسي بين الجزائر وقسنطينة ـ ومنعوا الجيش التُّركي من المرور، وذلك لسبب أنَّ باي قسنطينة تعهَّد لهم بدفع خمسمائة كبش سنويا، وتأخَّر في تلك السنة عَن مَوعده، فثاروا على الأتراك، ودامت هذه الثَّورة ما يقرب مِن سنتَين، هاجم أثناءها قبائل بني عباس بجاية وقتلوا واليها »، لخبر يطول.

كان سكان هذه المنطقة باتفاق معظم المؤرخين أباة الضيم، يثورون المرة بعد المرة على الحكام كيفما كانت أجناسهم ودياناتهم ونظام حكمهم، اعترف لهم الفينيقيُّون بالاستقلال الداخلي طيلة عهدهم[2]، وتقربوا إلى رؤسائهم بالمصاهرة، وكذلك

(1) إن الورثلاني لما عزمَ على الحجِّ عقدَ رحلةً إلى القبائل الصُّغرى والكُبرى ليدعوَ الناسَ إلى الحجِّ حسب العادة المتَّبعة إذ ذاك.

(2) ذكر ذلك بتفصيل المؤرِّخ ستيفان غسيل (Stéphane Gsell) في (**تاريخه**) الذي خصَّصه للإمارات البربرية بين عهدي قرطاجنة وروما.

الرُّومانيون في أوائل عهدهم، إلا أنهم بعد ثورة يوغرطة نكصوا على أعقابهم، واستبدلوا الاستقلال بالحكم المباشر، ولهذه الأسباب ثاروا عليهم عندما أتيحت لهم الفرصة للانتقام.

لم يشر أي مؤرِّخ إلى هذه الثورات التي وقعت ابتداءً من سنة 253م ودامت إلى سنة 260م، ثمَّ من سنة 290 إلى سنة 297م، وتعرَّض لها مؤرِّخو العهد الروماني منهم **كاط** (E.CAT.professeur de l'Ecole Supérieure d'Alger) في كتابه: **تاريخ الشمال الإفريقي** (ج/1، ص: 85)، قال: إن البرابرة اغتنموا فرصة خلافات حكَّام روما فثاروا عليها سنة 253 .

وكانت ثورة خطيرة، وإن لم يتحدَّث عنها المؤرِّخون إلا أنَّ نقوش الحفريات التي عثر عليها في عدَّة جِهات ـ خصوصا في حفريات سور الغزلان، ومدينة تازولت لامبيز ـ دلَّتنا عليها، فمِن جملة الثوَّار نجد سكَّان جبال بابور الذين كانوا يسمَّون بابار (Babares)، وسكَّان جبال القبائل الكبرى الذين كانوا يسمَّون: (Quinquegentiens) كانكوجونتيان ، ثم ذكر قبائل أخرى فقال: «إن هؤلاء الثوار كان يقودهم أربعة رؤساء يسمَّون ملوكا، وكان الثَّائرون من القبائل الكبرى والصُّغرى، فقصدوا مدينة سور الغزلان، وبعد حِصارها قاومهم (Q.Gargilius Martialis) قائد البلدة، فانهزم الثوار وعلى رأسهم القائد البربري فراكس (Farax)، ثم تابع قائد السور (Martialis) سَيره نحو جِبال بابور ليلتقي مع زميله ماكرنوس دسيانوس (Macrinus Decianus) رئيس نوميديا، إلا أنه لم يصل إليه، فقتله الثوار في معركة، وكان هؤلاء الثوار راجعين مِن تخريب ميلة ... الخ »، ثمَّ تجدَّدت هذه الثَّورة بعد سنوات ـ أي: سنة 290 ـ ولم تنته طيلة سبع سنوات، إلى أن جاء إمبراطور روما نفسه لمحاربة القبائل الكبرى، وقد سجِّل هذا الانتصار بنصب تذكاري وُجِدَ في حفريات كنيسة بجاية بعد الاحتلال

الفرنسي، ثمَّ تعرض **كاط** إلى التَّقسيم الإداري الذي وقع إثر إخماد نار الثورة، وختم حديثه في الموضوع بقوله: «الإمبراطورية الرومانية كانت تحسُّ أنها مهدَّدة في كلِّ جهة مِن البربر، وقد بذلت نهاية الجهود لإنقاذها من الخراب العاجل »، وهذا نص مقاله:

«L'Empire romain se sentait partout menacé par les Berbères et on faisait les derniers efforts pour le sauver d'une ruine umminente».

كان الرُّومانيون في عهدهم خططوا طرقا كتب لها الخلود، فمن ذلك الطرق التي تشق القبائل الصُّغرى والقبائل الكبرى ثم قبائل الحدرة.

كانت هذه المنطقة في أواخر العهد التركي وفي أوائل عهد الاحتلال الفرنسي تعرف بهذا التقسيم:

القبائل الكبرى: ولاية تيزي وزو الحالية.

القبائل الصغرى: وادي بجاية.

قبائل الحدرة: من جبال بابور حيث توجد إيكجان ـ مركز انطلاق الدعوة الفاطمية ودولتها ـ ببني عزيز قرب مدينة جميلة الأثرية، وتمتدُّ إلى الميلية وجيجل، وبعض أهلها ينتمون كبقية القبيلتَين إلى العنصر البربري الكتامي، إلا أنهم تعرَّبوا بخلاف القبائل الصُّغرى والكبرى فقد احتفظوا بلغتهم الأَصلية.

فالطريق التي كانت تربط بين بجاية ودلس وتشقُّ بلاد القبائل الكبرى، إذ تمرُّ على قصر كبوش، فجامع الصهاريج، فتورقة، ثم دلس، هي التي بقيت في العهد الإسلامي تمرُّ عليها القوافل، وآخر مَن سجَّل المرور على بعض مدُنها الرَّحَّالة الورثلاني حوالي 1180هـ.

كما تحدَّث الرحَّالان الشَّهيران: البكري والإدريسي، على الطريق السَّاحلي ومدُنها كما سنبيِّنه.

ثم الطريق التي تشقُّ القبائل الصغرى ـ أي: من بجاية إلى سور الغزلان ـ وتمرُّ على

تيكلات، آقبو، مشدالة، سور الغزلان، فإنها بقيت مُستعملة إلى أن جدِّدت في العهد الفرنسي، والثالثة التي تشقُّ قبائل الحدرة ـ وهي المعروفة الآن بالطريق السَّاحلية ـ التي تربط بجاية بجيجل، وتمرُّ على زيامة المنصورية.

ذكر الإدريسي الطريق الساحلية التي تربط عاصمة الجزائر ببجاية فقال: «من الجزائر إلى تامدقوس شرقا 18 ميلا، ومن تامدقوس إلى مرسى الدَّجاج 20 ميلا... ومدينة مرسى الدَّجاج كبيرة القطر، لها حِصنٌ دائر، وبشرها قليل، وربما فرَّ عنها أكثر أهلها في زمنِ الصَّيف خوفا مِن قصد الأساطيل إليها ـ كالنُّورمانيون ملوك صقلية، كانوا يشنُّون الغارات على السَّواحل إذ ذاك ـ ولها مرسى مأمون، ولها أرض ممتدَّة وزراعات متَّصِلة، وإصابة أهلها في زرعهم واسعة، وحِنطتهم مباركة، وسائر الفواكه والُّلحوم بها كثيرة، وتباع بالثَّمن اليسير، والتِّين يحمل منها شرائح طوبا ومنثورا إلى سائر الأقطار وأقاصي المدائن والأمصار، وهي بذلك مشهورة، ومن مدينة مرسى الدَّجاج إلى مدينة تدلس 24 ميلا، وهي على شرف متحصِّنة، لها سور حصين، وديار ومتنزَّهات، وبها رخص الفواكه والأسعار والمطاعم والمشارب ما ليس يوجد بغيرها مثله، وبها الغنم والبقر موجود كثيرا، وتباع جملتها بالأثمان اليسيرة، ويخرج مِن أرضها إلى كثير من الآفاق، ومن تدلس إلى بجاية في البرِّ 70 ميلا، وفي البحر 90 ميلا»[1].

وقد وصف قبله زميله أبو عبيد البكري (المتوفى سنة 487هـ/ الموافقة لـ 1094م) في كتابه: (**المسالك والممالك**) بعض هذه النواحي التابعة لولاية تيزي وزو الحالية، فذكر الطريق التي تربط بين أشير ـ عاصمة زيري بن مناد وولده بلكين ـ ومرسى الدجاج وتمر على حمزة (البويرة) فقال: «**حمزة**: وتُعرف بسوق حمزة، وهي مدينة عليها سور وخندق، وبها آبار عذبة، وهي لصنهاجة، وكان نزلها حمزة بن الحسين بن سليمان بن

(1) من كتاب نزهة المشتاق للإدريسي (548هـ 1154م).

الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، (منها) إلى بني جناد، وهي مدينة صغيرة على جبل، بينها وبين البحر نحو ميل، ومنها إلى مرسى الدَّجاج».

وقد قال البكري في أول تعريفه لمدينة حمزة ما يلي: «وهناك مدينة تسمى حمزة، نزلها وبناها حمزة بن الحسن ... والحسن بن علي هو الذي دخل المغرب، وكان له من البنين حمزة هذا، وتسير من حمزة إلى بلياس وهي في جبل عظيم ومن بلياس إلى مرسى الدجاج ومدينة مرسى الدجاج قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح، وقد ضرب سور من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية، ومن هناك يدخل إليها وأسواقها ومسجد جامعها داخل ذلك السور، له باب واحد، ولها مرفأ غير مأمون لضيقه، وقرب قعره، وبها عيون طيبة يسكنها الأندلسيون، وقبائل من كتامة (وهذا دليل على أن كتامة كانت تمتد من القالة إلى دلس وتجاوز دلس إلى مرسى الدَّجاج التي أظن أنها رأس ماتيفو Cap Matifou) وبشرقيها مدينة بني جناد، وهي أصغر منها ».

وقال البكري في موضع آخر بعد أن ذكر مرسى الجزائر وسماها جزائر بني مزغنى قال: «مرسى الدجاج وهو صيفي ويليه مرسى مدينة بجاية أزلية آهلة عامرة بأهل الأندلس بشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة وهو مرسى مأمون..ومرسى بجاية هو ساحل قلعة أبي الطويل (قلعة بني حماد) وعلى هذا المرسى في تلك الجبال قبائل كتامة وهي شيعة يكرمون من مال إلى مذهبهم ويبرون من وافق اعتقادهم ثم يلي مرسى بجاية سبيبة وعلى مرسى سبيبة في جبل كتامة عين الأوقات (وقد ذكر غرائب لهذه العين)..ثم قال..وعلى هذه المواضع كلها من جبال كتامة معادن النحاس ومنها يحمل إلى إفريقيا وغيرها وبهذا الجبل حجر اللازورد الطيب ».

ثم نجد في أواخر القرن الثاني عشر الهجري الرحالة الحسين الورتلاني يذكر كثيرا من المدن والقرى التي مر عليها بعد أن غادر مسقط رأسه، فمر على تمقرا، ثم قلعة بني

عباس، ثم بوجليل فأولاد سيدي بهلول، فبنى منجلات وبني بترون، وبني عيسى، فدلس.

وعند رجوعه من دلس مر على بني فرواسن وذكر أنها بلاد ابن معطي النحوي صاحب الألفية الذي عناه ابن مالك في ألفيته حيث قال: (فائقة ألفية ابن معطي) ثم جامع الصهاريج (وفي جامع الصهاريج ذكر الورتلاني أنه نزل عند محمد بن القاضي سلطان زواوة)، ثم مرَّ على بني بوشعيب، وبني يحيى، وورجة، ثم تمقرا، فبني ورتلان.

هذه في الجملة الخطوط الرئيسية لتاريخ ولاية تيزي وزو عبر تاريخها الفنيقي والروماني والإسلامي قبل الاحتلال الفرنسي.

تاريخ الولاية بعد الاحتلال الفرنسي:

إن احتلال هذه تأخر إلى أن انتهت مقاومة الأمير عبد القادر أي في 23 ديسمبر 1847.

فعندما ألقى الأمير السلاح، كانت فرنسا تهيمن على بلاد الجزائر بحدودها الحالية، من المغرب إلى تونس، ما عدا بلاد القبائل: الكبرى والصغرى وقبائل الحدرة، أي ما بين سهول متيجة غربا، ومرفأ القل شرقا، ومرتفعات مجانة وسطيف جنوبا.

كانت الحكومة الفرنسية مترددة في الإذن لقادة جيشها على شن هذه الحرب، إذ كان جل جيشها بحروب شبه جزيرة القرم (Crimée)في البحر الأسود في آسيا، ولم تأذن لهؤلاء القادة إلا بعد رجوع الجيش، فدامت حرب القبائل من سنة 1849 إلى 1857، اختار الجيش الفرنسي بعد حصوله على موافقة الحكومة على الحرب، أسهل المناطق الثلاث، وهي منطقة قبائل الحدرة، فهاجمها الكولونيل سانطارنو (Saint Arnaud) وكانت ميادين القتال ما بين ميلة وجيجل ورغم الجهود التي بذلت فقد باء

بالفشل الذريع، وانسحب الجيش الفرنسي، وبقيت الحالة على ما كانت عليه إلى أن عين الماريشال راندون (Randon) واليا عاما بالجزائر من سنة 1851 إلى سنة 1858، وفي تلك الأثناء ظهر في بلاد القبائل الثائر الشهير الشريف بوبغلة وقتل كثيرا من القواد الذين عينتهم فرنسا، اختارت فرنسا الماريشال راندون(Randon) لأنه قضى مدة قائدا عسكريا بالجزائر أي ابتداء من سنة 1838، ثم إنه تولى إدارة الشؤون السياسية بوزارة الحرب التي كانت الجزائر تابعة لها، ثم تولى وزارة الحرب سنة 1850، وقد هيأ خطة لفتح بلاد القبائل والقضاء على الثائر الشريف بوبغلة، وبمجرد وصوله إلى الجزائر سلك طريق روما، فابتدأ بتخطيط وتعبيد الطرق فأحيا الطريق الرئيسية الرابطة بين بجاية ودلس، ثم طريق ما بين مدينة سور الغزلان وسطيف فبجاية، وعندئذ هاجم قبائل الحدرة ثم القبائل الصغرى، فقضى على المقاومة بها، وقد كان سبقه للهجوم على القبائل الصغرى سلفه المارشال بيجو الذي هاجم سنة 1844 قبائل بني عباس فأحرق دورهم، وقطع أشجارهم، إلا أنه لقي مقاومة ألزمته الانسحاب، قضى راندون على المقاومة بالقبائل الصغرى، وبقبائل الحضرة وتتبع خطته الجهنمية في القبائل الكبرى وكان الشريف بوبغلة ظهر حوالي سنة 1850 بالقبائل الكبرى ثم هاجم بجاية سنة 1851 وبعد انتقاله إلى وادي سيباو حاربه الماريشال راندون والماريشال(Pelissis) والجنرال بوسكى (Bosquet) فرجعوا بخفي حنين، ثم استشهد بوبغلة في معركة بسيطة مع السكان بضواحي تازمالت لخبر يطول وذلك سنة 1854، وفي هجومات الوالي العام راندون على القبائل الكبرى ظهرت المقاومة العنيفة لأول مرة في تاريخ حرب الجزائر لم تسبق مشاهدتها للجيش الفرنسي فبهرته، ولما بحث عنها وجدها فرقة المسبلين، وكتب عن نظامها كثير من قادة الجيش، وصرح واحد منهم في مذكراته وتقاريره الرسمية لرؤسائه أن شعبا يوجد فيه مثل هذا النوع من المقاتلين ينبغي أن يقرأ له ألف حساب وللذين كانوا يدعون إلى اتخاذ الاستعمار الانكليزي لبلاد الهند مثلا

يقتدى به قال الجنرال هانطوط: «إن الأمة الجزائرية التي يوجد فيها مثل هذا النوع من المقاتلين لا ينبغي أن نغتر ونشبهها بالهنود » كما بهرت الجيش الفرنسي وعلى رأسه الوالي العام راندون، المجاهدة للا فاطمة نسومر، إذ هي التي كانت تحرض المسبلين والسكان على المقاومة بحيث إن جل من كتب على مقاومة بلاد القبائل الكبرى ذكروا أن المقاومة خفت من وطأتها بل انتهت، عندما وقعت لالا فاطمة نسومر في قبضة الفرنسيين أسيرة.

ففي هذه الحرب وبعد إلقاء القبض على الزعيمة لالا فاطمة أحدثت مدينة تيزي وزو وبني فيها حصن عسكري وذلك سنة 1856، كما أحدث حصن آخر بسوق الأربعاء لبني يراثن سمي بحصن نابليون ثم صار الحصن الوطني (Fort National) بعد انتهاء مقاومة بلاد القبائل الكبرى حوالي سنة 1857 فرضت فرنسا ضريبة مالية فادحة على السكان وأخذت منهم رهائن إلا أنها أبقت نظمهم الداخلية التي جرى العمل بها عندهم منذ قرون منها انتخاب المجالس البلدية والعمالية وتعيين الأمناء وأمناء الأمناء والعوائد في كثير من الأحكام وما إلى ذلك[1].

التقسيم الإداري لولاية تيزي وزو:

وقع هذا التقسيم بقرارين حكوميين الأول مؤرخ في منتصف نوفمبر 1851 بالنسبة إلى منطقة ذراع الميزان، والثاني مؤرخ في أوت 1854 بالنسبة إلى منطقة دلس، وهاتان المنطقتان هما اللتان كانتا تشملان معظم قبائل زواوة الذين تتكون منهم ولاية تيزي وزو الحالية، وقد بقيت قبائل أخرى أضيفت إذ ذاك إلى مناطق برج بوعريريج كبني مليكش وغيرها.

---

(1) ذكر هذا التقسيم الكولونيل Laoust في مذكِّراته المسماة: **(مذكِّرات ووثائق متعلقة بثورة القبائل الكبرى**: 1846 ـ 1857م)، طبع جوردان بالجزائر 1902م.

(Notes et Documents concernant l'insurrection de 1856-1857 de la Grande Kabylie).

منطقة ذراع الميزان:

كانت تشمل مجموعة قبائل قشتولة: فريقات بني اسماعيل، بني كوفى، بني منداس، بني بوغردان، بني بوغدو، مشت راس ايغيل ايمولا، الشرفة الخ، ثم قسمة جرجة التي كان يطلق عليها في العهد التركي (باشا غاليك جرجرة) وتشمل بني صدقة التي كانت بدورها تشمل قبائل بني بوشناشة، اقدال، أولاد علي، أويلول، بني رقان، بني شبالة، بني أحمد، تاقمونت الجديد، ثم مجموعة زواوة أو اتحادية قرى زواوة (Confédération) وهي تشمل قبائل بني يني، بني وسيف، بني بوعكاش، بني بودرار، بني منقلات، بني عطاف، بني بويوسف، ايليتن الخ، ثم جنوب جرجرة الشرقي بني قانى، بني أوعكور ومشذالة.

منطقة دلس:

وكانت تشمل ما كان يعرف في العهد التركي ببشاغاليك وادي سيباو: عمراوة، بني خليفة، بترونة، معاتقة، بني عيسى، بني دوالة، بني واقمون فليسة البحر العزازقة، بني يتورغ بني فراوسن، بني يراثن، بني ثورة تاورقة، يسر، بني يجر، وكانت مدينة تيزي وزو [1] – مركزا عسكريا – تابعة لمنطقة دلس، هذه في الجملة القبائل التي تتكون منها هذه الولاية وقد اشتهر الكثير منها في مختلف مراحل العهود الإسلامية بمراكز علمية ما زالت منها بقايا إلى يومنا هذا تحتفظ بقوانينها الداخلية التي أثارت إعجاب المتخصصين في بحوث تطور التعليم في العالم وذلك كمعهد اليلولي وأحمد بن إدريس وغيرها، ومن يجهل اليوم من رجالات العلم في مختلف بلاد العالم الإسلامي أسماء لامعة كالمشذالي، واليتورغي، والمنجلاتي، والغبرني، واليراتني، والفراوسني،

---

(1) وإنما اختيرت قاعدة الدائرة ثم الولاية لموقعها الجغرافي الذي جعلها وسط القبائل خصوصا وأن دلس التي كانت قاعدة منقطعة ومنعزلة.

واليليتني، وغيرهم فأسرة المشذالي أنجبت كثيرا من كبار العلماء: أبو القاسم المشذالي وولده أبو الفضل الذي انتقل إلى دمشق وملأ ذكره الدنيا، وترجمه تلميذه السخاوي في « الضوء اللامع في بيان علماء القرن التاسع » كما ترجمه جلال الدين السيوطي، وناصر الدين المشذالي الذي أحدث ثورة ثقافية في عهده، تطور بسببها الفقه المالكي وماشى عصره، ونفى عنه الجمود الذي كان يتهم به رجاله، وقد خصه العالم الشيخ الفاضل ابن عاشور قبل وفاته بدراسة قيمة نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، والمنجلاتي الذي أخذ عنه ابن زاكور الفاسي وجاوره سنين وترجمه في كتابه القيم: «نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتيطوان » وقد جدد طبعه أخيرا بالقصر الملكي في المغرب، كما اشتهر كثير من أفراد أسرة المنجلاتي وأسرة الغبريني ومنهم أبو العباس أحمد الغبريني صاحب « عنوان الدراية » الذي ترجم لكثير من علماء زواوة، واشتهرت أسرة الغبريني بكثير من أفرادها توارثوا واستوطنوا تونس، وعبد الرحمٰن الوغليسي[1] المؤلف الشهير وتلميذه عبد الكريم اليتورغي وقد اشتهرت بلاد القبائل بأنها حافظت على علم القراءات إلى العهد الأخير، أي القرن الحادي عشر، وكانت هذه القراءة مشهورة بقراءة زواوة، وقد شد الرحال العالم المقرئ أبو العباس أحمد برناز الحنفي التركي الأصل التونسي البلد شد الرحال إلى بني وغليس للأخذ والرواية عن أحد كبار المقرئين من تلامذة الشيخ عبد الرحمٰن اليلولي وذكر في فهرسته أنه في مدة إقامته ببني وغليس اجتمع عند شيخه بشيخ شيخه عبد الرحمٰن اليلولي، فحقق تاريخ وجود عبد الرحمٰن اليلولي وحدده، توفي أحمد برناز هذا بتونس سنة 1138هـ وترك عدة تآليف.

كما اشتهرت بالقبائل الكبرى زيادة عن القرى المذكورة قرية كانت من أعظم المراكز العلمية وهي قرومة بدائرة الأخضرية قيل: إنها من مؤسسات اللاجئين

(1) قد نقل فتاويه صاحب: (**الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة**)، والونشريسي في: (**المعيار**).

الأندلسيين وقد أنجبت كثيرا من العلماء كما حل بها أفراد من أسرة المقري التلمساني توارثوا العلم فيها إلى عهد الاحتلال الفرنسي، ولم يفارق العلم هذه النواحي، فقد هاجر بعد الاحتلال الفرنسي ثلة من علماء زواوة إلى دمشق صحبة المجاهد الشيخ المهدي السَّكلاوي اليراتني، وقد كان من حسن الحظ أن حظوا بتراجم من معاصرهم الشيخ عبد الرزاق البيطار 1253هـ ـ 1335هـ في تأليفه القيم (**حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**) اقتطفنا منه بعض الفقرات لنستدل بها على أن كثيرا من الباحثين يجازفون في أحكامهم على ذلك العهد ويبالغون في وصمه بالانحطاط وضعف الثقافة... الخ، قال البيطار في ترجمة المهدي السَّكلاوي أستاذ ابن الحَّداد (بطل ثورة 1871)، قال: «وقد أخذ عنه كبراء دمشق وعلماؤها وحكامها وفضلاؤها وأخذ عنه الوزير الكبير والمشير العظيم الخطير أحمد عزت باشا والي دمشق إذ ذاك ـ هذه الحظوة لم ينلها الأمير عبد القادر مع غزارة علمه وسمعته في الجهاد الطويل ـ وكان رفيقه في الهجرة تلميذه صالح السمعوني (1240 ـ 1285هـ) وهو مِن بني وغليس »، قال في ترجمته البيطار: «له منظومة في الفقه المالكي وحشاها، ثم شرح الرسالة في علم الميقات، قد جمع فيه ما نشرته يد الشَّتات، وله تاريخ على طريق الرَّمز والإيماء والإشارة، وصل فيه لقدوم محمد رشدي باشا ... وله فيه أسلوب عجيب وطريق نادر غريب، وكان صالحا تقيا، وفالحا نقيا، رفيع المقام، وافر الاحترام » الخ.. كما كان من جملة المهاجرين من بلاد القبائل محمد المبارك الدلسي حفيد المهدي السكلاوي وغيرهم، وكان لصالح السَّمعوني ولد اشتهر في المشرق والمغرب، وهو الشيخ طاهر الجزائري المولود سنة 1268هـ »، وقد ترجمه كثير من العلماء كصديقه أحمد تيمور باشا في كتابه: (**أعلام المغرب**)، والمستشرق هنري لاوست[1] (Laoust) وتلميذه العالم السلفي الشهير محب

(1) نشر هنري لاوست هذا بحثا قيما في (**مجلة المغرب الجديد**) المؤرَّخ في ربيع 1354 ـ 1935 التي كانت تصدر بتطوان تحت عنوان: (**الحركة الإصلاحية السنية المعروفة بالسلفية**)، تحدَّث فيه عن

الدِّين الخطيب المتوفى أخيرا، نقتطف منها بعض الفقرات لأن الرجل أحق بالعناية وقد كان بارا لوطنه (الجزائر) فقد زارها قبل الحرب العالمية الأولى وزار معالمها وكان يتكلم القبائلية الأصيلة، قال محب الدين الخطيب في مقال عنوانه: (**شيخي**)، نقلته مجلة الشهاب بعددها المؤرخ في جمادى الأولى 1356 الموافق ليوليو 1937: «هو الذي ربى عقلي، وهو الذي حبَّب إليَّ هذا الاتجاه الفكري، منذ كنتُ طفلا إلى أن صرتُ رجلا، ولا أعرف مؤلفا ولا حامل قلم نشأ في ديار الشام إلا وقد كانت له صلة بهذا المربي الأعظم، واستفاد من عقله وسعة فضله، إما مباشرة أو بواسطة الذين استفادوا منه، وكل الذين جاهدوا هناك لأجل الحرية، وفي سبيل المعارف ولإحياء علوم السلف، ولإعادة مجد العروبة والإسلام، إنما كانوا من إخوانه وهو واسطة عقدهم، ورأس مجالسهم، أو من طبقة تلاميذه، وهو مضرب الأمثال عندهم في كمال عقله وسعة إطلاعه التي لا حد لها ...» إلى أن يقول: «... وأهم كتب السلف النافعة التي نشرها الناشرون إنما نشروها بإشارته وتحريضه، وأنا وكل من نشر لسنا إلا قطرة في بحر الخير الذي كان يتدفق من صدر هذا العالم الذي كانت الدنيا لا تساوي عنده جناح بعوضة وليس له فيها أمنية إلا أن يرى عز الإسلام يعود كما كان في أيام القوة والعدل والعلم وتقوى الله عز وجل، إني لأرمي نفسي بالعقوق وإنكار الجميل كلما فكرت في إبطائي حتى الآن عن القيام بحقه على التاريخ ... وحياة الشيخ طاهر الجزائري حياة دور من أدوار الإصلاح بل هي تاريخ الأمة في حقبة من حياتها، ولابد أن أقوم بهذا الواجب في يوم من الأيام ... الخ ».

وقد أذاع أخيرا أحمد الجندي رئيس دائرة المجمع العلمي العربي بدمشق حديثا خصه للراحل الكريم بإذاعة لندن في مارس 1969 قال فيه: «... أما عمله في حياته فقد اتجه إلى ناحية الإصلاح رغم علمه الغزير، فعمل على نشر العلم والثقافة وتنبيه

(**المجلة السلفية**) التي أصدرها طاهر الجزائري سنة 1917م.

الجيل ... »، وبعد أن تحدث عن وظائفه في التعليم قال: «كان هذا الرجل يحب العرب ويعطف على قضيتهم ويسعى إلى تقدمهم وتعليمهم، وأبرز ما كان عند الشيخ حافظته العجيبة فإذا قرأ شيئا حفظه ... »، وبعد أن استدل على ذلك بعدة أدلة قال: «لجأ الشيخ إلى ذاكرته فاتخذها وسيلة إلى العيش عيش الكفاف يستعين بها على الحياة، فكان يشتري المخطوطات بأثمان بخسة ويبيعها فيربح بها دريهمات تساعده على الإنفاق، وكانت نفسه تأبى أن يمد يده إلى أحد مهما تكن منزلته، حتى لقد كان العظماء في زمنه يرهبون أن يعرضوا عليه العون المادي، فإذا فعلوا كان ذلك إيذانا بالفرقة التي لا لقاء بعدها، وكان أستاذا لجيله، وهو الذي عمل على تأسيس المكتبة الظاهرية فجمع لها..وللشيخ في المكتبة الظاهرية مجموعة من الأوراق المكتوبة والتعليقات التي سطرها بخطه أثناء مطالعته الكثيرة الطويلة، ولا ندري متى يتاح الظهور لهذه الأفكار المبثوثة ؟ ومن الذي يقدم على فض هذه الأوراق والإطلاع على ما فيها من نفائس »(1).

وإنني أردتُ أن أذكر ناحيتَين أو صِفتَين امتاز بهما المترجَم، ويعلم كلُّ باحث مستقل الفِكر لا يغتر بالظَّواهر والمجاملة أنَّ سبب إفلاس إعادة الدِّين ومتقمصيه في البلاد الإسلامية عامة، وفي بلادنا بالخصوص هو الطَّمع في الأغنياء ومد الأيدي للطالح والصالح ووقوع الداعي في فخِّ ممديه الجهال أو المغرضين الذين يتحكمون في الداعية فيوجهونه كيفما شاءوا، وينخدع لأحكامهم عليه حتى يغتر بنفسه، فإننا رأينا أنه كان يعتمد على نفسه وجل تلامذته وزراء وذوو شأن في الحكومة ووصلت به نزاهته إلى أن صار أقرب الناس إليه يخشون من مقاطعته إن عرضوا عليه الإعانة أو (**الوعدة**)، والشيخ (رحمه الله) كان من علماء الحديث وأن علماء الحديث شعارهم في

(1) أليس من العقوق أن تغفل الجزائر على مثل هذا الابن البار الذي ملأ ذكره الدنيا، ثم أليس من حقِّ الجزائر أن تجيب الكاتب الذي ذكر هذه المذكِّرات وتساءل « ولا ندري متى يتاح الظهور لهذه الأفكار المبثوثة ؟ ».

توصياتهم التي يختمون بها إجازاتهم هو قولهم: «اتركوا اليأس مما في أيدي الناس تعيشوا أعزة » (فأين هؤلاء ؟) وقد مثلها مترجمنا في وقت طغت فيه المادة، وقال لاوست عن نشاطه في سوريا: « حذق اللغات العربية والتركية والفارسية على السواء مع مشاركة في مبادئ العلوم الغربية، وأسس خزانة دمشق، وقام في سنة 1878 تحت إشراف مدحت باشا بتنظيم التعليم في سوريا التي ما يزال ذكره فيها محفوظا في روعته كما أنه شن الغارات على الاستعمار التركي».

ولنختم هذه الدراسة بالرجوع إلى الحديث عن ولاية تيزي وزو فإنها بعد أن احتلها الفرنسيون سنة 1857 ولاقوا فيها نوعا من الهدوء اندلعت ثورة 1871 فكان من نتائجها إلغاء التصرُّف الداخلي للجماعات وفرض ضريبة على مجموع السكان قدرها 32 مليون فرنك ومصادرة نصف مليون هكتار (وزعت فيما بعد على المستعمرين) والذي يلفت النظر واهتم له الفرنسيون هو أن ثورة 1871 شارك فيها وحمل السلاح مائتا ألف قبائلي: رجال ونساء وصبيان من مجموع السكان الذين كان يبلغ عددهم ثمانمائة ألف (800.000) وهذه النسبة نادرة في تاريخ مقاومة الشعوب والأمم، كما اعترف قادة الجيش الفرنسي أن عدد جيشهم الذي خاض غمار هذه الحرب لقمع الثورة بلغ عدده 82000 مقاتل، مدجج بأحدث السلاح، وخاضوا 340 معركة حامية الوطيس، وقد اعترف وزير الحرب الجنرال (Du Barail) أن هذه الثورة إن كانت لم تصل إلى إخراج الفرنسيين من الجزائر نظرا لقوة الجيش النظامي إذ ذاك والسلاح ووفرة التموين ولكنها كلفته (وكانت تكلفته أكثر) عددا من الضحايا وخسائر في الأموال وهزائم شنيعة لولا استعمال الخديعة والمكر وتفرقة السكان...الخ

حظيت هذه الثورة بلفت نظر الكتاب الفرنسيين والأجانب وخصصوها بتآليف اهتموا فيها بدراسات العنصر البربري والطريقة الرحمانية، وموقف ابن الحداد االبطولي (رجل جاوز الثمانين سنة أعلن الحرب وشارك المحاربين وهو محمول على أكتافهم)

وقد تعرض للعنصر البربري مؤرخونا من قديم.

ولنذكر قبل الختام رأيين لكاتبين حللا العنصر البربري أحدهما كاتب عربي مشهور وهو ابن خلدون وثانيهما كاتب بربري مشهور وهو أبو القاسم الزياني المغربي الذي علق على ابن خلدون ورد عليه بعض وجهات نظره، ثم ما وصفهم به صاحب الثغر الجماني وهو قريب عهد بالنسبة إلى الكاتبين الأولين بل هو معاصر للزياني وكلامه ينطبق تماما على ما أجمع عليه مؤرخو العالم في مختلف العصور في وصف هذا العنصر، قال صاحب الثغر الجماني: «وقد كان لهذه الأمة من الأنفة والمنعة والإباية ما كان يمنعهم من الانقياد إلى الملوك والرضا باستدامة الدول، والدخول تحت جناح الذل فكانوا لا يقرون لملوكهم على قرار، ولا يزالون يثورون على حكامهم في سائر الأعصار والأقطار، فلا يقوم لهم قائم إلا وطالبه من خلفه، ولا تتم قوة سلطان إلا والثورة تبشره بضعفه، حتى شعف الطالب والمطلوب » وقال قبل هذا بقليل: «ولم يزل لهذه الأمم البربرية فضل مشهور، وباع في المحامد من أول الدهور، ولم ينفك منهم قائم يصادم بهم أعداءه، ويحسم من قطرهم داءه ... الخ »[1].

رأي ابن خلدون في البربر:

قال ابن خلدون: «وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية، وتنافسهم في الخلال الحميدة، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم، ومرقاة الشرف والرفعة بين الأمم، ومراعاة المدح والثناء من الخلق، من عز الجوار وحماية النزيل، والأذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، وحسن الملكة، والإغضاء عن العيوب، والتجافي عن الانتقام ورحمة المساكين، وبر الكبير، وتوقير أهل الدين، وحمل الكل وكسب المعدم وقرى الضيف، والإعانة على النوائب وعلو الهمة، وإباية الضيم،

(1) نقله الزياني في رحلته: **الترجمانة الكبرى** (ص: 72).

ومشاقة الدول، ومقارعة الخطوب، وغلاب الملك، وبيع النفس من الله في نصر دينه فلهم في ذلك آثار ينقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها، واتصفوا به من شريفها، أن قادتهم إلى مراقي العز، وأربت لهم على ثنايا الملك حتى على الأيدي على أيديهم، ومضت في الخلق بالبسط والقبض أحكامهم، وكان منهم مشاهير في كل طبقة من طبقات الإسلام بعد إسلامهم ... الخ »، ثم علق الزياني على ما نقله من كلام ابن خلدون بقوله: «قال كاتبه أبو القاسم بن أحمد الزياني ما وصف به ابن خلدون هذا الجيل البربري من الأوصاف الحميدة، والمناقب السنية العديدة، معلومة للعرب الكرام، في الجاهلية والإسلام ولما ساءت أحوالهم، وخالف فعلهم مقالهم، حلى الله بها هذا الجنس البربري قبل أن يخون ويفتري ويزيغ على الحق ويمتري، ولما خالفت الأفعال منهم الأقوال، وعاشوا في النفوس والأموال سلبهم الله الملك والعز والسلطان، إذ أزلهّم الشيطان وضربت عليهم المغارم في كل الأوطان وانعكس حالهم فيما وصفهم به من الخصال، وسعوا في طريق الانفصال بعد الاتصال، ولم يبق لهم وفاء يعتمد، ولا جوار لمن أراد المستند، وصار ما صار لمن قبلهم من العرب يستبقون للخذلان والهرب، شنشنة لبسوها من عادات جيرانهم عرب البسائط يستعملونها في الحروب بالوسائط، ولم يبق منهم متخلق بتلك الأخلاق الحميدة، والأوصاف الفريدة إلا برابر الصحراء المنقطعون في القفر، لا يعرفون الغدر والحقد، متنفرين عن ممالك الأرياف، مقيمين لرسم الوفاء والإنصاف، فهم من هؤلاء البربر أهل الجبال وإن كانوا إخوانا، وفي العصبية أعوانا، فالواحد منهم كالدينار،يصرف بالدراهم، وصغيرهم ينفع المراهم، صان الله جوهرهم عن الفساد، وأبقاهم مصلحة للعباد » اهـ كلام أبي القاسم الزياني (1147 ـ 1149هـ) في (**الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا**) نشر لجنة التراث القومي بالرباط سنة 1387هـ 1967م (ص: 72) و(ص: 74).

نبذٌ من تاريخ قرية بطِّيوة
التي استحالت إلى مرفأ عالمي[1]

كان اسم (**بطِّيوة**) يطلق على قرية صغيرة، هاجر سكَّانها موطنهم شرقَي شمال (**المغرب الأقصى**) إلى (**الجزائر**) حوالي القرن العاشر الهجري، وبعد تنقُّلهم في عدَّة جهات البلاد، ختم بهم المطاف في مدينة (**أرزيو**) الأثريَّة، فاتَّخذوا آثارها مساكن، وبقي اسمها مرادِفا لاسم المدينة طيلة العهد التُّركي، وبعد الاحتلال الفرنسي حاول الفرنسيُّون أن يفرنِسوا بلدة (**أرزيو**)، فأطلقوا عليها اسم: (**سانلو**) (Saint Leu)، وبقيَ اسم (**بطِّيوة**) يطلق على الحيِّ الإسلامي، و(**سانلو**) يطلق على الحيِّ الأوربي المحدَث.

وقد اختلفت آراء الباحثين في هذه الأسماء التي كانت تتردَّد على أفواههم، وهي: (**بطِّيوة**)، و(**أرزيو**)، ثمَّ (**أرزيو القديم**)، فـ (**أرزيو الجديد**).

ومساهمة منَّا في إثراء (**مجلَّة أوَّل نوفمبر**)، أقدِّم هذه الدِّراسة التي تشمل (**نبذة من تاريخ هذه القرية، وتطوُّرها عبر التَّاريخ**)، كما يشمل صفحات من تاريخ ارتباطها بالمساهمة في ثورة التَّحرير، وهذه الصَّفحات هي عبارة عن (**مذكِّرات**) شاهد عيان لم يسبق نشرها، ولا أظنُّ أنَّها حظيت بمن تعرَّض لها، خصوصا في تفاصيلها التي وإن

---

(1) مجلَّة: (أوَّل نوفمبر)، عدد: 55 (خاص بذكرى 11 ديسمبر)، ذو الحجَّة 1398هـ/ ديسمبر 1977م، في وثيقة مرقونة وقفنا عليها بمكتبته، ذكر فيها بأنَّ هذا المقال كتبه بطلبٍ من الأمين العام لمنظمة المجاهدين السيد يوسف اليعلاوي، وفيها أنه نشر في أوائل سنة 1978م بنفس المجلَّة.

كانت في ظاهرها شبيهة بأحداث الثَّورة العاديَّة المحلِّيَّة، إلاَّ أنَّها لها أبعادا تتَّصل بتاريخ الثَّورة العام.

ثمَّ إنَّ تاريخ البلاد في جميع مجالاته السِّياسيَّة، والثَّقافيَّة، والحربيَّة، هو جزءٌ لا يتجزَّأ من التَّاريخ العام، والأهمّ منه هو ما سجَّله شهود العيان.

إنَّ أكثر وقائع حرب التَّحرير ببلادنا لم تعدم شهودَ عيان، وإن كان الكثير منهم قضى نحبه، وبقيت بقيَّة تحتفِظ بكثير مِن أسرارها زهَّدتها في الإباحة بها أو في تسجيلها المعاصرةُ وقربُ العهد.

ونفسُ الوثائق التي لا تنكَر قيمتُها، والتَّصريحات التي ردَّدت صداها وسائل الإعلام المختلفة نجدُها تحتاج إلى الشَّرح والتَّعليق المدعَّم بشهادات الأحياء، وهذا التَّهاون في شهادات الأحياء سيخلِّف فراغا محسوسا عند الباحثين، خصوصا بعض الأحداث التي لا زال يكتنفها الغموض.

ولهذا كلّه اغتنمتُ الفرصة، وهي المساهمة في نشر هذا البحث ـ المركَّز على التَّعريف بهذه القرية ـ فأضمِّنه بعض هذه (**المذكِّرات**) الخاصَّة بحرب التَّحرير.

قرية بطيوة:

نزح أفراد هذه القرية كما تقدَّم من المقرِّ الأصلي لقبيلة (**بطِّيوة**) الصَّنهاجية، التي كان موطنها بـ (**ريف المغرب**) المنطقة الشَّمالية.

والظُّروف التي انتقل فيها سكَّان هذه القبيلة وتحديد تاريخ الهجرة يطول ذكرها، وكلُّ ما نثبته هنا ويسع له مجال هذه الدِّراسة هو أنَّ هؤلاء النَّازحين استوطنوا مدينة (**أرزيو**) الأثريَّة ابتداءً من القرن العاشر الهجري، إذ إنَّ أحد فقهائهم ـ دفين القرية ـ كان من علماء القرن العاشر، كما بقيَ أفراد القرية متَّصلين، فصارت (**سانلو**) تعرف بـ

(**أرزيو القديم**)، أو (**بطِّيوة**)، وهذا كلُّه ابتداءً من الاحتلال الفرنسي، أمَّا قبل الاحتلال فكانت (**أرزيو**) تطلق على المدينة الأثريَّة، كما عرَّفها الجغرافيُّون بمواطنهم الأصلي طيلة العهد التُّركي، وعند الاحتلال الفرنسي أطلقوا على (**أرزيو**) اسم: (**سانلو**).

ثمَّ أطلقوا على المدينة المحاذية لها، والتي كانت تعرف بـ (**المرسى**) اسم (**أرزيو**)، فارتبك السُّكَّان لهذا التَّغيير، ولم يهضموه، فصاروا يطلقون على (**سانلو**) (بطيوة الحالية): (**أرزيو**)، أو (**أرزيو القديم**)، وعلى (**المرسى**): (**أرزيو الجديد**)، ومع طول الزَّمان تغلَّب اسم (بطِّيوة) ـ الذي كان يطلق على القرية، وهي الحيُّ الإسلامي لـ (**سانلو**) ـ على (**سانلو**).

فصارت (**سانلو**) تعرف بـ (**أرزيو القديم**)، أو (**بطِّيوة**)، وهذا كلُّه ابتداءً من الاحتلال الفرنسي، أمَّا قبل الاحتلال فكانت (**أرزيو**) تطلق على المدينة الأثريَّة كما عرَّفها الجغرافيُّون، القُدامى والمتأخِّرون، مسلمون وغير مسلمين، أمثال أبي عبيد البكري، والشَّريف الإدريسي، والمؤرِّخ الجزائري أبي راس، والوثائق الرَّسميَّة، مثل: (**معاهدة دو ميشال**) التي أبرمها الأمير عبد القادر مع الجنرال الفرنسي دو ميشال، ووقع اختيارهما على (**المرسى**) (**أرزيو الجديد**) كمركز للتَّبادل التِّجاري، فأطلق عليها اسمها الأصيل، أي: (**المرسى**)، بدلا مِن (**أرزيو**).

والخلاصة هي أنَّ (**أرزيو**) ـ قبل الاحتلال الفرنسي ـ عند جميع الجغرافيِّين والمؤرِّخين في عهدها الإسلامي كانت تطلق على المدينة الأثريَّة، وهي المعروفة الآن بـ (**بطِّيوة**)، و(**المرسى**) كانت تطلق على مدينة (**أرزيو**) الحالية، ابتداءً من عهد الاحتلال الفرنسي.

أمَّا (**بطِّيوة**) فإنَّها كانت تطلق على أفراد القرية النَّازحة، التي استوطنت مدينة (**أرزيو**) الأثريَّة، وبعد الاحتلال الفرنسي، وإطلاقهم على (**أرزيو**) الأثريَّة اسم

(**سانلو**)، فكان السُّكَّان الأوربيُّون يسكنون الحيَّ الأوربي (**سانلو**)، أمَّا الحي الإسلامي فبقيَ يحمل اسمه الأصيل: (بطِّيوة)، وذلك حتَّى في السِّجلاَّت الرَّسميَّة في الإدارة الفرنسيَّة، فكانوا يطلقون عليه: (**دوَّار بطِّيوة**).

تطوُّر (بطِّيوة) في العهد الفرنسي:

حظيت قرية (**بطِّيوة**) في العهد الفرنسي بدراسات قيِّمة مِن لدُن الباحثين المتخصِّصين، أمكن لهؤلاء الدَّارسين أن يتَّصلوا ببعض الشُّيوخ، فأطلعوهم على ما يكسبونه من وثائق تثبت الاتِّصال بين مختلف الأسر المهاجرة إلى (**الجزائر**) بأسرهم الباقية في (**المغرب الأقصى**)، ونشر هؤلاء الباحثون دراسات قيِّمة في (المجلَّة الإفريقية) التي كانت تصدر بـ (الجزائر)، و(**مجلَّة الجمعيَّة الجغرافيَّة**) بـ (**وهران**).

هذه بعض الخطوط العريضة ذكرتها من تاريخ قرية (بطِّيوة) قبل الاحتلال الفرنسي وبعده.

مساهمة (بطِّيوة) في الثَّورة:

إنَّ الثَّورة في بلاد (الجزائر) وإن كانت تختلف قوَّة وضعفا بالنِّسبة لمواقعها الجغرافية، فلم تسلم ناحية من شظايا نيرانها، ويصدق عليها تماما ما وصف به الأديب الأندلسي الشَّهير أحمد بن عميرة المخزومي أبو المطرّف حالة (بلنسية) أيَّام محنتها في رسالته التي كاتب بها صديقه ابن الأبَّار القضاعي، فقال: «... ففي كلِّ جانب عويل وزفرة، وبكلِّ صدر غليل وحسرة، ولكلِّ عين عبرة، لا ترقأ من أجلها عبرة ... الخ»(1).

(1) انظر نصَّ هذه الرِّسالة في: **نفح الطِّيب** (4/ 490 ـ 496) للمقرِّي التِّلمساني، تحقيق: د.إحسان عباس، دار صادر (بيروت) 1968م.

كانت قرية (بطِّيوة) مسامتة كما ذكرنا لـ (مرفأ أرزيو)، المرفأ الحربي ـ الذي استحال أيضا من مرسى صيد السَّمك إلى مرفأ حربي، ابتداءً من نزول الحلفاء به في الحرب العالميَّة الثَّانية ـ الذي صار مركزا لتدريب البحَّارة، إذ كان تابعا للحلف الأطلسي، بدليل أنَّه كان منطلق الأسطول البحري الذي هاجم (قناة السُّويس) في حرب سنة 1956م، وعند اندلاع الثَّورة كان الفيلق البحري المرابط بها يجوب السَّواحل الجزائريَّة من غربها إلى شرقها، واستحالت المدينة منطقة محرَّمة، والذي زاد في الطِّين بلَّة أنَّ معظم سكَّانها كانوا من قدماء المحاربين في صفوف الفرنسيِّين، ومع كلِّ هذه الصُّعوبات أمكن لجبهة التَّحرير أن تحدِثَ مركزا في (بطِّيوة)، ابتداءً من سنة 1956م، وكان هذا المركز تابعا للنَّاحية الرَّابعة بالمنطقة الرَّابعة في الولاية الخامسة، وكان مقرّ النَّاحية الرَّابعة المذكورة بـ (جبل بوزيري)، المطِلّ على مدينة (المحمَّديَّة)، وكان قائد النَّاحية إذ ذاك الرَّائد المنعم زغلول، ثمَّ فارق زغلول النَّاحية لخبرٍ يطول سنتحدَّث عن بعضه.

كان أوَّل مَن أحدثَ مركز (بطِّيوة) المنعم الجيلاني الدَّحَّاوي، المشهور بـ (عبُّود)، وكانت مدينة (وهران) إذ ذاك منطقة مستقلَّة، وبعد إلقاء القبض على رئيس منطقتها أضيفت مدينة (وهران) إلى النَّاحية الرَّابعة، وضعفت المقاومة بكامل المنطقة، ممَّا جعل الجنرال (قمبياز) (Gambiez) القائد الأعلى لجيش (وهران)، يصرِّح للصَّحافيِّين بأنَّ مدينة (وهران) ومنطقتها لم يبق فيها ذكر للثَّورة، وأنَّ كلَّ مَن سوَّلت له نفسه القيام بأيِّ نشاطٍ ثوري، يكتشفُ في حينه وساعته، فحينئذ عيِّنَ الشَّهيد الملازم: مصدَّق، رئيسا للنَّاحية الرَّابعة المذكورة، بعد استشهاد قائدها الملازم: نبيل، في (جبال ندرومة).

كان مصدَّق هذا، وهو: الجيلاني بن غلام، مِن **(أولاد فارس)** **(الأصنام)**، بعد توليته صادف وجوده صُحبة مساعدَيه الأقربَين:

1) الملازم مجاهد ـ محمَّد كسايسية التَّنسي ـ الذي تولَّى رئاسة **(منظَّمة قدماء المجاهدين)** بـ (وهران)، ثمَّ بـ **(بلعباس)**، ولا زال حيًّا.

2) [و] الشَّهيد واعلي بوهلال (**الجبلي**).

[كانوا] ببعض المراكز القريبة من مدينة (**المحمَّديَّة**)، وبالضَّبط في واديها، فاكتشِف المركز وحوصِر، فلم يبق لمصدَّق وصحبه إلاَّ الخيار بين إحدى المَيتتَين: إمَّا بالمركز ولم تترك أي أثر، أو الانسحاب إلى المدينة والأخذ بالثَّأر قبل الاستشهاد، فاختاروا الانسحاب إلى المدينة وشق شارعها الرَّئيسي على العاشرة صباحا وكان اليوم يوم سوق البلدة، فعندما وصل مع رفيقَيه أمام محافظة الشُّرطة توسَّمهم أحد ضبَّاطها فدخل ليدقَّ جرس الإنذار، وحينئذ أبرز الأبطال الثَّلاثة أسلحتهم، وخلعوا جلاليبهم، ونادَوا بالجهاد وأطلقوا نار أسلحتهم دفعة واحدة، فالتفَّ حولهم السُّكَّان مكبِّرين ومؤيِّدين، وانطلق من بين السُّكَّان شابٌّ رأى أنَّ الجنود الثَّلاثة كانوا يحملون بندقيَّة زائدة ـ هي لرفيق لهم تركوه مريضا ـ فمكَّنوه منها، أمَّا الشُّرطة فبعد دقِّ جرس الإنذار، ظنُّوا أنَّها مكيدة من الجيش، وأنَّ الذين هاجموا البلدة هم عشرات إن لم يكونوا مئات، فطوَّقوا المدينة من خارجها ليتمكَّنوا من التقاطهم، فخاب أملهم وأمكن للمجاهدين المؤيَّدين بالتفاف الشَّعب وزغردة النِّسوة شقَّ طريقهم والالتجاء إلى مخبأ مأمون داخل المدينة وبجوار قيادة الجيش الفرنسي، ولم يصَب في هذه المعركة إلاَّ الشَّاب الذي تطوَّع ومكِّن من البندقيَّة ـ وهو جندي جريح ـ فاستشهد أثناء المعركة، فحينئذ فكَّر مصدَّق وصحبه في الالتجاء إلى مركز (**بطِّيوة**) فوصلوه بسلام رغم تطويق المدينة وتشديد الحراسة، إذ تحقَّق قادة الجيش أنَّ المهاجمين لم يغادروا المدينة، كان المشرِف إذ ذاك على المحافظة السِّياسيَّة بمدينة (**المحمَّديَّة**).

لعب الأخ مصدَّق دورا مرموقا في كامل المنطقة التي عيِّن عضوا من أعضائها قبل استشهاده بقليل، وقد كان يترأَّسها الرَّائد طارق، الذي كان يتمتَّع بثقته وتأييده، وأمكنه ـ أي: مصدَّق ـ أن ينظِّم حركة الفداء بـ (**وهران**) وبكامل النَّاحية، ويوثِّق

الصِّلة بالولاية الخامسة التي كان مقرُّها بـ (**وجدة**)، كما أمكنه استئناف جلب السِّلاح على طريق الولاية، وقد استشهد بمركز من مراكز مدينة (**وهران**) في فبراير سنة 1961م، ولم يلق السِّلاح رغم أنَّ حصار المركز دام من الزَّوال إلى المغرب، وحكِّم تحكيما، شارك فيه الجيش والدَّرك والشُّرطة، وخاطبوه بمكبِّر الصَّوت، فالتجأ إلى بناية لم تتمَّ، وسلِّطت عليه الأضواء، فصار تارة يرميها، وتارة يرمي قتَلَته، وذلك طوال ثلاث ساعات، إلى أن التحق به خفية أحد السُّكَّان الفرنسيِّين مِن سكَّان الحيِّ، فقتلَه غدرا، وأخبرني مَن حضر في الحصار، وهو السَّيد ابن قادة المازوني ـ كان شرطيًّا إذ ذاك ـ أخبرني بعد الاستقلال بمدَّة أنَّ مصدَّق قتَل ما يزيد من عشرة بين جنود وضبَّاط، وكان مصدَّق أيَّام ولايته اتَّصل بالرَّائد زغلول الذي كان سجينا بـ (**وهران**)، وألَحَّ عليه زغلول في جميع رسائله أن يمكِّنه من الخروج ليستأنف الجهاد، وصادف أن اتُّخذ معتقل (**بطِّيوة**) فرعا لسجن (**وهران**)، فنقلوا إليه ـ أي: إلى معتقل (**بطِّيوة**) ـ المرضى والمعطوبين من سجناء (**وهران**)، وكان من بينهم القائد زغلول، فحينئذ تولَّت تنفيذ خطَّة إخراج زغلول المنطقةُ الرَّابعة التي كان يترأسها الملازم الثَّاني أبو الحسن (عبد الباقي الوارسوسي)، فكلَّف الأخوَين مجاهد (**رئيس النَّاحية الرَّابعة**) ـ خلفا للشَّهيد مصدَّق ـ ومساعده علي بوهلال (**الجبلي**)، ثمَّ لحِق بهما الملازم **محمَّد بني صاف (عضو المنطقة الرَّابعة**) ـ وقد تولَّى رياستها بعد الاستقلال مباشرة ـ وقد ساعدهم على ذلك بعض فدائيِّي (**وهران**)، نجحت الخطَّة وأخرِج زغلول ومعه بعض مرافقيه في السِّجن، من بينهم الأخ صالح بوحارة اليعلاوي ـ مِن فدائيِّي العاصمة ـ.

هذه لقطات من حرب التَّحرير شهدتها قرية (**بطِّيوة**)، ذكرتها مبعثرة موجزة بمناسبة تناول بحث تاريخ هذه القرية.

هذا وإنَّ الأحداث التي قام بها الشَّهيد مصدَّق، خصوصا هجومه صحبة رفيقَيه

على مدينة من أهمِّ المراكز الحربيَّة اشتهرت بصلف سكَّانها الأوربيِّين الذين كانوا لا يتورَّعون عن قتل الأبرياء يوميًّا، والمعجزة هي استطاعة ثلاثة أنفار في رابعة النَّهار أن يشقُّوا شارعها الرَّئيسي ويمرَّ عليهم الخطر بسلام، وكانت أبعاد هذا الحادث أن استأسد السُّكَّان رجالا ونساءً وصبيانا، إذ كثير من أحداث الفداء كان يقوم بها مَن لم يبلغوا الحلم، وانتشر الفداء وعمَّ البوادي والقُرى، وكثُر عدد المسبلِّين والمتطوِّعين، ومات بطل هذا الحادث ولم يخلِّف لبنتَيه وولده إلاَّ الذِّكريات، وبهذه المناسبة نذكر أنَّ القائد زغلول عندما خرج من سجنه وكان في مركز (**بطِّيوة**) رفقة رئيس النَّاحية الرَّابعة مجاهد ومساعده الجبلي (**علي بوهلال**)، مكَّن لهم[1] (**مليون فرنك قديم**) كانت أرسِلت إليه من سجن (وهران) صحبة مسدَّس، وقد ترك أمَّه ـ أو مربيته ـ في فقر مدقع ولم تحصل على المنحة ـ كأمِّ جندي ـ إلاَّ بمشقَّة، فلمَّا أجابوا أنَّ النَّاحية غنيَّة والأموال تنفق عليهم من كلِّ جهة، قال لهم: إنَّني أعددتها لارتشاء السَّجَّانين، فلمَّا بلغتُ الهدف لا حاجة لي بها، رغم انحراف مزاجه وكِبر سنِّه امتنع من الالتجاء إلى الخارج ـ وكان الطَّريق سهلا ـ ثمَّ واصل جهاده، فأشرف على القضاء على القبطان (**جاكي**) مدير الاستعلامات بـ (**غيلزان**)، ثمَّ واصل مسيرته ليقضيَ على القبطان (**بيرليس**) (Berlisse)[2]، الذي قتل أعيان (**مازونة**)، ونشر الرُّعب والهوان ففلت من يده، وفي أثناء ذهابه من (وادي ارهِيو) إلى مركز (**حمري**) بنواحي (**سيدي خطَّاب**) تعرَّض لهم سدُّ الدَّرك، فتبادلوا معهم إطلاق النَّار، فنجا زغلول وأصيب رفيقه محمَّد بني صاف بجروح، كما قتِل في المعركة كاتب زغلول، ورغم ادِّعاء الدَّرَك أنَّ زغلول قتِل في المعركة، فإنَّهم ألقوا عليه القبض بالمركز وقتلوه بعد ما عذِّب أشدَّ ألوان العذاب.

---

(1) أي: قدَّم لمن أخرجه من السِّجن هذا المبلغ.

(2) ترِك في (**الأصل**) فراغ لكتابة الاسم بالفرنسية، واجتهدنا في إثباته.

ولنرجع إلى الرَّائد طارق الذي استشهد هو الآخر حوالي منتصف سنة 1961م بعد مقاومة عنيفة استعمِلت فيها الدَّبَّابات بمركزه القريب من مدينة (**بوقادير**) ـ الأصنام ـ، وقد خلفه الملازم الثَّاني أبو الحسن عبد الباقي ابن الفقيد الحسن مِن (بني وارسوس) ـ الرَّمشي ـ وأبو الحسن هذا، هو الذي وقع في عهده إخراج الرَّائد زغلول من معتقل (**بطِّيوة**)، واستشهد في الأيَّام التي استشهد فيها زغلول والجبلي قبل 19مارس 1962م بقليل.

وكان طارق بطلا من الأبطال الذين يضرب بهم المثل، وأداءً لأمانة الشَّهادة أذكر أنَّ طارق مدَّة إشرافه على المنطقة الرَّابعة، وبالضَّبط أواخر 1960م طلب منِّي[(1)] الاتِّصال بالولاية الخامسة بواسطة قائد النَّاحية الرَّابعة مصدَّق، فأجبتُ رغبته، إلاَّ أنَّ ظروف السَّفر تعطَّلت إلى أفريل 1961م ـ أي: بعد استشهاد مصدَّق ـ وبعد اتِّصالي بالمرحوم العقيد عثمان (**مسؤول الولاية الخامسة**) إذ ذاك، وإحاطة طارق علما، استبشر وقصد النَّاحية الرَّابعة، واستصحب معه نائب مسؤولها الجبلي، وكان غرضه زيارة مركز (**بطِّيوة**)، وعند مروره على (**سيق**) هاجم العدوُّ مركزه إلاَّ أنَّه نجا، وبعد رجوعه كلَّف مسؤول النَّاحية الرَّابعة مجاهد أن يكاتبني لإخباري بأن أسعى في إرسال (مائة مليون فرنك قديمة) للولاية.

هذه باختصار لمحة عن تاريخ (**بطِّيوة**) من القرن العاشر الهجري إلى أن تحوَّلت إلى مرسى تجاري كبير.

---

(1) في (**الأصل**): «طلب منه »، والصَّواب ما أثبتناه، والوثائق التي بين أيدينا وسياق الكلام يخدم ما ذهبنا إليه، وانظر قسم ترجمة الشَّيخ المهدي (رحمه الله تعالى) من هذه (**الآثار**).

التَّعريف بمدينة (تلمسان)
وولايتها عبر التَّاريخ (1)

عرفت هذه الناحية قبل التاريخ الميلادي بعشرات القرون، وقد ثبت هذا بصورة جلية، إثر الاكتشافات التي وقعت بمدينة تلمسان ونواحيها لآثار العصور البائدة، كالعصر الحجري، حيث وجدت أدوات حجرية نقلت إلى المتاحف.

أما تاريخها كمدينة، فقد عرفت ابتداء من القرن الرابع الميلادي، حيث أطلق عليها الرومان اسم **بوماريا** (Pomaria)، ومعناها الحدائق أو الفواكه، ومن الصدف أو روعي هذا المعنى في الاسم البربري: (تلمسان) الذي يطلق على العيون الجارية.

كما أن ولاية **تلمسان** تشمل عدة مدن ومعالم تاريخية، كمدن سيقا الفنيقية ومرساها أرشقول، ومرسى هنين، وكل منها خلد لها التاريخ أحداثا مرتبطة بالأحداث العالمية، كما سنبين ذلك في موضعه من هذه الدراسة.

كانت مدينة تلمسان أو بوماريا في العهد الروماني تابعة للمنطقة الثالثة حسب التقسيم الإداري لبلاد المغرب العربي الحالي في العهد الروماني.

وهذه المنطقة كانت تعرف بمنطقة **موريطانيا** القيصرية التي كانت قاعدتها مدينة **شرشال**، وهي تمتد من وادي بجاية إلى وادي ملوية (**المغرب الأقصى**).

---

(1) ملتقى الفكر الإسلامي التاسع 1975م، تلمسان، ج1، ص1347-1371.

كان التقسيم الجغرافي والسياسي إذ ذاك لبلاد المغرب العربي على الكيفية الآتية:

المنطقة الأولى التي تشمل جمهورية **تونس** الحالية، وقاعدتها مدينة قرطاج، واسم هذه المنطقة إفريقيا.

و**المنطقة الثانية** تمتد من **وادي طبرقة** إلى **وادي بجاية،** وقاعدتها مدينة **سطيف** واسمها **نوميديا.**

والمنطقة الثالثة ـ موضوع حديثنا ـ تمتد من **وادي بجاية** إلى **وادي ملوية،** وقاعدتها مدينة **شرشال،** وتسمَّى: **موريطانيا** السيزا رية.

والمنطقة الرابعة هي التي تشمل بلاد **المغرب الأقصى** بتمامه، وقاعدتها مدينة **طنجة،** واسمها: **مويطانيا** التنجيطانية.

تلمسان في العهد الإسلامي:

قيل: إن تلمسان فتحت في عهد **عقبة بن نافع الفهري،** ودخلها أبو المهاجر وقد بقيت عين من عيونها تحمل اسمه إلى عهد المؤرخ **عبد الرحمن بن خلدون.**

والذي حققه المؤرخون وفي طليعتهم **عبد الرحمن بن خلدون** أنها كانت من ممتلكات قبيلة **بني يفرن** البربرية الزناتية ومن مؤسساتهم قبل الفتح مباشرة.

قال **ابن خلدون** في حديثه عن قبيلة **بني يفرن** هذه: « كان لبني يفرن من زناتة بطون كثيرة وكانوا متفرقين بالمواطن. فكان منهم بافريقية... وكان منهم بنواحي **تلمسان،** ما بينها وبين **تاهرت** أمم كثير عددهم، وهم الذين اختطوا مدينة **تلمسان** ».

اعتنق **بنو يفرن** الإسلام كما اعتنقه قبلهم أبناء عمومتهم من زناتة، وهم: **مغراوة**

وجراوة (قوم **الكاهنة**)، وأقرَّ الإسلامُ كثيرا من رؤساء هذه القبائل على حكم بلادهم ومواطنيهم، وقد بقي هذا المبدأ الدال على التسامح الإسلامي واحترام اختيار الشعوب لرؤسائهم، بقي ساري المفعول، إلى العهد الأخير، حيث نجد في **(مذكِّرات)** [1] الأمير **عبد القادر** التي سجلت مدَّة أسره بقصر أمبواز، قال كاتبه في حديثه عن نشاط الأمير بعد مبايعته أنه خرج لناحية اجتمع عليه فيها وفود السكان، فعين واحدا منهم بأمر والده واليا وبين منطقة نفوذ الوالي المعين، وقال: « بعد أن ولي كبير كل وفد على قبيلته عاملا بالأثر الوارد عن عمر بن الخطاب ... الخ ».

ولنرجع إلى الحديث عن قبيلة **بني يفرن** مؤسسة مدينة تلمسان، فإن فيه دلالة أيضا على أن القبائل البربرية بالجزائر لم تكن خاضعة للحكم المباشر في عهدي الفنيقيِّين والرومان، بل كانت تتمتع بالاستقلال الذاتي، وهذا ما أثبته المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون، الذي قال في الموضوع: « ولما ملك الإفرنجة بلاد البربر في ضواحيهم صاروا يؤدون لهم طاعة معروفة، وخراجا معروفا، مؤقتا، يعسكرون معهم في حروبهم، ويمتنعون عليهم فيما سوى ذلك، حتى جاء الله بالإسلام ».

وقد أيد نظرية ابن خلدون كثير من المؤرخين الأوروبيين منهم المؤرخ المتخصص في تاريخ الفينيقيِّين والرومان **ستيفان قزيل** في كتابه القيم: **(تاريخ إفريقيا الشمالية)**.

اشتهر من أمراء بني يفرن حكام تلمسان أبو قرة [2] الذي حاصر طبنة [1]، قاعدة

---

(1) مذكِّرات الأمير **عبد القادر** اكتشفت منذ عشر سنوات بخزانة فرنسية لقائد فرنسي شهير، كتبها قريب الأمير مصطفى بن التهامي سنة 1264هـ، بقصر أمبواز (فرنسا).

(2) قيل: إن أبا قرة ينتسب إلى قبيلة مغيلة الزناتية المتاخمة لبني يفرن.

ولاة خلفاء بني العباس التي كان بها عمر بن حفص عامل الخليفة العباسي جعفر المنصور، وذلك سنة إحدى وخمسين ومائة (151هـ).

قال المؤرخ الجزائري **أبو راس الناصري** في حديثه عن قبيلة **بني يفرن**: « وفشت فيهم الخارجية في وسط المائة الثانية، حتى إن **أبا قرة** منهم، كان من رؤوس الخوارج، زحف إلى عمر بن حفص من ولد **قبيصة بن أبي صفرة** الأزدي، عامل جعفر المنصور على افريقية، في أربعين ألفا، وحاصره بطبنة حتى صالحه، فأفرج عنه، وذلك سنة إحدى وخمسين ومائة، ثم إن عمر بن أبي حفص دخل **القيروان** فحاصره أيضا بنو يفرن وأبو حاتم المغيلي وكانا في ثلاثمائة ألف، الخيل منها خمسة وثلاثون ألفا، وكلهم من الخوارج الإباضية، وانقسموا على اثني عشر عسكرا، من جملتهم عسكر جرير بن مسعود في مديونة، و**عبد الملك بن سكرديد** في صنهاجة، وغيرهم، وكان الظهور للخوارج، وطالت الحروب بينهم وبين أهل السنة، حتى قيل إن **عمر بن أبي حفص** في بعض الوقائع سنة أربع وخمسين ومائة (154)، صالح أهل **القيروان أبا حاتم** على ما أحب، ارتحل عنهم الخوارج، وكتب أهل القيروان بكل ذلك إلى أبي جعفر المنصور، فبعث **يزيد بن قبيصة بن المهلب** واليا على إفريقيا، فزحفت إليه الإباضية، فكان مصاف القتال بطرابلس، فقتل أبو حاتم، وانهزم البربر، وضعفت شوكتهم، وتفرقت أحزابهم، وكانت حروبهم مع أهل السنة من لدن قتل عمر بن حفص بطبنة إلى انقضائه، ثلاثمائة

(1) مدينة طبنة كانت رومانية بالزاب حتى قيل إنها أعظم مدينة بين القيروان وسجلماسة، واتخذها المسلمون قاعدة الخلافة الثانية بعد القيروان، وكان يسكنها كسيلة، ثم تولى عليها إبراهيم ابن الأغلب في عهد الرشيد ـ مؤسس الدولة الأغلبية ـ.

وخمسا وسبعين حربا، وأزال **يزيد** فساد إفريقية، وهدأت البلاد، وقفل **بنو يفرن** إلى تلمسان، وداموا على الخارجية إلى أن محاها منهم **إدريس الأكبر** » اهـ.

ثم قال **أبو راس** في موضع آخر: « وكانت **تلمسان** في ملك أهل المغرب منهم ـ أي من **بني يفرن** ـ إلى أن فتحها عقبة بن نافع الفهري أيام **معاوية**، وتوالت عليها أعمال المسلمين، مثل **أبي المهاجر** وغيره إلى أن فشت الخارجية بالمغرب، فراجع **بنو يفرن** ملكهم بها إلى أن أخذها منهم مولانا إدريس الأكبر ثم ابنه **إدريس**... الخ » اهـ.

تلمسان في عهد الأدارسة:

قال الرحالة **أبو القاسم الزياني** في الموضوع: « ولما خلص إدريس بن عبد الله من واقعة أبي جعفر المنصور، وبلغ المغرب عام سبعين ومائة في خلافة موسى الهادي، واستولى عليه، وقام بدعوته برابرة أوربة، ومغيلة، ومكناسة، نهض إلى المغرب الأوسط، عام أربع وسبعين ومائة (174هـ)، فتلقاه **محمد بن خزر بن صولات** [1] أمير زناتة وتلمسان، فدخل في طاعته، وحمل عليها قومه مغراوة ومكنه منها فدخلها، وهو الذي اختط مسجدها بأجدير وصنع منبره، وأقام بها أشهرا، ورجع إلى المغرب [2]، ولما هلك إدريس وبويع ولده إدريس الأصغر بعد مدة وقدم إليها عام تسع وسبعين ومائة جدد مجدها وأصلح منبره، وأقام بها ثلاث سنين، دوخ فيها أقطار المغرب الأوسط،

(1) محمد بن خرز أمير قبيلة مغراوة التي بنيت في عهده مدينة وهران، وكان سليل أمراء مغراوة الذين تقاسموا حكم ما بين مليانة والمغرب مع أبناء عمِّهم مِن بني يفرن.

(2) قال المؤرخ ابن أبي زرع في (**القرطاس**): « إن إدريس دخل تلمسان من دون حرب فأمن السكان ثم بني مسجدا وكتب على المنبر هذا المسجد بني بأمر المولى إدريس بن عبد الله بن حسن ».

وقبائل زناتة، وعقد عليها لبني **محمد ابن عمه سليمان،** ورجع إلى المغرب، فلما انقرضت دولة الأدارسة، وقام **موسى بن أبي العافية المكناسي** بدعوة الشيعة، نهض إليها عام تسعة عشر وثلاثمائة وغلب عليها أميرها لذلك العهد **الحسن ابن أبي العيش** ».

استيلاء الشيعة على تلمسان:

استولى الشيعة على كثير من بلاد المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وبالجملة بلاد المغرب العربي كله، ومن بينها تلمسان، فأخرجوا أعقاب **محمد بن سليمان** ممثل الدولة الإدريسية، الذين التجؤوا إلى الريف ـ المغرب الأقصى ـ وتمسكوا بدعوة الأمويِّين ملوك الأندلس.

وحوالي سنة 340هـ ظهر في الأفق الأمير يلعي بن محمد اليفرني، الذي استرجع مواطن أسرته، وأسس قاعدة جديدة للمملكة الناشئة، سماها **(ايفكان)** قرب مدينة معسكر، ولا زالت إلى يومنا هذا القرية التي بنيت على أنقاضها تسمَّى: **(عين ايفكان)**.

أمكن للأمير يعلي هذا أن يستعين بمدد ملوك الأندلس الذين أضافوا له مدينتي وهران وتلمسان، اللتين كانتا تحت حكم قريبه، محمد بن خزر المغراوي، فاغتاظ بنو خزر، وتصالحوا مع الشيعة الذين ارسلوا قائدهم جوهر الصقلي، فقضى على الدولة الناشئة ليعلى اليفرني، وخرب ايفكان، وقتل يعلي، ففر ولده يدو إلى المغرب حيث أسس دولة بإعانة حماته من ملوك الأندلس.

وولى جوهر مكان يعلي محمد بن الخير المغراوي، إلا أن هذه التولية لم تطل، حيث قضى الشيعة على دولة مغراوة سنة 360هـ لخبر يطول.

ولنختم هذه الفترة من تاريخ مدينة تلمسان بما ذكره المؤرخ ابن خلدون فهو أوضح وأشمل قال: « هذه المدينة قاعدة المغرب الأوسط وأم بلاد زناتة، اختطها بنو يفرن بما كانت في مواطنهم، ولم نقف على أخبارها فيما قبل ذلك... إلى أن قال: ((ولم أقف لها على خبر أقدم من خبر ابن الرقيق، بأن أبا المهاجر الذي ولي افريقية بين ولايتي عقبة بن نافع الأولى والثانية، توغل في ديار المغرب ووصل إلى تلمسان، وبه سميت عيون أبي المهاجر قريبا منها ... »، ثم قال: « ... وذكرها الطبري عند ذكر أبي قرة، وإجلائه مع أبي حاتم، والخوارج على عمر بن حفص ، ثم قال: فأفرجوا عنه، وانصرف أبو قرة إلى مواطنه بنواحي تلمسان» ، ولما خلص إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن إلى المغرب الأقصى، واستولى عليه، نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين ومائة (174هـ)، فتلقاه محمد بن خزر بن صولات، أمير زناتة (مغراوة) بتلمسان فدخل في طاعته وحمل عليها مغراوة وبني يفرن وأمكنه من تلمسان فملكها. واختط مسجدها وصعد منبره وأقام بها أشهرا وانكفأ راجعا إلى المغرب، وجاء على إثره من المشرق أخوه سليمان بن عبد الله فنزلها وولَّاه أمرها، ثم هلك إدريس، وضعف أمرهم، ولما بويع لابنه إدريس من بعده واجتمع إليه برابرة المغرب، نهض إلى تلمسان سنة تسع وتسعين ومائة (199هـ)، فجدد مسجدها، وأصلح منبرها، وأقام بها ثلاث سنين، دوخ فيها بلاد زناتة ... الخ اهـ.

استرجاع الأمير يعلي اليفرني مدينة تلمسان:

قال ابن خلدون: « ولما تولى يعلي اليفرني عظم صيته، واختط مدينة (**ايفكان**)، ولما خطب عبد الرحمن الناصر، ملك الأندلس، طاعة الأموية من زناتة أهل العدوة

واستألف ملوكهم، سارع يعلي لإجابته، واجتمع عليها مع الخير بن محمد بن خزر وقومه مغراوة، و أجلب على وهران فملكها سنة ثلاث و أربعين وثلاثمائة (343هـ) من يد محمد بن عون، وكان ولاه عليها صولات اللبيصي أحد رجال كتامة سنة ثمان وتسعين ومائتين، فدخلها يعلي عنوة على بنيه وخربها. وكان يعلي قد زحف مع الخير بن محمد إلى تاهرت... وتقبض على ميسور وعبد الله بن بكار... واستفحل سلطان يعلى في ناحية المغرب، وخطب على منابرها لعبد الرحمن الناصر ملك الأندلس ما بين تاهرت إلى طنجة، واستدعى ـ أي يعلي اليفرني ـ من الناصر تولية رجال بيته على أمصار المغرب فعقد على فاس لمحمد بن الخير... الخ ».

وهكذا نجد أمراء مغراوة وبني يفرن لقوا العون من ملوك الأندلس، فعوضوهم بممالك في الغرب الأقصى إلى أن استرجعوا مناطق نفوذهم بالجزائر، فزيري بن عطية المغراوي[1] استرجع تلمسان والقطاع الغربي من الجزائر، ويدو بن يعلي استرجع تلمسان بعد أن ترك أفراد أسرته بصمات أصابعهم في المغرب كفاس وسلا، ولا زالت كثير من آثار دولتهم المشهورة إلى الآن تؤرخ بعهد دولة بني يعلي. أما تلمسان فكان يتقاسم حكمها خلال هذه الفترة بنو يعلي ومغراوة إلى إن أزاحهم عنها المرابطون اللمتونيون.

هذه في الجملة الأحداث التي توالت على تلمسان منذ فتحها المسلمون ذكرناها بإجمال، والمراد بتلمسان في هذه الحقبة، أي من عهد الفتح الإسلامي إلى أن استولى عليها المرابطون الَّلمتونيون، ربض أجدير الحالي، فهو الذي كان يطلق على مدينة

(1) زيري بن عطية المغراوي مؤسِّس مدينة وجدة (المغرب الأقصى).

تلمسان التي أسسها بنو يفرن على أنقاض بوماريا الرومانية، وقد عرفها أبو عبيد عبد الله البكري في تأليفه (**المسالك**) فقال: « وهي مدينة مسورة في سفح جبل شجرة الجوز، ولها خمسة أبواب، ثلاثة منها في القبلة، باب الحمام وباب وهب [1] وباب الخوخة، وفي الشرق باب العقبة، وفي الغرب باب أبي قرة وفيها للأول آثار قديمة، وبها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا، ولهم بها كنيسة معمورة، وأكثر ما يوجد الركاز في تلك الآثار. وكان الأول ـ يقصد الرومان ـ قد جلبوا إليها ماء من عيون تسمى: لوريط [2]، بينها وبين المدينة ستة أميال، وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط، ولها أسواق ومساجد، ومسجد جامع، وأشجار وأنهار عليها الطواحين، وهو نهر سطفسيف، وهي دار مملكة زناتة، وموسطة قبائل البربر، ومقصد لتجار الآفاق، ونزلها محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب، ومن ولده عيسى أبو العيش بن إدريس بن محمد بن سليمان الذي بني جراوة وكان أميرها، وبها توفي، ولم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمه الله » اهـ.

والمدينة القديمة، وإن اندثرت معالمها خصوصا أبوابها، فان بابا منها خلده ضريح العالم المحدث أحمد بن نصر الداودي المتوفى بتلمسان سنة 402هـ، حيث أثبت مترجموه أن قبره عند باب العقبة، ولا زال ضريح الداودي من مزارات تلمسان الشهيرة، كما لا زالت بعض الأسر التلمسانية تنتسب إليه.

(1) قيل إن وهب ابن منبه كان من جملة الفاتحين وضريحه بتلمسان.
(2) لا زال الوريط محتفظا باسمه، وهو مِن منتزهات تلمسان، وقد خلّد اسمه كثير مِن الشعراء، خصوصا أبا عبد الله محمد بن خميس (650 ـ 708هـ).

تلمسان في عهد دولة المرابطين:

قيل: إن يوسف بن تاشفين بعث قائده مزدالي لاحتلال تلمسان قاعدة بني يفرن ومغراوة إذ ذاك، ثم لحقه هو بنفسه فاحتلها، وواصل هجوماته إلى عاصمة الجزائر، كما قيل: إن السبب في ذلك أنه لما اشتدت الحرب بين الناصر الحمادي ملك بجاية وابن عمه تميم ملك تونس، وصادف تهديد روجار المسيحي ملك صقلية المهدية ـ قاعدة مملكة بني زيري إذ ذاك ـ استنجد تميم بالملك يوسف بن تاشقين، فكان هذا من أسباب مواصلته للهجوم على الجزائر، وقاومه المنصور بن الناصر ورده إلى منطقته بل احتل مدينة تلمسان لخبر يطول.

وعلى كل حال، امتاز عهد المرابطين في تلمسان بأنهم هم الذين وضعوا لبنة المدينة الحالية، وشيدوا فيها القصور والمسجد الجامع الذي لا زال من مفاخر الفن الإسلامي، ثم دالت دولتهم بعد ثورة المهدي بن تومرت وتلميذه عبد المؤمن بن علي مؤسسي دولة الموحدين.

ولاية عبد المؤمن بن علي الكومي:

كومية قبيلة بربرية عتيدة شمال تلمسان، وصارت الآن تدعى بقبيلة ترارة، وفي هذه القبيلة توجد مدينة هنين، المرسى الثانية لمدينة تلمسان ومرساها الأولى أرشقول، وفي ضواحي مدينة هنين، ولد عبد المؤمن بن علي، في قرية لا زالت محتفظة باسمها الذي كان يطلق عليها في عهد عبد المؤمن بن علي، وهي قرية بني عابد، كان عبد المؤمن بسيطا، حيث كان والده خزافا، والحديث عن عبد المؤمن، كالحديث عن يوسف بن تاشفين، لا تسعه المجلدات، وهو مبسوط في كتب التاريخ، وإنما اقتصرنا في هذه

الدراسة على ذكر نبذ من مراحل تلمسان عبر تاريخها، واخترنا لذلك أهم المصادر التي قتلت بحثا، وجنبنا القارئ الدخول في التفاصيل التي لا يسعها مجال هذه الدراسة المحدود، خصوصا، وإن هذا الملتقى سيحظى بدراسات قيِّمة، سواء في المحاضرات أو في مقالات العدد الخاص مِن مجلة **(الأصالة)**، حتى يتمكَّن القارئ الذي لم تسبق له معرفة بالبلاد أو بتاريخها، أن يتصوَّر تاريخ البلاد المرتبط بتاريخ البلاد الإِسلامية من عهد الفتوحات.

ولد عبد المؤمن في ولاية تلمسان، وبها قرأ، وفي مدينة تلمسان قضى على آخر ملك من دولة المرابطين، إذ حاصر تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين مدة، ولما يئس تاشفين أسر إلى قائد جيشه، أن يهيِّئ له الأسطول بمرسى وهران حتى يمكنه الإبحار منه إلى جزر ميورقة، حيث كان أقاربهم من بني غانية ولاة، إلا أن وجوده بوهران لم يخف على عيون عبد المؤمن، الذين كانوا له بالمرصاد، وقتل تاشفين في وهران لخبر يطول، فاستولى عبد المؤمن على وهران وتلمسان، إلا انه انتقم من سكان المدينتين الذين انتصروا لتاشفين.

قال ابن خلدون: «ولما غلب عبد المؤمن لمتونة، وقتل تاشفين بن علي بوهران خربها وخرب تلمسان، بعد أن قتل الموحدون عامة أهلها، وذلك أعوام أربعين من المائة السادسة (540هـ).

ثم راجع رأيه فيها ـ أي تلمسان ـ وندب الناس إلى عمرانها، وجمع الأيدي على رم ما تثلم من أسوارها ... »، إلى إن قال: « ... ثم عقد عليها لابنه السيد أبي حفص، ولم يزل آل عبد المؤمن بعد ذلك يستعملون عليها من قرابتهم وأهل بيتهم، ويرجعون إليه

أمر المغرب كله وزناتة أجمع، اهتماما بأمرها، واستعظاما لعملها ... الخ ».

كان للتطور الزمني أحكامه القاسية، إذ بعد ذهاب الطبقة الأولى من ملوك الموحدين، الذين خلد لهم التاريخ صفحات العظمة والبطولة والحزم، حيث أحيوا معالم بلاد المغرب العربي والأندلسي، وشجعوا الثقافة وبعثوها مِن مرقدها، ولا زالت آثارهم ببلاد المغرب والأندلس حجة لمن شك في ذلك، فبعد غياب هذه الطبقة، خلف من بعدها خلف، وصف بعضه **ابن خلدون** فقال: « ولما هلك **الناصر** رابع خلفاء الموحِّدين بالمغرب سنة عشر وستمائة هجرية، بعد مرجعه من غزاة العقاب بالأندلس، وقام بأمر الموحدين من بعده ابنه يوسف المستنصر، نصبه الموحدون للأمر غلاما لم يبلغ الحلم، وشغلته أحوال الصبا وجنونه عن القيام بالسياسة، وتدبير الملك، فأضاع الحزم وأغفل الأمور، وتواكل الموحدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه، ونفس عن مخنقهم من قبضة الاستبداد والقهر، فضاعت الثغور، وضعفت الحامية، وتهاونوا بأمرهم وفشلت ريحهم» اهـ.

هذا علاوة على أسباب أخرى أطاحت بهذه الدولة العظيمة، وأسرعت تفككها، منها هجوم بقايا دولة المرابطين بجزر ميورقة.

ولنترك الحديث إلى ابن خلدون الذي صور لنا هذه الفترة بقوله: « وصرف ولاة الموحدين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم بشأنها إلى تحصينها وتشييد أسوارها... وكان من أعظمهم اهتماما بذلك، وأوسعهم فيها نظرا، السيد أبو عمران موسى بن أمير المؤمنين يوسف، ووليها سنة ست وخمسين ـ أي: سنة (556هـ) على عهد أبيه يوسف بن عبد المؤمن، واتصلت أيام ولايته بها، فشيد بناءها وأوسع خطتها،

وأدار سياج الأسوار عليها، ووليها بعد السيد أبو الحسن بن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن... ولما كان من أمر ابن غانية اللمتوني صاحب جزر ميورقة وخروجه من ميورقة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة (581هـ)... وكان ابن غانية كثيرا ما يجلب على ضواحي تلمسان إلى أن خرب كثيرا من أمصارها ... الخ ».

ولنختم هذه الفترة بما وصف به تلمسان الشريف الإدريسي الذي قال: « وتلمسان أزلية ولها سور حصين متقن الوثاقة، وهي مدينتان في واحدة، يفصل بينهما سور، ولها نهر يأتيها من جبلها المسمى بالصخرتين، وعلى هذا الجبل حصن بناه المصمودي قبل أخذه تلمسان، ولم يزل المصامدة قاطنين به إلى أن فتحوا تلمسان، وهذا الوادي يمر في شرقي المدينة وعليه أرحاء كثيرة وما جاورها من المزارع كلها مسقي، وغلاتها ومزارعها كثيرة، وفواكهها جمة، وخيراتها شاملة، ولحومها شحيمة سمينة، وبالجملة إنها حسنة، لرخص أسعارها، ونفاق أشغالها، ومرابح تجاراتها، ولم يكن في بلاد المغرب، بعد مدينة أغمات وفاس، أكثر من أهلها أموالا، ولا أرفه منهم حالا ... الخ »، وبعد ضعف الحكومة الموحدية المركزية، تنازع أنصارهم على الوراثة، واستعملوا السلاح حكما، فكان نصيب تلمسان لبني عبد الواد المشهورين بني زيان.

تلمسان في عهد ملوك بني زيان: دامت دولة بني زيان في تلمسان حوالي 327 سنة، أي من سنة 637هـ إلى سنة 956هـ على أصح الروايات.

وكانت ميزة هذه الدولة أنها حكمت تلمسان ومعظم بلاد الجزائر الحالية إلى القطاع القسنطيني، بخلاف الدول التي ذكرناها ابتداء من دولة الأدارسة، إذ كانوا يحكمون تلمسان بالتبعية إلى بلاد المغرب الأقصى: الأدارسة، المرابطون، ثم الموحدون. ولهذا

اشتهر بنو زيان، بنسبة تلمسان إليهم، إذ يعرف بنو زيان، في مختلف كتب التاريخ، بأنهم ملوك تلمسان، تولى في هذه الفترة التي تربو على الثلاثة قرون، خمسة وعشرون ملكا، ينقسمون إلى طبقتين:

الطبقة الأولى: تشمل خمسة ملوك، وأولهم يغمراسن بن زيان الذي يعد بحق مؤسس دولة بني زيان، ولو سبقه بعض أقاربه، وآخرهم أبو تاشفين الأول الذي وقع في عهده احتلال ملوك بني مرين لتلمسان بعد حصار دام سنوات لم يشهد التاريخ حصارا مثله، وقد رفض الملك أبو تاشفين الأول الاستسلام، بل دافع دفاع الأبطال، وقتل في المعركة، وهو شاهر سيفه.

والطبقة الثانية من أفراد ملوك بني زيانك تشمل عشرين ملكا، أولهم أبو حمو موسى الثاني، وآخرهم مولاي الحسن، الذي وقع في عهده احتلال الأسبان لمدينة وهران، وتخلل هذه الفترة أي بين أبي تاشفين الأول وأبي حمو موسى الثاني، احتلال بني مرين لتلمسان، مدة ربع قرن تقريبا، كان السبب في تولية بني زيان على تلمسان أنه لما ضعفت الدولة المركزية للموحدين لعدة أسباب ذكرنا بعضها، وكان من بينها، تسلسل شن غارات بني غانية، وضعف ولاة الموحدين. ومنها أيضا أن الخليفة المأمون منهم، استعمل أخاه أبا سعيد على تلمسان، وكان ضعيف التدبير، فاستغله خصوم بني زيان الذين كانوا قابضين على زمام الحكم، وكانوا أخلص القبائل لدولة الموحدين فوشوا بهم، فألقى أبو سعيد على بعض أمرائهم القبض، فكانت شرارة الانتفاضة والإطاحة بوالي الموحدين، وبقي التصرف لبني زيان إلى أن تولى منهم يغمراسن بن زيان سنة (633هـ).

كان يغمراسن أمثل شيوخ بني زيان، توفرت فيه عدة خصائل، منها الشجاعة، وقوة الإرادة، والحكمة، ومتانة الدين، ولهذه الصفات ترك الدعاء على منابر تلمسان لخلفاء الموحدين، واحتفظ بلقبه الأصلي أي: « شيخ »، لقب كان يطلق في عهد الموحدين على رؤساء القبائل.

امتازت دولة بني زيان مدة حكمها بتلمسان بتشجيع الثقافة، وجلب كبار العلماء إلى عاصمتهم من الجزائر والمغرب والأندلس، فأول عمل قام به يغمراسن، هو استدعاء العالم الشهير إبراهيم بن إسحاق بن يخلف التنسي، وأخيه أبي الحسن، الذي لا زال مسجد بتلمسان يحمل اسمه ـ المتحف الحالي ـ كما جلب الأديب الأندلسي الشهير أبا بكر بن خطاب المرسي الأندلسي وغيرهم. وكان من آثار يغمراسن بناء منارة جامع إدريس بربض أجادير، ومنارة الجامع الأعظم، ولما أتم بناءهما وجدها تطل على القصر القديم الذي بناه علي بن يوسف بن تاشفين قرب الجامع الأعظم، وكان مقر ملوك المرابطين، ثم الموحدين من بعدهم، فأنشأ قصبة المشور الحالية، واتخذها مقرا لإدارته، ومسكنا له ولوزرائه. وهناك رواية تذكر أن قصبة المشور بناها بعض ملوك الموحدين، وعلى كلتا الروايتين، فإن الذي انتقل من القصر الكبير إلى قصر المشور هو يغمراسن للعلة التي ذكرناها، وهي أن منارة المسجد الجامع كانت تطل على القصر القديم.

وامتاز عصر **بني زيان** بوفود علماء البلاد والأندلس ابتداء من توليه **يغمراسن**، وقد خصص كثير من العلماء لهذه الفترة كتبا قيمة، تعرضوا فيها لمآثر بني زيان، ولتراجم علماء تلمسان عبر تاريخها المزدهر، ومن هذه التأليف (**بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد**) لـ : **يحيى بن خلدون** أخ المؤرخ، و (**ديوان العبر**) لعبد الرحمن بن خلدون الذي عقد فصولا

طويلة لأحداث المدة التي عاشها في ظل هذه الدولة، وكتاب (**نظم الدرر والعقيان في تاريخ ملوك بني زيان**) [1] للحافظ التنسي، وأخيرا كتاب: (**أبو حمو موسى الثاني**) للدكتور حاجيات، الأستاذ بجامعة الجزائر. ولنختم هذه الصفحة بما قاله ابن خلدون عن بني زيان مدة حكمهم قال: « ولم يزل عمران تلمسان يتزايد، وخطتها تتسع الصروح بها باآجر والقرميد، تعلى ةتشاد إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها دارا لملكهم وكرسيا لسلطانهم، فاختطوا بها القصور المونقة، والمنازل الحافلة، واغترسوا الرياض والبساتين، وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل إليها الناس، ونفقت بها أسواق العلوم و الصنائع، فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام» اهـ.

هذه في الجملة صفحات من تاريخ تلمسان قبل احتلال الأسبان لوهران، ثم لها، ودخول الأتراك في الميدان وافتِكاكها مِن أيدي الأسبان بعد أن قضوا على المتلاعبين بحقوق البلاد من بقايا أمراء بني زيان، الذين لقنهم عروج أخو خير الدين درسا قاسيا، بقي عبرة للتاريخ، وقبل أن نتعرض لهذه الصفحة من تاريخ تلمسان في العهد التركي نستعرض آراء بعض كبار العلماء والرحالين الذين سجلوا انطباعاتهم على تلمسان في مختلف عصورها.

عرفها الرحالة أبو عبد الله محمد العبدري الحيحي في رحلته المسماة: (**الرحلة المغربية**) في أواخر القرن السابع الهجري بقوله: « وتلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية جميلة المنظر، مقسومة باثنتين بينهما سور، ولها جامع مليح متسع و بها أسواق، وأهلها ذوو ليانة، ولا بأس بأخلاقهم، وبظاهرها في سند الجبل موضع يعرف بالعُبّاد، وهو

---

(1) كتاب: (**نظم الدر والعقيان**)، ألَّفه التنسي حوالي سنة 860هـ.

مدفن الصالحين وأهل الخير، وبه مزارات كثيرة من أعظمها وأشهرها قبر الشيخ الصالح القدوة، فريد زمانه **أبي مدين** (رحمه الله ورضي عنه ورزقنا بركته)، وعليه رباط مليح مخدوم مقصود، والدائر بالبلد كله مغروس بالكرم وأنواع الثمار، وسوره من أوثق الأسوار وأصحها، وبه حمامات نظيفة، ومن أوسعها وأحسنها وأنظفها حمام العالية وهو مشهور، وقلّ أن يرى له نظير، وهذه المدينة بالجملة، ذات منظر ومخبر، وأنظارها متسعة، ومبانيها مرتفعة، ولكنها مساكن بلا سكن، ومنازل بغير نازل، ومعاهد أقفرت من متعاهد، تبكي عليها فتنسكب الغمام الهمّع، وترثي لها فتندب الحمام الوقّع، إن نزل بها مستضيف قرته بؤسا، أو حل فيها ضيف كسته من رداء الردى لبوسا، وأما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد، وغاضت أنهاره فازدُحم على الثماد، فما ظنك بها وهي رسم عفا طلله، ومنهل جف وشَلُه ... الخ».

ثم ضرب أمثلة لما قاله عن علمائها بما شاهده في بعض حلقات الدروس، تدل على ضعف أصحابها، وأن العبدري كما هو مشهور متشائم جدا، ضنين بالاعتراف للعلماء الذين لم تتوفَّر فيهم المقاييس التي يراها موجبة لهذا الاعتراف، إذ رأيناه زار في رحلته كثيرا من العواصم العلمية كبجاية، وقسنطينة، وغيرهما، وحكم على أهلها بالجهل، وحتى تلمسان فإنه اعترف أنه لما وصل إلى مصر واجتمع ببعض علمائهم وذكر لهم أن تلمسان خالية من العلم ردَّ عليه هذا العالم [1]، وقال له: « بلاد فيها مثل إبراهيم بن يخلف ـ الذي تحدثنا عنه – وذكرنا أنه جلبه يغمراسن بن زيان مع أخيه أبي الحسن ـ لا يقال إنها خالية من العلم ... الخ».

(1) هو زين الدين بن المنير، ذكره العبدري في **(رحلته)**.

وقد سبق العبدري الأديب الأندلسي أحمد بن عميرة المخزومي المشهور بأبي المطرف، فعرفها عندما كان قاضيا بسلا في عهد الرشيد خليفة الموحِّدين، وذلك سنة (639هـ)، فقال في حديثه عن تلمسان: « ... وهي البلدة العتيقة، والروضة الأنيقة، جمعت محاسن المدائن منها في مدينة، واشتملت على أكمل عدة ليومي حرب وزينة، حشوها السلاح والكراع، وفاخر متاعها لا يضاهيه المتاع ... الخ ».

كما عرف بها بعدهما لسان الدين بن الخطيب السلماني صاحب **(الإحاطة في أخبار غرناطة)**، فقال: « ... تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجه ... هواها المقصور بها فريد، وهواؤها الممدود صحيح عيتد، وماؤها بارد صريد، حجبتها أيدي القدرة عن الجنوب، فلا نحول فيها ولا شحوب، خزانة زرع، ومسرح ضرع، وفواكهها عديدة الأنواع، ومتاجرها فريدة الانتفاع، وبرانسها رقاق رفاع، إلا أنها بسبب حب الملوك [1]، مطمعة للملوك، ومن أجل جمعها الصيد في جوف الفرا، مغلوبة للأمرا، أهلها ليست عندهم الراحة، إلا فيما قبضت عليه الراحة، ولا فلاحة، إلا لمن أقام رسم الفلاحة، ليس بها لسع العقارب، إلا فيما بين الأقارب، ولا شطارة، إلا فيمن ارتكب الخطارة » اهـ.

هذه نماذج من انطباعات علماء مختلف العصور عن مدينة تلمسان عبر تاريخها، خصوصا في عهد من استقل بحكمها، وهم ملوك بني زيان، الذين لم يهنأ لهم بال، طيلة القرون التي حكموها فيها. فعلاوة على أبناء عمومتهم بني مرين الذين ثاروا على الدولة الموحدية بسبب اصطفائهم لدولة بني عبد الواد، وواصلوا ثورتهم ما يقرب من

(1) حب الملوك: اسم لثمرة الكرز الكثيرة في تلمسان.

القرنين،ظهر خصوم آخرون، وهم بنو حفص ملوك تونس والقطاع الشرقي من الجزائر كبجاية وقسنطينة، وانضم إلى الخصوم والأعداء أمراء بني توجين (جبل ونشريس) ومغراوة أمراء (مازونة)، وغم هذا كله أمكن لملوك بني زيان الاحتفاظ بسيادة البلاد ووحدة ترابها، وازدهرت تلمسان في عهدهم، وزاحمت عواصم العالم الإسلامي في ميادين الثقافة والصناعة والاقتصاد، وتكونت فيها شركات تجارية تصدر البضائع الأوروبية إلى السودان، وتستورد منها العاج، وريش النعام، ودقيق الذهب، وكانت لهذه القوافل محطات، وحرس من تلمسان إلى سجلماسة، ومنها إلى طنبكتو بمالي الحالية.

وقد ذكر صاحب (**نفخ الطيب**) في ترجمة جده محمد المقري، بتفصيل بعض هذه الشركات التي أسَّسها بعض أجداده، وإذا كُتِبَ لتلمسان أن تنهار بعد ما أصابتها الشيخوخة والهرم، فقد كانت عوامل أخرى لا يسع المقام للتوسع فيها، إنما نقتصر على ما قاله ابن خلدون الخبير هذا الشأن، قال يصف عهده في مقدِّمة (**ديوان العبر**): « وأما لهذا العهد ـ وهو آخر المائة الثامنة ـ فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه، وتبدَّلت بالجملة ... »، ثم يذكر بعض أسباب التغيير فيقول: « هذا إلى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيف الأمم، وذهب بأهل الجبل، وطوى كثيرا من محاسن العمران، ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها، وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها، وفل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار

والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن ... »، ثم قال ابن خلدون إن هذا التدهور لم يلحق بلاد المغرب بأفرادها: « ... وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار... » انتهى كلام ابن خلدون الذي عاش أحداث بلاد المغرب والمشرق، واطلع على الخبايا.

ونجد أستاذه العالم التلمساني محمد المقري يشاركه في رأيه ويعلِّله بأسباب أخرى هي هذه: قال: «سألني بعض الفقراء عن السبب في سوء بخت المسلمين في ملوكهم، إذ لم يل أمرهم مَن يسلك بهم الجادة، ويحملهم على الواضحة، بل من يغتر في مصلحة دنياه غافلا عن عاقبة أخراه، فلا يرقب في مؤمن إلًّا ولا ذِمَّة، ولا يراعي عهدا ولا حرمة، فأجبته: بأن ذلك لأن الملك ليس في شريعتنا، وذلك أنه كان فيمن قبلنا شرعا، قال الله تعالى ممتنا على بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ (المائدة: 20)، ولم يكن ذلك في هذه الأمة، بل جعل لهم خلافة، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية (النور:55)»، إلى أن قال: «... فكان أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ وإن لم يستخلفه نصا، لكن فهم الناس ذلك فهما، وأجمعوا على تسميته بذلك، ثم استخلف أبو بكر عمر، فخرج بها عن سبيل الملك الذي يرثه الولد عن الوالد، إلى سبيل الخلافة الذي هو النظر والاختيار، ونص في ذلك على عهده، ثم اتفق أهل الشورى على عثمان، فإخراج عمر لها على بنيه إلى الشورى دليل على أنها ليست ملكا ... »، إلى أن قال: « ... ثم كان معاوية أول من حول الخلافة ملكا، والخشونة لينا، ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم، فجعلها ميراثا، فلما خرج بها عن وضعها لم يستقم ملك فيها، ألا ترى أن عمر بن العزيز (رضي الله عنه) كان خليفة

لا ملكا، لأن سليمان (رحمه الله تعالى) رغب عن بني أمية إيثارا لحق المسلمين، ولئلا يتقلدها حيا وميتا، وكان يعلم اجتماع الناس عليه، فلم يسلك طريق الاستقامة بالناس قط إلا خليفة، وأما الملوك فعلى ما ذكرت إلا من قل، وغالب أفعاله غير مرضية » انتهى [1]، ذكر هذه الفتوى أحمد المقري في نفخ الطيب عند ترجمته جده المذكور.

إن تصريحا كهذا في عهد لم يعرف إلا الملوك والسلاطين، لدليل على أن كثيرا من علمائنا لم تنقصهم الشجاعة. وآثرنا تسجيل هذه الفتوى على طولها، للاستدلال على موقف عالم من علماء تلمسان في عهدها الزاهر، سجل له التاريخ مواقف بطولية.

ولنجع إلى مواصلة حديثنا عن تلمسان قبل نهاية حكم ملوك بني زيان، لنرى أن كثيرا من المؤرخين والرحالين تعرضوا بتفصيل لحالتها السيئة إذ ذاك، ومنهم الرحالة عبد البسيط المصري الذي أقام بها مدة حوالي سنة 870هـ.

وقبل أن نتعرض للحديث عن تلمسان في العهد التركي الذي نختم به داستنا هذه، ننجز ما وعدنا به في أول هذه الدراسة من التوسع ـ ولو نسبيا ـ في الحديث عن المدن التي اشتهرت ولعبت أدوارا هامة مرتبطة بأحداث العالم وهي: سيقا، ومرساها أرشقول، وهنين.

فسيقا مدينة بل عاصمة في العهد الفينيقي لسيفاكس البربري، الذي يحكم القطر الجزائري في العهد الفينيقي، ويتمتع باستقلال داخلي، وكانت له عاصمتان سيقا في القطاع الغربي، وسيرتا (قسنطينة) في القطاع الشرقي، وعندما اندلعت الحرب بين روما

(1) كتاب: **(نظم الدر والعقيان)** أَلَّفه التنسي حوالي سنة 860هـ.

وقرطاجنة وانتقلت رحاها إلى اسبانيا في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، وبالضبط سنة 206 ق. م. تسابق القائد الروماني سيبيون والقائد الفينيقي اسدريبال إلى مخاطبة سيفاكس للاستعانة بجيشه، قيل إن القائدين المذكورين وصلا إلى سيقا من دون أن يعلم أحدهما بالآخر، حاول سيفاكس أن يصلح ذات البين بين ضيوفه، إلا أن محاولته فشلت، واستأنفت الحرب بينهما من جديد، وكان سيفاكس من أنصار الفينيقيين الذين انهزموا، وألقي القبض على سيفاكس، فبعدئذ تقدم خصمه اللدود يبيون فخطب زوجته (أي زوجة سيفاكس) الجميلة بنت القائد الفينيقي اسدريبال وكانت شريفة فاختارت الانتحار على خيانة زوجها، ذكرنا هذه القصة لنستدل على مكانة بعض المعالم الجزائرية في التاريخ.

أما مرساها أرشقول فهي من المراسي القديمة التي وصفها كثير من الرحالين ابتداء من القرن الرابع، إذ كانت أهم مراكز الدولة الإدريسية، وقد وصفها البكري بقوله: « ... وارشقول ساحل تلمسان، وبين مدينة أرشقول وتلمسان فحص أزيدور، وطوله خمسة وعشرون ميلا، ومدينة أرشقول على نهر تافنة يقبل من قبليها ويستدير بشرقيها، يدخل فيه السفن اللطاف من البحر إلى المدينة، وبينهما ميلان، وهي مسورة، وبمدينة أرشقول جامع حسن فيه سبعة بلاطات، وفي صحنه جب كبير، وصومعة متقنة البناء، وفيها حمامان أحدهما قديم، ولها من الأبواب، باب الفتوح غربي، وباب الأمير قبلي، وباب مرنيسة شرقي، محنية كلها عليها منافس وسعة، سورها ثمانية أشبار، وأمنع جهاتها جوفيها، وبها آبار عذبة لا تغور، تقوم بأهلها وبمواشيهم، ولها ربض من جهة القبلة... وكان يسكنها التجار ونزلها عيسى بن محمد بن سليمان ـ من الأدارسة ـ

ووليها وتوفي بها سنة خمس وتسعين ومائتين (295هـ) 1؟

أما هنين، فهي التي تقدم لنا أنه ولد بها عبد المؤمن بن علي، وعرفت في العهد الإسلامي ابتداء من أوائل القرن الثالث الهجري،وقد وصفها كثير من الرحالين، ولما خرب بنو غانية مرسى أرشقول في أوائل القرن السابع، بقيت هنين مرفأ لتلمسان، وقد زارها الرحالة الأندلسي خالد البلوي حوالي سنة 730ه. ووصفها بقوله: « ... فرأيت بليدة نضيرة، لا كبيرة ولا صغيرة، جليلة المنظر، متوسطة بين الصغر والكبر، موضوعة أسفل جبلين بين بحر وشجر، يحفظها ارتفاع قلعة، دار صنعة، وأسواق موفورة، ومساجد معمورة، ولقربها من الأندلس هي مذكورة »، والآن نواصل حديثنا عن تلمسان في العهد التركي.

تلمسان في العهد التركي:

مما لا شك فيه أن تلمسان تدهورت في العهد التركي وفقدت مكانتها العلمية والسياسية، واحتفظت نوعا ما بمركزها الاقتصادي، أما من الناحية العلمية فنجد في كتب التراجم كدوحة الناشر في علماء القرن العاشر، ونزهة الحادي في علماء القرن الحادي لليفرني، تراجم لكثير من أعلام تلمسان الذين هاجروا بلادهم للاضطرابات التي سادت في البلاد إذ ذاك. وقد زار الرحالة أبو القاسم الزياني تلمسان في أوائل القرن الثالث عشر، وأقام بها مدة وسجل انطباعاته في رحلته (**الترجمانة الكبرى**) قال: « ولما دخلت مدينة تلمسان، التي لا يعرفني بها إنسان، خالي الكيس من النقير والقطمير، ولا معين ولا أنيس، ولا مشير، فكنت أقصد المسجد الجامع، لعلي اجتمع برئيس، أو أظفر بخل أتخذه لوحشتي أنيسا، وابحث عن الأعيان والأعلام، وأهل المحابر

والأقلام، وكان يمر بي رجل بهي المنظر،نظيف الثياب صقيل المغفر، يلحظنى شزرا، ويميل عني كبرا، يطرق البادي ولا يسلم، ويبخل بالجواب عن المتكلم، يرى أنه من الطبقة العليا، وفوق المريخ والثريا، وأحسبه من جهابذة الأعلام، وممن له الصدارة بين شيوخ الإسلام، فقصد الكرسي يميس ويتبختر، وصعد على أدراجه ينتثر، فدنوت منه شغفا بعادتي، وجرني لقربه نبلي وبراعتي، لأغترف من بحره، وأنال لطيفة من وقره، فلم أجد في سفرته ثمرا منه ألتقط، ولا في روضته زهرا قطافه أغتبط، وكنت أعتقد أن حركاتي لا تبطي، وفراستي لا تخطي، فرجعت على نفسي باللوم ... وقلت بماذا يفتخر هذا ويتكبر، ويجر ذيوله علينا ويتجبر ... »، إلى أن قال: « ... ولما سألت عن حاله ومنصبه، المغتر بجماله، قيل لي إنه قاضي المواريث، من محلي الخبائث، فحينئذ قطعت نظري عن الأنيس، ونزهت نفسي عن تكبر كل خسيس، وقصدت قرية أبي مدين بالعباد، واعتزلت بها عن العباد، وقلت مخاطبا لهذا المتكبر، الذي هو بقسم الترائك يفتخر:

يا من تكبر فوق ما يناسبه ... وظن أن خدمته الشمس والقمر

وتاه عجبا وضن ببشاشته ... وازور من قسوة تخاله الحجر

إلى أن يقول:

كانت تلمسان بالأعلام صائلة ... وبالجياد ولم تربط بها الحمر

أصابها المسخ إذ عادت تباع بها ... مناصب العلم للأجلاف والخور

وكيف لا وجنود الترك حولكم ... تسوقكم بعصي-الخسف لا تذر

الخ». وهي قصيدة تربو أبياتها على (30).

فان انطباعات الرحالة الزياني تعطينا صورة عن حالة تلمسان في العهد التركي، خصوصا الحياة الثقافية. وقد زار تلمسان في أوائل القرن العاشر بعد احتلال الأسبان لوهران، الحسن الوزان المشهور بليون الإفريقي فأيد ما قاله الزياني، حيث وجد طبقات العلماء هم أسوا الطبقات حالا قال: « تلمسان مدينة عظيمة، وهي قاعدة المملكة، يقال إنها تمصرت وتضخمت بعد خراب أرشقول، فبلغ سكانها 16000 كانونا ـ أي أسرة ـ في عهد الملك أبي تاشفين »، وبعد أن ذكر نبذة من تاريخها والظروف التي احتلها فيها بنو مرين، ذكر معالمها كالمدارس والقصور، والفنادق الخاصة بالتجار الايطاليين، ثم تحدث عن الجالية اليهودية فقال: « يوجد حي كبير يشمل حوالي خمسمائة دار لليهود، جلهم أغنياء»، ثم وصف منتوجات تلمسان من الفواكه فقال: « إن بها حب الملوك من جميع الأنواع وبكثرة لم أر مثلها في أي بلد كان، وأما التين الأسود المستطيل البالغ النهاية في الجودة، وكذلك الخوخ والجوز واللوز والبطيخ والخيار وبقية الفواكه فإنها كثيرة».

ثم تعرض لطبقات السكان فقسمهم إلى أربعة أقسام: الصناع، والتجار، والطلبة، والجنود، ثم قال: « أما التجار فإنهم رجال مستقيمون، أوفياء ونزهاء في معاملتهم، مجتهدون في رفع مكانة بلادهم الاقتصادية، وإنهم متصلون اتصالا وثيقا ببلاد السودان...، أما التجار وبقية السكان فإن لباسهم جميل ورفيع، وكثيرا ما نجده يفوق جودة لباس تجار فاس، مع امتياز تجار تلمسان بحسن المعاملة ومكارم الأخلاق »، ثم يتعرض بتفصيل للباس كل طبقة من الطبقات الأربع المذكورة.

حقيقة إن تلمسان فقدت مكانتها في العهد التركي، حيث إنها بدلا من عاصمة بلاد الجزائر مدة قرون، فقدت حتى مكانتها كقاعدة لولاية **وهران**، فكانت تقاسمها فيها

تارة **مازونة،** وتارة **معسكر،** إلى أن بقية نخبتها عند الاحتلال الفرنسي، فاتخذها الفرنسيون بعد النظام العسكري دائرة تابعة لولاية **وهران.**

وفي مدة حرب التحرير (1954ـ1962م) اتخذت ولاية، وكانت تشمل عدة دوائر، منها سبدو، ومغنية، وبني صاف. وامتازت بعد الاحتلال الفرنسي بمشاهدة معارك حاسمة بين **الأمير عبد القادر** والجيش الفرنسي، فمن أشهر هذه المعارك، المعركة التي وقعت بنواحي **أرشقول،** وختمت بمعاهدة تافنة التي وقعها من الجانب الفرنسي الماريشال بيجو، وكانت سرية حيث لم يعلم بها حتى الوالي العام بالجزائر، وإثرها طلب الماريشال ملاقاة **الأمير،** فكانت هذه الملاقاة قرب وادي تافنة في الطريق المؤدي من **تلمسان** إلى **أرشقول،** وأقيم نصب تذكاري بمحل هذه المقابلة ـ لا لموضع معاهدة تافنة كما يتوهم ذلك كثير من الباحثين ـ التي كانت أول مقابلة للأمير مع مسؤول فرنسي، ثم شاءت الأقدار أن تنقض هذه المعاهدة، وتقع معركة حاسمة بين جيش الأمير والجيش الفرنسي الذي كان يقوده الكولونيل **دو منطانياك** [1] (De Montagnac) بالكركور قرب مدينة مغنية، خسر فيها الجيش الفرنسي ما يزيد على المائتي قتيل، من بينهم القائد دو منطانياك، ثم وقع في نفس تلك المدة بالقرب من مدينة الرمشي لقاء بين جيش الأمير وحامية فرنسية متركِّبة من مائتَي جندي، فاستسلم أفرادها لجيش **الأمير** مِن دون قتال، وهذه الحامية وما أضيف لها من أسرى واقعة الكركور، هي التي كانت سببا في نقض ما تعهَّد به ولي عهد ملك فرنسا للأمير وسجن مدة طويلة في قصر أمبواز، كانت هذه الأحداث، أي: واقعة الكركور المشهورة عند

(1) سميت عليه مدينة الرَّمشي التي وقعت بقربها، بل في ضواحيها معاهدة تافنة.

الكتَّاب الفرنسيِّين بواقعة سيدي إبراهيم، وواقعة الأسرى الذين اتهم الفرنسيون الأمير بقتلهم، وقعت هذه الأحداث بسنة واحدة قبل استسلام الأمير عبد القادر، وقد وقع هذا الاستسلام الذي هو في الحقيقة كمين دبره الماريشال **بيجو** لخبر يطول في ناحية سيدي **إبراهيم** التي كانت مسرحا للأحداث المذكورة، ومنها فارق **الأمير** تراب الجزائر من مرسى الغزوات.

هذه صفحة من تاريخ **تلمسان** بعد الاحتلال، تكون هذه الدراسة ناقصة إن لم نتعرَّض إلى حادثٍ امتازَت به تلمسان في العهد الفرنسي، ولربما نجِده خاصًّا بها، وهذا الحادِث هو إقامة حفلات لإحياء ذكرى وفاة الربي اليهودي **افرايم أنقاوة** الذي لجأ إلى **تلمسان** في أواخر القرن السابع الهجري مِن الأندلس.

قيل إنه متخرِّج مِن **جامعة طليطلة** والتحقَ ببلاط الملك **أبي تاشفين** الأول، فنال ثِقَته وساعدَه على إسكانِ مُواطنيه داخل تلمسان بَدلا مِن ربضِ **أجدير**، كما رخَّص لهم في بناء بيعة هي التي بُنيت على أنقاضِها البيعة الحالية، ولا زال ضريح هذا الرِّبِّي مِن معالم تلمسان يقصده السُّواح، وفي العهد الفرنسي كانت تُعطى صبغة رسمية للاحتفالات السَّنوية التي تقيمها الجالية اليهودية بتلمسان بعد عيد الفصح اليهودي بنحو الشَّهر، كانت إدارة السِّكَك الحديدية تخفض بكامل التراب الجزائري نصف القيمة للمشاركين في هذا المؤتمر الشَّبيه بمؤتمرات حائط المبكى بالقُدس الذي يجمع وفود اليهود من كامل التُّراب الجزائري والمغربي طيلة أسبوع.

وهران وأيالتها في عهد الاحتلال الإسباني
استرجاع الأسبان مدينة وهران
سنة 1144م بعد أخذِها سنة 1119م[1]

تقدَّم لنا أنَّ الاسبانيين استَرجعوا وهران سنة أربعة وأربعين ومائة وألف، بعدما أخرجهم منها محمد بكداش باشا سنة تسعة عشر ومائة وألف، بقَوا في هذه المرَّة رغم محاولات بايات الأيالة الوهرانية خصوصا الباي مصطفى بوشلاغم فبقوا إلى سنة خمس ومائتين وألف حيث أخرجهم محمد بن عثمان باي الأيالة الوهرانية وكان هذا الخروج هو خروجهم الأخير من وهران.

ولي **محمد بن عثمان** بايا على الأيالة الوهرانية سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف وكانت عاصمة الأيالة إذ ذاك معسكر.

فكان أول ما فكر فيه هو غزو وهران إذ قبل توليته بايا على الأيالة كان قائدا على قبيلة فليتة وكان سكان هذه القبيلة يتمردون على البايات السابقين، وكانت كل محاولة، فأخضعهم تبوء بالفشل لأن الاسبانيين كانوا يشجعون هذا النوع من العصيان بإخضاعهم محمد بن عثمان إلى أن صيرهم في جملة مخزنه وصار يولي ويعزل من يشاء من رؤسائهم من دون أن يحركوا ساكنا، كما كانت قبائل الحشم يشبهون تماما فليتة من حيث التمرد على السلطة والتعدي، وقضى على تمردهم وأخضعهم تماما، فكان محمد

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المحاضرة على نسخة مخطوطة تقع في (19) صفحة، وهي مبتورة الآخر..

بن عثمان يرى أنه لا يمكنه محاربة الاسبانيين قبل أن يقضي على تمرد القبائل، فكانت أهم غزواته غزوة بلاد الأغواط سنة تسعة وتسعين ومائة وألف، قيد هذه الغزوة كاتبه الخاص العلامة الشيخ أحمد بن هطال التلمساني وذكر كل القبائل التي مروا عليها في طريقهم إلى الأغواط، وبايعته وصارت تعطي الغرامة، وما زال هذا الكتاب محفوظا، وبعد رجوعه من هذه الغزوة إلى معسكر تمردت مدينة عين ماضي وامتنعت من إعطاء الزكاة فرجع إليها بجيش عرمرم إلا أنه لقي مقاومة عنيفة من سكانها فحاصرهم مدة إلى أن جاءه مدد، من الجزائر غير منتظر فدخل المدينة وفرض ضريبة ثقيلة على سكانها جرحت كبرياءهم، قال العلامة ابن هطال في ذلك: «... ثم ارتحل ونزل أم الصلوع على ثلاث ساعات من الحواجب وعندما وصل المنزل قدمت مشايخ الأغواط لنيل المراتب وعلماؤها وبأيديهم **صحيح البخاري** (رضي الله عنه) طالبين الأمان على أنفسهم وأهليهم وهم مذعنون بالطاعة قابلون أن يكونوا رعية على أن يعطوا مائة خادم وخمسة آلاف سلطاني ومائتي ثوب وأربعة أفراس فلما رأى حرصهم على هذا الأمير وتحملهم ورضاهم بذلك القدر قال لهم أن أتيتم بما ذكرتم ووفيتهم بما وعدتم فلكم مني الأمان فطلبوا منه أن يقيم في موضعه حتى يدفعوا له جميع ما التزموه فانصرفوا على هذا الاتفاق وبعث معهم خدامه المخازنية لخلاص ذلك على العادة المتبعة عنده فبعد انصرافهم ذكر الأمير وأنه لم يتكلم معهم على الغرامة السنوية فكتب لهم كتابا يعلمهم بما نسيه وبعثه مع بعض قياده فطرقهم به ليلا إلا أنه وجد نياتهم قد تحولت وطيتهم قد فسدت فاجتمعوا عليه لقراءة الكتاب وبقي حامله منتظرا ما به من الجواب فلما فتحوه ألقوه مخالفا لغرضهم فجعلوه سببا لنقض عهدهم وحجة لمكرهم وقالوا كلهم: هيهات هيهات، فلا يكن شيئا من هذا مدة الحياة، ثم أمروا المخازنية بالارتحال عنهم سالمين، وألا يذهبوا نادمين، واشتغلوا بالاستعداد للحرب فبعثوا لمن حولهم من الأعراب جاءتهم الأحزاب والأجناد حتى ظنوا أنه لا يصلهم أحد إلى

البلاد... إلى أن يقول مع أن هذه المدينة عظيمة في نفسها محمية بأسوارها ورجالها ولذلك لم يطمع أحد ممن كان قبله فيها لكثرة وبالها فلما بلغ الباي ما ذكر أمر بالارتحال من أم الصلوع والتقدم إلى المدينة بنحو الميل من الجهة الغربية، ترك الجند يبنون أخبيتهم وتقدم يتوسم المدينة وكان معه بعض رؤساء الجند فرجع إلى المحلة وخاطب رؤساء الجند بقوله: إن هذه المدينة قد أحيطت بها البساتين والأبراج وبساتينها كلها مدورة بالسور فحيطانها متراكمة وأسوارها متخالفة متكاثرة فلا بد أن تجمعوا خدامكم ومواليكم الذين لا سلام لهم يحملون بأيديهم الفيسان ويذهبون مع العسكر فكلما وصل العسكر لحائط من تلك الحيطان أو لبرج من الأبراج يشرع أصحاب الفيسان في الهدم حتى يجعلوا فيه طريقا للعسكر وأوصاهم على الأشجار والنخيل فلا يقطعون شيئا منها، ثم عين لكل قبيلة موضعها وحوزها وقد أصيب في اليوم الأول من بني الأغواط وأحلافهم ما يزيد على الستين رجلا ما بين قتيل وجريح وأحد عشر أسيرا، وحيث رأت الأحزاب ما حل بهم علموا أنهم سيهلكون عن آخرهم فتفرقوا ورجعوا إلى أهلهم طالبين للنجاة، وحكي أنه مات منهم أي من أحلاف بني الأغواط ستة رجال وامرأة كانت تحرضهم على الدفاع فأصابتها رمية.

تحقق الباي أنه يفتح المدينة لا محالة إلا أنها بها فساد كبير إن لم يستسلم أهلها فكتب لعلمائها كتابا هذا نصه: «إلى كافة علماء بني الأغواط بعد السلام عليكم ورحمة الله إن بلغكم كتابي هذا اخرجوا غدا عيالكم وأولادكم من هذه القرية الظالم أهلها وانحازوا خارج المدينة إلى جهة وعليكم أمان الله إن خفتم من بعض العسكر أن يوقع بكم وكلت بكم من يحرسكم، ولا تختلطوا بالقوم الذين أراد الله هلاكهم، فإن قبلتم النصيحة فأخذوا الفضيحة وإن أبيتم فإثم أولادكم عليكم والسلام».

وختم الكتاب ودفعه إلى الرسول فعندما وصلهم الرسول ذكر أنه وجدهم في

حيرة وكربة وقد هربت عنهم الأعراب فلما أخذوا منه الكتاب استبشروا، فبهتهم ذلك لفضل الملك وحلمه وعدله إذ كانت سمعة الأتراك فاسدة وهذه السمعة هي التي شجعت الأغواطيِّين على الدفاع والاستماتة، فأخذ العلماء حينئذ كتاب صحيح البخاري وقد مروا على **الباي** فأعاد عليهم ما كاتبهم به، فأجابه رجل منهم فصيح اللسان ثابت الجنان له معرفة بطريق السلوك واقتدار على ما يخاطب به الملوك وكان شاعرا فمدح الباي بأبيات وقبل الأرض بين يديه ودعا له بالنصر والتمكين وقال له يا سيدي إن جعلتنا عتقاءك فأمنن على هؤلاء القوم لله تعالى واجعلهم أرقاءك وادخر أجر عفوهم عند الله تعالى ولا تخفز ذمة من جاءك شفيعا ولا تفضحه فأعرض عن مقالهم وقال لهم لابد من قتالهم ثم أمرهم . وبعدما اتصلوا بخليفته العلامة الأستاذ الشيخ محمد بن عبد الله الجلالي -الذي سنتحدث عنه في حصار وهران- تداخل في قضيتهم وكان مسموع الكلمة عند الباي فأمره الباي أن يقف معهم على ما يريد فوقع الاتفاق على أنهم يدفعون ما اتفقوا عليه بأم الصلوع علاوة على الغرامة السنوية. والحديث عن فتح الأغواط وعين ماضي يطول يخرجنا عن المقصود فنكتفي منه بهذا.

ومدحه بعد هذا الفتح كثير من الشعراء، منهم: الشاعر الأديب الشيخ الحاج أحمد بن علال القرومي نسبة إلى قرومة قرب الأخضرية فمدحه بقصيدتين يقول في إحداهما:

لقد أنجز الآمال وعدا من النصر ... كما أبرز الإقبال ما كان في الصدر
وأهدى وفود الفتح عذراء بلدة ... مثقلة الأرداف في الحلل الخضر
تكلل بالشمس المنير جبينها ... كما أبهى معصم تصور بالبدر
أحاط بها بالثغر من كل جانب ... أسود الشرى والغيل يرمقن عن شزر
محجبة ريما وبكرا عزيزة ... فيا لها من ريم ويا لها من بكر

فكـم رام قـوم فـك حسـن ختامهـا   فـأرجعهم في خيبـة عـالي المهـر
محمـد المستبسـل الشـهب مجـده   عـلى أنـه في الأرض حـاز سـنا الفجـر
أمـير لـه في النـاس عـدل وسـطوة   لصاحب موسى الحق أو أصحاب الجور
لقـد دوخ الأرض البسـيطة طولـه   فعاملـه في تلـك يرفـع بـالجر
على رحبهـا ضـاقت عـلى وسـع جنـده   فتسـمع مـن بعـد صـدى نقـر البـتر
كـان قـرى الأغـواط جمـع مؤنـث   فيعمـل فيـه الفـتح جيشـه بالكسـر
لـذاك تـرى الأغـواطي إن ذكـر اسـمه   تفقـد رأسـا هـل أبـين مـن النحـر
كـان بـلاد الشـرق والغـرب كفـه   فيـأمر بـالعمران فيهـا وبـالفقر
إذا رام شـخص أن يحـدث نفسـه   خلافـا طـوى عنـه الأصـابع بالعصـر
فإن كان في حرب تـرى الكـون عابسـا   وإن كـان في سـلم تـرى الكـون في بشـر
إذا رام غـزوا بشـر الطـير بعضـه   ونادى منادي الوحش سيروا إلى الـذخر
هـو البحـر جـودا والهزبـر مهابـة   وروض الربـى علـما وفي سـمت الـدهر
توشـح بـالعلم الشـريف حقيقـة   لسـنة خـير الخلـق مسـتند الظهـر
فيصـطنع المعـروف في كـل أهلـه   فـلا يجعـل الأشـياء إلا عـلى سر
ألا يـا أثيـل المجـد سـيفك لم يـزل   طـويلا إلى أعنـاق أعـدائكم يجـري
ودانـت لـك الآمـال مـن كـل جهـة   تسوق لـك المطلـوب تحـت عـالي الأمـر
ولا زالـت في عـز يـدوم ورفعـة   ولا زالـت مسـرورا مـن الله باليسـر

وقال كذلك في غزوتي الأغواط وعين ماضي العلامة المؤرخ الشيخ **أبو راس** في قصيدة يمدح فيها الباي المذكور:

فقد سوى بين الناس بالحق فاستوى   ومـا مثلـه للظلـم والبغـي دافـع
فأصـبح مغبـوط الشـمائل ماجـدا   لمـا شـت مـن شـمل المـروءة جـامع

عــلا صــيته في كــل قطــر وبلــدة		لــه في ســماء المجـد والسـعد طـالع
تمــد لــه الجــوزاء كــف مصــافح		ويــدنو لــه بــدر الســماء متواضــع
كأنــه شــمس والملــوك كواكــب		إذا ظهــرت لم يبــد مــنهن ســاطع
توشــح ســيفا صــارما ذا حمائــل		وغمــد مــن الإبريــز أصــفر فــاقع
عــلى هيكــل رحــب المناكــب أجــرد		ســبوح مــن الجيــاد كالغصــن يــانع
تقـــاد أمامـــه عتـــاب نجائـــب		من لاحـق أصـلها أو أعـوج ضـارع
عليهــا حــلى مــن كــل نــوع يزينهــا		نفـــائس در في النقـــود رواصـــع
وألويـــة بالنصـــر يخفـــق ظلهـــا		جواهرهــا اللُّجــين أبــيض ناصــع
وتتلوهـا أجنـاد يضـيق عنهـا الفضـا		وكــل فتــى شــاكي الســلاح دارع
تــراهم عــلى خيــل عتــاق ضــوامر		كتائب قـد ضـاقت عليهـا الشـوارع
لــه ســمت عــالم وهَيْبــة هزبــر		فكـــل عزيـــز عنـــده متواضـــع
وتجــين غرهــا هواهــا فأصــبحت		عــن طاعتــه تنــأى وهــي تنــازع
فلــم تمتثــل دعــواه زاد عتوهــا		وقــالوا ببأســنا الشــديد نــدافع
رمــاهم بأبطــال ســمارخ في الــوغى		ســقوهم بكــأس ملؤهــا الســم نــاقع
صــواعق أرســلت بتعجيــل هلكهــم		وأخــذ وســبي لــيس دونهــا دافــع
فأشــكل مــاء عــين مــاض دمــاءهم		وذاك جــزاء مــن للطاعــة مــانع
فيــا عجبــا أتــوا المهالــك جهــرة		وقـد عـاينوا مـا لاقـى مـن لا يبـايع
كمثل بني الأغـواط شرقـي بلادهـم		وســـمغون والشـــلالتين كوانـــع

ولنرجع الآن إلى الحديث عن غزوه لوهران، فإنه لما أنهى الحرب مع القبائل المتمردين وأخضعهم لسلطته، فكر في غزو وهران، وصادف أن زلزلت الأرض بوهران في تلك المدة، وذلك ليلة الجمعة أول صفر سنة خمس ومائتين وألف، فهدمت الديار ومات خلق كثير يربو على الثلاثة آلاف نفس من ضمنهم والي البلاد وأهله وإن

كان الزلزال عاما بالأيالة فإنه لم يؤثر الخسائر إلا في مدينة وهران.

إثر هذا الزلزال ذهب الباي محمد إلى ناحية وهران حيث نادى بالجهاد وكلف بهذه المأمورية ستة فقهاء فزودهم بالمال والنصائح وأمرهم أن يجولوا في البلاد ويتصلوا بجميع الرؤساء والعلماء ويعلموهم بأنه قرر أن المجاهدين يعفون من جميع الضرائب أما فيما يخص الفقهاء والطلبة فإنه منع القراءة منعا كليا بغير رباط وهران فكان من جملة الملبين لنداء الباي العلامة الفقيه الشيخ محمد بن علي أبي طالب المازوني، فيحكى عنه أنه جاء إلى الرباط صحبة ولديه السيدين هني ومحمد ومائتين من طلبة مدرسته.

والشيخ أبو طالب هذا كان له صيت بالأيالة الوهرانية خصوصا مدرسته بمازونة التي كانت المدرسة الوحيدة لدراسة الفقه وأصوله، فمنها تخرج كثير من الفقهاء الفحول كالعلامة الشيخ مصطفى الرماصي محشي التتائي والعلامة المؤرخ الشيخ أبو راس والعلامة الشيخ عده غلام الله ناشر الطريقة الشاذلية بالقطر الجزائري والعلامة الشيخ السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية بطرابلس وغيرهم كثيرون.

فلما انتشر خبر وصول الشيخ محمد بن أبي طالب إلى رباط وهران خصوصا وأنه جاء ماشيا من مازونة وترك دابته للعاجزين من طلبته، انتشر هذا الخبر وفعل مفعوله في الأوساط العلمية بالأيالة، فلم يمض نصف شهر حتى كان عدد الطلبة الواردين على الرباط يربو على الخمسة آلاف طالب، وكان الباي عين لهذا الرباط العلامة الشيخ محمد بن عبد الله الجلالي مدير المدرسة المحمدية بمعسكر رئيسا، وعين العلامة الشيخ الطاهر بن حوا قاضي معسكر نائبا عنه.

والشيخ محمد بن عبد الله الجلالي هذا من أشهر علماء زمانه ينتسب إلى الشيخ أبي جلال، قرأ ببلاده ثم بفاس، وبعد رجوعه من فاس ذهب إلى المشرق فالتحق بالأزهر الشريف، ثم ذهب إلى حج بيت الله الحرام فجاور بالمدينة المشرفة مدة، اتصل بكثير من

علمائها فأفاد واستفاد، ورجع إلى وطنه فعينه الباي محمد شيخ العلماء بالمدرسة المحمدية بمعسكر فتخرج عليه كثير من العلماء من جملتهم الشيخ أحمد بن سحنون صاحب (**الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**) الذي قيد فيه حياة الباي محمد بن عثمان وفتحه لبلاد وهران.

أما الشيخ القاضي الطاهر بن حوا فهو من بيت علم ومجد ينتسب إلى العلامة الشيخ أبي زيد الغريسي المشهور بالشجاعة والرماية في الحروب الاسبانية أصله من غريس، وانتقل الشيخ أبو زيد لخلاف وقع بينه وبين الولاة إلى بلاد المحال بنواحي واد مينة، تخرج من بيت آل حوا كثير من العلماء والشعراء، الشيخ الطاهر هذا والعلامة الشيخ عبد الله كان قاضيا قبله والشيخ محمد بن حوا دفين مستغانم صاحب (**سبيكة العقيان**) في ذكر علماء مستغانم وأحوازها من الأعيان التي يقول فيها:

عهدي بذاك الوادي فيه جلة　　من علماء الدين نور الملة
أعني بذاك الوادي مستغانم　　من أبدلت أفراحها مآتم
أدركتهم جماعة مسنة　　جما غفيرا تابعا للسنة
قد أخذوا العلوم عن مشايخ　　لهم أساس في الصلاح راسخ
فاقتسبوا من نورهم أنوارا　　وورثوا من سرهم أسرارا
بحسب التطهير للطوية　　من مفسدات ثمرات النية
لما انطوى على خصال جمه　　كانوا بحق أمناء الأمة
أولهم في السن والشيوخ　　والأخذ والتعليم والرسوخ
العالم الجليل شيخ الملة　　شهرته في الناس بابن قلة
وابن سعيد المالقي الصالح　　وناصر الشريعة ابن السائح
والعالم المشهور بالحميدي　　والشيخ محيي الدين صفو الوُد

ثم يذكر ما يزيد على العشرين عالما كانوا بالبلدة وبعد ذلك يتعرض إلى علماء نواحي مستغانم فيقول:

قلت وقد أدركت بهذا الوادي وغيرها من حوز هذا الوادي
مشايخا أهمة حفاظا متابعين علمهم أيقاظا
أولهم شيخ شيوخ العصر غرة جمع علماء القطر
خاتمة الحفاظ والنقاد شمس بدور الأقويا الأفراد
رئيس جمع الأقويا الغواص المصطفى محمد الرماصي
والعالم المحبب الصوفي العابد المجتهد الولي
بركة العباد والبقاع عباسها المنسوب للوزاعي

إلى أن يقول:

فهؤلاء العلماء السباق وغيرهم ممن له التحاق
كانوا شموس الأرض والبدور فأكسبوها زينة ونورا
حتى عرى شموسها الكسوف وصار في بدورها الخسوف
فارتحلوا وسدلوا الحجابا عن سرهم وأغلقوا الأبوابا
فانقرضوا ومالهم من خالف يحوز إرث تالد وطارف
إلا قليلا من نسيس يرتشف من غير نفع من بحور من سلف
وانقلبت بعدهم الرسوم حالكة تنوح فيها البوم
ءاها على انقراضهم وفقدهم آها على تخلفي من بعدهم
كانت رياض ظلها ظليلا فالآن فهو على لظى بديلا
مشحونة بالبدع القواصم والظلم والمناكر العظائم
مرفوعة أشرارها ارتفاعا أكسب أهل خيرها اتضاعا

...الخ...

اهتم الباي بحياة الطلبة في هذا الرباط وكلف قائد الجهة بتموينهم، ثم تهيأ لهذه الحرب فكان أيضا من جملة ما عزم عليه هو إرسال وفد لجبل طارق يشتري الأسلحة من الإنكليز، فذهب هذا الوفد يرأسه كاتبه الخاص الشيخ أحمد بن هطال التلمساني وقاضي المحلة فذهبوا أولا إلى المغرب مزودين بالهدايا للملك الذي كان صديقا للباي إذ زاره أيام محنته بمعسكر وأكرم وفادته، ومن المغرب ذهبوا إلى جبل طارق فاشتروا الأسلحة ورجعوا إلى معسكر، دامت مدة الاستعداد لهذه الحرب خمسة أشهر، ففي الثامن من رجب تم الاستعداد من تحضير أسلحة وتعبيد طرق للمدفعية ... الخ.

ففي صباح يوم الثامن من رجب كان سكان معسكر كلهم وقوفا لتوديع الجند فوقع احتفال عظيم بهذه المناسبة فأطلق الباي سراح معظم المسجونين وجمع ألوية الأضرحة كلواء الشيخ عبد الرحمٰن الثعالبي والشيخ أبي مدين دفين تلمسان والشيخ أحمد بن يوسف دفين مليانة والشيخ محمد بن عودة دفين فليته، وأقيمت الحفلات وفرقت الصدقات على روح دفين وهران الشيخ الهواري، قصد الباي رأسا رباط الطلبة بإيفري فاختار منهم فرقة مكونة من خمس مائة طالب أقسموا أمامه أنهم يخلصون له الطاعة إلى الممات، وعند وصوله إلى ضواحي وهران وردت عليه فرقة بعثها داي الجزائر مكونة من ألفي جندي.

مات في هذه المدة محمد بن عثمان باشا داي الجزائر وولي مكانه حسن باشا الذي بمجرَّد ما تولى كاتب الباي محمد بن عثمان مشجِّعا له على الاستمرار فيما هو بصدده.

بمجرَّد ما تولَّى حسن باشا دايا على الجزائر اتصل به سفير اسبانيا بالعاصمة وعرض عليه الصلح على شرط أن تتولى حكومة اسبانيا دفع جميع مصاريف الحرب واتفقوا على هدنة نصف شهر ريثما يأتي جواب ملك اسبانيا.

بعث حسن باشا للباي محمد يخبره بالتزام الهدنة، فامتثل الباي الأمر ووافقت هذه الهدنة عيد النحر، فاحتفل به الباي بمعسكر وبقي في انتظار الرَّدِّ عليه من الجزائر.

مازونة[1]

مازونة مدينة عربية صغيرة منظرا كبيرة مخبرا، اختطَّها بنو منديل أمراء مغراوة في العقد الثالث مِن المائة السَّابعة، واقعة بمكان معتدل الارتفاع، غزيرة ينابيع المياه العذبة، طيبة الهواء، يشقُّها نهر صغير، محفوف الجانِبَين بمختلف أشجار الفاكهة، ويكتنفها مِن جهاتها الآن متسع متباعد الأطراف مِن أراض، وقد اشتهرت هذه المدينة الجميلة في القرون التي تلا بناءها بالعلم، وأنجبت علماء ومؤلِّفين أجِلَّاء، ولا زالت بحمدِ الله ترفل في ضيافي حللها القومية، منجلية بصبغتها العربية ورَونقها الدِّيني، بها مساجد آهلة بالمصلِّين، ومكاتب لتعليم القرآن العظيم.

وقد امتازت هذه المدينة الإسلامية بمدرستها الجليلة التي هي الكلية الفقهية الوحيدة لوطن الجزائر، امتيازا يحقُّ لها أن تفخر به وتثنيه على جميع مدن المقاطعات الثلاث وعواصمِها، ولا أراني مبالغا فيما ذكرت بعد أن عاينتُ ما كنتُ أعلمه قبلُ بالتواتر، تلك المدرسة الفسيحة المفتوحة الأبواب ابتساما في وجه كلِّ وافد، وترحيبا بكلِّ وارد، ثمَّ لا تزال كافِلةً له ومتأنِّقة في إكرامه والقيام بشؤونه أحسن قيام، من يوم جاء يعلوه مِن كآبة الجهل والاغتراب ما يبعث له الرَّحمة مِن القلب القاسي إلى يوم تردعه يحمل مِن نفائس كنوزها ومخبَّآتها ما يزري بما أوتي قارون، آتيا قومَه بأنوار علم الشَّريعة تَعلوه رايات المجد والشَّرف وأعلامه، وقد أقام الحقُّ تعالى أهلَ بيتٍ مِن خير بيوتات الشَّرف ـ وهم آل هني ـ المتَّصِل نسبهم الهاشمي بالأمير عبد القوي مِن ملوك مغراوة، وبيت آل هني قد تأصَّل له الشَّرف، وعرفت له عراقة في الرياسة العلمية

(1) جريدة البلاغ: الجمعة 1 صفر 1348هـ/ 19 جويلية 1929م، السَّنة الثَّالثة، العدد: 127، ص: 3.

والدِّراسة، تتداول ذلك أفراد عائلته المجبولون على العفَّة والنَّزاهة والتَّواضع وعلوِّ الهِمم وأكرمِ الشِّيم، فما تخطَّتهم ولاية التَّدريس بِبلدهِم منذ قرون، ولا زُوحِموا في رياستِه العلمية.

أما سكَّان البلد فهم قومٌ جُبِلوا على النُّبل والنَّباهة، والنَّشاط على الاكتِساب بِطُرقٍ شريفة، مِن نَحو تجارة وزراعة، مؤثرون للهدؤ، ومتجافون عن الشُّرور، مطبوعون على الجود والسَّخاء وإطعامِ الطَّعام، فناهيك مِن رجالٍ متكفِّلين بأمور طلبة العلم الكثيرين الواردين مِن مختلفِ الآفاق، فتَرى الطالب يجيءُ مِن الرِّيف مثلا، فَيقضي السِّنين العديدة في كفالة رجُلٍ بالبلد لم تَسبِق له به مَعرفة، ولا باسمه، ولا ببلده، تأتيه ضَرورياته إلى المدرسة، حتى ربما لا يَعرف أي جِهة يَسكُنها كافِلُه، وإنَّما الباعثُ لهم على هذه المكارم الجليلة هو وَجهُ الله، وكرمُ السَّجايا، وتأصُّلُ العادة القَومية في الطِّباع، وإنه ليسرُّنا كلّ السُّرور أن لو ألهمَ الله لمثلِ هذا من تفجير الينابيع العِلمية أهل مدُننا الصَّغيرة والُقرى كـ : **ندرومة** و**قلعة بني راشد**، ومثل: **بطيوة** بـ **(أرزيو)**، و**مزغران**.

فأينَ قواعد المدُن ؟ كـ : **تلمسان**، و**مستغانم**، و**معسكر**، و ....

فالأمام الأمام يا قوم، وليكُن المتَّجه هو الفلَك الذي بزغت كواكب سيادة العرب، ومنه انتشرت أنوار شرفها، ألا وهو الدِّين وحده، محفوفا بمكارم الأخلاق العربية، وإنما ذكرتُ هذه النُّبذة بمناسبة احتفال سروري وقع بالمدرسة المذكورة ليلة الخميس ويومه المؤرَّخ محرم 20 الجاري تَوديعا لشَيخَين جليلَين مِن شبَّانِ طلبة المدرسة، حصل كلٌّ مِنهُما على الإجازَة العِلمية والشَّهادةِ بِحُسن السِّيرة مِن كلٍّ مِن مَشايخ المدرسة الأَربعة الكرام، وهم: فضيلة الشَّيخ محمد بن أبي راس الصَّغير (مفتي البلد الرَّسمي)، وأخوه سموّ الشَّيخ سيِّدي **أحمد**، وجناب الشَّيخ سيِّدي **محمد بن عبد الرَّحمٰن**، والبركة سيادة الشَّيخ **الحاج محمد**، المدرِّسون رَسميا.

أما المحتفَل بِتَوديعهما فهما: الشَّيخ **العربي بن محمد الواسبني** مِن ضَواحي **مغنية،** والشَّيخ **محمد بن الحاج الكبداني** مِن قبائل صَنهاجه الرِّيفيِّين، وكذلك شاركَهما في هذا الاِحتِفال المبارك الشَّاب المهذَّب السيد عدَّة نجل السَّيد غلام الله محمد (النائب المالي والعمالي بتيارت) لتتميمه القرآن العظيم.

كانت الَّليلة المذكورة ليلة سرور بِمحفل بهيج، تألَّف مِن طلبة العلم، والمشايخ الكرام، وأعيان السكَّان، أحييت تلك الليلة بمذَاكرات عِلميَّة، ومُسامرات وِدادية، وقصائد أدبية، يتخلَّل ذلك مِن تِلاوة القرآن ما تتقوَّى به أنوار هِداية المؤمن، حتى أنار الأُفُقَ الصَّباحُ.

ثمَّ عِندما أزفت ساعة الرُّكوب خرج الشَّيخان في مَوكبٍ يَعلوه الوقار وعلائم الأُنس وامتزاج أرواح الوِداد، مشيِّعا لهما إلى أن ركب الشَّابَّان الفائزان بين حسنِ تَذكير العَهدِ وعذُوبة عبارات التَّوديع، ومرجوِّ القبول مِن الدَّعوات، فرجعَ الموكِبُ، وقَد ركب بعضُ الطَّلبة استمرارا في التَّشييع إلى بعضِ مدُنٍ بعيدة.

نسأل الله تَعالى أن ييسِّر الشَّيخين المودَّعَين لبثِّ أنوار العلم بِمَواطنِهما، وأن ييسِّرَ لهما أسبابَ القبول والإِقبال، كما نسأله تعالى أن يُديم أهلَ مازونة على ما هم عليه مِن محبَّة العلم وتَيسير سبيله على القاصِدين، وأن يُديمَ تعالى كلاًّ مِن بني آل أبي طالب، وآل ابن عبد الرحمٰن بيت رياسة عِلمية، وسيادة دينية قومية، بصبغة عربية، وشعار إسلامي، إلى أن يرث الله الأرض، وهو خير الوارثين.

كتبه خديمُ أهلِ العلم المهدي بن أَبي عبد الله

البوعبدلي الرزيوي

التلميذ بمدرسة مازونة

قلعة هوارة[1]

إن من جملة العواصم العلمية المندثرة في القطر الجزائري مدينة القلعة التي لها مكانة مرموقة وآثار في المجالات الثقافية والسياسية، وإنني بناء على ما تعهدت بالقيام به في إطار النشاط الثقافي الذي مرجعه إحياء تراث بلادنا، اخترت من جملة دراسة هذه العواصم تاريخ مدينة القلعة، وهي كما تعلمون كانت تعرف في بداية تاريخها بقلعة هوارة إذ قبيلة هوارة العتيدة، هي التي أسستها، ثم صارت تعرف بقلعة بني راشد عند ما اكتسحت قبيلة بني راشد سهول معسكر ابتداء من القرن الثامن الهجري وإننا عملا بالقول المأثور وهو «ما لا يدرك كله لا يترك جله» نذكر جوانب من تاريخ القلعة، وهذه الجوانب مشتَّتة ومتفرقة بين الكتب المخطوطة والمطبوعة، وبالخصوص معظمها عثرت عليه في الوثائق المختلفة الأشكال والألوان، وقد بذلتُ جهودا في تحقيقها وتصحيحها، والغرض هو لفت النظر إلى هذه الكنوز الثمينة الجوهرية التي نشاهد ضياعها من بين أيدينا من دون تحريك ساكن منا، فإن كثيرا من المواطنين لا زالوا يحتفظون ببعض هذه الوثائق من دون أن يستفيدوا منها أو يفيدون، وإن أعظم جريمة نرتكبها أمام الأجيال الصاعدة، هي حرمان الخلف من معرفة آثار السلف، خصوصا وأن هذه الآثار لا زال الكثير منها في ما تبقى من الخزائن طعمة للأرضة، وهو معرض للتلف والضياع، وعلى هذا فإن أقدس واجب علينا نحوها أن نجمع ما تمكن من هذا التراث، ونوحد جهودنا لطبعه وتحقيقه ونشره حتى ننقذه من الضياع، لا على مالكيه، بل على البشرية جمعاء.

---

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المحاضرة على نسخة مخطوطة تقع في (40) صفحة.

إننا نرى ونشاهد الأمم الحية تبذل الجهود والأموال الطائلة لإنقاذ ما تبقى من الآثار المهدَّدة بالضياع، ويعقدون المؤتمرات التي شد إليها الرحال العلماء الباحثون لدراسة كثير من الحضارات البائدة، ومعظم المشاركين في هذه المؤتمرات، لا يمتون إلى تلك الحضارات أو أصحابها بصلة، وذلك كمؤتمر حضارات البحر الأبيض المتوسط الذي أسس منذ ست سنوات بجزيرة مالطة، لدراسة حضارات غربي البحر الأبيض المتوسط، وفيما بينها الحضارة الفينيقية البائدة هي وأصحابها.

أسست مدينة القلعة قبيلة هوارة البربرية العتيدة، التي كان مركزها الأصلي بنواحي ليبيا وكان أهلها ذو بأس من قبل الفتوحات الإسلامية، وقد شاركوا بعد إسلامهم في الفتح الإسلامي، ورافق الكثير منهم في فتح الأندلس وبقوا بالأندلس واشتهر منهم رجال، كان تأسيس القلعة ما بين القرن الرابع والخامس أسسها بنوا إسحاق، رؤساء القبيلة في عهدهم، ووصف البكري القلعة فقال: «قلعة هوارة ويسمُّونها تاسقدالت، وهي قلعة في جبل، لها ثمار ومزارع، وتحت هذه القلعة يجري نهر سيرات، وهو النهر الذي يسقى به فحص سيرات وطول الفحص نحو أربعين ميلا ليس منه شيء، إلا يناله ماء هذا النهر، إلا أنه اليوم غامر غير عامر ولا أهل لأن الخوف أجلى أهله، وفي ساحل هذا الفحص مدينة أرزاو ...الخ يقصد الساحل الذي يعرف الآن بوادي المقطع وبالمرجة.

كانت القلعة تطلق على الحصن المشهور أي الرباط، وعلى بعض القرى المجاورة لها كمصراتة والدبة وتليوانت والسمار والتراق، إذ نجد كثيرا من المؤرخين وأصحاب الطبقات ينسبون علماء هذه القرى إلى القلعة، اشتهرت كل قرية من هذه القرى المذكورة، ببعض العلماء، ما زالت أضرحتهم ومعاهدهم بها، فمن ذلك تليوانت فإنها اشتهرت بضريح ومسجد العلامة الشيخ ابن عمران، وأما الدبة فإنها ما زالت تحتفظ

بمسجد وضريح العلامة الشيخ عبد القادر بن يسعد البرذعي الذي كان من علماء القرن العاشر، إذ هو تلميذ الشيخ محمد ابن علي المجاجي المتوفى سنة 1008 هـ، وامتاز الشيخ عبد القادر بن يسعد هذا بتأسيسه لخزانة كتب قل نظيرها بأمهات المدن ببلاد المغرب العربي، استعان على نسخها بكثير من النسَّاخين الأندلسيين فنسخوا له نوادر المخطوطات من أمهات الكتب العلمية، وقد كان يعلق على معظمها بخطه ورغم، إهمال هذه الخزانة للأرضة والمبيدات مدة قرون فقد بقيت منها بقية نجت من المبيدات والنهب والسلب، وإنّ كثيرا من خزائن بلادنا ورثها ورثة يجهلون قيمتها فضاعت على الجميع، أي ضاعت للتراث الإسلامي العام، ومالنا نذهب بعيدا ونحن نرى ونشاهد تجدد هذه المأساة، وتكرارها وأن كثيرا من علمائنا الذين جمعوا كتبا منها المطبوع والمخطوط وعلقوا عليها بخطوطهم تاريخ التمليك والختم إلى غير ذلك ضيع الخلف هذه الخزائن وفي طليعتها خزانة المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس التي بيعت كثيرا من كتبها في أسواق الخردة بقسنطينة.

وقبل أن نتحدث عن الحياة الثقافية بالقلعة وتطورها نذكر بعض المؤلفين خصصوا القلعة بتآليفهم، وهذا التآليف من النوع الذي اشتهر في بلادنا بالتاريخ الجهوي وهو في الغالب مزيج بين ما عرف بالاستغاثة أو الغوثية وتراجم علماء البلدة، وهذا النوع مشهور في تاريخ الأدب العربي، وكان من جملة ما وصلنا من نوع هذه التآليف : (كتاب **المستغثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات والمتضرعين إليه سبحانه بالرغبات والدعوات وما يسر الله الكريم لهم من الإجابات والكرامات**).

وصاحب هذه التآليف هو العلامة أبو القاسم بن عبد الملك القرطبي، المعروف بابن بشكوال من علماء القرن السادس المشهور بتآليفه التي كتب لها الخلود والانتشار، واشتهر هذا النوع من التآليف في القطر الجزائري ابتداء من القرن التاسع وقد سد

فراغا، وهو مع اقتصاره على التاريخ الجهوي وعلى أسماء علماء الناحية، فإنه سجل أحداثا تتعلق بالمترجمين، قل أن يعثر عليها في التاريخ العام الذي يعد تاريخ ذلك العهد حلقة مفقودة منه، وهذا النوع من التآليف وإن كان معظمه لم يحظ بالشرح فقد أدى خدمات جليلة، أما الذي حظي منه بالشرح كشرح المزيلي على: (**العقد النفيس في بيان علماء وأشراف غريس**)، فذلك فوائده جلية، وقد حظيت قلعة هوارة بهذا النوع من التآليف أي الجامع للتاريخ الجهوي والاستغاثة والتوجيه، أي سلوك الفرد والجماعات.

والاستغاثة بنفسها كانت تختلف عند هؤلاء المؤلفين، فمنهم من كانوا يخصصون أراجيزهم أو منظوماتهم للاستغاثة بالرسل والصحابة أو بآيات القرءان ثم بالصالحين ولم يقتصروا على صالحي بلدانهم، بل كانوا يمزجونهم بالمشهورين منهم سواء في بلادهم أو خارجها، ومن هذا النوع وصلتنا بمعجزة منظومة الشيخ أبي عمرو عثمان نجل العلامة الشهير الشيخ سليمان بن عيسى التوجينى القلعي، التي ضمنها قائمة كثير من علماء قلعة هوارة وعلماء القرى المجاورة لها كمصراتة، والدبة، والسمار، والبراق، وتليوانت، وقد استهلها بقوله:

هنيئـا وبشـرى إذ حللـت فناءهـا   وإذ صرت للخـبرات راق علاءهـا
وإذ كنـت ذا حـب لـرهط تتـابعوا   عـلى الـنفس قـتلا إذ أبـاحوا دماءهـا
إذا مـا تـرى أمـرا ينـال بعسـرة   علـيهم فعـول تسـتعيد دواعهـا

إلى أن يقول:

فعـول عـلى شـيخ المشـايخ تلـتمس   لدين ندى ويذري من المزن ماءهـا
فمنـه اسـتمدوا في الولايـة وأنشـأوا   كأطيـار أغصـان أجـادت غناءهـا
أبي مـدين قطـب الـبلاد بأسرهـا   لـه حالـة عـزت فأبـدت عطاءهـا
وهـذا أبـو إسـحاق أصـبح ينثنـي   من الحب من خمـر أسـاغ صـفاءها

كــذاك ابــن مــرزوق إمــام شــيوخنا مراتبــه جلـــت فجـــاز ولاءهـــا
تبــدت خــلا غــرب الــبلاد بعلمــه وجرّت عـلى أفـق الزمـان رداءهـا
وبالحســـن الأوفى الشـــهير بأكحـــل تحلت حلا غـرب وأبـدت وفاءهـا
وأمــا أبــو العبــاس فهــو إمــامهم أبـــت عـــن الـــدنيا ورد نـــداءها
كــذا الشــيخ بطــال تمســك بذيلــه وإذا اجتمع الأبطـال جـاز لواءهـا
كذا الشيخ هواري[1] تمسـك بجاهـه إذا أزمـة عنـت وجـدت شـفاءها
وتلميــذه التــازي[2] شــبيه ببــازهم لقــد زاد وهرانـــا لحســـن بهائهـــا
وأوضــح عــن سر العنايــة واضــح فأضــحى مقــيما للوجــود بناءهــا
ومــنهم سراج العــارفين أبــو التقــى لقـد نـال بالطاعـات حقـا ثناءهـا
وقــد زان مثــواه الرحيــب جزائــرا ففاقـت بـه في المعلومـات سـواءها
وأمــا أبــو زيــد فــذك الثعــالبي[3] له رتبـة عظمـى مـن الحـق شـاءها
بــه فاســتغث عنــد الشــدائد إنــه إذا شـــاء بيـــد اللعيـــان خفاءهـــا
تُــوَاتِيُّهُم أربـــى بزهـــدي وبهجـــة تزيـل عـن الأشـياء حقـا غطاءهـا
وفيهــا أبــو العبــاس يبــد معارفــا تـرى كـل ذي لـب يحـب لقاءهـا
ومــنهم أبــو يعقــوب ينبــوع حكمــة لقد نال عـن جـد الليـالي جزاءهـا
وأمــا أبــو عمــران فهــو طبيــبهم له مرهم يشفي مـن الـنفس داءهـا
ومــن أصــله يحــى تفــرع غصــنه فأبصـار ذي جهـل يزيـل غشـاءها
كــذا الشــيخ ميمــون حقــير بلادهــم لــه حالـة في الزهـد أبـدى نماءهـا

(1) محمد بن عمر الهواري دفين وهران ولد ونشأ في ضواحي قلعة هوارة.
(2) إبراهيم الثائر (دفين مدينة القلعة)، وقد توفي بوهران ودفن بها، وصادف احتلال الأسبان لوهران فنقل جثمانه إلى القلعة.
(3) عبد الرحمٰن بن مخلوف الثعالبي دفين الجزائر المشهور.

ومنهم أبو موسى لطنجة ينتمي مراتبه جلت فحل إزاءها
ومنهم أبو العباس وهو شريفهم له رتبة عليا دعته فجاءها
فتمت له أوصاف أهل عناية ترى كل ذي لب يروم شراءها
وللشيخ ذي العرفان والزهد صالح مراتب أبدى للوجود ضياءها
كذا الشيخ يعقوب القطين لعنصر له رتبة عظمى أناخ حذاءها
وعابد رحمان وحبش كلاهما لدى قلعة حلا يقينا فناءها
ومنهم أبو عبد الإله محمد أجاب لبيت الله حقا دعاءها
سليمان فاعدد في الألى قد تقدموا له رتبة في العلم أبدى سناءها
مناقب أشياخ الزمان كثيرة تكاثر أشجار فحقق بقاءها
مجالسهم غنم وكنز حديثهم تبصر حلاها واطلبن علاءها
فنسأل مولانا الكريم بجاههم عوارف خير لا عتاب وراءها
عليهم سلام مع رضاء تتابعا يفوقان دنيا أرضها وسماءها
على المصطفى خير الأنام محمد صلاة تحاكي للحمام بكاءها

كان صاحب المنظومة التي خلدت تاريخ علماء قلعة هوارة، الشيخ أبو عمر عثمان من علماء القرن التاسع إذ كان من معاصري الإمام محمد بن يوسف السنوسي محيي علم التوحيد، ودفين تلمسان وكان من أعز أصدقائه كما كان والده ـ أي والد صاحب المنظومة ـ الشيخ سليمان بن عيسى التوجيني القلعي، من أصدقاء العالم الصالح الشيخ محمد بن عمر الهواري دفين وهران، وقد خصصه بمنظومة ضمنها ترجمة حياته، ولا يخفى عليكم أن الشيخ الهواري دفين وهران هو قلعي الأصل، إذ هو من جبل هوارة الذي كان يطلق على سلسلة جبال بني شقران، كما خصص بعض علماء قلعة هوارة الشيخ أبو عبد الله المغوفل دفين شلف في منظومته، التي خصصها لعلماء مدينة البطحاء

الشهيرة في التاريخ، إذ هي من المحطات التي يتردد ذكرها عند الجغرافيين والمؤرخين، فهم يذكرون تنس ثم مازونة ثم البطحاء ثم القلعة، ومدينة البطحاء هي المعروفة في عهدنا بالمطمر وهي الموجودة بين يلل وغيلزان، وأرجوزة الشيخ أبي عبد الله تسمى: (**فلك الكواكب وسلم الرقيا إلى المراتب**)، وهي مزيج من التاريخ الجهوي والاستغاثة وأدب السلوك، وتحتوي على حوالي ثلاثمائة بيت ضمنها صاحبها علماء القرون السادس وما بعده إلى التاسع إذ كانت وفاته سنة 923 هـ، وإلى ذلك أشار بقوله في تقديمه:

وبعد ذا نذكر ما وعيت ... من الأشياخ وعنهم رويت
مناقب بعض أهل الإغاثة ... منشأهم في القرون الثلاثة
في أول السادس وفي السابع ... والثامن إلا بعض في التاسع
مشهور الاسم إن فشا سميته ... وغيره إلى غيري أسلمته

كما تعرض لكثير من علماء القلعة العالم الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن علي الصباغ قاضي القلعة في عهده، أي في أواخر القرن التاسع في تأليفه القيم (**بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار، ومعدن الأنوار سيد أحمد بن يوسف الراشدي**).

إن جل المذكورين في منظومة الشيخ أبي عمرو عثمان بن عيسى من علماء قلعة هوارة أمثال الشيخ صالح الذي قال فيه:

وللشيخ ذي العرفان والزهد صالح ... مراتب أبدى للوجود ضياءها

فإنه من علماء القرن السادس والشيخ سليمان بن عيسى والد الناظم الذي ذكرنا أنه كان صديقا للإمام محمد بن عمر الهواري دفين وهران والذي قال فيه ولده

سليمان فاعدد في الآلي قد تقدموا ... له رتبة في العلم أبدى سناءها

وصالح هذا ضريحه بأعلى سوق السبت وله حكايات مع أمير عهده، فإنه كان من علماء أواخر الثامن وأدرك القرن التاسع، وأما الشيخ أبو عمران دفين تليوانت فهو من أهل السادس، ولا زال أفراد أسرته يحتفظون بعقود أسلافهم، كما استوطن هذه الناحية واشتهر بها العالم المرشد أحمد بن يوسف الراشدي دفين مليانة، الذي سبق لنا أن ابن تلميذه قاضي القلعة في عهده محمد بن علي الصباغ خصصه بتأليف.

ولما كانت شخصية أحمد بن يوسف من الشخصيات التي اشتهرت في بلاد المغرب العربي وأثارت الجدل عند كثير من معاصريه ومن بعدهم، فتتميما لبحثنا سنتحدث عنه بما يسمح لنا مجال هذه المحاضرة عملا بالقول المأثور الذي كثيرا ما نردده في سلسلة هذه المحاضرات، وهو أن « ما لا يدرك كله لا يترك جله »، وقد اشتهرت قرية السمار بالشيخ العالم موسى بن مخلوف حفيد العالم الشهير الشيخ الحسن أبركان المغيلي (دفين ضواحي تلمسان)، وقد خصَّه تلميذه الإمام محمد بن يوسف السنوسي بتأليف كما خصصه العلامة ابن صعد الأنصاري الأندلسي بتأليف سماه: (**روضة النسرين في التعريف بالأربعة الأشياخ المتأخرين**)، ضمنه ترجمة شيخه إبراهيم التازي، وشيخ التازي الإمام محمد بن عمر الهواري كما اشتهر،وأحمد الحسن الغماري صاحب الضريح قرب الجامع الأعظم بتلمسان، وقد تعرض الصباغ لترجمة كثير من علماء القلعة، سواء منهم المذكورون في منظومة ابن عمرو عثمان وغير المذكورين، فقد ذكر الشيخ يحى حفيد الشيخ ابن عمران الذي قال صاحب المنظومة فيه:

وأما أبـو عمـران فهـو طبيـبهم	له مرهم يبري من النفس داءها
ومن أصـله يحـى تفـرع غصـنه	فأبصار ذي جهل يزيل غشاءها

فقال الصباغ بعد ما ذكر ما وقع للشيخ صالح مع أمير وقته قال: «فقد وقع ما هو أكبر منه لجدنا الشيخ الغوث القطب سيدي يحيى بن سيدي على بن سيدي بن الشيخ

سيدي يحي سيد علي ابن سيد محمد ابن الشيخ الغوث طبيب هوارة سيدي ابن عمران أنالني لله شيئا من بركاتهم، لكن أهل وطننا هوارة يسمونه دادا يحي بن علي، وقد أشار إلى ذلك الفقيه العالم سيدي عثمان بن سليمان القلعي في قصيدته، وهي التي اقتطفنا منها البيتين عند قوله وأما أبو عمران فهو طبيبهم ... الخ».

ثم تعرض الصباغ للتعريف بأفراد أسرته وعلاقتهم مع الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي دفين مليانة فقال: «أما نحن والحمد لله خلف عن سلف فمن المحبين لأولياء الله، وقد سبقت دعوة الخير والفلاح من الشيخ سيدي عبد الحميد المغراوي لجدنا الحاج بن حاج الحرمين الشريفين الفقيه العالم القاضي سيدي علي بن سيدي عبد الرحمٰن الصباغ، ثم كمل الله علينا بخدمة أبي لرأس العباد سيدي أحمد بن يوسف ... إلخ.

ومن المعلوم أن أسرة الصباغ كانت تعرف أيضا بأسرة أبي معزا [1] وفي ذلك قال الصباغ في تأليفه عند تعريفه للإمام الحافظ سليمان بن سعيد القلعي قال: الإمام الحافظ سيدي سليمان بن سيد احمد بن سيد سعيد القلعي كان حافظا وتعرف بالشيخ ابن زكري وأخذ عنه ثم رجع إلى القلعة، فأخذ عنه أخو المؤلف الشيخ على بن محمد ابن معزا، وقد ذكر الشيخ محمد أبو راس الناصر في **(عجائب الأسفار)** نبذا من تراجم علماء القلعة في معرض الحديث عن تاريخها فقال: «لما تولى خير الدين على الجزائر، ولى أخاه إسحاق على قلعة بني راشد، وعروج على تلمسان، ثم بعد منصرف خير الدين تعصب الملك مسعود الزياني ودعا الناس من مسجد تلمسان إلى الثورة، فثاروا على عروج والتجأ إلى الفرار إلى بني يزناسن، ثم رجع وانتقم منهم شرَّ انتقام، إذ قتل سبعة من المترشِّحين للملك، ونحو الستين مِن أعيانهم، ولما رأى المسعود نجاح عروج وأيس من إخراجه التجأ إلى الإسبانيِّين

(1) يوجد ضريح أحد أفراد أسرة معزا في مدينة تنس العتيقة، وهو من سلالة عبد الرحمن الصباغ القلعي.

بوهران، فبعثوا معه جيشا إلى إسحاق بقلعة بني راشد، ورموهم من البراق، فلما علم أهلها أنهم لا يمكنهم المقاومة صالحوهم على تسليم البلد، ثم لما خرجوا غدروا بهم وقتل إسحاق في هذه الواقعة، وقد ذكر ابن خلدون في الموضوع عند تعريفه لقبيلة هوارة فقال:« وكانت مواطن الجمهور من هوارة هؤلاء ومن دخل في نسبهم من إخوانهم البرانس لأول الفتح بنواحي طرابلس وما يليها من برقة... ثم أجاز منهم إلى الأندلس مع طارق ابن زياد رجالات مذكورون واستقروا هنالك، ومن قبائل هوارة هؤلاء بالمغرب أمم كثيرة في مواطن في أعمال تعرف بهم ومن أشهرهم بالمغرب الوسط أهل الجبل المطل على البطحاء وهو مشهور باسم هوارة وفيه من مصراته وغيرهم من بطونهم، ويعرف رؤساؤهم من بني إسحاق، وكان الجبل من قبلهم فيما زعموا لبني يلومين، فلما انقرضوا صار إليه هوارة وأوطنوه، وكانت رئاستهم في بني عبد العزيز منهم، ثم ظهر من بني عمهم رجل اسمه إسحاق، واستعمله ملوك القلعة، وصارت رياستهم في عقبة بني إسحاق واختط كبيرهم محمد بن إسحاق القلعة المنسوبة إليهم وورث رئاسته فيهم أخوه حيون وصارت في عقبة واتصلوا بالسلطان أيام ملك بن عبد الواد على المغرب الأوسط، وانتظموا في شرائعهم واستعمل يوسف ابن تاشفين من ملوكهم يعقوب بن يوسف بن حيوه قائدا على بني توجين عندما غلبهم على أمرهم وفرض المغارم عليهم فقام بهم أحسن قيام ودوخ بلادهم وأذل من عزهم، وبعد أن غلب بنو مرين بني عبد الواد على المغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن عبد الرحمٰن بن يعقوب على قبيلة هؤلاء ثم استعمل بعده عمه عبد الرحمٰن ثم ابنه محمد بن عبد الرحمٰن بن يوسف ثم تلاشى حال هذا القبيل، وخف ساكن الجبل بما اضطرم بهم دولة بني عبد الواد وأجحفت بهم في الظلمات، وانقرض نبت بني إسحاق والأمر على ذلك لهذا العهد والله وارث الأرض ومن عليها[1].

---

(1) أظنها القرية المحاذية لمدينة مناداس حيث لازالت تحتفظ باسمها الأصيل.

وقال أبو راس في الموضوع: هوارة نسبة لهوارة أولاد هوار ابن مازيغ ابن برنس، وتقدم لنا شيء من ذلك وأكثر هوارة بأعمال طرابلس ومنهم أهل مصراته التي بها ضريح الشيخ زروق ـ أي: بليبيا ـ ومنهم أهل قلعة سنان (1) التي هي الآن محط أثقال بني حناش أهل تَمطْمَاطَتْ، ومنهم قبائل إزاء القيروان وهم الذين زحفوا مع أميرهم عكاشة ابن أيوب إلى حنظلة ابن صفوان الكلبي عامل هشام ابن عبد الملك على إفريقية فأوقع، بهم وهم بتوزر الجريد كثير، ومن مشاهيرهم بالمغرب الوسط أهل مصراته بإزاء قلعة بني راشد وكان لهم عزة بها وقضيتهم بها، مشهورة يومئذ لبني يوسف من ولد محمد ابن إسحاق والذي اختطها محمد منهم وهوار هذا هو أخ لمط من أمه الذي من نسل الشيخ أزرقاق اللمطي المتقدم (وهو من سكان قرية الدية وناشر علم القراءات).

فمن هذه الخطوط العريضة يتبين لنا أن قلعة هوارة كانت من العواصم العلمية التي لها مكانتها في تاريخ البلاد ابتداء من القرن السادس حيث اشتهر كثير من علمائها ولنختم هذا الفصل المتعلق بأطوار تاريخها الطويل عهدها الأخير بعد الاحتلال التركي، حيث نعمت مدة قصيرة بثبوتها قاعدة للقطاع الغربي بعد سقوط مدينة وهران وفي ذلك قال ابن زرفة صاحب (**الرِّحلة القمرية**): «كان للأتراك يدان إحداهما تمهد التلول والأنجاد من بغاة البربر والعربان، وأخرى تدافع الكفر عن أهل الإيمان سيما أنه تظاهر عليهم المشركون وبنو زيان، وذلك لما استقر الإمام أبو الفتوحات الأسد الضرغام أمير المؤمنين السيد **خير الدين** فبعث أخاه عروج لمحروسة تلمسان فاستولى عليها بعد أن قتل سبعا من سلاطينها ـ أي المترشِّحين للملك ـ ونحو السبعين من أكابر

(2) ولهذا لا يمكن أن تنسب ضريح سيدي إسحاق الموجود حاليا إسحاق أخ عروج وخير الدين أو إسحاق جد مؤسسي القلعة.

عبد الواد وما ينيف على آلاف من كبرائها فأنشأ ملوك بني زيان في مداخلة النصارى بالخداع ونصب الأشراك تظاهرا على إجلاء ليوث بني آدم الأتراك، واقتحم البلاد وبعث أخاه إسحاق لقلعة بني راشد وكانت ميرة نصارى وهران منها إذ هي أغنى بلاد الله زرعا وضرعا في ذلك الوقت فحاصرها وقطع عنها تلك المنافع فاتصل بهم بنو زيان وأنصارهم ووعدوهم أن يردوا لهم ميرة الطعام التي كانت تأتيهم من القلعة إن أعانوهم على كنس الأتراك من تلك البقعة، فخرجوا مع النصارى سنة خمس وثلاثين من عاشر المائة (935) فحاصروا إسحاق التركماني بالقلعة فصالحهم لما ضاق بهم الحصار فصالحهم لما ضاق بهم الحصار بهم الحصار على أن ينجو بنفسه ومن معه، ويخلي القلعة، فقبلوا شرطه إلا أنهم غدروه بعد انفصاله عنها، وكشفوا قناع التحيل عليه فقاتل في جملة من معه حتى استشهد الجميع رحمهم الله وعاملهم بحسن الصنيع.

وذكر الإمام الصباغ ـ أي صاحب «**بستان الأزهار**» الذي تقدم لنا الحديث عنه ـ وذكر الإمام أن أباه مات شهيدا في هذه الواقعة بين الأتراك والكفار.

ثم أثنوا العنان لحصار عروج رئيس تلمسان فحاصروه بما لا طاقة له به من عسكره، المشركين وبني زيان فخرج ناجيا بنفسه في جملة عسكري وذلك يوم العيد من السنة المذكورة فنهضوا في إثره فقتلوه بجبل بني موسى واستأصلوا عسكره ومحوه من المغرب الأوسط.

إلى هنا تنتهي ببحثنا في تاريخ هذه المدينة التي لاقت العقوق من أبنائها فبدلا من أن يكرسوا جهودهم لجمع تراث أوائلهم ونشره والاعتزاز بآثار الآباء والأجداد، تلك الآثار التي خلدها التاريخ في كثير من فروع المعرفة فضربوا عنها صفحا وصاروا ينسبون لكثير من أعلام هذه الناحية ما هم براء منه، فشوهوا الحقائق وتقولوا عنهم ما لم يقل به أحدهم، إذ كان هؤلاء العلماء مشهورين بنشر العلم ورفع راية الجهاد خلفا

عن سلف ولا زالت آثار علمائهم وأسماؤهم اللامعة في بطون الخزائن التي نجت من تصاريف الدهر تشهد بذلك ..».

إن الحديث عن القلعة وعن علمائها وتآليفهم في مختلف فروع المعرفة خصوصا خزانة العالم ذائع الصيت الشيخ عبد القادر بن يسعد رغم قساوة الدهر على خزانته التي تبددت كتبها القيمة النادرة ابتداء من القرن الحادي عشر، إذ لما غزا الملك مولاي إسماعيل العلوي هذه الناحية بدعوى محاربة الإسبان حوالي سنة 1104 هـ ،أخذ كثيرا من أمهات كتبها ولربما الكتب التي أخذها الملك لم تضع على التراث الإسلامي وإنما ما يؤسف له هو استيلاء بعض من لا يخشون الله على هذه الكتب فيسجنونها ويعرضونها للحشرات أو يتركونها لورثتهم الذين لا يفرقون بين الكتب العلمية القيمة وكتب الحروز والجداول، إذ كثيرا ما تكون كتب السحر والشعوذة عند هذا النوع من الطلبة وأشباههم لها وزن وقيمة أكثر من قيم الكتب العلمية، فهذا الداعي لاغتنام هذه الفرص حتى نلفت أنظار السكان بصفة عامة والمسؤولين عما تبقى من هذه الكتب والكراريس حتى يسعوا في تحقيقها ونشرها، إذا الكتاب الذي تطبع منه ولو عشرات النسخ يضمن حفظه بخلاف النسخة الواحدة، فإنها وإن كانت عند من يعرف قيمتها ويقدرها إلا أنها معرضة للتلف، والتراث وإن كان حقا مشتركا للجميع إلا أن تاريخ هذه النواحي يهم في أول درجة سكان الناحية فهم المسؤولون قبل غيرهم على إحياء تراث بلادهم ولا يعتذر الإنسان مهما كانت منزلته بالعجز المادي أو الأدبي، فإننا نرى ونشاهد صباحا ومساء المغنين والراقصات يجمعون في الحفلات التي تقام في القرى والبوادي عدة مرات تبدد فيها الأموال الطائلة ما لو صرف عشره في مشروع كهذا يعود بالنفع على البلاد وعلى سكانها، وبالخصوص نشأتها التي تربط حاضرها بماضيها وترى أن أجدادها الذين سقوا هذه التربة بدمائهم الزكية، ودافعوا عن الإسلام

وتعاليمه دفاع الأبطال ونشروا الثقافة الإسلامية ورفعوا ناراتها على قمم هذه الجبال وفرضوا إنتاجهم على التاريخ الثقافي بجل البلاد الإسلامية، ومن نجده من أكبار فقهاء المذاهب الأربعة يجهل مكانة مصطفى الرماصي الحافظ المتخرج من مدينة القلعة، ومن نجده من الباحثين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يجهل مكانة محمد بن الخروبي وأحفاده، الذين استوطنوا هذه البلدة وتداولوا فيها خطط القضاء والتدريس طيلة قرون، ثم من يجهل مكانة عبد القادر ابن يسعد البرذعي الذي تحدى خزائن العواصم والقصور الملكية بخزانته التي أسسها بهذه القفار وبقيت رمزا لهذا المعهد الذي أسس على التقوى، ليثبت أن هؤلاء الأسلاف لم يكونوا كما عن لكثير من الجهال الذين لحاجات في نفوسهم وأمراض نفسانية سهلها انتشار الجهل وعقوق الخلف للسلف فصاروا يتهمون علماء السلف وفقهاءه بأنهم هم الذين أضلونا وهم الذين نشروا الخرافات والأوهام، واتخذ هذه التهم الباطلة بعض الخلف جهلا أو جحود أو عقوقا، وصاروا يعتقدون صحتها ويرددونها حتى يتظاهروا بالغيرة على الدين والبراءة من أتباع الخرافات، كلا وألف كلا فإن السلف خصوصا من ذكرنا نماذج منهم كانوا في طليعة علماء الإسلام الذين افتخر بهم زمانهم لا في ميادين الثقافة فحسب، بل في ميادين الجهاد والبطولة، وإنما ابتلاهم الله بخلف اقتصر على تشويه سمعتهم بما انتحله من تشويه للحقائق، وصار يقيم لهم الحفلات السنوية وهو يجهل تراجمهم اللهم إلا ما ينشره العوام وأشباههم من خرافات وأوهام وافتراء على التاريخ، فبدلا من أن تستغل هذه الحفلات، أي حفلات الذكريات للتعريف بهؤلاء الرجال وبسيرهم وآثارهم العلمية ومواقفهم في المجالات الدينية والعلمية والبطولية، صرنا نلفق لهم ما ندعيه كرامات وخوارق العادات، وأن هؤلاء الأحفاد الجاحدين مخالفون لتعاليم أجدادهم الذين كانوا يحبسون كتبهم على خلفهم بشرط الانتفاع والتأهل وإلا فلا حق لهم في حبسها والحرمان من الانتفاع بها.

هذا وأننا وإن كنا نعترف لكثير من الأسر وفي طليعتهم أسرة الشيخ عبد القادر بن يسعد التي حافظت على الخزانة العلمية، وما تبقى منها إلا أن الواجب الأكيد على أفراد الأسرة وسكان هذه الناحية أن ينقذوا ما تبقى منها ولو بالتصوير والنقل حتى لا يبقى عرضة للضياع، كما نقترح عليهم ـ وهذا أمر ممكن ـ أن يغتنموا فرصة الحفلات التي تقام لإحياء ذكرى المنعم عبد القادر بن يسعد، فيعرفون به وبآثاره، وينشروا تأليفا ـ ولو مختصرا ـ يجمعون فيه تراجم علماء هذه الناحية، وأقصد تراجم علمية حقيقية، لا ما ألصقه بهؤلاء الأعلام الجهال وأشباههم الذين افتروا عليهم، فإن هؤلاء العلماء كما عرفهم التاريخ كانوا يرابطون في هذه الجبال لنشر العلم والدين في الأزمنة التي سادت فيها الفوضى وتكالب القبائل المتمرِّدة من الإقطاعيِّين، ومَن هم في حكمهِم، كما أن كثيرا من هؤلاء العلماء كانوا يتعهدون لأساتذتهم الانقطاع لخدمة العلم، ولنضرب مثلا لذلك بالعلامة الحافظ **مصطفى الرماصي** الذي زاره بمعهده العلامة الشيخ عبد الرحمٰن الجامعي الفاسي صاحب (**الرحلة**) المشهور حوالي سنة 1120هـ.

خنق النطاح[1]

كانت (**وهران**) عند الاحتلال الفرنسي تنقسم إلى قسمين:

(**القسم الأوَّل**): المدينة القديمة، أي: حي (**جامع الباشا**) الحالي، و(**الجامع الأعظم**) القديم الذي هدم وبنيَ على أنقاضه (**المستشفى العسكري**)، وما زال يحتفظ بمنارته، وكان هذا الحي يدعَى بـ (**حي** البحرية)، و(حي الشَّيخ الهوَّاري)، حيث يوجد ضريحه ومسجدُه أيضا.

(**القسم الثَّاني**): قرية منفصلة عن البلدة، حيث يوجد (**المسجد الصَّغير**) المنسوب للباي محمَّد بن عثمان، والذي يوجد فيه ضريحه، وكان مؤسِّس هذا المسجد الباي محمَّد بن عثمان ـ دفينه ـ فاتح (**وهران**) سنة 1206هـ ، وعند تأسيسه كان يطلَق اسمه على المدرسة.

كانت هذه القرية تعرف بقرية: (**خنق النِّطاح**)، وكان يفصِل بينها وبين المدينة شعاب وحفير هائل، يشقُّها واد صغير، يسمَّى بـ (**عين اروينة**) ، وهذه الشِّعاب ردمت فيما بعد وبنِيَ عليها الحي الممتدّ الآن مِن (**ساحة قصر البلديَّة**) إلى (**محطَّة السِّكَّة الحديديَّة**)، وقد حوَّل الفرنسيُّون اسم (**خنق النِّطاح**) إلى (قرقنطة) (Karguentah)، ومازلت بعض معالم البلدة تحمل هذا الاسم، كـ (**سوق الخضر**) و (**المسرح**) الموجودَين قرب (**جامع الباشا**)، وقد ورد ذكر (**خنق النِّطاح**) في المعارك الأولى بين جيش الأمير **عبد القادر** والجيش الفرنسي، وتحيَّر بعض المؤرِّخين في موقع هذه المعارك، حيث إنَّ

---

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المحاضرة على نسخة مخطوطة تقع في ثلاث صفحات.

(**خنق النِّطاح**) كان يطلَق على حي من أحياء (**وهران**) ... و الحقيقة أنَّ (**خنق النِّطاح**) لم يكن يطلَق على الحي فحسب، بل كان يطلَق أيضا على الوادي الذي يشقُّ الشِّعاب الفاصلة بينه وبين المدينة، نجد في كتاب المزاري (**طلوع سعد السُّعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود**) المخطوط بـ (**مكتبة متحف وهران**)، وصفا للمعركة التي شنَّها السَّيد محيي الدِّين ـ والد الأمير عبد القادر ـ على الفرنسيِّين إثر استسلام (باي وهران) حسن، والفوضى التي عمَّت بالولاية.

قال: «ولماَّ ثارت نيران الفتن قام لإطفائها السَّيد محيي الدِّين بإعانة الشَّيخ عبد القادر بن زيان .... »، إلى أن قال: «... ولماَّ قربوا من (وهران) خرج الجيش الفرنسي لهم، فكان لقاؤهما بـ (وادي خنق النطاح) ».

إنَّ المعركة الأولى التي وقعت بـ (**خنق النِّطاح**) كما ذكرها المؤرِّخ كانت في: 7 أو 17 أفريل 1838م تحت قيادة السَّيد محيي الدِّين، وتلميذه الشَّيخ **عبد القادر بن زيان** الذي كان مكلَّفا بحراسة حركات الجيش الفرنسي بـ (**وهران**)، وقد كان مِن حسن حظِّ تاريخ البلاد أنَّ الشَّاعر الشَّعبي الشَّهير الحاج **عدَّة ابن التحلايتي**، - الذي تولَّى القضاء فيما بعد - سجَّل هذه المعركة التي حضرها بنفسه، فقال:

يـــــا ســـــايل راني انعظَّـــــم	في ذا الجـــــيش الـــــلي تلايـــــم
امشـــــي للبهجـــــا ايـــــزادم	وعمل خصلة ضارب أعدا الرَّحمٰن

إلى أن يقول:

ســـيدي محيـــي الـــدِّين دبَّـــر	في ذا الـــرأي وجـــا امزيـــر
في ســـيق انـــزل يـــا الحـــاضر	هو والمـبروك الفحـل بـن زيـان
مَـــن ثـــمَّ ركبـــوا العـــاصر	الاقطـاب اجتمعـوا في ديـوان

خليفـــة [1] للجهـــاد لبَّـــى و اجمـــع قومـــان الغرابـــة
قـــال لهـــم مـــا كـــان هربـــه من يهدر فالعيب ياك اليوم أبـان
للميمـــــر نعطـــــوا مكبـــــه و اللي مات منازلوا جنَّة رضوان

وبعد ثلاثة أشهر وقعت معركة ثانية، بقيادة السَّيد محيي الدِّين بنفس **(خنق النِّطاح)**، وفي هذه المعركة ظهرت بسالة الأمير، ولفتت الأنظار إليه، وكانت من الأسباب التي سهَّلت لوالده التَّخلِّي عن الحكم، وتقديمه مكانه، سجَّل أيضا الشَّاعر التحلايتي هذه المعركة التي حضرها، فقال:

يـا سـائلني نعيـد للشـكر هديـة للجيش اللي مشـرب الكفـر الإمـرار
يـا سـائل نعيـد لـك هـذا الغيـوان يـوم تحركـوا نجوعنـا لـبلاد الـروم
الأقطاب اثنين اجتمعوا في ذا الديوان انصـرهم يـا الطالـب الحـي القيـوم
حمر اللحية الشيخ الفحـل ابـن زيـان يبغـي الجهـاد قـدها عـز المضـيوم
محيـي الـدين الوقيـع زيفـط للعربـان جاتـه الإسـلام كافـة تـراس و قـوم
أمحـال قويـة التمـت يـا فرسـان لا من يحصي عدادها هـيلات اطمـوم

ثمَّ ذكر الشَّاعر القبائل التي شاركت في هذه المعركة واحدة واحدة: كـ (بني عامر)، و(الدَّوائر)، و(الزَّمالة)، فلم يتخلَّف منها أحد، وفي هذه المعركة ظهرت لأوَّل مرَّة شخصيَّة الأمير عبد القادر، فرمقته العيون ولفت الأنظار بشجاعته الخارقة للعادة، إذ طعِن فرسه وأطلق عليه النَّار فلم يتزعزع، بل ثبت في مكانه مدافعا إلى أن أتاه رفاقه بفرس آخر، ولفت الأنظار أيضا باختطاف ابن أخيه محمَّد السَّعيد الذي استشهد في

---

(1) **خليفة** هذا، كان رئيس (قبيلة الغرابة)، قرب (سيق)، وكان من الأبطال، استشهد في (واقعة وادي المقطع)، وكان هو أوَّل مَن مثَّل الأمير بمدينة (أرزيو) بعد معاهدة (دو ميشال). (م)

المعركة وعمره (15) سنة، اختطفه مِن صفوف العدوِّ، وإلى هذا يشير الأمير في بعض قصائده، حيث يقول:

ألم تــر في (خنــق النِّطــاح) نطاحنــا	غــداة التقينــا كــم شــجاع لهــا لــوى
وكـــم هامـــة ذاك النهـــار قـــددتها	بحــد حســامي و القنــا طعنــه شــوى
واشـــقر تحتـــي كلمتـــه رمـــاحهم	مرارا و لم يشك الجوى بل ومـا التـوى
بيــوم قضــى نحبــا أخــي فــارتقى إلى	جنــان لــه فيهــا النبــي الــرضى أوى
فلــما ارتــد مــن وقــع الســهام عنانــه	إلى أن أتــاه الفــوز يــرغم مــن عــوى
ومــن بيــنهم حملتــه حــين قــد قضــى	و كــم رميــة كــالنجم مــن افقــه هــوى
ويــم قضـــى تحتـــي جـــواد برميتـــه	وبى أحدقوا لولا أولوا البأس والقوى

... الخ

تافنة[1]

حرِّرت هذه الدِّراسة بمناسبة انعقاد (ملتقى الفكر الإسلامي)، بـ (تلمسان) سنة 1975م، وقد زرنا أثناء (الملتقى) المعالم التَّاريخيَّة للمنطقة، كـ (ندرومة)، و(الغزوات)، و(المنصورة)، و(هنين)، و(أرشقول)، ... الخ.

وادي تافنة: من أشهر أودية (الجزائر)، إذ هو الثَّاني بعد (وادي شلف)، مصبُّه بـ (أرشقول)، المرفأ الشَّهير لـ (تلمسان)، وفي حروب الاحتلال الفرنسي لما هاجم الماريشال **كلوزيل** الوالي العام بـ (الجزائر) حينئذ، (تلمسان) في جانفي 1836م، واحتلها ـ وفي الحقيقة مكَّنه مِنها مصطفى بن إسماعيل عدوُّ الأمير عبد القادر، ورئيس قبيلتَي الدَّوائر والزمالة الذي كان لاجِئا فيها صحبة بقايا الأتراك الذين رفضُوا طاعة الأمير وتحصنوا بالمشور، رأى **كلوزيل** أن الذي يسهل مهمته في الاحتِفاظ بتلمسان وهو اتخاذ مرسى أرشقول معسكرا حتى يمكن الاتِّصال بتلمسان بحرا، حيث إن الاتصال البري كان يتعرَّض دائما لهجمات العدوِّ، وبالفعل أقام المعسكر وحصن أرشقول وأعلن عند رجوعه إلى وهران أن **الأمير** غلب والحرب على وشك النهاية، وقبل وصوله إلى الجزائر كان الأمير قد وصل إلى الناحية وأعلن الجهاد، وحرَّض سكَّان تلك الناحية واتَّصل بهم مباشرة، وخطب في تجمُّعهم فتسابقوا لإِجابة دعوته، وكان رئيس تلك النواحي خليفته البطل البوحميدي الوَلهاصي، فكانت الملاقاة مع جيش العدوِّ قرب جامع سيدي يعقوب بـ (ولهاصة) ـ أي: غربي أرشقول ـ فهُزِمَ

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المحاضرة على نسخة مرقنة تقع في ثلاث صفحات.

الجيشُ الفرنسي هزيمةً شبَّهها كثيرٌ مِن مؤرِّخيهم بهزيمة وادي المقطع، بقي الأمير محاصِرا لأرشقول، ولما بلغ خبر الهزيمة وحصار الجيش المرابط لأرشقول إلى كلوزيل، اندهش خصوصا بعد إعلانه أن الأمير غُلِبَ وأنَّ الحربَ على وشك الانتهاء، فاستَنجد بوزير الحرب الذي كلف لهذه المهمة الماريشال بيجو، وكان بيجو ممن شاركوا نابوليون في حربِ إسبانيا، وعندما وقع احتلال الجزائر سنة 1830 تجنَّد مِن جديد، وصلَ بيجو على رأس نخبة مِن فرق الجيش، وكانت مُلاقاته مع جيش الأمير عند مجمع وادي يسر بتافنة، وقد نجا الأمير بِمعجزة حيث كان هدف أعدائه وخصومه مِن القبائل الموالية لمصطفى بن إسماعيل، وكان هو على رأسهم وجرح في المعركة رغم شَيخوخَتِه، إذ كان يجاوز الثَّمانين، نجا الأمير لما قتل فرسه وصار يُدافع عَن نفسِه راجِلا والتفَّت حوله جماعة، إلا أنَّ أنصارَه أَنقذوه حيث أَتوا له بِفرس، وكانت نهاية المعركة في صالح الماريشال بيجو، وهذه المعركة هي الشَّهيرة بـ (معركة السكاك)، عندئذ رجع بيجو إلى وهران وكاتبَ الأمير مهدِّدا بأنه لا مفرَّ له مِن اختيار أحد الأمرَين، إمَّا قبول الصُّلح أو مُواصلة القِتال الذي ستكون نَتيجتُه الحتمية ما لَقيه في واقعة السكاك ـ كانت هذه المعركة في 6 يوليو 1836م ـ كان بيجو عندما كاتَب الأمير رأسا متَّفِقاً مع الملك ووزير الحرب قَبل مجيئه، فأَعطى له التَّصرُّف المطلق مِن دون استشارة الوالي كلوزيل، فأجابَ الأميرُ بيجو عن كتابه وقال في جوابه هذا: «كيف أمكنكم كتابة ذلك الخطاب، إنكم تفتخرون علينا بقوتكم، أحِسبتم أنَّنا مِن رَعاياكم ؟ حتى تكتبوا إلينا تِلك الرِّسالة ... أتظنُّون أنَّ العرب يتخلَّون عَن دينهم ليرجعوا كفَّارا، إنَّنا نَختار الموتَ بدَلا مِن حياةٍ كهذِه، إنكم تفتَخِرون بِقوَّتكم، إن رجالنا ليسوا أَقل مِنكم شجاعة ولهذا فإنهم اختاروا الموت على مِلَّتهِم ودينهم وعقيدتهم، إنَّ أرض الله واسعة، ورحمتَه وَسِعَت كلَّ شيء، كما أنَّ غضبَه سيُصيب الظَّالمين الكافرين.

إنَّ العربَ الذين اختاروا البقاءَ تحت حكمِكُم نَعتَبِرهم ككِلاب الحرَس، إنَّهم يبقون دائما بلا دينٍ ولا مِلَّة، والعقلاء لا يتشرَّفون بِصُحبتِهم، إن قوَّتَنا وثقتنا في خَيلنا و إبلنا، وفي الله الأحد الصَّمد الذي تكفَّل بحفظنا، وهو مطَّلعٌ على نَوايانا ».

لم يسع بيجو إلَّا أن يتأنَّى ثم رجع إلى فرنسا وكلف من يسعى في إصلاح ذات البين، ثم رجع إلى وهران في 5 أبريل 1837 وقد وقع الاتفاق بعد أخذ وردّ ومفاوضات سرية وعقد ما هو مشهور بصلح تافنة وذلك في 30 مايو 1837 من دون أن يعلم بذلك الماريشال كلوزيل ولا خلفه الجنرال دامريمون، ولهذا أثار هذا الصلح موجة من الغضب والاحتجاج والتعاليق من الضباط الفرنسيين والبرلمانيين وكان على رأس المحتجين من العسكريين دامريمون والي الجزائر، إذ بعث رسالة مطولة إلى رئيس الحكومة مؤرخة بالجزائر في 15 يوليو 1837 ونقض بنود المعاهدة الخمسة عشر واحدا واحدا وقال في ختام كتابه: «إن هذه المعاهدة لا فائدة فيها إذ تمكن الأمير بعد الاعتراف له بالتصرف التام في ثلثي البلاد من تقوية جيشه كأنه خرج منتصرا من المعركة وهي لا تشرفنا، حيث إن حقوقنا في السيادة المعترف بها في البند الأول غير مضمونة ثم إننا نسلم أصدقاءنا ـ يقصد قوم مصطفى ابن إسماعيل ـ ومن دونها كان يمكننا المحافظة على مراكزنا سواء بالقطاع الجزائري أو الوهراني ريثما تتخذ التدابير النهائية.

كاتب الماريشال بيجو الأمير إثر التوقيع على المعاهدة طالبا منه ملاقاة ودية، فأجاب الأمير لذلك ووقع هذا الاجتماع بتلك النواحي دام 40 دقيقة، كان أول حديث بينهما بعد تبادل التحيات حول المعاهدة قال بيجو: «إنني جعلت نفسي كفيلا لك عند ملك فرنسا وقد رأيت أني أجبت رغباتك كلها رغم الأوامر التي تلقيتها من دولتي تلك الأوامر التي حددت تصرفاتي ».

فأجابه الأمير: «لا تندم على ما تعهدت به للملك فإن ديننا وأخلاقنا العربية تلزمنا

أن نحافظ على عهودنا، ولما افترقا ـ إذ كان هذا أول اجتماع يجتمع فيه الأمير بقائد فرنسي ـ ذهب الأمير إلى تلمسان وارتجل في حفل بهيج قصيدته التي استهلها بقوله:

إلى الصـون مـدت تلمسـان يـداها   ولبت فهـذا حسـن صـوت نـداها
وقـد رفعـت عنهـا الإزار فلـج بـه   وبـــرد فـــؤاد مـــن زلال نـــداها
وذا روض خـــديها تفتـــق نـــوره   فلا ترض من زاهي الرياض عداها

إلى أن يقول:

وخابـــت ظنـــون المفســـدين بســـعيهم   ولم تنـــل الأعـــداء هنـــاك مناهـــا
قـــد انفصـــمت مـــن تلمســـان حبالهـــا   وبانـــت وآلـــت لا يحـــل عراهـــا
سوى صاحب الإقـدام في الـرأي والـوغى   وذي الغـــيرة الحـــامي حمـــاة حماهـــا
ولمـــا علمـــت الصـــدق منهـــا بأنهـــا   أنـــالتني الكـــرسي وحـــزت علاهـــا
ولم أعلمـــن في القطـــر غـــيري كـــافلا   ولا عارفـــــا في حقهـــــا وبهاهـــــا
فبـــادرت حزمـــا وانتصـــارا بهمتـــي   وأمهرتهـــا حبـــا شـــفاء دواهـــا

إلى أن يقول :

ووشحتها ثوبا مـن العـز رافـلا   فقامـت بإعجـاب تجـر رداهـا
ونادت أعبد القادر المنقذ الـذي   أغشت أناس من بحـار هواهـا
لأنـك أعطيـت المفـاتيح عنـوة   فـزدني أيـا عـز الجزائـر جاهـا
ووهران والمرساة كلا بها حـوت   غدت حائزات من حماك مناهـا

أثارت هذه المعاهدة سيلا من التعاليق ما زال لم ينضب معينها إلى زماننا هذا، فمنهم من يرى أن هزيمة كلوزيل غير المنتظرة بقسنطينة هي التي كانت سببا في إبرام هذا الصلح، ومنهم من رأى أن بيجو الذي كان نائبا برلمانيا من 1831 كان في حاجة

أكيدة إلى تمويل صندوق انتخاباته وقد رشاه الأمير ـ وبالفعل اكتشفت آثار هذه الرشوة ـ ومنهم من رأى أن بيجو كان يرى أن حرب الجزائر تستحق العناية ومادامت فرنسا لم تحل بين الجزائريين وأراضيهم الفلاحية حتى يتمكن الضغط المنتج للرضوخ التام فإنها تضيع الوقت، وبالفعل لما عين بيجو واليا على الجزائر سنة 1841 بدأ بتطبيق نظريته وهي فتح الباب على مصراعيه للمعمرين المدنيين، ولهذا اعترف له بالجميل معظم الكتاب اليمينيين واغتفروا له زلته بإبرام المعاهدة.

ولنرجع إلى الحديث عن تافنة وأرشقول من الناحية التاريخية، فإن أرشقول هذه كانت من المدن التي لعبت أدوارا في تاريخ البلاد، إذ اشتهرت في التاريخ من عهد حروب القرطاجيِّين وروما، فكانت تعرف بيورتوس سوقورس ـ أي: مرسى سيقا ـ المدينة القرطاجنية الشَّهيرة والتي تبعد عن أرشقول بنحو 4 كلم وتدعى الآن بـ : تفنبريت، كانت سيقا عاصمة سيفاكس البربري خصم ماسينيسا، وعند حروب القرطانجيِّين لروما سنة 204 قبل الميلاد كان سيفاكس مؤيِّداً للقرطاجنيِّين وماسينيسا لروما، وفي هذه المدينة ـ أي: سيقا ـ اجتمع سيبيون القائد الرُّومي في طريق رجُوعه مِن حروبه مع القرطاجنيِّين بأوروبا ـ إسبانيا ـ بِعَدوِّه الَّلدود أسدريبال عِند سيفاكس مِن دونِ أن يعلمَ أحدهما بالآخر، و كلٌّ مِنهما أتى لمخاطبة ودِّ سيفاكس، لخبر يَطول.

اشتَهرت مرسى أرشقول في العهد الإسلامي في دولة الأدارسة حيث نالها في قِسمته عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان أخي إدريس الأول، قال البكري في تعريفه لها: «... تافنة: وهو النَّهر الذي يصِل إلى مدينة أرشقول، وهناك ينصبُّ في البحر، وأرشقول ساحل تلمسان، وبين مدينة أرشقول وتلمسان فحص زيدور، طوله 25 ميلا، ومدينة أرشقول على نهر تافنة يقبل مِن قبليّها ويستدير بِشَرقيها، تدخلُ فيه السُّفن الّلطاف مِن البحر إلى المدينة، وبَينهما ميلان، وهي مسورة.

وبمدينة أرشقول جامعٌ حسن، فيه سبعة بلاطات، وفي صحنِه جبٌّ كبير، وصَومعةٌ متقنة البناء، وفيها حمامان، أحدهما قديم، ولها من الأبواب باب الفتوح غربي، وباب الأمير قبلي، وباب مارنيسة شرقي، محمية كلُّها، عليها منافس، وسعة سورها ثمانية أشبار، وأمنع جهاتها جَوفيها، وبها آبار عذبة لا تغور، تقومُ بأَهلها وبمواشيهم، ولها ربض مِن جهة القبلة، وكان كثيرٌ مِن المؤرِّخين يظنُّون أنها بنيت على أنقاضِ مدينة سيقا إلا أنَّ الأثريِّين عثَروا على أنقاضِ مدينة سيقا بِقُربها كما ذكرنا ذلك.

كانت أرشقول مرسى تلمسان ثمَّ عزَّزتها هنين ابتداءً مِن عهدِ الموحِّدين، ثمَّ بعد الِاحتلال الإسباني الذي خرَّب هنين بقيت أرشقول المرسى الوحيد لتلمسان.

مدينة أرزيو[1]

عرَّفها أبو عبيد عبد الله بن العزيز البكري في كتابه (**المسالك والممالك**) الذي ألَّفه حوالي سنة 460هـ/ 1067م، فقال: «قلعة هوارة: ويسمُّونَها: تسقدالت، وهي قلعة في جبل لها ثمار ومزارع، وتحت هذه القلعة يجري نهر سيرات [2] وهو النهر الذي يسقى به فحص سيرات، وطول الفحص نحو أربعين ميلا، ليس منه شيء إلا يناله ماء هذا النهر إلا أنه اليوم غامر غير عامر، لا أهل فيه لأن الخوف أجلى أهله، وفي ساحل هذا الفحص مدينة أرزاو، وهي مدينة رومية خالية، فيها آثار عظيمة للأول باقية، يحار من دخل فيها لكثرة عجائبها، وبقرب مدينة أرزاو جبل كبير، فيه قلاع ثلاث مسورة، رباط يقصد إليه، وفي هذا الجبل معدن للحديد والزئبق ... »، إلى أن يقول: «... وبين مدينة أرزاو هذه ووهران أربعون ميلا » انتهى كلام البكري.

كما عرفها الإدريسي في كتابه: (**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**) الذي ألفه حوالي سنة 548هـ الموافق لسنة: 1154م، فقال: «ومن طرف مشانة إلى مرسى أرزاو 18 ميلا، وهي قرية كبيرة تجلب إليها الحنطة فيسير بها التجَّار ويحملونها إلى كثير من البلاد».

فالبكري عرَّف أرزاو التي بُنيت على أنقاض المدينة الأثرية التي لا زالت تحتفظ بآثار الفنيقيِّين والرُّومان، وهي المعروفة الآن بـ : (**بطيوة**)، أما الشريف الإِدريسي فقد

---

(1) مجلة الأصالة، العدد 58/ 59، ص14–20، رجب – شعبان 1398ه/ جوان – جيلية 1978م.

(2) وهو المعروف بوادي المقطع حيث وقعت معركة الأمير عبد القادر المشهورة مع الجيش الفرنسي تحت قيادة الجنرال تريزيل.

عرَّف بِمَرساها الذي كان يُعرف دائما بـ : (**المرسى**)، أو بـ : (**مرسى أرزيو**)، وذلك في العهد الإسلامي، وأُدخِل عليها التَّغيير بعد الاحتلال الفرنسي فقط، فصاروا يطلقون اسم: **أرزيو على المرسى**، وفرنسوا **أرزاو**، وأطلقوا عليها اسم: (**سانلو**) الذي هو اسم قرية فرنسية بضواحي باريز.

أما الأصل في تسمية مدينة أرزيو فيقال إنَّه اسمٌ بربري دخل عليه بعض التَّغيير، إذ كانت في عهد الرُّومان تسمَّى: **المرفأ الكبير** (Portus-Magnus) (بورتوص مانيوس)، وفي القرن السادس قبل المسيح ذكر الجغرافي اليوناني **سيلاكس** (Scylax) البلدة وموقعها الحالي إلا أنَّ اسمها إذ ذاك غامِض، فكلُّ ما يعرف عنها إذ ذاك أنَّها كانت مِن المراكز التِّجارية في عهد سيرتا الشَّرقية وسيقا الغربية الفنيقيتَين، وقد اكتشف علماءُ الآثار مقبرةً فنيقية، وأواني خزف، ومعمَل لتصبير الحوت، أمَّا الآثار الرُّومانية فإنَّ جلَّها الموجود الآن في متحف وهران عثِر عليها في **أرزيو**، خصوصا الفُسيفساء التي تمثِّل صورَ الألعابِ الرِّياضية، كما لا زالت البلدة تَحتفِظ بكثير مِن البناءات والأَسواقِ التِّجارية والشَّوارع والحمامات وقنوات المياه.

أما **بطيوة** التي تغلَّب اسمُها على أرزيو حتى صار يُطلق عليها الآن، فإنَّ جماعةً مِن قرية **بطيوة** الصَّنهاجية مِن ريف المغرب ـ أي: شماله ـ هاجَروا إلى هذه النَّاحية واستقرُّوا بها، واختلف المؤرِّخون الذين اهتمُّوا بدراسة هذه القرية في تاريخ نزوحهِم إِليها، فمِنهم مَن قال بأنَّهم وردُوا عليها في عهدِ أبي الحسن المريني في منتَصفِ القرن الثامن الهجري، وذلك أنَّ الملِك أبا الحسن المريني كان له أحدُ القواد المشهورين يُدعَى: محمد البطِّيوي، أقطعَ له الملكُ المذكور هذه القرية وناحيتَها، خصوصاً مَعدن الملح الذي كان بِقُربها ـ ولا زال ـ فجلب القائدُ المذكور بعضَ أقاربه وأفراد عشيرته، ومنهم مَن ذكَر أنَّ أهلَ القرية ـ أي: بطيوة ـ لجؤوا إلى الجزائر حوالي القرن العاشر الهجري،

وبعد أَن سكنوا مَدينتَي البرج [1]، ومزغران، انتقلوا إلى بطيوة في عَهدِ الباي محمد الكبير (فاتح وهران سنة 1206هـ)، وهذا قولٌ باطل، إِذ عثَرنا على وثائقَ تدلُّ على بُطلانِه، وذلك أنَّ أحدَ علماء القرية يُدعى الشَّيخ عمرو بن أحمد البطِّيوي السعيدي[2] (دفين مقبرة القرية القديمة) ـ أي: قبل الاحتلال الفرنسي ـ كان حيًّا في أواخر القرن الحادي عشر الهجري، حيث وجَدنا بعض الكتبَ نَسخَها بخطِّه سنة 1085هـ، وكثيرٌ مِن سكَّان القرية مِن سُلالته، كما أَخبرني الأستاذ البحَّاثة محمد العابد الفاسي (محافِظ مكتبة القرويِّين) أنَّ أحدَ علماء بطيوة الجزائرية له تأليف يشمل جزأين على طريقة **(إحياء علوم الدِّين)** للغزالي، وله **(فهرس)** ذكر فيه بعض أشياخه، منهم: ابن مريم المليثي التِّلمساني صاحب **(البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان)**، وهو من علماء أوائل القرن الحادي عشر، فتاريخ نزوح سكَّان القرية يظهر أنه كان بعد استيلاء الأسبان على مليلية وسبتة.

بقي اتِّصال القرية الجزائرية بِقبيلة بني سعيد بريف المغرب مُتواصِلا طيلةَ هذه القرون الأربعة، وقد كانت للقرية أهمية في العهد التُّركي، حيث اتُّخِذَت قاعدةً لولي عهد باي وهران، وبنى فيها الأَتراكُ مسجدا جامعا ـ لا زال إلى وقتنا هذا ـ وكانت بها محكمة رئيسية للقاضي، وكان مِن قضاتها المتأَخِّرين السيد أبو العباس أحمد بن الطاهر، ذكره القاضي محمود بن حواء في **(مجموع)** أَلَّفه **مسلم بن عبد القادر الحميري** (كاتب بايات وهران)، توجد منه مخطوطة بـ **(المكتبة الوطنية)** بخطِّ محمد ابن حواء المذكور، نُسِخَ سنة 1237هـ بالجزائر، تحت رقم: (893)، جمعَ فيه محمود ابن حواء بعض القصائد لمسلم بن عبد القادر المذكور، وسماه: **(نظم الجواهر في سلك البصائر)**،

---

(1) مدينة البرج: قرب معسكر.

(2) نسبه إلى قبيلة بني سعيد التي تنتمي إلى بطيوة، وهي في ريف المغرب.

وعندما ذكر بعض القصائد للمؤلِّف المذكور وتعرَّض للحديث عن شرَحها، قال: «ومنهم الفاضل الجليل الجامع بين كلِّ تعظيمٍ وتبجيل، ذي المكارم والمفاخر أبي العباس أحمد بن الطاهر، وهو الذي شرح **(العينية)** ـ العينية في الغزل المتقاربة في الأصداف الدرية ـ »، وقال في موضع آخر: «وقد شرحها ـ أي: **(العينية)** المذكورة ـ بعض العلماء، وهو الأديب أبو العباس أحمد ابن الطاهر (قاضي أرزيو) سنة 1237هـ »، والقاضي أحمد بن الطاهر هذا هو الذي أخذ عنه الأَمير عبد القادر في شبابه بـ **(أرزيو)**، إذ كان الأمير على عادة طلبة ذلك العهد يُسافر جلُّهم لقراءة القرآن أو العلوم بالنَّواحي البعيدة عَن أهلهم، وكان طلبة تلك النَّواحي يسافرون لطلب العلم وحفظ القرآن إلى ناحية الغرابة ـ بين سيق وأرزيو ـ بقيت هذه العادة سارية المفعول إلى زماننا هذا، رغم اندِثار جلِّ المعاهد التي كان يحفظ فيها القرآن ويدرس العلم، كما كانت عادة سكَّان غريس ـ إلى وقتٍ قريب في الخمسينات ـ الإِنتقال إلى ناحية الغرابة المذكورة، حيث توجد المروج، فيعزبون فيها ببقرهم، وكثيرا ما يُرافِقهم أولادهم للالتِحاق بمعاهد الناحية، والأمير عبد القادر قرأَ في بعض هذه المعاهد، يعرف منها معهدان: (أهل محمد)، و(الرحامنة)، لا زالا إلى يومنا هذا، وفي (معهد الرحامنة) لا زالت أسرة الفقيه الذي قرأ عليه الأمير القرآن، وقد ذهب إليه لما كان بدمشق، وأقام بِجواره مدَّة، وله معه حكايات، وللفقيه المذكور **(منظومة في السَّهو)**، نظمها باللغة الدَّارجة، لا زال أحفادُه يحفظونَها ويتَناقلونَها ولدا عَن والد، ثمَّ التحقَ الأَمير بأَرزيو (بطيوة الحالية) فأخذَ عن قاضيها أبي العباس أحمد بن الطاهر المتخرِّج من (القرويِّين)، وشاءت الأقدار أنه لما تولَّى الأمير المملكة ونقضَ الجنرال تريزيل (معاهدة دو ميشال) المبرمة سنة 1834م منعَ الأَميرُ كلَّ اتِّصالٍ أَو مُعاملة تجارية مع الجيش الفرنسي المرابط بوهران، وكانت الحِراسةُ شديدة على الطُّرق المؤدِّية لوهران، وذات ليلة ألقى الحرسُ القبضَ على جماعةٍ تَسوقُ أَغناما، ووجدُوهم مِن أَقارب القاضي أحمد بن الطاهر، فحمَّلوه

المسؤولية [1] ونقلوه إلى معسكر حيثُ اتُّهِم بِمُوالاةِ الفرنسيّين لخبر يَطول، فَحكم عليه بالإِعدام ونفِّذَ فيه الحكم، قيل إنَّ الأمير حاول أن يستَبدل حكم الإعدام بغَرامة مالية ثَقيلة، إِلَّا أنَّه نظراً للظُّروفِ الحرِجة التي كانت تَجتازُها البِلاد حينئذ ضربَ المثَلَ لردع البقية، وقَد ذكر هذه القضية صاحب **(تحفة الزائر)**، كما ذكرها بِمَزيد مِن التَّفصيل الجنرال **بواي** (Boyer) الذي عيِّن قائد حامية وهران إذ ذاك، وغيرهما، خصوصا المؤرِّخين الفرنسيِّين[2].

قسَّم الفرنسيُّون بعد الِاحتلالِ أرزيو إلى قسمَين:

القسم الأهلي: الذي بني على أنقاض المدينة الأَثرية، وكان عليه وحده يطلق اسم أرزيو عند الجغرافيِّين والمؤرِّخين القُدامى والمتأخرين إلى عهد الاحتلال الفرنسي، وأعطوا اسم السكان للمكان فسموه دوار بطيوة.

والقسم الثاني: الذي بنَوه مُسامِتاً للقرية الأصلية، أَطلقوا عليه كما ذكرنا اسما فرنسيا وهو: **سانلو** (St Leu)، إلا أنَّ المسلمين حافظوا على اسم أرزيو، وصاروا يطلقونَه على القرية، ولم يلتفِتوا إلى الرَّسميات، ولما أطلق الفرنسيون اسم أرزيو على المرسى صار السكان يسمُّونها: أرزيو الجديدة، والقرية الأَثرية: أرزيو القديمة، إلى زماننا هذا، أمَّا سكَّان البلدتَين فلا زالوا يطلقون اسم أرزيو على قرية بطيوة، واسم المرسى على أرزيو الحالية [3] كأن لم يقَع أي تغيير.

---

(1) كان القاضي أحمد بن الطاهر هو رئيس القبيلة، وزيادة على خطة القضاء كان يصدر الحبوب إلى الخارج من العهد التركي.

(2) تعرض الأمير عبد القادر في مذكراته التي كتبها بقصر أمبواز، واكتشفت منذ سنوات قليلة، الظُّروف التي أعدمَ فيها أستاذَه المذكور، وهي تخالف ما ذكره المؤرِّخون.

(3) ذكر بعض المؤرِّخين الفرنسيِّين أنَّ السكَّان كانوا يطلقون على أرزيو الأَثرية: (أرزيو امسلم)، تمييزا لها عن أرزيو الحديثة التي كان معظم سكَّانها أوروبيِّين.

كان لسكَّان بطيوة صلة مع أقاربهم بالمغرب، والهجرة بين البلدين لم تنقطع، وقد حافظ الكثير منهم على أراضيهِم ومساكنهم ومُصاهراتهم، وإنَّ معظم سكَّان القرية هنا يتحدَّثون بالبربرية خصوصا الكبار منهم إلى يومنا هذا، كما احتفَظوا على عوائدهم في الولائم والعادات والتَّقاليد، وقد تعرَّض لتحليل سكَّان هذه القرية البطيويِّين كثيرٌ مِن كبار الكتَّاب الفرنسيِّين المعتَنين بالدِّراسات البربرية، منهم: **س. بيارناي** (S. Biarnay) في تأليفه: (**دراسة لهجة بطيوة سكَّان أرزيو القديم**)، طبع جوردان، الجزائر 1911م، و**بربريجير** (Berbrugger) في كتابه: (**الآثار بأرزيو القديمة**)، بالمجلة الإفريقية، الجزء الخامس، والسابع، ثمَّ أُحدِثَت في الثلاثينيات مِن القَرن الجاري المسيحي إدارة خاصَّة للتَّنقيب على الآثار في نفس المكان، وكانت على رأسها الكاتبة الرُّوسية الشَّهيرة في ميدان الآثار الرُّومانية والفنيقية **مالقا موريس ڤانسان** (Malva Maurice-Vincent) ، وقد بدأَت نتيجةَ عملِها بِنَشر سِلسلة مَقالاتٍ في (المجلة الإفريقية) سنة 1935م، وقَد أحدثت الكاتبة بِمُساعدة زَوجِها الطبيب الفرنسي **بوهران موريس ڤانسان** (Maurice-Vincent) مَتحفاً بِنَفس القرية، وقد كان يتردَّد عليها كبار الكتَّاب وعلماء الآثار الجامعيِّين مِن الفرنسيِّين والأَجانب، وبقي عملهما مُستَمِراً إلى أَن استقلَّت البِلاد، وبقَوا بها ما يقرُب مِن سنة، ثمَّ تكلَّفت بالمحلِّ إدارة الآثار بالجزائر.

هذه فقَرات تتعلَّق بتاريخ هذه القرية ذكرناها بإِيجاز.

ولنرجع إلى الحديث عَن الخلاف الذي طرأَ في النُّطق بها، فإنَّ الجغرافيِّين القدامى، كالبكري والإِدريسي نَطقا بها أرزاو ـ بِفَتح الزَّاي، وسكونِ الواو ـ أما بقية الكتَّاب المسلمين فكانوا ينطِقون بها: أرزيو ـ بِكسر الزَّاي، وسكون الواو ـ ومنهم المؤرِّخ أبو راس الناصري (1165 ـ 1237هـ) فقد ذكَرها في معرض حديثه عَن مصير الَّلاجئين الأَندلسيِّين الذين لجؤوا إلى الجزائر بعد كارِثة سنة 1018هـ، ونزَلوا بِمرسى أَرزيو، كما

ذكرها الأَمير عبد القادر في مُعاهدتِه مع دو ميشال المؤرَّخة في فيفري 1834م، فقد اتَّفق في المعاهدة أن تكونَ مرسى أرزيو هي مقر الصَّادِرات والوارِدات مِن الحبوب، كما ذكَرها صاحب (**الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**) بأن إبراهيم قائد جيش الباي محمد بن عثمان وصهره كان بأرزيو قبل احتلال وهران سنة 1206هـ.

وقَد غيَّر اسمها الفرنسيُّون فسمَّوها بعد الاحتلال: أرزو ـ أي: بِضَمِّ الزاي ـ رغم أن الكاتب **دو صلان** (De Slane) الذي ترجم: (**المسالك والممالك**) للبكري رسمها كما كانت في الأصل ـ أي: أرزاو ـ وقيل إنَّ هذا التَّغيير طرأَ على هذا الاسم بِسَبب تأليف القسِّيس الإنكليزي شاو الذي أقام سنوات بالجزائر قبل الاحتلال بنحو القرن.

حافظ السكَّان المسلمون على النطق بها كما نطقَ بها كتَّابهم في العهد الإسلامي، كما حافَظوا على تسمية القرية الأَثرية أرزيو القديم، وأَخيرا تغلَّب اسم بطيوة عليها وأُهمِلَ الاسم الفرنسي.

ولنرجع إلى ذكر نبذة مِن تاريخ هذا البلدة، كانت أرزيو ـ أي: المرسى ـ مركزاً هاماً لأُسطول الموحِّدين، ثمَّ لعبت أدوارا في عهد دولة بني زيان الذين اتَّخذوها مرسى للوارِدات والصَّادرات التي كان أهمُّها الحبوب والمواشي والملح الذي يُستَخرج مِن مَعدنٍ قريب منها، حتى عُرِفت بمرسى بني زيان، وفي العهد التُّركي رغم قُربها مِن وهران التي كانت تحت حكم الأسبان فإنَّها حافظَت على استقلالها، وقَد ساهم أسطولها في الدِّفاع عَن مستغانم التي هاجمَها الكنت **دالكادوت** (D'Alcadante) (والي وهران، وصديق شارلكان الحميم)، حاول الكُنت دالكادوت احتلال مستغانم مرَّتَين، وفي الثالثة لقي فيها حتفَه [1] وخسر تسعة عشر ألف جندي، نِصفهم قتيل، والنِّصف

---

(1) مات **دالكادوت** في واقعة **مستغانم**، وفدى جثَّته ولده والي **وهران**، ودفنها بـ : **كنيسة سانت دومينيك**.

الآخر أَسير، كما امتاز سكَّان هذه النَّاحية بِعدم خضُوعهم للأسبان طيلة الثَّلاثة قرون التي بقي فيها الأسبان بمدينة وهران، وامتدَّ نفوذهم إلى عدَّة نواحي، وقد سجَّلت هذه البلدة في أوَّل عهدِ الاحتلالِ الفرنسي المعركة الخالِدة التي خاضها الأمير عبد القادر مع الجنرال تريزيل المشهورة في كتب التاريخ بـ (واقعة وادي المقطع)، وقد اكتشفت مقبرة الشُّهداء منذ سنوات على حافَّة الوادي، والمؤرِّخون الفرنسيُّون ـ وعلى رأسِهم الوالي العام بالجزائر ـ متَّفِقون أن الجنرال تريزيل هو الذي أدَّاه غرُوره وطموحه إلى تحدِّي الأمير بمجرَّد ما عيِّن قائدا على وهران خلفاً لـ : (دو ميشال) الذي أبرمَ المعاهدة مع الأمير في فبراير 1834م لخبر يَطول، ولما خاضَ أول معركة بِنَواحي سيق دامت ثلاثة أيام، تحقَّق أن استِخفافَه بِجيش الأمير خلاف ما كان يتصوَّره، فاختار طريق الاِنسِحاب إلى مدينة أرزيو، وجعلَ طريقَه على وادي المقطع فكانت الكارثة التي خسر فيها تريزيل كلَّ عتاده، ونَحو 300 قتيل، ووقع الهلَع في الباقي ففرُّوا عراة مشاة إلى أرزيو، والأميرُ وراءَهم إلى أَن وصَل إلى أبواب المدينة، وقد اتَّفق جلُّ مؤرِّخي هذه الواقعة أن الأمير لو أراد لدخلَ البلدةَ ولاستَسلمَ تريزيل وبقية جنده، إذ لما وصلوا مُنهزمين أَرسلوا إلى وهران ليبعثُوا لهم باخرةً ينتقَّلون عليها، ورفَضوا الذَّهاب مشاة ـ والمسافة قصيرة ـ ولتجنُّبِ الفضيحة أَرسلَ إليهم رائد مشهور ليقنِعَهم في صالح سمعة فيالقهم، أما الجنرال تريزيل فلَم يَسعه إلَّا الاِعتراف بِخطيئَتِه وبغلطاته وهزيمتِه.

هذه صفحات من هذه الناحية التي شاءت لها الأَقدار أن تُصبحَ بين عشية وضُحاها مَركزا لمنطقة صِناعية عالمية، وكلُّ ما تَنتظِره هو أن لا يتسرَّعَ بعضُ الجهلة إلى إِنشاء أسماء لبعض القرى لا صِلةَ لها بالواقع التَّاريخي كالقرية القَريبة مِن هذه المنطقة التي أَطلقوا عليها اسم: مرسى الحجَّاج، وكان الفرنسيُّون يُطلِقون عليها اسم: **مرسى الدَّجاج** (Port-Aux-Poules)، وهي بين وادي المقطع وبطيوة، كانت مِن المصايِف

المشهورة، وبعد الاستقلال ارتَجل بعضُ المسؤُولين المحليِّين اسم: الحجَّاج، بدَلا مِن الدَّجاج، إلا أنه لم يقف عندَ اختياره اسما جديدا لم يُعهد مِن قبل، بل أرادَ أن يُظهر معلومات جديدة في اللغة، فلما كانت الكلمة باللُّغة الفرنسية يزادُ في آخرِها سين للدَّلالة على الجمع، فَزيد نَفس الحرف ـ أي: السين ـ في أخر الكلمة العربية لنفسِ الدَّلالة، إذ صيغة الجمع غير كافية، فأَصبَحت: (**مرسى الحجَّاجس**)، وقَد كُتبت بأَحرفٍ غليظة في مَدخل القرية، ورغم أنَّها مكتوبة بالفرنسية وبالعربية إِلَّا أنَّ سينَ آخر الحجَّاج حيَّر قرَّاء العربية، أما قرَّاء الفرنسية فإِنَّهم لم يجدوا في الكلمة ما يحيِّرهم.

فهرس الموضوعات